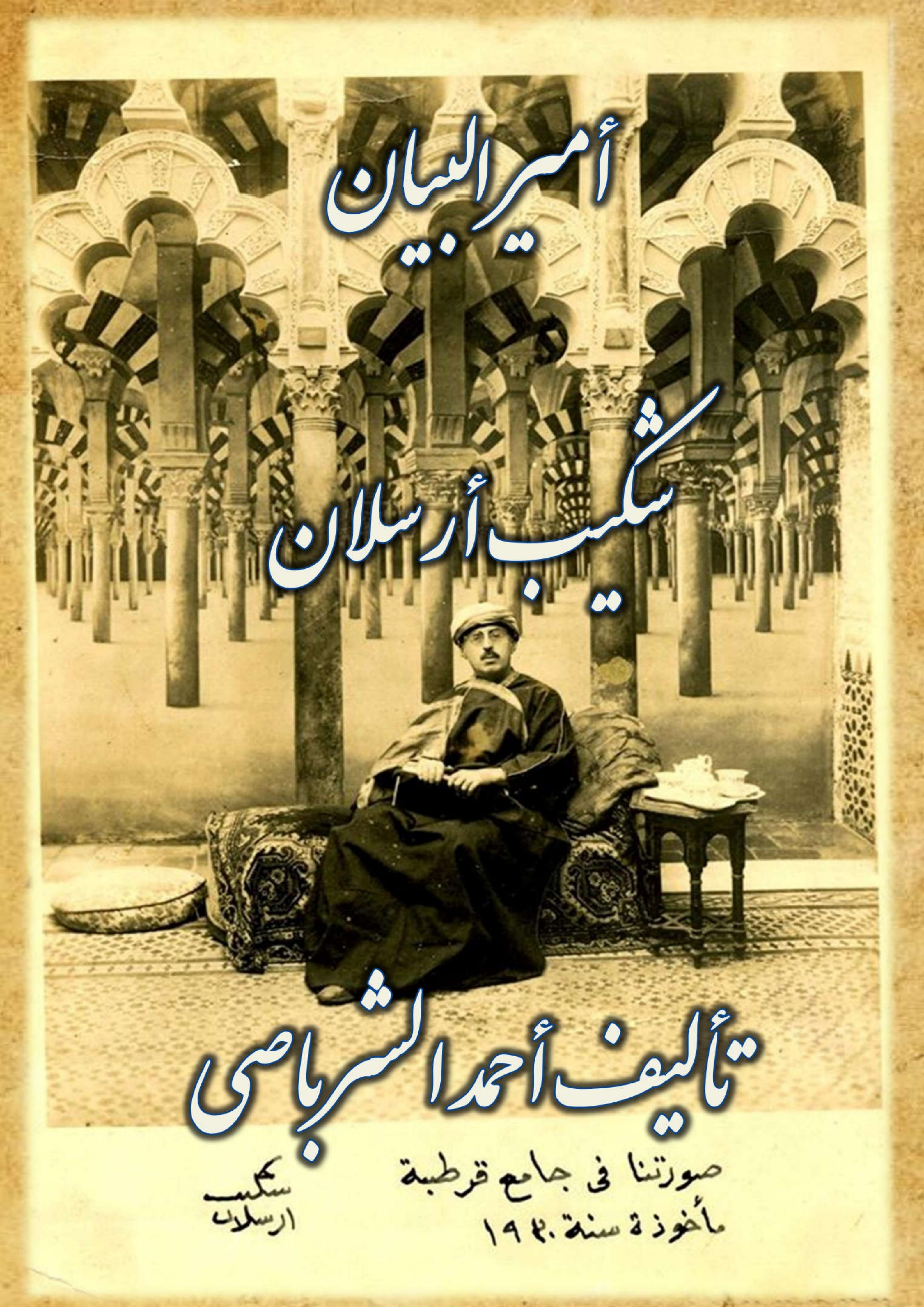

أمير البيان
شكيب أرسلان
تأليف أحمد الشرباصي
صورتنا فى جامع قرطبة
مأخوذة سنة ١٩٣٠
شكيب
ارسلان

أمير البيان

شكيب أرسلان

هدية
لأخي الجليل
الأستاذ أحمد محب الشرباصي
مع أطيب التحيات
أحمد الشرباصي
أول أكتوبر ١٩٦٢

تأليف

أحمد الشرباصي

الجزء الأول

١٣٨٣ — ١٩٦٣

مطابع
دار الكتاب العربي بمصر
محمد حلمي المنياوي

الطبعة الأولى

١٣٨٢ هـ — ١٩٦٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله تبارك وتعالى ، وأصلى وأسلم على أنبيائه ورسله ، وعلى خاتمهم محمد وآله ، وصحبه وأتباعه ، ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين ، وأستفتح بالذى هو خير :

« رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ، وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا ، وَإِلَيْكَ الْمَصِيرِ » ..

بين يدى البحث

هذا الكتاب كان موضوعاً لرسالة تقدمت بها إلى معهد الدراسات العربية العالية ، لنيل درجة « الماجستير » فى الدراسات الأدبية واللغوية .

وقد نوقشت هذه الرسالة مساء يوم الثلاثاء ١٢ من شعبان ١٣٨٢ هـ الموافق ٨ من يناير ١٩٦٣ م ، فى جلسة علنية بالمعهد حضرها جمهور حاشد ، وكانت لجنة المناقشة مكونة من الأستاذ محمد خلف الله أحمد وكيل جامعة عين شمس ، والدكتور إسحق موسى الحسينى رئيس قسم الدراسات الأدبية واللغوية بمعهد الدراسات العربية العالية ، وبعد مناقشة ممدودة قررت اللجنة منح صاحب الرسالة شهادة « الماجستير » بدرجة « ممتاز » ، وأن يقوم المعهد بطبع هذه الرسالة « تقديراً لها من ناحية ، وتعميما للفائدة منها من ناحية أخرى » .

وجاء فى قرار اللجنة ما يلى :

« تبين أن مقدم الرسالة :

أولا : أحاط بموضوعه أوسع إحاطة ، وأعطاه حقه كاملا من العناية والاستقصاء والتثبت من جزئياته المطبوعة والمخطوطة .

ثانياً : أنه رحل فى طلب مادة الرسالة إلى عدد من البلدان العربية فى سبيل إتمامها ، وقابل عدداً من الأشخاص ليأخذ منهم العلم مشافهة ، اقتداءً بالسلف الصالح .

ثالثاً : أنه بعد أن جمع المادة من مصادرها نظّمها ، وبوّبها ، وغربلها ، وعرضها عرضاً علمياً جاياً حسب أصول النقد الحديث .

رابعاً : أنه وصل إلى نتائج لها قيمتها فى تاريخ العصر من ناحية ، وفى حياة عَلَم من أعلام النهضة الأدبية والقومية من ناحية أخرى .

خامساً : أنه عرض موضوعه بأسلوب متين العبارة دقيقها .

سادساً : أنه كان موفقاً فى تلخيصه ودفاعه عن آرائه ، بقدر ما كان موفقاً فى إعداد الرسالة » .

* * *

وكان مما قاله الأستاذ محمد خلف الله أحمد فى أثناء المناقشة :

« أشكر لفضيلة الزميل أبى (ى) الأستاذ الشرباصى هذا العرض الجميل لرسالته الذى أرجو أن يتخذ منه طلبة العلم نموذجاً لما ينبغى أن يكون عليه تلخيص الرسائل العلمية ، ولما ينبغى أن يكون عليه البيان العربى القوى السمح ، وليس هذا بكثير على الشيخ الشرباصى .

والرسالة التى ناقشها رسالة مكتملة النمو ، تحققت فيها صفات الرسائل العلمية الكاملة ، من سلامة القصد ، وسلامة المنهج ، وسلامة البناء ؛ وقد توافرت لصاحبها أدوات النجاح ، من تمرس بالبحث والنقاش ، وفهم واع لمراحل النهضة العربية ، وأحداثها السياسية ، وتياراتها الثقافية والروحية ؛ توافرت لصاحبها هذه الأدوات جميعها ، ولو أردنا دليلا غير هذه الرسالة لكان أن نلتمسه فى كتب أخرجها صاحب الرسالة تقارب عدد الماضى من سنى حياته المديدة إن شاء الله .

والرسالة — بهذا — جديرة بأن نهنئ بها صاحبها ، والأستاذ الصديق العالم الذى أشرف على إعدادها ، والمعهد الذى يهيئ لمثيلاتها بيئة علمية تعين على الدرس الجاد ، وتوجه إلى الخصب الصالح من موضوعات البحث .

وأنا سعيد بما أتاحه لى المعهد من مشاركة فى مناقشة هذه الرسالة ، وفى نقد المجهود المثمر الذى بذله صاحبها قراءة وجمعاً ، وفحصاً ونقداً ، واستقصاء للمعلومات من مختلف مصادرها كما سمعنا فى التلخيص ، ما بين أشخاص ، وكتب ، وصحف ومخطوطات .

ومن الحق أيها السيد الأخ الباحث أن نقول : إن هـذه الرسالة إلى جوار ماذكرت مما بذلت فيها من جهود ، كان اختيار موضوعها موفقاً ملهماً ؛ فشكيب أرسلان الذى جعلته موضوعاً لبحثك كان إماماً من أئمة العصر الذى عشناه ، وعشت أنت بعض حلقاته ، وشهدنا تطوره . وكان أديباً ناقداً ، عنى بأن يؤرخ لنفسه ولنسبه وحياته ، وتتلمذ على كثيرين ، واتصل بكثير من الأساتذة والمصاحبين الأدباء ، وكان بينه وبينهم تراسل ونقاش — كما بينت — وبهذا أتاح شكيب الأديب للشرباصى الباحث أن يجمع شتات هذه المادة ، ويسلط عليها منظاره الكاشف ، ويُحكم رباط حلقاتها ، ويخرج من دراسته الجادة المتأنية بنتائج ذات بال ، تضيف جديداً إلى دراساتنا الأدبية المعاصرة .

وإذا كان شكيب قد أتعبك ؛ فلا شك أنك قد أتعبتنا ، والله يشهد أنك قد أمتعتنا . أتعبتنا فى تتبع هذا المجهود الضخم ، وفى تقصيه ، ولكنك أمتعتنا ، وأنا أشهد أننى قد أفدت من صحبة هذا البحث ، ومن تتبعه ، كما سأبين بعد قليل .

وأنا أشعر أننا هنا فى جلسة علمية خاصة ، وليست مناسبة عادية من مناسبات نقاش الرسائل ، وأرجو أن نفيد جميعاً من هذه الجلسة ، وأن يفيد منها أبناؤنا طلاب العلم .

ولست أنسى أن أقول إن المادة التى تقدمها لنا الرسالة ممتازة وفوق الممتازة ، والله يديم النفع بصاحبها » .

* * *

وكان مما قاله الدكتور إسحق موسى الحسينى فى أثناء المناقشة :

« هـذه الرسالة هى الأولى فى موضوعها فى هذا المعهد ، وأعتقد أنها الأولى فى سائر الكليات والبلدان العربية فى هذا الموضوع كذلك ، فهى رسالة بكر .

إننى أثنى على رسالتك هذه ، وأثنى عليك ثناء لا حد له ، لثلاثة أسباب :

الأول : أنك وأنت فى العقد الخامس من عمرك ، وقد ألفت فوق الثلاثين كتاباً ، ومع ما قدمت من خدمة للعلم والأدب والشباب ؛ قد حرصت على أن تقتدى بالسلف الصالح الذين رأوا أن طلب العلم من المهد إلى اللحد ، وهذا أمر يجب أن نذكره دائماً ، لأن كثيراً من الناس يتكبرون على العلم ، ويظنون أنهم قد أنهوا العلم ، وأن العلم فى جيوبهم ، مع أن العلم لا ساحل له ، ويجب أن نطلب العلم من المهد إلى اللحد ، اقتداء بالسلف الصالح من ناحية ، والتزاما للاتجاه العلمى الصحيح فى هذا الزمن من ناحية أخرى .

هذه الميزة التى نلاحظها فيك ممتازة .

والأمر الثانى الذى لاحظته وأنا أشرف على هذه الرسالة : أنك أظهرت روحا علمية عظيمة ؛ فقد كنت رحب الصدر ، تتقبل النقد ، وتشارك فى المناقشة ، وتدافع حيناً ، وتقبل حيناً ، وترضى عن النقد بروح عظيمة جداً ، وحبذا وجود هذا الروح فيك وفى غيرك من الباحثين .

والأمر الثالث: أن الرسالة فى نفسها رسالة ممتازة حقاً ، لقد استقصيتَ الموضوع من أوله إلى آخره ؛ ولم تترك ناحية دون أن تجلوها أتم جلاء ، سافرت إلى مواطن شكيب ، واجتمعت بأسرته ، ونقبت فى كتبه ومخطوطاته ، وتتبعت الصحف والمجلات ، واعتبرتها مصدراً رئيسياً فى الموضوع ، مع أن كثيراً من الناس يهملون هذا المصدر .

فأنت فى الواقع لم تترك شاردة ولا واردة ، وكنت فى كل هذا منصفاً ، تعطى الأمير ماله ، وتنقد ما يستحق النقد ؛ وهذه أيضاً ميزة عظيمة ، ومن حقك أن أهنئك بهذه الرسالة ، وأعتبرها بحق من أعظم الرسائل التى جاءت إلى هذا المعهد »

* * *

وفيما يلى الكلمة التى قدمتُ بها الرسالة عند بدء المناقشة :

بسم الله الرحمن الرحيم :

حينما افتتح معهد الدراسات العربية العالية أبوابه فى أواخر عام ١٩٥٣ م كنت ضمن المجموعة الأولى من طلابه ، وانتسبت إلى قسم الدراسات الأدبية واللغوية فيه ، ولم أجد أى غضاضة فى أن أكون صباحا مدرساً فى الأزهر الشريف ، وأن أكون بعد الظهر طالباً فى المعهد ، فطلب العلم شرف لكل إنسان ، ووقت الطلب يمتد من المهد إلى اللحد كما علمنا الإسلام العظيم .

ومازلت أذكر حفلا جامعاً أقيم لافتتاح هذا المعهد ، فى السابع من نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٥٣ م ألقى فيه الأستاذ الكبير ساطع الحصرى العميد الأول لهذا المعهد المحاضرة الافتتاحية ، وأبان فيها الغاية من إنشائه ، وهى باختصار : نشر الثقافة العربية ، وتنشيط الوعى القومى فى العالم العربى ، مع إشاعة الشعور بوحدة الأمة العربية ، وبث الإيمان بمستقبلها .

هناك — إذن — أمور أربعة ، هى : الثقافة العربية ، والقومية العربية ، والوحدة العربية ، والإيمان بمستقبل الأمة العربية ؛ وقد عاش أمير البيان شكيب أرسلان لهذه الأمور الأربعة ، فوق خدماته للاسلام والمسلمين ، فهو مترهب فى خدمة الثقافة العربية ، يطلبها ويعرضها ، ويدافع عنها ويزيد فيها ؛ وهو مؤمن بالقومية ، ومن قوله : « كل رجل يتمسك بعوائد ومميزات قومه فاعلم أن فى روحه شمما حمله على ذلك » . ويقول : « إنه خير للمرء أن يكون راعى ضأن فى عز قومه من أن يكون السلطان الأعظم على قوم أذلاء » .

وهو مؤمن بالوحدة العربية ، ولذلك يقول : « إن الأمة العربية سائرة إلى الوحدة ، مهما عارض فى ذلك اللئام من أعدائها ، والمتفلسفون من أبنائها ،

وإن هذه الوحدة آتية لاريب فيها » . ويقول مصوراً إيمانه بمستقبل الأمة العربية « إن العرب الذين فى العالم لا يقدر أن يبتلعهم أحد ، والمستقبل هو لهم » .

ومن العجيب أن الأستاذ المصرى عُنى فى محاضرته الافتتاحية برد كثير من الكلمات الأوربية فى ميادين الصناعة والزراعة والفلك إلى أصولها العربية ليدلل بذلك على عمق تأثير الأمة العربية فى الحضارة الغربية .

وقد كان شكيب مولعاً بتتبع هذه الألفاظ وردها إلى أصولها ؛ وقد ذكرت طائفة من شواهد هذا الولوع عند تحدثى عن لغويات الأمير شكيب .

بل الأعجب من ذلك أن هذا المعهد أنشأته جامعة الدول العربية ، وشكيب أرسلان كان أول من دعا إلى إنشاء « جامعة عربية » ، وذلك بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة . ويقول عن هذه الجامعة إنها « نكتة المحيا (أى نقطته) ، ونشيد آمالنا فى هذه الدنيا » .

وإنى لعربى مسلم أزهرى ، أعتز بالعروبة ، وأومن بالإسلام ، كما أومن بوجوب توثيق العلاقات بين العروبة والإسلام ، وشكيب من القلائل الذين بذلوا جهوداً واضحة فى مجال هذا التوثيق ، حتى إنه ليرى غيرته على عروبته جزءاً من عقيدته . وهو القائل عن طرابلس الغرب بمناسبة حربها مع إيطالية سنة ١٩١١ :

ترى النفس ديناً وقفةً فى صفوفها ... قضاءً عن الأرحام بعضَ ديونها
فما الشام ، والنيل السعيد ، ودجلة ... سواها ، لدى أفراحها وشجونها
ووالله لا أعطى القِيادَ لظالم ... ولما أرد بالنفس حوضَ منونها
إذا بات إخوانى ببرقة سهداً ... فكيف تنام العين ملء جفونها ؟

أوليست هذه كلها مسوغات لمثلى كى يؤثر شكيب أرسلان بالبحث والحديث فيختاره موضوعاً لرسالة يقدمها فى الدراسات الأدبية واللغوية ؟ ... وكذلك كان ولكن شكيب أرسلان شخصية « متعِبة متعَبة » ! . إنه رجل متعب لمطالعه

وباحثه والكاتب عنه ، فقد طال عمره وكثر عمله ، وظل يكتب أكثر من ستين عاماً ، وكان كالغيث الهاطل المدرار في كتابته ، حتى تصعب ملاحقته ومطالعته ، فقد ألف ونشر عشرات من الآثار والمؤلفات ، وكتب الآلاف من المقالات والبيانات والرسائل ، وتفرقت هذه الآثار : ما بين كتاب ومجلة وجريدة وقرطاس وصندوق مغلق ؛ كما تفرقت مابين الشرق والغرب ، فكتاب يطبع في لبنان ، وثان في مصر ، وثالث في سورية ، ورابع في أميركة ، ومجلة تطبع في سويسرة ، وهلم جرا . وهذه مقالاته تتفرق في مجلات تصدر في بلاد العروبة ، ومجلات في بلاد الإسلام ، ومجلات في أوربة ، ومجلات في أميركة . إلخ .

وهو رجل متعب . أتعبه طول الكتابة والغربة والمناضلة والارتحال ، لقد أتعبه طول الكتابة حتى أصيبت يده بما يشبه الشلل ، فأصبح عاجزاً عن الكتابة ، واحتاج إلى الإملاء على سواه ، وأتعبه طول الغربة ، فقد ظل ربع قرن بعيداً عن وطنه لبنان ، ومرت عليه سنوات وهو ممنوع — بحكم الاستعمارين الإنجليزي والفرنسي — من دخول أي قطر عربي ، سوى الحجاز الذي يضم البلدين الشريفين مكة والمدينة .

وأتعبه طول الارتحال ، فهو لم يترك قطراً عربياً دون أن يرحل إليه ، ورحل إلى أغلب بلاد العالم الإسلامي ، كما رحل إلى بلاد أوربة وأميركة .

وأتعبه طول النضال ، فقد ناضل من أجل لبنان ، وناضل من أجل بلاد الشام ، وناضل من أجل العروبة والعرب ، وناضل من أجل الإسلام والمسلمين ، وناضل أعداءه مدافعاً عن نفسه ، مفنداً لافتراءاتهم عليه ، وأتعبته المواقف المختلفة العصيبة القاسية التي مرت به ، وكان من الصعب عليه أن يجمع أزمّتها في يده على النحو الذي يريد ويهوى ، وبين هذه المواقف ما بينها من تعارض أحياناً ، ومن تناقض أحياناً أخرى ، وأتعبته سهام التجريح والافتراء والتطاول عليه من حساده وأعدائه ، ولقي بسبب ذلك ما لقي من أحزان وأشجان .

وقد تعبتُ من شكيب حيناً ، وتعبت له أحياناً ؛ فقد كان لزاماً عليَّ أن أتجرد عند بحثه ، حتى أكون موضوعياً فى الدراسة ، ولكنى كنت قد أعجبت به منذ عهد بعيد ، حين طالعته وأنا فتى بلغته العربية الفخمة ، وروحه الإسلامية البادية ، فكان لا بد لى أن أتخلص من الطوق الذهبى لسحر هذا الإعجاب وأظن أنى قد فعلت ، وأنا على ثقة من أننى قد تعبت حتى تخلصت .

وشرعت أقف لشكيب ؛ آخذ منه وأرد عليه ؛ ثم خشيت أمراً آخر وهو أن يكون حرصى على نقده — لأظهر بمظهر المتجرد فى دراسته — سبباً فى ظلمه أو هضمه ، فعدت أتعب نفسى لأحملها ما استطعت على شرعة الإنصاف والعدل

ومضيت أقرأ لشكيب وأقرأ عنه ، وجمعت كل ما استطعت من مصادر ومراجع ، وفى طليعتها كتب شكيب وآثاره ، وعكفت على المجلات والصحف التى أكثر الكتابة فيها ، مثل مجلة المجمع العلمى العربى ، والفتح ، والشورى ، والمشرق ، والشباب ، والعلم ، وغيرها ، ولجأت إلى أصدقائه فى مصر ولبنان وسورية ، فاستمعت إليهم ، وأفدت منهم ، ولقيت زوجة شكيب أكثر من مرة ، فى القاهرة ، وفى بيروت ، كما لقيت أولاد شكيب ، وهم : غالب ومى وناظمة .

ورحلت إلى بيت شكيب الذى وُلد فيه بالشويفات بلبنان ، وفيه قابلت شقيقه الأمير حسن أرسلان ، وحادثته طويلاً عن أخيه وتراثه وأسرته ، ولمست من الرجل — مع الأسف — انصرافاً عن الموضوع ، وعن العناية بنشر تراث أخيه ؛ فهناك صناديق كثيرة تحوى آثاراً ومخطوطات لشكيب ، والطريق إلى فتحها مسدود . ووقفت على قبر شكيب معتبراً متذكراً فوق ربوة من ربوات « الشويفات » .

وكنت قد نظَّمت من قبل حفلاً كبيراً لذكرى شكيب فى المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين بالقاهرة فى ١٣ ديسمبر ١٩٥٤ م تحدثت فيه ، وتحدث فيه

المرحوم محمد علي علوبة ، والحاج أمين الحسيني ، والأستاذ علال الفاسي ، والدكتور عفيف عبد الصمد ، والأستاذ أبو السعود الجهني ، وهذا يدل على قديم عنايتي بأمير البيان وكاتب الإسلام . وعشت مع شكيب أغاديه وأراوحه ، ورزقت في أثناء ذلك بنتاً فسميتها (مي) على اسم بنت شكيب ، ومرت سنوات والموضوع على مرأى مني ، غير بعيد عن يدي ، ولا أزعم أني كنت متفرغاً له ، أو عاكفاً عليه خلال تلك المدة ، ولكني كنت أنقطع عنه حيناً أو أحياناً ، ثم أفزع إليه ، وتشغلني شواغل الحياة أو المجتمع ، ثم أجد فرصة بين توالي الشواغل فأقبل عليه .

وكبر موضوع شكيب أمامي وضخم ، إذ تهيأت أمامي مادة ضخمة لأبواب كثيرة يمكن أن أكتبها عن شكيب : فشكيب والقومية العربية ، وشكيب والعالم الإسلامي ، وشكيب وآراؤه في الحياة ، وصفات شكيب ، وأخلاق شكيب ، وعيوب شكيب : هذه وأمثالها أبواب لها بين يديّ مادة كبيرة ، ولكن الرسالة مقدمة إلى قسم الدراسات الأدبية واللغوية ، فينبغي أن تدور في هذا الفلك ، ولذلك اكتفيت فيها بالحديث عن عصر شكيب ، وحياته ، ونثره ، وشعره ، وآرائه في النثر والشعر ، وجهوده اللغوية ، وكتبه وآثاره ، معتزماً أن أجعل ما بقي لدي من مواد عن شكيب أساساً لبحث آخر عن حياته وشخصيته .

وقد جعلت الرسالة في سبعة أبواب وخاتمة ، ولها ملحقان ، وتحدثت في الباب الأول عن عصر شكيب ، وهو عصر طويل عريض ، ممتلىء بالأحداث الجليلة والوقائع الخطيرة ، وكان لا بد لي في هذا الباب من كبح جماح القلم ، حتى لا يتأثر باستطالة العصر واستعراضه ، فقمت بواجب التصفية والانتخاب ، حتى أقتصر قدر الطاقة على الأحداث المتصلة بحياة شكيب أو أدبه من واقع هذا العصر ، في الجهات الثلاث : السياسية والاجتماعية والأدبية .

وفي الباب الثاني تحدثت عن حياة شكيب ؛ وهذه الحياة بتفاصيلها ووقائعها

تحتاج عند الاستقصاء إلى رسالة ، فقد كانت حياته متحركة نامية عامرة بالقول والعمل والنشاط ، حتى يحق له أن يتمثل بقول شوقى :

يومى بأيام ، لكثرة ما مشت فيه الحياة ، وليلتى بليالى !

وقد عنيت فى هذا الباب بصفة خاصة بالأحداث والوقائع والمؤثرات التى كانت فى حياة شكيب ، ولها اتصال مباشر أو غير مباشر بأدبه وكتبه ، وأكاد أزعم لنفسى أنى فى هذا الباب قد أعطيت صورة متكاملة الملامح لحياة شكيب وهى صورة غير مسبوقة بوصفها الذى ذكرته فيما أحسب .

وفى الباب الثالث تحدثت عن شكيب الناثر ، وحققت مصادر ثقافته ، وحددت الذين أثروا فى شكيب من معاصريه أمثال : عبد الله البستانى ، وسعيد الشرتونى ، ومحمد عبده ، وجمال الدين الأفغانى ؛ ومن سابقيه أمثال : الجاحظ وابن المقفع ، والخوارزمى ، وبديع الزمان الهمذانى ، وأبو إسحق الصابى ، والمقرى وابن خلدون .

ودرست السجع فى كتابة شكيب ، والدواعى التى حرضته عليه ، وكيف تخفف منه منتقلا إلى الترسل ، وكيف عاد فتردد بين السجع والترسل فى بعض الأحيان ، ودرست ظاهرة استعانة شكيب بالجملة القرآنية فى أدبه ، وظاهرة « الجلجلة » فى عبارته أحيانا ، وبينت طريقته فى التأليف ، وما لها من مناقب ومثالب . ثم تحدثت عن اللقب الذى ذاع وشاع ، وعرف به شكيب ، وهو لقب « أمير البيان » .

كما أبنت الوشائج التى تربط أدب شكيب بحياته وأحداث عصره ، وذكرت ما لهذا الارتباط بين الكتابة ووقائع الحياة من محاسن ومساوىء عند شكيب .

وفى الباب الرابع تحدثت عن شكيب الشاعر ، فذكرت مقومات شاعريته والذين أثروا فى هذه الشاعرية ، وفصلت القول عن دواوينه ، وعنيت بالحديث عن

النسخة المهمة التي حصلت عليها من ديوان شكيب الأول « باكورة » ، وعليها تعليقات وتصحيحات وزيادات وحذف بخط شكيب نفسه ، وأبنت الدوافع التي دفعت إلى هذا التغيير الذي حدث في شعره وقام به شكيب .

وتحدثت عن أغراض شعره من المديح ، والرثاء ، والوصف ، ومحاولة الملحمة ، وأبنت ما ناله من توفيق في هذه الأغراض ، وما أصابه فيها من إخفاق ، وبحثت تقليده للسابقين في المعنى واللفظ ، وتقليده لمعاصريه أحيانا . كما تحدثت عن ظاهرة « التكسب الأدبي » بالشعر عند شكيب ، ولعل هذا المعنى لم يعرض له متحدث عن شكيب من قبل .

وأما الباب الخامس وهو بعنوان (شكيب الناقد) فقد جعلته في فصلين . الفصل الأول عن آراء شكيب في الشعر ، والفصل الآخر عن آرائه في النثر ، وفي الفصل الأول بحثت موقفه من قضية القديم والجديد ، ومن موضوع الشعر الجاهلي ، وأظهرت ما يعرض لأحكامه أحيانا من تعميم أو اضطراب . وأوضحت كيف قدم رجلا وأخر أخرى في تحديد «أمير الشعراء» في رأيه ، ورددت عليه قوله : إن حافظ هو إمام النثر غير مدافع .

وفي الفصل الآخر من هذا الباب تحدثت عن رأيه في القديم والجديد ، وفي مكانة الأدب ، وأدوات الأديب ، وأظهرت عيوبه في المناقشة .

وأما الباب السادس فقد جعلته عن (شكيب اللغوي) ، وأثبت أن شكيب كان من الرواد في حركة البعث اللغوي ، وأنه بكر إلى العناية باللغة ، وأولع بالمساجلات اللغوية مع أعلام عصره ، مثل إبراهيم اليازجي ، والسيد رشيد رضا ، وأحمد شوقي ، ومي زيادة ، وبذل جهوداً مشكورة في تعريب الأعلام ، ووضع المصطلحات ، ورد العامي إلى الفصيح ، مما كان مقدمة من المقدمات لجهود المجامع اللغوية فيما بعد .

وشرحت ظاهرة عجيبة عند شكيب اللغوى ، وهى جمعه الحفاظ الظاهر على اللغة والمنافحة عنها ، إلى الدعوة للتوسع فيها وتطعيمها بالمولد والمعرب وما لم يرد فى المعاجم مما استعمله كبار الأدباء والشعراء وأهل الصناعات والحرف .

ولم أنس أن أنص على طائفة من أخطاء شكيب اللغوية ، ويخيل إلى أن هذا باب ضخم من أبواب الرسالة ، لعل له قيمة .

وأما الباب السابع فقد جعلته عن كتب شكيب وآثاره ، وهو باب طويل عريض، قسمته إلى ثلاثة فصول : الفصل الأول عن مطبوعات شكيب ومنشوراته ، والفصل الثانى عن مخطوطاته الكاملة أو الناقصة ، والفصل الثالث عن كتب شرع فيها ، أو نوى وضعها ، أو اقترحها عليه مقترحون . واستطعت أن أتحدث فى هذا الباب عن أكثر من أربعين كتابا ما بين مطبوع ، ومخطوط ، ومنوى ، أو مقترح .

وإذا عرفنا أن الذين تحدثوا من قبلى عن كتب شكيب لم يبلغوا بها العشرين عدا ، ظهر مبلغ الجهد الذى بذلته فى استقصاء هذه الآثار وإحصائها ، مع وصفها ، وتحليلها ، والتعليق عليها كلما أمكن ذلك . وأبنت الدوافع التى دفعت إلى تأليفها ، وتأثرها بهذه الدوافع .

ويخيل إلى أن هذا الإحصاء يصلح ليكون معوانا للذين يفكرون يوماً فى نشر مؤلفات شكيب وآثاره المختلفة .

وقد أشرت فى هذا الباب إلى الجهد المضنى الذى بذلته فى سبيل الحصول على ترجمة شكيب لحياته بقلمه ، وأبنت كيف رحلت من أجل ذلك إلى القدس ، وكيف استعنت خلال مدة متطاولة بالأستاذ عبد العزيز حسين سفير الكويت بالقاهرة الآن ، والشيخ عبد الله غوشة رئيس الهيئة الإسلامية بالقدس ، والشيخ عبد الحميد السائح رئيس محكمة الاستئناف بالقدس ، والأستاذ عارف العارف

المؤرخ القدسي ، والأستاذ روكس بن العزيزي الأديب الأردني ، والأستاذين محمود يوسف حبية وصالح الخيمى المدرسين بمدارس القدس سنة ١٩٥٥ م .

ولقد قمت بإحصاء شامل لكل الكتابات التي كتبها شكيب ، وكل ما كُتب عنه في مجلات : الشورى ، والشباب ، والعلم المصرى ، والمشرق ، والزهراء ، وتكوَّن من ذلك عندى قوائم طويلة فيها مئات المقالات ، وهى بين يدى الآن ، وخشيت أن أثبتها فى الرسالة فتثقل بها ، ولن نعدم الانتفاع بها فى مجال آخر .

وعقب الباب السابع تحدثت عن مكانة شكيب فى التاريخ ، وعما صنعت الأيام بآرائه وجهوده ، وكيف تحقق الكثير مما دعا إليه ، وحالت حوائل دون تحقق القليل منه ، ثم لخصت نتائج البحث ، حيث ذكرت قرابة عشرين نتيجة .

هذا وقد ألحقت بالرسالة ذيلين لها ، أما أحدهما فمجموعة شعرية تضم أكثر من عشرين قصيدة ومقطوعة لشكيب لم تنشر فى ديوانيه ، وقيمة هذه المجموعة تبدو فى أنها خطوة لاستكمال تراث شكيب الشعرى ، وهى تعين على استكمال عناصر الحكم على هذا التراث ، وقد استشهدت بالكثير من هذه القصائد فى مواطن متفرقة من الرسالة .

وأما الملحق الآخر فهو مجموعة من رسائل خطية لشكيب أرسلها إلى صديقه وأخيه السيد محمد رشيد رضا خلال عشرين عاما تقريبا ؛ وقد وفقنى الله تعالى إلى جمع ما يقرب من مائة وثلاثين رسالة من هذه الرسائل ، وتم لى جمعها خلال سنتين بفضل الله تعالى ، ثم بمعاونة الأخ الأستاذ المعتصم رضا ، وما زلت أواصل البحث لاستكمالها . وقد كان بودى لو وضعت كل هذه الرسائل فى هذا الملحق ؛ لأنها ذات قيمة أدبية وتاريخية وقومية ولغوية ، ولكنها أوسع نطاقا من طاقة الملحق ، ومن طاقة الرسالة أيضا .

ولذلك اكتفيت مضطراً بخمس وخمسين رسالة منها ، واخترت الرسائل التي يعرض فيها حديث أدبي أو لغوي بين شكيب ورشيد ، وهذه الرسائل تلقي ضوءاً على شخصية شكيب الأدبية واللغوية بجوار الأضواء الأخرى التي تلقيها ؛ وقد استشهدت بهذه الرسائل في مواطن مختلفة من الرسالة ، مما يجعل هذه المجموعة وثيقة الصلة بالرسالة . وأرجو أن تتيسر لي دراسة هذه الرسائل مجتمعة مجال آخر .

أما بعد ، فإني أشكر لأستاذي الدكتور إسحق موسى الحسيني إشرافه على الرسالة ، وتوجيهاته التي أرشدت فيها ، وسددت الخطوات على طريقها ، كما أشكر لأستاذنا محمد خلف الله أحمد وكيل جامعة عين شمس مشاركته في مناقشة الرسالة وأشكر معهد الدراسات العربية العالية ، لما هيأ من أسباب الدراسة من جهة ولتقبله هذه الرسالة من جهة أخرى .

وأشكر أسرة المرحوم أمير البيان شكيب أرسلان ممثلة في شريكة حياته العظيمة ، كما أشكر أسرة المرحوم السيد محمد رشيد رضا ممثلة في نجله الأستاذ المعتصم رضا الذي أمدني برسائل شكيب إلى والده ، وأذن لي بطبعها ونشرها مع الرسالة .

هذا موضوعي ، وذاك منهجي ، وذلك جهدي ، لا أزعم أني بلغت به الكمال ، ولكني على ثقة من أنني بذلت طاقتي ، وأخلصت لعملي ، وعلى المرء أن يسعى ، وعلى الله إتمام المقاصد ، وشكراً لكم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أحمد الشرباصي

فاتحة البحث[1]

لماذا اخترت « شكيب أرسلان » موضوعا لهذا البحث ؟ .

لقد نشأتُ فى بيئة عربية مسلمة ، وتعلمت فى الأزهر الشريف ، ثم اشتغلت فيه مدرساً ، وحاولت أن يكون لى — بجوار التدريس — نصيبٌ ما فى الدعوة إلى الإسلام ، مع الاعتزاز بالعربية والعروبة .

وتطلعت بخاطرى إلى « شكيب أرسلان » فإذا هو « أمير البيان » ، وإذا هو يقضى عمرَه الطويلَ المباركَ فى خدمة الإسلام والعروبة ، ويخرج على الناس بكتب قيِّمة فيها عن المسلمين دفاع ، ولقضايا العروبة تأييد ، فوق ما يتجلى فيها من بيان مُشْرِق ، يوجز حيناً فلا يقصِّر ، ويسهب أحياناً فلا تبعد عنه الإجادة ، فوق ما تتحلى به من عنايةٍ بلغة القرآن وأدب العرب .

وإذا بى أتذكر أنى كنت منذ أيفعت كلما قرأت اسم شكيب ، أو سمعت به ، أو قرأت له ، أحببتهُ وأقبلت عليه وتغنيت به ، وقرنت اسمه إلى أسماء طائفة كريمة من الأعلام الروّاد فى تاريخنا العربى والإسلامى القريب ، أحبهم وأعجب بهم ، منهم جمال الدين الأفغانى ، ومحمد عبده ، ومحمد رشيد رضا ، وأحمد تيمور ، ومصطفى صادق الرافعى ، وأحمد شوقى ، وعبد العزيز جاويش ... إلخ .

وأحسست كأن بينى وبين شكيب ما يشبه النسبَ لأكثر من سبب ، وإن كان أميراً وأنا من عامة الشعب الذى يحيا بلا ألقاب ، وكان أميراً للبيان وأنا مازلت على طريق الطلب للأدب .

---

(١) كان هذا الفصل فى أصل الرسالة أوسع من ذلك ، ولكنى اختصرته ، إذ تكفلت كلمتى السابقة فى تقديم الرسالة ببيان كثير من مسائل هذا الفصل .

وحدثتنى النفس بأن شكيب أرسلان موضوع ملائم لمثلى حين يكتب بحثاً فى مجال الدراسات الأدبيـة واللغوية ، فإن عصره حافل بالأحداث السياسية والاجتماعية والأدبية ، وإن عروبته مع غيرته على العرب مما يرضينى فى باب قوميتى وعروبتى ، وكتاباته عن الإسلام مع مدافعته عن المسلمين مما يرضينى فى باب يقينى وعقيدتى ، وكتبه وآثاره التى تنقلت بين التأليف والتحقيق والتعليق ، وتنوعت مابين نشر وشعر ، وتعددت صورُها وألوانها : من تقليد ومتابعة ، إلى صنعة بارعة ، إلى تحرر واسترسال ، كافيةٌ لتهيئة مادة أدبيـة يجول فيهـا قلم الباحث بالدراسة والتمحيص .

* * *

وحينما اخترت الموضوعَ وسجلته فى عام ١٩٥٥ م لم تـكن هناك أى دراسة عن شكيب ، اللهم إلا مجموعة كلمات الرثاء والتأبين المسماة « ذكرى الأمير شكيب أرسلان » ، فكان هذا دافعاً آخر يدفعنى إلى إيثار شكيب بالبحث ، لأجعل له نصيبَه من الترجمة والدراسة الأدبية .

ومضيت فى طريق أجمع مصادرى ، وأقرأ وأدرس وأكتب ، وفى سنة ١٩٥٨م ألقى الدكتور سامى الدهان فى معهد الدراسات العربية بضعَ محاضرات عن شكيب ، ذاكراً أنها ليست دراسة بقدر ما هى تعريف ، ولما كان يعرف اشتغالى بشكيب فقد تفضل وأهدانى نسخة من محاضراته حين تزاملنا فى مؤتمر الأدباء العرب بالكويت ، فى أواخر ديسمبر سنة ١٩٥٨ م .

وبعد أن قطعتُ فى بحثى أشواطاً عاد الدكتور إلى محاضراته فبسطها وأوسع القول فيها (١) ، ونشرها كطبعة ثانية (٢) ، ومع التقدير لعمله والاستفادة منه أقرر

---

(١) كتاب الأمير شكيب أرسلان ، ص ٩ و ١٠١ .
(٢) المرجع السابق ، هامش ص ٩٥ .

أن له طريقته ولى منهجى ، وأن بين العملين فروقاً كثيرة ، فقد عُنيت بالنواحى الأدبية واللغوية أكثر من غيرها ، وهناك موضوعات بحثها ولم يبحثها الدكتور الدهان مثل : « الجملة القرآنية فى أدب شكيب » ، و « جلجلة العبارة عنده » ، و «لقب أمير البيان» ، و «الباكورة بين طبعتين» ، و «التكسب الأدبى بالشعر» ، و « مساجلاته اللغوية » و « مخطوطات شكيب وكتبه المقترحة » و « رسائل شكيب إلى رشيد رضا » . . . إلخ .

وكانت الصعوبة فى المصادر والمراجع التى استنبأتُها أو أخذت عنها أن الكثير منها مجلات وصحف ظلت سنواتٍ طويلةً تصدر ، وقدأقول مثلا إن مجلة « المنار » كانت من المصادر ، وهى مجلة ظلت تصدر قرابة خمسة وثلاثين عاماً ، فصار لها خمسة وثلاثون مجلداً كبيراً .

وهناك مجلة « المجمع العلمى العربى » التى استنبأت منها ما يقرب من خمسة وعشرين مجلداً ، ومجلة « الرسالة » التى ظلت تصدر نحو عشرين عاماً ، ومجلة « الفتح » التى ظلت تصدر سبعة عشر عاماً ، وهلم جرا .

وهذه المراجع تختلف المادة المطلوبة منها للبحث ، فقد تكون سلسلةَ مقالات ، أو مقالا ، أو تعليقاً وجيزاً ، أو خبراً صغيراً ، فهى — والحالة هذه — بحاجةٍ إلى صبر وجلد .

وهناك كتب شكيب ومقالاته ورسائله ، وهى كالمحيط الوسيع الذى يتفرع ويتشعب ، ويضرب بروافدَ له بعيدةِ المدى فى مختلف الأنحاء ، مما يعسر معه بل يتعذر على طاقة الباحث أن تلم شتاتَه ، وتحيطَ بأطرافه ، وتبلغ غاية العلم به .

وهناك أسرة شكيب وأصدقاؤه ومعارفه الذى سعيت إليهم ، وحادثتهم ونقلت عنهم ، وهناك بلدة شكيب « الشويفات » بلبنان التى رحلت إليها وإلى غيرها من أجل شكيب .

وبعد أن أنفقت وقتاً فسيحاً فى مسامرة المصادر والمراجع ، وفى جمع المعلومات ومواد البحث ، شرعت قلمى لأكتب عن شكيب . ولكنى لن أكتب عنه كمحب له أو معجب به ، بل سأكتب عنه باحثاً ناقداً .

ولا أكتم أنى كنت مفتوناً بشكيب ، أقرأ له منذ صدر الشباب فأشم فى أدبه عبيرَ الإسلام وروحَ العروبة ، فأنتشى وأتطلب المزيد ، ولا ريب فى أن إعجابى هذا كان مصدر تعب لى وأنا أقدم على إعداد هذا البحث ، إذ كان لا بد لى قبل البدء فيه من التخلص من ذلك الطوق الجميل الوثيق الذى لفه شكيب بأدبه العربى الإسلامى حول عنق مبكراً ، فتركنى معجباً به مفتوناً بكتابته .

وكنت بحاجة إلى جهد غير قليل لأستطيع التخلصَ من تأثير هذا الإعجاب ، حتى أمضىَ مع شكيب دارساً ناقداً متجرداً ، لا مطالعاً معجباً بروحه الإسلامية والعربية ، وقد واجهت معاناةَ هذا التخلص ، وأغلب الظن عندى أنى استطعت التخلص من ذلك الطوق ، فدرست شكيب بروح الباحث المحايد ، لا بروح المحب المعجب ، فحكمت له وحكمت عليه ، وأخذت منه ورددت إليه ، وأيدته أحياناً ، وفندت[1] له بعض أعمال حيناً .

ومضيت فى طريقى حَذِراً قدرَ طاقتى ، وبين الخوف من سحر الإعجاب ، والخشية من حب التزيد فى الانتقاد ، خُيِّل إلىَّ أننى قد نقَّلت خطواتى على طريق البحث طالباً الحقيقة ما استطعتُ إليها سبيلا ، وأرجو أن أكون قد بلغت ما أريد .

* * *

ولقد كان الموضوع فى نفسى وتصورى — عند البداية — أكبر بكثير مما صار إليه ، فقد هيأت بين يدىَّ أولا مادةً ضخمة لكتابة مبسوطة فسيحة الأرجاء

---

(١) فنده تفنيدا : خطأ رأيه . ويلاحظ أنى رجعت فى المعانى اللغوية إلى لسان العرب ، والقاموس المحيط ، وأساس البلاغة ، وقد أنص على المرجع إذا اقتضى الحال ، وقد أتركه اتكالا على وجود المعنى فى هذه المراجع .

مختلفة الأنحاء ، وكنت أريد أن أتحدث عن شكيب من كل جهة ، وأن أقول عنه كل شيء أعرفه .

ولكن هاتفاً هتف بي ، وكان لا بد لي من الإصغاء إليه ، إذ ذكّرني بأن الموضوع بحث في مجال الدراسات الأدبية واللغوية ، فينبغي اقتصاره على هذا المجال ما أمكن ذلك .

* * *

وحينما تحدثت عن حياة شكيب في تركيز من جهة ، وشمول من جهة أخرى ، أعطيت — فيما أظن — صورةً متكاملة للملامح لحياته ، وعُنيت بتجلية مراحلها الثلاث البارزة وهي :

المرحلة الأولى من سنة ١٨٦٩ م إلى سنة ١٨٩٠ ، وهي مرحلة النشأة وتعلم القراءة والكتابة ومبادىء العلوم في مدرسة الأمريكين ، ومدرسة الحكمة ، والمدرسة السلطانية .

وهي المرحلة التي التقى فيها بالشيخ محمد عبده المنفيّ إلى بيروت ، وتلقى عنه وتأثر به ، ثم ختم شكيب هذه المرحلة بترك الدراسة المنتظمة في المدارس ، وسافر إلى مصر سنة ١٨٩٠ م حيث التقى فيها بمن التقى من العلماء والأدباء ، فاتسع نطاقُ تعلمه ، وصار يطلب العلم والثقافة حراً من أفواه الرجال ومن صفحات الكتب ، كما أخذ ينشىء وينشر .

والمرحلة الثانية من سنة ١٨٩٠ إلى سنة ١٩١٨ ، وهي المرحلة التي تعرف فيها بكبار العلماء والأدباء وتأثر بهم ، من أمثال محمد عبده ، ورشيد رضا ، وعلي يوسف ، ويعقوب صروف ، وفيها رحل إلى « الآستانة » ، ولقي جمال الدين الأفغاني ، وازداد وعيه الإسلامي ، وشعوره بواجبه نحو الإسلام والمسلمين ، كما ازداد حبه للدولة العثمانية وذودُه عنها ، لإيمانه بأنها دولة الخلافة والإسلام .

والمرحلة الثالثة من سنة ١٩١٨ إلى سنة ١٩٤٦ ، وهى مرحلة خصبة ، هاجر فيها شكيب من وطنه ، وأقام فى أوربة ، وارتحل إلى بلاد كثيرة ، ودافع عن قضايا العروبة والإسلام ، وألف أكثر كتبه ، وخط مئات المقالات والبحوث والبيانات والرسائل ، وأخذ ينادى بالوحدة العربية ، مع بقائه على غيرته على الإسلام ودفاعاً عن أهله ، وهكذا ظل حتى لحق بربه تعالى .

ومضيت فى الرسالة متحدثاً عن نثر شكيب وشعره ، وآرائه فى الشعر والنثر، وجهوده اللغوية ، وكتبه وآثاره .

ثم ختمت البحث بكلمة عن شكيب فى ذمة التاريخ ، وأخرى عن نتائج البحث .

وجعلت للرسالة ذيلين : الأول مجموعة من رسائل شكيب إلى السيد رشيد رضا ، والثانى مجموعة من قصائده ومقطوعاته الشعرية لم تنشر فى ديوانه .

وأظن أنى بهذا المجهود استطعت أن أجلّى النواحى الأدبية واللغوية من شخصية شكيب ، وإذا كان جمال الدين الأفغانى قد قال لشكيب : « أنا أهنيء أرضَ الإسلام التى أنبتتك »(١) ، فقد يحق لنا بعد أن نتعرف إلى الجوانب الأدبية واللغوية فى حياة شكيب أن نقول له أيضاً :

« ونحن نهنيء أرضَ العروبة التى أخرجتك » ! .

والله ولىّ التوفيق ؟

أبو حازم

أحمد الشربينى جمعة الشرباصى

---

(١) حاضر العالم الإسلامى ، ج ٢ ص ٢٩٨ .

الباب الأول

عصر شكيب

— عصر حافل

— الحالة السياسية

— الحالة العلمية والأدبية

— الحالة الاجتماعية

عصر شكيب

عصر حافل :

عاش شكيب أرسلان أكثر من ثلاثة أرباع قرن ، لأنه وُلد فى أواخر سنة ١٨٦٩م ، وتُوفى فى أواخر عام ١٩٤٦ ، ولم تكن هذه الأعوام التى دنت من الثمانين أعواماً هادئة فى دنيا الأفراد والجماعات ، بل كانت حافلةً بجلائل الأحداث فى الشرق والغرب بصفة عامة ، وفى العالم العربى بصفة خاصة . وفى بلاد الشام موطنِ شكيب بصفة أخص .

فما أكثر الأحداثَ التى وقعت حينئذ ، وتأثرت بها لبنان وسورية وما جاورهما من بلاد العروبة والإسلام ، فهناك أحداث الفترة الأخيرة من الحكم العثمانى ، والشقاق بين الترك والعرب ، والتنازع بين الطوائف والأديان ، وتغلغل النفوذ الأجنبى ، وانبثاق التيارات الفكرية الغربية ، ويقظة القومية العربية ، وقيام الحرب العالمية الأولى ، والاختلاف بين مفكرى الأمة العربية فى المنازع والمشارب ، وقيام الثورة العربية فى الحجاز ، وتمزيق العالم العربى وتوزيعه بين إنجلترة وفرنسة ، ومآسى الاحتلال والانتداب والوصاية والحماية ، والثورات التى قامت فى بلاد العروبة ، وقيام الحرب العالمية الثانية ، وتقلص الاحتلال عن بلاد العرب شيئاً فشيئا ، واستقلال سورية ولبنان ، وغير ذلك من الأحداث .

إنها مجموعة ضخمة من الأحداث التى تضم فى جنباتها كثيراً من الوقائع الفرعية التى لا يتسع لسردها المجال ، وقد أثَّرت هذه الأحداث فى الحياة السياسية ، والقومية ، والعلمية ، والأدبية ، والاجتماعية .

ولا عجب فإن هذه الفترة الطويلة التى عاشها شكيب قد شغلت الربعَ الأخير من القرن التاسع عشر الذى أثر تأثيراً بليغاً فى حياة المجموعة البشرية ، بسبب ما بدا

فيه من كشوف علمية ، ونهضة صناعية ، ومذاهب اقتصادية ، وتيارات سياسية . ومحاولات استعمارية .

كما شغلت هذه الفترةُ النصفَ الأول من القرن العشرين ، وفى هـذا النصف قامت حربان عالميتان مُفزعتان ، نكبتا البشريةَ فى الكثير من أبنائها ، والضخم من جهودها ، والواسع من تعميرها ، وفى هذا النصف أيضاً زالت دول وقامت دول، وتحررت شعوب ، واستقلت بلاد ، واتصل حبل الكشوف العلميـة ، وتوالت خطواتُ التقدم الصناعى والعلمى والاجتماعى ، وجدّت فى دنيا السياسة مذاهبُ وتيارات .

وإذا كان أمير الشعراء شوقى قد قال فى « مصرع كليوباترة » على لسان الملكة التى انتحرت ولما تزل غضةَ الإهاب ، موفورة الشباب :

يومى بأيامٍ لكثرة ما مشت فيه الحياة ، وليلتى بليال

فإن من حق الأمير شكيب الذى عاش ما يقرب من الثمانين عاماً أن يقول : إن عامى بأعوام وأعوام ، فكيف وقد عشتُ هذا العمرَ الطويل بين جلائل الأحداث وعظائم الأمور ؟ .

والأمير نفسه يذكر هذا فى كتاباته ورسائله أكثر من مرة[1] .

وليس من غرضى أن أفصّل القولَ عن أحداث هذا العصر فى الشرق والغرب ، وإنما يكفى التعرضُ للأحداث التى وقعت فى موطن شكيب : لبنان وسورية[2] ، أو على مقربة من هذا الموطن ، وللأحداث التى لها صلة أو أثرٌ فيه ، مما يكون لشكيب به علاقة ، أو يكون له أثر فى حياته وأعماله ، ولعل هـذا التعرض يعطينا صورةً واضحة للحياة السياسية والأدبية والاجتماعية ، ولعل هذه الصورة تعاوننا فى المضى مع شكيب فى حياته ، نتعرف إليه خلالها ناثراً وشاعراً ، وباحثاً ومفكراً .

(١) انظر مثلا كتاب النهضة العربية ، ص ٩ .
(٢) كان شكيب لا يفرق بينهما إلا فى التسمية تقريبا ، فهو يعتبرهما معا وطنه الأول .

الحالة السياسية :

لقد شهد الأمير شكيب تطورَ العالم العربى خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر والنصفِ الأول من القرن العشرين ، وشاهد الأحداثَ الجسام التى مرّت بأمته ، وفهم الدسائسَ والمؤامرات التى تُحاكُ لها ، وكان على مقربة من مركز الخلافة فى « اسطنبول » ، وتحققت له صلات ومعرفة برجال الحكم العثمانى ، وفاضت كتاباته بالحديث عن كل ذلك[١] .

وإذا كنا نستطيع أن نلاحظ بسهولة أن أهمّ تحولٍ فى حياة شكيب هو انتقاله من النزعة العثمانية الإسلامية التى أخلص لها ما يقرب من ثلثى حياته ، إلى النزعة العربية الإسلامية التى عملَ لها بقيةَ حياته ، ونستطيع أن نقرّر أن نهاية الحرب العالمية الأولى كانت بدايةً لآخر المراحل فى عثمانيته ، وأن ماحدث عقبها من تمزيق للبلاد العربية وتوزيع لها بين الحلفاء ، كان سبباً جوهرياً فى اتجاهه العربى القومى — كان من حقنا أن نشير إلى صلة الدولة العثمانية بالبلاد العربية .

لقد استولت الدولة العثمانية على الشام فى القرن السادس عشر ، وساسته مع بقية البلاد العربية التى سيطرت عليها سياسةً متعصبة ، فشددت على الأقليات ، وحرمتها الكثيرَ من حقوقها[٢] ، وانتقل استعمال الشدة من الأقليات إلى الجميع ، حتى قال بعض الباحثين : « ظلت مصر وبلاد العروبة ثلاثة قرون تحت حكم الأتراك ، وهى فى ظلام دامس ، وجهل فاضح ، تعانى مرارةَ الظلم وقسوة البغى ، قلّب ما شئت من أسفار التاريخ ، فلن ترى إلا صفحاتٍ سوداء قاتمة ، تنبعث منها روائحُ الاستبداد والبطش ، وستسمع صراخَ المظلومين يُصِمّ الآذان ، وتلمح دماء الفلاحين فى كل صقْع تسيل تحت سياط الجُبَاة ، وتتمثل لك بلاد العروبة تخنقها

(١) محاضرات عن الأمير شكيب أرسلان ، الصفحة الأولى .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢ .

يد غاشمة ، أصابتها : الفقر ، والمرض ، والجهل ، والذلة ، والانحلال »[١] .

ومع ما قد نلحظه فى هذا التعبير من عنصر المبالغة فى التصوير ، لا نستطيع أن ننكر سلسلةَ المظالم التى حاقت بالعالم العربى عن طريق الحكم العثمانى ، وفى الفترة الأخيرة منه بوجه خاص ، لأن السلطنة العثمانية « لم تجد صعوبةً فى قيادة هـذه البلاد وتصريف أمورها ، لأن أهلها يخضعون للدولة خضوعاً اختيارياً مبنياً على العقيدة والدين ، فالسلطنة دولة إسلامية ، زعيمها هو خليفة المسلمين ، وهى تدافع عن بيضة الإسلام »[٢] .

ولكن تفاقُمَ الخطبِ ، وتكاثر الشر ، وتضاؤل الخير ، وطولَ الأمد ، جعل هذا الخضوع الاختيارى يتزلزل فيخف سلطانه على أهليه . وزاد الطين بلة أن الدولة العثمانية بما ارتكبته من اضطهاد للأقليات فى بلاد العرب فتحت البابَ للتدخل الأوربى تحت التستر بدعوى إنصاف المسيحيين ، وبقصد قضاء مآربهم الأخرى فى الحقيقة والواقع .

وأسس هؤلاء الأجانب مدارسَ أجنبية فى البلاد العربية ، لتدريس اللغات الأجنبية مع العلوم الأخرى ، ومن العجيب أن هذه المدارس كانت تُعنى — فيما تعنى به — باللغة العربية ، أكثرَ من عناية المدارس التركية بهذه اللغة ، مع أنها لغة القرآن عمادِ الإسلام الذى تستند الدولة العثمانية فى حكمها إلى اسمه واسم الخلافة الإسلامية المنتسبة إليه . ولا شك أن هذه المدارس كانت فى باطنها ركيزةً لهؤلاء الأجانب ، وعاملا من عوامل زعزعة الثقة بالدولة العثمانية فى البلاد العربية .

---

(١) كتاب فى الأدب الحديث ، ج ١ ص ٩ .

(٢) محاضرات فى نشوء القومية العربية ، ص ١٠٨ . والبيضة : حوزة كل شىء ، وساحة القوم .

ولم يقف نشاط الأجانب عند إنشاء هذه المدارس ، بل منهم من حرّض أبناء البلاد العربية على الاستخفاف بالدولة العثمانية ، أو الثورة عليها ، فهذه روسية تساعد هذه البلاد ، وهذه انجلترة وفرنسة تتآسيان [١] .

واستغلت أوربة ظروفاً مختلفة لتقصّ أطرافَ الدولة العثمانية الواسعة ، فاستولت فرنسة على تونس ، وإيطالية على طرابلس الغرب ، وانجلترة على مصر ، وأخذت كلُّ دولة من هذه الدول تبث الشقاقَ في البلد الذى احتلته ، وتغرى أبناءه بالوعود الخلاَّبة المعسولة ، وتحاول في الوقت نفسه فصمَ العُرَى بينه وبين الدولة العثمانية .

وأما فيما يتعلق بلبنان — مسقط رأس شكيب — فإن الشيخ محمد [٢] عبده يقول عنه حوالى سنة ١٣٠٤ هـ — ١٨٨٦ م ، أى قبيل انتهاء القرن التاسع عشر بنحو أربع عشرة سنة :

« فلبنان يتنازع النفوذَ فيه دولتا فرنسة وانجلترة ، وليس بخافٍ ما تأتى به هذه المسابقةُ السياسية ، بعد ما ظهرت آثارُ مثلها في بلاد أخر ، والدولة (يقصد العثمانية) أعزها الله — مع أن البلاد بلادُها — ليس لها من يروِّج سياستَها ، ويؤيد كلمتها ، وأمرُها يتبع ميلَ المتصرف ، إن صدق في خدمتها كان لها ، وإلا صار إلى غيرها ، والمتصرف شخص يعزل ويولَّى ، وأهلُ البلاد هم القوة الراسخة ، وبهم تؤزر السلطة فيهم [٣] » .

ومصر ذات ارتباط بالشام منذ أقدم العصور ، ولسنا بحاجة هنا إلى مراجعة هذه العصور ، إذ حسبنا عصر شكيب وما ارتبط به من قرب .

ففى مطلع القرن التاسع عشر غزا نابليون بونابرت مصرَ بحملته المشهورة ،

---

(١) محاضرات عن الأمير شكيب ، ص ٥ .
(٢) جريت هنا على عدم إعراب الأعلام .
(٣) تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده ، ج ٢ ص ٥٢٥ و ٥٢٦ من تقرير للشيخ في إصلاح سورية .

ثم حاصر « عكا » ولم يقدر على احتلالها ، وكانت الحملة الفرنسية على مصر والشام أشبهَ بيـد تقرع الباب ، وتُشعر الشرقَ العربى أن الغرب المستعمر لن يتركه ناعماً فى خدره .

وفى سنة ١٨٣١ م قام إبراهيم باشا بحملة على الشام ، واستطاع أن يوحِّد مصر والشام ، وكانت هذه أولَ محاولة فى العصر الحديث لتوحيد البلاد العربية ، ولـكن هذه المحاولة انهارت سنة ١٨٤٠ م ، وانسحب الجيش المصرى من الشام ؛ وعادت الشام إلى حكم العثمانيين ، إلى أن كانت سنة ١٨٦٠ م وحدثت الحوادث الطائفية المؤسفة ، وتدخل نابليون الثالث ، وظفر لبنان بعد هذا باستقلاله الذاتى داخل إطار الدولة العثمانية [١] .

وفى سنة ١٨٧٦ م تولى السلطان عبد الحميد الخلافة العثمانيةَ ، بعد مقتل عمـه السلطان عبد العزيز ، وأعلن السلطان عبد الحميـد دستورَه الأول تحت ضغط الأحرار من العثمانيين ، وولى « مدحت باشا » منصبَ « الصدارة العظمى » ، وكانت ميول مدحت باشا دستوريةً ، وفيها محبـة للحرية ، ولـكن السلطان عبد الحميد عاد فوقف العملَ بالدستور ، وفضَّ البرلمـان ، وأبعد مدحت باشا .

وظل عبد الحميد يحكم حكما استبدادياً مدة طويلة ، زادت على الثلاثين عاماً ، ثم عاد تحت ضغط الرأى العام فنشر الدستور مجدَّداً بعد اثنتين وثلاثين سنة من وأده [٢] ، وكان نشره فى ٢٤ تموز (يوليه) سنة ١٩٠٨ م .

وكان يوم إعلان الدستور العثمانى يوماً عظيما فى تاريخ السلطنة العثمانية ، وأُقيمت من أجله حفلات ، وأُلقيت خطب ، ونُظِمت قصائد ، وتجلت مظاهر الفرح بين الأتراك والعرب ، وبين المسلمين والمسيحيين .

---

(١) شعراء الحماسة والعروبة فى بلاد الشام ، ص ٦ و ٧ .
(٢) المرجع السـابق ، ص ٧ و ٨ .

وقد نظم شكيب فى هذا الدستور قصيدة ملأها مديحاً وثناء فى منح الدستور ، وفى « الإمام الخليفة » الذى وهبه ، وفى بنى عثمان ، وحسبنا أنه بدأها بقوله :

ألا يا بنى عثمان حسبكم بُشْرى ... لقد جاد ربُّ العرش بالنعمة الكبرى

ويصف الخليفة بأنه « ظل الله » ، ويشير إلى عناية الله فى مجىء الدستور ويقول :

وألهمَ مولانا الخليفة ظلَّه ... قياما على الدستور فى الدولة الغَرَّا

تداركها رمقاً بإكسير ناظر ... إذا مال نحو الترب صيَّره تِبْرا

فنلتم بنُعْماه حياةً جديدة ... غدت بنفوسٍ عند غيركمُ تُشْرَى

وبعد أن يطيل التغنىَ بأمة عثمان وأمجادها يقول :

وفَدُّوا أميرَ المؤمنين بأنفسٍ ... كَفَتْها إلى عثمان نسبتُها فخراً .. إلخ

كما أنه صاغ فى الدستور قصيدة أخرى فُقدت منه ، ولكنه تذكر أربعة أبيات فيها نشرها بديوانه (١) .

* * *

وعقب إعلان الدستور العثمانى أخذ بعضُ الأتراك يهمسون بالدعوة « الطورانية » ، وكلمة « طوران » تطلق على البلاد الشاسعة التى يقطنها الأتراك وأقارب الأتراك من المغول والتتار وغيرهما ، وكلمة « الطورانية » تفيد معنى النزعة القومية عند الأتراك(٢) .

وأخذ بعض الأتراك يبدى رغبةً شديدة فى تتريك الدولة ، بجعل اللغة التركية

---

(١) ديوان الأمير شكيب ، ص ١٠٢ و ١٠٣ .
(٢) محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ، ص ١٥٢ .

هى اللغة الرسمية ، وتنقيتها من الألفاظ العربية ، والاعتزاز بعظماء الأتراك بدل عظماء العرب ، وأسرفت جريدتا « طنين » و « إقدام » فى توسيع هوة الخلاف بين العرب والترك بحملاتهما على العرب ، مما جعل العرب يفكرون فى الردّ على ذلك بتأليف جمعياتهم العربية ما بين سنتى ١٩٠٩ و ١٩١٣ (١) .

وفى سنة ١٩٠٩ — أى بعد ثانى عام تقريباً من صدور الدستور — حدثت فتنة الرجعية ، إذ حاول السلطان عبد الحميد — بعد اضطراره إلى إصدار الدستور — أن يلغى الدستور مرة أخرى ، واستعان فى ذلك بالأحزاب الرجعية .

ففى ٣١ آذار (مارس) سنة ١٩٠٩ أحاطت قواتٌ من الجنود الرجعيين بمجلس النواب العثمانى ، وطالبت بإغلاقه ووقف الدستور ، ولكن الضباط الأحرار — وعلى رأسهم محمود شوكت(٢) — زحفوا على القسطنطينية وثبتوا دعائم الدستور ، وخلعوا السلطانَ عبد الحميد فى ٢٧ نيسان (إبريل) ، وأرسلوه سجيناً إلى بلدة « سالونيك » ، وبايعوا أخاه « محمد رشاد » خليفة وسلطانا دستوريا على البلاد العثمانية(٣) .

كانت الدعوة إلى « الطورانية » و « تتريك الدولة » ، ومحاولة القضاء الدستور وهو مازال وليدا ، من الأسباب التى جعلت كثيراً من العرب يفكرون فى أمرهم ، وفى وضعهم داخل الدولة ، وأغلبُ الظن أن شكوكا ساورت نفوسَهم ، وأن خشية سيطرت عليها من المستقبل المبهم ، وجاءت أسباب أُم زادت المشكلةَ تعقيدا .

لقد كان من عيوب الحكم العثمانى أنه أثار التعصبَ بين المسلمين والمسيحيين وكانت هذه الإثارة أحدَ الأسباب التى أدت إلى حوادث مؤسفة بين الفريقين

(١) شعراء الحماسة والعروبة فى بلاد الشام ، ص ٢٧ .
(٢) الأتراك يكتبون (شوكت) وأمثالها بالتاء المفتوحة .
(٣) المرجع السابق ، ص ٢٩ .

كالواقعة التى وقعت بين النصارى والدروز سنة ١٨٤١ فى لبنان ، بسبب التنافس على الحكم . وكالواقعة التى وقعت بين الفريقين سنة ١٨٦٠ ، وسقط فيها كثير من القتلى . ولا ننسى ما لأصابع الأجانب ومكائدهم من نصيب فى إحداث هذه الفتن ، وتدخلت فرنسة بجيشها ، لولا أن الدولة العثمانية أخذت مثيرى الفتنة بالشدة ، فتراجعت فرنسة نزولا على رغبة النمسة وانكلترة اللتين خافتا من تغلغل نفوذ فرنسة فى هذه المنطقة[١] .

وفسر بعضُ الباحثين هذه الإثارة بأنها سياسة مقصودة من الدولة العثمانية ، فقال : « لم يكن من مصلحة طَغَمة الاستبداد فى الحكومة الغابرة (قبل إعلان الدستور) أن يؤلفوا بين القلوب ، إذ كانوا يعتقدون لجهلهم أن وفاق الأمة يدك معاقلَ صولتهم[٢] » .

وما كادت بشرى إعلان الدستور تسرى حتى تعانقَ المسلمون والمسيحيون فى الطرقات ، وصار رؤساء الدين من المسلمين والمسيحيين يتعانقون ، « وهناك تآخى الفريقان ، وتحاب القبيلان ، وعلموا أن العثمانيين جسم واحد تديره روح واحدة » كما قال مصطفى الغلايينى[٣] :

حتى قال بعض الشعراء :

تعانق الشيخ والقسيسُ ، واصطحبا … من بعد ما افترقا ضدين واختصما
تآخيا فى حِمَى الدستور ، واتحدا … ورفرفت رايةُ التوحيد بينهما[٤]

* * *

(١) محاضرات عن الأمير شكيب ، ص ٤ .
(٢) كتاب عبرة وذكرى ، ص ١٠١ .
(٣) عبرة وذكرى ، ص ١٠١ .

ولكن بعد خلع عبد الحميد ، وتثبيت الدستور ، ومبايعة « رشاد » ، والانتهاء من نشوة الفرحة ، تطلع الناس فرأوا الفساد ما زال باقيا ، إذ لم يكن من السهل لدولة قضت قرنين من الزمان وهي تحتضر ، أن تنهض وترق في سنة أو سنتين ، كما أن ولاة الأمر لم يُعنوا بتحقيق الإصلاح بعد أن استقروا في مناصبهم ، ولذلك شاعت الحسرة والتشاؤم بين الناس ، حتى يصور ذلك الشاعر فارس الخوري بقوله من قصيدة عنوانها « أيتها العدالة » :

عزيز القوم يعبث بالذليل ... فبين الناس جور واعتداء
يباع الحق بالثمن القليل ... وسوق الزور رائجة ، وفيها
على الإخلاص والحزم الأصيل ... لقد حلفوا اليمين وأحرجوها
وعادوا للخيانة والحول ... ألا سرعان ما حنثوا وماتوا
وباعوا بالنضار دم القتيل[1] ... ومدوا للرشا كفا خبيثا

وبدأت الشكوى من الحكم العثماني تتحرك وتسرى في البلاد العربية ، بأن أخذ بعض المفكرين العرب يصفون سوء الأحوال في البلاد العربية ، ويقارنون بين الولايات العربية التابعة للخلافة وبين سائر الولايات العثمانية ، وكانوا يخرجون من هذه المقارنة بأن حقوق العرب مهضومة في السلطنة العثمانية .

وكان هؤلاء المفكرون ينقسمون من جهة آرائهم إلى جماعات :

١ — جماعة تتمنى قيام خلافة عربية تعيد الحق إلى نصابه .

٢ — وجماعة تطالب الدولة العثمانية بإجراء إصلاحات جدية في البلاد العربية

---

(١) شعراء الحماسة والعروبة في بلاد الشام، ص ٣٤و ٣٥، وأحرج اليمين: ضيقها يقال: حلف فلان بالمحرجات أي الأيمان التي تضيق مجال الحالف، وماتوا: كذبوا، و الرُّشا جمع رشوة، وهي ما يعطيه الإنسان للحاكم ليحكم له.

٣ — وجماعة تشترك مع الأحرار الأتراك فى الدعوة إلى إصلاحات عامة تشمل جميع البلاد العثمانية على حد سواء .

٤ — وجماعة تطالب بمراعاة حقوق العرب فى مختلف شئون الدولة[١] .

• • •

وينبغى أن نلاحظ أنه فى الفترة الواقعة بين خلع السلطان عبد الحميد وإعلان الحرب العالمية الأولى كانت الدولة العثمانية فى موقف حرج ، وكانت فى وضع دولى وعسكرى لا تُحْسَد عليه ، ففى سنة ١٩٠٨ انتزعت النمسة مقاطعتى « البوسنة » و « الهرسك » من جسم الدولة العثمانية ، وفى سنة ١٩١١ بدأت حرب طرابلس الغرب بين العثمانيين والإيطاليين ، وهى الحرب التى اشترك فيها الأمير شكيب ، وكانت نتيجة هذه الحرب استيلاء إيطالية على هذا القطر العربى .

وبين سنتى ١٩١٢و١٩١٣ نشبت الحرب البلقانية ، واتحد فيها الصرب والبلغار واليونان ضد الدولة العثمانية ، وانتهزوا فرصة انشغالها بحرب طرابلس ، واستخلصوا الممتلكات البلقانية من يدها ، كما فقدت الدولة جزيرة « كريت[٢] » .

كل هذه الأحداث وسواها نالت من قوة الدولة وهيبتها ، وعاونت على تعجيل الشيخوخة والضعف إليها .

فإذا ما نظرنا إلى العلاقة بين الدولة العثمانية والعرب وجدنا أنه لم تكن هناك — حتى أواخر القرن التاسع عشر — حركة جدية فى البلاد العربية للانفصال عن السلطنة العثمانية والاستقلال بكيان سياسى منظم[٣] .

---

(١) محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ، ص ١٦٤ .

(٢) شعراء الخماسة والعروبة فى بلاد الشام ، ص ٤٦ .

(٣) الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث ، ج ١ ص ١١ .

بل ظلت النزعة العثمانية بارزة فى المجتمع العربى وفى الأدب العربى إلى أوائل الحرب العالمية الأولى ، « ففى أوائل العهد الدستورى — كما يقول الأستاذ أنيس المقدسى — كان الشعر العربى فى سورية ومصر والعراق مجلى لألوان من الوطنية غير واضحة الحدود ، ولكن كما أن ألوان الطيف إذا مُزجت معاً كونت شيئاً واحداً هو النور ، كذلك تلك الألوان العاطفية من دينية أو قومية مرجعها واحد هو الإحساس الحاد بكرامة شرقية لم يعهدها الشرقيون أو العرب منهم قبل ذلك العهد .

وقد كان لنشوة الدستور يد فى تعميم ذلك الإحساس ، وإلباسه أحيانا لباسَ الجامعة العثمانية ، وكانت تلك النشوة على أشدها فى السنة الأولى من إعلان الدستور أيامَ كان الناس لا يزالون يطفرون فرحا بزوال الاستبداد ، وينظرون إلى المستقبل بعيون التفاؤل والاستبشار ، ثم أخذت بالتراخى تدريجا .

على أن النزعة الشرقية المصطبغة بالصبغة العثمانية ظلت بارزة فى الأدب العربى إلى أوائل الحرب العالمية ، ومما يزكى ذلك ما نظمه الشعراء سنة ١٩١٣ فى حادثة الطيارَيْن التركيين « فتحى ، وصادق » ، وهما أول طيارين شرقيين ظهرا فى سماء الشرق العربى ، فلما وصلا سورية ولبنان قابلهما الأدب العربى بهبة وطنية هزت أعصابَ الناس ، وأثارت نخوتهم الشرقية ، أو قل العثمانية كقول الشيخ مصطفى الغلايينى من قصيدة حماسية :

خيمتما فوق الرءوس فأشرقت منا الوجوهُ ، وأزهرت أنوارُها
وفتحت يا «فتحى» القلوبَ بزمرة أحيا مواتَ رجائنا تذكارُها
ونزعت منا اليأسَ وهو بلية شنعاء عمّت قومَنا أضرارُها

ومثل هذه الحماسة الوطنية تتجلى فى أقوال أكثر الشعراء لذلك العهد .
ثم طار الطياران يقصدان مصر ، ولكن القدر المحتوم لم يمهلهما ، فسقطا قرب

« طبرية » . وكان لمصرعهما رنةُ أسفٍ عمت جميعَ الأقطار العربية ، وقد جماهم الشعر العربي مثالَ الوطنية الشرقية المتحفزة لمباراة الغرب ، وفي ذلك يقول إلياس فياض :

« فتحي » أطلَّ من السماء مكذِّبا — من قال إنا أمــة لن نَقْدُما
من قال إن الشرق شعب خامل — لا يستطيع مع الشعوب تقدُّما
اليوم قــد جددتما لشبابه — عهداً ينسِّى عهــده المتصرما
أهرقتما للعــلم أفضلَ مهجةٍ — كانت تُراق على المظالم قبلما
هذا هو الدرس المفيد ، وهذه — عظةُ الزمان فهل لنا أن نَفهما
من ليس يعرف أن يموت مكرَّما — هيهات يعرف أن يعيش مكرما

ويتجلى شعور المصريين يومئذ في قول شاعرهم حافظ إبراهيم من قصيدة :

أختَ الـكوا كب ما رما — كِ وأنت راميةُ النسورِ
ماذا دهاكِ وفوق ظهركِ رابضُ الأســد الهصورِ؟

ومنها قوله مخاطباً فتحي :

حاولتَ أن تَرِدَ « المجرةَ » ، والورودُ من العســير
فوردت يا « فتحي » الحِمَام ، وأنت منقطعِ النظــير
وهويت من كبد السماء ، وهكذا مَهوَى البــدور
إن كان أعياكَ الصعودُ بذاك الجســد الطهور
فاسبح بروحــك وحدَها ، واصعد إلى المَلِكِ الـكبير

ومثلها قصيدة لعبد المطلب مطلعها : (وقفت لك الدنيا فسيري) ، وقصيدة شوقي : (انظر إلى الأقمار كيف تزول) . وعلى هذا النمط كثير من الشعر الوطني في بيروت ودمشق وبغداد والقاهرة ، وسواها من حواضر العالم العربي .

وإذا قيل : كيف ذلك والعرب يومئذ كانوا قد بدأوا يستنكرون سياسة الاتحاديين الأتراك ، ويتشوقون إلى حياة قومية وكيان مستقل . بدليل ما نراه من جمعياتهم السياسية فى مصر وغير مصر ؟ . قلنا إن تلك الجمعيات لم تكن تملك من وسائل الدعاية ما يُشيع فى جميع الأنحاء مبادئها ، أو ما يجمع القلوبَ على نصرتها ، فظل السواد الأعظم من أبناء العربية متعلقين بآمالهم الدستورية ، لا يرون لهم من رابطة غير الخلافة العثمانية .

ثم إن الحركة العربية الاستقلالية لم تكن قد نضجت نضجاً كافياً لتأصيل فكرة الانفصال عن الجامعة العثمانية ، ويخيل إلينا من دراسة عواطف الناس فى ذلك الحين أن الزعماء الذين كانوا يعملون فى سبيل الفكرة العربية لم يكونوا على بينة من هذا الأمر ، ولو راجعت الرسائلَ التى كان يتبادلها سراً أمثال عبد الحميد الزهراوى ، ومختار بيهم ، ومحمد المحمصانى ، وسليم الجزائرى ، ورشيد رضا ، وإخوانهم من أعضاء المؤتمر العربى ، أو الجمعية الإصلاحية ، لوجدت ما يزكّى قولنا إن الإصلاح الذى كانوا ينشدونه لم يكن يراد به أولا القضاء على الرابطة العثمانية والاستهداف لمطامع الاستعمار ، ولو عرفت تركية يومئذ كيف تستغل شعورَ الناس لألّفت من الكتلتين التركية والعربية جامعةً عزيزة الجانب صادقة الوطنية ، لكن السياسة العنصرية الحادة حالت دون ذلك ، فكانت من الأسباب المعجلة لنجاح الدعايات الأوروبية فى الشرق العربى ، ثم لإشعال الثورة العربية فى أثناء الحرب الكبرى سنة ١٩١٦ [(١)] » .

وعلى الرغم من بقاء النزعة العثمانية ظاهرة فى المجتمع العربى والأدب العربى إلى هذا الوقت ، كانت هناك أصوات تتردد لإيقاظ القومية ، ولإثارة العرب ضد الترك

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٥ — ٥٧ .

مثل إبراهيم اليازجي المتوفى سنة ١٩٠٦ . فقد أخذ في شبابه ينظم القصائدَ الهادفة إلى تلك الإثارة ، مثل قصيدته المشهورة التي يقول فيها :

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب   فقد طمى السيل حتى غاصت الرُّكَبُ
فيم التعلل بالآمال تخدعكم   وأنتم بين راحات القَنَا سَلَب؟
كم تظلَمون ولستم تشتكون ، وكم   تُستَغضَبون فلا يبدو لكم غضب

ويقول فيها مخاطباً العرب أيضاً :

ألستم من سَطَوْا في الأرض واقتحموا   شرقاً وغرباً ، وعَزّوا أينما ذهبوا ؟
فما لكم ويحكم أصبحتم هَمَلًا   ووجهُ عزِّكم بالهُون مُنتقِبُ
لا دولة لكم يشتد أزركمُ   بها ، ولا ناصر للخطب ينتدب
أقداركم في عيون الترك نازلة   وحقكم بين أيدي الترك مغتصَب

وكان هناك صوت عبد الرحمن الكواكبي صاحب « طبائع الاستبداد » و « أم القرى » ، فقد دعا إلى خلافة عربية مركزها الجزيرة العربية ، وأطال التمجيد في العرب [١] .

وكان هناك صوت نجيب عازوري الذي أصدر كتابه « يقظة الأمة العربية » سنة ١٩٠٥ ؛ وصوت نجيب الحداد الذي ردد قوله :

آن الأوان لأن أخاطر بالدَّمِ   من لم يخاطر بالدِّمَا لم يسلمِ
أجزيرةَ العرب التي أحببتُها   كم من أكفٍ قد رمتك بأسهم
لعبت أكفُّ الترك فيك فغادروا   في كل قطر فيك نهراً من دم
قتلوا رجالَكِ واستذلوا من بقي   فبقيت صرعى لليدين والفم

---

(١) انظر كتاب وسائل تقدم المسلمين ، ص ١٢٣ — ١٢٧ .

ومن مظاهر اليقظة القومية العربية المبكرة التى ازدادت مع الأيام والأحداث قوة وتأثيراً ، إنشاء الكثير من الجمعيات التى تعمل لأهداف عربية ، مثل جمعية حفظ حقوق الملة العربية التى تألفت سنة ١٨٨١ ، والجمعية العربية المؤلفة من شباب العرب والأتراك بباريس سنة ١٨٩٥ ، وجمعية الإخاء العربى التى تأسست بالآستانة سنة ١٩٠٨ لإعلاء شأن الأمة العربية ، والمنتدى العربى بالآستانة سنة ١٩٠٩ ليكون مثابةً للشبان العرب ، وجمعية الفتاة بالآستانة التى كانت للعرب مثل جمعية الاتحاد والترقى للأتراك ، وجمعية العهد التى تأسست بالآستانة سنة ١٩١٣ للعمل على الاستقلال الداخلى لبلاد العرب .

ومن هذه الجمعيات ما تألف فى مصر ، مثل الجمعية القحطانية سنة ١٩٠٩ ، وكانت جمعية سرية لتوحيد صفوف الأمة العربية ، والجامعة العربية سنة ١٩١٠ لتحقيق الاتحاد الحلفى بين أمراء الجزيرة العربية ، وحزب اللامركزية سنة ١٩١٢ لبيان حسنات الإدارة اللامركزية فى السلطنة العثمانية .

ومن هذه الجمعيات ما تألف فى بيروت ، مثل الجمعية الإصلاحية سنة ١٩١٢ ، وهى تشبه حزب اللامركزية السابق ؛ ومن هذه الجمعيات ما تألف فى باريس مثل المؤتمر العربى العام الذى عُقد فى حزيران (يونيه) ١٩١٣ وضم وفوداً عربية كثيرة (١) .

ومضت الأيام تباعاً والروابط العثمانية العربية تتعرض للضعف والوهن يوماً بعد يوم ، ووقعت من حكام الأتراك سلسلة من الأخطاء زادت الجفوة بين الفريقين حدة ، حتى كتب السيد رشيد رضا فى يناير سنة ١٩١٠ مقالا طويلا عنوانه : « العرب والترك » ، وأخذ فى هذا المقال يعدد هفوات الأتراك وأخطاءهم نحو

---

(١) الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث ، ج ١ ص ٩٤ تلخيصا عن كتاب الثورة العربية ج ١ ص ٧ — ٤٩ .

العرب ، ومنها أن الترك بدأوا يفاخرون العربَ فى بعض ما يكتبون ، وأهملوا تقدير المجاهدين فى سبيل الدستور من أحرار العرب ، وأسرفوا فى عزل أبناء العرب من الوظائف ، وجعلوا المرافعات فى محاكم الولايات العربية بالتركية مع جهل الناس لها ، وجعلوا اللغة العربية فى المدارس الإعدادية اختيارية كاللغتين الأرمنية والرومية ، ونقصوا عددَ الأعضاء العرب فى مجلس الأعيان ، وفرقوا بين التركى والعربى فى المعاملة ، إلى غير ذلك من الأسباب [١] .

ولا يمكننا أن نتجاهل أن الأيادى الاستعمارية كانت حريصة على فصم الروابط القائمة بين العرب والترك ، لا حباً فى العرب ، ولا حرصاً على استقلالهم ، ولكن طمعاً فى تمزيق السلطنة العثمانية الواسعة الرحاب ، وتطلعا إلى احتلال البلاد العربية ، وهذا ما تحقق مع شديد الأسى ، وما حذَّر منه شكيب مراتٍ قبل أن يقع : والأستاذ المقدسى يقرر أن هذه الأيادى الاستعمارية « كانت ترمى إلى تفكيك عرى الدولة العثمانية ، وفصل الأقطار العربية لأغراض استعمارية ، ولا نشك أنها سعت فى تنشيط الجمعيات وحمايتها ، إذ رأت فيها أو فى بعضها ما قد يوصلها إلى هدفها المنشود [٢] » .

* * *

واشتعلت نار الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ ، حينما كانت العلاقات التركية العربية تجتاز مرحلة انتقال محفوف بالحيرة والتردد [٣] . وانحازت الدولة العثمانية إلى جانب ألمانية تحارب معها الحلفاء ، وعينت تركية القائد أحمد جمال باشا قائد الفيلق الرابع من الجيش العثمانى والياً على سورية ولبنان وفلسطين والحجاز ، فبغى وطغى ، وألجم الألسنةَ ، وأرهب الناس ، وحملهم على النفاق وترديد المدائح ،

(١) مجلة المنار ، المجلد الثانى عشر ، مقال (العرب والترك) . ص ٩١٣ — ٩١٩ .
(٢) الاتجاهات الأدبية ، ج ١ ص ٩٥ .

وكان يمثل النزعة الطورانية بأقصى صورها وتعصبها ، وهو من جماعة « الاتحاد والترقى » .

وكانت تركية قد أعلنت الأحكام العرفية ، وقيدت الحريات بقيود ثقيلة عاونت على زيادة كراهية العرب للترك ، وزاد الطين بلة أن جمال باشا استغل إلغاء تركية للامتيازات الأجنبية ، وعمد إلى تفتيش دور القنصليات المعادية فى بلاد العرب ، ومنها دار القنصلية الفرنسية فى بيروت . وكان ذلك سنة ١٩١٦ ، وهناك عثروا على وثائق سرية كشفت عن وجوه من نشاط الجمعيات العربية ، والكثير من زعمائها وأعضائها ، فسارعوا بالقبض على من وجدوه من هؤلاء بإشراف جمال باشا ، وتمكن فريق من الأحرار المطلوبين من الفرار إلى أوربة أو مصر .

ووُجِّهت إلى هؤلاء الأعضاء والزعماء تهمة الخروج على الدولة ، وأحيلت أوراقهم إلى « الديوان الحربى » ، وحوكموا فى بلدة « عاليه » بلبنان محاكمة صورية ، وحكم بالموت شنقاً على ثلاثين من الأحرار ، كما صدر الحكم غيابياً بالموت شنقاً على نحو ستين ، وعوقب آخرون بالنفى أو السجن .

ونُفِّذ حكم الشنق الباغى فى بيروت ودمشق صباح اليوم السادس من أيار (مايو) سنة ١٩١٦ (١) .

وكان هذا الشنق آخر خنجر تحمَّله صبرُ العرب من جمال باشا الذى اكتسب من وراء جرائمه تلك لقبَ « السفاح » ، فكانت بعده ثورةُ العرب .

ولكى نتبين مدى الإرهاب الذى بثه فى سورية ولبنان نطالع رسالة كتبها شكيب فى ١١ أبريل سنة ١٩١٦ إلى صديقه الأستاذ على الغاياتى ، يذكر فيها من ذكريات جمال باشا السفاح أنه كان يغار من أنور القائد العثمانى ، وأن أنور لما

---

(١) شعراء الحماسة والعروبة فى الشام ، ص ٥٣ . والاتجاهات الأدبية ج ١ ص ١٠٧ .

زار لبنان أثنى عليه شكيب ، فغضب جمال ، فاضطر شكيب — وهو أمير من بنى أرسلان — أن يرضيه ، فنوّه به فى بعض خطبه بعبارات ثناء ، ويعلل شكيب ذلك بأنه كان يقصد إرضاء جمال خوفاً على الجماعة الذين كانوا موقوفين فى « عاليه » وكانوا نحو سبعين ، وهم الذين شنق جمال منهم طائفة ، كما يذكر شكيب أنه أثنى على جمال لينقذ أخاه « عادل » الذى كان متهوراً ، والذى طعن على جمال باشا فى مجلس النواب العثمانى .

ويذكر شكيب فى الرسالة أيضاً أن جمال باشا منعه سنتى ١٩١٤ و ١٩١٥ من الخروج من لبنان ، ومن السفر إلى الآستانة ، مع أنه كان عضواً فى مجلس « المبعوثان » ، ولكن شكيب فى أواخر سنة ١٩١٦ خرج مع أسرته إلى استنبول وأقام بها دون استئذان [١] ، وكأنه « فر بجلده » كما تقول العامة .

فإذا كان هذا حال الأمير شكيب أرسلان ، فما يكون حال سواد الشعب حينئذ ؟ .

ويذهب أكثر من باحث إلى أن مأساة الشنق كانت سبباً فى تعجيل الشريف حسين بن على أمير مكة الذى كان يفاوض الحلفاء سراً — بإعلان الثورة ضد الأتراك ، ودخول العرب فى صف الحلفاء فى شهر حزيران (يونيه) ١٩١٦ ، أى بعد شهر من تعليق الشهداء على المشانق [٢] . ونستطيع أن نقول إن المأساة كانت أقوى تمهيد لإعلان تلك الثورة .

ويقول الأستاذ ساطع الحصرى : « وقد استمر جمال باشا فى هذه الأعمال الإرهابية ، دون أن يلتفت لا إلى الملاحظات التى أبداها بعض رجال الدولة ، ولا إلى النصائح التى أسداها الشريف حسين .

---

(١) مجلة منبر الشرق ، عدد ٣٠ يناير ١٩٥٣ ، وعدد ٦ فبراير ١٩٥٣ — مقالات (ركن الذكريات) لعلى الغاياتى .

(٢) شهداء الحماسة والعروبة فى الشام ، ص ٥٤ .

من المؤكد أن الشريف حسين — الذى كان عندئذ أمير مكة المكرمة — أوفد إلى جمال باشا ابنه فيصل — الذى كان عندئذ نائباً عن الحجاز فى مجلس المبعوثان العثمانى — ليلتمس منه الكفّ عن سياسة الإرهاب والإعدام ، ولكن جمال باشا لم يعبأ بذلك أبداً »[1] .

ومعنى هذا أنه قد أعذر من أنذر ، ولم يبق إلا الثورة ! . .

وقد أعلن الشريف حسين الثورة ضد تركية فى الثانى من حزيران (يونيه) سنة ١٩١٦ ، بعد أن لم يبق مزيد من الكراهية بين الترك والعرب ، وبعد أن استطاع الحلفاء وفى طليعتهم بريطانية جذبَ الحسين إلى صفهم بوعود خلابة ، خلاصتها أنهم سيجعلونه ملكا للعرب إذا انتهت الحرب بنصرهم ، فأعلن الاشتراك فى الحرب إلى جانب الحلفاء ، وأصدر منشوراً بذلك ذاكراً فيه أسباب ثورته ، ومنها اضطهاد الترك للغة العربية ، وقتلهم نوابغ النهضة القومية ، وما قاموا به فى البلاد العربية من نفى وأسر ومصادرة ، وغير ذلك من الأعمال المنكرة .

ورفض شكيب الاشتراكَ فى الثورة وعارضها ، وجعل يردد أن هذه الثورة ستكون وبالاً على قومه ، وأن الاستمرار فيها انخداع بالمستعمرين الذين يضمرون للترك والعرب على السواء النيةَ السوداء ! .

وكان موقف شكيب حينئذ عصيباً لا يُحسد عليه ، فقد كان ضدَّ التيار العام ، وخارجاً على رأى الأكثرية ، وبادياً فى صورة من يريد أن يكون عثمانياً أكثر من بنى عثمان ! . وإن تكن الأحداث قد جرت بعد ذلك بتحقيق ما توعد به وحذَّر منه ! .

واشترك فى الثورة سوريون وعراقيون ، لأن الحسين أعلن أنها « عربية

---

(١) محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ، ص ٢١٢ .

تشمل كل عربى » . وقد حاول الأتراك بطبيعة الحال القضاء على الثورة ، وتشويهها وتجريح رجالها ، ولكنها استمرت برغم العوائق والضوائق .

وفى ٣ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩١٨ دخل الجيش العربى دمشق دخول الظافرين بقيادة الأمير فيصل بن الحسين ، بعد أن انسحبت الجيوش التركية من البلاد العربية ، وفى ٢٣ من الشهر نفسه احتفل العرب برفع العلم العربى فى المكان الذى شُنق فيه الشهداء بدمشق سنة ١٩١٦ .

ووضعت الحرب أوزارها عقب ذلك بأيام قليلة ، وتطلع العرب إلى تحقيق الوعود التى مناهم بها الحلفاء ، فلم يجدوا منها شيئا ، بل وجدوا جيوش الحلفاء تحتل ديارهم ، وشاعت الأنباء عن معاهدة « سايكس — بيكو » القاضية باقتسام الحلفاء أرضَ العرب ، وذهب الأمير فيصل باسم والده واسم العرب إلى مؤتمرات الصلح ليطالب بحقوق بلاده ، ولكنه لم يبلغ مراداً ، فقد رحل فى ٢٢ نوفمبر سنة ١٩١٨ لتمثيل الحجاز فى مؤتمر الصلح ، وما كاد يفاتح فرنسة حتى صارحه الفرنسيون بالعداوة ، وأخذوا يحذرون بريطانية من الوقوع فى « حبائل الوحدة العربية » التى تعد خطراً على مصالح انجلترة وفرنسة .

ورحل فيصل بعد ذلك فى أيلول (سبتمبر) ١٩١٩ إلى انجلترة ، فوجدها قد تأثرت بتحريض فرنسة فتضامنت معها ، وردت فيصل رداً غير جميل ، ووصلت بعثة « كراين » الأمريكية سورية لتستطلع رأى أهلها باسم مبادىء الرئيس ويلسون فى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩١٩ ، فقابلتها مظاهرات السوريين منادية بالاستقلال .

واجتمع المؤتمر السورى عقب ذلك، وقرر عدم السماح للجيش الفرنسى بالتوغل فى أرض سورية ، وفى كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٩ أصدر المؤتمر قراراً يجعل

الخدمة العسكرية إجبارية فى سورية ، وفى ٨ آذار (مارس) سنة ١٩٢٠ أعلن المؤتمر استقلال سورية ، ونادى بالأمير فيصل ملكا دستوريا عليها[١] .

ولكن عرش فيصل لم يدم فى سورية طويلا ، ففى الرابع والعشرين من شهر تموز (يوليه) ١٩٢٠ تقدمت القوات الفرنسية بقيادة الجنرال « غورو » لاحتلال دمشق ، تنفيذاً لاتفاق الحلفاء الذى يقضى بتطبيق نظام « الانتداب » على بلاد الشام ، بعد تقسيمها قسمين ، فالجزء الشمالى يكون للفرنسيين ، والجزء الجنوبى يكون للانجليز .

ووقفت فى وجه القوات الفرنسية قوات عربية قليلة العدد والسلاح ، وفى هضاب « ميسلون » على بعد خمسة وعشرين كيلو مترا من دمشق إلى جهة الغرب نشب القتال بين الجانبين ، وانتصرت القوات الفرنسية لضخامة عددها وكثرة سلاحها ، وسقط يوسف العظمة قائد الجيش العربى ، ووزير الدفاع فى الحكومة العربية ، شهيداً فى المعركة ، ودخل الفرنسيون دمشق ، وأرغموا فيصل وصحبه على مغادرتها[٢] ، فترك فيصل العرش مرغماً ، واحتفل بعد ذلك بالمناداة به ملكا على العراق فى ٢٣ آب (أغسطس) ١٩٢١ بعد استفتاء شعبى .

* * *

ولم يقف الاستعمار عند تقسيم الشام إلى قسمين : شمال وجنوب ، بل نشاهد مع الأسف أنه خلال الأشهر الأخيرة من سنة ١٩٢٠ والأشهر الأوائل من سنة ١٩٢١ قد أنشئت خمس دويلات داخل الدولة العربية السورية التى لفظت أنفاسها بعد يوم « ميسلون » ، وهذه الدويلات هى : دولة حلب فى أقصى الشمال ،

---

(١) شعراء العروبة والحماسة فى الشام ، ص ٦٧ و ٦٨ ومحاضرات عن سورية من الاحتلال حتى الجلاء ، ص ٥ و ٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٢ . ومحاضرات عن سورية من الاحتلال حتى الجلاء ، ص ٣ .

ودولة شرق الأردن فى أقصى الجنوب ، ودولة جبل الدروز ، ودولة دمشق ، ودولة العلويين ، وكانت دولة شرق الأردن وليدة الانتداب البريطانى ، وأما بقية الدول فكانت وليدة الانتداب الفرنسى[١] .

ومن ناحية أخرى نرى أن ابن سعود أتم فى سنة ١٩٢١ سيطرته على نجد ، وقضى على إمارة آل الرشيد ، واستولى على القسم الشمالى من « العسير » تمهيداً لإتمام السيطرة عليه فى سنة ١٩٢٦ والقضاء على إمارة السيد على الإدريسى .

وفى نهاية سنة ١٩٢٥ استولى ابن سعود على الحجاز الذى كان يحكمه الحسين ابن على ، وكانت قد دارت حرب بين القوات السعودية الوهابية والقوات الحجازية الحسينية ، وبعد أشهر قليلة من بدء الحركات الحربية بين الفريقين اضطر الملك الحسين بن على إلى التنازل عن عرشه لنجله الأكبر «على» فاستعصم بجدة ، ولكنه لم يستطع الدفاع طويلا ، فاضطر إلى مغادرة الحجاز ، والالتجاء إلى العراق حيث كان أخوه فيصل الأول[٢] .

وقد استطاع ابن سعود بعد ذلك إدخال « العسير » كلها تحت سيطرته سنة ١٩٣٠ ، وقد أدى هذا الاستيلاء إلى نشوء مشكلات عديدة وأزمات شديدة بين ابن سعود والإمام يحيى ملك اليمن ، لأن البلاد المعروفة باسم « العسير » كانت متاخمة لليمن ، فكان من الطبيعى أن يقلق جانبُ الإمام لدخول هذه البلاد تحت حكم السعوديين ، فتنفصل بذلك عن اليمن بصورة نهائية ، كما حدثت بين الملكين خلافات حول تحديد حدود مملكتيهما[٣] . وقد أدت هذه الخلافات إلى حدوث حرب بينهما سنة ١٩٣٤ ، ولكن هذه الحرب لم تستمر طويلا ، إذ عُقد صلح بين الملكين عن طريق وفد عربى كان الأمير شكيب أرسلان عضواً بارزاً فيه .

* * *

(١) المرجع السابق ، ص ١٨ و ٢٢ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٤٦ .
(٣) العروبة أولا ، ص ٣٧ و ٤٠ .

وبعد يوم ميسلون (٨ آذار ١٩٢٠) قضت سورية خمس سنوات تجاهد ، فالمحتل يقسم الدولة إلى دويلات ، وينشر فيها الخوف والرعب ، ويحتال ليخمد ثوراتها ويفرق صفوفها ، ولكن الشعب العربي في بلاد الشام أعلن ثورته على الفرنسيين سنة ١٩٢٥ ، واستمرت الثورة سنتين ، وسقط فيها آلاف الشهداء بعد أن ضربوا أمثلة للبطولة .

ودمر الفرنسيون بعض أحياء دمشق بالمدافع في آيار (مايو) ١٩٢٥ في عهد المندوب السامي الفرنسي الجنرال (ساراي) .

وعاد الشعب إلى الثورة في تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٢٩ في عهد المندوب السامي (دي جوفنيل) ، ولكن فرنسة استطاعت أن تخمد الثورة مرة أخرى .

وفي سنة ١٩٣٧ دُعِيَ الوطنيون لتأليف وزارة تتولى مفاوضة الفرنسيين ، وكان من نتيجة ذلك أن عُقدت معاهدة بين الطرفين ، ولكن الفرنسيين نقضوها عام ١٩٣٩ .

وقامت الحرب العالمية الثانية فملأت الدنيا وشغلت الناس . وفي سنة ١٩٤٣ طالب السوريون بالحرية التي وعدهم بها الحلفاء ، وجاء شكري القوتلي إلى الحكم بعد إجراء انتخابات .

ولكن فرنسة في ٢٩ آيار (مايو) ١٩٤٥ ضربت المدن السورية بالقنابل ، وكان الجيش الفرنسي ما زال في البلاد بحكم المعاهدة ، وثارت سورية ، وكانت النتيجة أن جلا الفرنسيون عن سورية بلا قيد ولا شرط في ١٧ نيسان (إبريل) سنة ١٩٤٥ [١] .

• • •

---

(١) الوحدة في الشرق ، ص ١٠٢ .

هذا ما يتعلق بسورية ، وأما ما يتعلق بلبنان فني سنة ١٩٢٦ وضع نظام جمهوري للبنان ، ولكن هذا النظام وقف العمل به سنة ١٩٣٢ ، وفي سنة ١٩٣٤ تكون مجلس نيابي محدود ، وفي نوفمبر سنة ١٩٣٦ عقدت معاهدة لبنانية فرنسية ، تمنح لبنان استقلالا فى مدى ثلاث سنوات ، ولكن مجلس النواب الفرنسى لم يقر هذه المعاهدة .

وفى سنة ١٩٤١ وعدت فرنسةُ لبنان بالحرية والاستقلال عقب تذمر بين أبناء لبنان ، وفى أول يناير سنة ١٩٤٧ تم جلاء الفرنسيين نهائيا عن لبنان[1] .

إن فرنسة خلال سنوات الاحتلال لم تدخر وسعاً فى إخماد روح القومية العربية فى سورية ولبنان ، ونشر النعرة الطائفيـة والإقليمية ، ولكن كانت هناك عوامل أقوى لبث الروح القومية ، منها تطور وسائل المواصلات ، واصطياف العرب فى لبنان ، وانتشار الصحافة والإذاعة والأدب والتمثيل ، وهـذه وسائل يسميها الأستاذ ساطع الحصرى « عوامل غير قصدية » ، ويضيف إليها « عوامل قصدية » فيقول :

« قام جماعة من القوميين يؤلفون الأشعار والأناشيد ، ويلقون الخطب والمحاضرات ، وينشرون الكتب والمقالات ، لبث الفكرة القوميـة ، وإيقاظ الشعور القومى ، ولمحاربة النزعات الإقليمية مباشرة .

وفضلا عن ذلك أخذ القوميون يؤلفون الجمعيات ، ويؤسسون النوادى ، لتوسيع نطاق هذه الأعمال ، وزيادة تأثيرها فى الناس .

كما أن بعض الحكومات أخـذت على عاتقها مهمة نشر فكرة القومية العربية مباشرة ، فأدخلت فى مناهج مدارسها المختلفة الأبحاث التى تخدم الغاية المذكورة صراحة .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٠٦ .

إن هذه الأعمال والمساعى كانت فى بادىء الأمر تنحصر داخل كل دولة على حدة ، إلا أنها صارت بعدئذ تجمع رجالا من دول مختلفة يعملون فى جمعيات دائمة ، أو مؤتمرات موقوتة .

وفى الأخير صارت الدول العربية نفسها تشترك فى أمثال هـذه الأعمال والمساعى .

وفى هذا الطور من القضية العربية أخذت مصر تلعب دوراً هاماً جداً »[١] .

ومما ينبغى تذكره أن مشاورات بدأت فى صيف ١٩٤٣ لإنشاء « الجامعة العربية » ، بعد أن أعلن المستر إيدن وزير الخارجية البريطانية أن بريطانية لا تمانع فى قيام البلاد العربية بما يجمعها ويزيد من تعاونها لما بينها من صلات وروابط . وانتهت المشاورات بإصدار ميثاق جامعة الدول العربية فى ٢٣ آذار (مارس) سنة ١٩٤٥ [٢] . وقد شهد شكيب ميلادَ الجامعة بالغبطة، وتمنى أن تكون مرحلة بارزة فى إعزاز شأن العرب ، كما فرح كثيراً قبيل ذلك باستقلال وطنه العزيز .

* * *

الحالة العلمية والأدبية :

أما من ناحية العلوم والآداب فقد كانت البلاد العربية خـلال القرن التاسع عشر منصرفةً عن العلم والأدب ، لقلة المدارس ، وندرة الكتب ، وعدم انتشار الطباعة العربية ، وفى مصر مثلا لم يكن يوجد تقريباً غير الأزهر الشريف ، وكانت سوقُ الشعر والأدب كاسدة ، ولكن الطباعة أخذت تنتشر ، والمدارس أخذت تنشأ ، وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر كانت حالة الآداب « كحالة الحَدَث

---

(١) محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ، ص ٢٢٥ و ٢٣٠ .
(٢) الوحدة فى الشرق ، ص ١٦ .

الذي يدخل في شبابه ، ويشعر بقوته ، فيحول أفكاره إلى عالم العلم ، ومنتدى الآداب [١] » .

ثم أخذت الصحف في الظهور ، وتكونت جمعيات علمية ، وزاد عدد المدارس شيئاً فشيئاً .

ويرى شكيب أن غزو إبراهيم باشا الذي انكفأ إلى مصر سنة ١٨٤٠ كان سبباً في إثارة الانتباه الفكري ونزعة التجدد في سورية . يقول : « وجد السوريون — لا سيما أهل الساحل منهم — ينشدون أسباب المدنية الغربية ، لما رأوا فيها من القوة والرفاهية ، وأنس المرسلون الأميركيون هذا الاستعدادَ في أهل سورية فأسسوا في بيروت كليتهم الشهيرة التي كانت النبراس الأول الذي استضاءت به سورية ، ولا يزال هذا النبراس يزهر في آفاق الشرق إلى يومنا هذا . ورأت أمم أخرى (كالفرنسيين والألمان والطليان والروس) أن أرض سورية قابلة جداً لبذور المعارف ، فبثوا فيها المدارس والكتاتيب ، وكل ذلك كان يبدأ في بيروت ثغر الشام البسام ، فبي بيروت والحق يقال ابترغ زرع العلم العصري ، وأخرج شطأه ، ثم انبث في جميع الشامات ، ثم فيما جاورها ، واستغلظ واستوى على سوقه ، يعجب حتى الزراع الأوربيين أنفسهم [٢] » .

ويرى شكيب أن النهضة — وإن كانت قد بدأت قبيل منتصف القرن التاسع عشر — لم تسر سيراً حثيثاً إلا من بداية الربع الأخير من ذلك القرن تقريباً ، ولذلك يقول سنة ١٩٣٧ : « على أن النهضة الشرقية العربية — وإن كان قد ذرَّ قرنُها منذ قرن فأكثر — لم تسر هذا السير الحثيث إلا في الخمسين سنة الأخيرة التي شهدها كاتب هذه الأحرف بجميع صفحاتها ، وذلك لأني بدأت بالكتابة

---

(١) الآداب العربية في القرن التاسع عشر ، ج ١ ص ٦٩ و ٧٠ .

(٢) النهضة العربية ، ص ٨ . وابترغ الربيع : جاء أوله (القاموس) . وشطأ الزرع : ما ينبت حواليه (أساس البلاغة) .

فى الصحف ، وبمرافقة الحركة العلمية فى سيرها ، منذ ٥٢ سنة متوالية ، فلى الحق إذاً بأن أدعى معرفة تاريخ هذه النهضة ، وما دخلت فيه من التطورات على قدر ما يستطيع خادم أمين للعلم ، زاول عمله فى مكافحة الجهل طوال مدة خمسين سنة ، دون أن يتخلف يوماً واحداً [1] » .

ومن ناحية الصحافة والطباعة نجد أنه فى المدة الواقعة بين سنتى ١٨٦٠ و ١٨٨٠ — وهى عشرون عاما — وُجدت فى بيروت عدة جرائد ومجلات مثل : « حديقة الأخبار ، والجنة ، والجنينة ، والجنان ، والبشير ، والنحلة ، والنجاح ، والنشرة الأسبوعية ، وثمرات الفنون » .

ووُجدت أيضاً عدةُ مطابع تطبع الكتب العربية ، بعد أن كان طبعها محصوراً فى مطبعة بولاق بالقاهرة [2] .

ونلاحظ أن هذه الصحف والمجلات كانت فى لبنان، على حين لم يوجد فى سورية حتى سنة ١٨٨٠ سوى جريدة رسمية للولاية باسم « سورية » . وبعد ذلك بزمن طويل أصدر مصطفى واصف جريدة « الشام » ، وأصدر محمد كرد على جريدة « المقتبس » ، وكانت لحلب جريدة رسمية باسم « الفرات » نصفها تركى والآخر عربى .

ويقول الأستاذ عمر الدسوقى : « سبق السوريون فى بلادهم بإصدار صحف سياسية ، وصدرت مرآة الأحوال بحلب سنة ١٨٥٥ ، وإن لم تعمر أكثر من عام واحد ، ثم صدرت حديقة الأخبار ببيروت سنة ١٨٥٨ ، وظلت تصدر حتى سنة ١٩٠٩ ، وكانت يوماً ما لسانَ الحكومة الرسمى، ثم خَطَت الصحافة خُطوةً أوسعَ فى سبيل الرقى بصدور «الجوائب» لصاحبها أحمد فارس الشدياق بالآستانة سنة ١٨٦٠ ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٠ .

وقد طلعت على الناس بأسلوب جديد فى الكتابة ، وافتن صاحبها فى تحريرها وتخيُّر موضوعاتها »[١] .

وفى سنة ١٨٨٤ نظم أحدُ الشعراء أسماء الجرائد اللبنانية فى بيتَيْ شعرٍ قال فيهما :

ثمرات مقتطف الجنان بشيرها بلسان مصباح التقدم قائل

ظل المعارف وارف فى أرض بيرو ت ، ورهط الفضل فيها قائل

وبعد هذا أنشأ على بك ناصر الدين مجلة « الصفاء » التى صارت بعد ذلك جريدة سياسية ، وفى هذه المجلة نُشرت لشكيب أولُ مقالة صدرت من قلمه ، وذلك فى سنة ١٨٨٥[٢] .

وبعد إعلان الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨ كثر إصدار الصحف والمجلات فى الشام ، لأن الدولة العثمانية أعلنت حريةَ الصحافة بعد عهود مراقبةٍ شديدة ، كانت فيها إدارة المعارف بالآستانة تنشىء القوانين الصارمة لتقييد حرية المَطبوعات ، « ولم تزل تضايقها شيئاً بعد شىء ، حتى بلغت فى ضغطها حدًّا لا يكاد يتصوره غير الذين قاسوا مَضَضَه ، ولعل ذلك الضنك الذى بلغ بالروح التراقىَ كان من أقوى أسباب الانقلاب الأخير »[٣] .

ولكن إعلان حرية الصحافة فتح متنفساً واسعاً للأقلام والآراء ، وإن كان هذا لم يدم طويلا بسبب النكسة الدستورية التى أعادت الأقلام إلى السكوت إلا قليلا .

« فلما نشبت الحرب الكبرى كان يُنشر فى سورية وفلسطين ثمانون جريدة موزعة

---

(١) فى الأدب الحديث ، ج ١ ص ٦٣ .

(٢) النهضة العربية ، ص ١٥ .

(٣) الآداب العربية فى القرن التاسع عشر ، ج ٢ ص ٦٣ . والشيخ رشيد رضا يذكر أن من أسباب هجرته إلى مصر سنة ١٣١٥ هـ — ١٨٩٧ م رغبته فى إصدار صحيفة إصلاحية فى مصر ، وأنه لا يستطيع إصدارها حرة فى بيروت بسبب طغيان الاستبداد الحميدى . انظر كتاب السيد رشيد رضا ، ص ١٢٨ .

بين بيروت ولبنان ودمشق وطرابلس واللاذقية وحمص وحماة وحلب وصيدا وحيفا ويافا والقدس ، وكانت تظهر فى هذه البلاد مجلات شهرية وأسبوعية لاتقل عن بضع عشرة مجلة ، ولا نجد لزوماً لسرد أسماء جميع هذه الجرائد وهذه المجلات ، وهذا أول دليل على سرعة الرقى العلمى فى سورية ، وليس فى الكلام أفصح من الأرقام ، فوفرة الجرائد دليل على وفرة عدد القراء ، ووفرة عدد القراء دليل على صدق عمل المدارس »(١) .

وكذلك تضاعف عدد المطابع مرتين وثلاثاً ، وكانت تطبع الكتبَ والصحف .

وأما عن المدارس فى الشام فقد كانت فى أول الأمر قليلةَ العدد والنفقة والأساتذة، ولكن المسيحيين نشطوا فى تأسيس مدارس الإرساليات والمدارس الطائفية ، وكانت هذه المدارس تعلمُ العربية وتعنى بها ، وكانت المدارس الرسمية تعلم التركية وآدابها ، على حين جعلت اللغةَ العربية فيها ثانوية ، وكانوا يدرسون القرآن الكريم بلا عناية ، وكان من نتيجة ذلك أن انصرف الكثيرون عن المدارس الرسمية إلى المدارس الخاصة .

وأنشأ المرسلون الأمريكيون كليتهم فى بيروت ، وتبعهم الفرنسيس والألمان والطليان والروس ، فبثوا الكتاتيب والمدارس ، مما كان أثره واسعاً ، ومما اضطر الدولةَ العثمانية إلى فتح المكاتب الرشدية والإعدادية فى سورية(٢) .

وكانت الإرساليات البروتستانتية والكاثوليكية تتنافس فى إنشاء المدارس ببلاد الشام ، « ويُرْوَى أن الدكتور فانديك رئيس مبشرى الأميركان وأقدم أساتذة الجامعة الأمريكية ببيروت عند تأسيسها — كان يقول : أنا ذاهب إلى فتح مدرستين فى القرية الفلانية : وإذا قيل له إن هذه القرية لاتتحمل مدرستين ، قال :

---

(١) النهضة العربية ، ص ١٦ .

(٢) محاضرات عن الأمير شكيب ، ص ٦ و ٧ .

أنا سأفتح مدرسة واحدة فقط ، ولكنى متأكد من أن اليسوعيين سيأتون من ورائى بعد مدة وجيزة ليفتحوا هناك مدرسة ثانية »[١] .

وقد أنشئت بدمشق مدرسة التجهيز والمعلمين سنة ١٣٠٤ هـ — ١٨٨٢ م ، وفى سنة ١٣٢١ هـ — ١٩٠٠ م أنشئت مدرسة طبية بدمشق . وأنشئت فى لبنان مدرسة « عين ورقة » سنة ١٧٨٩ ، ومدرسة الكلية الإنجليزية الأمريكية للبنات سنة ١٨٦١[٢] .

وكانت أول مدرسة داخلية فى بيروت هى المدرسة الوطنية ، لمؤسسها المعلم بطرس البستانى ، ثم أخذت الطوائف تؤسس مدارس داخلية لها فى بيروت ، فالروم الكاثوليك أسسوا مدرسة البطريركية ، والموارنة مدرسة الحكمة ، واليهود المدرسة الإسرائيلية ، واليسوعيون الكلية اليسوعية لمناظرة الكلية الأمريكية ، والمسلمون مدرسة السلطانية ، وأسست فرنسة فى « كسروان » مدرسة « عينطورة » ثم أسس أساقفة الموارنة مدارس لطائفتهم فى بلاد مختلفة من لبنان ، وأسس الأمير ملحم أرسلان مدرسةً لطائفة الدروز فى قرية « عبيه » سنة ١٨٦٢[٣] .

ولا شك أنه كان لانتشار المدارس أثر قوى فى بث التعليم وإشاعة الثقافة وإنعاش الحياة الأدبية .

وأما الشعر فحسبنا هنا أن نسمع شكيب يتحدث عنه سنة ١٩٣٧ ، فيقول :

« لم يكن منذ خمسين سنة بمصر والشام والعراق والمغرب معشار العدد الذى نجده فى يوم الناس هذا من هذه الطبقة الراقية فى الأدب منذ خمسين سنة أو ستين سنة فما قبل . وكان إذا نبغ شاعر أو برع كاتب ضُرب به المثل لتفرده ، وخلوّ

---

(١) محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ، ص ١٦٨ .

(٢) فى الأدب الحديث ، ج ١ ص ١٠٠ .

الجو من حوله ، والحال أنه لو نشرتَه اليوم من قبره ، وعرضته فى الجمع لوجدت أمثاله يعدون بالعشرات . وإن كانت لا تزال له طلاوة ، فهذه الطلاوة لا ترتفع به إلى صفوف المبقريين ، وإنما تجعله فى صفوف المجيدين ، وقد كنا فى سورية لا نعرف شاعراً أحسن من نصيف اليازجى اللبنانى الذى نبغ فى بيروت ، وصارت له تلك الشهرة الطائرة باستحقاق ، وهو لو وُجد فى زماننا هذا لما كان إلا واحداً من جماعة .

وكان فى بيروت من الشعراء المجيدين عمر الأنسى البيروتى ، يقرأ الإنسانُ شعرَه بلذة ، وكان قبل الأنسى واليازجى أمين الجندى وبطرس كرامة ، كلاهما من حِمْص ، ولهما قصائد كسبا بها شهرةً لا تزال لهما إلى اليوم ، ولو أنهما عاشا فى هذا العصر لم تكن لهما هذه الشهرة بالرغم من إجادتهما وعلو طبقتهما .

وقد سأل الأمير بشير الشهابى أمير لبنان فى وقته الشيخَ أمين الجندى عن المعلم بطرس كرامة قائلا له : ما نسبة المعلم بطرس إليك فى الشعر ؟ . فأجابه : نسبة الثعلب إلى الأسد . ولم يكن هذا الجواب صحيحاً ، لأن لبطرس كرامة من الشعر — لا سيما فى الغزل والنسيب — ما لا يقل رونقاً عن شعر الجندى .

وكان فى بغداد ثلاثة شعراء أو أربعة ، اشتهرت أسماؤهم فى بلادنا ، مثل عبد الباقى العمرى وصالح التميمى وعبد الحميد الموصلى وعبد الغفار الأخرس ، وكان أكثرهم شهرةً عبد الباقى العمرى وعبد الحميد الموصلى هنا ، بسبب مراسلتهما مع نصيف اليازجى ، كما أن شهرة صالح التميمى كانت بسبب المناقشة التى وقعت بينه وبين بطرس كرامة .

وهذه الطبقة — وإن كانت تعد من الطبقة العالية فى الأدب — فإن الذين جاءوا بعدها قد ردوها إلى الوراء ، فبعد أن كانت من المجلّين صارت من المصلين ،

اللهم إلا إذا حسبنا الشاعر الأرزى الذى لا يلز هؤلاء فى قَرْنِهِ ، ومن قبله ابن معتوق الذى كان يضارع الشعراء الأولين »[١] .

* * *

وكانت دمشق — فى شباب شكيب — تشهد حلقات أدبية يدور فيها البحث حول العربية وفحول شعرائها وأدبائها ، وكان اللبنانيون الأدباء يفدون إليها وعلى رأسهم شكيب ، ليفيدوا من هذه الحلقات علماً وأدباً ونظرة واسعة إلى السياسة العربية .

وكذلك كانت مصر ميداناً لجياد القرائح السورية — كما يعبر شكيب نفسه — فالذين تخرجوا فى بيروت ظهروا وسار ذكرهم فى مصر ، وخرّجت معاهدُ مصر كثيراً من أبناء سورية فى العلوم الدينية وغيرها ، فكان القطران يتعاونان ، واختلط أبناؤهما ، إذ انتقل كثير من السوريين إلى مصر ، وأقاموا بها طويلا ، أو ترددوا عليها مراراً[٢] .

وإذا كان الشام قد زامل مصر وسابقها فى مجالات الأدب والشعر والصحافة والطباعة ، فإن صاحب كتاب « فى الأدب الحديث » يلاحظ أن اتجاه نهضة مصر كان علمياً أكثر منه أدبياً ، بينما كان اتجاه نهضة الشام أدبياً أكثر منه علمياً . يقول : « على أن النهضة السورية اتجهت وجهةً أدبية من أول أمرها ، بخلاف النهضة المصرية ، وقد وقفنا على الدوافع التى حولت نهضة مصر إلى وجهة علمية ، أما الأسباب التى جعلت نهضة سورية أدبية ، فهى أن المبشرين كانوا حملةَ مشاعلِ تلك النهضة فى أول الأمر ، وكان همهم نشر التعاليم الدينية طبقاً للمذاهب المسيحية

---

(١) النهضة العربية ، ص ٣٣ و ٣٤ . ولا يلز فى قرنه : لا يلصق به ولا يشده معه . والقرن : الحبل المفتول من لحاء الشجر .

الغربية ، وقد عُنوا بترجمة التوراة ، وظل الجـدل الدينى مسيطراً على الصحافة السورية ومجالس الأدب ثمـة رَدَحاً طويلا من الزمن ، ولعل هذا يعلل لنا سبقَ السوريين فى الصحافة وإتقانَهم لإخراجها وتبويبها ، وقد ظهرت ثمرة هذا الميل الأدبى عند السوريين فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر [١] » .

* * *

وأما من جهة اللغة فقد كانت التركية هى اللغة الرسمية فى الدولة العثمانية ومن بينها البلاد العربية ، وكانت المعاملات الرسمية فى المحاكم وفى جميع دوائر الدولة تجرى باللغة التركية ، كما كان التعليم فى جميع المدارس الرسمية يجرى باللغة المذكورة .

ولا شك أن هذا التتريك اللغوى قد سبب الـكثيرَ من المضايقات والمتاعب ، إذ كان العرب محرومين من مدارس خاصة بهم ، فـكان لابد لهم من دخول المدارس التركية ، واللغة العربية فيها ضئيلة المقدار مهينة القدر ، وكان من نتائج ذلك الوضع ظاهرةٌ لافتة للنظر وهى أن إجادة تعليم اللغة العربية صارت من خصائص المدارس المسيحية ، كما كانت المدارس الأجنبية أكثرَ اهتماما باللغة العربية من المدارس الرسمية بوجه عام [٢] .

وحينما انعقد المؤتمر العربى الأول فى باريس سنة ١٩١٣ كان القرار الخامس من قراراته هو : « اللغة العربية يجب أن تـكون معتبرةً فى مجلس النواب العثمانى ، ويجب أن يقرر هذا المجلس كونَ اللغة العربية لغةً رسمية فى الولايات العربية » . ولما حاولت الدولة التفاهم مع زعماء المؤتمر ، وعقدوا لذلك اتفاقية بين الطرفين كانت أول مادة فى الاتفاقية ما يلى : « يكون التعليم الابتدائى والإعدادى

---

(١) فى الأدب الحديث ، ج ١ ص ٥٦ .
(٢) محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ، ص ١٨٢ و ١٨٣ .

(أى الثانوى) باللغة العربية فى جميع البلاد العربية ، كما يكون التعليم العالى أيضاً بلغة الأكثرية ، وإنما يكون تعليم اللغة العثمانية إجبارياً فى المدارس الإعدادية[1] » .

الحالة الاجتماعية :

وأما عن الحالة الاجتماعية فإن الدكتور سامى الدهان يصورها فى المرحلة الأولى من عصر شكيب ، وهى ما بين سنتى ١٨٦٩ ، ١٩٢٠ بقوله :

« وأما الحالة الاجتماعية فكانت فى وضع لا يشرّف الدولة العثمانية من حيث التخلف الحضارى ، وجمود العقل التركى ، وانتشار الارتزاق غير المشروع . وفشو الرشوة ، وتضييق الرقابة الخانقة على العرب ، والجاسوسية الحادة المنحطة ، وأصبحت مؤهلات التوظيف فى دوائر الحكومة هى المهارة فى التجسس والتذلل والكذب والرياء ، ولم تعد العفة والاستقامة من أسباب التقدير والإكبار .

وكانت نفقات العاصمة المركزية تبتلع مواردَ الدولة ، وشبكةُ الجاسوسية تكلف مبالغَ طائلة ، لذلك كان على ولاة الأطراف أن يستعيدوا المبالغَ التى صرفوها فى الوصول إلى مراتبهم ، وأن يرسلوا من أموال هذه الولايات ما يسد عجزَ العاصمة فى دفع رواتب العاصمة قبل كل عمل ، وكانت الخزائن المحلية للولايات تعجز عن رواتب الموظفين فى أوقاتها ، وكثيراً ما كانت تتراكم عدداً من الشهور[2] » .

وفى هذا الجو الخانق الفاسد المؤلم عاش شكيب أكثر من نصف عمره ، وتأثر به من غير شك ، ولكن الحرب العالمية الأولى كانت فيصلا بين عهدين ، فبانتهائها انتهت الظلال السُّودُ للعهد السابق ، وبدأت فى البلاد العربية حركات ونهضات وثورات فى مجالات السياسة والأدب والاجتماع ، وواصل العرب كفاحهم

(١) المرجع السابق ، ص ١٩٢ و ٢٠٣ .

(٢) محاضرات عن الأمير شكيب ، ص ٥ و ٦ .

فى سبيل الحرية ، وظهرت تيارات الوطنية والاستقلال ، وتوالت الثورات ما بين ارتفاع وانخفاض[١] ، وكان لكل هذا أثره فى الحياة الاجتماعية ، وقامت الحرب العالمية الثانية ، ثم انتهت والعرب مثابرون على طلب حريتهم ، يسقط منهم من يسقط من الشهداء .

ثم جاء الفجر ، وأقبلت طلائع النور ، واستقلت سورية ولبنان ، واستقلت من بعدهما بلاد عربية أخرى ، ومازال شكيب وثيقَ الارتباط بقضايا بلاده ، يسهر ليله لها ، ويقوم نهاره عليها ، ويدافع من أجلها ، ويكتب فى نصرتها ، وكان فى غربته يأمل أملا واحداً هو أن يدخل وطنه وليس فيه عَلَمٌ لدولة أجنبية ، وقد حققت له الأقدارُ أمنيته ، فعاد إلى لبنان فى أواخر سنة ١٩٤٦ ، ليختتم حياته الطويلة بالأيام القليلة التى قضاها قبل رحيله من هذه الدنيا .

(١) المرجع السابق ، ص ٨ و ٩

الباب الثانى

حياة شكيب

— نسب شكيب

— طائفة شكيب

— والدا شكيب

— نشأته وتعليمه

— الذين أثروا فيه

— وظائف وأعمال ورحلات

— فى الحرب العالمية الأولى

— رحيله إلى أوربة

— رحلات أخرى

— أحواله المالية والصحية

— العودة إلى الوطن

— زوجته وأولاده

حياة شكيب

نسب شكيب :

« الشوف » مقاطعة من مقاطعات لبنان ، وفى هذه المقاطعة توجد بلدة « الشويفات » ، وهى تبعد عن « بيروت » قرابة عشرة أميال ، وهى فوق ربوة قريبة من البحر ، ويقول عنها شكيب سنة ١٩٣٥ إنها « قصبة كبيرة ، أهلها نحو من سبعة آلاف نسمة ، بناها الأمير مسعود الأرسلانى ، ومن ذلك الوقت — أى من ألف ومائة وتسع وستين سنة بالحساب العربى — هى مركز العائلة الأرسلانية بدون انقطاع ، وهى مسقط رأس محرر هذه السطور عفى عنه »[١] .

فى هذه البلدة عاشت أسرة شكيب أرسلان ، وعاش أجداده من آل أرسلان .

ونسبه هو : شكيب بن حمود بن حسن بن يونس بن فخر الدين بن حيدر ابن سليمان بن فخر الدين بن يحيى بن مذحج بن محمد بن أحمد بن خليل بن مفرج ابن يحيى . . . .

ويستمر هذا النسب حتى ينتهى إلى الأمير أرسلان المتوفى سنة إحدى وسبعين ومئة للهجرة ، والذى ينتهى نسبه إلى الأمير المنذر الملقَّب بالتنوخى ، المتوفى سنة ثمان وسبعين (٧٨)[٢] .

فمن آل أرسلان هؤلاء ؟ .

---

(١) كتاب محاسن المساعى ، هامش ص ١٠١ .

(٢) روض الشقيق فى الجزل الرقيق ، ص ١٤٥ وما بعدها . وقد اعتمدت فى الحديث عن نسب شكيب وأجداده على سجل النسب الذى جعله شكيب ملحقا لديوان أخيه ، وذكر فيه تراجم الشهود الذين شهدوا على هذا النسب .

إن كلمة « أرسلان » لفظة تركية معناها (الأسد)، وكذلك معناها فى الفارسية ، وهذه اللفظة من جملة الـكلمات التى انتقلت إلى العربية من قديم الزمن ، وسموا بها أعلاماً [١] .

ويقول عبد الله باشا فـكرى عن الأمير شكيب كما جاء فى ديوان شكيب :

كَمِىٌّ من سُلالة أرسلان   ذؤابة قومه الأسد الهزبر

ويقول شارح الديوان تعليقاً على البيت : « يشير إلى معنى أرسلان ، وهو الأسد ، وهى لفظة صار يسمى بها العرب مثل العجم [٢] » .

وآل أرسلان ينتسبون إلى التنوخيين الذين هاجروا من اليمن إلى العراق ، و « آل أرسلان » من أعرق بيوتات الإمارة فى العرب ، وأعتقها نجاراً ، وأزكاها مغرساً . وفى هذا البيت المعرق فى الشرف يستقر معدن من أكرم معادن الحسب الصميم والنسب الأصيل ، ترتقى أرومته إلى الملك المنذر بن الملك النعمان الشهير بأبى قابوس ممدوح النابغة الذبيانى .

وتاريخ هذا البيت مزدانٌ كله طول مئات السنين بالمفاخر الأثيلة التى يتألق منها جانب كبير من ثروة تاريخ العرب والإسلام فى غربى سورية [٣] .

نجد هذه الأسرة (الأمير عون) هو شهيد موقعة (أجنادين) التى حدثت فى فتوح الشام فى السنة الثالثة عشرة ، بعد أن حضر مع خالد بن الوليد من العراق إلى الشام لنجدة أبى عبيدة بن الجراح .

---

(١) شوقى أو صداقة أربعين سنة ، ص ٤٧ . وهم ينطقونها (أرسلان) و (رسلان) فيرفعون الألف للتخفيف ، انظر كتاب روض الشقيق ، هامش ص ١٤٦ . وفى المجلد الخامس من مجلة الزهراء سنة ١٣٤٦ هـ مقالة عن (آل أرسلان) للأستاذ عجاج نويهض ، ومقال عن (نسب الأسرة الأرسلانية) بقلم الأمير شكيب .

(٢) ديوان شكيب ، ص ١٩ .

(٣) روض الشقيق ، ص ١٢ من مقال الأستاذ محب الدين الخطيب ، نقلا عن مجلة الزهراء .

والأمير أرسلان بن مالك المنذرى هو الذى حارب صنائع الروم ومردتهم فى لبنان ، وهزمهم بأمر من الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور ، ونزلوا فى جبل الدروز ، وأقاموا فيه .

يذكر الأمير شكيب فى ذلك مايلى نقلا عن إسحاق التميرى : « وكان قدومهم بأمر أمير المؤمنين المنصور الخليفة العباسى رحمه الله ، وكانوا قد قابلوه بدمشق لما قدم إليها ، وتوطنوا جبال بلدتنا هذه (أى بيروت) ، وكان أول نزولهم بحصن وادى تيم الله بن ثعلبة[1] ، ثم بالمغيثة [2] ، ثم اعتزلوا المضارب وتفرقوا فى البلاد »[3] .

وفى الحروب الصليبية اشترك آل أرسلان فى مقاومة العدوان الصليبى ، وأبلوا بلاء حسناً ، ثم عاونوا دولة الخلافة فى فتوحها الإسلامية ، كفتح قبرص .

وكان من أبناء هذه الأسرة حكام ، وأمراء ، ومجاهدون ، وقادة ، وعلماء ، وأدباء ، حتى قيل فيهم :

أمراء هذا البيت أمراء سيف وقلم ، وحملة عِلْم وعَلَم [4] .

وقد ورث الأمير شكيب عن بيت الإمارة الذى نشأ فيه ما توارثه رجاله من خصال أهمها الشجاعة والكرم ، والذود عن حياض الدين والوطن ، والجمع بين العروبة والإسلام ، وتجلت فيه هذه الخصال ، واستطاع بماله ولسانه وقلمه وعلمه وفضله أن يكون « مضربَ المثل بالنفس الخطيرة والهمة التى لا تغالَب ، وبات بنفسه قلعة من أحصن قلاع العالم الإسلامى ، وغدا مجرد ذكر اسمه فى كل قطر من أقطار

---

(١) ذكر شكيب روايات أخرى تفيد أنهم نزلوا بحصن أبى الجيش من وادى التيم .

(٢) هى — كما يقول شكيب — مكان فى سطح الجبل قبل الوصول إلى عين صوفر للسائر من دمشق إلى بيروت .

(٣) روض الشقيق ، هامش ص ٢٣٤ .

(٤) روض الشقيق ، ص ١٢ — ١٦ ، من مقال لمحب الدين الخطيب .

العالم الإسلامي رمزاً إلى ذلك النوع من الجهاد الذي خلص وصفاً لوجه الله والملة والوطن »[١].

ويخبرنا شكيب فيما يتحدث به عن نسب أسرته أنه من (الأشراف) وأنه من آل بيت الرسول عليه الصلاة والسلام ، فينقل عن إثبات من إثباتات الأنساب أن سلسلة نسبه « تنتهي إلى الملك المنذر بن الملك النعمان بن الملك المنذر بن الملك المنذر ابن ماء السماء اللخمي » . ويقول عقب ذلك : « وقد تناسلوا من الفاطميات، وتشرفوا بذلك عن الأمهات من ذرية سيد الكائنات » . ثم يقول : « وعلى هذا الإثبات شهود عدة »[٢] .

وكان شكيب يفخر بهذا النسب — وإن حاول ستر هذا الفخر أحياناً — مثلاً يقول :

« والمعتمد بن عباد ينتمي إلى المنذر بن ماء السماء اللخمي ، وفي ذلك يقول أحد الشعراء :

من بني منذر ، وذاك انتساب زاد في فخرهم بنو عباد
فتية لم تلد سواها المعالي والمعالي قليلة الأولاد »

ثم يعلق على ذلك بقوله : « وإلى هذه الشجرة أيضاً ينتسب محرر هذا الكتاب ومن بني لخم أقوام كثيرون في الغرب والشرق ، ولا سيما بصعيد مصر »[٣] .

وفي موطن ثان يقول : « ونحن قوم لا ندّعي بما ليس فينا ، ولا نتزيد بأكثر مما عندنا »[٤] .

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٥ .
(٢) المصدر السابق ، هامش ص ١٤٧ .
(٣) رواية آخر بني سراج ، ص ٩٤ .
(٤) روض الشقيق ، ص ٨ .

وهو يعنى بالحديث الطويل المسهب عن ترجمة أسرته وبيان نسبها وذكر تاريخها ومفاخرها ، ويستشهد لذلك بالكثير من الإثباتات والسجلات والشهادات والمراجع ، ثم يحاول تسويغ فخره وتعليل عنايته بنسب أسرته ، فيقول إنه لم يقصد « افتخاراً ولا ابتهاراً ، ولكنها شنشنة العرب المركوزة فى فطرتهم ، لا يبغون عنها حولا ، وهى المحافظة على أنسابهم ، والبحث عن أصولهم ، والتنقيب عن ماضيهم ، ولم ينفرد بذلك العرب ، بل هو عند غيرهم من الأمم ، وإن كانوا هم فيه أبعد مدى وأزهر منتدى [١] » .

ويظهر أن شكيب كان يلح هذا الإلحاح فى حديثه عن تنوخيته ومنذريته ولخميته ونسبته إلى آل البيت ، ليؤكد أنه عربى من صميم العرب ، وأنه من سلالة أجداد عرب يضربون فى أعماق العروبة إلى مدى بعيد ، ولينفى عن نفسه وأسرته ما قد يلقيه لقب « أرسلان » من ظل التركية عليه ، لأنه لقب مشهور لدى الأتراك ، والسجل الذى اعتمد عليه شكيب فى سلسلة نسبه ومفاخر أسرته بحاجة إلى بحث يحدد قيمته ، وليس هذا البحث مما يتسع له نطاق دراستنا هنا .

* * *

طائفة شكيب :

وشكيب من طائفة « الدروز » بلبنان ، فمن أولئك الدروز ؟ .

يقول الإمام الشيخ محمد عبده فى اللائحة التى وضعها لإصلاح سورية ، وقدمها إلى والى بيروت حوالى سنة ١٣٠٤ هـ :

« أما سكان جبل لبنان فهم طوائف مختلفة ، أكثرها عدداً وأقواها عدة طائفة الموارنة من النصارى ، ويليها طائفة الدروز ، ويوجد نزر يسير من أهل السنة ، وعدد قليل من الشيعة ، وعائلات من سائر الطوائف المسيحية » .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١١ .

ثم يقول : « والدروز كانوا قبل سنة ١٨٦٠ م من أقوى أنصار الدولة (العثمانية) وأشد الطوائف تعلقاً بها ، ولهم صفات فى الشجاعة والثبات تخولهم مقاماً يزيد فى الرفعة على مقام الموارنة فى الجبل ، ولكن بدأ فيهم الضعف بعد امتياز لبنان ، عندما صار النظام قاضياً بأن متصرفه يكون كاثوليكياً ، وأغلب رجال حكومته من المسيحيين ، وأصبحت قوى البأس لا توصلهم إلى المناصب كما كانت فى سابق العهد ، واضطروا لموالاة أهل السلطة ليحفظوا بعض ما بقى لهم ، أو ينالوا شيئاً مما يخولهم النظام نيله ، فانحطت بذلك أحوالهم .

وقد كانوا ولا يزالون فئتين : جنبلاطية ويزبكية ، فالجنبلاطيون استمالتهم حكومة انكلترة ، وأخص علائقهم مع قنصل الإنجليز ، واليزبكيون — وهم أقرب الفئتين إلى الدولة — مالوا إلى المشرب الفرنساوى ، وكرعوا منه حتى عموا ، غير أن الحكومة الإنكليزية لم تأل جهداً فى استمالتهم أيضاً [١] » .

وهناك من يقول إن الدروز أصلهم فارسى [٢] ولهم تعاليم ومبادىء أصلها من الفارسية ، ومن يقول إن أصلهم من الصليبيين [٣] ، وهناك من يقول إنهم أتباع أبى محمد الدرزى الذى والى الحاكم بأمر الله [٤] ، وذكر بعض الباحثين أن هذه الطائفة لها عقائد سرية ، وآراء تخالف تعاليم الإسلام [٥] ، ولكن شكيب يقول إنها من الفرق الإسلامية ، وأهلها يقيمون شعائر المسلمين ، ويصعب إخراجهم من الإسلام ، ولنا الظاهر ، والله يتولى السرائر [٦] .

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ، ج ٢ ص ٥٢٤ و ٥٢٥ .

(٢) الدكتور فيليب حتى ، مجلة الهلال عدد مارس ١٩٣٠ ، ص ٦٢٦ .

(٣) مجلة المجمع العلمى العربى ، مجلد ١١ ص ٤٥٥ من مقال اشكيب بعنوان (النقد التاريخى) .

(٤) صبح الأعشى ، ج ١٣ ص ٢٤٨ — طبعة المطبعة الأميرية ١٩١٨ م .

(٥) دائرة معارف القرن العشرين لوجدى ، المجلد الرابع ، ص ٢٦ وما بعدها . مطبعة دائرة للمعارف ١٩٢٤ .

(٦) جريدة الشورى ، عدد ٣١ ديسمبر سنة ١٩٢٥ .

ويقول شكيب في تسمية الدروز : « وإنما سموا الدروز نسبة إلى نشتكين الدرزي العجمي ، أحد دعاة الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي ، وهم يكرهون هذا الاسم ، ولكنه غلب عليهم بالرغم منهم ، والحق أن نحلتهم إسماعيلية فاطمية »[1].

وكما تتعدد الأقوال والآراء في الحكم على عقيدة الدروز وأصلهم ، تتعدد أيضاً في وصفهم ، فشوقي يقول فيهم :

وما كان الدروز قبيلَ شرٍّ ... وإن أُخذوا بما لم يستحقوا
ولكن ذادةٌ ، وقُراةُ ضيفٍ ... كينبوع الصَّفَا خشنوا ورَقُّوا
لهم جبلٌ أَشَمُّ له شِعَافٌ ... مواردُ في السحاب الجُون بُلْقُ[2]
لكل لبوءة ولكل شبل ... نضال دون غايته ورشق
كأن من السموأل فيه شيئاً ... فكل جهاته شرف وخُلْق !

ويعلق شكيب على ذلك بقوله : « قال شوقي هذه الأبيات ، وأحسن ما فيها أنه قال قولاً لم ينكره أحد عليه ، لأن الإجماع واقع على اتصاف بني معروف[3] بهذه الخلال التي عرفها شوقي فيهم : إما من التاريخ ، وإما في أثناء قدماته إلى الشام ، وإما من الاثنين معاً »[4].

وأما الشيخ محمد عبده فيقول في تقريره : « الدروز قوم خلو من العلوم بالمرة ، سُذَّج كأنهم في بدايات البداوة ، ولكنهم أذكياء بجودة الفطرة ، ولا يُخشى على كبارهم أن يخلعوا مذهبهم إلى مذهب آخر ؛ وإنما يُخاف على أبنائهم من ذلك ، وعلى كبارهم من الانقياد السياسي إلى دولة الإنكليز[5] » .

---

(١) كتاب عروة الاتحاد ، ص ٢٨ .

(٢) الشعاف : أعالي الجبل . والجون : الأسود والأبيض (ضد) وبلق : بيض .

(٣) سأل سائل عن سبب تسمية الدروز ببني معروف ، فأجابت مجلة الهلال قائلة : « عرفوا بهذا اللقب منذ القديم لمحض اشتهارهم بإسداء المعروف ، أي الجميل » . مجلة الهلال ، أكتوبر ١٩١٠ ، ص ٦٥ .

(٤) كتاب « شوقي » ، ص ٢٥٨ .

(٥) تاريخ الأستاذ الإمام ، ج ٢ ص ٥٢٥ .

وأما القلقشندى فقد قال عن القدماء منهم إنهم أشد كفراً ونفاقاً من « النصيرية » ، وإنهم « أبعد من كل خير ، وأقرب إلى كل شر »[١] .

ولكن الأمير شكيب كان سنياً ، وإن انتسب سياسياً وإدارياً إلى الدروز ، وكان يتعبد على طريقة السنيين ، فهو يصلى ويصوم ويحج كما يفعل جمهور المسلمين ، وقد أكدت لى زوجته هذه الحقيقة ، وقالت : إن الدروز يحرمون الزواج من سنية ، ولكن زوجى تزوجنى وأنا سنية مسلمة .

وقد تسبب هذا الوضع فى متاعب لشكيب ، فمن الدروز مَن لا يرونه درزياً كاملا ، ومن السنيين من لا يرونه سنياً كاملا ، فضاع جانب من حقه بين هؤلاء وهؤلاء .

* * *

والدا شكيب :

وُلد شكيب فى بيت أسرته العتيق الموجود فى حارة الأمراء ببلدة « الشويفات » وهى محلة آل أرسلان ، وكانت ولادته يوم الاثنين ، أول ليلة من رمضان سنة ست وثمانين ومائتين بعد الألف (١٢٨٦ ﻫ) الموافق للخامس والعشرين من ديسمبر سنة تسع وستين وثمانمائة بعد الألف (١٨٦٩ م)[٢] .

ويقول الأمير شكيب فى ذلك — وهو يداعب الأستاذ إسعاف النشاشيبى — : « وفى الحقيقة أنى مولود سنة ١٢٨٦ فى أول ليلة من رمضان ، وهذا مقيد بخط والدى ، إن شئت نطبعه لك بالزنكوغرافيا ، أو نصوره بالفتوغرافيا[٣] » .

وسماه أهله باسم « شكيب » ، ومعنى الاسم بالفارسية هو « الصابر » ،

---

(١) صبح الأعشى ، ج ١٣ ص ٢٤٨ .
(٢) ذكرى الأمير شكيب ، ص ١٢ .
(٣) جريدة الشورى ، ٢٥ يونيه ١٩٣٠ .

إذ يقول شيخ العروبة أحمد زكى باشا : « إن إخواننا الفرس يعبرون فى لسانهم عن الصابر بأنه : شكيب[١] » .

وقد ولد شكيب لأب له مكانته ومنزلته ، فهو الأمير « حمود » المتوفى فى الشويفات سنة خمس وثلاثمائة بعد الألف عن ثمان وخمسين سنة ، ودفن فى الشويفات بالقبة المعروفة ، « وكان عاقلا كريماً جسوراً ، ذا همة ومروءة ومعرفة ، وعين ثلاث مرات مديراً لناحية الغرب الأسفل ، وقرأ العربية على المرحوم الشيخ الإمام محيي الدين بن عمر اليافى ، وتعلم التركية ، وكان يحسن الإنشاء ، ويقرض الشعر »[٢] . ويقول عنه شكيب : « وكان والدى رحمه الله يحب لغة قومه ، وله مشاركة فى النحو والصرف والأدب ، وله نظم لا بأس به[٣] » .

ولما مات « حمود » سنة ١٨٨٧ م رثاه الشيخ سعيد الشرتونى بقصيدة مطلعها :

عصفت ببيت المجد نكباء الردى فلها بياض « الغرب » أصبح أسودا[٤]

* * *

وأما والدة شكيب فسيدة شركسية جليلة عاشت أكثر من مئة سنة ، وكان لها تأثير بليغ فى نفس شكيب ، وكان يحبها حباً جما ، ويترجم عن هذا الحب فى كثير من المناسبات ، ويعبر عنها غالباً بقوله : « سيدتى الوالدة » . وهو يحدثنا أنه بعد هجرته إلى أوربة فى سبيل قضايا العروبة والإسلام حاول أن يقابل والدته فى فلسطين ، ولكن الإنجليز حالوا دون ذلك[٥] . وأراد أن يحمل أمه على الهجرة

---

(١) المرجع السابق ، ١٠ مايو ١٩٢٨ . وفى القاموس : الشكب بالضم : العطاء والجزاء .
(٢) روض الشقيق ، ص ١٤٥ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٨ .
(٤) المرجع السابق ، ص ٢٧٠ ، والغرب هو المقاطعة الأرسلانية فى لبنان . والنكباء : ريح انحرفت ووقعت بين ريحين ، أو بين الصبا والشمال .
(٥) مجلة الفتح ، عدد ٦ فبراير ١٩٣٠ .

معه إلى جنيف فأبت ، لأنها لا تريد أن تسكن إلا بلاداً إسلامية ، وقد أشار شكيب إلى ذلك فى رسالة منه للسيد رشيد رضا بتاريخ ٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٢٣ م .

وحينما سافر شكيب إلى الحج سنة ١٣٤٧هـ — ١٩٢٨ م عمل ترتيباته لكى تحضر أمه مع ولدَىْ عمه أمين مصطفى أرسلان وشقيقه إلى السويس ، لكى يراها وهو فى طريقه إلى الحج ، وقد كان .

وحينما عاد من غربته إلى بيروت فى يونيه ١٩٣٧ استقبله عدد كبير من أبناء الشام ، وساروا به فى موكب مزدحم ، وكانت والدته قد جاءت فى ذلك اليوم لترى ابنها ، ونزلت بدار الأمير أمين ، فلما مر الموكب من هناك توقف عن السير ، ونزل الأمير فدخل الدار ، وقبَّل يدى والدته ، فلثمته ودعت له ، ثم عاد إلى موكبه الذى واصل سيره »(١) .

وبسبب حنينه إلى أمه وحبه لها وتقديره لمكانتها سكن فى أول هجرته بلدةَ « مرسين » بتركية ، على القرب من الحدود السورية ، ليكون قريباً من أمه ، فيَهُون عليها السفر إليه ، فيتمكن من مشاهدتها ، يقول : « وهكذا كان ، فقد أقمت بمرسين سنة ونصف سنة ، ولا سبب لاختيارى السكنى فى تلك البلدة إلا هذا السبب »(٢) .

هذه شواهد ناطقة على منزلة هذه الأم ومكانتها وأثرها فى نفس شكيب . ولعل مرد هذا ـ فوق ما للأمومة من مكانة ـ أن والدة شكيب كانت سيدة جليلة فاضلة .

* * *

---

(١) مجلة الشباب ، عدد ٢٣ يونيه ١٩٣٧ .

(٢) روض الشقيق ، ص ٢٦ . ويقول شكيب بعد ذلك : « ورجعت إلى سويسرة بعد أن رويت غليلى من مشاهدة السيدة الوالدة ، إذ كنت أخشى أن يوافى أحدنا الأجل قبل لقاء الآخر » .

نشأته وتعليمه :

بلغ شكيب الخامسة وبجواره أخوه نسيب المولود قبل شكيب بسنة ونصف السنة ، فهما لقرب السن من السن كأنهما توأمان[١] ، وهنا ندب لهما والدهما رجلا يعلمهما القراءة والكتابة فى الشويفات ، هو الشيخ مرعى شاهين سلمان — الذى صار فيما بعد شيخاً لقصبة الشويفات — فكان أول من تعلما عليه « ألف باء » ، ولما صعدت الأسرة للاصطياف فى « عين عنوب » ندب لهما والدهما معلماً ثانياً ، هو أحمد أفندى فيصل الذى أقرأهما القرآن الكريم ، حتى حفظا جانباً منه .

ورجعت الأسرة إلى « الشويفات » فدخل شكيب مع أخيه مدرسة الأمريكان فى حارة العمروسية بالشويفات ، حيث قضى مدة درس فيها مبادئ الجغرافية والحساب والإنجليزية .

وفى سنة ١٢٩٦ هـ — ١٨٧٩ م — أى وهو فى العاشرة من عمره تقريباً — دخل مدرسة الحكمة فى بيروت ، لمؤسسها المطران يوسف الدبس رئيس أساقفة الطائفة المارونية ؛ وكانت مدرسة مشهورة بإتقان اللغة العربية ، فظل بها إلى سنة ١٣٠٤ هـ — ١٨٨٧ م حيث تلقى خلال هذه السنوات الثمانى دروسَ العربية على الشيخ عبد الله البستانى ، والفرنسية على المعلم شاكر عون ، والتركية على عبد السلام بك التركى[٢] .

وقد تأثر شكيب هذه الفترة بالبستانى أكثر من غيره ، وظهر للشيخ نبوغُ تلميذه ومواهبه ، فذكر أنه أحسن تلاميذه وأقربهم إليه ، ولا عجب ، فقد أخذ شكيب ينظم الشعر ، ويكتب المقالات ، ويبدى أفكاراً عربية وإسلامية قوية . ومن شعره وهو فى الرابعة عشرة أنه كتب تحت أول صورة أُخذت له هذين البيتين :

---

(١) روض الشقيق ، ص ١٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٨ .

ونفسك فابدأ بتصويرها   بما أنت من خالد فاعلُ
وإلا مضى الجسم مع رسمه   ولا يخلد الزائلَ الزائلُ[١]

كما أنه يذكر أن على بك ناصر الدين أنشأ مجلة اسمها « الصفاء » ، صارت فيما بعد جريدة سياسية ، وخدمت العلم والأدب ، وكان لشكيب فيها أول مقالة صدرت من قلمه ، وذلك فى سنة ١٨٨٥ م[٢] .

وحينما زار الشيخ محمد عبده مدرسةَ الحكمة ، وقدَّموا إليه التلميذ شكيب قال له الشيخ : « إنى أعرف اسمك ، وستكون من أعظم الشعراء[٣] » . وكان لهذا القول فى نفسه أثر ، كما كان لصلة شكيب بالشيخ منذ ذلك العهد خير وثمر .

وشكيب يذكر اذا لحاتٍ عن توثق علاقته بالشيخ ، فيقول إن الشيخ نُفِى بعد ثورة عرابى إلى بيروت سنة ١٨٨٣ مع جماعة ، وكان شكيب يحصِّل العلم حينئذ فى الحكمة ، وفى سنة ١٨٨٥ قرأ خبرا عن مجلة « العروة الوثقى » ، وكان مع زملائه فى المدرسة مغرمين بأخبار الكتاب والشعراء : « فكنا نرى الدنيا كلها نظما ونثرا ، وكان كل ما خرج عن الإنشاء والشعر والأدب لا نكاد نُقيم له وزنا » .

وزار الشيخ سعيد الشرتونى صاحبُ معجم « أقرب الموارد » مدرسةَ الحكمة ، فسأله شكيب عن الشيخ محمد عبده فقال له : هذا الرجل إذا تكلم يخرج النور من فيه . فازداد شوقُ شكيب إلى الإمام ، وفى أواخر سنة ١٨٨٦ رأى شكيب الإمام لأول مرة فى احتفال بمدرسة الحكمة ، ثم تكرر اللقاء بعد أن قدمه الشيخ عبد القادر القبانى إلى الإمام ، وظهر أن الإمام يعرف اسم شكيب من قصائده التى ينشرها ، ويقرر شكيب أن الإمام قال له : « أنت ستكون من أحسن الشعراء » .

وصار شكيب يزور الشيخ ، ويتردد عليه للسمر والسماع ، وتعرَّف الإمام

---

(١) الباكورة ، ص ٩٣ . والديوان ، ص ٢٠١ .
(٢) محاضرات عن الأمير شكيب ، ص ١٢ .
(٣) مجلة المجمع العلمى العربى ، المجلد ١٥ ، ص ٤٢٣ ، سنة ١٩٣٧ .

والد شكيب ، وزاره فى منزله بالجبل ، وقدّره كثيراً ، وقال عنه : إنه أعقل من رأيت من أمراء الجبل[١] .

وستزداد صلة شكيب بالإمام على مر الأيام كما سنرى .

وكان شكيب مبرّزا مع أخيه على أقرانهما ، فكانا يتبادلان مقامى الأول والثانى بين التلاميذ[٢] .

وفى سنة ١٣٠٤ هـ — ١٨٨٧ م دخل شكيب مع أخيه المدرسة السلطانية ، حيث أقاما بها سنةً يتعلمان التركية والفقه . يقول شكيب عن أيامه فى هذه المدرسة : « وحضرنا مجلةَ الأحكام العدلية على المرحوم الشيخ محمد عبده ، وكنا نلازم المرحوم فى مجالسه الخاصة ، لاسيما أنه كانت انعقدت بينه وبين المرحوم والدى صداقة أكيدة ، فكنا نزوره فى منزله ببيروت ، وكان يزورنا فى بيتنا بالجبل »[٣] .

وفى موطن آخر يذكر لنا شكيب أنه تلقى فى المدرسة على يدى الشيخ التوحيدَ والفقه ، وأنه أكثر من التردد عليه ، حتى يقول شكيب : « ونظرا لكثرة ترددى عليه أقول إنى أعلم من هذا الأمر ما لا يعلمه غيرى ، فطالما لقيت بمجلس الأستاذ أصنافَ الملل والنحل ، وهى تفهم منه ، وهو يفهم منها[٤] » .

وفى سنه ١٨٨٩ م ذهب شكيب إلى دمشق ، وكان فى التاسعة عشرة من عمره ، فحضر مجلسَ مفتى الشام العلامة الشيخ محمد المنينى ، وجرى ذكرُ الشيخ محمد عبده فى المجلس فأثنى عليه مفتى الشام كثيراً[٥] .

وفى سنة ١٨٩٠ م كانت أول قدمة له إلى مصر ، فمكث شَيْعَ[٦] شهرٍ فى

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ، ج ١ ص ٣٩٩ و ٤٠٠ . من مقال لشكيب عن الإمام .
(٢) روض الشقيق ، ص ١٩ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٩ و ٢٠ .
(٤) تاريخ الأستاذ الإمام ، ج ١ ص ٤٠١ و ٤٠٢ .
(٥) المرجع السابق ، ص ٤٠٤ .
(٦) الشيع : المقدار (القاموس) وقد استعمل شكيب الكلمة فاستعملناها متابعة له .

الإسكندرية ، ثم قدم القاهرة فكان أكثر اجتماعه — كما أخبر عن نفسه — بالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، ورهطه المعهودين : سعد زغلول ، وأخيه فتحى ، والشيوخ على الليثى ، وعبد الكريم سلمان ، وعلى يوسف صاحب (المؤيد) ، وإبراهيم اللقانى ، وحفنى ناصف ، والسيد أحمد محمود ، والسيد إبراهيم الوكيل ، وأحمد زكى باشا الذى هو خاتمة من أتذكره من رجال تلك الحلقة رحمهم الله أجمع ، وكانت اجتماعاتنا متواصلة ، وأسمارنا متطاولة ، ومذاكراتنا للقاصى والدانى شاملة»[١].

ويحدثنا شكيب بأنه ذهب فى ذلك الوقت إلى زيارة الشيخ على يوسف فى مطبعة جريدته المؤيد ، فرآه جالساً يعالج تحرير مقالة فى دخول العام الهجرى الجديد حينئذ ، وهو لا يعرف كيف يصوغها ، وصار فى تعب زائد مع مقالته ، وهو يكتب ويشطب ، ويمحو ويثبت ، فقال شكيب : لو قلت كذا وكذا . فأجابه الشيخ : « بالله عليك تكتب أنت هذه الافتتاحية » . وفعل شكيب ، ونشرت المقالة[٢] .

وفى هذه الزيارة بدأ اتصاله بجريدة الأهرام ، فأخذ يراسلها ويكتب فيها باسمه أو بتوقيع رمزى ، كما بدأت صلته بجريدة المؤيد[٣] .

وفى أواخر سنة ١٨٩٠ م سافر إلى الآستانة ، وهناك تعرف بالسيد جمال الدين الأفغانى ، وأعجب به ، وتلقى عنه ، واستقى من مناهله ، وعرف منه الكثير من أمراض العالم الإسلامى ، كما أحس عن طريقه بالمهمة التى يجب أن ينهض بها فى هذا العالم .

وفى سنة ١٨٩٢ ذهب إلى فرنسة من الآستانة ، سائحاً ومستشفياً من مرض طرأ عليه ، وهناك تعرف بالشاعر أحمد شوقى ، وأعجب به وسمع منه[٤] ،

---

(١) كتاب « شوقى » ص ٤ .

(٢) النهضة العربية ، ص ١٧ و ١٨ .

(٣) كتاب « شوقى » ص ٧ . وذكرى الأمير شكيب ، ص ١٠ .

(٤) كتاب « شوقى » ، ص ١٠ .

، ورأى الغرب بعيني محمد عبده وجمال الدين ، ونظر إليـه نظرة خاصة ، ففتحت أمامه كذلك آفاق جـديدة غريبة ، وعاد بعدها إلى بيروت ، وتعرف إلى السيد رشيد رضا ، واتصل به فازداد وثوقاً فى ثقافته ومبادئه وغاياته ، وظلت هـذه الصلة منبعاً لـكثير من آرائه حتى قضى الشيخ رشيد رضا »[١] .

• • •

الذين أثروا فيه :

وهنا نقف وقفـة لنتعرف إلى الذين أثروا فى شكيب فـكرياً وأدبياً ، ثم لنتعرف إلى العوامل التى كونت شخصيته ، فإن شكيب الآن قد جاوز الثلاثين من عمره ، فاكتمل شبابه ، واستوى عوده ، وبرزت شخصيته .

لا نستطيع أن نلحظ تأثيراً كبيراً فى شكيب لمعلمه القراءةَ والـكتابة الشيخ مرعى شاهين سلمان ، ولا لمقرئه القرآن ، أسعد أفندى فيصل ، فقد كان شكيب حينئذ على أبواب التـكون الحسى والفـكرى .

ولـكن نلحظ الشيخ عبد الله البستانى أستاذَ شكيب فى مدرسة الحكمة ، فهو الذى فتقَ لسانَ الفتى بالعربية ، وحببها إليه ، وحرضه على تطلبها والشغف بها والعـكوف على معجماتها ، حتى يذكر الشيخ رشيد رضا أن شكيب كان فى المرحلة الأولى من طلبه العلم يستعين بكتاب (لسان العرب) ، ويراجعه حين الاشتباه[٢] .

ولقد كان البستانى شديدَ الإعجاب بشـكيب ، كثيرَ الثناء عليه ، حتى روى الشيخ خليل تقى الدين أنه سأل البستانى قبل وفاته بيومين : أى تلاميذك أحب إليك ؟ . فأجابه : أحبُّ تلاميذى إلىَّ الأميرُ شـكيب أرسلان[٣] .

---

(١) محاضرات عن الأمير شكيب ، ص ١٣ .
(٢) كتاب السيد رشيد رضا ، ص ٦٠٤ .
(٣) مناهل الأدب العربى — رقم ٢٨ عن شكيب أرسلان .

وهناك الشيخ محمد عبده الذى نفث فى صدر شكيب روحَ البحث فى تعاليم الإسلام ، مع العناية بلغة القرآن الكريم ، والاطلاع على مختلف الملل والنحل .

وهناك السيد جمال الدين الأفغانى الذى بث فى قلب شكيب حافزَ العناية بشئون العالم الإسلامى ، والبحث فى آلام الأمة الإسلامية وآمالها .

وهناك السيد رشيد رضا الذى أثر فى شكيب وتأثر بشكيب أيضاً ، وكان تأثير السيد رشيد يدور حول قضيتين كبيرتين تلاقتا فى أفهام طائفة من الكتاب والمصلحين — ومنهم رشيد وشكيب — وهما القضية العربية والقضية الإسلامية ، وكان أول لقاء لشكيب مع رشيد سنة ١٨٩٥ م .

وهناك الشاعر أحمد شوقى الذى أُعجب به شكيب ، وتسامر معه ، وسمع منه وأسمعه . وباحثه وعارضه ، وكان شوقى أيضاً رجلا يقول فى العروبة كما يكثر القولَ فى الإسلام .

وهناك رجال أثروا فى شكيب وهم فى عالم البقاء ، بما خلَّفوا من آثار طالعها شكيب ، وأدمن النظرَ فيها وتأثر بها ، ومنهم ابن المقفع ، وأبو إسحاق الصابى ، وابن خلدون ، والمقَّرى صاحب (نفح الطيب) ؛ وقد يكون الحديث عن تأثر شكيب بهؤلاء مقام آخر .

* * *

وأما العوامل التى كونت شخصية شكيب فيرى الأستاذ روفائيل بطى أنها تتركز فى ثلاث عوامل :

١ — أرومة شكيب الكريمة ذات الحسب الباذخ .

٢ — السجايا العربية القوية فى تنوخيتها ومنذريتها ، بحيث فاقت فى العشيرة ، وغنمت مفاخر بنى معروف منذ حلت لبنان .

٣ — توثب قومه وتحفز ملته ، فمرقه لبنانى نابض بالحيوية المتقدمة، وملته دعت إلى العمل خلال هذه الأعمال الطويلة فى خدمة العرب والمسلمين[١] .

وظائف وأعمال ورحلات :

وفى سنة ١٩٠٠ أقيم معرض باريس ، وحاول شكيب أن يسافر إليه فلم يستطع ، لأن الاستبداد الحميدى فى ذلك الوقت جعل السياحة إلى الخارج بإذن ، وكان هذا الإذن متعذراً بالنسبة إلى شكيب[٢] .

وفى سنة ١٩٠٨ عُيِّن فى وظيفة « قائمقام » لقضاء الشوف ، وظل فى هذه الوظيفة مدة يصرِّف شئونها بحزم وعزم ، وعدالة وكرامة ، فلم يقبل لنفسه أن يكون ظلاً للعثمانيين ، ولا أن ينفذ الجائر من أحكامهم وأوامرهم ، ولا أن يميز بين أتباع عقيدة وأتباع عقيدة أخرى من بنى قومه ، ولذلك اختلف مع السياسة العثمانية المحلية ، وأدى به ذلك إلى الاستقالة من منصبه .

وفى سنة ١٩١١ قامت الحرب الطرابلسية بين طرابلس الغرب (ليبية) وإيطالية ، فسارع شكيب إلى الاشتراك فيها مع المجاهدين من العرب والمسلمين ، ورافق شكيب فى هذه الحرب القوادَ الأتراك ومنهم أنور باشا ، وكان شكيب مخلصاً للدولة العثمانية ، يراها دولة الخلافة الإسلامية ، فالتعاون معها تعاون على خدمة الإسلام والمسلمين ، فجعل يثير العزائم ويستنهض الهمم[٣] .

وقد عهدت إليه آنذاك جمعية الهلال الأحمر المصرى فى قيادة ستمائة جمل تحمل أرزاقاً للمجاهدين فى برقة ، فقام بالمهمة خير قيام ، وظل فى موطن الجهاد ثمانية أشهر تقريباً[٤] .

---

(١) مجلة الكتاب (مصر) عدد فبراير ١٩٤٧ — من مقال بعنوان (شكيب أرسلان البطل .

(٢) كتاب « شوقى » ، ص ١٤٥ .

(٣) محاضرات عن الأمير شكيب ، ص ١٤ .

(٤) مجلة الكتاب ، عدد فبراير ١٩٤٧ .

وانتخب شكيب نائباً عن « حوران »[1] في البرلمان العثماني بالآستانة « مجلس المبعوثان » الذي بدأ سنة ١٩٠٩ .

وفي سنة ١٩١٢ سافر شكيب من برقة إلى الآستانة ، إذ عينوه مفتشاً لبعثات الهلال الأحمر المصري ، فنهض بواجبه نهوضاً إسلامياً متحمساً ، ثم سافر سنة ١٩١٤ إلى المدينة المنورة لإنشاء مدرسة فيها .

* * *

وهكذا نجد أن السياسة أخذت تستبد بوقت شكيب ونشاطه ، حتى زاحمت الأدبَ والبحث ، وحتى قال أحد الباحثين عن شكيب في ذلك الوقت : « جال جولةً رفعته إلى رتبة المشاهير ، ثم شغلته السياسة عن متابعة التحبير[2] » .

ثم شغلته السياسة إلى حد كبير ، فهو يشغل مناصبَ لها صلتها بالسياسة ، ويرحل رحلاته في سبيل قضايا قومه ودينه ، ويتصل بكبار المسئولين السياسيين في لبنان وفي الآستانة ، وهو يتدخل في السياسة اللبنانية والسياسة العثمانية ، فيجني ثمراً من هذا التدخل حيناً ، ويكتسب منه جمْراً حيناً آخر ، ويصيبه ما يصيبه من سوء الظن به أحياناً ، ومن التقدير لجهوده أحياناً أخرى ، وذلك لتعدد الأهواء والمشارب ، ولصعوبة التوفيق بين أمر الحاكم ورغبة المحكوم ، ولسريان التفرق والتمزق حينذاك في كيان المجتمعينِ العربي والإسلامي اللذين تعلق شكيب بخدمتهما والعمل من أجلهما .

ولكن الطابع البارز عليه حتى الآن هو تأييده للسياسة العثمانية[3] ، وجهودُه

---

(١) حوران سهل من سهول الشام عاصمته درعا « أذرعات » .

(٢) مجلة سركيس — السنة الخامسة — الجزء ١٥ — ص ٤٣٤ — مايو ١٩١٠ — مقال (حملة الأقلام) حليم إبراهيم دموس .

(٣) في سنة ١٩١٢ كانت جريدة (المؤيد) تنشر مقالات شكيب ، وتكتب تحت عناوينها هذه العبارة : « لسعادة الكاتب العثماني الكبير » . انظر رسائل الرافعي ص ٤ .

في سبيل الخلافة ، ودفاعه عن الإسلام والمسلمين : وسيظل حبه لدولة الخلافة رَدحاً طويلا من الزمان ، حتى نراه يتوسع في مدح دولة الخلافة بمثل قوله في ديوانه :

أحبكم حبَّ من يدرى مواقفكم ... في خدمة الدين والإسلام من حِقَبِ
أحبكم حب من يسعى لطيته ... في طاعة العقل ، لا في طاعة الغضب
مهما يكن من هنات بيننا ، فلنا ... معكم على الدهر عهد غير منقضب
كفى الشهادة فيما بيننا نسبا ... إن لم تكن جمعتنا وحدةُ النسب
مجدى بعثمان حامى ملتى ، وأنا ... لم أنس قحطان أصلى في الورى وأبى!

ولكن شكيب كان — قبل أن تشغله السياسة — قد وثَّق علاقتَه بكثير من الشعراء والأدباء وتأثر أدبياً بهذه العلاقة ، وشعرُه يدل على ذلك ، فهو حين يطبع ديوانه الأول « باكورة » سنة ١٨٨٢ م — وهو ابن سبع عشرة سنة — يُهدى نسخة منه إلى الشاعر المصرى عبد الله باشا فكرى ، ويجعل عبارةَ الإهداء شعراً ، ويطالع فكرى الديوانَ ، ويبعث إلى شكيب بقصيدة يقول منها عن شكيب :

تعلق قلبُه من عهد مهدٍ ... بكسب المجد مجتنباً لخُسْرِ
وأُولع بالمعالى والمعانى ... ونظم الشعر ، لا لطِلَاب وفر (١)

وفى سنة ١٨٩٥ تقريباً يبعث شكيب بقصيدة إلى الشاعر إسماعيل باشا صبرى — وكان حينئذ محافظاً للإسكندرية — وفيها يقول فى مدح صبرى :

ورعى بأرضك سيداً أضحت به ... الإسكندرية ثغرُك الضحاكا
شهم لعمرى ، ما أفضت بلاغة ... عنه قصرت عن المدى إدراكا (٢)

---

(١) ديوان الأمير ، ص ١٩ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢١ .

وحينما كان شكيب حول العشرين من عمره أخذ يعقد علاقات بينه وبين كبار الشعراء والأدباء ، فهو يتلمس الاتصال بالبارودى ، فيستشهد فى كتاباته أكثر من مرة بشعر البارودى على غير معرفة سابقة ، والبارودى فى منفاه بسيلان ، ومثل هذا الاستشهاد يرضيه ويعجبه فى غربته ، وما كاد البارودى يبعث إلى شكيب بمقطوعة شعرية يشكر له فيها التنويه باسمه حتى أجابه شكيب بقصيدة يمدحه فيها ، ويرتجى بها توثيق العلاقة بينهما .

وفى سنة ١٩٠٢ يرسل شكيب إلى البارودى قصيدة من طبرية ، وفى السنة ذاتها يعزيه فى ابنته بقصيدة ، فيرد عليه البارودى بقصيدة يقول فيها عن شكيب :

ألمعى له بداهـــة رأى تدرك الغيب من وراء لثام
وقريض كما وَشَت نسماتٌ بضمـــير الأزهار إثر الغمام
هـــزنى شعرُه فأيقظ منى فــكرةً كان حظها فى المنام (١)

ولا شك أن مثل هذه المراسلات الشعرية كان لها أثرها فى نفس شكيب وتفجير ينبوع الطموح الأدبى فى صدره .

وشكيب يمدح جمعاً من الشعراء والأدباء ، أمثال أحمد شوقى . وحافظ إبراهيم . وخليل مطران . وعبد الحميد الرافعى ، وعبد الله البستانى ، وقصائده فى هؤلاء تدل على علاقته بهم .

وكذلك رثى شكيب جمعاً من رجال العلم والأدب مثل : أحمد فارس الشدياق ، وإبراهيم اليازجى ، وعبد العزيز جاويش ، وأحمد تيمور ، وعبد السلام بفونه ، وغيرهم ، وهذا يدل على ارتباطه بهم وتأثره بهم .

---

(١) المرجع السابق ص ٥ — ١٧

في الحرب العالمية الأولى :

ثم قامت الحرب العالميــة الأولى بين تركية والحلفاء عام ١٩١٤ ، فأخذ شكيب يحرّض على الوقوف في صف العثمانيين ، والدفاع عن الخلافة ودولتها ، وعن الإسلام وجيشه ، وجعل يهاجم الحلفاء ، ويصفهم بأنهم أعـــداء العرب والمسلمين معاً ، وأنهم إذا كانوا يتظاهرون بتحرير البلاد العربية من الاستعمار ، فهم في الحقيقة والواقع يريدون إضعاف الدولة العثمانية أولا ، حتى إذا قضوا عليها وعلى سلطانها ، وسلخوا البلاد العربية منها ، عادوا ليحتلوا هذه البلاد العربية ، ويقتسموها فيما بينهم .

ولقد شارك شكيب بنفسه في بعض أعمال الحرب في صف الدولة العثمانية ، فهو مثلا يقول : « ولقد أقمت بقصبة معان شَيْعَ[1] شهر في أثناء الحرب العامة سنة ١٩١٥ م إذ كنت ذاهباً ومعي ١٢٠ مجاهداً من جماعتي إلى حرب الترعة منضما إلى الجيش العثماني الحجازي الذي كان يقوده وهيب باشا ، وسرنا من معان هبوطاً مستمراً إلى قلعة النخل في صحراء التيه ، ولقد قطعت في تلك الرحلة جانباً من جبال الشراة ، وعرفت أي جبال هي[2] » .

وأخذت هوةُ الخلاف تتسع بين العرب والعثمانيين ؛ بسبب مظالم الحكم العثماني من جهة ، وتطلع العرب إلى الحرية والاستقلال من جهة ثانية ، ومكر الحلفاء ووعودهم الخلابة من جهة ثالثة ، وأخذت مسافة البعد بين العرب والحلفاء تضيق بقدر ما تتسع مسافة الخلاف بين العرب وتركية .

وأدرك شكيب أن الحلفاء يخادعون العرب ، وكان ما زال يثق بالعثمانيين ، ويحرص على دولة الخلافة ، ويطمع في مجد الإسلام على يديها ، ولذلك عارض الثوار

---

(١) شيع (بفتح فسكون) : أي مقدار .

(٢) جريدة منبر الشرق ، عدد ٣٠ مارس ١٩٥٣

من العرب ، وأخذ يحذرهم العواقبَ ، ولا عجب فهو الذى ألقى قبل الحرب العامة الأولى بسنة قصيدةً فى الآستانة ، وفى آخرها يحذر من استنامة أمته للأجنبى الدخيل . ومن أخطار الشقاق بين العرب والترك ، فيقول فى ختامها :

فيها وطنى لا تترك الحزمَ لحظة ... بعصرٍ أُحيطت بالزحام مناهله
وكنْ يقظاً ، لا تستنم لمكيدةٍ ... ولا لكلام يشبه الحقَّ باطله
وكيد على الأتراك قيل مصوَّب ... ولكن لصيد الأمتين حبائله
تذكَّرْ قديمَ الأمر تعلمْ حديثَه ... فكلُّ أخير قد نَمَتْه أوائله(١)
إذا غالت الجُلَّى(٢) أخاك فإنه ... لقد غالك الأمر الذى هو غائله
فليست بغير الاتحاد وسيلة ... لمن عاف أن تُغْشَى عليه منازله
وليس لنا غير الهلال مظلة ... ينال لديها العزَّ من هو آمله
ولو لم يفدنا عبرة خطب غيرنا ... لهانَ ، ولكن عندنا من نسائله
سيعلم قومى أننى لا أغشهم ... ومهما استطال الليلُ فالصبحُ واصله

وقد نشر شكيب القصيدة كاملة فى ديوانه المطبوع سنة ١٩٣٥ م وعلَّق على البيت الأخير بقوله : « نعم ، وقد انتهى الليل ، وجاء الصبح ، وظهر أننا ما غششنا قومنا ، وإنما حذرناهم من أن ينخدعوا(٣) » .

ولعله كان قد علِمَ بنوايا الحلفاء فى تقسيم البلاد العربية ، ولذلك يتحدث عن عدم اشتراكه فى الثورة العربية ، وأنه عرف أن البلاد العربية ستكون نهباً مقسماً عقب الحرب بين انكلترة وفرنسة ، ثم يقول :

« وهذه المسائل سبقت لى عنها كتابات مطبوعة قبل الحرب وفى أثناء

(١) نمته : عزته .
(٢) الجلى : الأمر العظيم .
(٣) الديوان ، ص ١١٢ .

الحرب ، قد أعاد بعضهم نشر شيء منها منذ سنوات ، وهو كتاب مفتوح كنت نشرته أيام الحرب موجهاً إلى أحد الأشراف قائلا فيه : ماذا تصنعون ؟ أتقاتلون العرب بالعرب ، وتسفكون دماء العرب بأيدي العرب ، لأجل أن تكون سورية لفرنسة ، والعراق لانكلترة ، وفلسطين لليهود[١] » ؟ .

والواقع أن شكيب على الرغم من وقوفه بجانب العثمانيين ، ومعارضته للثورة العربية فى تلك الفترة ، قام بجهود كثيرة لبلاده وأبناء وطنه ، وهذا هو الأستاذ رفائيل بطى يقول : « ولا نكران فى أن شكيب أرسلان تعاون مع قائد الجيش العثمانى الذى لُقِّب بالسفاح ، بعد اضطهاده لأحرار العرب ، وكتب فى جريدة (الشرق) التى أسسها القائد للدفاع عن سياسته ، ولكن المنصفين من رجال العرب أكدوا مراراً باللسان والقلم — بعد أن انقشعت غياهب الحرب العظمى الأولى ، وبمناسبات كثيرة فى حياة الفقيد الجليل وبعد وفاته — بأنه كان واسطة خير لكثيرين ، ودريئة شر عن كثيرين فى تلك الأيام الحالكة[٢] » .

ويذكر بطى أن الأمير سعى فى إنقاذ كثير من المنفيين إلى الأناضول من أعيان سورية والجبل ، وخفف من كارثة المجاعة فى لبنان ، وحمل الدولة على توزيع المال على فقراء اللبنانيين ، وكانت له يد طولى فى المحافظة على امتيازات لبنان التى استفاد منها الأهلون كثيراً فى تلك الأيام الحرجة ، وأقنع أنور باشا بالموافقة على دخول مراكب أمريكية تنقل خمسة عشر ألف طن دقيق إلى لبنان ، إلا أن الحلفاء رفضوا هذا ، خشية ذهاب الدقيق إلى ألمانية ، فبقيت المثون فى الإسكندرية ، وكان ذلك فى أوائل سنة ١٩١٧[٣] .

---

(١) جريدة الشورى — ١٠ ابريل ١٩٢٩ .

(٢) مجلة الكتاب — فبراير ١٩٤٧ . ص٥٦٩ .

(٣) المصدر السابق . وذكرى الأمير ، ص ٣٢٩ .

رحيله إلى أوربة :

وجعل شكيب يبذل النصح للعثمانيين رجاء أن يرعووا أو يعتدلوا ، ويحاول أن يقرب مسافة الخلف بينهم وبين قومه ، ولكن الخرق كان قد اتسع على الراقع . وأسرف الحكام العثمانيون فى سياستهم الخرقاء التى يقودها الاستبداد والغرور ، حتى جعلوا العرب يزدادون إعراضاً عنهم وبغضاً لهم ، وميلاً إلى الحلفاء وتعاوناً معهم .

وانتهت الحرب بهزيمة العثمانيين هزيمة كاسرة ، وأدركت العربَ نشوة مؤقتة لاعتقادهم أن يوم الفوز فى قضيتهم على الأبواب ، وبدا لشكيب أن سياسته التى كان يتبعها قد باءت بالإخفاق ، وأنه لم يبق له مقام بين قومه الذين خالفهم فى الرأى ، وعارضهم فى الخطة ، وانتهى الجانب الذى يؤيده إلى الهزيمة ، فقرر الرحيل .

وغادر لبنان إلى تركية ، وأقام فى بلدة (مرسين) القريبة من الحدود السورية ، وقد صرح شكيب أكثر من مرة بأنه أقام فى (مرسين) ليسهل عليه رؤية أمه التى يحبها ويجلّها ويطغى عليه حنينهُ إليها . ولكنا نستطيع أن نضيف إلى ذلك سبباً آخر وهو أن (مرسين) بلدة تركية ، والنزعة العثمانية لم تغادر صدرَ شكيب بعد .

وكثرت الآراء والأقوال فى بيان السبب الذى دعا الأمير إلى ترك وطنه ، فقائل يقول إن الأمير لم يترك سوريةَ باختياره ، بل إن السلطات الفرنسية التى احتلت البلاد هى التى نفته ، وقائل يقول إن حكماً صدر بالإعدام على شكيب فى فرنسة ، فخاف تنفيذ الحكم ففر ، ويعلق شكيب على هذه الأقوال بقوله :

« وكلامهم يناقض بعضهُ بعضاً ، فبينما نراهم يقولون إننا فررنا من سورية على أثر الحكم علينا بإعدام الحياة فى المحاكم الأفرنسية ، إذا بهم يعترفون بأننا لم نبرح سورية إلا من تلقاء أنفسنا ، وهذا هو الواقع ، فإننا أبينا أن نسكن سورية ما دام الحكم فيها للأجنبى »[1] .

---

(١) مجلة الشباب ، عدد ١٢ إبريل ١٩٣٨ ، وانظر أيضاً عدد ٢ فبراير سنة ١٩٣٨ ففيه حديث عن سبب خروج شكيب من سورية .

ومهما يكن من أمر فلم يكن هناك مفر من خروج شكيب بعد ما صارت الأمور إلى ما صارت إليه ، فسياسته لم تنجح ، والعثمانيون قد انكسروا ، والقوم من حوله يخالفونه في الرأي ، وهم في موقف النصر كما يعتقدون ، وعداوة شكيب لفرنسة واضحة ، وهي اليوم حاكمة البلد المسيطرة عليه ، ولو بقي شكيب لما أمن المتاعب والمخاطر ، ولما استطاع أن ينال حريته في الحركة والكلام والكتابة ، وهو رجل لا يطيق السكونَ أو الهدوء ، وإذن فلا مفر من الرحيل (١)

ومكث شكيب غير بعيد من سورية ، وشاهدَ فيصل الأول وهو يجلس على عرشها ملكاً عربياً ، ترنو إليه الأبصار وملؤها الأمل والرجاء ، ففرح شكيب لهذا ، وتمنى المزيد من الخير لقومه وبلاده ، ثم رأى أن تركية قد تبدلت فيها الأحوال فالكماليون قد ألغوا الخلافة ، وأداروا ظهرهم للاسلام والمسلمين ، وللعرب بطبيعة الحال ، فلم يبق مجال أمام شكيب لكي يفكر في التوفيق بين العرب ودولة الخلافة ، فقد انتهت دولة الخلافة ، وبدت البغضاء للعرب من أفواه حكام الترك أكثر من ذي قبل ، فراجع شكيب نفسه ، وكيَّف موقفه تكييفاً جديداً ، وأخذ يدعو إلى الوحدة العربية ، بعد أن كان يعمل لتحقيق الوحدة الإسلامية ، وكان أول من دعا إلى إنشاء جامعة عربية (٢) .

يقول شكيب : « إننا منذ انتهاء الحرب العامة توجهت همتنا إلى إيجاد الوحدة العربية » .

ويحكى أن الملك فيصل الأول قال له : « أشهد أنك أول عربي تكلم معي عن الوحدة العربية ، وأراد أن تكون وحدة عملية » (٣) .

ويقول شكيب أيضاً : « ولما وضعت الحرب أوزارها ، وتبين الرشد من الغيّ ،

---

(١) انظر روض الشقيق ، ص ٢٤ .

(٢) ذكرى الأمير شكيب ، ص ٤٥ من كلمة خبيب جاماتي .

(٣) ذكرى الأمير ، ص ٣٢٨ . وكتاب السيد رشيد رضا ، ص ١٦١ .

وعرف العرب أن الإنجليز غدروا بهم ازداد الملك فيصل اعتقاداً بى ، وعرف أنى من أول الأمر لم أعارض تلك الحركة إلا خوفاً على العرب أنفسهم ، وحرصاً على الجامعة الإسلامية »[١] .

ويروى الدكتور رئيف أبو اللمع أن الأمير قال له بعد قليل من انتهاء الحرب العالمية الأولى : « العرب أمة كاملة ، أى أن لها جميع العناصر التى يقتضيها كيان الأمم من الوجهة السياسية والاجتماعية ، فلها عرق واحد ، ولسان واحد ، وأكثرية دين واحد ، وتاريخ واحد ، كما أن لها مصالح واحدة ، ومنافع واحدة ، وآمالاً واحدة .

ولكن الذى فت فى عضد هذه الأمة وأضعفها وأفقرها وأقصاها عن السير فى موكب المدنية والرقى هو تفكك حلقاتها واستعمار الأجنبى لها ، فأنا جندى من جنودها له ثلاثة أهداف جلية واضحة تمام الوضوح ، الأول هو الاتحاد ، والثانى هو التحرر ، والثالث هو السير فى موكب النهضة والعلم والبحث »[٢] .

• • •

وبعد فترة سافر شكيب إلى برلين واشترى فيها بيتاً رخيص الثمن ، خلال سقوط النقد الألمانى ، وكان يعتزم الإقامة فى برلين ، ويقول شكيب عن هذا البيت من رسالة خطية له بين يدى بعث بها إلى السيد رشيد بتاريخ ٢ ذى الحجة ١٣٤٣ هـ — ١٩٢٤ م : « كنت اشتريت بيتاً فى برلين أيام ذلك الرخص ، وهو وكالة فيها ٢٠ منزلا ، أى عشرون عائلة ، كل عائلة فى سكن من ٤ إلى ٦ غرف ، والآن يساوى ٢٠٠٠ جنيه ، وربما يأتى وقت يساوى فيه ١٠ آلاف جنيه ، ودخله السنوى الآن ٧٠٠٠ مارك ذهب ، كلها تذهب رسوماً ، لكننا نأمل المستقبل » .

وفى هذه الرسالة يذكر أنه فى أزمة مالية شديدة لكثرة النفقة والتبرعات

---

(١) كتاب السيد رشيد رضا ، ص ١٠٠ .
(٢) ذكرى الأمير ، ص ٤٤٢ .

وقلة الموارد ، وما تحتاج إليه رحلاته من أموال مع كثرة هذه الرحلات ، حتى يقول في الرسالة عن نفسه : « هو من قطار إلى قطار ، لا يستقر في شرق ولا في غرب » .

ورحب بإقامته القوم هناك لسابق صلته بهم قبل الحرب ، فقد رافق الأمبراطور غليوم في أثناء زيارته لسورية ، وكانت له صداقات مع عدد من القواد الألمان ، وكان ينتصر لألمانية في أثناء الحرب بمقتضى أنها في صف العثمانيين ، ومن قبل زار شكيب قبر الشاعر الألماني المشهور «غوته» ومدحه ببعض شعره ، حيث قال :

مذ قيل هذا بيت غوتة زرته ... إذ كان للشعراء كعبةَ قاصد

هو سيد الشعراء عند قبيله ... منه بجيد الدهر عقد فرائد

طأطأت رأسيَ فرجتي في بابه ... ولكم رأت عتباته من ساجد

إن لم يكن من أمتي وعشيرتي ... فالناس في الآداب أمة واحد

« أو فاتنا نسب يؤلف بيننا ... أدب أقمناه مقام الوالد » ! [(١)]

* * *

وفي سنة ١٩٢١ م حضر شكيب المؤتمر السوري الفلسطيني الذي اجتمع بقاعة مبنى البلدية بقسم (بلانباليه) بجنيف من ٢٥ أغسطس إلى ٢١ سبتمبر ١٩٢١ ، وكان رئيسه ميشيل لطف الله ، ونائب الرئيس السيد رشيد رضا ، وسكرتيره العام شكيب أرسلان ، وقد طالب المؤتمر باستقلال سورية ولبنان وفلسطين ، والاعتراف بحقها في الاتحاد ، وإعلان إلغاء الانتداب حالا ، وقد تحدثتْ عن هذا المؤتمر جريدة (منبر الشرق) لصاحبها على الغاياتي في عدد ١٣ مارس سنة ١٩٥٣ ..

وفي سنة ١٩٢٥ طالبه أعضاء اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني

---

(١) أناتول فرانس في مباذله ، هامش ص ٢٥٨ و ٢٥٩ . والبيت الأخير جاء على طريقة التضمين ، لأنه لأبي تمام ، وأصله : « أو يفترق نسب ... » وفي رواية أخرى : « أو تفترق نسباً . . . . إلخ

التى تألفت بالقاهرة سنة ١٩٢٢ بأن يكون ضمن الوفد العربى الذى يدافع عن قضايا العرب أمام جمعية الأمم بجنيف فى سويسرة ، فاستجاب لذلك ، وانتقل من برلين إلى جنيف .

ويبدو أن هذا الانتقال لم يأخذ شكله النهائى إلا فى ربيع سنة ١٩٢٦ ، وأن أسرته ظلت فى (مرسين) إلى هذا التاريخ ثم لحقت به بعد ذلك ، كما جاء فى جريدة « الشورى » حينذاك [١] .

ويقول شكيب عن مهمته لدى جمعيـة الأمم : « وقمت بواجبى مصحوباً بالوثائق اللازمة ، ولـكننى رأيت أنه لا يمكننى القيام بمهمتى هذه ، إلا بالإقامة الدائمة بسويسرة ، فعند ذلك استقدمت عائلتى من مرسين ، وألقيت عصا التسيار فى هذه البلاد [٢] » .

ويظهر أن الأمير كان يتردد على سويسرة فى رحلاته قبل التاريخ السابق ، لأن الأستاذ على الغاياتى يقول إن الأمير حضر إلى سويسرة لأول مرة ونزل فى لوزان فى أبريل سنة ١٩١٩م [٣] . وشكيب نفسه يذكر لنا أنه تقابل مع السيد رشيد رضا فى جنيف سنة ١٩٢١ ، وأنه كان مقيما بها حينئذ [٤] .

واتخذ شكيب لنفسه بيتاً قريباً من بحيرة (ليمان) ، وهو « بيت متواضع الأثاث ، قليل الغرف والصالات ، ففيه صالة للاستقبال ، وغرفة للمكتبة ، وغرفتان للعائلة لا غير » [٥] .

---

(١) جريدة الشورى — عدد ٢٥ فبراير سنة ١٩٢٦ حيث تقول إنها علمت أن الأمير سيقطن سويسرة ، وأن أسرته ستلحق به .

(٢) كتاب السيد رشيد رضا ، ص ٣٣٩ .

(٣) جريدة منبر الشرق ، عدد يناير ١٩٥٣ .

(٤) كتاب السيد رشيد رضا ، ص ١٥٠ . وانظر أيضاً ص ١٥٨ فيها ما يفيد أنه كان مقيما بجنيف حينئذ .

(٥) مجلة الفتح ، عدد ٩ ربيع الثانى ١٣٥١ ، مقال (شكيب أرسلان) لمحمد المكى الناصرى .

وفى هـذا المنزل المتواضع ظل شكيب ربع قرن يدافع عن بلاده ودينه ، ويطالب بحقوق العرب والمسلمين ، ويكتب ويؤلف ، ويبحث ويراسل ، وقد يرحل عنه إلى إيطالية أو ألمانية أو انجلترة أو أمريكة أو غيرها ، ثم يعود إليـه ليواصل كفاحه من أجل العرب والمسلمين على مقربة من جمعيـة الأمم ، تحت اسم (الوفد السورى الفلسطينى) الذى اشترك فيه طائفة من رجال العرب أمثال : ميشيل لطف الله ، ورشيد رضا ، وتوفيق اليازجى ، ورياض الصلح ، ونجيب شقير ، وسليمان كنعان ، ومنهم من استمر حيناً قصيراً وانصرف إلى شئون أخرى ، ومنهم من استمر حيناً أطول ثم انصرف ، ولم يصبر على مزاملة الأمير فى جهاده سوى إحسان الجابرى الذى اختلف معه كثيراً ومع ذلك ظل معه [١] .

وكانت اللجنة التنفيذية للمؤتمر السورى الفلسطينى بالقاهرة أشبه بالمسيطرة على الوفد السورى الفلسطينى بجنيف ، وفى طليعته شكيب . وحدثت خلافات بين اللجنة والوفد ، وحاول ميشيل لطف الله رئيس اللجنة أن يزحزح شكيب عن قيادته الفعلية للوفد ، وذلك بإخراجه منه ، ولـكنه لم يفلح لمثابرة شكيب من جهة ، ولمعاونة السيد رشيد رضا له من جهة أخرى [٢] .

وقد انتهز أعداء العروبة والإسلام فرصة الخلاف المتكرر بين اللجنة والوفد ، وبين شكيب وميشيل ، فأخذت تزعم أن شكيب لا يمثل السوريين ، بل لا يمثل الدروز أنفسهم ، فأرسل سلطان باشا الأطرش زعيم الدروز التوكيلَ التالى إلى شكيب بتاريخ ١٥ آب سنة ١٩٢٥ م ونصه :

« عطوفة الأمير شكيب أرسلان الأفخم

باسم عموم سكان جبل الدروز الذين اعتدت عليهم السلطة الفرنسوية بالضغط والاستبداد وضرب الطيارات ، وأنـكرت حقوقهم التى كانت اعترفت بها قبلاً ،

---

(١) كتاب السيد رشيد رضا ص ١٠٨ .

(٢) هناك حديث واسع عن هذه الناحية فى الرسائل المتبادلة بين شكيب ورشيد .

قد وكلنا عطوفتكم بمخابرة جمعية الأمم التى هى مسئولة عن أعمال الدولة المنتدبة فى سورية . وتفهيمهم أننا حملنا السلاح ، ودافعنا عن أطفالنا وعيالنا مضطرين ، بعد أن استعملنا كل الوسائل السلمية الأدبية لرفع ظلم الفرنساويين ، وأن توضحوا لجمعية الأمم أنها أيضاً مسئولة عن دمائنا المسفوكة ظلماً ، وكذلك أن تعلنوا أن الله نصرنا على الظالمين .

وعطوفتكم أدرى بالأحوال التى أدت إلى ثورات كبيرة فى سورية ، وبحقيقة رغائب السوريين عامة ، ونحن منهم واقبلوا فى الختام فائق الاحترام »(١) .

وكان شكيب يتنقل بين سويسرة وألمانية وغيرهما ، وفى سنة ١٩٢٥ أقيمت له عدة حفلات تكريمية فى ألمانية ، فهذه حفلة أقامتها الجالية السورية والطلبة العرب بألمانية . وهذه ثانية أقامها الحزب الوطنى الألمانى ، وثالثة أقامتها جمعية الشعائر الإسلامية ببرلين ، ورابعة أقامتها الجمعية العربية ؛ وفى كل حفلة منها يسمع شكيب الكثير فى مدحه وتقريظه نثراً وشعراً ، وكذلك يقول الكثيرَ عن قضايا العرب وحاضر العالم الإسلامى .

وفى نهاية سنة ١٩٢٧ وبداية سنة ١٩٢٨ دب الشقاق بين شكيب وبعض أعضاء الوفد السورى الفلسطينى ، وقرر شكيب ومعه رياض الصلح تركَ الوفد ، وتضاربت الأقوال فى سبب ذلك ، وعلقت جريدة الشورى القرار بطريقتها فقالت : « قد يكون الأمير وزميله سئما ، أو اعتراهما القرف ، ليس من صعوبة الجهاد السياسى مع الغاصبين ، بل من سفاهة أغرار السياسة ، وتلون صغار الأحلام الذين تركوا مجاهدةَ الغاصب ، ولولا وجودهم شطر سب المخلصين للبلاد »(٢) .

وروى أن السبب فى الخلاف هو أن « المسيو جوفنيال » المفوض السامى

---

(١) جريدة الشورى ، عدد ٢٢ أكتوبر ١٩٢٥ .
(٢) جريدة الشورى ، عدد ٢٩ ديسمبر ١٩٢٧ .

الفرنسي في سورية زمن الاحتلال استدعى الأمير إلى باريس للتفاوض معه في القضية السورية سنة ١٩٢٨ ، واستجاب شكيب للدعوة . وتقدم إلى المفوض بلائحة ، فغضب من ذلك ميشيل لطف الله رئيس الوفد السوري الفلسطيني . ورأى أن في هذا التصرف من شكيب افتئاتاً على حق رياسته للوفد ؛ فحدث الشقاق بينه وبين شكيب ، ووجد لطف الله وأنصارُه في لائحة شكيب ما يصلح لإلهاب شعور الجمهور ضد شكيب ، إذ فيها ما يلي :

١ — استخدام السوريين لأموال فرنسة في الاستثمار إذا احتاجوا إلى أموال .

٢ — جميع قروضِ سورية تكون من فرنسة إذا احتاجت سورية إلى قروض .

٣ — مدربو الجيش السوري يكونون من فرنسة .

٤ — تعليم اللغة الفرنسية يكون عاماً إلزامياً في سورية .

٥ — تعقد محالفة بين سورية وفرنسة لمدة ثلاثين سنة .

٦ — تتبادل الدولتان الإعانة بالجنود في حالة الحرب . . . إلخ [1] .

وقد يرضى بهذه الأمور أصحابُ التدرج في نيل الحقوق ، ولكن الشعوب لاترضى بهذا ، ولذلك سببت اللائحة لشكيب قدراً من المتاعب ، وهو نفسه يقول : « لذلك منذ وصلت لائحتي إلى اللجنة التنفيذية توجهت عليها الاعتراضات ، بعضها من أناس وطنيين مخلصين ، كانوا يظنون أن المبالغة في التشديد أجدر بالمصلحة الوطنية وأدنى إلى النجاح ، وبعضها من أناس متعنتين ليس لهم مرمى إلا الانتقاد بأي وجه كان ، وهم لطف الله وجماعته » [2] .

* * *

---

(١) المرجع السابق ، عدد ٢١ يونيه ١٩٢٨ .
(٢) المرجع السابق ، عدد ٢٨ يونية ١٩٢٨ .

رحلات أخرى :

وفى شتاء سنة ١٩٢٧ دُعى شكيب من عرب المهجر فى أمريكة الشمالية إلى زيارتهم فى موطنهم ، ليرأس المؤتمر الذى عقدوه فى بلدة « ديترويت » فلبى الدعوة ، ووصل نيويورك يوم ٤ يناير سنة ١٩٢٧ ، وأقيم له كثير من حفلات التكريم التى قيل فيها الكثير عن شخصه وجهوده ، كما قال فيها الكثير عن العروبة والإسلام ، وهناك هاجمته بعض الصحف التى يصدرها اللبنانيون ، ووصفته بأنه الرجل الثانى بعد جمال باشا السفاح القائد التركى الذى قتل عدداً من أحرار العرب بلبنان خلال الحرب العالمية الأولى ، وقد رد عليها شكيب مفنداً التهمة فى سلسلة مقالات نشرتها جريدة (مرآة الغرب) أعاد فيها كثيراً من أقواله التى نشرها قبل هذه السلسلة بثلاث سنوات فى مجلة (البيان)[١] .

وفى نوفمبر سنة ١٩٢٧ دعى شكيب من روسية لزيارتها بمناسبة الاحتفال بمرور عشر سنوات على تأسيس الدولة الحمراء ، فتردد فى قبول الدعوة خوفاً من القيل والقال ، ولكنهم ألحوا فقبل ، وخصصوا له عربة فى القطار ، واستقبلوه استقبالا حماسياً ، وشاهد العرض العسكرى الروسى فى موسكو ، وعاد فكتب مشيداً « بنظافة الجند ، وحسن شارتهم ، ورشاقة حركتهم ، واتحادهم » .

وتساءل : لماذا لايعقد العرب صلات رسمية مع روسية ؟ . وقال إن الكراهية كانت بين العرب والروس بسبب الدولة العثمانية ، وقد انفصل العرب عن تركية : « ولما لم يبق للعرب علاقة بتركية فليس بيننا وبين الروس إلا المودة والصفاء والسلام »[٢] .

* * *

(١) المرجع السابق ، عدد ٢٦ مايو ١٩٢٧ .
(٢) المرجع السابق ، عدد أول ديسمبر ١٩٢٧ وعدد ٨ ديسمبر ١٩٢٧ .

وفى سنة ١٣٤٨ هـ — ١٩٢٩ م حج شكيب بيت الله الحرام بدعوة من الملك عبد العزيز آل سعود ، حيث تقابلا وتحادثا ، وأعجب الملك بالأمير ، وكتب شكيب عن رحلته إلى الحجاز كتابه « الارتسامات اللطاف فى خاطر الحاج إلى أقدس مطاف » الذى ذكر فيه أنه شعر حينما وصل (جدة) أنه عربى حر فى بلاد عربية حرة ، لأن الاستعمار ضاربٌ أطنابه فى بلاد العرب ، سوى مملكتى ابن سعود ويحيى بن محمد حميد الدين ملك اليمن [1] .

وأصيب شكيب فى أثناء الرحلة بتحرك مرض الصدر عليه ، وهو المرض الذى أصابه من قبل فى أوربة [2] . فقضى بسبب ذلك مدة فى مدينة الطائف ، وعاد من حجه إلى مصر يوم ١٨ سبتمبر سنة ١٩٢٩ [3] ، ولقى أمه فى مدينة السويس حيث قضى أربعة أيام ، ثم عاد إلى سويسرة .

وفى ربيع سنة ١٩٣٠ كتب شكيب يصور جهوده ومتاعبه فيقول :

« نحن هنا فى ديار غربة ، وجميع أشغالنا نقوم بها بأنفسنا ، إذ ما معين ولا مساعد ، ونكتب بخط بناننا ألفاً وخمسمائة صفحة فى كل شهر ، إذ ليس عندنا كاتب سر ولا حافظ أوراق ، ولدينا أشغال كثيرة مدهشة ، تتعلق بمهمتنا السياسية التى هى قضية سورية وقضية فلسطين وغيرهما من القضايا العربية .

وعلينا أن نقرأ الصحف اليومية ، وكثيراً من المجلات والكتب ، وأن نراقب حركة العلم والسياسة ، وحق العلم أن يُطاب من المهد إلى اللحد ، ولقد بلغنا سن الستين ، وأصبحنا مضطرين لمداراة صحتنا ، وتجدنا نغسل أعيننا بمغلى البابونج مرتين وثلاثاً كل يوم بدون فتور ، تسكيناً للحريق الذى يصيبها من فرط الكتابة والمطالعة » [4] .

---

(١) الارتسامات اللطاف ، ص ١٠ .

(٢) كتاب السيد رشيد رضا ، ص ١٨٢ .

(٣) جريدة الشورى ، عدد ٢٠ سبتمبر ١٩٢٩ .

(٤) جريدة الشورى ، عدد ٣٠ أبريل ١٩٣٠ . من مقال لشكيب عنوانه « لطفا وعطفا » .

وفى صيف سنة ١٩٣٠ قام شكيب برحلته إلى الأندلس (أسبانية) مارًا بفرنسة ، دارساً الأماكن التى فتحها العرب فى تلك البلاد ، وقد بدأ رحلته يوم ١٨ يونيه سنة ١٩٣٠[1] من لوزان إلى باريس ، ثم زار جامع قرطبة ، وأخذت له صورة وهو جالس داخل المسجد ، وقد نشرت هذه الصورة فى أول كتاب «ذكرى الأمير شكيب أرسلان» . وزار بقية المشاهد العربية هناك .

ورجع شكيب من رحلته فى وسط سبتمبر سنة ١٩٣٠[2] ، وكتب عن هذه الرحلة كتابه «تاريخ غزوات العرب فى فرنسة وسويسرة وإيطالية وجزائر البحر المتوسط» حيث تحدث فيه عن أمجاد العرب وفتوحاتهم فى هذه البلاد ، وعما خلفوه فيها من آيات الحضارة والمدنية .

وفى هذه السنة بدأ يصدر مجلته «الأمة العربية» باللغة الفرنسية ، ليدافع بها عن قضايا العرب باللسان الفرنسى ، وجعل يسجل فيها جهود العرب ومحاولاتهم للتحرر والاستقلال ، ويحرض قومه على الكفاح والنضال . وينوه بثوارهم ، ويشيد بأبطالهم ، غير مبال بغضب المستعمرين عليه من إنجليز وفرنسيس .

* * *

وفى سنة ١٩٣٤ م وقعت حرب بين ابن سعود ملك الحجاز والإمام يحيى ملك اليمن ، وقرر المؤتمر الإسلامى بالقدس أن يؤلف وفداً يسعى بالصلح بين الدولتين العربيتين المسلمتين المتحاربتين ، وكان فى هذا الوفد الحاج أمين الحسينى ، وهاشم الأتاسى ، ومحمد على علوبة ، وشكيب .

وكتب لهذا الوفد التوفيق ، فوقفت الحرب بين البلدين المتجاورين الشقيقين ،

---

(١) تاريخ غزوات العرب . ص ١٠ .
(٢) الشورى . عدد أول أكتوبر ١٩٣٠ م .

وعقدت بينهما معاهدة الصلح[1] . وفى أثناء عودته حاول أن ينزل مصر ، فلم يستطع ، إذ منعت السلطات زيارته لها ولو لأيام معـدودة . فعاد إلى أوربة ليواصل جهاده من أجل العروبة والإسلام ، بعد أن زار الحجاز فى عودته ومكث به مدة .

وفى سنة ١٩٣٤ أيضاً التقى شكيب ومعه إحسان الجابرى بزعيم إيطاليـة موسولينى ، وتباحثا معه فى موضوع القضية الطرابلسية ، ويقول شكيب فى هذا المجال :

« ونحن ما تفاهمنا مع موسولينى إلا بعد أن رأينا أنه لم يبق سبيل إلى المقاومة بالسلاح ، وأن بقاء الحالة على ما كانت عليه آيل إلى انقراض الإسلام من القطر الطرابلسى ، فرجحنا طريقةَ المسالمة ، على شرط إعادة المشرَّدين من العرب ، وإرجاع الأوقاف والأراضى المضبوطة ، والعفو عن المحكوم عليهم والمسجونين بسبب الجهاد السابق ، وإشراك الأهالى فى إدارة البلاد ، ومنع الدعاية الدينية المسيحية بين المسلمين ، وتسهيل رجوع المهاجرين إلى أوطانهم ، وغير ذلك مما شرحناه فى الصحف مراراً » .

ثم يذكر شكيب أن مسالمة العدو لأجل مصلحة الإسلام أمر جائز ، والنبى صلى الله عليه وسلم صالح المشركين فى الحديبية ، وكذلك ولاة المسلمين يصالحون الأعداء إذا تبينت لهم المصلحة فى الصلح[2] .

وقد أطال شكيب خلال رسائله ومقالاته الدفاعَ عن اتفاقه مع موسولينى ، مؤكداً أنه نفعٌ للإسلام والمسلمين ، بينما أخذ الكثيرون ينقدون الأمير أو يهاجمونه بسبب هذا الاتفاق .

* * *

---

(١) مجلة الكتاب ، عدد فبراير ١٩٤٧ .

(٢) كتاب السيد رشيد رضا ، هامش ص ٧٤٥ و ٧٤٦

وعاد شكيب ليكتب ويبحث ويقدم المذكرات والاحتجاجات ويذيع النداءات إلى جمعية الأمم ورجال الدول وغيرهم ، حتى إنه يخبرنا أنه فى سنة ١٩٣٦ جمع ما كتبه من هذا القبيل منذ قدم أوربة حتى هذه السنة ، فوجد ذلك يقع فى خمسة عشر إلى عشرين مجلداً ، وأنه يتعذر عليه طبعه لكثرة نفقته ، فقرر إهداءه إلى نظارة الخارجية السورية[1] . فكيف بما كتبه قبل ذلك ، وما كتبه بعد ذلك ، وقد عاش بعد هذا التاريخ عشر سنوات ؟ . وكيف وهو يخبرنا بأنه لا يضيع دقيقة واحدة من وقته ، وأنه يتاقى أكثر من ألفى مكتوب فى دور السنة ، وينشر من التآليف بضعة آلاف من الصفحات المطبوعة تأليفاً . [2]

ويقول شكيب فى رسالة منه إلى الأستاذ محمد الفاسى :

« يوم عيد رأس السنة عملنا أنا وكاتبى حسابَ ما صدر عن قلمى من المكتوبات سنة ١٩٣٥ من أول يناير إلى ٣١ ديسمبر ، نقلا عن دفتر قيود المكاتيب : يبلغ عدد المكاتيب الخصوصية ١٧٨١ ، وعدد المقالات ١٧٦ ، وقصيدتين ومقطوعة ، وعدا ذلك حررت كتاباً عن شوقى ٣٥٠ صفحة ، وحواشى ابن خلدون ٥٦٠ صفحة ، وطبعت (روض الشقيق) ديوان أخى ، وذيلته بتفسير ، وأودعته ترجمة أخى ، ونسب العائلة ملخصاً ، لأن الأصل أطول مما قرأتموه فى روض الشقيق . . . وفى سنة ١٩٣٥ كتبت قسما غير قليل من الجزء الأول من كتاب الأندلس ، لكنى سأجعل ذلك عند تمام هذا الجزء من محصول سنة ١٩٣٦ إن شاء الله . وفى سنة ١٩٣٥ مثلت ديوانى للطبع ، وعلقت عليه تفسير بعض ألفاظ ، وقريباً يتم طبعه وأهديكه ، وكتاب ليفى بروفنسال ناصته فى هذه السنة . فأنت ترى أن همتى همة شباب لا همة شيوخ » [3] .

* * *

(١) المرجع السابق ، ص ١٥٨ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٦٢ .
(٣) ذكرى الأمير شكيب ، ص ٣٣٨ .

وفى سنة ١٩٣٥ ارتكب صحفى من فلسطين جريمة افتراء على الأمير ، بأن زور عليه كتاباً باسمه موجهاً منه إلى الحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين ، ونشره فى مجلة « الجامعة الإسلامية » ، ويتضمن هذا الكتاب المزور أن الأمير قد تواطأ مع الحاج أمين الحسينى على الدعاية لإيطاليـة والسير فى ركابها ، فى مقابل مال يأخذانه منها .

وعلى الرغم من الفرق الواضح بين أسلوب الكتاب وأسلوب شكيب ، وعلى الرغم مما فى الكتاب من ركاكة تعبير وسوء تفكير وأخطاء فى النحو ، فإن الأمير خشى أثر نشره بين الناس ، فهب يدافع عن نفسه ، فراسل زملاءه مكذباً ، وأرسل كلمات إلى الصحف والمجلات يفند فيها هذا الافتراء ، وكتب يقول إنه لم يقم بدعاية لإيطالية ، ولم يذع شيئاً يؤيدها ، بل بالعكس قد سبق له أن هاجم إيطالية بسبب ترحيلها العرب من منطقة « الجبل الأخضر » ، وقرر مقاضاة الجريدة لتظهر الحقيقة كاملة [1] .

وقد حدثنى الحاج أمين الحسينى — وكان الأستاذ منيف الحسينى حاضراً — فذكر أن هذا الخطاب المزور قد قام بتزويره فخرى النشاشيبى المتهم بالتعاون مع الاستعمار البريطانى ، وشريف الشنطى المتهم بالتوسط فى بيع الأراضى الفلسطينية لليهود ، وعيسى العيسى صاحب جريدة فلسطين حينئذ ، وأنه اختير للنشر يوم الجمعـة ، يوم موسم خروج النبى موسى ، وهو موسم مشهود مجموع له الناس ، ونشروا الخطاب المزور فى مجلة « الجامعة الإسـلامية » لصاحبها سليمان التاجى الفاروقى ، وكانت تصدر فى يافا .

وقد تولت مجلة « الجامعة العربية » لمحررها الأستاذ منيف الحسينى تفنيد التهمة ، ونشرت صورة الكتاب المزور وصورة كتاب حقيقى بخط شكيب ، وقارنت المجلة بين الخطين ، وأبانت التزوير .

---

(١) انظر « مجلة الفتح » ، عدد ٢٩ من المحرم ١٣٥٤ وعدد ٦ صفر سنة ١٣٥٤ .

والواقع أن هـذا الخطاب المزور قد أقلق شكيب ، وحرمه النوم والراحة والاستقرار ، ولعل هذا يتضح بجلاء من رسالة خطية بعث بها إلى السيد رشيد رضا بتاريخ ٨ صفر ١٣٥٤ هـ — ١٩٣٥ م ، وفيها يقول :

« عسى أن يكون الناس اطمأنوا من جهة تزوير الكتاب الذى نشره ذلك الأحمق المنافق ، لأنه ليست الحماقة فقط هى التى حملته على نشر هـذا التزوير ، بل طمعه فى مال اليهود ، فنشره وهو يضمر أنه إذا انطلى على الناس فيكون قد قضى غرضه : أكل المال ، وشفى صدره من رجل كان يحسده فى الباطن ، ويتودد إليه فى الظاهر ، كما هو شأن الكثيرين : وإذا عرف الناس حقيقةَ التزوير تراجع إلى الوراء ، وقال : إنه انطلى عليه .

وقد بدأ يتراجع منذ اليوم ، ويقول : لسنا أنبياء ، وقد أتونا بهذه الوثيقة فصدقناها ، وإذا ثبت أنها تزوير ننشر أيضاً ثبوت تزويرها .

فتأمل فى هذا النفاق ، والحق أنهم أقدموا على تزوير نَدَرَ نظيرُه فى تاريخ العرب ، لا أقول إنه لم يقع أصلا ، ولكنى أقول إنه ندر جداً ، والآن صرت أقدر أن أخبرك بأنه لولا لطف الله بى لكان قُضِىَ علىَّ من شدة الألم ، فإنى لما رأيت هذا الكتاب المزور ، وكنت أعلم كثرة حسادى وأعدائى ، وأعلم أيضاً غباوة الناس ، وأنهم إذا رأوا خطاً يشبه خطى أسرعوا بالتصديق ، وأعلم أنه إذا انتشر هذا الزور شرقاً وغرباً قال أكثر الناس عنى : هذا رجل منافق ، بقى يدعى خدمةَ الإسلام خمسين سنة ، فإذا به خادم لدولة أجنبية على أمته .

ولا يكثر على الحساد من جهة ، وعلى الأغبياء من جهة أخرى ، أن يقولوا ذلك ، فقد كوفىء من هو خير منى فى الإسلام بما هو شر من التزوير ، أو إن لم يكن شراً منه فبمثله .

نعم عند ما تأملت ذلك ، وتأملت فيما بلغ إليه العرب من قلة الدين كدت

أسمعُ ؛ ويجوز أن تكون حصلت لى سكتة دماغية أو قلبية ؛ وأن أموت فيحرم أولادى الصغار والدم . وأهم من هذا أن أموت قبل أن يتيسر لى البرهان عن براءتى ، ونشر البيانات اللازمة لإثبات تزوير الكتاب المنسوب إلىَّ ، فكنت أموت حينئذ موتاً أدبياً وبدنياً معاً .

لكن الله المحيط بكل شىء لم يرد أن أكون مظلوماً بعد نصح خمسين سنة وبلايا كثيرة ، فما مضت عشية أو ضحاها حتى ابتدأ الناس يعرفون التزويرة ، وجاء تكذيبى الأول بالبرقيات ، فاطمأن أكثر الناس . ولعل المقالات قد انتشرت الآن فازدادوا اطمئناناً ، فإنى كتبت أربع مقالات إلى (الجهاد) قد تبلغ سبعين صفحة ، وكتبت ٣٠ صفحة إلى (الكوكب) ، وكتبت ٣٠ صفحة إلى (الجزيرة) فى الشام ، ومثلها إلى (القبس) ، وكتبت نحواً من ٦٠ صفحة إلى (الجامعة العربية) ، هذا عدا ما كتبته من المكاتيب الخصوصية المسهبة إلى كل الأقطار ؛ بحيث إذا قدرت ما حبرته فى ١٥ يوماً — أى مذ رأيت الكتاب المزور — يبلغ خمسمائة إلى ستمائة بالأقل . ولازالت صحتى كما كانت ، ونشاطى كما كان ، لأن معرفتى براءة نفسى جعلتنى فى هذه الحملات أسداً عادياً وسيفاً ماضياً . سألتك فى الكتاب الأخير أن تخبرنى عن أسعد داغر هل يقول : إن هذا الكتاب مزوَّر أم لا ؟ فقد جاءنى من فلسطين أنه كان من المجتهدين فى إثبات صحة الكتاب »[1] ! .

ولما كتب السيد رشيد إلى الأمير شكيب يأخذ عليه مبالغتَه فى كشف تزوير هذا الكتاب ، رد عليه الأمير برسالة خطية تاريخها ١٢ صفر ١٣٥٤ هـ — ١٩٣٥ م وفيها يقول :

---

(١) ذكر السيد رشيد رضا فى رسالة منه لشكيب أنه سأل أسعد داغر عن هذا ، فأجاب داغر بأنه لا شك فى أن الكتاب مزور . انظر كتاب السيد رشيد رضا ص ٧٨٢ . وفى هذا المرجع جاء أن الشخص المزور هو « ف . ن » وقال شكيب فى التعليق إن الاسم موجود ، ولكنه قتصر على أول حرف من اسم الشخص وأول حرف من اسم عائلته .

قضية الكتاب المزور تقولون إن الناس كلهم عرفوا تزويره ، وإننى بالغت في الدفاع عن نفسى . فهل ترى من باب حب الجدل إذا قلت لك إنه فى أول الأمر كان أكثر الناس مصدقين أن هذا المكتوب هو منى . ثم الخطأ وقع من أخينا الجابرى ، فبدلا من أن يبرق لى نهار صدور المكتوب المزور — أى ١٨ إبريل — أبرق لى برقية مبهمة . معناها أن أنتظر الجرائد ، أى أنتظر ستة أيام حتى تصل جرائد فلسطين إلى جنيف ، كل هذا حتى لا يدفع أجرة برقية مطولة قد تكون جنيهين مثلا .

فمضت ستة أيام وأنا لا أعلم بشيء ، والناس لو كانوا من ثانى يوم قرأوا تلغرافاتى لكانوا بالأقل سكتوا وانتظروا مقالاتى ، ولكنهم لبثوا من ١٨ إبريل إلى ٢٥ لا يعلمون شيئاً من جوابى ، فرسخ فى أذهان الكثيرين أن الكتاب صحيح ، لا سيما أن الدعاية اليهودية الأفرنسية — لأن اليهود والأفرنسيس شيء واحد اليوم — كانت ملأت الدنيا ، فكيف أسكت أولا أكتب إلى كل جهة ببراءة نفسى من فظاعة كهذه ؟ . . .

واستمر شكيب فى رسالته على هذا النمط من شدة الانفعال والتأثر بهذا التزوير .

وكان هذا التزوير سبباً فى تفكير شكيب فى اعتزال الوفد السورى الفلسطينى ، والعكوف فى بيته على القراءة والكتابة ، كما صرح بذلك فى رسائله إلى رشيد ، كالرسالة المؤرخة بتاريخ ٢٥ ربيع الأول ١٣٥٤ هـ ، والرسالة المؤرخة بتاريخ ١٠ ربيع الثانى ١٣٥٤ هـ .

وفى سنة ١٣٥٤ هـ — ١٩٣٥ م أرسل شكيب أسرته المكونة من زوجته وبنتيه « مى » و « ناظمة » وابنه «غالب» إلى لبنان للاصطياف هناك ، وبعد قليل عاد غالب وحده إلى والده ، ولكن الولد أحس بالشوق إلى أختيه ، فقال له أبوه شكيب :

« إنني أشد منك عذاباً في فراقهن ، لكني لا أريد أن يخرجن أفرنجيات . فلو ربيتهن في جنيف لخرجن بدون لغة عربية ، وبدون عقيدة إسلامية ، ومن يعود ممكناً إعادتهن إلى الحجاب متى ذهبن إلى الوطن . والحاصل أريد تربية بناتي على أسلوب عائلاتنا الأصلي ، لا على الأسلوب الذي لا يجدن غيره في جنيف » . وقال لولده أيضاً :

« أنا يجوز ألا أرى وطني ، ولكن إذا توفاني الله في أوربة فلابد لكم أن تعودوا إلى الوطن حالا . فأنتم لا تقدرون على معيشة أوربة ، فكيف تعودون إلى الوطن وأنتم متفرنجون ؟ . هذا لن يكون [(١)] » .

• • •

وفي سنة ١٩٣٥ أيضاً رأس الأمير شكيب المؤتمر الإسلامي الأوربي ، الذي انعقد لمدة أربعة أيام ابتداء من ١٢ سبتمبر بفندق فيكتوريا بجنيف ، واشترك فيه سبعون عضواً وفدوا من الشرق والغرب ، واعتبر هذا المؤتمر فرعاً للمؤتمر الإسلامي المنعقد بالقدس في ديسمبر سنة ١٩٣١ ، وكوّن المؤتمر لجنة دائمة كانت مهمتها إحكامَ الروابط بين مسلمي أوربة ، وتسهيل الأعمال الخيرية ، والمحافظة على المصالح الإسلامية ، واطلاع غير المسلمين على تعاليم الإسلام الصحيحة ، وتوثيق العلاقات بين الشرق والغرب ، وإذاعة النشرات ، وعقد الاجتماعات ، وإلقاء المحاضرات ، وتنمية العلاقات الاقتصادية بين تجار المسلمين في أوربة وتجار المسلمين في الأقطار الإسلامية .

ومما يذكر أن المؤتمر في جلسة يوم الجمعة ١٣ سبتمبر وقف الجلسةَ ليتاح للحاضرين صلاةُ الجمعة ، وقد ألقى الأمير شكيب خطبة الجمعة في الفندق وأمَّ المصلين [(٢)] .

* * *

(١) ذكرى الأمير شكيب ، ص ١٤٢ .
(٢) منبر الشرق ، عدد ٢٧ مارس ١٩٥٣ .

وفى سنة ١٩٣٧ سمح الانتداب الفرنسى فى سورية ولبنان لشكيب بزيارة بلاده ، فوصلها فى ٣ يونيه سنة ١٩٣٧ ومعه زميله إحسان الجابرى ، واستقبلا استقبالا حماسياً قوياً ، ورأى شكيب السيدة والدته ، وزار دمشق وخطب فيها أكثر من مرة ، مشيراً إلى مشكلة فلسطين وإلى معاهدة سورية مع فرنسة . وقد نشرت مجلة « الشباب » الكثير عن هذه الخطب (١) .

وكذلك زار حلب وخطب فيها وتحدث ، ولكنه وقف فى « الجامع الكبير » بها يخطب بعد أن طُلب منه ذلك ، فكان مما قاله : « إن المسلم يستمد استقلاله من القرآن ، وإن إيمان المسلم غير الكامل إنما هو إيمان ناقص ، ولا توجد الوطنية الصحيحة إلا فى قلب المؤمن العامر بالإيمان » .

وكان الرجل مرتجلا ، وكان يحرض المسلمين على كمال الإيمان ، ولكن أعداءه تلقفوا كلامه وحرفوه ، وأشاعوا أن الأمير يتهم غير المسلمين بأنهم لا وطنية عندهم ، ومعنى هذا أن المسيحيين فى نظر شكيب لا وطنية عندهم ، مع أن الأمير يحرص على وحدة قومه ، ويكره التعصب ، ولذلك حزن شكيب ، وأخذ يدافع عن نفسه ، ويفند التهمة المفتراة ، وأصدر فى ذلك بيانات مختلفة (٢) .

والواقع أن الرجل قد لاقى من أعدائه وحساده والحاقدين عليه والمنافسين له والناقدين له متاعب جمة أضاعت عليه الكثيرَ من وقته ، ونغصت عليه حياته فى أوقات كثيرة ، وكان من الممكن له — ومن الخير لأمته ولغته — أن ينفق هذه الأوقاتَ فى البحث والكتابة ! .

وقد أرادت الحكومة السورية أن تعبرِّ عن تقديرها لمكانة شكيب العلمية وجهوده فى سبيل وطنه ولغته ، وخدماته للعلم والبحث ، فاختارته رئيساً للمجمع

---

(١) مجلة الشباب ، الأعداد ٩ و ١٦ و ٢٣ يونيه ١٩٣٧ م .

(٢) انظر المرجع السابق ، أعداد شهرى يوليه وأغسطس ١٩٣٧ م .

العلمي العربي ، ولا شك أن هذا منصب يُرضي الأمير ويعجبه من الناحية الأدبية ، لأنه يعتز بالمجمع ذاته ، ويعتز بعضويته القديمة فيه ، ولذلك نراه يكتب لقب « عضو المجمع العلمي العربي » تحت اسمه على أغلفة الكثير من كتبه ، مثل كتاب تاريخ غزوات العرب ، وكتاب محاسن المساعي ، وكتابه عن السيد رشيد رضا ، وكتاب أناتول فرانس في مباذله ، وكتاب الحلل السندسية .

ولكن فرنسة عادت بسرعة فتنكرت للمعاهدة التي عقدتها مع سورية سنة ١٩٣٦ ، فاعتذر شكيب عن عدم قبول الرياسة المجمع ، إذ يجب أن يتفرغ للدفاع عن حرية بلاده الكاملة ، وترك بلادَه على الرغم منه ، وعاد إلى أوربة ليواصل كفاحه من أجل العروبة والإسلام .

• • •

وبمناسبة ذكر عضوية شكيب في المجمع العلمي العربي ورياسته له نذكر أنه كان ثاني رئيس للجنة الجرمانية الأفغانية التي تألفت في برلين سنة ١٩٢١ ، وذلك باعتبار أنه رئيس النادي الشرقي في برلين حينئذ [١] ، وكذلك اختارته الجمعية الآسيوية الفرنسية عضواً فيها وهو في صدر شبابه ، وانتخبه المؤتمر الإسلامي الكبير المنعقد في مكة المكرمة أميناً عاماً لسره [٢] .

وكان شكيب يطوِّف ما يطوف في رحاب الدنيا ، ويتنقل شرقاً وغرباً ، ولكنه كان ممنوعاً دخول مصر بسبب نفوذ الإنجليز فيها ، وسعى محمد محمود باشا لدى الملك فاروق فسمح له بزيارة مصر ، وجاء إليها في أواخر فبراير سنة ١٩٣٩ م وقوبل بحماسة شديدة ، ولما سئل عن شعوره قال :

« لا جرم أني جد مسرور بالإذن لي في دخول مصر ، بعد مضي ٢٧ سنة

---

(١) مجلة الفتح ، عدد ٢٤ يناير ١٩٢٩ م .

(٢) مجلة الكتاب ، عدد فبراير ١٩٤٧ .

كنت فيها محروماً من ورودها ، وكان يعز علىّ هذا الحرمان الأليم من دخول مصر التى كتبت أول مقالة لى بمطالبة الإنجليز بالجلاء عنها تاريخها فى أغسطس ١٨٩٠ ، أى كنت أناضل عن استقلال هذا الوادى المقدس من ٤٩ سنة ، وما زالت حياتى منذ ذلك العهد البعيد سلسلة مجاهدات متصلة الحلقات غير محرومة — ولا فى يوم واحد — عن الشرق أجمع ، وبخاصة عن مصر التى هى كرسى الشرق ، إلى أن شاهدت بعينى تحقيقَ هذه الأمنية العظمى التى كنت أحلم بها ، وأنا لا أصدق كونى مدركها فى حياتى ، فإذا بى أحيا إلى أن أراها حقيقةً واقعة مبشرة بحقائق أخرى آخذ بعضها برقاب بعض فى إعادة شأن الشرق ، وتجديد مجد هذه الأمة ؛ أبلغها الله أقصى آمالها . . . » (١)

وفى يونيه سنة ١٩٣٩ قابل شكيب ملكَ مصر وأهدى إليه مؤلفاته (٢) . وحدَّث شكيب الملكَ عن الوحدة العربية كما حدث غيره ، وخطب وكتب فى ذلك ، ولما وجد شكيب فيما بعد أن مجلس النواب المصرى أثار فى مايو سنة ١٩٤٠ موضوعَ قضية فلسطين وسورية ، وطالب المجلسُ الحكومةَ بالتدخل لنصرة هذه القضية ، أبدى شكيب سرورَه بذلك ، واعتبره مقدمةً من مصر للدخول فى الحلف العربى (٣) .

وكانت حكومة سورية قد أذنت لشكيب قبيل وصوله مصر بالعودة إلى سورية . ولكنه ما كاد يبلغ القاهرة فى سفرته هذه حتى سحبت الحكومة إذنها ، ولم يبلغ شكيب دياره (٤) .

---

(١) مجلة الشباب ، عدد ٨ مارس ١٩٣٩ .
(٢) جريدة العلم ، عدد ٧ يونيه ١٩٣٩ .
(٣) ذكرى الأمير ، ص ٣٢٩ .
(٤) المرجع السابق ، ص ٢٧٠ .

وفى يوم الخميس ١٣ يوليه ١٩٣٩ غادر شكيب مصر إلى سويسرة [١] ، بعد أن قضى فى مصر أكثر من أربعة أشهر .

وبعد زيارته هذه لمصر عادت حكومة سورية فدعته ليسافر إلى دمشق ، ويرأس المجمع العلمى العربى ، فرفض هذه الرياسة ذاكراً أنه قبل رياسة المجمع فى أول الأمر على أساس أن هناك معاهدة بين سورية وفرنسة ، ولكن فرنسة نكثت بعهدها ، وعادت تسلك مسلكها الاستعمارى فى سورية ، ولذلك هو يفضل العودة إلى سويسرة لاستئناف الجهاد .

• • •

عاد ليواصل كتابة مقالاته التى لا يتقاضى عليها أجراً ، إذ كان يكتبها مجاناً ، ما عدا خمسة آلاف صفحة من التآليف ، فإنه كان يبيعها لأصحاب المطابع ، ولكنه سوّد ثلاثين ألف صفحة من المقالات بلا أجر ، وكان فوق هذا يؤدى أجرة البريد من ماله .

ويذكر شكيب أن الأستاذ يعقوب صروف كتب إليه حوالى سنة ١٩٠٠ يقترح عليه أن يراسل (المقتطف) ، على أن يقدم له شيئاً من المال فى مقابل تعبه ، فأجابه شكيب : « إننى وجدت لك فلاناً وفلاناً » ، وعدّ له فريقاً من الأدباء هم مستعدون للمراسلة ، على أن يكون لهم بدل الصفحة كذا ، وقال : « فأما أنا فاستآخذ شيئاً على مراسلة المقتطف ، وإنما أخدم بذلك العلم » [٢] .

ولما نقلت صحيفة « كوكب الشرق » مقالا لشكيب كان منشوراً فى جريدة « الشورى » ، واعتبر الأستاذ حسين شفيق المصرى هذا العمل سرقة ، كتب شكيب يعارضه ، وقال إنه يتمنى مثلَ هذا العمل ، وإن لفاعله الفضل ؛ ثم يقول :

---

(١) جريدة العلم ، عدد ١٩ يوليه ١٩٣٩ .

(٢) عروة الاتحاد ، ص ٧ .

نحن نخربش بعض هذه المقالات قياما بواجب وطني نعتقد فرضا علينا القيام به. فأي جريدة اختارت نشر ما نكتب فقد أوسعت دائرة النشر، وكأنها آزرت على القيام بهذا الواجب الوطني أو الإنسان، وعليه يجب لها الشكر".

ونلاحظ أن الأمير كان يذيل أغلب مقالاته بتاريخ كتابتها، بجوار توقيعه، ويظهر أنه كان يتعمد هذا لأنه يريد أن يحدد الظرفَ الذي كتب فيه المقال، حتى يفهمه قارئه في ضوء هذا الظرف، لأن الأمور تتبدل، والأحداث تتوالى وما تحسن كتابته في وقت تسوء كتابته في وقت آخر.

وقد يؤيد هذا الاستنتاج أن أغلب هذه المقالات المذيلة بالتاريخ هي من المقالات السياسية أو الاجتماعية المتعلقة بأحداث وزمان ومكان وأشخاص ونحو ذلك.

• • •

أمواله المالية والصحية:

ولم تكن أيام شكيب في أوربة مريحة من الناحية المادية أو المعاشية؛ والدكتور الطيب الناصر يذكر أن الأمير كان يتعرض لأزمات اقتصادية، ومع ذلك كان يتظاهر بالثراء إباء وشمماً، وكان أحيانا لا يستطيع دفع ثمن القهوة حيث يجلس ليتصفح صحف العالم في سويسرة، وكتب ذات يوم برقية يفند فيها مزاعم زعيها « بيتان » السياسي الفرنسي بشأن سورية ولبنان، ولم يجد ثمنَ إرسال البرقية. وفي سنة ١٩٤٢ كتب إلى صديقه الحاج أمين الحسيني المقيم حينئذ بألمانية يرجوه أن يتوسط لدى حكومة ألمانية حتى تسمح له ولو بنصف إيجار المنزل الذي يملكه شكيب في برلين لحاجته إلى المال [١].

---

(١) ذكرى الأمير شكيب، ص٤٨،و٤٩، والسبب في رجاء التوسط هو أن الألمان كانوا حينئذ يحرمون إخراج النقود من بلادهم؛ ولذلك لم يدل شكيب ماركا واحدا، ومع ذلك اتهمته إذاعة فرنسة بأن هتلر منحه لقب " ابن برلين "، وذلك لتحطيم سمعته في بلاده، انظر: محاضرات عن الأمير شكيب أرسلان، ص٢٣

وقد تحدث شكيب عن ضوائقه المالية أكثر من مرة فى رسائله إلى صديقه السيد رشيد رضا ، فى رسالة مخطوطة بين يدىّ ، ليس بها تاريخ ، ولكن يظهر أنها كتبت عام ١٩٣١ أو ١٩٣٢ من جنيف ، يقول شكيب : « حالتى المعيشية أصبحت لا تطاق ، أنزلنا مصروفنا الشهرى من ٣٠٠٠ فرنك سويسرى — نحو ١٢٠ جنيهاً — إلى ألف فرنك ، وهذا غاية ما نقدر أن نقتصد ، وهذه الألف يجوز أن نحصل عليها فى الشهر ، لكنى مديون بسبعمائة جنيه ، والمطالبات علىّ مستمرة ، والباقى لى من المزرعة غير متحصل ، والبيت الذى لى ببرلين مرهون تحت ٦٥ ألف مارك ، ولكنه إذا طُرح للبيع لا يشريه أحد بأكثر من قيمة الرهن ، لأن الأزمة أنزلت أثمانَ الأملاك كثيراً .

ورطل الزيت كنا نبيعه من ٤ أو ٥ سنوات بعشرين قرشاً ، فنزل إلى سبعة قروش ، وكانت تأتينا إيرادات كلها نزلت ، ومساعدات كلها وقفت ، وأغلى بلاد أوربة اليوم سويسرة » .

ويقول فى الرسالة : إنه يود الرجوع إلى وطنه : سورية أو فلسطين ، لأن المعيشة فيهما أرخص بكثير ، ويقول إنه صار ابن ثنتين وستين سنة ، ويجب أن يفكر فى الموت وفى أولاده وفيما سيتركه لهم ، وإنه لو مات فإن أهل سورية لن يساعدوا أولاده وإن « التحمل والتجمل بلغا الأمد الأقصى ، وكل شىء بلغ الحد انتهى » ! .

وفى رسالة مخطوطة بين يدىّ بتاريخ ١١ رمضان ١٣٥٣ هـ — ١٩٣٤ م نجد الأمير على الرغم من فقره وكثرة مطالبه يرسل إلى صديقه السيد رشيد رضا بمائة جنيه ليطبع بها رشيد كتابه « التفسير المختصر » ويقول له : « طيه تحويل بمائة جنيه منى ، إن تيسر لك إعادتها لى فى يوم من الأيام فذاك ، وإن لم يتيسر فهى حلال زلال لك ، وإن لم أساعدك أنا فى لأواء كهذه فما فائدة الصداقة » ؟ .

ثم يقول شكيب واصفاً ظروفه المالية :

« ووالله الذى لا إله إلا هو ليس عندى فضلة ، بل علىَّ دَيْن ، والدَّين ٦٠ ألف مارك ، أى ثلاثة آلاف جنيه ذهب ، مرهون تحتها عندى بيت فى برلين ، كنا نرجو قبل الأزمة الحاضرة أن نبيعه بمقدار هذا الدَّين أو بأكثر قليلا ، فجاءت هذه الأزمة فسقطت أثمان البيوت ، فصار إذا بيع لا يأتى بالثلاثة الآلاف جنيه ، بل ينكسر علينا بالأقل ١٠ آلاف مارك ، أى ٦٠٠ جنيه . ولما اشتدت الأزمة ، وكان الرهن مستحقاً قام المرتهن بطلب دَينه ويلح وينذر .

وأنَّى لنا بالمجىء بثلاثمائة فضلا عن ثلاثة آلاف ؟ . فأسرعنا بالذهاب إلى برلين ، وبقينا ليالى لا ننام إلا غِرَاراً (١) ، أقسم بالله منها ليلة ما رقدت فيها ولا لحظة . إن بعت البيت — وأى بيت ؟ ٢١ مسكناً منها ثمانية كل واحد خمسة محلات ، و ٣ كل واحد ثلاثة محلات ، ودخله السنوى ١٤ ألف و ٤٠٠ مارك ندفع منها الضرائب والترميمات ؛ وفائض الـ ٦٥ ألف مارك ويبقى شىء — خسرنا مستقبله ، ولا تكفى خسارة البيت حتى ندفع ٥٠٠ جنيه لإكمال دفع الدَّيْن .

وإن حفظنا البيت فكيف نسكت الدائن المرتهن ، وبدل رهنه مستحق الدفع ؟ ثم الخمسمائة جنيه ، كيف أجدها بدون بيع زيتون فى الشويفات ، وأثمان الأملاك الآن نصف عما كانت ؟ فالأرق لم يكن بدون سبب .

ولكن الله فرَّج ، رضى المرتهن بأن يستمر على قبض الفوائد عن دينه بمعدل ٦ فى المائة ، وذلك من ريع البيت مثل ذى قبل ، ولكن بشرط أن نستهلك من رأس المال نحواً من ١٣ ألف مارك . والمارك الآن محصور فى ألمانيا لايخرج Blojié فيمكن شراء مائة مارك محصور بأربعين فرنكا سويسرياً ،

---

(١) الغرار : القليل من النوم .

فى هذه الجهة تكون الأزمة نفعتنا ، لأننا نقدر أن نشترى الثلاثة عشر ألف مارك بأكثر قليلا من ٥٠٠٠ فرنك سويسرى أى ٣٥٠ جنيهاً ، وهذه والحمد لله موجودة ، ولو وجدأكثر منها لفككنا البيت كله ، لأننا نكون وفينا الثلاثة آلاف جنيه ذهب بألف وثلاثمائة جنيه .

لكن أين هذا المبلغ ؟ . ولولا لطف الله الخفى لم توجد هذه الثلاثمائة والخمسون جنيها التى سندفع بها سدس الدَّين . وبعد دفع ربع الدَّين ينزل مجموع الفائض ، فيبقى لنا صافياً من ريع البيت نحو ألفى مارك — نعم مارك محصور ! — ونحن اليوم لا يهمنا إلا سكوت الدائن عن طلب كل رأس المال ، وقد فعل واكتفى بأخذ فوائد دينه وسدس رأس المال ، فهذه قضية سفرى إلى برلين » .

وهكذا مضى شكيب فى حياته ، يتعرض للدين وللضيق ولقبض اليد بسبب الحاجة ، وعاش مع أسرته عيشاً رقيقا متواضعا ، فى بيت متواضع ، « ومع ذلك كانت نفسه رفيعة أبيَّة ، تأبى الذل والضعة ، والمال الأجنبى ، وتتظاهر بالغنى والثراء » [1] .

* * *

وأخذت صحة شكيب تضعف ، فعيناه تتحرقان بسبب الإجهاد الموصول فى القراءة والكتابة والتنقيب والمراجعة ، ومرضُ الكلى يغاديه ويراوحه ، وتصلبُ الشرايين يزيده مرضاً على مرض ، والشيخوخة التى أقبلت بكلاكلها وزلازلها ، والشعور بدنوّ الأجل فى دار الغربة ، والإحساس بالتبعة نحو الأولاد الذين نشأوا فى ديار أوربية ، وهو يريدهم عرباً فى بيئة عربية . .

كل هذه البلايا زادته سقماً على سقم ، حتى اضطر إلى الاستعانة بكُتَّاب

---

(١) محاضرات عن الأمير شكيب ، ص ٢٣ .

على عليهم رسائله الإخوانية ومقالاته السياسية والعلمية ، وقد بدأت هذه الاستعانة وشكيب فى نحو السابعة والخمسين من عمره (١) .

وفى السنوات الأخيرة كانت الكتابة تصعب عليه بخط يده ، فاتخذ له كاتباً يعطيه فى الشهر عشرة جنيهات إنكليزية (٢) ، وهو الأستاذ محمود عبد الصمد (اللبنانى) (٣) وهو من أدباء منطقة الشوف .

كما ذكر لى الأستاذ محمد على الطاهر أن الأمير استعان أيضاً فى الكتابة بالدكتور سيد الجاحر من بلدة طما بصعيد مصر ، وكان يطلب العلم حينذاك فى جنيف ، لأن الطبيب منع شكيب الكتابة بسبب ضعف البصر وارتعاش اليد .

وقد أطلعنى الأستاذ أحمد محمد نعمان اليمنى على رسالة خطية من شكيب إليه بتاريخ ٩ ربيع الأول ١٣٥٩ هـ — ١٩٤٠ م وفيها يقول له شكيب :

« أكون مسروراً يا ولدى إذا جئت لمعاونتى فى الكتابة ، نظراً لكثرة أشغالى ، واحتياجى إلى سكرتير ، وكون كاتب يدى فى هذه السنة تأخر فى لبنان ، فمتى وصلكم كتابى هذا فأزمعوا الرحلة ، وأقدموا على موفقين مسددين إن شاء الله ؛ وأنا هنا أؤدى لكم عشرة جنيهات فى الشهر ، وهى كافية لمصروفكم فى جنيف ، وقد كان فى نيتى الاستعانة بكم عند ما عزمت الذهاب إلى مصر ، لكن هذه العزيمة تأجلت الآن لأسباب ليس هنا موضعها ، فلم يبق إلا أن تحضروا إلى هنا ، والله يجمعنا بكم على أحسن حال » .

العودة إلى الوطن :

وانتهت الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٥ ، وتقلص ظل فرنسة عن سورية ، وزال شبحها الاستعمارى السمج عن أرض الشام ، واستبد بشكيب الحنين

---

(١) كتاب السيد رشيد رضا ، ص ١٦٢ و ١٦٣ .
(٢) عروة الاتحاد ، ص ٧ .
(٣) ذكرت ذلك زوجة شكيب .

إلى وطنه ، والشوق إلى داره ، وتمنى لو طار إليها من أول يوم زال عنها فيه كابوس الاستعمار الفرنسي ، ولكنه كان مثقلا بالديون ، فجعل يحاول ليبرئ ذمته مما لزمها ، وفي أثناء ذلك أرسل أمتعته وأوراقه إلى لبنان ، وفي يوم ٣٠ تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٤٦ بلغ شكيب بيروت ، بعد أن مرّ على الإسكندرية يوم ٢٨ أكتوبر ، ومنعته السلطات المصرية النزول من الباخرة ، وكان معه أخوه الأمير عادل .

وعاد الغريب إلى داره بعد أكثر من ربع قرن قضاه بعيداً عن وطنه ، مجاهداً في سبيل عروبته وإسلامه ، مدافعاً عن قومه بقلمه ولسانه ، بالعربية والتركية والفرنسية ، وهي اللغات التي كان يتقنها شكيب مع معرفة للألمانية لم يبلغ فيها مراده [(١)] .

عاد الغريب فرأى قومه وداره وأسرته ، وحظي بلقاء أمه « السيدة الوالدة » ، وعمرها حينئذ قد زاد على المئة ، وسعد بمشاهدة وطنه حراً مستقلا طليقاً من أغلال الاحتلال والاستبداد ، واستقبله قومه بالتجلة والتكريم ، وأقيمت باسمه وعلى شرفه حفلات ومآدب واجتماعات ، واشترك في تكريمه الشعب والحكومة .

ولكن المرض يزيد ، فهذا شيء من النقرس في رِجْل شكيب يضاف إلى تصلب الشرايين ، والرمل في الكليتين ، ووهن الشيخوخة ... فلا تطول مقاومة شكيب لكل هذه الأوجاع أكثر مما طالت ، وقد زاد على الثمانين .

وقد أحس شكيب بدنو أجله قبل موته بأيام ، ويحدثنا الأستاذ عبد الله المشنوق أنه التقى بالأمير في دار آل الغندور ببيروت ، وكان الأمير مجهداً ، وقد ترك الفراش على الرغم من أمر الطبيب له بعدم مغادرته ، وسأله المشنوق عن

---

(١) ذكرى الأمير ، ص ٣٤٨ .

مذكراته ، وهل سجلها ، فأجابه الأمير بأنه ممنوع من الكتابة ، ويده لا تقوى على إمساك القلم لخطّ كلمة واحدة .

فقال له : أنت تملى علىَّ وأنا أكتب .

فأجاب الأمير وهو يبتسم فى مرارة : وهل أقوى على الحديث وهو يتطلب جمع الأفكار وحصرها وتنسيقها ، وهذا ليس فى استطاعتى ؟ .

فقال المشنوق : « ولكن حرام أن يحرم العالم العربى وهو على عتبة نهضته الجديدة خلاصةَ تجاربكم واختباراتكم السياسية طوال ستين عاماً من الجهاد فى سبيل العروبة .

فصمت الأمير قليلا وتطلع إلى ما حوله ، وقال :

« إنى مريض ، وأشعر بدنو الأجل ، وأنا أحمد الله عزّ وجل الذى سهل لى أن أفارق الحياة على أرض هذا الوطن الذى أحببته ، وقاسيت من أجله التشريد والنفى والاضطهاد . أجل سأموت هنا قريرَ العين ناعم البال ، فتختلط رفاتى بتربة هذا الوطن ، بعد أن أتم الله نعمته علىَّ ، فشهدته سيداً حراً عزيزاً . أنا سعيد أن أدفن فى تربة طاهرة لا ترفرف فوقها راية أجنبية ، وأنا سعيد أن ألاقى وجه ربى الكريم ، فأعيد هذه الأمانة إلى بارئها ، بعد أن تحققت أحلام طفولتى فى هذه الجامعة العربية حرسها الله ، وسأخبر رفاقى فى الجهاد بأن تضحياتهم لم تكن عبثاً » .

وتحدرت من عينى الأمير دمعتان ، ونهض واقفاً ، وجذب يد محدثه قائلا له : « لى وصية واحدة أود أن أوصى بها ، فهل تعدنى بأن تنقلها إلى العالم العربى بعد وفاتى » ؟ .

فأجابه : « لك العمر الطويل إن شاء الله » !

فقال شكيب : « لا ، بل تعدنى بنقل الوصية » .

فأجاب المشنوق : نعم .

وهنا طوقه شكيب بذراعيه المرتجفتين ، وقال بصوت كادت تخنقه العبرات :

« أوصيكم بفلسطين [١] » .

* * *

ويقص علينا الأمير عادل شقيق شكيب قصة أيامه الأخيرة ، فيقول : « إنه جاء معي من مرسيليا في أواخر تشرين الأول ، وهو متعب يستبطىء سير الباخرة شوقاً إلى الوطن ، فلما أقبلنا على بيروت ظهر عليه سرور شديد ، ثم توالى ورود الزائرين والمسلّمين شهراً كاملا ، فكان يستقبل المئات منهم في كل يوم ، ويحادثهم ثم يرافقهم إلى الباب برغم التعب الظاهر عليه ، فلما طال الأمر نصحت له ونصح له الأطباء بالتزام الراحة فلم يقبل .

وكان يجيب : إن رؤيتي هذا الوطن حراً مستقلا ، وهذه الأمة العربية متحدة هي ما كنت أصبو إليه وأعيش لأجله ، فلا يهمني بعد الآن طال عمري أم لم يطل ! .

وظل هكذا يزار ويزار حتى اشتد عليه تصلب الشرايين ، وانتهى إلى حدوث نزيف في شرايين الدماغ ، على أثر إجهاد نفسه بالرد على رسائل كثيرة ، فلم يستطع الطبُّ الحيلولةَ دون قضاء الله الذي لا رادَّ له ، وكانت وصاته الأخيرة : « لا تنسوا فلسطين [٢] » .

ويظهر أن المرض قد استبد به عقب وصوله بوقت قصير ، لأنه بعد عودته بيومين شعر بتعب في جسمه فلزم الفراش . وأحضر له شقيقه عادل ممرضةً تشرف عليه وهو في داره ببيروت ، ونصحته بأن لا يبدي حراكا في فراشه ، ولكنه غافلها قبيل

---

(١) ذكرى الأمير شكيب ، ص ٤٦٨ و ٤٦٩ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٥٠٣ .

موته ونزل من السرير ، فلم يقو على الوقوف ، فهوى إلى الأرض ، وأسرعوا إليه وأعادوه إلى فراشه ، ولكنه أصيب بفالج نصفي توقف معه لسانه عن الكلام[١].

وأصيب خلال ذلك بنوبة قلبية شديدة استمرت أربعة أيام متوالية ، وكان حوله والدته وشقيقه عادل ولفيف من الأطباء[٢] ، وظل شكيب هذه الأيام الأربعة في شبه غيبوبة ، واستعصى الداء على الأطباء .

وعجزت يد البشر ، وأقبلت يد القدر ، فلفظ شكيب آخر أنفاسه ليلة الاثنين ١٥ من المحرم سنة ١٣٦٦ هـ — ٩ ديسمبر سنة ١٩٤٦م[٣] .

مات ولم يترك خلفه — كما قالت لي السيدة زوجته — سوى كتبه وأوراقه ، وبعض زيتونات في قطعة أرض ، وبيته في برلين ، ونصيبه في بيت أسرته المشترك بينه وبين إخوته .

واهتزت بيروت ومن حولها القرى والبلدان بموت شكيب ، فهؤلاء أمراء آل أرسلان يهرعون إلى جثمانه ليلقوا عليه نظرات الوداع ، وهؤلاء محبوه وعارفوه يسمون فوجاً بعد فوج معزين باكين ، وهذه أسلاك البرق ترتجف وهي تبث نبأ وفاته في بلاد العروبة والإسلام .

وفي ضحى اليوم التالي (١٠ ديسمبر ١٩٤٦م) نُقل جثمان شكيب إلى الجامع العمري ببيروت في موكب حاشد ، وبعد أن صلوا عليه استأنف الموكب الضخم سيره إلى المتحف الوطني ، تتقدمه فرق الجيش والدرك ووفود الهيئات والطلاب ، وفي صدر الموكب رئيس جمهورية لبنان الشيخ بشارة الخوري الذي ترقرق الدمع في عينيه ، ولعله كان يذكر حينئذ أن الأمير الأرسلاني سعى في إنقاذ والده «خليل الخوري» وإعادته

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٨١ و ١٨٢ .
(٢) جريدة الأهرام ، ١٠ ديسمبر ١٩٤٦ .
(٣) ذكرى الأمير ، ص ٨٧ و ٨٨ و ٣٤٨ .

من منفاه فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، فقابل الشيخ بشارة الجبل بالجبل ، فسعى بعد ثلاثين عاماً من صنيع شكيب وبذل جهده ليعود الأمير إلى لبنان . وحضر وفد من وزراء سورية للتعزية باسم الدولة السورية وباسم السيد شكرى القوتلى .

وفى ساحة المتحف تقبل آل أرسلان العزاء ، وألقيت الخطب التأبينية ، ثم نقل الجثمان فى موكب عظيم إلى مسقط رأس شكيب « الشويفات » ، حيث قام مشايخ عقل الدروز بالصلاة عليه ، وأبنه ممثلو مناطق الجبل بحضور وفود من أقضية الشوف ، والمتن ، وكسروان ، والجنوب ، وجبل الدروز . ثم دفن شكيب فى مدفن خاص قرب مدافن أسرته غير بعيد من دارها[١] .

وأقيمت لتأبين شكيب حفلات كثيرة فى بلاد العروبة والإسلام، ولعل أبرزها الحفلة التى أقيمت بالقاهرة فى دار الأوبرا يوم الجمعة ١٧ ربيع الأول ١٣٦٦ هـ — ٧ فبراير ١٩٤٧، وأذيعت بالمذياع ، وخطب فيها الأساتذة : محمد على علوبة ، وعزيز عزت ، وتحسين العسكرى ، وسامى الخورى ، وإبراهيم دسوقى أباظة ، ومحمد أحمد ابن عبود ، ومحمد زين حسن ، وخليل مطران ، وعلى محمود طه .

ومن قصيدة خليل مطران فى « شكيب » هذه الأبيات المختارة :

لهفى على الخدن النبيل ، وعهده ... منذ التعارف كان فوق الذام[٢]
لم ألفه فى العيش إلا نابها ... يرنو إلى الدنيا بطرف سام
ماذا بلوتُ من الشمائل حلوة ... فيه ، ومن صدق ورعى ذمام
ولىّ إمام المنشئين ، وكان فى ... تجديد شأن الضاد أىّ إمام
فكأنها والعصر ليس بعصرها ... ردت عليه نضارة الأيام
ولى أخو الأفذاذ من شعرائها ... فى جاهليتها وفى الإسلام

---

(١) جريدة الأهرام — ١١ ديسمبر ١٩٤٦ .
(٢) الذام : (بتشديد الميم وبتخفيفها) : العيب (لسان العرب) .

جارى الفحولَ ولم يقصر عنهم في حلبة الإفصاح والإحكام
شتان بين الشاعر المطبوع في إبداعه واللاقط النظام !

ومن قصيدة على محمود طه فيه هذه الأبيات المختارة :

يطوى الثمانين الوضاء مليئة بمواكب للذكريات ضخام
وجلائل للمأثرات موائل وجحافل للحادثات جسام
هيهات ، ما نالت على إرهاقها من قلبه ، في نضرة ووسام
هيهات ، ما أوهت قواه ، ولا ثنت من خطوه عن غاية ومرام
هيهات ، ما شابت بمرّ مذاقها فيه حلاوةَ روحه البسام
طلق الجبين على ندىً شمائل كالفجر بين أشعة وغمام
يابن الإمارة ، نافضاً من إرثها يدَه لنصرة مبدأ وذمام
يأبى يراعك أن يفارق راحة خُلقت لرد تحية وسلام !

وقد جمع الأستاذ محمد على الطاهر ما قيل في حفلات تأبين شكيب ، وما نشرته الصحف والمجلات للأدباء والشعراء وأصدقاء شكيب عنه وعن حياته ، وطبع ذلك في كتاب « ذكرى الأمير شكيب أرسلان » فيما يزيد عن خمسمائة صفحة ، وفيه معلومات كثيرة تتعلق بشكيب وجهاده .

زوجة شكيب وأولاده

من عادة آل أرسلان — كما سمعتُ من زوجة شكيب — أن يتزوجوا من أسرتهم ، فإذا لم يتزوجوا منها تزوجوا من الشراكسة ، أو من أسرة الشهابي اللبنانية ، وشطر هذه الأسرة مسيحي ، وشطرها الآخر مسلم .

ولم يُرِد شكيب أن يتزوج من أسرته ، بل طمحت نفسه إلى الزواج من فتاة شركسية ، فعرض تلك الرغبة على « متصرف الكرك » وهو فى اسطنبول ، وكانت الآنسة « سليمى » — التى تزوجها شكيب — مقيمة مع والدها القفقاسى الأصل « الخاص بك حانوغو » فى بلدة « الصلت » بشرق الأردن ، ولما ماتت أم الفتاة رحل الوالد بابنته « سليمى » يريد العودة إلى قفقاسية ، وفى الطريق نزلا فى اسطنبول ، وكانت للوالد صداقة بمتصرف الكرك السابق الذكر ، فتلاقيا معه على مائدة غداء حضرها شكيب ، وكان المتصرف يريد أن يُرِيَ شكيب الفتاة ليبدى فيها رأيه دون أن تعلم .

وأعجب شكيب بسليمى وكانت سنها حول العشرين ، وهو قد تجاوز الأربعين ، وخطبها، وظلت مخطوبة له حيناً من الزمن ، ثم تزوج بها فى بيروت سنة ١٩١٦ م بعد مأساة المشانق التى أقامها جمال باشا السفاح — كما ذكرت سليمى .

وقد أطلعتنى السيدة زوجة شكيب (١) على جواز سفرها ، فإذا اسمها فيه

---

(١) قابلتها أول مرة في القاهرة ٣ أكتوبر ١٩٥٤م؛ فإذا هي سيدة في نحو الستين، وهي وسيمة برغم شيخوختها نحيلة شقراء، عسلية العينين، شعرها بين الأحمر والأبيض، دقيقة الأطراف، معبرة الملامح، تميل إلى الطول وقد أهدتني صورة لها مع ابنها غالب وهي في شبابها، وكتبت عليها العبارة التالية:

" هدية إلى الصديق العالم الشيخ أحمد الشرباصي، مع وافر التقدير: سلمى أرسلان حرم المرحوم الأمير شكيب أرسلان" وتاريخ الإهداء ١٨ نوفمبر ١٩٥٤م، والمعلومات المذكورة هنا منقولة عنها .

« السيدة سليمى بنت الخاص بك » ، وقالت لى إن اسمها فى الأصل هو « سليمة » ولكن الأمير كان يناديها « سليمى » فغلب عليها الاسم الأخير .

والجواز المذكور صادر من المملكة العربية السعودية ، لأن السيدة الآن سعودية الجنسية ، وهو بتاريخ ٦ من المحرم ١٣٥٩ هـ — ١٤ فبراير ١٩٤٠م (من القنصلية السعودية بمصر) وهو جواز مزدوج « ملىء » بالتأشيرات الدالة على كثرة التنقلات .

وقد ذكرت لى السيدة الجليلة أنها ولدت فى قفقاسية فى جنوب روسية من أمراء الشراكسة ، من بيت « الخاص خانوغو » وتاريخ ميلادها حسب ما فى الجواز هو عام ١٣١٦ هـ — ١٨٩٨ م وكانت صغيرة حينما خرجت من قفقاسيـة مهاجرة مع أبيها إلى شرق الأردن ، وذلك بسبب تمسك والدها بإسلامه ، مما عرضه لاضطهاد الروس فى قفقاسيـة ، ونزلت مع والدها فى بلدة « الصلت » على مسافة من « عمان » .

وقد تزوجت سليمى بشكيب وهى — كما قالت — لا تعرف العربية ، وإنما كانت تعرف التركية فقط ، ولكنها تعلمت العربية من زوجها ، وكانت على وفاق مع زوجها فى أغلب الأحيان ، لأنه كان يحبها وكانت تحبه ، وقد أهدى إليها كتابا مخطوطا لم ينشر ، وقد سألتها : ألم يقل فيك الأمير شعراً ؟ . فقالت : لا . وقد تنقلت معه شرقا وغربا خلال جهاده الطويل .

وكان شكيب يحرص على شعورها ويترضاها ، وقد ذكرت لى من قبيل ذلك أنه لما سافر إلى الحجاز سنة ١٩٣٤ عرض عليه الملك عبد العزيز آل سعود أن يرسل إليه جارية فرفض قائلا : « إننى متزوج ، وأنا أحب زوجتى ، وفوق هذا فإن زوجتى تغضب علىّ إذا عرفت » . ولما عاد شكيب قص القصة على زوجته .

وقد رزق شكيب من زوجته أولا بابنه « غالب » — أو محمد غالب — ولذلك كان أصدقاء شكيب ومعارفه يقولون له : « أبو غالب » ، وقد ولد غالب بلبنان فى بلدة « عاليه » قبل رحلة أبيه الطويلة إلى أوروبة ، ثم رزق بابنته « مى » التى ولدت فى جنيف ، وقد تزوجت بالسياسى اللبنانى المعروف كمال جنبلاط ، ثم رزق شكيب بابنته « ناظمة » ، وقد ولدت أيضاً فى جنيف ، وظلت بعد وفاة أبيها فى سويسرة إلى سنة ١٩٥٢ ، ثم عادت إلى لبنان ، وتغلب على الجميع الصبغة الأوروبية فى الحديث وفى التفكير .

وهذا ما كان يخشاه شكيب ، إذ كان يحرص الحرص كله على تربية أولاده تربية عربية إسلامية فى اللغة والثقافة والعادات والتقاليد .

* * *

وكان لشكيب فى سويسرة خادمة تسمى « خضرة » بنت خالد بحبوح ، وهى فتاة عربية من بلدة « النبك » بسورية ، وقد أخذها الأمير صغيرة ورباها وأحسن معاملتها ، وكانت تطهى له ألوانا من الطعام يحبها ومنها « الكبيبة » .

وفى يوم سفر الأمير إلى الحجاز من جنيف مساء ١٤ مايو ١٩٣٧ خرجت « خضرة » إلى المحطة لوداعه ، وكانت فى نحو الثلاثين من عمرها ، وبينما كان القطار يجرب السير ظنت خضرة أنه قد بدأ رحلته ، وكانت بداخل القطار فسارعت بالنزول ، فزلقت قدمها فوقعت تحت القطار فماتت ، فحزن الأمير عليها حزنا شديدا ، وأجل سفره ، وفى اليوم التالى أقام لها مأتما كبيرا حضره العظماء . وقد رثاها شكيب بمقال طويل ظهر افتتاحية لمجلة الشباب ، وفيه يصور شكيب الحادث تصويراً مثيراً أخاذاً ، ويبين كيف عاشت خضرة معهم اثنين وعشرين عاماً ، وكيف لقيت مصيرعها ، وكيف صلى عليها ، وسار فى جنازتها وزراء وسفراء

وجم غفير من الشرقيين والأوربيين ، وكيف كانت روحاً زكية طاهرة نقية ، أمينة مخلصة ، متقنة مدبرة ... إلخ[1] .

* * *

هذه حياة شكيب ، في إيجاز ، إذ لو أراد كاتب أن يكتبها على وجه التفصيل لكتب أضعاف ما كتبت .

ونستطيع أن نقسم حياة شكيب إلى مرحلتين بارزتين : الأولى تبدأ من ميلاده سنة ١٨٦٩ وتنتهي بانتهاء الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨ .

والمرحلة الأخرى تبدأ عقب انتهاء تلك الحرب . وتستمر إلى سنة ١٩٤٦ حيث كان أجل شكيب قد انتهى .

وإذا لاحظنا أن نهاية كل مرحلة من هاتين المرحلتين قد اقترنت بانتهاء حرب عالمية ، فإننا نستطيع أن نلاحظ أيضا أن كل مرحلة فيهما قد اقترنت عند شكيب بتحول واضح في حياته ونتيجة بارزة في طريقه . فالمرحلة الأولى انتهت بانتقاله من مجال عثماني إسلامي ، إلى مجال عربي إسلامي ، والمرحلة الأخرى انتهت بمشاهدته لبلاده حرة مستقلة ، وبانتهاء حياته الطويلة وانتقاله إلى الرفيق الأعلى .

وقد مرت حياته بمراحل ، فهو يبدأ صبياً يتعلم ، ثم يحاول الإسهام في الشعر والأدب لإظهار النفس وإثبات الذات ، فيكون من وراء ذلك ديوانه « الباكورة » ، ثم تسيطر عليه الفكرة الإسلامية مع النزعة العثمانية الممثلة للخلافة رسمياً ، وذلك بعد أن تأثر بجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ، ثم تتضح هذه النزعة بتوسع خلال الحرب العالمية الأولى .

ولكنه بعد انتهاء الحرب ، وبعد تمزق العالم العربي ، وبعد ضياع عرش الخلافة

---

(١) مجلة الشباب . عدد ٢٦ مايو ١٩٣٧ . مقال « خضراء الشهيدة » .

وبعد إلحاد الكماليين انقلب ضد الأتراك ، وأخذ فى شعره وكتابته يحاول التوفيق بين العروبة والإسلام .

ثم شغل نفسه بقضايا وطنه وقومه السياسية ، فجاهد فى سبيل سورية ولبنان وفلسطين وبقية البلاد العربية والإسلامية ، فكانت المذكرات ، والبيانات ، والنداءات ، والمقالات ، والبحوث ، والرحلات ، والمؤتمرات .

وبعد موت أخيه نسيب ، وإحساسه بالألم العميق لفقده ، تزيد عنايته بالعكوف على البحث والتأليف — وهو ما زال يعمل للجمع بين العروبة والإسلام — فتكون منه كتبه التاريخية والإسلامية المختلفة .

ويظل مناضلاً مكافحاً حتى يلحق بربه عز وجل .

الباب الثالث

شكيب الناثر

— كتابة شكيب

— رجال أثروا فى أسلوبه

— مصادر ثقافته

— السجع عند شكيب

— ترسل شكيب

— الجملة القرآنية

— جلجلة العبارة

— طريقته فى التأليف

— التكرار والإسهاب

— المعنى عند شكيب

— لقب أمير البيان

كتابة شكيب

وُلد شكيب كما عرفنا سنة ١٨٦٩ م ومات سنة ١٩٤٦ ، فيكون قد عاش سبعة وسبعين عاما . وقد نشر أول مقال له فى جريدة « الصفاء » وهو فى السادسة عشرة من عمره ، فيكون قد قضى ستين عاما وهو يكتب النثر ، وينظم الشعر ، ويؤلف الكتب ، ويسطر الرسائل ، ويدبج المقالات ، ويلقى الخطب .

وكان مع طول هذه المدة مكثارا ، حتى قال عنه خليل مطران : « ولو تفرغت طائفة من حملة الأقلام جمٌّ عديدها ، فياضة قرائحها ، فيما يشاء الله من مسائل السياسة والاجتماع والأدب ، ومباحث التاريخ والأخلاق ، لكتابة ما كتب من تلك الفصول والمقالات ، لتعذر عليها أن تأتى مجتمعة بما أتى به ذلك العَلَم المُفْرَد[1] » .

ولقد طرق شكيب فى كتابته كثيراً من الفنون والأغراض ، فكتب فى السياسة ، والأدب ، والتاريخ ، والفلسفة ، والاجتماع ، والنقد ، والاقتصاد ، والترجمة ، والشرح ، والتعليق ، والتحقيق ، علاوة على الشعر .

وكان شكيب نفسه يدرك ضخامةَ نتاجه الأدبى ، ويفاخر به أحيانا ، كأن يقول فى رسالة منه إلى أحمد حافظ عوض بتاريخ ٣ صفر سنة ١٣٥٦هـ — ١٩٣٧ م :

« وكيف لا أكون من أقدم الموقظين أو أقدمهم وأنا أكتب من ٥٢ سنة بدون انقطاع ، حتى إنه لو قرأ قارئ كتاباتى تلك ، وقرأ ما أكتبه اليوم ، ظن الذى يكتب اليوم هو شكيب أرسلان حفيد شكيب أرسلان الأول ، سماه أبوه على اسم جده ، والحال أنى حفيد نفسى»[2] .

---

(١) ديوان شكيب أرسلان ، المقدمة ، ص (ح) .

(٢) مجلة الشباب ، عدد ١٢ مايو سنة ١٩٣٧ .

وقد بدأ شكيب ينظم الشعر ويلقيه وينشره قبل أن يجيد الكتابةَ النثرية ، بدليل أنه نظم الشعر وهو فى الرابعة عشرة من عمره [١] ، بينما نشر أول مقالة له وهو فى السادسة عشرة ، وقد نشر ديوانه الأول « باكورة » سنة ١٨٨٧ م متضمنا شعره الذى قاله بين سنتى ١٨٨٤ و ١٨٨٧ ، فبدأ بديوان منظوم ، ولم يبدأ بكتاب منثور .

ولكن الأمير الفتى تحول من الشعر إلى النثر ، بعد أن توسم مطالعو ديوانه « باكورة » أن ناظمه — كما يقول خليل مطران — « يرق حثيثاً إلى مقام لا يرام بين شعراء العربية ، ولو ظل الأمير معنياً بذاك الفن الرفيع لصَدَق فيه ما ظنوه كل الصدق ، غير أن شأناً آخر من الشئون الضخام صرفه وشيكا عن الهيام فى مسابح الخيال ، والضرب فى آفاقه الأنيقة ، إلى منازلة الحوادث والأيام فى معترك الحقيقة . ففى هذا المفترق الأول من السبل التى يواجه بها المرء مستقبلَه آثر الأمير الترسل ، ومضى فيـــه متدفقاً تدفقَ الينبوع الصافى ، مجلجلاً أحياناً جلجلة السيل الكثير الشِّعاب » [٢] .

وأعتقد أن تأثر شكيب بالإمام محمد عبده ، والاستماع منه ، والقراءة له ، والتطلع إلى احتذائه ، كان من أهم الأسباب التى حولت شكيب من الشعر إلى النثر ، إذ أن الشعر لا يتسع لبسط الآراء ، وتحليل الأفكار ، والإلحاح فى الدعوة إلى مبدأ أو عقيدة .

والإمام كان مفكراً ثائراً ، وكان إبانَ شبيبة شكيب علَماً يشار إليه بالبنان فى مجالَى الدين والسياسة ، فأفكاره الإسلامية المتطورة مبثوثة هنا وهناك ، ونصيبه فى الثورة العرابية الذى مضى به إلى النفى والغربة عقب إخفاق الثورة كان يزيد شخصيته تألقاً فى نظر الناس عامة ، وفى نظر شاب طموح

---

(١) ديوان الأمير شكيب ، ص ١٣١ .

(٢) ديوان الأمير شكيب ، المقدمة ، ص (د) .

كشكيب خاصة ، فلا عجب إذا ملأ الإمام على الأمير الشاب حياته ، ولا عجب أن يتابعه شكيب ويشايعه فى فكرته وعبارته .

وكذلك كان من الأسباب تأثر شكيب بأفكار أستاذ الإمام : جمال الدين الأفغانى الذى كان ثائرا ، وكذلك تأثر شكيب بأساتذته الآخرين وأكثرهم ثائرون.

ومن يدرى ، لعل شكيب كان يداعبه الخيال حينذاك فيوحى إليه بأنه يستطيع أن يسلك سبيل الإمام محمدعبده ، أو سبيل جمال الدين الأفغانى ، فيصبح علماً يشار إليه بالبنان فى مجال الفكرة الإسلامية ، ويصبح زعيما من زعماء أمته فى البيان والتأليف والدعوة ، وهو يرى الفرق بين مكانة الشاعر المضّيعة على عهده إلا قليلا ، ومكانة أمثال محمد عبده وجمال الدين الأفغانى فى نفوس الناس ! .

ونحن فى الوقت نفسه نتذكر أن طموح شكيب دفعه إلى الاقتداء بشاعر عَلَم هو البارودى — والبارودى فى عصره قليل الأنداد — كما تطلع شكيب إلى التشبه بالأعلام من رجال الفكر والدعوة ، وها هو ذا يقول عن البارودى :

«فكنت أرى منتهى السعادة فى أن تكون لى معه مراسلة ، وأن أمت إليه بصلة ، كما كنت أحن إلى مثل هذه العلاقة مع السيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمدعبده ، بما أسمع عنهما وأقرأ لهما ، إلى أن ظفرت بذلك » . ثم يقول وقوله له قيمته ودلالته :

« وجميع الشبان المتأدبين كما لا يخفى لهم ولوع شديد بل هوس بتقليد كبار علماء عصرهم ، ووجْد مبرح للاتصال بهم والأخذ عنهم » .

بل يصرح شكيب بأنه احتال فى الاتصال بالبارودى عن طريق الاستشهاد بشعر البارودى فى مقالاته — مقالات شكيب — التى كان يكتبها للأهرام ، دون تصريح بالاسم أولا ، ثم بالتصريح به أخيرا ، مع تلقيب شكيب له بلقب « أمير الشعراء » (١) .

---

(١) كتاب « شوقى » ، ص ١٠٤ و ١٠٥ .

رجال أثروا فى اسلوبه

هناك رجال آخرون أثروا فى شكيب من جهة أسلوبه وتعبيره ، بعضهم كانوا من السابقين ، وبعضهم كانوا من المعاصرين لشكيب .

فمن السابقين أبو إسحاق الصابى صاحب الرسائل المشهورة ، وقد عكف شكيب على هذه الرسائل،وأدمن النظر فيها ، وحققها وعلق عليها ، ونشر منها جزءاً عام ١٨٩٨ ، وهو دون الثلاثين ، وقد تأثر شكيب بالصابى فى سجعه ، وتابعه فى أسلوبه وهو يكتب مقدمات كتبه .

ومنهم ابن المقفع الذى نشر شكيب له كتابه « الدرة اليتيمة » سنة ١٩١٠ ، وكان لهذه الرسالة أثر فى شكيب حينما ينطلق فى تعبيره من السجع ، لأنها خالية من السجع والتكلف ، وشكيب حين نشرها لم يمر بها مروراً سريعاً ، بل نظر فيها واستفاد منها ، وكيف لا وهو يقول عنها إنها « حرية بأن يتخذها الكاتب منتجع لُبِّه ، وحَمَاطة قلبه ، وأن يجعلها دستور إنشائه ، ومثال احتذائه »[(١)] .

ومنهم أبو بكر الخوارزمى الذى كان شكيب يستظهر رسائله . يذكر الأستاذ محمد إسعاف النشاشيبى فى مقال له بمجلة الرسالة عنوانه «فى إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب» أن الخوارزمى له رسالة عجيبة ، كتبها إلى جماعة الشيعة بنيسابور ، وفيها إشارات وأسماء كثيرة ، ثم يقول :

« أخبرنى العلامة الأستاذ أمير البيان الأمير شكيب أرسلان أنه كان ينوى شرحَ هذه الرسالة ، وقد ثناه عما نواه أن الشرح يشيِّع ناراً[(٢)] أشعلتها المذاهب

---

(١) الدرة اليتيمة ، المقدمة . والمنتجع فى الأصل : المغل فى طلب الكلأ ، ويقصد هنا مراد لبه. وحماطة قلبه : حبته . وفى أساس البلاغة للزمخشرى : «ومن المجاز : أصبت حماطة قلبه ، أى حبته » ج ١ ص ١٩٨ .

(٢) شيع النار : أضرمها . يقال : شيعت النار بالحطب . (أساس البلاغة) ج ١ ص ٥١٤ .

والمقالات ، ويزيد (الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً) تفريقا ، ويظلم كبارا لم يكونوا ظالمين ، وكانوا خير مظاهرين لشائد هذا المجد ، والأمير شكيب يستظهر رسائل الخوارزمى كلها ، ذكر ذلك فى إحدى مقالاته فى جريدة (المؤيد) يوم سأله أحد الأدباء : كيف وصل فى الكتابة والأدب إلى هذه المرتبة العليا »[١] .

وقد تحدث شكيب عن رسالة الخوارزمى فى مقال كتبه برومة فى ٨ مارس سنة ١٩٢٦ ، ونشره الرافعى فى كتابه « تحت راية القرآن » ، فقال شكيب عنه : « والكتاب الذى كتبه أبو بكر الخوارزمى لشيعة نيسابور أشهر من (قفا نبك) ، وليس بكتاب خاص أو رسالة مكتومة ، بل هو خطاب لأهل بلدة كانت من أشهر البلاد ، وفيه من السب لمعاوية مافيه ، ومن النعوت لخلفاء بنى أمية وبنى العباس ، والخوض فى أعراضهم ، لا يرد فى أقذع الجرائد »[٢] .

* * *

ومنهم بديع الزمان الهمذانى صاحب المقامات ، ولقد أشار إلى ذلك شكيب نفسه حينما وازن بين الهمذانى والخوارزمى فقال :

« لا جدال فى أن البديع الهمذانى أعلى درجة فى الإنشاء من الحريرى ، على فحولة هذا وكونه من أئمة النثر العربى ؛ ومزية بديع الزمان على الحريرى هى عدم التكلف . وإن الفرق بين الاثنين هو كالفرق بين الكحل والتكحل . وإنى أرى مفيداً جداً تحفيظ طلبة الأدب من مقامات البديع ورسائله ، وقد كنت من عهد حداثتى كثيرَ المطالعة لرسائل بديع الزمان الهمذانى وأبى بكر الخوارزمى ، أتلو تلك الرسائل المرة بعد المرة ، إلى أن استظهرت كثيراً منها »[٣] .

* * *

---

(١) مجلة الرسالة ، السنة الرابعة عشرة ، عدد ٥ فبراير ١٩٤٦ .
(٢) تحت راية القرآن ، ص ١٠٢ .
(٣) كتاب السيد رشيد رضا ، هامش ص ١٢٢ .

ومنهم ابن خلدون ، وقد أشار صديق شكيب السيد رشيد رضا إلى هذا أكثر من مرة ، فتارة يقول عن شكيب : « وله فى الكتابة السياسية والاجتماعية أسلوب خاص يشبه أسلوب الحكيم ابن خلدون »[١] .

وتارة يقول مخاطباً شكيب فى رسالة متحدثاً عن أدبه : « وإنما هو طور جديد ، وأسلوب طريف لفضل تليد ، جمعتَ به بين قلم ابن خلدون ومقول سحبان ، تُملى بألسنة العرب والترك والفرنسيس والألمان »[٢] .

وشكيب نفسه يترجم عن تأثره بابن خلدون فى عبارة مبسوطة أوردها فى صدر تعليقاته على تاريخ ابن خلدون يقول فيها عن نفسه :

« ولقد كان لمحرر هذه السطور من أول ما بلغت سن الحلم ولوع خاص بمقدمة هذا العبقرى العظيم ، إلى أنى كنت أطالعها المرة بعد المرة ، وفى كل مرة أجد لها طلاوة لا تمل ، وأكشف فيها أسراراً جديدة لم تكن انكشفت لى فى الأول ، وأشرف منها على آراء طريفة ومباحث لطيفة ، كنت أحاول عبثاً العثور عليها فى غير هذه المقدمة التى لا تخلق ديباجتها ، ولا تذهب بهجتها ، وكأنى استبرأت بطول الزمن الكتبَ العربية المعروفة ، فكنت أرجع فى النهاية إلى مقدمة ابن خلدون ، ولا أجد منيتى إلا فيها ، ولا أزال أستورى زناداً لا يلمع إلا من خلال ذلك الخاطر ، وأستسق غيثا لا يمطره غير ذلك العارض[٣] .

ولم يكن إعجابى بما فى كلام ابن خلدون من مبادىء سامية ، وأقوال سديدة ، وأنظار فريدة ، يعز وجودها فى كتب غيره من أساطين الحكمة ، بأقل من إعجابى ببلاغة عبارته ، ورصانة أسلوبه ، وجلالة تقريره ، حتى كأنه يخطب فوق منبر ، ويصول فى المواضيع صولة غضنفر ، فينزل بيانه من نفوس الأدباء — (الذين

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٩٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢١٩ .

(٣) استورى الزناد : أخرج ناره . العارض : السحاب المعترض فى الأفق .

يستمعون القول فيتبعون أحسنه) — المنزلةَ التي لا تعلوها منازل الأقمار في أعين السمَّار ، فلو قرأ المتأدب مقدمة ابن خلدون متوخياً فيها مجردَ الانطباع على أسلوبها في الإنشاء العربي ، دون أن ينظر إلى ما فيها من فلسفة عالية ، وتحقيقات سنية ، وعلوم جمة ملخصة ، وحقائق ناصعة من أوضاع الوجود مستخلصة ، لكانت مقدمة ابن خلدون تكفيه عمدةً في الأدب ، وتغنيه عن غيرها من نفائس ما كتب العرب .

ولعل عشق أسلوبَ هذا الإمام في كتابة التاريخ ، وغرامي بطريقته في تعليل النوازل ، وتقرير طبائع العمران ، قد ترك أثراً في ملكتي بلغ من العمق أنه قلما كان يفارقني في طرق التعبير عن أفكاري ، والإفضاء بجلاجل نفسي وخوانس صدري [1] ، وإلى أن إماماً مثل السيد رشيد رضا رحمه الله حكم في المنار منذ خمس عشرة سنة بأن أسلوب كاتب هذه الأسطر كثير الشبه بأسلوب ابن خلدون .

أقول هذا وإن كان المشبه لا ينبغي أن يعطى جميع حكم المشبه به ، وكان مثلنا لا يجهل مكانه من ذلك المدى المتطاول .

ولقد أولعت بهذه المقدمة شاباً وكهلا وشيخاً ، وبقيت أنظر إليها نظرة المشتاق لا تخمد السنون من جذوة غرامي بمحاسنها [2] » .

* * *

هؤلاء طائفة من السابقين الذين تأثر بهم شكيب في أسلوبه ، وأقول « طائفة » ولا أقول « جميع السابقين » . لأن صاحبنا قد أكثر القراءة في كتب ، وأدمن الرجوع إلى مراجع ، وهذه الكتب والمراجع لها أسلوبها ولغتها ، ولا شك أن

---

(١) جلاجل النفس : ما يتجلجل فيها ، أى يتحرك . وخوانس الصدر : الأمور التي يعنو بها فتغيب فيه . (القاموس) .

(٢) تاريخ ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول لشكيب . ص : (ن ، س) .

الأمير قد تأثر بها بطريق مباشر أو غير مباشر . وقد كان يكثر الرجوع إلى رحلة ابن جبير ، والطبقات الكبرى لابن سعد ، والمخصص لابن سيده ، ونفح الطيب للمقرى ، وتاج العروس للزبيدى ، وغيرها .

• • •

وأما معاصرو شكيب الذين تأثر بهم فنهم أستاذه الشيخ عبد الله البستانى الذى تلقى عليه دروس العربية فى مرحلة دراسته الأولى ، يقول الأستاذ مارون عبود :

« أما أنا فأرى أن الأمير متأثر بأستاذه الشيخ عبد الله البستانى ، والشيخ عبد الله كان معجما ناطقاً ، قلما فاتته شاردة أو واردة ، يقول الشعر كطرفة وعنترة »(١) .

* * *

ومنهم أحمد فارس الشدياق المتوفى سنة ١٨٨٧ ، وقد تأثر به شكيب فى كتابه « غزوات العرب » من ناحية العناية بالحديث عن الكتابات والحفريات والآثار .

وقد نقل شكيب كثيراً من المعلومات عن الشدياق فيما يتعلق بمالطة ، نقلها من كتابه « الواسطة فى أحكام مالطة » . وروى منه الكلمات التى يلفظها أهل مالطة لعصره .

وقد تأثر بالشدياق أيضاً فى كتابه « الحلل السندسية » ، حينما يتشبه به فى الدفاع عن العرب وحضارتهم فى الغرب ، وتصوير ما كان لهم من مجد ، وبذلك يكشف لنا شكيب عن أثر الشدياق فى كتابته(٢) .

ويقول مارون عبود عن شكيب : « وهو متأثر كشاب أول حياته الأدبية

---

(١) كتاب رواد النهضة الحديثة ، ص ١١٤ . وانظر أيضا « الأمير شكيب أرسلان : حياته وآثاره » ص ١٩٤ .

(٢) محاضرات عن الأمير شكيب ، ص ١٧٢ و ١٤٩ .

بأحمد فارس الشدياق ، علَم اللغة المفرد ، فلا تعجب إن رأيت فى الأمير نفحة جاهلية وثروة لغوية ، فشعره الأول — وخصوصا نقائضه [مساجلاته] مع البارودى — هو أصفى شعره وأنقاه ، مع أنه لم يكن اجتمع أشُدُّه .

أما ترسله وخصوصا فى كتابه (أناتول فرانس فى مباذله) ففيه شبه — لفظاً وسرداً — بأسلوب الشدياق الذى أثنى على الأمير حين ذكر رثاء له فقال عنه : « إمام اللغة ، وفارس ميدان الإنشاء ، الذى عرفته بآثاره ، وقطفت من نواره »[١] .

ولقد سئل شكيب نفسه عن أحب أديب إليه من المعاصرين فقال : أحمد فارس الشدياق[٢] .

• • •

ومنهم الدكتور كرنيليوس فانديك[٣] ، وقد أشار شكيب إلى أثر فانديك حينما تحدث عن ترجمته لكتاب العلامة الأمريكى (درابر) ، وهو كتاب « اختلاف العلم والدين » ، ووصف شكيب الكتاب وترجمته له وأثر فانديك فى توجيهه ، فيقول عن « درابر » :

« فقد كتب كتابا نادرَ المثال فى تاريخ الحركة الفكرية العالمية فى العالم . وما كان بإزائها من العقائد والأديان ، وما وقع من المصارعة بين المبدأ العلمى والمبدأ الدينى .

---

(١) كتاب رواد النهضة العربية ، ص ١١٤ .

(٢) ذكرى الأمير شكيب ، ص ٩ . نقلا عن جريدة الأهرام فى ١١ ديسمبر ١٩٤٦ .

(٣) قال عنه خير الدين الزركلى فى « الأعلام » إنه طبيب عالم ، هولندى الأصل ، أميركى المولد والنشأة ، مستعرب ، ولد فى قرية من أعمال نيويورك ، وتعلم الطب والصيدلة بمدرسة جفرس فى فيلادلفيا ، وأرسله مجمع المرسلين الأمريكيين للتبشير الدينى فى سورية ، فقدم بيروت سنة ١٨٤٠ ، وحذق العربية كل الحذق ، وحفظ كثيرا من أشعارها وأمثالها ومفرداتها وتاريخها ، وأنشأ مع بطرس البستانى مدرسة فى عبية بلبنان ، وتولى التعليم فى الكلية الأميركية ببيروت ، وبعد من مؤسسيها ، واختلف مع بوست فى لغة التعليم بها ، فبوست يطالب بالإنجليزية وفانديك يطالب بالعربية ، وانتصر بوست فاستقال فنديك سنة ١٨٨٢ وتوفى فى بيروت . وقد ولد سنة ١٢٣٣ هـ — ١٨١٨ وتوفى سنة ١٣١٣ هـ — ١٨٩٥ م .. الأعلام للزركلى ، ج ٦ ص ٧٧ .

وكنت اطلعت على هذا الكتاب ، إذ كنت فى الثامنة عشرة من العمر ، وأجمعت ترجمته إلى العربية ، ثم أنجزت ذلك نقلا عن نسخته الأفرنسية التى كان يسهل على الترجمة عنها أكثر من النسخة الإنكليزية .

ثم إنى لأجل زيادة التدقيق والضبط أطلعت عليها العلامة الشهير أستاذ أساتيذ العصر الدكتور فانديك ، الذى كان لى عليه تردد كثير ، وكان له نحوى ميل شديد ، وكنت ممن يستضىء بآرائه .

فالدكتور فانديك والأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده — طيب الله ثراهما — هما اللذان صححا عزمى على ترجمة هذا الكتاب ، وباشرت ذلك ، وصرت آتى من الترجمة إلى الدكتور بكراس كراس ، وهو يطالعها ويراجعها ، ويصحح ما يراه محتاجاً إلى التصحيح .

وقد كان تصحيحه للألفاظ العلمية والاصطلاحات الفنية التى لم أكن لذلك العهد أركن إلى نفسى فيها ، ولا تزال تصحيحات الدكتور فانديك بخط يده على حواشى المخطوط ، وإن يسر الله طبعَ هذا الكتاب فسأطبع عبارات تصحيحه كما كتبها هو ، أى منذ ٤٣ سنة ، ولقد شهد لى الدكتور يومئذ بصحة الترجمة ، وقال لمن سأله عنى فيها هكذا : (جاء بالصنعة) » ! .

ثم قال شكيب :

« وإنى لناقل الآن بالحرف قول العلامة (درابر) من كتابه المذكور تحت عنوان (الفصل الرابع : فى تجدد العلوم فى الجنوب) مترجماً بقلمى القاصر منذ ثلاث وأربعين سنة ، مصححاً بقلم الدكتور العلامة الأشهر فانديك الأميركانى ، عفا الله عنه وجزاه خيراً » (١) .

ثم ساق شكيب ذلك الفصل الذى استغرق نحو أربع عشرة صفحة من صفحات كتاب « حاضر العالم الإسلامى » (٢) .

---

(١) حاضر العالم الإسلامى ، ج ١ ص ١٤١ و ١٤٢ .

(٢) المرجع السابق ، من ص ١٤٢ إلى ص ١٥٥ .

مصادر ثقافته

ذكرنا سابقاً تأثر شكيب بأستاذه عبد الله البستانى الذى كان « معجما ناطقاً ، قلما فاتته شاردة أو واردة » ، وأن الأمير كان يحفظ رسائل الخوارزمى كلها ، وهذا وذاك يبينان لنا أن احتذاء الماضين ومتابعة السابقين ، والاستعانة على ذلك بالحفظ والتحصيل ، من العوامل القوية الأثر فى كتابة شكيب وأسلوبه .

وشكيب نفسه يصرح عن ذلك حين يقرر أن الملكة الأدبية تتكون للانسان من متابعة السابقين « بالاستكثار من حفظ تراكيبهم ، وتحدى أساليبهم ، ومحاكاة نغمتهم ، والاحتذاء على أمثلتهم ، حتى تتحصل المعانى منهم ملكة راسخة يصدر عنها فى إنشائه ، فلا يكون من شأنه أن يعلو ويسفل ، ويغلو ويبذل ، ولكنه يجرى على نمط متناسب ، ويفرغ فى قالب واحد [1] » .

ويمضى شكيب فى بيان رأيه فى أهمية الحفظ لمن يعانى صناعة الأدب ، فلا يقصر المطالبة بالحفظ على الشعر كما يفعل الكثيرون من المعلمين والمربين ، حينما ينصحون طلابهم أن يكثروا من حفظ الشعر ليجيدوا مادة الإنشاء ، لأنهم يستطيعون أن ينثروا البيت وينتفعوا بمعناه ، دون أن يتقيدوا بمبناه ، بل يطالب شكيب بحفظ النثر أيضاً ، فيقول :

« حفظ النثر كحفظ الشعر ضرورى لمن يعانى صناعة الأدب ، وإنه لا يعرف الطالب مفردات اللغة إلا من محفوظه ، وكلما حفظ عن ظهر القلب من النظم والنثر اتسعت لغته ، وانفسحت طرق التعبير أمامه ، وقد يتردد الأديب فى صحة لفظة ،

---

(١) الدرة اليتيمة ، المقدمة ، ص ٢ .

فيريد أن يراجع كتب اللغة ليبحث عنها ، فإذا تذكرها فيما يحفظ من كلام القارئ استغنى عن المراجعة .

ومقامات الحريرى هى من المنثور الذى حفظه يساعد الأديب كثيراً على حفظ مفردات اللغة »(١) .

ونستطيع أن نوافق على هذا الرأى إلى مدى محدود ، لأن الأديب أو الكاتب لا بد له من ثروة لغوية ، تتمثل فى مفردات أو تراكيب خاصة باللغة يستطيع عن طريقها أن يصوغ كلاماً متضمناً معانى ، ولكن هذا الحفظ يلزمه ألا يطغى على ذهن الكاتب وذاكرته ، وإلا فسد أسلوبه ومعناه معاً بما ينثال طوعاً أو كرهاً على كلامه من فيض المفردات الغريبة والكلمات المعجمية .

كما أننا نوافق على حفظ النثر إذا كان من معجز القول أو جوامع الكلم أو نوابغ العبارات ، كآيات القرآن ، وأحاديث الرسول ، وخطب الفحول ، والكلمات السائرة لأمراء البيان فى عصور العربية المزهرة ، وينبغى هنا أيضاً ألا ننسى الاحتياط ، بحيث يلزم أن يترك الحفظ فى ذهن صاحبه جانباً للتفكير ومعالجة المعانى .

كيف تكونت ثقافة شكيب ؟ وما مصادر تلك الثقافة ؟ :

لقد تعلم شكيب العربية والتركية والفرنسية والإنجليزية والألمانية ، وأجاد الثلاث الأول ، وتوسط فى الإنجليزية ، وكان قليل الإجادة للألمانية ، ولا شك أنه طالع فى هذه اللغات كلها ، واستفاد من مطالعاته فيها ، وكان لهذه المطالعات أثر فى تكوين ثقافته .

---

(١) كتاب السيد رشيد رضا ، هامش ص ١٢٢ .

لقد تعلم التركية بجوار العربية منذ الصغر ، وقويت عنده بسبب رحلاته إلى تركية ، ومصادقته لكثير من الأتراك ، وإقامته فى تركية حيناً من الزمن ، وتعلم الألمانية ، وترجم عنها كتاب (كيللر) الذى ألفه عن « غزوات العرب فى سويسرة » ، وساعده رحيله إلى ألمانية مراراً وإقامته فيها زمناً على معرفة هذه اللغة ، وتعلم الفرنسية وهو صغير فى مدارس بيروت ، وسافر إلى فرنسة مراراً وأقام بها أوقاتاً ، ثم أقام فى سويسرة نحو ربع قرن يتكلم ويقرأ ويكتب ويسمع بالفرنسية ، وترجم عن الفرنسية (١) .

ولكن أهم هذه اللغات هى اللغة العربية ، وقد تعلم شكيب فى المدرسة خلال المرحلتين الابتدائية والثانوية ، وكان هذا التعلم تمهيداً لثقافته ، وفتحاً لأبواب المطالعة والبحث أمامه ، ولكننا لا نستطيع أن نقول إن المدرسة هى التى كوّنت ثقافته ، أو كانت عاملا أساسياً فى تكوينها ، وإنما نستطيع أن نقول إن الأمير كوّن ثقافته بمطالعاته وملاقاته كبارَ العلماء والأدباء والباحثين فى عصره والاستماع إليهم والأخذ منهم ، ومراسلته لكثير من هؤلاء الأعلام ، وعكوفه على كتب الأولين وبعض كتب المعاصرين ، يتناول الجم قضما وهضما وتفهماً وانتفاعاً ، ولذلك يقول أحد الباحثين عن شكيب : « على أن أكثر ما اكتسبه من العلوم واللغات إنما قرأه على نفسه ، واكتسبه بجده وذكائه » (٢) .

وقد استمعنا إلى شكيب منذ قليل وهو يحدثنا بأنه حفظ أكثر مقامات الهمذانى والحريرى ، وأنه عكف على مقدمة ابن خلدون يبدىء فيها ويعيد ؛ وكيف حقق رسائلَ الصابى ، والدرة اليتيمة لابن المقفع ، ورأينا كيف انتفع بما كتبه الشدياق ، وكيف أفاد من ملاقاته أو مراسلته لأمثال : محمد عبده ،

---

(١) الأمير شكيب أرسلان : حياته وآثاره ، ص ٢٠٢ و ٢٠٣ .

(٢) مجلة الأديب ، عدد كانون الثانى ١٩٤٧ . مقال (الأمير شكيب أرسلان) لأمين محمد أبو عز الدين .

وجمال الدين الأفغانى ، وعبد الله البستانى ، والدكتور فانديك ، وغيرهم ممن عاونوا على تكوين ثقافته الواسعة .

وقد بكر شكيب فى الاطلاع على الكتب الكبيرة والانتفاع بها والاغتراف منها ، كنفح الطيب وتاريخ ابن خلدون والنهاية لابن الأثير والطبقات لابن سعد ورحلة ابن جبير والمخصص ولسان العرب وتاج العروس ، وغير ذلك من كتب اللغة والدين والأدب والتاريخ .

وها هو ذا يتحدث مثلا عن الشريف عبد الرحمن العباسى ويقول :

« وله كتاب (معاهد التنصيص، فى شرح شواهد التلخيص) وهو شهير ، وقرأته أول مرة فى استنبول منذ ٣٥ سنة[١]، أعارنيه قبل أن أقتنيه الشريف عبد الإله باشا أمير مكة سابقاً رحمه الله ، فوجدت الشيخ محمد بن التلاميد الشنقيطى المعروف بالشنقيطى الكبير قد قرأ هذه النسخة ، وقرأت تعقيبات له على المؤلف »[٢] .

ويقول شكيب فى مقال له بجريدة (المؤيد) :

« حفظت لعهد الحداثة شيئاً من كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع ، كما أن جميع ما كتب ابن المقفع يصح أن يكون مثالا يحتذى ، سواء فى كليلة ودمنة ، أو فى أدبيه الصغير والكبير ، ثم قرأت رسائل بديع الزمان الهمذانى وأبى بكر الخوارزمى ، ثم صرت أستظهر منها الكثير بدون تكلف ، وفيها من رشاقة الأسلوب والخفة على الروح مالا أجده إلا فى النادر مما كتبه العرب .

ونظرت فى كثير من كتب الجاحظ ، وهذه وحدها عمدة كافية فى هذا العلم ، وبلغة جازية فى إشباع من فهمها كل الفهم ، وطالعت الأغانى الذى من فاته الاطلاع عليه فقد فاته أكثر جمال اللسان ، وكان معذوراً فى ضيق الذراع وقصر الباع .

---

(١) يقول ذلك فى تعليقه على تاريخ ابن خلدون المطبوع سنة ١٩٣٦ ، فيكون قد قرأ معاهد التنصيص حوالى سنة ١٨٩١ .

(٢) ملحق الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون ، ص ١٨٤ . بحث « الترك » .

وسبق لى قبل رؤية الأغانى مطالعة العقد الفريد لابن عبد ربه ، وهو أنبه من أن أنبه عليه ، وخزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادى ، وهو من أوسط ما ألف فى هذا الفن ، ومعاهد التنصيص فى شواهد التلخيص ، ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب الذى قيل فيه : إن من لم يقرأه فليس بأديب .

ثم مقدمة ابن خلدون ، وقلم ابن خلدون لو نُشر لعجز عن وصف بلاغة نفسه ، والإحاطة بمدى علو طبقته ، وإشراب القلوب ما هناك من دقة معنى ، فى جلالة بناء ، ورصانة تركيب ، ولا أستوفى جميع ما طالعت »[١] .

وإذا كان جل اهتمام شكيب فى مطالعاته ومراجعاته كان منصرفاً إلى كتب السلف فى اللغة والأدب والتاريخ والاجتماع ، فليس معنى هذا أنه لم يكن يطالع فى زاد عصره الثقافى ، فإنه ليقرأ بأكثر من لغة ؛ وهو يترجم عن الفرنسية عن شاتو بريان رواية « آخر بنى سراج » وكتاب درابر « الاختلاف بين العلم والدين » وكتاب « رينو » عن غزوات العرب فى أوربة ، وكتاب جان جاك بروسون عن « أناتول فرانس فى مباذله » ويلخص كتاب نيقولا سيغور « محادثات مع أناتول فرانس » ، ويترجم كثيراً من البحوث والتعليقات فى كتبه وفى مقالاته .

ولا شك أن الترجمة تقتضى اطلاعاً ، ومراجعة ، وإعادة قراءة ، وتمعناً فى العبارة المترجمة ، وتدبراً لمعناها ، وفهما لمرماها ، واقتداراً على نقلها إلى مقابلها فى العربية ، وفى هذا كله مافيه من توسيع دائرة الثقافة .

كما أن شكيب اشتغل منذ صدر شبابه بالسياسة وأمور الحياة والمجتمع ، وهذه شئون تستلزم الاطلاع على مصادر معاصرة كالصحف والمجلات والكتب السياسية ، وما اتصل بالسياسة والاجتماع من نشرات وبيانات وغيرها .

---

(١) رسائل الرافعى ، ص ٩ و ١٠ . وتاريخ المقال فى المؤيد هو ٩ فبراير ١٩١٢ م .

وهو قد أدلى بدلوه فى الشعر ، وكان يعجب بشعراء كثيرين فى الماضى وفى عصره، ولا بد أنه قرأهم ، وتدبر أقوالهم ، وحفظ من أشعارهم ، فكان هذا رافداً من روافد تكوين ثقافته .

وهو مغرم منذ حداثته باللغة ، ولذلك كان يسامر المعجمات والبحوث اللغوية، وهذه قد ألقت ظلالها وطابعها على ثقافة شكيب وكتابته .

وهو يحدثنا بأنه منذ حداثة سنه كان يقرأ الصحف ، ولما حدثت الثورة العرابية سنة ١٨٨٢ م بمصر كان هو ابن اثنتى عشرة سنة ، ومع ذلك كان يتتبع وقائعها . ويتحرق غيظاً « عند ضرب الإنكليز للاسكندرية ، ونزولهم وتقدمهم فى القطر المصرى »(١) .

ثم يذكر بعد ذلك أنه قرأ فى أخبار محاكمات الثورة نصّ يمينٍ من إنشاء الشيخ محمد عبده ، فرأى فيه أسلوباً عالياً غير الذى كان يعهده ، وأنه يميز العالى فى الإنشاء من النازل بمحض الشعور(٢) .

ويقول الأستاذ أمين محمد أبو عز الدين عن شكيب : « أخذ البلاغة رأساً عن القرآن الكريم ، وسهر مع الجاحظ وابن المقفع ، كما طالع ودرس فى فنون الأدب ، والأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ، ولعلى مصيب فى اعتقادى بأن هذه العوامل ، أو هذه المراجع التى ذكرتها ، وما شابهها لوناً وأسلوباً ، كانت — وربما ما زالت — تكوّن فى الكاتب ملكة البلاغة العربية .

إلا أن المعروف عن الأمير شكيب أنه قرأ كثيراً ، وأخذ عن كثير ، فمذهبه فى الكتابة كما ذكرت هو من صنع نفسه ، وهو ثمرة جهاد طويل ، ودرس شاق ، اختلطت فيه مذاهب ، وتداول عليه أدباء وأدباء من كُتّاب العرب الأولين »(٣) .

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ، ج ١ ص ٣٩٩ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) مجلة الأديب ، عدد كانون الثانى ١٩٤٧ .

فشكيب إذن فى ثقافته صنعُ مطالعاته ومراجعاته ، وصنع ما حرص عليه من تطلب المعرفة فى كتب قومه ولغات الناهضين من حوله ، وصنع ما حرص عليه من التقاط ما يستطيع التقاطه من معارف وأفكار من أفواه الأعلام فى عصره ، أو من رسائلهم ومساجلاتهم ، ولا ننسى هنا ما آتاه الله من استعداد فطرى وملكة واعية جعلته — كما أخبرنا — يميز وهو فتى غثَّ الأدب من سمينه بمحض الشعور .

السجع عند شكيب

لقد كان الغالب على النثر فى عصر شكيب هو المزاوجة بين الجمل ، وشيوع السجع ، واختيار الألفاظ والتراكيب القديمة ؛ وكان الناثرون يتشبهون غالباً بابن المقفع وعبد الحميد الكاتب وابن العميد ، وكانوا يرون الفحولة في أن تكون الجملة قصيرة جامعة شاملة من جوامع الكلم ، كما كانت من قبل فى القرون السالفة[1] .

فكيف كان نثر شكيب؟ . إنه كما سنرى جمل قصيرة متينة ، وسجع متكلف فى أول الأمر وغير متكلف حين يتمرس بالبيان والبلاغة ، ومزاوجة بين العبارات ، وتحليق فى النثر كما كان يحلق فى الشعر ، وصور تزدحم فى الكلمات وتغص بها حتى لتضيق أحيانا[2] .

وشكيب قد اندفع إلى السجع بعدة دوافع ، منها أن عصره كان يشيع فيه السجع ، وكان أعلام الأدب فيه يسجعون ، والإنسان فى العادة ابن بيئته ، ومنها أنه شاعر ، فاذا انتقل من الشعر إلى النثر لم ينس موسيقى الشعر ، ولم ينس اتحاد القافية فى الأبيات ، ومنها أنه أدمن النظر فى مقامات الخوارزمى والهمذانى وحفظ أكثرها ، وهذه المقامات تقوم على السجع . ومنها تأثره بأبى إسحق الصابى ، لأن الصابى كان يأتى بالسجع فى كثير من الأحيان ، فهو مثلا يعزى أبا بكر بن قريعة عن ثور أبيض جلس للعزاء فيه تراقعا وتحامقا ، فبث الصابى السجع فى تعزيته . ويكتب الصابى عهدا يسميه « عهد التطفيل » على لسان طفيلي اسمه « عليكا » فيأتى فيه بسجع كثير ، وقد ذكر القلقشندى هذا العهد فى الجزء الرابع عشر من كتابه « صبح الأعشى »[3] .

---

(١) محاضرات عن الأمير شكيب ، ص ٨٨ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٩١ ،
(٣) النثر الفنى ، ج ١ ص ١٤١ وما بعدها . وانظر صبح الأعشى ، ج ١٤ ص ٣٦٠ — ٣٦٥ .

ولقد قال البعض: إن سجع شكيب يشبه سجع الكهان [(١)]، وهذا غير مسلّم، وقد يكون شكيب خانه التوفيق فى سجعه حيناً أو أحيانا ، ولكن الأمر لم يبلغ به فيما نرى أن يكون سجعه كسجع الكهان ، وإذا كنا نلاحظ أن سجعه متأثر بسجع المقامات ، فمرجع ذلك كما ذكرنا إلى حفظه أغلب مقامات الحريرى والهمذانى، وإلى أنه يحب تقليد القدماء فى النثر الفنى ، ليحشر فى زمرتهم عند التقدير الأدبى ، ولأن السجع كان طاغياً على عصره .

وإذا كان شكيب قد حرص فى أول أمره على السجع وألح فيه كثيراً ، فإنه حاول التخلصَ منه خلال حياته ، وإن ظل برغم هذا يحن إلى النثر الفنى حتى السبعين من عمره ، لحرصه على تقليد الفحول وأعلام البلغاء ، حتى لا يقال إنه قد قصّر عنهم .

إن أول كتاب ينشره شكيب هو ديوانه « باكورة » سنة ١٨٨٧ م . ويفتتحه بالسجع والجناس والتورية حيث يقول : « وبعد فقد جمعت بعض ما وقع لدىَّ من باكورة نظمى ، وأنا فى رَوْق الشبيبة ، ولدون الحداثة القشيبة ، حديث العهد بهذه الصنعة ، قريب الوِرْد لهذه الشِّرْعة [(٢)] ، متطفل على ما ليس فى طوق قبل أن أشب عن الطوق ، متطاول إلى ما هو فوق دون أن أضمن لنفسى الفَوْق ، انتخبتها وليس من مقصدى نشر ديوان ، ولا التلبس بحالة من هذا الشان ، بل إجابة لطلب بعض الإخوان ، كنت اعتذرت إليهم بأنها من عهد الطلب ، وهزة الاقتبال والطرب ، وتطفل الحدث على الأدب ، بل عبث الوليد إذا شب .

فلما لم أر لعرضهم صدّا ، ولم أجــد من إجابتهم بُدّا ، اقتصرت على هذه

---

(١) مطالعات فى اللغة والأدب ، ص ١٢٥ .

(٢) روق الشبيبة : أولها ولدون: أى لين . وليس فى القاموس ولا اللسان ولا الأساس ، لدون ، وإنما فيها : لدانة ولدونة ، والورد : الإشراف على الماء وغيره . والشرعة : مورد الشاربة .

الأعوذجات ، وأحسبنى تطاولت جدا ، فإن صادفت من الإقبال محلاً ، ولاقت قبولا فذاك وإلا

فقد يتزيا بالهوى غير أهله ويستصحب الإنسان مالا يلائمه »

وغير خاف ما فى هذه السطور من براعة فى الصياغة ، وصنعة فى السجع ؛ وفى المجانسة بين « طوق » بمعنى وسعى و « الطوق » بمعنى ما استدار حول الشىء ، وبين « فوق » بمعنى أعلى منى ، و « الفوق » بمعنى الفضل والسبق ؛ وفى التورية بكلمة « عبث الوليد » ؛ ولكننا مع هذا نحس بما فيها من تكلف ، وبما فى كلمة « الأعوذجات » من ثقل يمكن إزالته باستعمال كلمة « النماذج » ؛ وما فى قوله : « وأحسبنى تطاولت جداً » من عامية تعبير ، وما فى قوله : « فذاك وإلا » من قلق لتعلق الكلام بالبيت بعده .

وكما بدأ شكيب ديوانه بالسجع ختمه به فقال : « فهذا أثر مما سمح به الخاطر والعمر فى أول أطواره ، وجواد القريحة فى بدء مضماره ، وسمت به النفس على حالتها تلك والمرء مولع بآثاره ، والفتى كلف بأبكاره ، راجياً ممن تردّى برداء الأدب واستشعر بشعاره ، أن يتلقى الخلل بواسع حلمه ، ويتغمد الزلل بوارف ستاره . . . » إلخ .

ومن السهل أن نلاحظ هنا أن الجمل المسجوعة قد طالت نوعا ما عن شقيقاتها فى المقدمة .

* * *

وفى سنة ١٨٩٣ ينشر شكيب كتاب « الدرة اليتيمة » لابن المقفع ، فإذا به يقول فى المقدمة : « وبعد ، فقد رأينا إخواننا طلاب العربية أعظم ما كانوا عليها منذ أمد إقبالا ، وأشد ما عانوا فى تحرى فوائدها إيجافا وإيغالا (١) ، وأحث

(١) الإيجاف : ضرب من سير الإبل والخيل . والإيغال والإمعان .

بما وجدناه في سبيلها اجتهاداً ، وأبصر ما عهدناه في مظان تحصيلها ارتياداء رأينا الجمّ الغفير منهم — والحق يقال — دائبا في إصلاح لغته ، وتثقيف ملكته ، حريصاً على تقويم لسانه ، وإحكام بيانه ، متوخياً طرق الانطباع على بليغ الكلام ، منتهجاً خطط الوصول إلى الطبقة العالية من القول ، مما يجب أن يلتمس في كتب السلف ، وينشد في منشئات الأولين ، من أهل هذا اللسان ، السابقين في حلبة البيان ، بالاستكثار من حفظ تراكيبهم ، وتحرى أساليبهم ، ومحاكاة نفثتهم ، والاحتذاء على أمثلتهم ، حتى تتحصل للمعانى منهم ملكة راسخة يصدر عنها فى إنشائه » .

* * *

وفى سنة ١٨٩٧ ينشر شكيب لأول مرة ترجمته لرواية (آخر بنى سراج[١]) وفى مقدمته لها يقول إنها تدور «على سياحة شاب تام الرجولية ، باهر الفروسية ، من بقايا آل سراج الغرناطيين ، من أكرم بيوتات العرب الباقين ، كانوا بالأندلس لعهد خلوها من الإسلام ، ونُبُوِّها عن حُمْر الأعلام ، هب من تونس حيث كان جالية الأندلس قد نزل أكثرهم سائحاً إلى وطنه القديم : متعللا بالعظام الرميم[٢] ، طائعاً هوى النفس فى الذهاب أين ساقه التذكار والحنين ، هائماً على وجهه فى تلك الأرض التى عمرها آباؤه مئين من السنين ، وبينما هو يجول فى شوارع غرناطة مسكن أهله قبل الجلاء الأخير ، وثمالة ما كان بقى فى يد الإسلام من ذلك النعيم والملك الكبير ، كانت منه لفتة وقع فيها بصره على فتاة من سريات الأسبانيول فعلقت بقلبه ، ووقع نظره منها على مثله ، فتعاشقا وتوزعت القصة بين حبها وحبه ، وحال دون اقترانهما إعجاب كلٍّ بدينه وإخلاصه لربه ... » .

---

(١) فى كتاب محاضرات عن الأمير شكيب (ص ٩٤) ما يفهم منه أن ترجمة هذه الرواية طبعت لأول مرة سنة ١٩٢٥ وهذا غير صحيح ، لأنها طبعت أول مرة فى مطبعة جريدة الأهرام سنة ١٨٩٧ كما هو موجود على أول صفحة من الترجمة — ثم ظهرت فى طبعة ثانية سنة ١٩٢٥ ، وإن كان قد بدىء فى هذه الطبعة الثانية سنة ١٩٢٤ .

(٢) الرميم : البالى .

ونلاحظ معا أن وحدة السجع قد خفت، وأن قيوده قد لطفت، وأن الجمل قد طالت وتحورت، وابتعد فيها شكيب عن التقعر في مفرداته، ولا شك أننا نتوقع أن تكون هذه خطوة نحو الانطلاق والترسل تتبعها خطوات، فيتحرر شكيب من قيود السجع والمزاوجة والصبغ البديعي، ولكن: هل استجاب شكيب لما توقعناه ؟

لقد رأيناه بعد قليل ينشر رسائل الصابي (سنة ١٨٩٨م) ويقدم لها، فإذا هو لا يتقدم نحو الترسل خطوة ولا خطوات، بل يرجع إلى صميم السجع والمزاوجة الصنعة خطوة أو خطوات؛ فإذا هو يقول في المقدمة:

« وبعد ، فإن من أطرف ما تَطرف به أندية الأدب ، ويثتل من كنائن (١) البلاغة فى خزائن العرب ، وينشر من بين صفائح الصحائف بعد أن طال ما طوى واحتجب ، المختارَ من رسائل الصابى المشهور المكنى بأبى إسحق ، رئيس كتاب الديوان ببغداد ، والذاهب صيته إلى بَرْك الغِماد (٢) فى الآفاق ، إذ كان كلامه من أجلّ ما ألقحته أصلاب الأقلام ، وحملت به بطون الأوراق .

وإن كل من أصاب من الأدب ذَرْوًا (٣) ، وعرف للقلم جريًا ، وللمداد جريًا ، ليصبو إلى بيان الصابى ، وينتشى بإنشائه العالى ، فهو ينظر فيه من خطط البلاغة ومراسمها ، ويشهد من محافل الفصاحة ومواسمها ، ما يعز الإتيان بمثل بدائعه على راغمها ، وتُخفَر عذارى خطبه دون خاطب كرائمها ، ويتلو من آيات كتاب الدواوين وخطباء النوادى ، ما تفسخ به جمال حداة المهارى ، ورعاة البوادى » .

أرأيت إلى توالى السجعات وتعددها ، وإلى كلمات : « الأدب ، والعرب ،

---

(١) يقال : نثل الكنانة: أى استخرج نبلها فنثرها . والكنانة : مايوضع فيها النبل .
(٢) برك الغماد : هو أقصى معمور الأرض (القاموس) .
(٣) ذروا : طرفا ، يقال : بلغنى عنه ذرو من القول ، أى طرف منه (الأساس) .

واحتجب » . وكلمات : « أبي إسحاق ، والآفاق ، والأوراق » . . وكلمات :
« سراسمها ، ومواسمها ، ورانمها ، وكرائمها ؟ . . . » .

أرأيت كيف تستولى الصياغةُ الفنية على همــة شكيب وبيانه ، فتحول بينه وبين الانطلاق في شرح الأغراض ، وبسط الأفكار ، وعرض المعانى ؟ ؛

ولو أن الأمير لم يجدْ من ينقده فى موضوع السجع لقلنا إنه يستجيب فى هذا لارتياح الناس ، ولـكن بعض الأدباء انتقدوه ، ومنهم الأستاذ محمد كردعلى كما سيأتى قريباً ، ومع ذلك يمضى الأمير مصراً على خطته وسجعته ، وما يكاد الأستاذ كردعلى يستعمل بعضَ السجع فى فاتحة مجلته (المقتبس) سنة ١٣٢٤ هـ — ١٩٠٦ م حتى يسارع شكيب بالتعريض به ، فيقول له فيما يقول : « وطالما تهمتَ عاينا التسجيعَ ، وأقت علينا من النـكير بعـدد أنواع البديع ، وعددت سجع الحمام من قبل لجع الحمام ، واعتبرت نفائس الجناس من وساوس الخناس [١] » .

ولا بد لنا من أن نلاحظ أن الأمير استخدم السجع فى نقـده للأستاذ كردعلى ! .

ويقول شكيب أيضاً فى حديثه الموجَّه للأستاذ كردعلى : إن السجع رسمى فى « المقدمات » .

ولذلك نرى سجعه يأتى عادة فى مقدماته للـكتب ، ثم ينطلق فى عبارة جزلة ، وقد يعود إليه ، ولـكن دون التزام .

فهو مثلا يفتتح كتابه « الارتسامات اللطاف فى خاطر الحاج إلى أقدس مطاف » بقوله :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الواحد الخلاق ، وسبحان الله وبحمده

(١) مجلة المقتبس ، سنة ١٣٢٤ هـ ، ص ١٦٨ .

فى المشى والإشراق ، ونشهد أن لا إله إلا الله شهادةَ الإخلاص التى نرجو بها الخلاص يوم التلاق ، وتهون بهـا سكرات الموت إذا حشرجت الأنفس فى التراق .

ونشهد أن سيدنا محمداً عبد الله ورسوله أشرف الخلق على الإطلاق ، المبعوث لإقامة الحق والعدل وإتمام مكارم الأخلاق ، بكتاب باهر الحجة ، وسنة واضحة المحجة ، وبراهين كالصبح فى الانفلاق ، والشمس فى الائتلاق .

صلى الله عليه وعلى آله الغطاريف ، وعلى أصحابه الصناديد ، وعلى أنصاره الكرام العتاق ، الذين نشروا التوحيد المحض فى الآفاق ، وجمعوا كرم الأفعال إلى كرم الأعراق ، ما هبت نسائم الأسحار ، وتفتقت كمائم الأزهار ، وسجعت الوُرْق على الأوراق ، وسلم تسليما كثيراً [1] » .

ومع أن الكتاب منشور سنة ١٣٥٠ هـ — ١٩٣١ م وقد سبقته كتب لشكيب وكتابات ، رأينا أنه التزم السجع فى المقدمة ، والتزم حرفاً واحداً فى اثنتى عشرة جملة ، ورأينا اقتدارَه اللغوى وهيامه بالسجع يظهران فى تتابع هذه الكلمات : « الخلاق ، الإشراق ، التلاق ، التراق ، الإطلاق ، الأخلاق ، الانفلاق ، الائتلاق ، العتاق ، الآفاق ، الأعراق ، الأوراق » ! .

ولكنه ينطلق بعد هذه المقدمة مباشرة ليتحدث فى موضوعه بلغة سلسة دراجة فيقول : « وبعد فقد مضت علىَّ حِجَج كثيرة وأنا أهم بأداء فريضة الحج ، والعوائق تعوق ، والموانع من حول إلى حول تحول ، إلى أن يسَّر الله بلطفه وحسن توفيقه لى أداء هذا الفرض فى سنة ١٣٤٨ هـ ، أى منذ سنتين كاملتين ،

---

(١) التراق : أعالى الصدر . الغطاريف : جمع غطريف ، وهو السيد الشريف ، والسخى : السرى والشاب . والصناديد : جمع صنديد ، وهو السيد الشجاع ، أو الحليم ، أو الجواد ، أو الشريف ، والعتاق : جمع عتيق ، وهو الكريم ، والنجيب ، والشريف . والمحض : الخالص . والورق : جمع ورقاء ، وهى الحمامة .

فكان قصدى إلى الحجاز من لوزان بسويسرة ، عن طريق نابولى بإيطالية ، إذ ركبت منها البحر على باخرة إنجليزية إلى بور سعيد ، حيث نزلت ، وفى اليوم التالى ذهبت إلى السويس ، ومنها أبحرت إلى الحجاز ، فى باخرة مكتظة بالحجاج ، فأحرمنا ولبّينا من بحر رابغ ، ووصلنا إلى جدة من السويس فى اليوم الرابع ...» إلخ .

وفى سنة ١٩٢٦ يظهر كتاب «أناتول فرانس فى مباذله» الذى ترجمه شكيب عن الفرنسية ، ويقدم له بمقدمة يخف فيها السجع ، حيث يقول فى أولها :

« لم يعهد التاريخ دوراً من الأدوار خلص من علاقة الشرقيين بالغربيين ، وخلطة الغربيين بالشرقيين ، ونسخ كل فريق عن الآخر ، واقتباس هذا من ذاك ، أخذاً ورداً ، وجزراً ومداً ، حتى فى أعرق الأدوار فى القدم ، وأوغل الأطوار فى الظُّلَم .

وقد عم هذا التحاك جميعَ أحوال الحياة وأركان العمران ، من التجارة إلى السياسة إلى الصناعة إلى الثقافة ، فكما تناقلوا فيما بينهم البضائعَ والمتاجر ، فقد تناقلوا الحكم والخواطر ، وكما حمل بعضهم إلى بعض المهنَ والصناعات ، فقد حملوا الاختراعات والبراعات .

وكما تسلط منهم الأشجع على الأجبن ، والأشك (١) على الأعزل ، فقد تسلط الألحن على الألكن (٢) ، والأعلم على الأجهل .

إذاً الأخذُ والعطاء بين الشرق والغرب قديمان منذ طلعت الشمس ، وولى اليوم الأمس ، لم ينحصروا فى الأمور المادية ، والحوالات المالية ، والآثار اليدوية ، بل شملا الأمور المعنوية ، والمسائل العقلية ، والشئون الاجتماعية .

---

(١) أفعل تفضيل من شك . ورجل شاك السلاح وشاك فى السلاح ، أى لابس السلاح التام . والأعزل : من لا سلاح له .

(٢) الألحن : الأفطن والأفصح . والألكن : العيى الثقيل اللسان .

وما ترقت فى سلم الاجتماع أمة فى شرق ولا فى غرب إلا كان الآخر عيالا عليها، جاداً فى محاكاتها، ومتحسراً على منافاتها، فقد أخذت يونانُ عن مصر، وأخذت بغداد عن يونان، وأخذت أوربة عن الأندلس، ثم أخذ الشرق فى جدته الأخيرة عن أوربة».

ثم يمضى إلى موضوعه دون سجع إلا نادراً، ويترجم بلا اصطناع محسنات بديعية.

وقد يخيل إلينا هنا أن الأمير قد بلغ مرحلة أخيرة للتخلص من سلطان السجع عليه، أو من حرصه على السجع فى مقدمات كتبه، ولكنه فى أواخر سنة ١٩٣٣ يطلع علينا بكتابه «تاريخ غزوات العرب فى فرنسة وسويسرة وإيطالية وجزائر البحر المتوسط»، فإذا هو يوغل فى السجع، وإذا هو لا يكتفى بالسجع فى صدر المقدمة كما فعل مثلا فى «الارتسامات اللطاف»، بل يشيع السجع فى المقدمة من أولها إلى آخرها، فيقول فى صدرها:

«ربنا إليك نفزع من مداحض القدم، وبك نستعصم فيما يجرى به القلم، ونشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك بارىء النسم، ومفيض النعم، وباسط الوجود على العدم، شهادة نعدها للنجاة إذا اشتدت الغمم، ونتقى بها النار ذات الضرم، ونشهد أن محمداً عبدك ورسولك سيد من دعا إلى توحيدك بين الأمم، وسلطان من طهر الأرض من عبادة الصنم، المنزَّل عليه كلامك الموصوف بالقدم، المبعوث بالآيات الباهرة والحِكَم، اللهم صل عليه وعلى آله لهاميم العرب ومعادن الكرم، وأصحابه حملة الكتاب وليوث الكتائب فى المزدحم، الذين أشرقت شموسهم فى الشرق والغرب فأماطت الظُّلْم وأنارت الظُّلَم، وسلم يارب كثيرا»(١).

---

(١) مداحض القدم: مزالقها. الضرم: الاشتعال. لها ميم جمع لهميم وهو السابق الجواد من الخيل والناس.

وإذا كنا قد وجدناه في مقدمة « الارتسامات اللطاف » يذكر اثنتى عشرة جملة مسجوعة ، وكل منها تنتهى بكلمة فى آخرها قاف ، فإننا نجده هنا يذكر أربع عشرة جملة مسجوعة ، وكل منها تنتهى بكلمة فى آخرها ميم ، وهذه الكلمات هى : « القدم ، القلم ، القسم ، الذمم ، العدم ، الفم ، الضرم ، الأمم ، الصنم ، القدم ، الحكم ، الكرم ، المزدحم ، الظلم » ! .

هذه ليست حلية لفظية ، ولا صبغة بديعية ، يحاول شكيب أن يزين بها كلامه ، ولكنها محاولة من شكيب لإظهار قدرته على السجع ، وعلى التزام حرف واحد ، وعلى حفظه لكثير من المفردات المماثلة فى حرفها الأخير .

ولا يكتفى شكيب بما قدم من سجع فى هذا الجزء المتقدم من مقدمة الكتاب ، بل يستمر فى سجعه إلى آخرها فيستغرق فيها ثلاث صفحات كبيرة بحروف صغيرة وسطور كثيرة فى كل منها .

وفى مقدمته لكتاب « محاسن المساعى في مناقب الإمام أبى عمرو الأوزاعى » الذى نشره سنة ١٩٣٣ يذكر عشر جمل كل منها تنتهى بكلمة فى آخرها همزة وهاء ، وهى : « نمائه ، أسمائه ، أنبيائه ، لوائه ، بنائه ، أوليائه ، سوائه ، آرائه ، أنحائه ، سمائه » ! .

ولكنه ما يكاد يتم هذه العشرة فى نحو سطور عشرة حتى ينطلق فى عبارته المترسلة بلا سجع .

فلم يكن شكيب إذن عبداً للسجع ، ولم تكن الصنعة البديعية غريزة فيه ، ولكنه فيما يبدو يريد أن يظهر براعته وقدرته ، ويريد أن يتشبه بالسابقين ليقرن بهم من جهة ، ويريد أن يقول للمتكلفين من كتّاب عصره إنه يستطيع أن يجاريهم وأن يسبقهم ، وهو بعد هذا يحسن مالا يحسنون . وهو أسلوب الترسل والانطلاق .

ولذلك نجده فى تقديمه لديوان أخيه نسيب « روض الشقيق » يبدأ بسجع ملتزم فى صفحة من المقدمة تقريبا ، ثم يخفف حدة الالتزام فى صفحتين تاليتين أو ثلاث ، ثم ينطلق مترسلا [1].

ونجده فى مقدمة « الحلل السندسية » يطيل نَفَسَه فى السجع حتى يستغرق صفحات وصفحات ، فى روعة تذكِّر بسجع شوق فى « أسواق الذهب » [2].

ومما يستحق الالتفات أن الأمير لم يستعمل السجع فى مقدمة كتابه عن شوقى ، ولا فى مقدمة كتابه « لماذا تأخر المسلمون » ، ولا فى كتابه عن رشيد رضا . ولعل السبب فى ذلك هو أن الكتابين الأولين كانا فى الأصل مجموعة من المقالات نشرت فى الصحف ثم جمعت ، وأن كتابه عن رشيد فيه معنى الرثاء ، وموطن الرثاء لا يناسبه التفنن فى الصنع البديعى أو محسنات الألفاظ .

ومما يدلك على أن الأمير شكيب كان يتعمد هذا السجع أحياناً وبمقدار ، ليدلل على براعته وقدرته وتفننه ، أنه كان يستعمله أحياناً فى بعض المقالات الإخوانية وبعض رسائله إلى الأصدقاء ، وهو فى بعض الأحيان يلتزم السجع مدة طويلة ، وأحياناً أخرى يسارع بالانتقال منه إلى الترسل .

ها هو ذا يكتب فى جريدة الشورى مقالا بعنوان : « مداعبة صديق لصديقه » يخاطب فيه شيخ العروبة أحمد زكى باشا بمناسبة زيارته لصنعاء ، فيقول له مداعباً :

« دخلتَ صنعاء دخلة البطل ابن همام ، لا الحارث بن همام ، فلم تكن خالى الوفاض ، ولا بادى الأنفاض ، بل كنت ملآن الوطاب علما ووُجْدا — بضم الواو — فائض الجوانح إخلاصا ووَجْدا — بفتحها — ولم تفتك هناك ولا شك جواهرُ

---

(١) انظر الصفحات ٣ — ٨ .

(٢) انظر من صفحة ، إلى ص ١٢ ، ج ١ .

اللفظ ، ولا أجبرتك الحال على زواجر الوعظ ، فإن التمر لا يُهدَى إلى هَجَر ، وابن البحر لا يساجله مساجل بالدرر»[١] .

وبعد أن يقطع شوطاً فى سجعه وجناسه يقول مخاطبا زكى باشا :

« لا تعجب من هذه الجناسات ، فقد رأيتك يا أخى تلتزم الجناس ، وستصير فيه سيدَ الناس ، فى مقالتك هذه[٢] : أهواء والهواء ، وحشاها وحواشيها ، والشقة والمشقة ، وتسيم وتسنيم ، والزور وديرِ الزور ، وغير ذلك .

إلا أن جناسا هناك يخيفنى ، وسجعة فيها ما فيها ، تظهر آثار الحشى من حواشيها ، وذلك عند قولك : (جزيرة قفراء ، إلى أخرى مثلثة الخاء ، خلاء فى خواء فى ... والثالثة ليس فيها خفاء) فأنا كنت أقول : لعل الثالثة التى ليس فيها خفاء هى (خباء) ، فتكون الجملة : (خلاء فى خواء فى خباء) إلا أنى أرى من غرام سيدى بلزوم مالايلزم فى أسجاعه ، ومن عدم اكتفائه بالحرف الأخير حتى يلتزم أيضا ما قبله ، ومن كون الفاصلة الأولى آخرها (قفراء) ما رجح عندى أنه لا بد فى الفاصلة الثانية قبل الهمزة من راء[٣] » ! .

أرأيت القدرةَ على السجع ، وعلى التلاعب باللفظ ، وعلى استحضار المفردات المتشابهة ، والكلمات المتماثلة ؟ .

وفى رسالة لشكيب إلى أحد أصدقائه ، نراه يجمع بين السجع والترسل ليظهر قدرته على الاثنين ، فيقول :

---

(١) الوفاض : جمع وفضة ، وهى خريطة الراعى لزاده وأداته ، والجعبة من أدم . والإنفاض : المجاعة والحاجة (عن اللسان) . والوطاب : جمع وطب وهو سقاء اللبن . والوجاء بالضم : الغنى ، وبالفتح : الحب . وهجر : اسم لجميع بلاد البحرين ، والمثل يقول : كمبضع التمر إلى هجر . وهجر بلد باليمن ، وقرية كانت قرب مكة .

(٢) يشير إلى مقالة زكى باشا منشورة فى الشورى ، عدد أكتوبر ١٩٢٦ .

(٣) جريدة الشورى ، عدد : نوفمبر ١٩٢٦ .

« إن منصبي مكتبي ، ورياشي كتبي ، ووظائفي صحائفي ، وأدواتي دواتي ، وبضاعتي براعتي ، وأعلاقي أوراقي ، وليس لي نية في غير ذلك ، وأسأل الله ألا يحوجني إلى قبول أي منصب ، وأما من جهة السياسة فزهادتي أيضا تامة ، ولست أتعرض إليها إلا في المسائل التي أجد وطني فيها بخطر ، أو أرى على قومي حيفا لا يحتمل ، وإلا فما أقل رغبتي فيها ، وأظن أننا استوفينا قسطنا على أكمل وجه »[١].

أرأيت السجعات الدقيقة الأنيقة السريعة التي تتألف كل منها من لفظة ولفظة ، وما تضمنه بعضها فوق السجع من جناس غير تام ؟ ثم أرأيت كيف انتقل شكيب عقيب ذلك إلى أسلوب سهل واضح لا أثر فيه للصنعة أو القيود ؟ .. وكأنه جعل السجع في كلامه كالملح في طعامه ، على طريقة قول العرب : « من أخل أحمض » .

والعجيب أن شكيب ظل على السجع حتى أواخر أيامه ، فقد كتب مقدمة كتابه المخطوط « بيوتات العرب في لبنان » وأرخها بتاريخ ١٩ يوليه ١٩٤٦[٢] ، أي قبل وفاته بأقل من خمسة أشهر ، ومع ذلك أورد فيها قدراً من السجع ، فقال فيها :

« الحمد لله سياج النعمة ، ومخافة الله رأس الحكمة ، ونشهد أن لا إله إلا الله شهادة نستفتح بها أبوابَ الرحمة ، ونلجأ إليها في كل بادرة وأزمة ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله ، كاشف الغُمَّة ، وسراج الظلمة . صلى الله عليه وعلى إخوانه الأنبياء والمرسلين الذين باتباع وصاياهم تمام العقل وكمال الشِّيمة[٣] » . ثم يترسل بعد ذلك في حديثه .

لعل الأمير أراد أن يقول لقرائه : إنه ما زال على عهدهم به ، وإن زاد على السبعين بسنوات وأقبل نحو الثمانين ، فما زال قادراً على أن يسجع ، وأن يصطنع الصِّبغ البديعي ، وأن يورد سجعات متواليةً يختتمها بالكلمات التالية : « النعمة ، الحكمة ، الرحمة ، أزمة ، الغمة ، الظلمة ، الشِّيمة » ! .

---

(١) مجلة الشباب ، عدد ٣ مارس ١٩٣٧ . والأعلاق : النفائس .
(٢) جريدة منبر الشرق ، عدد ٨ إبريل ١٩٥٥ .
(٣) المرجع السابق . والشيمة (بكسر فسكون) : الطبيعة (القاموس) .

ولكننا نلاحظ هنا أن السجع خفيف لطيف ، وشتان ما بينه وبين سجع شكيب في تقديمه كتاب « محاسن المساعي » مثلا ، حيث يقول :

« الحمد لله على نعمائه ، وسبحانه وتعالى بجميع أسمائه ، والصلاة والسلام على محمد سيد أنبيائه ، النبيِّ العربيِّ الأميِّ الكاتب كلمة لا إله إلا الله فوق لوائه ، جاعل العدل والإحسان والمحافظة على حقوق الإنسان أعظمَ قواعد شرعه ، وأمتن أعمدة بنائه ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأوليائه ، وإخوته الأنبياء المرسلين الذين دعوا إلى الله وهدوا الخلق إلى سلوك سوائه ، وعلى الأئمة المجتهدين والأئمة المجاهدين الذين أعلوا كلمة الحق هذا بفتوحاته وهذا بآرائه ، ومنهم المترجَم في هذا الكتاب الإمام أبو عمرو عبد الرحمن الأوزاعي الذي كان من مفاخر الإسلام في علمه وورعه واستقامة أنحائه ، رضي الله عنه وأرضاه وأعلى درجاته في غُرف سمائه »(١) .

السجع هنا متكلَّف ، والجمل غير متناسبة في قصرها وطولها ، وكثير منها قد أرغم إرغاما على أن يتكون من شطرين غير متلائمين .

* * *

وحينما نشر شكيب ديوان أخيه « نسيب » كتب الأستاذ محمد كردعلي في مجلة « الرسالة »(٢) يعيب على شكيب سجعهَ وإطالته الكلامَ بهذا السجع ، ويقترح عليه أن يحذف من مقدمته للديوان العبارةَ التالية التي يتكلم فيها عن شعر أخيه :

« لا أجد لشعره وصفاً أوفى من عرضه على الأنظار ، ولا لديوانه حليةً أجمل من نشره في الأقطار ، وخير وصف للحسناء جلاؤها ، والجواد عينه تغني عن الفرار ولعمري لو وصفته بأزهار الربيع وأنواع البديع ، وشققت في تحليته أصناف الأساجيع ، وكان هو في الواقع دون ما أصف لما أغنيته فتيلا ، ولا رفعته عن درجته

---

(١) محاسن المساعي ، ص ٤ .

(٢) عدد ١٩ أغسطس عام ١٩٣٥ .

قليلا ولا كثيراً ؛ كما أنى لو قدمته للقراء فريدة معطالا ، لا يرن لها حجل ولا سوار ، ولا يتلألأ عليه ياقوت ولا نضار ، وكان هو فى نفسه دُرًّا نظيما ، وأمراً عظيما ، وديوانا تتأرج أرجاؤه نَدًّا ولطيما ، لما خفى أمره على ذوى الوجدان ، ولا تعامى عن سبقه أحد ممن له عينان »(١) .

ويقترح عليه أن يضع بدلها العبارة الموجزة التالية : « لا أجد لشعره وصفاً أوفى من عرضه على الأنظار ، ولو وصفته بأزهار الربيع ، وكان هو فى الواقع دون ما أصف لما أغنيته فتيلا ، ولو قدمته إلى القراء فريدة معطالا ، وكان هو فى نفسه درًّا نظيما ، لما خفى أمره » .

ويقول الأستاذ كرد على عقب اقتراحه : « أليس هذا الإيجاز أوقع فى النفس ، وأجمل فى أداء المعنى ، وأدعى إلى الإفهام من أسجاع تثقل على الطباع » ؟ .

وانتضى شكيب قلمه ليدافع عن نفسه وعمله فى صورة من يدافع عن السجع ، فقال فيما قال :

« أما السجع — وما أدراك ما السجع — فالكلام العربى ينقسم إلى مرسل ، ومسجع ، وموزون مقفى ، ولكل نوع من هذه الأنواع الثلاثة مقام يحسن فيه أكثر من غيره ، والمرسل هو الكلام المعتاد الطبيعى الذى به أكثر تفاهم الناطقين بالضاد ، والموزون المقفى هو الشعر الذى لا رونق للغات بدونه ، والسجع وسط بين المرسل والموزون ، وله وقع فى النفوس لا جدال فيه ، ويكفيه من الشرف أن كتاب الله قد نزل بهذه الطريقة ، وأن (نهج البلاغة) وكثيراً من كلام أفصح ...

---

(١) جلاء العروس : عرضها على بعلها . والفرار (بضم فتتح) : الكشف عن أسنان الدابة لمعرفة سنها ؛ وفى المثل : « عينه فراره » يضرب لمن يدل ظاهره على باطنه ، ومنظره يغنى عن أن تفر أسنانه وتخبره . والفريدة المعطال : النفيسة تغير حلى عليها ؛ والحجل : الخلخال . والند واللطيم : العنبر والمسك

العرب هو من النوع المسجع ، ولا يقال فى بديع الزمان والخوارزمى والصاحب والصابى والقاضى الفاضل وأمثالهم إنهم لم يحسنوا القول .

فإن كانت اللغات الأوربية ليس فيها سجع إلا ما ندر ، فليس هذا بحجة على اللغة العربية ، فلكل لغة خواص تمتاز هى بها ، وقد خلق الله الناس أذواقاً مختلفة ، وجعل لكل أناس مشربهم ، فالعرب غير العجم ، والشرق غير الغرب »[١] .

وفى كلام شكيب مواطن نقف عندها ، فقد قال إن السجع له وقع فى النفوس لا جدال فيه ، ونقول إن هذا الوقع يكون إذا جاء السجع خفيفاً وفى مواطنه ، كما قال شكيب نفسه : « لا يحسن وقع السجعة إلا إذا جاءت فى محلها »[٢] . لكن إذا التزمه الإنسان وأطال فيه سبّبَ المللَ والسأم ، وصار كالغراب الذى أراد تقليد الطاووس فلم يفلح ، ونسى طيرانَ الغراب ، فالسجع إذا طال لم ندر : أهو شعر فيجب أن يوزن ، أم هو خروج على سلاسة الكلام فيعد خللا ؟ .

وها هو ذا الدكتور زكى مبارك فى كتابه « النثر الفنى » يقرر أن السجع من مميزات البلاغة الفطرية ، فهو فى أكثر اللغات يجرى باطراد فى الحِكَم والأمثال ، ثم يذكر الدكتور أمثلةً كثيرة من السجع فى عصور العربية المتتابعة ، ثم يتحدث عن السجع فى عناوين الكتب ويقول : « وقد سرى هذا الفن إلى عصرنا الحاضر ، مع ما أفرطنا فى الدعوة إلى ترك السجع ، فالأمير شكيب أرسلان كتاب حديث جداً نشره أولا فى جريدة الشورى اسمه : « الارتسامات اللطاف فى خاطر الحاج إلى أقدس مطاف »[٣] .

ولكن الدكتور يعود فيقول : « نحن نرى السجع قيداً يعطل حركةَ الفكر

---

(١) مجلة الرسالة ، عدد ٢٣ سبتمبر ١٩٣٥ .
(٢) الارتسامات اللطاف ، ص ٢٤٠ .
(٣) النثر الفنى ، ج ١ ص ٦٤ وما بعدها .

والعقل فى كثير من الأحيان ، ونراه يبعد لغة العرب من أن تصير لغة مدنية تعبر عن جميع الشئون فى طلاقة وحرية ، بحيث لايصدها سجع ، ولايحدها ازدواج »[١].

و « شوق » صديق شكيب يذكر السجع فى كتابه « أسواق الذهب » فينوه به ، ويعده خلقاً من الشعر ، ثم ينقد الذين يعيبونه دون تفرقة منهم بين الجميل منه والقبيح ، فيقول :

« السجع شعر العربية الثانى ، وقواف مرنة ريّضة خُصت بها الفصحى ، يستريح إليها الشاعر المطبوع ويرسل فيها الكاتب المتفنن خياله ، ويسلو بها أحياناً عما يفوته من القدرة على صياغة الشعر . وكل موضع للشعر الرصين محل للسجع ، وكل قرار لموسيقاه قرار كذلك للسجع ، فإنما يوضع السجع النابغ فيما يصلح مواضعَ للشعر الرصين : من حكمة تُخترع ، أو مثل يضرب ، أو وصف يساق ، وربما وُشّيت به الطوال من رسائل الأدب الخالص ، ورُصّعت به القصار من فِقر البيان المحض ، وقد ظلم العربيةَ رجال قبّحوا السجع وعدُّوه عيباً فيها ، وخلطوا الجميل المتفرد بالقبيح المرذول منه : يوضع عنواناً لكتاب ، أو دلالة على باب ، أو حشواً فى رسائل السياسة ، أو ثرثرة فى المقالات العلمية .

فيا نشء العربية ، إن لغتكم لسرية مثرية ، ولن يضيرها عائب ينكر حلاوةَ الفواصل فى الكتاب الكريم ، ولا سجعَ الحمام فى الحديث الشريف ، ولا كل مأثور خالد من كلام السلف الصالح[٢] » .

ومن قبل شوق ومبارك وشكيب قال عبد القاهر الجرجانى فى « أسرار البلاغة » :

« ولن تجد أيمن طائراً ، وأحسن أولاً وآخراً ، وأهدى إلى الإحسان ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٠٠ .
(٢) أسواق الذهب ، ص ١١٥ .

وأجلب للاستحسان ، من أن ترسل المعانى على سجيتها وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ ، فإنها إذا تركت وما تريد لم تكتس إلا ما يليق بها ، ولم تلبس من المعارض إلا ما يزينها ، فأما أن تضع فى نفسك أنه لا بد من أن تجنّس أو تسجع بلفظين مخصوصين فهو الذى أنت منه بمَرَضِ الاستكراه ، وعلى خطر من الخطأ والوقوع فى الذم »[١] .

وشكيب نفسه يمرّض بالسجع المتكلف فى بعض ما كتب ، كأن يقول : « عند ما سمى لسان الدين بن الخطيب أحد كتبه (الإحاطة فى أخبار غرناطة) لم يقصد إلا السجعة على حد قول من قال : أيها القاضى بقُمّ ، قد عزلناك فقُمْ ! وإلا فلا سبيل إلى شىء إسمه (إحاطة) عند الكلام على غرناطة »[٢] .

ويقول شكيب : إن القرآن الكريم جرى على طريقة السجع . وقد قال السلف : « لا يقال : فى القرآن أسجاع رعاية للأدب وتعظيما له ، إذ السجع فى الأصل هدير الحمام ونحوه . . . بل يقال للكلمة الأخيرة من الآية فاصلة »[٣] . وقد سبق منذ قليل فى عبارة لشوقى قوله : « حلاوة الفواصل فى القرآن الكريم » .

ويقول إن « نهج البلاغة » من النوع المسجوع ، ولعلّ هذا توسع فى الحكم ، فالسجع فى « نهج البلاغة » ليس صفة غالبة عليه ، وقد يكون أكثره فقرات قصيرة ، ولكنها ليست كلها ولا أكثرها مسجوعة .

ولكن الأمير يمضى فى اعتزازه برأيه وخطته ، فيدافع عن السجع من بعد

---

(١) أسرار البلاغة ، ص ١٠ .

(٢) جريدة الشورى ، عدد ٢٧ أغسطس ١٩٣٠ — مقال (لا تمكن الإحاطة بأخبار غرناطة) .

(٣) شرح المختصر لسعد الدين التفتازانى على تلخيص المفتاح للخطيب القزوينى ، ج ٢ ص ٢٠٨ . ولكن الدكتور زكى مبارك يرى أن السجع « موجود فى القرآن » ، ويقول : إن الباقلانى ينفى ورود السجع فى القرآن ، ويذكر الدكتور أنه نقض رأى الباقلانى من الأساس . انظر كتاب النثر الفنى ، ج ١ ص ٦٧ — ٨١ .

ذلك ومن قبل ذلك ، فهو حين رأى أن الدكتور زكى مبارك يشارك محمد كرد على الغمز بشأن السجع كتب يقول :

« إن هناك غمزاً بالسجع ، وليس الأخ كرد على وحده الذى بدأ بهذا الغمز ، بل كان أحدُ الأصحاب أطلعنى على كتاب الدكتور زكى مبارك لمحت فيه كلاما يشبه أن يكون استصغارا للسجع ، أو استكبارا لإتيانه ، وهذا باب جديد عجيب إذا أردنا الآن أن ندخل فيه يطول الأمر .

فنكتفى بالقول إن السجع وُجد فى الجاهلية ، وجاءت منه أمثلة لأفصح فصحائها ، ثم جاء فى القرآن الكريم ، بل القرآن الكريم كله سجع ، وهو أبلغ الكلام العربى وغير العربى ، وجاء فى كلام الصحابة والمخضرمين ، ثم فى الطبقة التى تليهم ، ثم فى التى تليهم ، ثم فى التى تليهم ، إلى يومنا هذا .

ولم نعلم أحداً عاب السجعَ من حيث هو ، وإنما يعاب السجع بالنسبة إلى المقام الذى يستعمله فيه الكاتب ، أى أنه لما كان السجع تقيدا بفواصل — كما هو الشعر تقييد بقواف — فلم يكن مستحسنا فى المواطن التى يجب أن ينطلق فيها عقال القلم لكمال تأدية المعانى على وجهها .

وأما فى المواطن التى هى أقرب إلى الشعر منها إلى المباحث العلمية الصرفة ، فليس السجع بالذى يعدّ سُبّةً على العربية ، بل هو من محاسن هذه اللغة ، وإن كان يجب حذفه من هذه اللغة من أجل كونه طريقة قديمة ، ومن أجل أنه عبارة عن زينة كلامية ، فإن هذا يؤدى بنا إلى اقتراح حذف الشعر أيضاً ، فإن الشعر هو من قبيل السجع ، طريقة قديمة وزينة كلام تُتوخى فيها المحاسن اللفظية ، كما تتوخى المحاسن المعنوية ، ويراعى فيه الوزن والقافية ، وهو من قبيل الموسيقى ، والموسيقى هى أيضاً قديمة ، والطبيعة البشرية تألفها ، بل تحتاج إليها ، بل تهتف بها .

والشعر ضرب من الموسيقى ، فهو إذن من مقتضيات الطبيعة البشرية ، والسجع وإن لم يكن مقيداً بكل تقييد الشعر فهو مقيد أيضاً بقيود لها مواقع فى النفوس ، وهى فى محلها مطربة مستعذبة ، ولا غبار عليها .

ولا يقدر أحد أن يقول إننى مُفْرط فى هذا المذهب ، لأنه ليس لأحد من الكلام المرسل أكثر مما لى ، ولكنى لا أزال أرى السجع حلية الكلام العربى عندما يكون فى محله ، وذلك مثل مقدمات الكتب ، ومثل الخطب التى تلقى على الجماهير ، وأن العرب قد اصطلحوا على السجع فى أسماء الكتب ، ولم يخطئوا فى ذلك ، لأن الكلام المسجع أعلق فى الذهن من غيره »[1] .

وقد يسر لنا من هذا النص جزآن : الأول أن شكيب يقرر أن السجع غير مستحسن فى المواطن التى يجب أن ينطلق فيها عقال القلم لكمال تأدية المعانى على وجهها .

والجزء الآخر هو تقريره أنه غير مُفْرط فى السجع ، وأن له من الكلام المرسل ما ليس لغيره من ناحية الكثرة .

* * *

فإذا تركنا السجع إلى غيره من المحسنات البديعية وجدناها تأتى متناثرة وخفيفة فى كتابة شكيب ، وأحيانا تكون جميلة مقبولة ، كقوله موريا : « والذى يريده الإسلام إنما هو أن يعقل الإنسان ويتوكل ، وأن يدبر لنفسه بهداية عقله» .

ففى كلمة « يعقل » تورية لطيفة ، إذ تحتمل أحد معنيين : الأول تحكيم العقل فى الأمور مع التوكل على الله ، والثانى : عقال الناقة ، أى ربطها ، والمراد الأخذ بالأسباب مع التوكل ، وفيه إشارة إلى الحديث المشهور : « اعقلها وتوكل » .

---

(١) مجلة الرسالة ، عدد ٥ أغسطس ١٩٣٥ .

وأحيانا لا يوفق شكيب في هذه المحسنات، كقوله على سبيل الجناس:

" يا مَغْرِبي، يا مُغْرىَ بي "(١)

فكلمة " مغربي " الأولى نسبة إلى " المغرب "، وكلمة " مغرى بي " مكونة من لفظين " مغرى " و " بي " أي؛ يا من أغراك بي أحد، وأنت ترى معي مبلغ التكلف، مع عدم اتساق الجناس من ناحية الحركات.

---

(١) رواية آخر بني سراج، ص ٤٥

ترسل شكيب

فيما عدا القدر السابق من حرص شكيب على السجع تراه يمضى فى كتابته مترسلاً ، متخففاً من أثقال الصنعة والصبغ البديعى ، كما نرى ذلك فى أكثر من كتاب ، كالارتسامات اللطاف ، وكتابه عن رشيد ، وكتابه عن شوق ، ولماذا تأخر المسلمون .

وفى تقديم خليل مطران لديوان شكيب ذكر أن الأمير بعد مرحلة تغنيه بشعره الذى نشر فى ديوانه الأول « باكورة » آثر الترسل « ومضى فيه متدفقاً تدفق الينبوع الصافى ، مجلجلاً أحياناً جلجلة السيل الكثير الشعاب » .

ويستشهد مطران على ذلك بكتب شكيب القيمة ، والرسائل المتنوعة ، والمقالات التى تنشرها المجلات الدورية والصحف اليومية فى السياسة والاجتماع والأدب والتاريخ والأخلاق .

ثم يقول : « تلك غاية لم يدركها غير هذا العبقرى فى الترسل ، ولو قد رامها فى الشعر لأدركها كما قدمت ، غير أنه إذا كان قد رضى لنفسه فى الشعر بأن يكون المُقِلَّ المجيد ، فلا مشاحة فى أنه انفرد بين المترسلين بأنه المكثر المجيد » .

ويقول رشيد سليم الخورى فى أسلوب شكيب وترسله : « أقرأه فأشعر أنى فى حضرة جبار من جبابرة البلاغة ، تتقاذف أنامله الطود ، كما تتداول الحصاة ، ويمج قلمه الأنداء حيناً والأمواج حيناً ، وتتسارع المعانى من قريحته ، والمبانى من موسوعه ، متزاحمة على سن يراعه ، منقادة إليه ، لا يكد فيها ذهناً ، ولا يستحضر لفظاً ، ولا يعمل مهمازاً ، ولا يخشى عثاراً ، فهل يرسل الكلام على سجيته إرسالا عجيباً ، وقد لبسته أفكاره لا قصيراً ولا فضفاضاً ، بل مفصَّلاً أحسن تفصيل وأكمله ، مع أنه لا يعانى فى ذلك قياساً ولا مراجعة [1] » .

---

(1) مجلة الشباب ، عدد ٨ سبتمبر ١٩٣٧ .

ويقول عنه أيضا: " يأتيك بالصفحة تترقرق فيها الألفاظ كالغدير الصافي، فتخاله يخاطبك بلغة عامية، هي من الفصيح البارع الفصاحة، فلا تكاد تفرغ منها حتى يسبح بصرك في ظلال ممدودة، يسمو منها إلى سفح أو قمة أو خميلة هي قطعة موارة بالجمل البليغة، أو فقرة كأداء بالمفردات العويصة، أو شواهد شعرية زاهية بالحكم زاهرة بالأمثال، وهو في كل ذلك لا يرمي إلى إراحتك أو إلى إعناتك بل يضع الكلمة في موضعها، مخلوقة لمحلها، ومخلوق محلها لها، كما تنجذب الأشياء بطبيعتها إلى شكولها، وتلزم الكهارب مراكزها من نواتها "(١).

وشتان ما بين القطع المسجوعة التي نقلناها من مقدمات كتب شكيب أو من رسائله، والقطعة التالية من كتابه (لماذا تأخر المسلمون)؛ فإن في هذه القطعة من السهولة والترسل بقدر ما في القطع المسجوعة من التزام للصبغ البديعي.

يقول شكيب:" ومن أكبر عوامل انحطاط المسلمين الجمود على القديم، فكما أن آفة الإسلام هي الفئة التي تريد أن تلغي كل شيء قديم، بدون نظر فيما هو ضار منه أو نافع، كذلك آفة الإسلام هي الفئة الجامدة التي لا تريد أن تغير شيئًا، ولا ترضى بإدخال أقل تعديل على أصول التعليم الإسلامي ظنا منهم بأن الاقتداء بالكفار كفر، وأن نظام التعليم الحديث من وضع الكفار؛ فقد أضاع الإسلام جاحد وجامد.

أما الجامد فهو الذي يأبى إلا أن يفرنج المسلمين وسائر الشرقيين، ويخرجهم من جميع مقوماتهم ومشخصاتهم، ويحملهم على إنكار ماضيهم، ويجعلهم أشبه بالجزء الكيماوي الذي يدخل في تركيب جسم آخر كان بعيداً فيذوب فيه ويفقد هويته، وهذا الميل إلى إنكار الإنسان لماضيه، واعترافه بأن آباءه كانوا سافلين،

---

(١) المرجع السابق.

وأنه هو يريد أن يبرأ منهم ، لا يصدر إلا عن الفَسْل (١) الخسيس ، الوضيع النفس ، أو عن الذى يشعر أنه فى وسط قومه دنىء الأصل ، فيسعى هو فى إنكار أصل أمته بأسرها ، لأنه يعلم نفسه منها بمكان خسيس ، ليس له نصيب من تلك الأصالة ، وهو مخالف لسنن الكون الطبيعية التى جعلت فى كل أمة ميلا طبيعياً للاحتفاظ بمقوّماتها ومشخصاتها من لغة وعقيدة وعادة وطعام وشراب وسكنى وغير ذلك ، إلا ما ثبت ضرره (٢) » .

هذه عبارة سلسة سهلة مترابطة الجمل ، ليس فيها سجع ولا ازدواج ولا محسنات أخرى ، بل ليس فيها حرص على استعارة أو كناية ، فقد استولت الفكرة على ذهن شكيب وقلمه ، فأخذ يؤديها بأوضح عبارة وأيسرها ، وسائر كلمات العبارة معروفة مألوفة ، ليس فيها غريب ، أو نادر الاستعمال ، أو لافت للنظر من الناحية اللفظية ، إذا استثنينا كلمة « الفَسْل » — وهو الرذل الذى لا مروءة له — كما يذكر القاموس — وكلمة « تفرنج » المنحوتة من « الإفرنج » ، والمصدر الصناعى « هويته » الدال على صفة الذات ! . . .

ولننظر إلى نموذج وجيز من كتاب آخر ، حيث يقول شكيب مثلاً فى « الارتسامات اللطاف » عن جمال الهواء فى « الطائف » :

« وأما طيب النسمة فإنك تحس فيها من الانتعاش وسعة التنفس ما لا تشعر به فى مكان . وقد كان أصابنى فى سويسرة زكام فى شُعَب الرئة لعلّ أصله من البرد ، فكان يضيق به نَفَسِى كثيراً ، لا سيما إذا استطال الشغل ، فما مضى علىّ فى الطائف إلا قليل حتى ذهب هذا الزكام بتمامه ، وصار الهواء يجرى فى

---

(١) الفسل : الرذل الذى لا مروءة له .

(٢) لماذا تأخر المسلمون ، ص ٧٧ و ٧٨ .

رئتي كأنه في صدراء ، ولما رجعتُ إلى أوربة قال لي الأطباء بعد المعاينة إنه يبق هناك أثر لشيء يقال له زكام في شعب الرئة .

ولم يكن هذا بأول فضل الطائف عليّ ، بل هواء الطائف هو الذي شفاني بإذن الله . بل الله هو الذي شفاني به من الضعف الذي كنت منه على شفا ، فلا عجب فيما رواه ابن عراق من أنهم كانوا يغبطون من يصيِّف بالطائف ، وفيما يروى عن معاوية بن أبي سفيان من قوله : أنعم الناس عيشاً من يقيظ بالطائف ، ويشتو بمكة ، ويربع بنجدة »[1] .

أيحتاج القارئ المتوسط الثقافة أن يتوقف أو يتلبث عند فهم جملة من جمل هذه العبارة المرسلة السهلة الواضحة ؟ .

وإذا كنا قد ذكرنا طائفة من نماذج العبارات المسجوعة لشكيب فلا مانع أن نذكر نموذجاً آخر من أسلوبه المترسل ، وهو من كتابه « تاريخ غزوات العرب » حيث يقول عن آثار العرب في وادي « فاليه » بسويسرة :

« قد تقدم في هذا الكتاب بحسب الروايات المتفق عليها ، والتي يعدها المؤرخون من الحقائق التاريخية أن العرب أغاروا على هذا الوادي ، واستولوا على معبر سان برنار الكبير ، وتغلغلوا في عدة من شعاب الوادي وأقاموا بها ، وكانت لهم وقائع مع الأهلين ، ومن جملتها إحراقهم دير القديس موريس .

ومنذ جئنا إلى سويسرة ، وألقينا فيها عصا التسيار ، علمنا في أثناء الحديث مع علماء البلاد ولاسيما الذين يعنون بالآثار التاريخية ، أنه يوجد في ذلك الوادي قرى أصل أهلها من العرب ، أو فيها أناس من سلائل العرب اندمجوا مع سائر الأهالي ، وأنهم يعرفون من سحنائهم أنهم عرب ، فلما أجمعنا نشر هذا الكتاب ، وفيه كل

---

(١) الارتسامات اللطاف ، ص ١٢٠ .

ما تعلق بموضوع إقامة العرب بفرنسة وسويسرة وإيطالية ، رأينا حَرِيًّا بنا — زيادة في التثبت ونصحاً بالبحث — أن نتوجه بنفسنا إلى هاتيك القرى التي يقال إن أهلها من أصل عربي ، وننقب ما استطعنا عن هذه المسألة ، بمشافهة أهل الديار ، ومراجعة ما يمكن العثور عليه من الآثار »(١) .

أرأيت ؟ إنك لا تجد في العبارة من حلية أو زينة بديعية ، أو نكتة بلاغية ، سوى الكناية الواضحة في قوله : «وألقينا فيها عصا التسيار» ، وسوى السجعة الوحيدة التي وردت عفو الخاطر في آخر العبارة .

إن الأمير شكيب كاتب مترسل بارع ، وكما نراه حيناً يتعمد السجع مكثراً فيه ملتزماً له ، نراه في ترسله بعيداً عن السجع وغيره من المحسنات اللفظية .

---

(١) تاريخ غزوات العرب ، ص ٢٧٦ .

الجملة القرآنية

لاحظتُ فى كتابات شكيب أنه يكثر الاقتباس من القرآن الكريم ، والاقتباس هو أن يضمِّن الكاتب كلامَهُ شيئاً من القرآن ، لا على أن ذلك الشىء جزء من القرآن ، لأنه لو ذكره على أنه جزء من القرآن لم يكن اقتباساً ، وإنما يكون استشهاداً .

ولاحظت أن اقتباسه آية بأكملها ، أو جزءاً كبيراً من آية طويلة أو متوسطة الطول ، لا يحدث إلا نادراً ، ولكنه فى الغالب يأخذ من الآية لفظاً أو لفظين ، وقد يتصرف فى نص العبارة القرآنية حين يأخذها ويضمنها كلامه .

ولنضرب لذلك طائفة من الأمثلة ، ففى كتاب « الارتسامات اللطاف » وردت هذه العبارات :

« سبحان الله وبحمده فى العشىّ والإشراق — التى نرجو بها الخلاصَ يوم التلاق — فسارت بنا الباخرة رَهْواً — ويحفظ الأمنة علىّ وعلى غيرى — من لا يرقب فى هذه الأمة إلاًّ ولا ذمة — فإنهم يتطوقون من هذا الحر عذاباً واصباً — قد بُدِّلت فيها الأرض غير الأرض — واعتصموا بحبل الثبات — حتى اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج — يأكلون فى بطونهم ناراً ولا يخافون الله ولا يشعرون — حتى نقول إنها خاوية على عروشها — والعارض الذى جاء الحجاج يومَ عرفة لم يكن ممْطِرَهم — فتسيل لها أودية بقَدَرِها — وما أوى من فقر ، وما آمنَ من خوف — وأخذ كل ما فيها أخذَ عزيز مقتدر — والآبار مُعطَّلة والقصور غير مشيدة — لا يحمل إصراً على ضعيف — ولا يرهقون عُسْرا — الذين اتخذوا إلههم هواهم — ما كان فيها من نمارقَ مصفوفة ، وزرابىَّ مبثوثة — حتى عادت

كالعرجون القديم — وصارت أكثر البيوت خاوية على عروشها — وطوت تلك المسافات الطوال طى السِّجِلّ للكتاب »(١) .

وفى كتاب « شوق أو صداقة أربعين سنة » نجد هذه العبارات :

« ولا أحسنا له رِكزاً — يترنمون به فى هذا الموضوع بُكْرَةً وأصيلا — ولكنه خفض هنالك فى عيشة راضية — ليفتحوا بيننا وبينه بالحق — إلا إذا شاء تحريف الكلم عن مواضعه — ولا يغنى صاحبه من الحجة شيئاً — فأنارت الطريق وحصحص الحق — وقطعوا ما أمر الله به أن يُوصل — ولم تُغنِ النذر — ومَرَدُوا على النفاق — ويفتنوهم لا فى كل عام ، بل فى كل يوم مرة أو مرتين — التى بُدّلت الأرض غير الأرض — وتنحدر العبرات شفعاً ووترا — وكم مَنّ الله على الذين استُضعفوا فى الأرض وجعلهم أئمة — وقدضاقت على الناس الأرضُ بما رحبت — كما آنسوا ناراً — وما كان العلم فى هذا المقام إلا ليزيدهم خبالاً »(٢) .

وفى رواية « آخر بنى سراج » التى ترجمها شكيب عن الفرنسية وردت هذه العبارات :

« متملّلا بالعظام الرميم من ذلك النعيم والملك الكبير — بلدة تؤتى أُكُلَها رَغَداً — وجرت الفلك به بريح طيبة — ولا يُحَسُّ فى الشوارع رِكْزٌ — حوراء من قاصرات الطرف — منذ طلوع الشمس إلى أن تتوارى بالحجاب — تشيب من هولها الولدان — ولا يولّون الأدبار — لم يكلم إنسيا — منظر يأخذ بالأبصار — وقضى الله أمراً كان مفعولا — على شفا جُرُفِ الحياة — أحفظ حبك إلى يوم يبعثون — أقلعت عن ضلالك القديم — كنت ظننت وبعض الظن إثم »(٣) .

---

(١) الارتسامات اللطاف ، ص ٢ و ٦ و ١٠ و ١١ و ٢١ و ٢٣ و ٢٤ و ٣٢ و ٣٥ و ٣٦ و ٥٠ و ٥٢ و ٥٤ و ٧٥ و ٨٢ و ٨٤ و ٩٨ و ١٤٠ و ٢٠٧ .

(٢) كتاب « شوق » ص ٤ و ٣٨ و ٤٨ و ٦٨ و ٧٠ و ٧٤ و ١٨٥ و ١٨٧ و ١٨٨ و ١٩٥ و ١٩٧ و ٢١١ و ٢٣٣ و ٢٥٤ و ٣٢٣ .

(٣) رواية آخر بنى سراج ، ص ٢ و ٥ و ٧ و ١٣ و ١٤ و ١٥ و ١٩ و ٢٠ و ٣١ و ٣٢ و ٤٠ .

وفى كتابه « لماذا تأخر المسلمون » نجد هذه التعابير :

« وقد أتى على العرب حين من الدهر — فالله غير مخلف وعده — انقلبوا بنعمة من الله وفازوا — وانقلبت بنعمة من الله وفضل لم يمسسها سوء — أو يجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم — نرسل إليهم علماء ووعاظاً ليتفقهوا فى الدين — وصاروا إذا التقى الجمعان — لا يرقبون فيهم إلاً ولا ذمة — يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً — ذهبت ريحهم — رغبوا عن أوامر كتابهم وشروا به ثمناً قليلا — كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا — والله غالب على أمره »[١].

وهناك صفحات كثيرة فى هذا الكتاب ، فى كل منها استشهاد بأكثر من آية[٢] ، وأغلب صفحات الكتاب لاتخلو واحدة منها من استشهاد بآية .

ولو راجعنا بقية كتب شكيب لوجدنا فيها اقتباساً كثيراً من القرآن الكريم ، وهذا يدلنا على أن شكيب كان يتابع « الجملة القرآنية » ويستهدى بها ، ويقتبس منها فى كلامه ، وقد دفعه إلى ذلك عدة دوافع ، منها حفظه الكثير من سور القرآن الكريم وهو صبى ، ومنها اتجاهه الإسلامى ونزعته الدينية منذ كان عثمانياً يتعصب للخلافة ويدافع عنها ، ويرى اعتزازه بالقرآن ونشره لآياته واهتداءه بجملته الإلهية المضيئة مما ينبغى للمسلم أن يلتفت إليه ويحرص عليه ، ومنها تأثره بالإمام الشيخ محمد عبده مفسر القرآن الكريم ، والذى يشهد له « تفسير المنار » المشهور بمجهوده الضخم فيه ، ومنها إحساسه بأن تضمين كلامه ألفاظاً أو آيات من كلام الله تعالى يزيد كلامه جمالاً وجلالا ، لأنه كتاب الله الذى جعله الله أحسن الحديث وسيد الكلام .

---

(١) لماذا تأخر المسلمون ، ص ١٢ و ١٤ و ١٨ و ٢٥ و ٥٢ و ٦٥ و ١٠٣ و ١١٦ و ١٢١ و ١٢٦ و ١٥٠ .

(٢) انظر مثلا الصفحات ١٤ و ١٨ و ١٩ و ٢٠ و ٢٤ و ٢٩ و ٤٧ و ٤٨ و ٥٥ و ٦١ و ٩٨ و ٩٩ و ١٠٠ و ١٠٣ .

ولهذه الأسباب وما ماثلها كان شكيب أيضاً يكثر من الاستشهاد بالآيات القرآنية في المواطن المناسبة لها من مقالاته الاجتماعية والأدبية والسياسية ، حتى يدفعه ذلك أحياناً إلى أن يجعل عنوان مقالته آية أو جزء آية ، كما في مقاله الذي كتبه في ١٤ حزيران ١٩٤٠ م بمناسبة دخول الألمان باريس ، وجعل عنوانه : «ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون» ، واستشهد في هذا المقال السياسي من القرآن الكريم ست مرات ، فجاءت فيه هذه العبارات القرآنية :

« يؤيد بنصره من يشاء — وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا — كبرت كلمة تخرج من أفواههم . إن يقولون إلا كذباً — وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد — حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون ، لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون » .

ويختم المقال بقوله : « والله القاهر من فوق عباده[1] » ، وهذا اقتباس من الآية : « وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير » .

وفي كثير من الأحيان يختم شكيب مقالاته بآية من القرآن ، كما فعل في مقاله «حاشا لجمهرة العرب أن تكون مع الحلفاء» ، حيث اختتمه بقول الله تعالى : «وهو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض ، انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون » ، وكما فعل في مقال له بعنوان : « جوابنا للمسيو بيو عن بلاغه » حيث ختمه بالآية الكريمة : « ولتعلمن نبأه بعد حين » ، وكما فعل في مقاله الطويل : « لابد أن تزغرد الحزينة ولو في عرس جارتها » حيث ختمه بقول الله تعالى : « فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ، فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين » وكما فعل

---

(١) كتاب عروة الاتحاد ، ص ٩٥ — ١٠٢ .

فى مقاله : « الإنكليز يهيجون المسلمين على إيطالية » حيث ختمه بالآية الكريمة : « وامتازوا اليوم أيها المجرمون » .

وكما فعل فى مقاله « مسألتا سورية وفلسطين » حيث ختمه بقول الله عزوجل : « وما ذلك على الله بعزيز » . وكما فعل فى مقاله « اقتراح وطنى على الجالية العربية فى المهجر » فقد كان ختامه الآية : « ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون » وكما فعل فى مقال « حول مؤتمر عربى فى الأرجنتين » حيث ختمه بالآية الكريمة : « لن ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل » .

وكما فعل فى مقاله : « قرنسا ملّت اليهود ودسائسهم » حيث ختمه بالآية الكريمة : « ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون » . وكما فعل فى مقاله : « هذا مبلغ ادعائهم وقد انهزموا » حيث ختمه بقول الله تعالى : « فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً » .

وكما فعل فى مقاله : « ألمانية وإيطالية إزاء البلدان العربية » حيث ختمه بالآية الكريمة : « ولله ما فى السموات وما فى الأرض وإلى الله ترجع الأمور » . وكما فعل فى مقاله : « بعد انتصار انجلترة على إيطالية » حيث ختمه بالآية الكريمة : « والله رءوف بالعباد » [1] .

وهذه المقالات كلها فى كتاب واحد من كتب شكيب ، وهو « عروة الاتحاد » ، ولو راجعنا صفحات الكتب الأخرى لوجدنا فيها كثيراً من الآيات القرآنية .

ويظهر أن الأمير شكيب كان يعتمد فى الاقتباس والاستشهاد من القرآن على ذاكرته ، بدليل وقوع أخطاء فى الآيات عند الاستشهاد [2] مثل أن يقول :

(١) انظر كتاب عروة الاتحاد ، ص ١١٣ و ١٢٥ و ١٥٥ و ١٦١ و ١٦٧ و ١٧٤ و ١٨٠ و ٢٠٤ و ٢٢٠ و ٢٢٣ .

(٢) أنظر على سبيل المثال عروة الاتحاد ، ص ١٠٢ و ١١٣ و ١٨٠ و كتاب السيد رشيد رضا ، ص ٣ و ٤ .

«والله القاهر فوق عباده» ، وصحة الآية : «وهو القاهر فوق عباده» سورة الأنعام آية ١٨ وآية ٦١ . ومثل أن يقول : «لن ينفع نفساً إيمانها إن لم تكن آمنت من قبل» ، وصحة الآية : «لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل» سورة الأنعام ، آية ١٥٨ . وبدليل أنه يتصرف فى نص الآية ، ويضمن معناها كلامه ، موردا منها لفظاً أو لفظين أو أكثر دون التزام للنص القرآنى ، كما رأينا حين استعراض مواطن لاقتباسه من القرآن الكريم .

* * *

ويبدو أن شكيب قد حرص «على الجملة القرآنية» يوردها فى مواطن كثيرة من كتاباته مقتبساً أو مستشهداً ، لأنه رأى مع غيره من المحافظين على لغة القرآن أن فريقاً من أبناء العرب والمتكلمين بلغتهم أخذوا يتصلون بالثقافات الأوربية واللغات الأجنبية ، وصاروا لا يعطون العربية الفصيحة الجزلة حقها من العناية والرعاية ، فتارة يرطنون بلغات أو كلمات غير عربية ، وتارة يدعون إلى العامية ، وتارة يهونون من شأن الجزالة وقوة الأسلوب ، فرأى شكيب أن واجبه العربى وواجبه الإسلامى يطالبانه مع أقرانه بأن يذودوا عن لغة القرآن ويوطدوا دعائمها .

وكان من زملاء شكيب فى هذا الاتجاه مصطفى صادق الرافعى الذى يصفه شكيب بقوله : «نابغة الأدب وحجة العرب» (١) . وكان الرافعى يقول : «لا فصاحة ولا لغة إلا بالحرص على القرآن والحديث وكتب السلف وآدابهم» (٢) . وكان يقتبس من القرآن الكريم فى كتاباته كثيراً ، ويدير مقالات له حول آيات من القرآن .

---

(١) تحت راية القرآن ، ص ٣١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٨ .

وحينما أصدر كتابه « رسائل الأحزان » نشرت إحدى الصحف العربية التى تصدر فى أمريكا كلمة تقول فيها إن الرافعى لو ترك « الجملة القرآنية ، والحديث الشريف ، ونزع إلى غيرهما لكان ذلك أجدى عليه ، ولملأ الدهر .

وقرأ الرافعى هذا فوقف طويلا — كما يقول — أمام كلمة « الجملة القرآنية » ، فظهر له فى نور هذه الكلمة ما لم يكن يراه من قبل ، كأنها المجهر ، وكتب يعلق على كلمة الجملة ، فكان مما قاله :

«وإذا أنا تركتُ الجملة القرآنية وعربيتها وفصاحتها وسموّها وقيامها فى تربية الملكة وإرهاف المنطق وصقل الذوق مقامَ نشأة خالصة فى أفصح قبائل العرب ، وردها تاريخنا القديم إلينا حتى كأننا فيه ، وصلتنا به حتى كأنه فينا ، وحفظها لنا منطق رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنطق الفصحاء من قومه، حتى لكأن ألسنتهم عند التلاوة هى تدور فى أفواهنا ، وسلائقهم هى التى تقيمنا على أوزانها — إذا أنا فعلت ذلك ورضيته ، أفترانى أتبع أسلوبَ الترجمة فى الجملة الإنجيلية ، وأُسفَّ إلى هذه الرطانة الأعجمية المعربة ، وأرتضخ تلك اللكنة المعوجة[1] ، وأُعين بنفسى على لغتى وقوميتى، وأكتب كتابةً تميت أجدادى فى الإسلام ميتة جديدة ، فتنقلب كلماتى على تاريخهم كالدود يخرج من الميت ولا يأكل إلا الميت » . وهو يقصد بالجملة الإنجيلية عبارة الترجمة العربية للأناجيل .

ويذكر الرافعى أن إبراهيم اليازجى لما سئل تصحيحَ ترجمة الأناجيل أراد أن يقوِّم الترجمة ، ويزيل عجمتها وفساد تركيبها ، ويفرغ عليها جزالة وحلاوة ، فأبوا عليه ذلك .

ثم قال إنه يوجد قوم « أضاعوا العربية بعربيتهم ، وأفسدوا اللغة بلغتهم ،

---

(١) يقال : فلان يرتضخ لكنة أعجمية ، إذا نشأ مع العجم ثم صار إلى العرب ، فهو ينزع إلى العجم فى ألفاظه ولو اجتهد .

ودفعوا الأقلام فى أسلوب ما أدرى أهو عبرانى إلى العربية ، أم عربى إلى العبرانية ، لا يعرفون غيره ولا يطيقون سواه »[١] .

ثم يرى أن السبب فى ضعف الأساليب الكتابية والنزول باللغة العربية واحد من ثلاثة : مستعمرون يهدمون فى الأمة لغتها وآدابها لتتحول عن أساس تاريخها ، ونشأة فى الأدب على مثل منهج الترجمة فى الجملة الإنجيلية ، وجهل بصناعة الكتابة وأدواتها[٢] .

ثم يقول الرافعى : « إن هذه العربية بُنيت على أصل سحرى يجعل شبابها خالداً عليها ، فلا تهرم ولا تموت ، لأنها أعدت من الأزل فلكاً دائراً للنيِّرين الأرضيين العظيمين : كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومن ثَمَّ كانت فيها قوة عجيبة من الاستهواء ، كأنها أخذة السحر ، لا يملك معها البليغ إلا أن يأخذ أو يدع »[٣] .

وما يكاد مقال الرافعى ينشر فى مجلة« الزهراء» بالقاهرة فى أوائل سنة ١٩٢٥ ، حتى يكتب شكيب مقالا من « لوزان » فى ٨ فبراير ١٩٢٥ ؛ ويسارع بإرساله لينشر فى الزهراء تعليقاً على مقال الرافعى ، وتزكية لدفاعه عن «الجملة القرآنية » وتمسكه بها ، وكأن شكيب لا يريد التأييد هنا لذات التأييد ، بل ليزكى خطةً يتبعها ويؤمن بها ، وليدافع عن أمر يعتقد أن الدفاع عنه واجب تقتضيه غيرته على عقيدته ولغته ، وجعل شكيب مقاله بعنوان «ماوراء الأكمة» ووجّه الحديث فيه إلى الرافعى .

ويرى شكيب أن الدعوة إلى ترك « الجملة القرآنية » مرض روحى عند بعض الناس « لأنه قد يجوز أن إنساناً لا يعتقد بتنزيل القرآن ، ولكن لا يوجد عربى

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٤ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٥ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٢٩ .

سليم الذوق لا يعتقد ببلاغة القرآن وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولعمرى إن الأمر لكما قال ذلك الذى سأله سائل : هل يقال : (فأذاقها الله لباس الجوع) فأجابه : ويحك ! هبك تتهم محمدا بأنه لم يكن نبياً ، أتتهمه بأنه لم يكن عربياً » ؟[1] .

وذكر شكيب أن وراء هذه الدعوة دسائس خفية ، وأن الفئة التى تدعو إليها لا تمج الفصاحة من حيث هى » ولا تحارب اللغة العربية نفسها ، ولكنها تحارب القرآن ، إن هذه الفئة تحارب القرآن والحديث وجميع الآثار الإسلامية ، وتريد أن تتبذل بها كلام الجاهلية وكلام فصحاء العرب حتى من المخضرمين والمولدين ، وكل كلام لا يكون عليه مسحة دينية » .

ويقول : « وهذه الدسيسة التى ظهر لكم مكنونها من جملة واحدة ، إن هى إلا حلقة لغوية من سلسلة دسائس مقصود منها الإسلام ، لا القرآن من حيث كونه قرآناً ، ولا الفصاحة من حيث كونها فصاحة » .

ويمضى قائلا : « وأصحاب هذا الوجه منهم من يريدون هدم الأمة فى لغتها وآدابها خدمة لمبدأ الاستعمار الأوربى ، ومنهم من يشير باستعمال اللغة العامية بحجة أنها أقرب إلى الأفهام ، ولكن منهم من لا يحاول هدم الأمة فى لغتها وآدابها لا حباً باللغة والآداب ، ولكن علماً باستحالة تنصل العرب من لغتهم وآدابهم .

ولذلك ترى هؤلاء دعاة إلى اللغة والآداب على شرط أن لا يكون ثمة قرآن ولا حديث ، وأن تكون الصبغة لا دينية ، وحجتهم فى ذلك حب التجدد ، وكون القرآن والحديث وكلمات السلف كلها من القديم الذى لا يتلاءم مع الروح العصرية فى شىء ؛ وآخرون حجتهم فى ذلك النزعة القومية التى هى بزعمهم تناقض النزعة الدينية ، وأصحاب النزعة القومية هؤلاء يقولون إنها من باب التجدد ، وإن روح القومية هى السائدة فى هذا العصر ، فالدين والمعاصرة نقيضان لا يجتمعان ! .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣١ .

فأما إذا سألهم سائل قائلا : إنكم وأنتم من دعاة التجدد ، ومن قراء الآداب الأوربية لا تنكرون أن كتاب أوربة اليوم من فرنسيس وألمان وإنجليز وطليان وإسبانيول وروس...إلخ إلخ، إنما آدابهم كلها مأخوذة من اللغات القديمة كاليونانية واللاتينية ، وأن آيات التوراة والإنجيل تدور على ألسنتهم وأقلامهم جارية فيها مجرى الأمثال ، لا يكاد يخلو منها خطاب ولا كتاب ، حتى إن المتفضين منهم من العقيدة يتكلمون بلغة الإنجيل والتوراة ، وهذا (كليمنسو) الذى لا يوجد على الدين حرب أشد منه ، كان يجاوب بعض من اعترض عليه من أجل بعض نقاط فى معاهدة (فرساى) قائلا : ادخلوا فى فرح المعاهدة تجدوها كما تريدون .

ومعلوم أن جملة: (دخل فى الفرح) هى آية إنجيلية : (ادخل فى فرح سيدك) . وهذا شىء لا يمكن أن يُحْصَى إلا إذا أحصيت رمال يبرين » [١] .

ويقرر شكيب هنا أمراً مهماً يتعلق بالتجديد فى الأدب من ناحية الفكرة والعبارة ، فهو يرى أن التجديد لا يمنع بقاء اللغات على صيغها القديمة ومآخذها من مصادرها القديمة ، ولا يستلزم التجدد فى الفنون والصناعات تغيير أسلوب الكتابة ، ثم هو لا ينكر أن كل عصر تَجِدُّ فيه جُمَلٌ واصطلاحات ، وليس جميع ما اصطلح عليه العصر العباسى كان معروفاً فى صدر الإسلام أو فى الجاهلية ، ولكن ما يتجدد « لا بد من أن يرجع إلى نصاب اللغة ، وينزل على حكمها ، ولن تترك اللغة فوضى ، لا فى شرق ولا فى غرب » .

ويستشهد شكيب بأناتول فرانس كاتب فرنسة الأكبر المتوفَّى سنة ١٩٢٤ م فقد كان ينزع إلى المذاهب الاجتماعية الجديدة ، ويغلو فى كره العقائد الدينية والعادات القديمة ، ومع ذلك « كان فى إنشائه أصولياً أستاذياً مقلداً ، يحذو حذو (راسين) الشاعر الذى عاش قبل هذا العهد بمائتى سنة ، وإنه حافظ على الطريقة

(١) المرجع السابق ، ص ٣٤ و ٣٥ .

الكتابية الأصولية المسماة عندهم (كلاسيك) أى الطريقة المدرسية »[١] .

وقد يقول قائل : إن شكيب يربط موضوعاً لغوياً أدبياً بناحية الدين ، فيُقحم الدين فى الأدب ؛ ومع أن شكيب ينظر إلى اللغة على أنها لغة عرب ولغة قرآن ، وإنما خلود هذه اللغة ببقاء القرآن وخلوده ، فإنه يستطيع أن يجيبك بأن أعداء « الجملة القرآنية » يقحمون أيضاً الدين فى اللغة ، لأنهم حين يحاربون الجملة القرآنية — وهى أصيلة فى موضوع البيان والأدب من حيث كونها جملة — يحاربون القرآن من حيث كونه كتاب دين ، ويحاربون الإسلام الذى يصور مبادئه ذلك القرآن الكريم .

وفوق هذا حاول شكيب فى أكثر من موطن أن يقرر أنه لا يبحث الموضوع على أساس دينى ، بل هو يفرق بين عنصر الدين وعنصر الأدب فى هذا المقام ، ولذلك ضرب الأمثلة بالملحدين وأشباه الملحدين الذين لم يمنعهم إلحادهم ولا استخفافهم بالأديان أن ينتفعوا ببلاغة النصوص الدينية وأن يهتدوا بأصولها البيانية .

ويقول شكيب : « يقدر العربى أن لا يكون صحيحَ العقيدة ولا مسلماً ، ويكون نصاب اللغة عنده القرآن والحديث وكلام السلف ، لأنها هى الطبقة العليا التى تصلح أن تكون مثلا »[٢] .

ويضرب شكيب المثل بـ « زهراب أفندى » الأرمنى الذى كان عضواً مع شكيب فى مجلس « المبعوثان » العثمانى ، فقد كان يؤيد آراءه القانونية وأفكاره الأخرى بنصوص من القرآن والحديث وكلام الأئمة الفقهاء .

وأخيراً يقول : « هناك مبادئ ثابتة وبديهيات ليس فيها قديم وجديد ، لأن الاثنين والاثنين أربعة من مئة ألف سنة ، فلا نقدر أن نعمل على ذلك ثورة ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٦ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٣٧ .

وأن المقولات المشرعة لا تتناوله الثورة ، وأن الثورة إنما هي واجبة على الجهل والوهم ، لا على الحق والعلم ، وأن العلم لا يكون قديماً ، وأن الأدب لا بد أن يراعى فيه ذوق الأمة وتاريخها وعاداتها وعرفها ، وأنه ليس تجربة كياوية »[١] .

والواقع أن شكيب قد بكر بالحث على الاستمداد من الجملة القرآنية قبل تعليقه السابق على مقال الرافعى ، فقد كتب فى جريدة (المؤيد) سنة ١٩١٢ مقالا يذكر فيه شروط الأديب ، وبعد أن ذكر طائفة منها قال :

« ولا يعد الأديب أديباً متحققاً بعد هذا كله حتى يحفظ كثيراً من كتاب الله، ومن أحاديث رسوله عليه الصلاة والسلام حفظاً تنهض الملـكة أن يحسن منه الاقتباس ، ويجيد أمامه توطئة الاستشهاد »[٢] .

وقد ظل شكيب وفياً للجملة القرآنية حَفِيًّا بها ، يوردها اقتباسا أو تضمينا أو استشهاداً ، ولو رجعنا إلى مقاله « لا أريد أن أكون ناعياً » الذى كتبه بتاريخ ١٠ أكتوبر سنة ١٩٤٦ — أى قبل وفاته بنحو شهرين — لوجدنا الجملة القرآنية تأخذ حظها فيه ، إذ ترد خلاله هذه العبارات : « وضعت أوزارها — نكسوا على رؤوسهم — لا تقنطوا من رحمة الله »[٣] :

° ° °

وألاحظ أن التوفيق يخون شكيب أحيانا فى استشهاده بالقرآن الـكريم ، فهو قد أراد مثلا فى فاتحة كتابه عن السيد رشيد رضا أن يبين أن المجاهد لا يضيع جهاده ، وأن فاعل الخير لا بد أن يلقى ثوابه ، فقال هذه العبارة :

« لقد قضت العقول وأيدت حكمها التجارب — التى قد تـكون العقول نتيجة لها —

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٩ ، ٤٠ .
(٢) رسائل الرافعى ، ص ١٠ نقلا عن جريدة المؤيد ، عدد يوم الاثنين ٩ فبراير ١٩١٢ .
(٣) ذكرى الأمير ، ص ٤٩٩ .

أن الإنسان فى هذه الحياة الدنيا لا يلات[1] شيئا من أعماله ، وأن هذه لن تخفى على الناس مهما حيل بينها وبينهم ، وأنه لن يطمسها طامس ، ولن يقدر أن يغمط من حقها غامط ، مهما حاول المحاولون ، وكابر المكابرون .

وهذا فى الحياة الدنيا التى أكثر ما فيها الظلم ، وأفشى ما فيها الباطل ، فكيف تكون الحال فى الآخرة التى هى بحبوحة الحق ودار الجزاء ، والتى لا يُظلم فيها أحد فتيلا . قال الله تعالى : (نُوَفِّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون) وقال تعالى : (وليوفيهم أعمالهم وهم لا يُظلمون) ، وقال عز وجل : (ووُفِّيَتْ كلُّ نفسٍ ما عَمِلَتْ وهو أعلمُ بما يفعلون) إلى ما لا يكاد يحصى من الآى العظام التى تشهد بأن الله لن يَتِرَ أحداً من خلقه عمله »[2] .

ونلاحظ على هذه العبارة أن الآيات التى استشهد بها أمير البيان فيها لا تناسب المقام الذى يتحدث عنه ، وهو مقام الإنصاف للمجاهدين ، والثواب للعاملين ، وعدم الظلم للصالحين ، فهذه الآيات قد جاءت فى مساق الحديث عن الكفار أو العصاة أو المذنبين ، وبعضها ليست نصاً فى إجزال الثواب للمحسنين .

فالآية الأولى وردت فى القرآن الكريم هكذا « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفِّ إليهم أعمالهم فيها ، وهم فيها لا يُبْخَسون ، أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النارُ وحبِطَ ما صنعوا فيها وباطلٌ ما كانوا يعملون » سورة هود ، الآيتان ١٥ و ١٦ .

والآية الثانية وردت فى القرآن الكريم هكذا : « أولئك الذين حقَّ عليهمُ القولُ فى أمم قد خلت من قبلهم من الجنِّ والإنسِ إنهم كانوا خاسرين ، ولكلٍّ

---

(١) فى القاموس : ماألاته شيئا : ما نقصه . وفى التنزيل المجيد : « وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا » سورة الحجرات ، آية ١٤ .

(٢) كتاب السيد رشيد رضا ، ص ٣ : ووتره يتره : ظلمه .

درجاتٌ مما عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أعمالهم وهم لا يُظْلَمون ، ويوم يُعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تُجْزَون عذابَ الهُونِ بما كنتم تستكبرون فى الأرضِ بغيرِ الحَقّ وبما كنتم تفسُقُون » سورة الأحقاف ، الآيات ١٨ و ١٩ و ٢٠ .

وأما الآية الثالثة فعامة ، ليس فيها تخصيص للمظلومين المستحقين للانصاف والثواب ، إذ وردت فى القرآن الكريم هكذا : « وأشرقت الأرض بنور ربها ووُضِع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء وقُضِيَ بينهم بالحق وهم يظلمون ، ووفِّيَتْ كلُّ نفسٍ ما عَمِلَتْ وهو أعلم بما يفعلون ، وسيق الذين كفروا إلى جَهَنَّمَ زُمَرا » سورة الزمر ، الآيات ٦٩ و ٧٠ و ٧١ .

وكان فى استطاعة أمير البيان أن يستشهد بمثل الآيات الكريمة التالية :

١ — « وأما الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ فيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ واللهُ لا يحبُّ الظالمين » . سورة آل عمران ، الآية ٥٧ .

٢ — « وما تُنْفِقُوا مِنْ خيرٍ يُوَفَّ إليكم وأنتم لا تظلَمُونَ » . سورة البقرة ، الآية ٢٧٢ .

٣ — « وما تُنْفِقُوا مِنْ شَىْءٍ فى سبيلِ الله يُوَفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون » . سورة الأنفال ، الآية ٦٠ .

٤ — « إنما يُوَفَّى الصابرون أجرهم بغيرِ حساب » . سورة الزمر ، الآية ١٠ .

٥ — « فمن يعمل مثقال ذرَّةٍ خيراً يره » . سورة الزلزلة ، الآية ٧ .

٦ — « إنَّا لا نضيع أجر المصلحين » . سورة الأعراف ، الآية ١٧٠ .

٧_ { نصيب برحمتنا من نشاء، لا نضيع أجر المحسنين " .سورة يوسف الآية ٥٦ .

٨_ { إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا } سورة الكهف، الآية ٣٠ (١)

ومع هذه الملاحظة أرى أن شكيب قد زان كتابته بالجملة القرآنية التي يقتبسها أو يضمنها أو يستشهد بها، واستعمل هذه الجملة في مواطنها المناسبة في أغلب الأحيان، واستعملها باعتدال، إذ لم يسرف فيها ولم يقصر

---

(١) كتبت في هذا الموضوع مقالا في جريدة منبر الشرق، عدد ٣ فبراير ١٩٥٦م.

جلجلة العبارة

من الظواهر الأسلوبية التى لاحظتها فى كتابة شكيب مياه فى كثير من الأحيان إلى جلجلة العبارة ، وأقصد بجلجلة العبارة تضمنها ألفاظاً فيها شدة صوتية ما عند نطقها ، أو طول فى مبناها يقصده المتكلم لتقوية معناها .

ونحن نعرف من معجمات لغتنا أن الجُلْجُل هو الجرس ، ومن الجرس يصدر الصوت العالى عادةً للتنبيه ، والجلجلة التحريك ، وشدة الصوت ، والجلاجل (بكسر الجيم الثانية) السيد القوى ، أو البعيد الصوت ، والجرىء الدفاع المنطيق[1] .

والسحاب المجاجل هو الراعد المطبق بالمطر ، وجَلْجَلَ الياسرُ القداحَ : حركها[2] .

• • •

لنقرأ مثلاً من كتاب « أناتول فرانس فى مباذله » هذه العبارة لشكيب :

« والقسط كل القسط فى هذه المسألة هو أنه لا ينبغى لناشئة العرب أن يعدلوا بهذه الأم العربية البَرَّة أمّاً ، ولا يجعلوا لها من بين اللغات نِداً ، وأن يجعلوها قطبَ رحى الثاقفة ، ويعلموا أنها نعم السند يوم المماتنة ، فلا يرتبوا أفكارهم فى لغة قبلها ، ولا يضلوا فى الإبانة عن ذات نفوسهم سبلَها ، حتى إذا صفت لهم مشارعُها ، وحَنَت عليهم أجارعها ، وصارت ملكتها جارية مجرى المُهَج من نفوسهم ، نازلة منزلة الأدمغة من رءوسهم ، كان لهم أن يستزيدوا من آداب الغرب والشرق ما شاءوا وتطالَت إليه عزائمهم ، وأن يضموا إلى التلاد العربى القديم

(١) انظر القاموس المحيط فى مادة « جل » .
(٢) أساس البلاغة ، ج ١ ص ١٣١ .

طريف البضائع ، ويضيفوا إلى الإرث العُدْمُلى الكريم حديث البدائع »[١].

نلاحظ ونحن نقرأ العبارة أن فيها قسطاً من الجلجلة التى تشبه صلصلة الجرس ، وقد جاءت هذه الجلجلة من السجع الذى يقرّب العبارة من النظم الذى ينشده المُلْقِى فيبلغ الأسماع قوياً باتساقه وانتظام أوزانه وقوافيه .

وجاءت أيضاً من كلمات فيها زيادة حروف وقوة صوت وشدة جرس ، مثل « المثافنة » وهى المجالسة ، و « المائتة » وهى المباراة والمسابقة ، و « المشارع » بمعنى موارد الشرب ، و « الأجارع » وهى الرمال فيها حجارة ، و « تطالت » بمعنى تطلعت وتطاولت ، و « العدملى » بمعنى القديم .

ونحن نعرف أن الحروف أنواع ، منها المجهورة والمهموسة ، ومنها الشديدة والرخوة والمتوسطة ، ومنها الحروف الصائتة التى تهتز الحبال الصوتية حين النطق بها ، والحروف الصامتة التى لاتهتز الحبال الصوتية حين إخراجها، ومن صفات بعض الحروف الاستعلاء وهو التصعد فى الحنك الأعلى ، ومن صفات بعضها القلقلة ، ومن صفات بعضها اللين . . إلخ[٢].

وإذا رجعنا مرة ثانية إلى « جلجلة العبارة » عند شكيب وطالعنا فى كتابه « الارتسامات اللطاف » ، وجدنا هذه العبارات التى تحوى ألفاظاً فيها قوة وجهارة ، إما لطبيعة حروفها ، وإما لطريقة تكون حروفها ، وإما للتصرف فيها بجمعها ، أو التوسع فى الحروف المزيدة فيها ، وإما لغير ذلك ؛ وهى بهذا تكسب العبارة جلجلة ، مثال :

« زاعمون فى نجاح الحرية الدينية — صلى الله عليه وعلى آله الغطاريف ، وعلى أصحابه الصناديد — وحياطتها بوحدة الكلمة من سطوات الغدر وغوائل

---

(١) أمانول فرانس فى مباذله ، المقدمة ، ص ٦ .

(٢) انظر كتاب فقه اللغة ، ص ٣٤ — ٣٧ . وهناك ذكر بعض المراجع فى موضوع الفرق بين الجهر والشدة ، وبين الهمس والرخاوة ، ومن هذه المراجع تعاريف ابن جنى ص ٦٩ ورسالة الشيخ طاهر الجزائرى « تقريب اللسان » ص ٢٩ .

النكر — فوجدت فيه الملك الأشم الأصيد ، الذي تلوح سيماء البطولة على وجهه ، والباهل الصنديد الأنجد — فعثروا على قُنى قديمة عدملية تحت الأرض — وقد يؤتى من الهند والجاوى بأشجار سريعة البسوق ، ورياحين باكرة السموق — وصار الناس يمارون فى مآثرهم السوابق ومعاليهم السوامق — استحثاثاً للنفوس واستحلاباً للعبرات »(١) .

وفى كتابه عن « شوقى » نجد هذه التعابير :

« لم يستمطر عارض خاطره فى تقييد شنعاء أو تخليد صلعاء — فقد تصاب الرمايا ولو لم تستد السواعد — الذى يريد شوقى أن يستقصه من هذه الحكاية — نزره عن الرافقة قليل نظمه وكثيره — وشدخ يافوخ الكفر »(٢) .

ونستطيع أن نستمر فى عرض النماذج الدالة على جلجلة العبارة من كتابات شكيب ، ولكن حسبنا ما قدمنا ، فهو يدل على ما لاحظنا .

* * *

ولم تقتصر جلجلة العبارة عند شكيب على النثر ، بل عرفت طريقها إلى شعره ، بل لعلها سبقت إلى طريق شعره ، قبل أن تشيع فى نثره ، وحسبنا أن نطالع فى ديوان الأمير قصيدته فى حرب طرابلس(٣) ، لنجد هذه التعابير :

« بروق الصوارم — ملء الحلاقم — الليوث الضراغم — رعود الغمائم — غوالى الجماجم — العيلم المتلاطم — البحور الخضارم — انفراج المآزم — سواد النهائم — عاديات الأعاجم » ... إلخ .

ولا شك أن جلجلة العبارة تصلح لبعض المواطن دون بعض ، لأن لكل

---

(١) الارتسامات ، المقدمة ، ص ١١ ، ثم ص ٢ و ٥ و ١٢ و ٢٠ و ٢٤ و ٦٢ و ٨٠ .
(٢) شوقى أو صداقة أربعين سنة ، ص ٢٧ و ٥٨ و ١٠٠ و ١٧٤ و ١٧٨ و ١٨٨ .
(٣) ديوان الأمير ، ص ١٠٧ — ١٠٩ .

مقام مقالا كما قال القدماء ، والألفاظ التى تصلح للنسيب والغزل غير الألفاظ التى تصلح للفخر والحماسة ، أو لوصف الحروب والمعارك ، والألفاظ التى نقلتها سابقاً عن قصيدة شكيب فى حرب طرابلس لو أدخلها فى قصيدة غزلية لكانت نابية سيئة الوقع .

وشكيب يجنح إلى جلجلة العبارة غالباً فى المواطن الملائمة لها ، كمقدمات الكتب التى يجعلها أشبه بكتيبة موفورة القوة ، تمهد الطريق لموضوع الكتاب وتفتح له الباب ، وكالحديث عن مفاخر أمته ، أو استنهاض قومه ، أو ماشابه ذلك .

• • •

وعلى الرغم من أن الأمير شكيب كان سلفياً فى أسلوبه ، يحرص على سلامة اللغة وجزالة الأسلوب ، ويعتز بتراث العربية ومأثور تعابيرها ، نجده أحياناً يقتبس بعض التعابير الرمزية الغربية ، كقوله مثلا : « من الأماكن الحجازية اللاذى بالمستقبل — كما يقول الإفرنج — ينبع[١] » .

وأحياناً يأتى بالصورة البيانية التمثيلية المستوحاة من عصره ، كقوله فى مقاله : « عين الإنكليز على عقبة » عن الأمراء العرب : « أمراؤنا يحبون قبل كل شىء المحافظة على إمارتهم ، فمتى ازداد ضعفهم ازدادوا طأطأة رأس للانكليز ، ومتى هبت زعازع الحروب على سفينة ملكهم رموا فى البحر البريطانى من حقوق الأمة العربية لأجل تخفيف شحن السفينة »[٢] .

وأحياناً يأتى بالعبارة البارعة فى أداء المعنى عند الموقف الحرج ، كأن يقول عن حبه لأمه : « ورجعت إلى سويسرة لكن بعد أن شفيت غليلى من مشاهدة السيدة الوالدة ، إذ كنت أخشى أن يوافى أحدنا الأجل قبل لقاء الآخر »[٣] .

---

(١) الارتسامات ، ص ٢١٥ .

(٢) جريدة الشورى ، عدد ١٦ يوليه ١٩٢٥ .

(٣) روض الشقيق ، ص ٢٦ .

وموطن البراعة فى أن أمه أكبر منه بكثير ، وهى إلى الموت أقرب بحسب العادة ، إذ لا يعز على الموت صغير ، ولكنه لا يقول : « أخشى أن يوافيها الأجل قبل تلاقينا » ، بل يقول على طريقة من الإبهام والتشكيك : « أخشى أن يوافى أحدنا الأجل قبل لقاء الآخر » . وكأنه ينظر فى هذا التعبير إلى طريقة القرآن حيث يقول : « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » .

وأحياناً ينسى شكيب جاجلة العبارة ، ومع ذلك يأتى بما يقوم مقامها من إجادة البيان وإتقان المبالغة ، كأن يتحدث عن المصائب التى نزلت بإنكلترة وفرنسة فى أوائل الحرب العالمية الثانية ، فيقول : « والآن تحصد إنجلترة ما زرعت ، أما فرنسة فقد حصدت ودرست وذرت وانتهى الموسم ، وذاقت منه ماذاقت »[١] . وفى هذا الشطر الأخير من الجملة ما فيه من سخرية بفرنسة وتصوير لعاقبة بغيها وظلمها .

ويعود إلى السخرية فيقول فى براعة تعبير وسهولة أسلوب : « أما فى مراكش والجزائر وتونس فالدعاية الإفرنسية تسعى بيديها ورجليها فى إقناع إخواننا المغاربة بأن الجبال تزول ، والكواكب تعتريها الأفول ، ولكن حكم فرنسة عليهم لا يتزلزل ولا يتزعزع ولا يحول ، وقد تقوم الساعة ، وينتصب الميزان ، ويبقى هنالك الملك لفرنسة لا لله الواحد القهار ! وقد يعيد الله نظمَ الأكوان من جديد من بعد يوم الحساب ، عملا بقوله تعالى : (كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين) ولكنه لن يمس هذا حكم فرنسة على شمال أفريقية »[٢] ! .

---

(١) عروة الاتحاد ، ص ٢١٧ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٢٠ .

طريقة شكيب فى التأليف

لقد ألف شكيب كتباً كثيرة ، منها الكبير الضخم ، ومنها المتوسط الحجم ، ومنها الصغير اللطيف ، وألف فى أغراض مختلفة ، ألف فى الشعر ، والأدب ، والتاريخ ، والرحلة ، والسياسة ، والاجتماع ، والدين .

والمنصف الذى يطلع على هذه الكتب يقدر المجهود الكبير الذى بذله الأمير شكيب فى تأليف هذه الكتب ، وفى جمع المعلومات الغزيرة التى أوردها ، وفى تمحيص المسائل التى يبحثها ، وفى التدليل بمختلف وسائل التدليل على الآراء التى يبديها أو الأفكار التى يعتنقها .

ونلاحظ ملاحظة مبدئية بشأن هذه الكتب ، وهى أنها ترتبط بأحداث تدعو إلى تأليفها وتحث على وضعها ، فيستجيب شكيب لداعى المناسبة ووحى الأحداث ، ويسارع بالتأليف .

يرحل مثلا إلى ألمانية والبوسنة والمجر ، فيرى ما يثير ذهنه ، ويعلم ما يحرك قلمه ، فيكتب كتباً عن هذه الرحلات ، ويزور أسبانية (فردوس العرب المفقود) ويستعد للرحلة بشراء كتب كثيرة عن الأندلس ليطالعها ، فتثير هذه الكتب فى ذهنه أشياء كثيرة ، فيستجيب لتأثيرها ، ويكتب كتابه « تاريخ غزوات العرب » . ثم تتم رحلته ، ويكتب بوحى منها كتابه « الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية » .

ويسأله سائل عن طريق مجلة (المنار) عن أسباب تأخر المسلمين ، فيجيب السائل بكتابه « لماذا تأخر المسلمون » ، ويحج فى سنة ١٣٤٨ هـ — ١٩٢٩ م فتوحى إليه الرحلة بكتابه « الارتسامات اللطاف » .

ويموت صديقه أحمد شوقى سنة ١٩٣٢ فيدعو شكيب داعى الوفاء إلى كتابة مؤلفه « شوقى أو صداقة أربعين سنة » .

ويموت أخوه السيد رشيد رضا سنة ١٩٣٥ فيدعوه داعى الوفاء إلى تأليف كتابه : « السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة » .

ويترجم عجاج نويهض كتاب « حاضر العالم الإسلامى » ، ويقدمه إلى شكيب ليكتب له مقدمة ، ويعلق عليه بما يراه ، فيهتبل شكيب الفرصة ، ويضع تعليقات على الكتاب صارت أضعاف الكتاب الأصلى .

وهكذا نجد أن الأحداث هى التى كانت تدفع شكيب فى الغالب إلى تأليف كتبه ؛ ولهذا الدفع مزية من جهة ، ولكنه خطر من جهة أخرى ؛ فمزيته التفاعل مع الأحداث ، لمعاصرتها ومشاهدتها والاحتكاك بها ، وهذا يثمر الخبرة والاطلاع على جوانب الموضوع ، ومزيته كذلك أن الكتب تعطينا بهذا التفاعل بالأحداث مع الارتباط بها صورةً من عصر صاحبها وحياته وحياة الناس من حوله .

وأما خطره فهو الخشية من السرعة لملاحقة الحادث بما يتطلبه من حديث أو تعليق ، فلا يتوافر حينئذ التجرد الهادىء للبحث العلمى الذى لا يستعبده الزمن أو تأثير الوقائع .

ولا شك أن شكيب قد نجح نجاحاً كبيراً منقطع النظير فى التفاعل مع الأحداث ، والاستجابة لها ، والحديث عنها فى إحاطة وتوسع ، بحيث يصعب علينا أن نجد لشكيب فى هذا الباب نظيراً أو مثيلاً .

فهو خبير بالقضايا العربية ، مطلع على أسرارها ووقائعها ، عارف لرجالها والمضطربين فى ميدانها ، وهو دارس للمسائل الشرقيـة على كثرتها واتساعها وتشعبها ، وهو محيط بأحوال المسلمين فى الشرق والغرب ، مشاهد لأحوالهم وعيوبهم ، فاهم للأسباب التى تزيل ضعفهم وتنهض بهم .

وهو رحالة لم يترك بلدة فى أوربة إلا رحل إليها ، كما رحل إلى أمريكة ، ورحل إلى كثير من بلاد الشرق كذلك ، وهو طُلَعة لا يقنع بقليل الزاد من المعرفة أو المشاهدة ، بل ينقب ويتتبع ويلاحظ ويستنتج ويقيد .

هذا حق الرجل ، ينبغى لكل منصف دَرَسَ كتبه أن يقرره ويؤكده .

وشكيب يتبع فى تأليفه طريقة الاستئناس بالمراجع والأخذ عنها ، وهو تارة ينقل النص عن المرجع الذى يرجع إليه ، وتارة يلخص النص ، أو يضمن حديثه ما احتواه النص من معلومات .

ولكن شكيب لا يتبع الطريقة المعروفة فى ذكر المراجع ، فهو لا يضع فى الهامش اسم الكتاب ، أو رقم الجزء ، أو رقم الصفحة إلا نادراً ، ولم يكن هذا عن جهل من شكيب بهذه الطريقة ، لأنه قد ذكر فى بعض كتبه أن الأوربيين يحرصون على هذه الطريقة فى كتبهم وبحوثهم ، فهم « لا يروون خبراً ، ولا ينقلون جملة ولا أثراً إلا وضعوا فى الحاشية [يقصد الهامش] مأخذَها ، والكتاب الذى أخذوها عنه ، مع ذكر الصفحة ، وذكر طبعة الكتاب ، وتعيين المطبعة أحياناً ، وكل ذلك توثيقاً للنقل ، ونصحاً بالتبليغ ، وتمهيداً للحكم الصحيح الذى لا يتهيأ للقارىء إلا بعد مقدمات صحيحة ، وبينات رجيحة (١) » .

وشكيب فى طائفة من كتبه يكثر من الاستشهاد بالنصوص ، ويلح أحياناً فى هذا الاستشهاد ، مع ما بين النصوص من تشابه ، فهو مثلا يتحدث فى كتابه « الارتسامات » عن « عين زبيدة » فيسرد فيها أقوال الأزرق وابن خلكان وابن جبير ، وبين أقوالهم تشابه ، وفى بعضها تكرار لما فى البعض الآخر (٢) ، وكان يمكن الاكتفاء ببعضها والإشارة إلى الباقى ، ولكن الأمير يصبر على النقل ليؤيد ويؤكد ويتوسع .

(١) كتاب السيد رشيد رضا ، ص ١٧ .
(٢) الارتسامات اللطاف ، ص ٣٨ وما بعدها .

ويعود في هذا الكتاب ليتحدث عن إهمال العمران في بلاد العرب ، وإذا هو يستطرد استطراداً طويلا ، فيتحدث عن آثار عبد الرحمن الناصر في الأندلس ، وآثار عبد المؤمن صاحب دولة الموحدين ، وآثار المنصور السعدي ، وآثار مولاي إسماعيل سلطان المغرب ، كما يتحدث عن كتب الإفرنج في فن المعمار الإسلامي ، ويستغرق في ذلك نحو سبع عشرة صفحة من الكتاب[1] .

ونلاحظ على طريقته في التأليف أن « روح الجمع » تسيطر عليه في كثير من الأحيان ، وقد لمسنا ذلك فيما ذكرناه من استطراده في « الارتسامات » ، وهو في مطلع كتاب « أناتول فرانس في مباذله » نراه يشغل نحو الخمسين صفحة في نقل كلمات قالها الأدباء والصحف عند وفاة أناتول ، وكثير منها مكرر .

وهذا يشغل القارىء عن موضوع الكتاب ، ويوجد عنده شيئاً من الملل ، لأن الكتاب ليس في ترجمة أناتول واستعراض الآراء فيه ، ولكنه عن مباذل أناتول كما يصرح عن ذلك عنوانه وموضوعه .

ويظهر أن الأحداث ووقائع الحياة والمناسبات التي كانت تدفع بشكيب إلى تأليف كتبه المتصلة بهذه الأحداث والوقائع كانت توجد لوناً من الارتجال في منهج تأليفه ، فينقصه استكمال الخطة والمنهج والتنسيق .

فهو مثلا يبدأ بكتاب عن غزوات العرب في أوربة كنتيجة لصدر رحلته الأندلسية ، ولكن المؤلف يكتب بعد هذا كتاب « الحلل السندسية » عن تاريخ الأندلس وعن العرب في الأندلس ، ولو أنه حدد خطته ومنهجه منذ بدء الطريق ، لتحدث أولا عن الأندلس والعرب فيها ، ثم انتقل من ذلك إلى غزوات العرب في أوربة ، لأن التدرج الزمني يقتضي ذلك ، إذ أن العرب فتحوا الأندلس أولا ، ثم توغلوا في أوربة .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٥ — ٧١ .

وشكيب نفسه يعترف بمثل هذا حين يقول عن كتابه « غزوات العرب فى أوربة » إنه كان « فى الحقيقة جزءاً من رحلتى الأندلسية التى نحن بسبيلها ، لأنها هى خاتمة مطاف العرب فى أوربة ، وفاتحة ما أفاضوا إليه من الممالك بعد فتحهم للأندلس .

وإذا لحظتَ أنى قد بدأت بالرحلة ، وبتاريخ حملة العرب على أوربة من هذه الجهة ، كان لك أن تقول إنى جعلت أولا ما كان ينبغى أن يكون آخراً ، فإن هذا الجزء هو الآخر باعتبار فتوحات العرب ، ولكن قضت الأقدار بأن يكون هو الأول ، باعتبار ترتيب سياحتى التى بدأتُ فيها من الشمال إلى الجنوب ؛ فرأيت أنا أولا ما فتحوه هم أخيراً ، ورأيت أخيراً ما احتلوه هم أولا »[١] .

وشكيب يريد أن يعلق على تاريخ ابن خلدون تعليقات سريعة فى أول الطريق ، فإذا هو يتوسع فى التعليق حتى يشغل مجلداً فى التعليق على الجزء الأول وحده . وهو يريد أن يكتب مقدمة لترجمة كتاب « حاضر العالم الإسلامى » . ويعلق على ما يحتاج إلى تعليق ، فإذا شكيب ينتهى إلى أن يضع على الكتاب تعليقات تدعو إليها مناسبات قوية أو ضعيفة ، فتصير التعليقات أضعافَ الكتاب ، دون تحديد للمنهج من أول الطريق ، ودون توافر الترتيب والتنسيق .

وشكيب نفسه يعترف بأنه بدأ فى كتابة التقديم والتعليقات دون خطة مرسومة أو منهج محدد ، وما كان يدرى أن أمر التعليق سينتهى إلى ما انتهى إليه ، فهو يذكر لنا أن مترجم الكتاب بعث إليه بالترجمة ، ليبدى شكيب بعضَ ما يعنّ له من ملاحظات على مباحث الكتاب .

وكان شكيب يومئذ فى شغل شاغل — كما يعبِّر — وكاد يرد الكتاب معتذراً لصاحبه ، إلا أنه رأى فيه مباحث تهم الإسلام والمسلمين ، ورأى المؤلف

---

(١) تاريخ غزوات العرب ، ص ١٢ .

منتبهاً للحركة العربية محيطاً بها ، فأجلّ مقامه ، وربأ به عن أن تكون فى رواياته مواطن ضعف ، يقول شكيب :

« فعلقت كلمات قليلة على هذه المواضع ، ولم يكن فى نيتى أن أكتب حواشى تزيد على سطرين أو ثلاثة بالكثير ، ولكن الحديث شجون ، والمواضيع التى خوضها المؤلف (١) تحتاج إلى مزيد التدقيق ، فصار الكلام يتسع معى تدريجاً ، وبعد أن كانت النية تعليقَ كلمات أو أسطار معدودة انتقلنا إلى حواش تستغرق الصفحة والصفحتين .

ثم رأينا أن الاختصار يخل بالمعنى ، وأن يكون من قبيل فتح الباب لمقام شائق للقراء ، ثم صكه قبل أن يشفى لهم غليلا ، فصارت التعليقات على الكتاب تزداد طولا كلما تقدمنا فى مطالعته ، إلى أن أصبح المتن ربعَ الكتاب بالقياس إلى الحواشى التى صارت هى ثلاثة أرباعه ، بحيث قال العلامة الدكتور يعقوب صروف الطيب الذكر فى مجلة المقتطف إن هذا الكتاب (حاضر العالم الإسلامى) أصبح بحواشيه كتاب الأمير أرسلان (٢) » .

ولسنا بهذا نقلل من قيمة هذه التعليقات ، فهى جليلة وعظيمة ، وتدل على سعة الاطلاع ، وغزارة المعلومات ، ووقوف شكيب على ما لم يقف عليه غيره فى عصره من أمور العالمين العربى والإسلامى ، ولكن هذه التعليقات كانت بحاجة إلى خطة وترتيب ، ولو توافر لها هذا من أول الطريق لصارت مرحلة جليلة الشأن فى طريق وضع دائرة المعارف العربية والإسلامية .

---

(١) خاض الرجل الماء وخوضه واختاضه كلها بمعنى (القاموس) . وأخاض الرجل الماء : خاضه بدابته (الأساس) .

(٢) كتاب السيد رشيد رضا ، هامش ص ٣٣٧ .

والمقام يذكرنا بأن الأستاذ إسعاف النشاشيبي حينما طالع تعليقات شكيب على هذا الكتاب كتب إليه يقول :

« ذكرتني هذه الحواشي بقولين لإمامين : قيل لأبي بكر الخوارزمي عند موته : ما تشتهي ؟ ! . قال : النظر في حواشي الكتب .

وقال أستاذ الدنيا جار الله : الزبت مخ الزيتون ، والحواشي مِخَخَةُ(١) المتون » .

فكتب إليه شكيب الخطاب التالي :

« أخي الأستاذ الأجل :

شفيتَ غليلي بهذين الشاهدين اللذين جئت لي بهما على فائدة الحواشي ، ومن كان يقدر أن يأتي بهما غيرك ؟ لله دَرُّكَ . وقد أتممت تحبير كتاب اسمه (أناتول فرانس في مباذله) يحتوي ترجمة كتاب لكاتب سِرِّه (بروسون) ، وخلاصة آخر لصديقه (سيغور) ، وتلخيص لتأبين أدباء فرنسة (لفرانس) يوم وفاته .

ولما كان فيه من الأعلام الكثيرة والمسائل الفلسفية والاجتماعية والأدبية ما لا بد من تفسيره ، إعانةً للقارىء الشرقي على فهم الكتاب ، فقد جاءت في هذا التأليف أيضاً حواشٍ إن لم تكن على نسبة حواشي (حاضر العالم الإسلامي) فهي حواش لا بأس بها ، وما كان أسرعني إلى تأييد وجهي في الحواشي إلى نقل كلام ذينك الإمامين عن الأستاذ المحقق النشاشيبي ، ولعمري لو أنجدتني بجيش مَجْر ومال دَثْر(٢) ، ما أحسستُ فضل النجدة كما أحسست بها عند ما قرأت ذينك الشاهدين »(٣) .

---

(١) مخخة (بكسر ففتحتين) : جمع مخ (القاموس) .
(٢) المجر : الكثير من كل شيء . والدثر : المال الكثير (القاموس) .
(٣) مجلة الرسالة ، عدد ١٨ فبراير ١٩٤٦ .

وفى رسالة خطية بين يدىّ من شكيب إلى رشيد رضا بتاريخ ٢ ذى الحجة ١٣٤٣ هـ — ١٩٢٤ م يقول : « فأنا على كل حال صرت محشى باشى » .

ورأيى أن شكيب قد تحيف مؤلفاته وكتاباته بإرساله هذه التعليقات الضخمة والحواشى المطيمة بلا نظام ولا تنسيق ، ولو أنه نظمها لضاعف الفائدة المرجوة منها ، ولاحتفظ لها بمنزلة القمة ، دون أن ينال منها هذا الاضطراب ما ناله ، فأصابها بكلّف يتحمله قارئه المنصف فى سبيل ما يستفيده من مائدة شكيب الحافلة بالمعارف والمعلومات .

وليت شكيب تذكر فى هذا المجال أنه أثنى ذات مرة على كتاب « نفح الطيب » للمقرى ، ثم قال : « ولكنه ككثير من مؤرخينا أو مؤلفينا الذين لا يرعون النسبة بين الأشياء ، ولا ينتبهون إلى قاعدة أن الحسن إنما هو تناسب الأعضاء » (١) .

وقد قال شكيب هذا الكلام فى كتابٍ طبعه أول مرة سنة ١٨٩٧ ، وعمره دون الثلاثين ، فليته تجنب ما عابه على المقرى ، فحفظ لتناسب الأشياء حقّه فى التأليف .

وهاهو ذا السيد رشيد رضا يذكر لشكيب فى إحدى الرسائل أنه — أى شكيب — خالف فى تعليقاته على (حاضر العالم الإسلامى) رأى أستاذ الاثنين الإمام محمد عبده فى النهى عن الحواشى والاستغفار منها ، وإن كان رشيد يُرضِى صديقَه عقب ذلك بقوله :

« ولكن لكم أن تقولوا فى حاشيتكم كما قال الخضرى فى حاشيته على ابن عقيل : (فجاءت حاشية لا كالحواشى ، أعيذها من عين كل حاسد وواشى) ولعمرى إن لكم من الحساد ما لم يكن له » (٢) .

---

(١) رواية آخر بنى سراج ، ص ٦١ (ذيل الرواية) .
(٢) كتاب السيد رشيد رضا ، ص ٣٢٧ .

وعاد رشيد ليقول لشكيب فى رسالة تالية :

« بعد أن كتبت إليك فى كتابى الماضى بشأن حاشيتك على الكتاب المترجم ما علمت ، بلغنى أن الحاشية[١] مما يستنكره الجماهير حتى أهل الأزهر ، لا حزب أستاذنا الإمام فقط ، لأنها بلغت من الطول المشذّب[٢] مبلغاً ترك الأصل الذى وُضعت عليه أثراً بعد عين ، أو كهلال الشك لا تدركه كل عين ، وصارت قراءة كل منهما مع الآخر مضيعة لكل منهما ، وقراءته وحده لا ترتاح إليها الأنظار ارتياحها إليه لو لم يكن معه ما يشغل عنه .

وشبَّه لى الكتاب مع الحاشية بشرح ديوان صديقنا محمود سامى باشا البارودى رحمه الله تعالى ، ولعلكم رأيتموه ، فإن شارحه كثيراً ما شرح البيت الواحد بصفحة أو بصفحات ، باستطرادات لا تعنى من يريد قراءة شعر البارودى ، فكان هذا الشرح سبباً لعدم رواج الديوان بقدر ما كان يُنتظر لو طبع وحده بغير شرح ، أو بشرح غريب اللغة أو محاسن نكت البلاغة .

وفاتنى أن أقول لك فى الكتاب السابق إننى مخالف لك فيما تظن من قلة الرغبة فى قراءتى هذه الحاشية لو جُعلت كتابا مستقلا ، بل يغلب على ظنى أنك لو ألفت كتابا فى تاريخ الإسلام ، أو لو جعلت هذه الحاشية كتابا مستقلا لوجدت من الإقبال على ما تكتب فوق ما تنتظر للكتاب المترجم وحده من الرواج .

وأرى أن تضن بما بقى لديك مما كتبت وما تنوى أن تكتب إذا كان يمكن أن يجعل كتابا مستقلا ، ولو يضم بعض ما طبع منه إليه[٣] » .

---

(١) يريد تعليقات شكيب على حاضر العالم الإسلامى .

(٢) المشذب : الطويل . ومن المجاز : فرس مشذب ، أى طويل (عن الأساس) .

(٣) كتاب السيد رشيد رضا ، ص ٣٣٦ .

وقد رد شكيب من (لوزان) على صديقه فى رسالة خطية بين يدىّ ، تاريخها ٩ أيلول (سبتمبر) ١٩٢٣ قال فيها :

« أما الحواشى فقد اضطررنا لها ، لأن الكتاب موضوعه العالم الإسلامى ، وقد أشار إلى الأصول ، وشوّق إلى الفروع ، فلزم أن نشرح كل مسألة ، ونذكر أخبار كل بلد من بلدان المسلمين فى الحال الحاضرة ، ليعلم المسلمون بعضهم بعضا ، ويطلعوا على ما يدس لهم ويُطبخ ، وليس المسلمين بالتخصيص فقط ، بل قرأت فى الكتب المؤلفة على إفريقية — لأنى اشتريت أكثر من ١٠٠ مجلد على أخبار المستعمرات — ما يعمله البلجيكيون فى الكونغو ، والفرنسيس فى النيجر والسينغال وغينية والكامرون ووادای ومداغسكر والقومور ، والإنكليز فى شرقى أفريقية والأوغاندة ، لتقليص ظل العرب والعربية .

هذا عدا مساعيهم فى ذلك فى جزائر الغرب ، فليس الإسلام مهدداً فقط بل العربية — ولعمرى هل يعيش هذا بدون هذه ؟ .

فلو كنت أردت أن أؤلف كتابا خاصا بالعالم الإسلامى لزمه وقتٌ أطول ومال وفرص لا تتاح لى بالحال التى أنا فيها ، فقلت : مالا يُدْرَكُ كله لا يترك كله ، وجعلت هذه الحواشى وسيلة للغرض الذى ذكرناه » .

ومهما قال شكيب من دفاع عن هذه التعليقات فإنه لن يستطيع أن ينكر أنها بحاجة إلى تنظيم وتنسيق ، وأنها لو أتت على وجهها فى كتاب مستقل ذى خطة ومنهج لكانت الإفادة بها أسهل وأكمل .

التكرار والإسهاب

ومما نلاحظه على كتابة الأمير شكيب « التكرار » . ونحن نعرف أن علماء البلاغة يقولون إن التكرار يأتى لتأكيد غرض من أغراض الكلام، أو للمبالغة فيه ، كما يكون فى مواطن الغزل والمدح والهجاء والتوبيخ والتوجع فى الرثاء، والتأكيد والتهويل والتقرير وغير ذلك .

ونعرف أن تكراراً قد وقع لحكمة فى مَثَل العربية الأعلى : القرآن الكريم، وأن تكراراً وقع فى الشعر ، فكان منه المقبول ومنه المردود .

ولكن شكيب يكرر أحيانا تكراراً يضيق به الحريص على تجدد الفائدة وتكاثر المعنى ، فهو مثلا يكرر الشواهد التى استشهد بها من موطن إلى موطن . وقد يذكر الحادثة أكثر من مرة ، إن لم يكن بكل ألفاظها فبأكثرها أوما يقاربها، وربما لم تكن هناك مناسبة قوية داعية ، مثل أن يتحدث عن مسلمى الأندلس فى « حاضر العالم الإسلامى » ، ثم يستطرد ويلخص صفحات من كتابه المترجَم « رواية آخر بنى سراج » ، ويستطرد إلى التعليق على معاهدات ومحالفات [1] .

ويستمر شكيب فى استطراد واستشهاد واقتباس من كلامه المذكور فى كتب أخرى له ومن كتب لغيره ، حتى يقارب الستين صفحة ، ثم يزداد عجبنا حين نجد شكيب يقول بعـــد هذا التطويل مع هذا التكرار إنه لن يستوفى الحديث هنا عن المسلمين فى الأندلس ، لأنه سيستوفيه فى كتابه « الحلل السندسية فى الرحلة الأندلسية » .

وهو فى أثناء حديثه هذا يتحدث عن العلامة « أبو زيد » وبعد صفحات بعيد

---

(١) حاضر العالم الإسلامى ، ج ٢ ص ١ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٥ .

فطوى التى كتبها عن هذا العلامة ، يعيدها بعضها[١] وكان يكفى أن يشير إليها ويحيل على مكانها السابق .

وقد حاول شكيب منذ وقت مبكر فى حياته الأدبية أن يدافع عن الإطناب والتكرار ، فقال : « إن الإطناب مقامات فى الكلام لأجل التمكين فى الأذهان ، وإن للإشباع ضرورات فى الخطاب ، يرمى بها إلى زيادة الوقع فى نفوس السامعين ، وقد اغتفروا التكرار ، بل استحسنوه فى خطاب الجماهير ، وفيما كتب برسم القراءة عن العدد الكثير .

ولولا هذا وأشباهه ما قيل : لكل مقام مقال ، ولولا وجوب التكرار أحيانا ما وجد باب التوكيد فى كلامهم[٢] » .

قال شكيب هذا فى كتاب حققه ونشره سنة ١٨٩٩ م ، ولعل التكرار كان قليلا فى أدب شكيب حينئذ ، ولكن الأيام تمر وتزداد كتابة شكيب تنوعا وتوسعا ، ويصير شكيب مكثارا فيزداد تكرارا ، حتى يوصف بالتكرار ، ويحاول هو أن يدافع عن تكراره ، ويكتب بذلك إلى صديقه رشيد رضا فى رسالة ، فيرد عليه رشيد مؤيدا التكرار فى سبيل الدعاية ، وفى القرآن الكريم فى المواطن التى احتاجت إليه فازداد حلاوة ، ولكن التكرار من البشر مملول إذا كثر ، يقول رشيد مخاطبا شكيب :

« وقد أحسنت فى كتابك إلىّ إذ قلت إنك توصف بالتكرار ، وصدقت فى قولك إن التكرار ضرورى فى سبيل الدعاية ، فإن فى كتاب الله المعجز للبشر فيه من التكرار لمسائل التوحيد والبعث وما دونها من مهمات الدين ما ليس له

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣ و ١٧ .

نظير فى كثرته مع بلاغته واختلاف أساليبه وحلاوتها المثبتة لقولهم : (التكرار أحلى) ، ولكن كلام البشر يمل بكثرة التكرار[1] » .

* * *

وهذا التكرار فى مواطن من كتابة شكيب ينضم إلى إسهاب شكيب فى كتابته ، فهو عدو للإيجاز فى كثير من هذه الكتابة ، وكأنه لا يوجز إلا إذا تعمد ذلك وحمل نفسه عليه ، وأما حين يرسل نفسه على طبيعتها ، فإن قلمه يسيل فلا يتوقف إلا إذا أطنب وأسهب ، وما أكثر ما ترك شكيب نفسه على سجيتها منذ عهد مبكر فى حياته القلمية ، فقد نقل لنا المرحوم على الغاياتى فى ذكرياته أن مقالات شكيب فى جريدة (المؤيد) كانت مسهبة ، وكانت كل مقالة تملأ الصفحة الأولى أو تزيد ، فلا يبقى فيها مكان لكاتب سواه .

ولما بدأ الغاياتى يكتب فى (المؤيد) كان يتمنى أن يختصر الأمير مقالاته ، حتى يجد الغاياتى له مكانا بجانبه فى الصفحة الأولى ، وكان للغاياتى صديق من (يافا) هو عادل جبر ، وكان زميلا له فى دراسة العلوم الاجتماعية بجامعة جنيف ، وعزم عادل على السفر إلى بلده لزيارة أهله ، فرجاه الغاياتى أن يبلغ الأمير التحية ، ويسأله بلطف أن يوجز فى مقالاته ، ليجدوا إلى جواره نهرا أو نهرين بالصفحة الأولى ، وبلَّغ الصديق الرسالة ، فضحك لها شكيب ، ووعد بالإجابة إن أمكن[2] ! .

وكان شكيب فى سنة ١٩٢١ أرسل إلى السيد رشيد رضا مذكرات له عما جرى فى سورية أيام الحرب لنشرها فى (المنار) حسب اقتراح رشيد ، وقد لاحظ رشيد الإسهاب والاستطراد والتكرار فى رسالة المذكرات ، فكتب إليه رسالة بتاريخ ١٥ جمادى الأولى ١٣٤٠ هـ — ٢ يناير ١٩٢٢ م ، وفيها يقول لشكيب :

---

(١) كتاب السيد رشيد رضا ، ص ٦٣٧ . والرسالة بتاريخ ١١ شوال ١٣٥٠ هـ (تقابل سنة ١٩٣١ م) .

(٢) جريدة منبر الشرق ، عدد ٢٣ يناير ١٩٥٢ .

«إن الرسالة على طولها قد كُتبت بأسلوب الإطناب ، حتى إنه قلما يوضع ضمير موضع مظهر ، وفيها تكرار للجزئيات والرد على الخصوم وما يتعلق به ، كذكر حياة كل شخص من الأشخاص الذين يُستشهد بهم ، وهذا النوع من الشرح أو الجدل يذكّر خاليَ الذهن بأن الكلام عرضة للارتياب ، ويكفى الإشارة إلى ذلك مرة واحدة تذكّر المكابرَ بأنه لا يستطيع أن يمارى فى هذه الوقائع وهى ظاهرة» .

ونشر شكيب الرسالة فى كتابه عن رشيد ، وعلق عليها بقوله :

«أقول قد يكون الأستاذ على حق فيما يقول من جهة التكرار وكثرة الاستشهاد ، ولكن الذى بلوناه من مكابرات الأعداء فى هذه المسألة دعانا إلى ذكر كل حادثة بشواهدها ، وأحياناً كنا نشفع الشهادة بترجمة صاحبها حتى لا يبقى مجال للمكابرة»(١) .

ويظهر أن من أسباب إسهابه فى الكتابة مطالعته الكتب العربية الواسعة وتأثره بها ، كالكامل لابن الأثير ، ونفح الطيب للمقرى ، وتاريخ ابن خلدون ، وصبح الأعشى للقلقشندى .

واستمر شكيب يسهب كثيراً ، ويوجز قليلا ، على الرغم من أنه القائل : «الكاتب الذى يكثر من اللفظ بما يزيد على حاجة المعنى أشبه بالمرأة الضعيفة التى تريد أن تستر هزالها بكثرة الثياب»(٢) .

ويمر على هذا القول قرابة عامين ، وإذا رشيد رضا يعود فيكتب إلى شكيب رسالة بتاريخ ١٣ رجب ١٣٥١هـ — ١٢ كانون الثانى (يناير) ١٩٣٢ وفيها يطالبه بأمور منها ترك الإسهاب فيقول :

---

(١) كتاب السيد رشيد رضا ، ص ٣١٠ و ٣١١

(٢) جريدة الشورى ، عدد ١٩ نوفمبر ١٩٣٠ .

« أن تترك عادة الإسهاب والتطويل فى كل ما تكتب ، إلى الإيجاز تارة ، والتوسط تارة أو تارات ، فكثير ما تكتب فى بسط المسائل ماهو معروف عند من تكتب له أو لم ، وقد يكون معروفا مما كتبت من قبل ، والكتاب المختصر المعجّل خير من المطول المؤجل » .

وقد علق شكيب على هذا موافقاً بقوله : « هذا عين الصواب ، وليتنى جعلت رأى الأستاذ حِنْدِيرةَ عينى (١) » .

ولكن ، هل تاب شكيب حقاً من إسهابه واستطراده وتكراره ؟ وهل جعل نصيحة رشيد حدقةً لعينه حقاً ، أو على الأقل جعلها منظاراً لعينه ، أو وضعها أمام ناظريه ؟ .

لم يكن من ذلك شيء ، بل لعل الأمر لم يزد على ترديده عبارة التمنى السابقة دون استطاعته الحصولَ على ما تمنى ، فإن العادة كانت قد استحكمت وتحكمت .

وإليك الدليل . فقد أصدر شكيب كتابه عن شوقى عام ١٩٣٦ م ، أى بعد نصيحة رشيد بأكثر من ثلاث سنوات ، وإذا هو فيه يسهب ويستطرد ، ويطيل الإسهاب والاستطراد .

فهو يشير مثلا إلى بدء صلته بشوقى ، فيذكر أنه فى سنة ١٨٩٠ كان بمصر ، ولم يكن يسمع بشخص يقال له « شوقى » ، ثم يستطرد فى حديث عن نفسه ، وعن الخديوى توفيق ، وعن مدحه للخديوى ، ويذكر جانباً من شعره ، ويظل فى هذا الاستطراد نحو ثلاث صفحات ، ثم يعود إلى شوقى موضوع الكتاب (٢) .

وفى موطن ثان يترك الحديث عن شوقى موضوع الكتاب ليستطرد بالحديث

---

(١) كتاب السيد رشيد رضا ، ص ٦٨٣ . والحنديرة والحندورة والحندير والحندارة والحندور : حدقة العين (القاموس) .

(٢) كتاب « شوقى » ، ص ٤ وما بعدها .

عن الحرب الطرابلسية ، وزيارته لمصر فى أثنائها واشتراكه فيها ، ويظل فى هذا الاستطراد لأكثر من ثلاث صفحات ، ويعنون شكيب جزءين من هذا الكلام بعنوان « استطراد »[1] ، فهو يستطرد عامداً وعلى وعى « ومع سبق الإصرار » .

وليست هذه أول مرة يصرح فيها شكيب عن نفسه بأنه يستطرد وهو عالم باستطراده ، فقد سبق له فى « الارتسامات اللطاف » أن صرح بمثل هذا أكثر من مرة ، فحينما أشار — وهو يزور الطائف — إلى مسجد ابن عباس فيها ، استطرد فأورد ترجمة ابن عباس وأقوال الأئمة فيه ، وظل فى ذلك عشر صفحات ، ثم قال معتذراً : « ولو شئنا استقصاء مناقبه لطال المقام جداً ، لا سيما أن كتابنا هو رحلة إلى الحجاز ، لا ترجمة لابن عباس رضى الله عنه ، وإنما أوردنا ما أوردنا منها لأن التراجم الزكية هى خير ما يُطْرِف به الكاتبُ القراء » .

وفى مكان آخر يستطرد ثم يعتـذر فيقول : « وأرانى قد بعدت عن الموضوع الذى كنت فيه ، ولكننا فى كل مرة لم نخرج إلى شىء غير مرتبط بأصل الموضوع »[2] .

وفى موطن ثالث ينتهز شكيب فرصة رده على اليازجى الذى انتقد شوقى ، وينفلت من حديث شوقى إلى حديث عن اليازجى ، ويورد لنا رثاءه فى اليازجى[3] . وقد انتهز شكيب فرصة كتابه عن شوقى ، وضمنه أكثر قصائده ، أعنى قصائد شكيب لا شوقى[4] ! .

وفى موطن رابع نرى طرفة عجيبة من طرائف الاستطراد والتوسع فى الحديث بلا موجب ، فقد أشار شكيب فى الكتاب إلى رثاء شوقى لأمين باشا فكرى ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٥ وما بعدها .
(٢) الارتسامات اللطاف ، ص ١٥٣ و ١٩٥ .
(٣) كتاب شوقى ، ص ٧٦ وما بعدها .
(٤) المرجع السابق ، الصفحات ٤ و ٦ و ١٧ و ٤٣ و ٧٦ و ٨٤ و ٩٥ و ١٠٢ و ١٤٧ .

وعزائه لإسماعيل صبرى باشا فى أمين ، ثم استطرد فذكر ثلاث قصائد فى رثاء أمين باشا ، وهى قصيدة شوقى ، وقصيدة إسماعيل باشا صبرى ، وقصيدته هو، ثم قال : « ولو فُسح المقام لاستوفيت له ثلاثين مرثية ، وكان بها قَمِناً »(١).

وأقول على طريقة شكيب : ولو فسح المقام لأوردتُ طوائف أخرى من استطراد شكيب فى هذا الكتاب ؛ فحسبنا منه ما تقدم !.

والعجيب فى الباب أن شكيب يترك ما يُنتظر منه أحياناً ، فقد تكون هناك مناسبة داعية لشىء من الاستطراد فيتركها عمداً أو سهواً ، ومن أمثلة ذلك أنه قال فى « الارتسامات اللطاف » :

« والسلسلة الجبلية من الحجاز إلى اليمن متصلة ، وعن يمين الذاهب من الشام إلى مكة التهائم الواصلة إلى سِيف البحر الأحمر . وعن اليسار بلاد نجد ، وهى من أطيب البلدان نُجْعة وألطفها هواء ، يضرب المثل بجودة هوائها ، فيقال بلاد نجدية الهواء(٢) » .

هذا كلام شكيب ، وهو شاعر أديب ، وله سوابق من الاستطراد بداعٍ قوى أو ضعيف ، فلماذا لم يستطرد هنا بذكر شىء من الشعر العربى فى نجد وهوائها وصَبَاها ، مع أنه ذكر قبل ذلك أشعاراً كثيرة قيلت فى المواضع التى مرَّ بها ، وأطال فى ذكرها نقلا عن السابقين(٣) .

وقد أدرك ذلك السيد رشيد رضا الذى تولى تصحيح الكتاب وتعليق بعض حواشيه ، فقال فى الهامش : « للشعراء من المدح لهواء نجد ، والحنين إلى صَبَا نجد ،

---

(١) المرجع السابق . ص ١٧٠ والقمن ـ ككتف وجبل ـ والقمين ـ كأمير : الخليق الجدير .

(٢) الارتسامات . ص ٢٥٩ . وسيف البحر (بكسر السين) : ساحله . والنجعة : طلب الكلأ فى موضعه . وانتجعت فلانا : طلبت معروفه .

(٣) المرجع السابق . ص ٢٤١ وما بعدها .

ما يكاد يفوق نسيبهم وتشبيبهم بغوانى الحسان ، ولعل أمير البيان لو تذكر هذا هنا لروى لنا من محفوظه الواسع من الشعر الرائع ، ماهو أشد تشويقاً لجزيرة العرب من سرد أسماء المواقع ، فإن ذكر تلك الصَّبا يكاد يكون أرقّ من ذكرى أيام الصِّبا »[١] .

وقد عمّق نزعةَ الإسهاب والاستطراد فى نفس شكيب كثرةُ المعلومات التى كسبها من مطالعاته الواسعة المتشعبة المتصلة بأكثر من لغة ، فقد كان شكيب يتقن العربية والتركية والفرنسية ، ويعرف الإنجليزية والألمانية[٢] . تتوارد على ذهنه هذه المعلومات وهو يكتب ، فلا يدرى ماذا يأخذ وماذا يدع ، فيريد أن يستن بسنة الكثير من السلف حينما كانوا يحرصون على أن يمتعوا قراءهم بكل ما يعرفون ، وشكيب قد أدمن النظر فى « نفح الطيب » ، وعنصر الإسهاب والاستطراد فيه واضح ، كما أنه طالع للجاحظ وأعجب به ، والجاحظ له باعه فى تشقيق الحديث وإطالة الكلام .

ومن الأسباب كذلك تعوُّد شكيب على سرعة الكتابة التى تهوّن عليه طولَ ما يكتب ، وهو رجل قد ألف الانهماك فى التسطير والتحبير ، فيسطر فى الوقت القليل ما لا يسطره غيره فى الزمن الطويل ، وقد حدَّث أحدَ أصدقائه بأنه كتب فى ستة أشهر — وهو فى (مرسين) — خمسمائة وسبعين مكتوبا ، وأربعين مقالة ، وترجم عن الفرنسية كتابين فى خمسمائة صفحة ، وكل ذلك بخط يده[٣] .

ومن الباحثين من يرجع سبب شهرة شكيب الواسعة فى عالم الأدب إلى « أنه

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٥٩ .

(٢) ذكرى الأمير ، ص ٥٣ . وقد سبقت الإشارة إلى ذلك .

(٣) جريدة الشورى ، عدد ٢٤ سبتمبر ١٩٢٥ .

كان مكثاراً فى الكتابة ، وما انفك طول حياته عن مبادلة الأدباء والشعراء فى العراق ومصر والمغرب وسائر بلاد الشام ، وما خلفه من الآثار نثراً وشعراً فى أكثر صحف العالم العربى ومجلاته ، مما خلد ذكره ، وطبقت شهرته الخافقين [١] » .

ويقول محمود زكى باشا عن شكيب : « أما كيفية تحبيره الرسائل والمقالات الضافية الممتعة فإنه لا يكاد يصدق القارىء أنها كلها عفو الساعة ، وفيض البديهة ، ومسابقة القلم للخاطر ، حتى صار يلقبه بعض الظرفاء (بماكينة سنكر !) التى لها سرعة البرق فى التطريز ، وقد نراه يكتب فى شئون شتى فى وقت واحد ، وكل موضوع يخالف الآخر » [٢] .

ولقد كان هذا الإسراع مع سعة الاطلاع وغزارة المعارف سبباً فى متاعب لشكيب يعبر عنها بقوله :

« كثيراً ما كنت أكتب الجملة وأريد إتمامها بعبارة أو كلمة ، فتتزاحم الخواطر فى رأسى ، فتذهب بما كنت أريد أن أقوله ، وتبقى الجملة ناقصة ، وتلبث تلك العبارة المتممة لها فى قعر الدواة ، وقد أعيد النظر على ما كتبت . فأفطن لموضع النقص وأسدده ، وقد تحول عُدَوَاء الشغل [٣] ووفرة الوارد والصادر من الكتب ، فأسرّح المقالة بدون إعادة النظر عليها .

وعند ما تجىء فى الجرائد مطبوعةً أرى فيها الزائد والناقص ، وينغص ذلك علىّ لذةَ قراءتها . وكم من مرة رميت بالجريدة التى فيها مثل هذا السهو جانباً ، لأنه لو كانت كلمة محرّفة أو مصحفة بجهل منضّد الحروف لأمكن تصحيحها فى عدد

---

(١) مجلة الأديب ، عدد كانون الثانى ١٩٤٧ .

(٢) جريدة الشورى ، عدد ١١ أغسطس ١٩٢٧ .

(٣) العدواء (بضم ففتح) : المركب الغير المطمئن ، والأرض اليابسة الصلبة ، وعدواء الأرض : بعدها .

آت من الجريدة أو المجلة ، ولكن الجملة الناقصة يكون من أبرد الأمور أن تعتذر عنها بأنها بقيت فى كعب الدواة (١) » .

• • •

هذا وأحب أن أشير إلى أننا حين نستعرض كتب شكيب سنزداد معرفة بنثره وكتابته ، لأن مزيداً من المعلومات المتعلقة بالموضوع سترد حينما يلائم المقام عرضها بمناسبة الحديث عن هذه الكتب .

---

(١) المرجع السابق ، عدد ١٠ نوفمبر ١٩٢٧

المعنى عند شكيب

تحدثت عن شكيب الناثر من ناحية ألفاظه وأسلوبه وصور تعبيره، ولاشك أن الحديث عن اللفظ يشمل الحديث عن المعنى من بعض الجهات، لأن اللفظ وعاء المعنى، والمعنى لا يفهم دون لفظ، ولكن لما كانت المعاني هي الهدف الأساسي المقصود من الألفاظ كان من حقّ المعنى أن نخصه بحديث.

لقد أبدى شكيب رأيه في قضية اللفظ والمعنى، في مواطن متفرقة من كتاباته، ونستطيع أن نلمح جانبا من هذا الرأي حين نجده في تقديمه لكتاب "الدر اليتيمة" يقول:

"إن المعاني إذا كثرت على الألفاظ ضاق دونها ذرع الكتبة، فذهبوا في إبرازها إلى الخَلق،وعرضها على الأذهان مذاهب الضعف ومسالك السخف، فأفسدوا لغتهم وأعجموا منطقهم.

وإذا كثرت الألفاظ على المعانى بين قوم سادت بينهم الصناعة اللفظية، ولهَا المشتغلون بنوع من الحفظ لم يقصد لذاته، فكان العى والحصر أحسن منه.

فكانت البغية كل البغية فى تناسب القوتين، وتعادل المُنّتين (١)، وتضارع المادتين، حتى يتوفر (٢) لكل معنى نَدِيدُه من اللفظ، ويقتنى بإزاء كل مغزى ضريبه من السبك، ويودع كل خاطر قالبه الأليق، ويلبس كل فكر ثوبه الأليق، وهى غاية من أبعد البعيد، وعقبة عَنُود لدى التصعيد، ولكنها رأس النصح فى

---

(١) المنة (بضم الميم) : القوة .

(٢) هكذا، والصواب لغة: يتوافر. فى أساس البلاغة: « وتوفر على كذا إذا كان مصروف الهمة إليه. وكان ذلك وأصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم متوافرون » ج ٢ ص ٥١٩ .

خدمة اللغة ، وأول الواجب فى حق اللسان ، وإنما يتذرع إلى تسهيلها ، وتمهيد طرق تحصيلها ، بإدمان النظر وإدامة السهر فى التطبع على بلاغة الأولين ، وتقليد مناهج السالفين »[1] .

ونفهم من هذا أن شكيب يستحسن التساوى بين اللفظ والمعنى ، بحيث لا يطغى اللفظ فيتسع فيكون الكلام صنعة ولهواً ، ولا تضيق الألفاظ بالمعنى الكثير فيؤدى ذلك إلى الضعف والسخف .

ويعود شكيب فى المقدمة نفسها فيرى أن « الدرة اليتيمة » نموذج طيب لإيراد المعانى الجليلة فى الألفاظ القليلة ، فيقول عنها :

« إنها مع صغر حجمها قد جمعت بين أعلى طبقات البلاغة ، وأسمى درجات الحكمة ، وتضمنت من الحكم البوالغ والحجج الدوامغ ما لم يتضمنه كتابٌ قبلها ولا بعدها ، فكانت حرية بأن يتخذها الكاتب منتجع لبه ، وحماطة قلبه ، وأن يجعلها دستور إنشائه ، ومثال احتذائه ، وحقيقة بأن يتخذها الإنسان نصب ناظره ، وشغل خاطره ، يهتدى بنور حكمها فى ظلم المعاضل ، ومدلهمات المشاكل ، ويتدرب بما أوضحته من سبل التصرف الحكيمة ، ونهجته من جوادى الكمال القويمة ، على امتزاج لحمتها بقواعد الكون ، ودخولها تحت طور الطَّوْق »[2] .

وشكيب يقرر بهذا أن الكلام القليل إذا تضمن المعنى الكثير بلا تقصير كان أعلى طبقات البلاغة ، وأن هذا النوع من الكلام هو المثل الأعلى .

وفى موطن آخر ينص شكيب على أن المعنى الجليل إذا لم يجد من اللفظ حلةً سنية قويمة تناسبه انحط الكلام وصار ركيكا ، فيقول : « نقاوة اللغة هى

---

(١) الدرة اليتيمة ، ص ٦ و ٧ . والأبلق : بمعنى الأليق .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨ . وحماطة قلبه : صميم قلبه . ونهجته : سلكته . وجوادى الكمال : سبله وطرقه .

الشرط الأول للشاعر والكاتب ، والمعانى وحدها لا تكفى ، ولا ينهض ركاكة اللفظ علو المعنى ، وهذا أمر اتفق عليه العرب والعجم » (١) .

ويؤمن شكيب بأن النثر الجيد هو ما جمع بين حضارة المعانى وبداوة الألفاظ (٢) وقد حاول أن يحقق ذلك فى كتاباته ، فاستقام له الأمر فى أحيان كثيرة ، حتى قال عنه خليل مطران إنه « حضرى المعنى بدوى اللفظ (٣) » .

يقول شكيب أيضاً : « لست ممن يعترضون على أولئك الذين يريدون أن يأخذوا بحظهم من الحياة ، ويريدون أن يفهموا الناس ويفهمهم الناس ، ويعيشون مع الجيل الذى هم فيه ، دون أن يقطعوا الصلة بينهم وبين الأجيال الماضية .

كلا ، لأنى من هؤلاء القوم أنفسهم ، لى ماض يشهد لى بذلك ، و ٣٨ سنة فى عالم المطبوعات من أهرام ومؤيد ومقتطف ومقتبس وجرائد ومجلات عديدة . عشت فيها مع الجيل الذى أنا فيه ، واجتهدت أن أفهم الناس ، وأن يفهمنى الناس ، وجلتُ فى أكثر المواضيع العصرية ، وطالما ألبست يدى عند الكتابة قفازاً ، ولكننى حرصت على أن يبقى أسلوبى عربيا ، وأن أقتدى بنغمة السلف فى دولة فصاحتهم ، وأن لا أقطع علاقتى مع الأجيال الماضية » (٤) .

وهو لا يعارض أهل المذهب الجديد فى الأدب إذا أحبوا الجَوَلان فى الموضوعات الحديثة والمعانى المستجدة ، بشرط أن يكون الأسلوب عربياً قويماً : « وإذا أراد الكاتب العصرى أن يجول فى المواضيع الحديثة والمعانى المستجدة

---

(١) كتاب شوقى ، ص ٩٠ .

(٢) مطالعات فى اللغة والأدب ، ص ١٥٢ .

(٣) ديوان الأمير ، ص ٤ .

(٤) مطالعات فى اللغة والأدب ، ص ١٥١ .

استنفد جميع مُنّته فى إلباس هذه المعانى الجديدة حللَ الأساليب العربية القويمة التى هى أصل اللغة والطراز المنسوج على منواله »[١] .

وحينما نرجع إلى أدب شكيب وكتابته نلمح فى سهولة أنه كان رجلا واسع الاطلاع غزير المعلومات رحيب الثقافة ، وأن له مكانته الملحوظة فى لغته وأسلوبه ومعناه . وقد حقق له ذلك تتبعُه لآثار العلماء والأدباء ، وحافظته القوية الواعية لما يطالع ، واتصال مطالعته ، وإدمانه الاستفادة العلمية من كل وجه ، ومسارعته إلى تسجيل آرائه وأفكاره .

وحينما ننظر فى معانى شكيب نجدها قوية ، وقد توافرت لها القوة بعوامل عديدة ، منها إحاطته الواسعة بمفردات اللغة ، ومعرفته عدداً من اللغات : كالتركية والفرنسية والإنجليزية والألمانية ، إلى جانب العربية ، ومزاولته الترجمة حيناً طويلا من الزمن ، وفى مقدمة أنواع ترجمته ترجمتُه عن الفرنسية التى تكونت له عن طريقها ثقافةٌ واسعة كانت ثمرة لقراءاته فيها ، وتحدثه بها خلال زياراته المتكررة لفرنسة ، وخلال إقامته الطويلة فى جنيف ، فهو يطالع بها الكتب والمجلات والصحف ، وهو يكتب بها الكثير من النداءات والبيانات السياسية ونحوها : « وهذه الثقافة الفرنسية مكنته من الرجوع إلى مصادر المستشرقين وتعريب كتبهم، وتلخيص أقوالهم ومناقشتها والرد عليها ، فكثرت أسماء أعلامهم فى بحوثه ، حتى نافست أعلامَ العرب ، نجد فيها : دوزى ، ورينو ، وليفى بروفنسال ، وبديكر ، وكونده ، ودرمنغم ، ورينان .

فكان يفتح نافذةً على الأدب الغربى ، وأخرى على الأدب العربى ، ويُجرى التيار على تفكيره وآرائه ، فيخرج بالمعلومات النادرة عن الأدبين جميعاً ، وخاصة عن الأدب الفرنسى[٢] » .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٠٤ . والمنة : القوة .

(٢) الأمير شكيب ، ص ٢٠٣ .

وإذا كان شكيب — كما ذكر مطران[1] — قد ظل دهراً طويلا يمد قراء العربية بكتب قيمة فيها من مختلف الآراء ما يهيىء لهم من أمرهم رشداء ورسائل متنوعة يجتنون منها ما يغذى العقول ويفكه القلوب ، فإنه يحسن بنا أن نذكر أن شكيب قد كتب فى أغراض كثيرة مختلفة ؛ كتب فى الأدب والتاريخ والسياسة والاجتماع والرحلات والتراجم واللغة وغيرها .

ومعانيه فى هذه الكتب تختلف باختلاف موضوعاتها ، فهو إذا كتب فى الأدب كانت معانيه فى أغلب الأحيان متأثرة — وكدت أقول متابعة — معانى القدماء كما فى مناقشاته مع خليل سكاكينى[2] ، وهو إذا كتب فى التاريخ غلبت عليه المعانى المنقولة عن غيره من السابقين أو المعاصرين ، مع المقارنة والتعليق والشرح أحياناً ، كما فى « الحلل السندسية » و « تاريخ غزوات العرب » .

وإذا كتب فى السياسة كانت معانيه بعيدة الغور ، عميقة الفهم ، لأنه يكتب عن خبرة وتجربة ومشاهدة واتصال بالأحداث ، وإذا كتب فى الاجتماع تأثر بأفكار ابن خلدون ومعانيه ، وإذا كتب عن الرحلات حمل إلينا المعانى الدالة على التدقيق فيما شاهد ، والتحقيق لما سمع ، ولا ينسى هنا أن يربط بين الماضى والحاضر .

وقد يطغى صوت الماضى بمعلوماته وآرائه وأحكامه على صوت شكيب وفكره كما نرى ذلك واضحاً فى كتابه « الارتسامات » عند استشهاداته بكلام الأولين على أشياء يراها فى رحلته ، ويستطيع أن يحدثنا هو عن حاضرها .

وإذا كتب التراجم فإنما هى ذكريات وخواطر واجترار للماضى ، مع حديث عن نفسه ، وربط لشخصه بشخص المترجم له ، فتتجلى المعانى الذاتية ، كما فى كتابيه عن رشيد وشوقى ، وإذا كتب فى اللغة تجلت لك روح المعجمات ، وظهرت النزعة السلفية فى النقل والمحافظة واحترام المأثور .

(١) ديوان الأمير ، المقدمة ، ص (د) .
(٢) سيأتى الحديث عن هذه المناقشات عند التعرض لآراء شكيب فى النثر .

ومن هذه الكلمات نستطيع أن نلحظ فى سرعة أن مضمون الكتابة عند شكيب متنوع، فتارة يكون نقليا، وتارة يكون عقلياً، وتارة يكون عاطفياً، وأكثره له عمقه، والقليل منه يخف وزنه.

ولكن هناك أمراً هاماً يجب التنبه إليه، وهو أن شكيب لم يكن من أدباء الأبراج العاجية، ولم يكن من شيعة الذى يتخذون الأدب لوجه الأدب، أو الفن لذات الفن بل هو رجل دعوة، وله رسالة، وله فى الحياة العامة واجب يرى نفسه ملزماً بأدائه

[قد كان شكيب يحس بأنه مسئول عن حراسة تراث العربية، ومواريث الإسلام، وقضايا العرب، وشئون المسلمين، ولذلك كان لزاماً عليه أن يبشر بدعوته، وأن يسهر على رسالته، وأن يدافع عن القضايا التى يؤمن بها ويلزم نفسه الذود عنها، وما دامت هذه القضايا ترتبط بعقيدته وقوميته، وهما أعز ما يحرص عليه الرجل الأصيل الغيور فى دنياه، فليندفع شكيب فى ميدان الكتابة والخطابة والمحادثة والمراسلة والنشر، ذائداً عن حرمات العرب والمسلمين.]

وليكن لشكيب فى هذا المجال مدد أى مدد من عواطفه ومشاعره وأحاسيسه التي تفاعل مع الأحداث المباشرة أو غير المباشرة التى تتصل بإخوته فى الوطن وإخوته فى الدين، وليكسب شكيب على مر الأيام — بحكم هذه الرسالة — ما يشبه صفة «الخطيب» الذى لا يمل ارتقاء منبر الدعوة ليحرض أو يذكر ويثير أو ينقد.

ومن هنا تطرق الإسهاب والإطناب إلى كتابة شكيب من أوسع الأبواب، والإطناب هو أن يزيد اللفظ عن المعنى، ومعانى شكيب جليلة وقوية، ولكن ألفاظه موفورة، وتعبيراته كثيرة، وأرصدته اللغوية والبيانية كبيرة، وإذاً

فلنكن معانيه فى كثير من مواطن كلامه كالغيد الأماليد [1] اللواتى يشبهن غصون البان الراقصة ، وهن يتماوجن داخل ثياب جميلة رائعة ، ولكنها فضفاضة واسعة ! .

ولقد عاب عليه خليل سكاكينى ذلك الإطناب ، وتمنى عليه لو ضاعف معانيه وإن أطنب فيها ، فقال له : « إذا أردت أن تكثر فلا دخل للاطناب والإيجاز فى إكثارك ، وإنما الإكثار أن تضاعف معانيك ما شئت وشاء المقام ، لا أن تضاعف ألفاظك على غير حاجة إليها ولا فائدة فيها [2] » .

واتهمه السكاكينى فى موطن آخر بقلة البضاعة ، ونزارة المادة الفكرية : ولذلك يلجأ شكيب إلى التكرار ، ويسرف فى استعمال المترادفات ، مثل قوله فى بيان له إلى الأمة العربية : « ياإخواننا ؛ إن الصارخة القومية ، والنعرة الجنسية ، قد بدأت مع الأقوام ، ونشأت مع الأمم ، منذ الكيان ، ومنذ وجد الاجتماع البشرى ، وتساكن الإنسان مع الإنسان [3] » .

وكان يستطيع أن يوجز ولا ينقص المعنى فيقول : « ياإخواننا ، إن الصارخة القومية قد بدأت منذ وجد الاجتماع البشرى » .

ومثل قول شكيب فى البيان السابق : « وإن هذه النعرة الجنسية والحمية القومية ، وإن عم أمرها جميع الأمم ، ولم يخل منها عرب ولا عجم ، فقد اختص منها العرب بالشقص الأوفر والحظ الأكمل [4] » .

وكان يستطيع أن يوجز بلا نقصان فى المراد بأن يقول : « وإن هذه الحمية القومية ، وإن عم أمرها جميع الأمم ، فقد اختص منها العرب بالحظ الأكمل » .

---

(١) الغيد : جمع غيداء ، وهى المتثنية لينا . والأماليد : جمع أملود ، وهى المرأة الناعمة .
(٢) مطالعات فى اللغة والأدب ، ص ١٢٧ .
(٣ و ٤) المرجع السابق ، ص ٩٧ والشقص : النصيب

ولكن شكيب يرد على هذا المأخذ بأن العبارات السابقة « جمل من نداء كان الوفد السوري وجهه إلى الأمة العربية : قاصيها ودانيها ، وحاضرها وباديها ، وخاصيها وعاميها ، مراعياً حال من يخاطبهم ، وضرورة تمكين المعانى من نفوسهم ، وتحريك عاطف حميتهم ، بما هو فى كل لغة ، وفى كل منطق ، وفى كل أدب ، موطنُ التكرار الأكبر ، ومحل التأكيد اللازم ، إذ كانت المناشير العامة والرسائل الموجهة إلى الجماهير دائماً على هذا النسق ، ولم تكن قاعدة (خير الكلام ما قل ودل) موضوعة لمثلها ، إلا إذا اختلت قاعدة أخرى هى أعم منها . و (لكل مقام مقال) والفصاحة [البلاغة] هى المطابقة لمقتضى الحال[1] » .

والواقع أن شكيب يتناول المعنى من المعانى فيظل يفصل فيه القول ، ويردد حوله الألفاظ المترادفه أو المتقاربة ، حتى يؤكده أو يثبته ، ويبدو هذا بصورة أوضح من غيرها فى بياناته السياسية ، وفى دفاعه عن نفسه ورأيه ، وفى حديثه عن أحوال أمته ، إذ يكون فى هذه الأحوال منفعلا أو ثائراً ، فتستبد به العاطفة ، فتسيل على أسلته[2] قلمه فيضاً من تعابيره يجلّى فيها المعنى الذى يريد تجليته ، ولو كان ضئيلا ، أو كان معروفاً من قبل .

* * *

وقد يقع من شكيب ما يشبه التناقض فيما يتعلق بالموضوع والمعانى والأفكار التي يصورها ، فهو مثلا يحدثنا بأنه لا يؤلف إلا فى الموضوع الجديد ، ليضيف إلى ذهن قارئه معلومات جديدة ومعانى طريفة ، فيقول فى ملحق لرواية « آخر بني سراج » :

« كنت منذ نشأتى ممن لا يحبون التآليف فيما كثر فيه التأليف وطال فيه المقال ، كأنما أعده تكراراً لسابق ، أو إعادة لصدى ، وخلواً من كل براعة ،

---

(1) المرجع السابق ، ص ١٠٤ نقلا عن جريدة السياسة ، عدد ٧ نوفمبر ١٩٢٣ .

(2) أسلة القلم : طرفه .

وأخبار الأندلس مستفيضة فى التواريخ شرقا وغربا ، ومعروفة عند الأدباء بما لا يكون التأليف فيه سوى زيادة فى عدد الكتب ، وإنما يستحب الإنشاء فيما ندر فيه الكلام ، وعز البحث وطمست الأعلام ، فإذا قرأته العامة — بل الخاصة — سقطت منه على جديد ذى طلاوة ، ولم تسأمه النفوس لعدم تداولها مطالعته المرة بعد الأخرى مدارسة كتب القواعد التى لا تتغير[1] » .

يقول هذا ثم يعود بعد حين طويل من الزمن ، ربما ظهرت فيه مؤلفات جديدة عن الأندلس ، وربما نشرت فيه كتب قديمة عن الأندلس ، يعود ليكتب « الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية » ، ويعتمد كثيراً على نقول من « نفح الطيب » وغيره ، فأين إذن الجديد ؟ وأين التجديد ؟ .

ولا أحب أن أترك الحديث عن « رواية آخر بنى سراج » وملحقاتها دون أن أنتزع منها نصاً يدل على أن شكيب يكتب فى أحيان كثيرة بعاطفته وانفعاله ، دون تجرد للموضوعية أو تحكيم للنزعة العقلية . يقول عما كتبه كخلاصة لخاتمة تاريخ العرب فى الأندلس :

« ولا أكتم القارئ، الذى هو خليق بأن لا يخفى عليه بشفوف بصره ولطف حسه أن الأمر غير خالٍ فى هذا الإملاء أيضا من نزعة جنسية ، وحنوة عصبية ، وهفوة للفؤاد وراء آثار بنى الجلدة ، مما تستشعر فيه مرضاة هذه النفس العظيمة السر ، البعيدة مهوى الغرض ، الغريبة شكل الهم ، وتوفر به اللذة والراحة لهذا الوجدان الداخلى السائح فى أثر ما يتعلق بالنفس من جميع جهاتها ، على ترجيح الأقرب فالأقرب .

وقد طبع الخالق الحكيم هذا المرء على حب جنسه ، والميل للاتصال بأبناء أبيه ، فكأنما يتمثل بذلك صورة نفسه التى هى جزء من هذا المجموع ، لما يحس

---

(١) آخر بنى سراج ، الملحق ، ص ٦٠ .

أن أقرب أنواع الدم إلى دمه هو الجارى فى عروق قومه ، فهو يحن إليهم ، ويحنو عليهم ، ويتألم لألمهم ، ويعتز بعزهم .

وإذا غابت أشخاصهم استأنس بآثارهم بعد الأعيان ، وارتاح إلى مواطنهم ، ورغب فى الدوس على مواطىء أقدامهم ولو بعد أزمان . وقد عهدنا الذى يصاب عزيز أو بذى قرابة يختلف إلى قبره ، يشفى بالبكاء عنده حرارةَ صدره ، وإذا ظفر بقطعة من ملبوسه أو مفروشه ، أو برقعة من خطه ، احتفظ بها ، وغالى فى قيمتها ، وجعلها مدار أنسه ، فى خلوات نفسه ، وروح حياته ، فى منتبذ مناجاته[1] » .

الكلام جميل ، والهدف نبيل ، وحب الأوطان ديدن الإنسان الكريم ، وما أوردت النص لأعيب على شكيب قليلا أو كثيراً من غيرته على وطنه ، أو حبه لقومه ، أو تتبعه لمآثر آبائه ، ولكنى أردت أن أبين عنصر العاطفة والانفعال الذي يمتد بشكيب حينما يتحدث فى مثل هذا المجال ، فيلقى هـذا العنصر على مضمون كلامه ظلالا من عاطفته وانفعاله .

ولقد حق لشكيب أن يقال فيه إنه كاتب مشبوب العاطفة ، شديد الحماسة ، خيالي لما يصور[2] ، وكأنه لا يكتب بقلم فيه المداد ، وإنما يكتب بقبس من شعوره وعاطفته له امتداد .

ولنذكر فيما يلى أمثلةً قليلة ومقطوفة من روضتها ، لتدل على مدى استجابة شكيب لعاطفته وانفعاله حين يكتب :

قال فى سبب وضعه كتابا عن شوقى :

« وإنى لأخجل من نفسى إذا رأيتنى قصرت فيما يجب علىّ نحو شوقى بعد وفاته ، وإنى لأتخيل شوقى — وهو الذى يقول ، كما جاء فى جريدة كوكب

---

(1) رواية آخر بنى سراج ، ص ٣٦٦ .
(2) الأمير شكيب أرسلان ، ص ٢٦٢ .

الشرق» إلى أحد أصحابه الثلاثة الذين لا يعز أحداً عليهم — قد نظر إلىّ من برزخه، وأطلّ علىّ من نافذة الغيب، وحدّق بى بعيونه تلك التى كان يقول فيها صديقنا الشيخ على الليثى : (محاجر مسك ركبت فوق زئبق) وقال لى : أهكذا ضمنتنى يا أخى بعد وفاتى ؟ وإنه فى تلك الساعة قد ينشدنى قول أبى العتاهية :

سيُعرَض عن ذكرى، وتُنسَى مودتى ويَحْدث بعدى للخليل خليل
إذا ما انقضت عنى من الدهر ليلتى فإن بكاء الباكيات قليل

فأبدا أجيبه قائلا : لو نسى عهدك الأولون والآخرون لما خفرت لك عهداً، ولا مذقت لك وداً، وإنك فى الغيب عندى لكما فى المشهد، وأنت تعلم أنها صداقة أربعين سنة، تساقينا كؤوسها صفواً بدون قذى، وتبادلنا رياحينها عفواً بدون أذى.

فإن أظمأ عهدك النسيان فلى مدامع ترويه، وإن شطت بشعرك النوى فإن الدهر كله يرويه، وإنه وإن بكاك الناس حبا بالأدب، ورحمة للسان العرب، فإنى لأبكيك بصفتين : صفة الأديب البرّ بلغته، الغيور على صناعته، وصفة الأخ الضنين بأخوته، الحريص على مروءته، فأنا فى مقدمة من لك من الإخوان الذين يبكون فضلك، ويذكرون عهدك، إلى أن يواروا فى التراب (١) ».

نرى هنا أن شكيب قد اندفع إلى الكلام عن شوقى بصفتين إحداها عاطفية فى لُحمتها وسَداها، وهى الأخوة، وأخراها لا تخلو من العاطفة والهوى، وهى الغيرة على اللغة القومية.

وإذا كنا نرى شكيب فى مقدمته لكتاب « السيد رشيد رضا » يذكر أنه أقدم على نشره لأن هذا ما يقتضيه الإنصاف والعدل، فإنه يذكر بجوار هذا السبب سبباً آخر عاطفياً وهو أخوته لرشيد، يقول :

(١) شوقى أو صداقة أربعين سنة، ص ١٢٥.

وإنى لأجد نشرَ مناقبه ، والتنويه بقدره ، والإشادة بحسناته الكثيرة ، والإنارة لبراهينه الساطعة ، من عزائم الله الموجبة ، وفرائضه المبرمة ، عملا بقوله تعالى : (وَزِنُوا بالقِسْطاسِ المستقيم) هذا مضافا إلى ما كان بيننا من الإخاء القديم ، والذمام المتين ، والرمى عن قوس واحدة ، والاقتداء بإمام واحد . لا جرم أنى أرى ترجمتى له دَيْناً علىَّ لا يجوز أن ألوى به مادامت لى أنامل تمسك القلم »[١] .

ونحن نتذكر أن شكيب زار الأندلس سنة ١٩٣٠ ، وصاغ عن زيارته قصيدة طويلة النفس ، وفيها أطلق لعاطفته العنان ، وأرضى انفعاله الثائر ، فقال فيما قال عن حضارة العرب فى الأندلس :

يقولون كانت أُمَّة عربية ... بأندلس ، سادت بها جمّ أعصر
وقد عمرت أقطار أندلس بهم ... فكم بلد فخم ، ومصر ممصر
وكم أربع خضر ، وحرث مطبق ... وفاكهة رغد ، وزهر منوّر
وكم قائد قرم ، وجند مدرّب ... وكم سائس فحل ، وأمر مدبّرِ
وكم بطل إن ثار نقعٌ رأيته ... يبيع بأسواق المنايا ويشترى
وما شئت من علم ورأى وحكمة ... ودرس وتحقيق وقول محرر
إلى شمم جم ، ومجد مؤثل ... وفى عزة قعسا ، ووفر موفر
نعم كان فيها من نزار ويعرب ... جموع تخيل الأرض فى يوم محشر
فراحت كأن لم تغن بالأمس وانقضى ... لهم كلُّ رِكْزٍ غير ذكر معطر[٢]

وكأن شكيب لم يكفه هذا التصوير الشعرى ، فعاد فى كتابه « الحلل السندسية » يتحدث عن الموضوع نفسه بالروح العاطفية نفسها فيقول :

---

(١) السيد رشيد رضا ، ص ٥ . والذمام : الحق والحرمة . ولا ألوى به : لا أؤخره
(٢) ديوان الأمير ، ص ١٢٣ و ١٢٤ . والحرث المطبق : العام ، والقرم : السيد . والنقع : الغبار ، والركز : الصوت الخفى .

« نعم ، حواضر كالبحار الزاخرة كانت تموج بالبشر ، وحصون كالجبال الشامخة تحمى بالألوف ، وتكبو فيها جياد الفكر ، وجيوش كانت حصى الدهناء ، ورمال البطحاء ، ومساجد كانت فى الجمع المشهورة تَغَصُّ بألوف الألوف من المصلين . ومدارس كانت مكتظة بالألوف من القراء والطالبين ، وما شئت من إسلام وإيمان ، وحديث وفرقان ، وأذان يملأ الآذان .

وما أردت من نحو ولغة وطب ، وحكمة ومعان وبيان ، بلغة عربية عرباء ، يحرسها علماء كنجوم السماء ، وما أردت من عيش خضل ، وزمن نضر ، وحزازات أنفس ، وضحكات قلوب ، كل هذا عاد كهشيم المحتظر ، كأن لم يَغْنَ بالأمس ، ولم يبق منه إلا آثار صوامت ، وأخبار تتناقلها الكتب ، كأنه لم يعمر الأندلس من هذه الأمة عامر ، ولا سمر فيها سامر »(١) .

إن التشابه هنا قوى بين أبيات الشعر وسطور النثر ، حتى لو قلنا إن شكيب قد نثر هذه الأبيات بتلك السطور لما بعدنا عن الحقيقة ، وليس التشابه فى المعنى فقط ، بل فى بعض الألفاظ أيضاً ، وهذا دليل على أن شكيب كان ينثر أحياناً بعاطفة الشاعر ، كما كان يقول الشعر أحياناً بعقل المفكر(٢) .

ولم يكتف شكيب بما قدمناه من نبضات قلبه ، وخلجات مشاعره ، ونسمات عواطفه ، وهو يتحدث عن ماضى العرب فى الأندلس ، بل عاد ليؤكد لنا سيطرة العاطفة عليه فى مثل هذا المجال فيقول :

« وأما السائح الشرقى فإنه يقضى سياحته فى أسبانية متأملاً غائصاً فى بحار العبر ، هائماً فى أودية الفكر ، كلما عثر على أثر عربى خفق له قلبه ، واهتزت أعصابه ،

---

(١) الحلل السندسية ، ج ١ ص ١١ . والدهناء : موضع لتميم بنجد . وخضل : طرى ناعم يرشف نداه . وحزازات أنفس : خيلو نفوس .

(٢) كما فى رثائه لتيمور حيث سرد أسماء كتبه وأبان أعماله اللغوية ، وكما فى رثائه الرافعى فقد حدثنا فيه نزعة القديم والجديد .

وتأمل فى عظمة قومه الخالين ، وما كانوا عليه من بُعد نظر ، وعلوهم ، وسلامة ذوق ، ورفق يد ، ودقة صنعة ، وكيف سمت بهم هممهم إلى أن يقوموا بتلك الفتوحات فى ما وراء النهر فى بحبوحة النصرانية ، وملتطم أمواج الأمم الأوربية ، وأن يبنوا فيها بناء الخالدين ، ويشيدوا فيها ألوفاً من الحصون ، وأن يملأوها أساساً وغراساً ، كأنهم فيها أبد الآبدين .

فلا يزال قلب السائح المسلم فى الأندلس مقسماً بين الإعجاب بما صنعه آباؤه فيها ، والابتهاج بما يعثر عليه من آثارهم ، وبين الحزن على خروجهم من ذلك الفردوس الذى كانوا ملكوه ، والوجد على ضياع ذلك الإرث الذى عادوا فتركوه ، وأكثر ما يغلب عليه فى سياحته هناك هو الشعور بالألم ، فهو لا يزال يسير بين تأمل وتألم ، وتفكر وتحسر ، لكنه يريد مع ذلك أن يقتفى هذه الآثار ، وأن يمشى فى مساكن أولئك الآباء ، وأن يخاطب الأحجار ، وذلك لأنه لهوى النفوس سرائر لا تعلم ، من جملتها أنها تنزع إلى البكاء عند دواعى الوجد ، كما ترتاح إلى الطرب عند بواعث السرور ، وأنها قد تهتف بالأمرين معاً ، وتجمع الضدين شَرَعاً[1] ، وأن كل ما هو حنين وتذكار ، وولوع بعد الأعيان بالآثار ، هو من سرائر النفس البشرية ، ومما هو غالب على النفس الناطقة »[2] .

* * *

ومما يدل على استجابة شكيب للنوازع العاطفية فى أعماله الأدبية أنه يحدثنا فى مقدمته لكتاب « محاسن المساعى فى تاريخ الإمام الأوزاعى » أنه نشره لعدة أسباب ، منها : أن الأوزاعى إمام أهل الشام ، وشكيب شامىّ ، والأوزاعى مفخرة مسلمى لبنان بنوع خاص ، وشكيب لبنانى ، وعائلته الأرسلانية لها محبة خاصة لهذا الإمام[3] .

(١) يقال : الناس فى هذا الأمر شرع : أى سواء .

(٢) الحلل السندسية ، ج ١ ص ٣٠٢ .

(٣) محاسن المساعى ، ص ١٨ .

ولقد قام شكيب برحلات كثيرة ، وكتب عنها أكثر من كتاب . مثل الارتسامات اللطاف ، وتاريخ غزوات العرب ، والحلل السندسية ، ورحلة ألمانية ورحلة روسية ، ورحلة البوسنة ... إلخ . والكتابة عن الرحلات تناسبها المعاني العاطفية ، ويبدو فيها الانفعال الذاتى ، ولذلك نجد هذه الرحلات مليئة بخوض شكيب وذكرياته .

ولا ننسى أن شكيب تغلب عليه أحياناً الروح الصحفية التي لا تحرص على عمق المعنى أو دقة التحليل ، فقد بدأ شكيب يتصل بالصحف وهو في السادسة عشرة من عمره ، حيث نشر أول مقال له فى مجلة « الصفاء » ، وراسل جريدة الأهرام وهو فى سن الحادية والعشرين ، وكتب فى المؤيد وهو فى نحو هذه السن . وكتب مقالات نعجز عن حصرها فى جرائد ومجلات كثيرة ، كالمقتطف والمؤيد والشورى والشباب والزهراء والمقتبس والجهاد والمقطم .

بل إنه نشر كثيراً من كتبه مقالات فى الصحف أو المجلات أول الأمر . ثم عاد فجمعها فى كتب ، مثل كتابه عن شوقى الذى نشر أكثره أولاً فى «الجهاد» وكتابه « لماذا تأخر المسلمون » الذى نشره أولاً فى « المنار » ، وكتاب « الارتسامات اللطاف » الذى نشره أولاً فى « الشورى » ، وهكذا .

وينبغى أن نتذكر هنا مجلته العربية الروح الفرنسية العبارة ، وهى مجلة « الأمة العربية » التى تتجلى فيها عاطفته الإسلامية ، وقوميته العربية ، وغيرته على قضايا بلاده وقومه ، وشدة حملاته على الاحتلال والاستعمار ، وانفعاله الظاهر وهو يدافع عن العروبة والإسلام : « ومقالاته فى أكثرها عنيفة سافرة مندفعة ، تتساءل غالباً عن الاستعمار فى القرن العشرين حين يتشدق الغرب بالرقى والحضارة الإنسانية ، وهى تسأل الدوتشى : هل تلتقى تعاليم الفاشيست مع الإنجيل فى شىء ؟ وهل تقف مؤامرات الغرب ضد آسية وأفريقية ، فتكف عن القتال والتعذيب فى سورية

وغيرها من البلاد العربية والإسلامية ، وهى تتساءل كذلك عن فرنسة العلمانية وأعمالها التبشيرية فى الجزائر وغيرها من أقطار العرب .

وكانت مجلة « الأمة العربية » كغيرها من الصحف العربية الحرة شبيهة «بالعروة الوثقى » لجمال الدين الأفغانى ، وصحف « الفتح » و « الجهاد » و « الشورى » و « المؤيد » . وكانت منبراً من منابر الأحرار تهدد الاستعمار ، وتفضح التبشير ، وتثير قضايا الحق والعدالة ، فكأن صفحاتها المحسين مجلدات تحوى ملفات الدفاع عن العرب ، وتشع نوراً هادياً للخير والمساواة ، بل كأنها نار تحرق أباطيل المستعمرين وحججهم ، بلغتهم وأسلوبهم وبيانهم ، فلم يكن بيان شكيب ايقل عن بيانهم ، ولم تكن ثقافته لتقل عن ثقافتهم فى الفرنسية ، « ومن علم لغة قوم أمن مكرهم[1] » .

هذا وحين نستعرض كتب شكيب و ثاره تبدو لنا خلال الاستعراض معان أخرى عن المعانى التى طرقها شكيب فى كتاباته .

---

(١) الأمير شكيب أرسلان ، ص ٢٠٤ .

لقب « أمير البيان »

شكيب أرسلان أمير من جهة نسبه ، لأنه من أسرة أرسلان ، وهم من أمراء لبنان ، ولكن شكيب لم يقتصر على هذه الإمارة النسبية أو الاجتماعية ، بل كسب إمارة أخرى أوسع شهرة من سابقتها ، وهي إمارة البيان ، فقد اشتهر لقب « أمير البيان » على شكيب أكثر من أي لقب آخر ، على الرغم من كثرة النعوت والألقاب والصفات العالية الضخمة التي أطلقها عليه الأدباء ورجال الصحف والمجلات ودور النشر ، ولذلك يقول على الغاياتي في ذكرياته تحت عنوان « أمير البيان » :

« لعل القارىء العربي قد فهم من أول وهلة من هو المقصود بهذا اللقب الذى أطلقوه إطلاقاً في الشرق على المغفور له الأمير شكيب أرسلان . نعم هو بعينه الأمير شكيب الذى ملأ ذكره العالم الإسلامى ، وملأت كتاباته الصحف العربية في المشرق والمغرب[1] » .

ولكن من الذى أطلق عليه هذا اللقب لأول مرة ؟ .

إن الغاياتي قد قال كما رأينا : « اللقب الذى أطلقوه » فمن الذين أطلقوه ؟ . لم يذكرهم .

ولما رثى الغاياتي شكيب قال عنه : « وعُرف ببلاغة الأسلوب وإشراق الديباجة ، حتى سُمّيَ بحقٍ أمير البيان[2] » فجاء بالفعل المبنى للمجهول ، ولم يعين لنا الذى سماه بأمير البيان .

---

(١) جريدة منبر الشرق ، عدد ٢٣ يناير ١٩٥٣ .
(٢) ذكرى الأمير ، ص ١١ .

ولما رثته مجلة « الشبان المسلمين » قالت : « وقد استحق الأمير عن جدارة واستحقاق لقب أمير البيان » ، ولكنها لم تذكر من أعطاه هذا الحق بالتحديد .

وقال الدكتور سامى الدهان عن شكيب : « وأطلق عليه الأدباء : (أمير البيان)[1] . ولكن من أول أديب أطلق عليه هذا اللقب ؟ أو من أولئك الأدباء الذين أطلقوه ؟ » .

وفى عام ١٩٥٦ سألت الحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين وصديق شكيب ، فقلت : متى أطلق على شكيب لقب « أمير البيان » ؟ ومن أول من أطلقه عليه ؟ .

فأجاب : لا أدرى ! .

فلنحاول البحث لعلنا نقترب من الحقيقة إن لم نبلغها :

لاحظت فى رسائل السيد رشيد رضا إلى شكيب أن أول رسالة منه تذكر لقب « أمير البيان » كانت بتاريخ ٨ ذى القعدة ١٣٤٢هـ — سنة ١٩٢٤ م حيث يقول له فى أولها : « سيدى الأخ الكريم والولى الحميم أمير البيان حياه الله تعالى[2] » .

وقد سبقت هذه الرسالةَ رسائلُ ليس فيها ذكر هذا اللقب ، وجاءت بعدها رسائل ليس فيها هذا اللقب أيضا ، وتمر قرابة خمس سنوات تتوالى فيها رسائل رشيد إلى شكيب — كما نراها فى كتاب السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة — فلا نجد فيها هذا اللقب ، حتى نصل رسالة تاريخها ٢٢ من ذى الحجة ١٣٤٧ هـ — ٣١ مايو ١٩٢٨ ، وإذا رشيد يقول فى صدرها :

« إلى أخى فى الله عز وجل أمير البيان ، ومدره بنى معد وعدنان ، وسائر بني قحطان ، الأمير شكيب أرسلان[3] » .

(١) حياة الأمير شكيب أرسلان ، ص ٨٦ .
(٢) كتاب السيد رشيد رضا ، ص ٣٣١ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٥٣١ .

وبعدها رسالة بتاريخ ٣ المحرم ١٣٤٨ — ١٩٢٩ م أولها : « صديق وأخي أمير البيان حفظه الله تعالى »[1] .

ثم تعود الرسائل بعد هذه الرسالة إلى طَيّ هذا اللقب فترة من الزمن .

نستنتج من هذا أن اللقب لم يذع ، ولم يتعوده رشيد مع شكيب ، ولم يستعمله غيره ، بدليل أن الأمير بدأ كتابته فى جريدة الشورى فى ٧ يناير سنة ١٩٢٥ ، حيث كتب افتتاحية العدد الثانى عشر من السنة الأولى ، وتحت عنوانها جاءت هذه العبارة : « لحضرة صاحب السعادة الكاتب العربى الكبير الأمير شكيب أرسلان » .

وفى عدد ١٩ فبراير ١٩٢٥ من الشورى ذكرت الجريدة رسالة لشكيب عبرت عنها بقولها : « سعادة الأمير شكيب أرسلان » .

وفى عدد ١٦ إبريل ١٩٢٥ كتب شكيب الافتتاحية بعنوان « دارين أيضاً » ، وتحت العنوان جاءت هذه العبارة : « كلمة أمير البيان شكيب أرسلان » .

فيكون رشيد قد سبق الشورى فى استعمال اللقب بنحو عام . ولقد جاء ذكر شكيب فى أعداد تالية للعدد السابق ، ولم يُذكر اللقب ، ولكن فى عدد ١٦ يوليه ١٩٢٥ جاء ذكر شكيب فى مقالة لأحمد زكى باشا موصوفاً باللقب ، وفى العدد نفسه مقال لشكيب تحت عنوانه هذه العبارة : « لسعادة كاتب الشرق الأستاذ العلامة الأمير شكيب أرسلان » .

وفى عدد ٣٠ يوليه ١٩٢٥ وصفت المجلة شكيب بأنه « أمير كتاب العرب اليوم فى التاريخ والسياسة والأدب » .

وفى عدد ٢٠ أغسطس ١٩٢٥ مقال لشكيب تحت عنوانه لقب « أمير البيان » .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٣٢ .

ولقد كتب المرحوم أحمد زكى باشا مقالاً فى عدد ١٤ مايو ١٩٢٦ من الشورى بعنوان : « لقد عاد عراب بغداد » وفيه يخاطب صاحب الشورى بقوله :

« يا أبا الحسن : أترضى ياحبيبي أن تكون سفيرى ، لدى أميرك وأميرى ، الذى أقام له أهل الأدب والبيان عرشاً لا تدانيه عروش ذوى التاج والصولجان ، وما ذلك إلا لأنه أصبح نصير العربية وخادم الإسلام ؟ » .

وفى عددى ٢ و ٩ يناير ١٩٢٩ وصفت « الشورى » الأمير بقولها : « عطوفة ملك البيان الأمير الجليل شكيب أرسلان » فجمعت له بين الإمارة والملك فى دولة البيان ، وإن كان لقب الإمارة البيانية لم يصبح بعد ملتزماً كما التزمه الناس فيما بعد — فى أغلب الأحيان — عند التعبير عن شكيب .

والعجيب أن رشيد يقول عن شكيب فى تقديمه لكتاب « الارتسامات اللطاف » :

« أذن الله تعالى لعبده ، المجاهد فى سبيله بماله ونفسه ، ولسانه وقلمه ، وعلمه وعمله ، الأمير شكيب أرسلان ، الذى يحقّ لقبته أمته بأمير البيان ، أن يستجيب لأذان إبراهيم خليل الرحمن »[1] .

فرشيد ينسب التلقيب باللقب إلى الأمة ، مع أننا رأينا أنه كان أسبق من غيره إلى إطلاق هذا اللقب على شكيب ، أفيكون رشيد أراد التواضع فلم ينسب الأمر إلى نفسه ، أم أراد أن يعطى اللقب مكانةً عالية حين ينسب إطلاقه إلى الأمة لا إلى فرد ، أم سبقه غيره بإطلاقه ولم يعرفه ؟ .

مازال الأمر يحتاج إلى تتبع لمعرفة الحقيقة ! .

وقد لفت نظرى مقال نقدى كتبه الأب توتل اليسوعى فى مجلة « المشرق » نقد به كتاب « حاضر العالم الإسلامى » وفيه تعرّض للقب « أمير البيان » فقال :

---

(١) الارتسامات اللطاف ، المقدمة ، ص ٦ .

« إننا لنسر أن يستحق أديب من أدبائنا اللبنانيين ، وتلميذ مدرسة الحكمة المارونية البيروتية سابقا (راجع ٢ : ٣٤٢) [1] لقب أمير البيان ، لكننا لا نجرؤ على مسابقة الأيام واستعجالها فى مبايعة الملوك والأمراء ، لأن عالم الأدب والبيان والشعر والنثر أوسع أفقاً فى الزمان والمكان من أن نحتكر ناحية من نواحيه لابن من أبناء زماننا ، فحسبنا أن نترك لمن يأتى بعدنا القول المحكم فى تقدير القيم الأدبية على الإطلاق » [2] .

أثارتنى هذه الكلمة نوعاً ما ، لأنى أحسست فيها روح التهوين من شأن شكيب الذى كان فى سنة ١٩٣٤ علماً من الأعلام ، إن لم نقل فى طليعة الأعلام من ناحية ذيوع الصيت الأدبى والشهرة البيانية ، فيكتفى الكاتب بوصف شكيب بأنه « أديب من الأدباء اللبنانيين » ، ويحرص على أن يشير إلى فضل « مدرسة الحكمة المارونية البيروتية » على شكيب ، كأن تلمذته فى هذه المدرسة هى وحدها التى كانت صاحب الأثر الأكبر فى تكوينه البيانى .

ثم مَن قال إننا حين نقول عن « شكيب » إنه « أمير البيان » نقصد تعميم ذلك على مرّ الزمن ؟ .

إن الذى يقول « شكيب أمير البيان » لا يقصد أبداً أنه أمير البيان فى كل زمان ومكان ، وإنما يقصد ذلك بالنسبة لعصره ووطنه العربى .

ولقد وُصفت مريم بأنها « سيدة نساء العالمين » ، ووُصفت فاطمة الزهراء بأنها « سيدة نساء العالمين » . وقال العلماء : إن التوفيق بين القولين يكون بأن مريم سيدة نساء العالمين بالنسبة لزمانها ، وأن فاطمة سيدة نساء العالمين بالنسبة لزمانها . وليست هناك مبايعة لملوك أو أمراء كالمبايعة فى دنيا السياسة والحكم سواء

---

(١) يقصد مراجعة مجلة المشرق .

(٢) مجلة المشرق ، بيروت ، المجلد ٣٢ ، سنة ١٩٣٤ ص ١٤٥ .

بسواء ، ولكن الذى هنا نوع من التقدير الأدبى لرجل عاش حتى مقال الأب خمسة وستين عاماً قضى أكثرها فى الدفاع عن العروبة والعرب ، وعن الإسلام والمسلمين ، وما أوثق الروابط والعلاقات بين العروبة والإسلام ، فالعروبة وعاء الإسلام ، والإسلام روح العروبة .

ويطالب الأب بترك الحكم لمن يأتى بعدنا ، ولا شك أن الأحكام الأدبية تكون أقرب إلى الصدق والدقة والتجرد إذا كانت على راحلين انقطعت صلاتهم المادية بالحياة والأحياء ، ولكن الذين يأتون بعدنا بشر مثلنا ، وقد يستطيع منصف أن يصدر حكمه الأدبى على مفكر حى ، فليس ذلك مستحيلا ، وإن كان بلوغه صعب المنال .

مهما يكن من أمر فما أظن أن كلمة الأب قد بلغت مأمولها ، فقد أخذ لقب « أمير البيان » يشيع ويذيع ، وإذا جاء ذكره — كما يقول الغاياتى — عرف الناس المقصود به قبل النص على اسمه .

وإن كنا نلاحظ فى الوقت نفسه أن بعض المجلات لم تكن تلتزم اللقب ، ففي عدد ١٩ أغسطس ١٩٣٥ من مجلة « الرسالة » كتابة لشكيب لم تذكر المجلة اللقب معها ، كما كتبت المجلة عنه قبيل ذلك وبعيد ذلك ، ولم تذكره ، وإن يكن محمد كرد على قد وصف شكيب فى العدد المشار إليه آنفاً بأنه « شيخ كتّاب العرب » .

وقد يتوهم متوهم أن إطلاق لقب « أمير البيان » على شكيب كان لوناً من المتابعة لإطلاق لقب « أمير الشعراء » على أحمد شوقى ، ولكن إذا تذكرنا أن مبايعة شوقي بهذا اللقب كانت سنة ١٩٢٧ ، وأن لقب « أمير البيان » كان يطلق على شكيب — كما رأينا — فى سنة ١٩٢٤ ، لم يبق لهذا التوهم مجال .

ولقد كتب رشيد سليم الخورى سنة ١٩٣٧ يقول : « لم يتح لى أن أقرأ شيئاً من مؤلفات الأمير الكثيرة ، ولكننى كنت أطالع ما يبدعه قلمه الفياض .

وتتناشره الصحف من الرسائل الوطنية والتاريخية ، وفيها من شواهد التفوق في الإنشاء ما يؤيد كل التأييد رأي كبار أدباء المعاصرين فيه ، وجدارته التامة بلقب أمير البيان ، ورأيي الخاص أن الأمير شكيباً هو أحد ملوك الترسل في لغة العرب في كل العصور »[١] .

وفي ربيع سنة ١٩٣٩ قال أمين الغريب من خطبة له في تكريم شكيب بالقاهرة : « منذ خمسين عاماً زار الأمير شكيب وادي النيل ، وأخذ ينشر في جرائده مقالات بارزة نقشت له في الأذهان أساساً للقب الذي لزمه في كل مكان ، وهو « أمير البيان[٢] » .

* * *

وهناك ألقاب أخرى كانت جريدة الشورى تفتنّ في نعت شكيب بها مثل « كاتب الشرق الأكبر » و « أديب الشرق الأكبر »[٣] ، و « أمير كتّاب العرب » و « أديب العصر »[٤] و « أمير أدباء العصر »[٥] و « شيخ الأدب » ، و « أمير كتّاب العصر »[٦] و « أمير الكتّاب وأديب العرب »[٧] » . و « كبير الأدباء » و « عميد البيان »[٨] و « الكاتب العربي الأكبر » و « أمير الأدباء والكتّاب » و « أديب العرب الأكبر »[٩] و « نابغة الزمان »[١٠]

---

(١) مجلة الشباب ، عدد ٨ سبتمبر ١٩٣٧ نقلا عن مجلة « العصبة » بالبرازيل .
(٢) المرجع السابق ، عدد ١٠ مارس ١٩٣٩ .
(٣) انظر الشورى ، عددي ٧ و ١٤ يناير ١٩٢٦ .
(٤) المرجع السابق ، عدد ١١ و ٢٥ فبراير ١٩٢٦ .
(٥) المرجع السابق ، عدد ٢٥ مارس ١٩٢٦ .
(٦) المرجع السابق ، عدد ٣٠ إبريل ١٩٢٦ .
(٧) المرجع السابق ، عدد ٢١ مايو ١٩٢٦ .
(٨) المرجع السابق ، عددي ٤ و ١٨ يونيه ١٩٢٦ .
(٩) المرجع السابق ، أعداد ١٦ و ٢٣ و ٣٠ يوليه ١٩٢٦ .
(١٠) المرجع السابق ، عدد ١٦ سبتمبر ١٩٢٦ .

و « سيد الكتّاب » و « عطوفة العالم الاجتماعى الكبير »[١] و « ملك البيان »[٢].

والرافعى يطلق على شكيب لقب « حجة الأدب وسيد كتّاب العصر »[٣]،

ولا ننسى أن شكيب أطلق على الرافعى لقب « إمام الأدب وحجة العرب »،

وكان الرافعى يفخر كثيراً حينما تنشر صورته ومعها هذا اللقب[٤].

وسامى الخورى ينعت شكيب بنعت « بطل العروبة »[٥].

ومن الألقاب التى أطلقت على شكيب أيضاً لقب « حجة الإسلام »[٦].

ولقب « فارس اليراعة »[٧].

---

(١) المرجع السابق ، عددى ١١ و ٢٥ نوفمبر ١٩٢٦ .

(٢) المرجع السابق ، عدد ١١ أغسطس ١٩٢٧ .

(٣) تحت راية القرآن ، ص ٣١ .

(٤) المرجع السابق ، وحياة الرافعى ، ص ٢٧٧ .

(٥) ذكرى الأمير ، ص ٢٩ ، وفى الكتاب ألقاب أخرى . مثل « المجاهد الأكبر ، شيخ الأدباء ، إمام المجاهدين ، المجاهد العربى ، العالم الفيلسوف ، الكاتب المفكر ، المؤلف العظيم » انظر ص ٧ و ٩ و ١٠ .

(٦) الأمير شكيب أرسلان ، حياته وشعره ، ص ٦٣ .

(٧) المنار ، المجلد الأول ، العدد ٣٨ ، ص ٧٥٩ .

الباب الرابع

شكيب الشاعر

- شكيب الشاعر
- معلم وأستاذ
- فى البا كورة
- البا كورة بين طبعتين
- ديوان الأمير
- المحسنات البديعية
- التقليد للسابقين والمعاصرين
- الجملة القرآنية فى شعره
- محاولة صنع الملحمة
- مدائح للسلطان والدولة
- التكسب الأدبى بالشعر
- الرثاء
- المواعظ
- الهجاء
- الصورة الشعرية
- طريقته فى نظم الشعر

شكيب الشاعر

بدأ « شكيب » قول الشعر وهو فى الرابعة عشرة من عمره كما حدثنا أكثر من مرة، ومن العسير تعليل الموهبة الأدبية : أهى وراثة ، أم وليدة البيئة الشعرية الخلابة ، أم نتيجة الدواعى والبواعث التى تثير الشعور وتهز الوجدان ، أم حصيلة القراءة المتواصلة لعيون الأدب وأعماله العالية ، أم أثر المعلم الماهر الذى يحسن تفتيق الملكات وتوجيهها وصقلها .

ومهما كان السبب فإن الذى يسترعى النـــظر فيما يتعلق بشكيب الشاعر جملةُ أمور :

أولا : أن والد شكيب قد قال بعض الشعر ، وأن أَخَوَىْ شكيب : نسيب وعادل نظما الشعر ، ومعنى ذلك أن موهبة الشعر موجودة فى أسرة شكيب .

ثانيا : أن شكيب حفظ منذ بواكير عمره كثيرا من عيون الأدب العربى القديم شعره ونثره ، وطالع فيه أضعاف ما حفظ .

ثالثا : أن عبد الله البستانى — أستاذ شكيب الأول — كان مشهورا بحبه الأدب القديم ، وتوجيه طلابه إلى قراءته واحتذائه .

رابعا : أن الفترة التى نشأ فيها شكيب كانت بداية النهضة الأدبية الحديثة ، حيث ظهر شعراء ولعوا بالشعر القديم ومحاكاته ، ونشرت دواوين شعرية ، وكان الشعراء فى لبنان والعراق ومصر يتراسلون ، وكانت الصحف تبرز أخبار الشعراء ومساجلاتهم .

خامسا : أن البلدة التى ولد فيها شكيب ونشأ — وهى الشويفات — من أجمل البلدان فى لبنان ، حسن منظر وجودة مناخ .

ونستخلص مما تقدم أن جملة عوامل توافرت على إنماء البذرة الشعرية الطيبة التي خلقت في شكيب، ولا عجب بعد هذا أن تفتحت البذرة، ونمت بسرعة وأثمرت في سن مبكرة.

•••

ويمكن أن نقسم شعر شكيب إلى قسمين: الأول شعره في أواخر القرن التاسع عشر، حين دب دبيب الوعي القومي، وتكونت براعم الأدب في بلاد العرب، ويتمثل هذا القسم في ديوانه الأول " باكورة "، والقسم الآخر هو شعره في الثلث الأول من القرن العشرين، حيث اشتد الوعي، وتوالت الأحداث تشحذ الهمم وتؤجج الشعور، وتفتحت البراعم عن أحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، وإسماعيل صبري، وخليل مطران، ومن هم في مرتبتهم أو دونهم من شعراء العراق والشام ومصر.

وقد يكون من حق شكيب علينا ونحن نتحدث عن شعره أن نقيسه بمقياس ذلك العصر الذى عاش فيه وقال فيه الشعر ، ولو بالنسبة للنصف الأول من حياته ثم لنا أن نقيسه فيما بعد ذلك بما جد للشعر من مستوى ، وبمن ظهر من أقرانه الشعراء .

ولو أجملنا القول فى الحكم على شعر شكيب فى مرحلته الأولى لقلنا إنه شعر له جزالته وطلاوته ، وإن لم يكن عبقريا ، وهو شعر يظهر فيه التقليد لفحول الشعراء العرب بوضوح وجلاء .

ولهذا الإجمال تفصيل، فقد بدأ شكيب يقول الشعر ونشرت له جرائد بيروت بعضه ، وهو ما زال تلميذا فى المدرسة لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره ،وكان الناس يترددون فى تصديق أن هذا الشعر العربى الموزون ، الفصيح الألفاظ ، المتين التراكيب، الجزل العبارة ، لهذا الفتى الناشىء، وما زالت الشبهة تعترض حتى كثيرٍ من شكيب

وتواترت الأدلة ، فزالت الريبة[1] ، وفى غمرة الإعجاب البادى بمن يسمون النظم ، ويطالعونه ، وبعد ثلاث سنوات فقط من بدئه النظم ، نشر ديوانه «باكورة» شعره أو سنة ١٨٨٧م .

وقد استخرج شكيب لنفسه وهو فى الرابعة عشرة صورة فكتب تحتها :

وبفسك فابدأ بتصــويرها   بما أنت من خالد فاعـــل
وإلا مضى الجسم مع رسمــه   ولا يُخلد الزائلَ الزائل ![2]

ونقرأ البيتين فنجدهما موزونين ، وفى معناهما دقة وفلسفة ، وإن تكن الصياغة قد اعتورها تحور ألجأت إليه ضرورة النظم والوزن ، فتأخر ما حقُّه التقديم ، وتقدم ما ينبغى أن يتأخر ، فلو رتبنا كلمات البيت الأول على أصلها لكانت هكذا : «وابدأ بتصوير نفسك ، بما أنت فاعل من خالد» . ولكن شكيب يقول هنا شعراً لا يقول نثرا ، وهو لم يتمرس بعد بصياغة الشعر وتذليل العقبات الملجئة إلى الضرورات أو شبهها فيه .

وكان هناك كما ذكرنا أكثر من سبب دفع بشكيب إلى الشعر وإلى المضى فيه ، فهناك الموهبة الفطرية الصالحة للتفجير ، وهناك النهضة الشعرية التى بدت بواكيرها بعد انتصاف القرن التاسع عشر ، وأصبح للشاعر مكانة ملحوظة ، ومنزلة مرموقة ، وفى الفتى شكيب تطلع وطموح ، وهناك ما قد يتصل بهذا ، وهو الجمع بين إمارة النسب والظهور فى عالم الأدب ، وشهرة الشاعر أسرع من شهرة الناثر .

وهناك أستاذه فى مدرسة الحكمة عبد الله البستانى الذى كان يحب العربية حباً جماً ، ويعنَى بها عناية كبيرة ، ويتتبع مفرداتها ، ويقول الشعر مقلداً فيه شعراء الجاهلية ، محاولا الاحتفاظ ببضاعتهم مبنى ومعنى ، ولفظاً وخيالا .

---

(١) كتاب «شوقى» ، ص ١٤٧ .
(٢) باكورة ، ص ٩٢ .

ولا ريب أن شكيب كان يستمع إلى شعر البستانى وشرحه وتعليقاته وقراءاته لأشعار القدماء ، فكان الأستاذ يبدو فى نظر تلميذه عملاقاً تحيط به هالة من الجلال والهيبة ، وكأنه المثل الأعلى لهذا الفتى الطموح .

وهناك الفرص التى كانت تتاح لشكيب كى ينشد ما يقول فى مدرسته . على مسمع من أساتذته وزملائه وزوار المدرسة المختلفين إليها من قريب أو من بعيد ، ويقول مارون عبود وهو يتحدث عن زميله شكيب : « ولا بأس علىَّ إذا ما أعادنى تداعى الأفكار نصفَ قرن إلى الوراء ، وعُدْنا معاً إلى المعهد الذى نشأ بين جدرانه الأمير شكيب أرسلان ، فنى ضحى النهضة كنا فى مدرسة الحكمة . وكان لا يعنينا غير الشعر وقائليه ، كنا ننظمه بلا ملل . ونتبارى فيه بلا وجل . وكان شكيب أرسلان قدوتنا ، كأن نجمه قد لمع [١] » .

وهذا هو الشيخ محمد عبده يزور المدرسة ، ويسمع التلميذ شكيب يلقى بعض شعره ، فيصافحه ويقول له : « ستكون من أحسن الشعراء » ، وهناك تشجيع والده له على الاستمرار فى قول الشعر ، وذلك بجوار تشجيع أساتذته له ، وهناك اتساع صدر الصحف فى بيروت لنشر ما ينظم [٢] .

وهناك ما يقتضيه تحدر المواريث العربية وتسلسلها فى نفوس أفراد هذه الأسرة الأرسلانية العربية العريقة ، من حرص على العربية ، وتفاخر بالسبق إلى بيانها ، واعتزاز بنظم الشعر بها ، ولذلك كان شكيب شاعراً ، وكان أخواه نسيب وعادل شاعرين ، فلنسيب ديوان « روض الشقيق » الذى نشره شكيب سنة ١٩٣٥ م ، ولعادل « شعر غير مجموع ، لا يقل شأناً عن أخيه فيه [٣] » .

---

(١) رواد النهضة الحديثة ، ص ١١٠ .

(٢) محاضرات عن الأمير شكيب ، ص ٣٢ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١١ .

ولما كان شعر عادل غير مجموع ولا مطبوع ، فقد يحسن أن نسمع معه شيئاً ، فله من قصيدة بعنوان « من وادي السرحان إلى وادي النيل » هذه الأبيات القوية :

أرقتُ وما في النوم خير لوسنان ... إذا لم ينم شرُّ المغير بأوطان
وغالبني شوق يساور مهجة ... تقلّبُ منه في الدُّجى فوق نيران
صبرت فما أذللت دمعا ، ولو جرى ... مسحت بأطراف التجلد أجفاني
بعيد على ، نبك القريات ، منزلي ... فما لي سوى الذكرى إذا الليل أضواني
وما ضرني أن طال ، وهو وصبحه ... إذا لم تضيء شمس المنى فيه سيان
نظرت إلى الآتي فأوقفت دونه ... وعدت إلى الماضي بفكري فعزاني[1]

وله قصيدة في رثاء أخيه نسيب منشورة في ديوان « روض الشقيق » .

وهناك تحريض أخيه نسيب له على قول الشعر ، إذ كان أكبر مشجع له في هذا المضمار[2] ، ولا ننسى هنا تلك المنافسة بين الأخوين في مجال المدرسة والكتابة والشعر ، وشكيب يتحدث عن بعض ذلك في تقديمه لديوان شقيقه ، حيث يقول عن حالهما في مدرسة الحكمة :

« وكنا في صف واحد ، فلما ألقيت إلينا مواضيع المسابقة لأجل الجوائز كان هو أول الصف في الشعر ، وكنت أنا الثاني ، وكنت أنا الأول في الإنشاء ، وكان هو الثاني »[3] .

وبينما نرى التلاميذ في هذه المرحلة من التعليم يتعثرون في عباراتهم الإنشائية ، ويعسر عليهم أن يكتبوا موضوعا خالياً من كثير الأخطاء النحوية والإملائية

---

(١) جريدة الشورى ، عدد أول فبراير ١٩٢٩ . وأضواني : أضعفني وأهزلني .
(٢) مجلة الأديب ، عدد كانون الثاني ١٩٤٧ .
(٣) روض الشقيق ، ص ١٩ .

واللغوية ، كان شكيب ينظم الشعر ، ويأخذ مدده له بإدمان المطالعة فى كتب اللغة والأدب والشعر ، والعكوف على دواوين العباسيين ، يردد فيها النظر ، ويحفظ منها ما يطيق ، ويكتب نثراً بجوار شعره فيجيد فيه ويجيد .

وإذا كان شكيب قد أخبرنا بأن نتيجة التنافس بينه وبين أخيه أبانت أنه الأول فى الإنشاء (أى النثر) والثانى فى الشعر ، فكأنما كانت هذه إشارة رمزية من عالم الغيب تشير إلى ما سيكون لشكيب فى غده من انتهائه إلى مقام المجلِّى فى النثر ، والمصلِّى فى الشعر .

معـــلم وأستاذ

يخيل على ظنى أن الشيخ عبد الله البستانى قام بمهمة المعلم للشعر مع شكيب ، وأن البارودى قام بمهمة الأستاذ معه ، فالأول علّم وقوّم وهدى السبيل ، والآخر خرج ودفع بالشاعر الشاب إلى أعلى .

كان البستانى معلماً لشكيب فى الشعر ، لأنه كان معلماً له فى دروسه العربية بمدرسة الحكمة ، ونحن ندرك مدى التأثير البالغ الذى يكون من المعلم القوى الشخصية فى التلميذ المعجب بعلمه والمقتدى به ، ولا ريب فى أن البستانى اللغوى الغيور على العربية ، النافخ روحها فى صدور تلاميذه ، قد سدد خطاهم فى محاولاتهم الأولى الأدبية ، ولاشك أنه خص ابنى حمود أرسلان (شكيب ونسيب) بفضل من عنايته ، لأنهما قالا النثر والشعر معاً[1] ، فهو يعجب بهما ويستزيدهما ، ويحذرهما معاطب الطريق فى الشعر مما يتعلق بالوزن ، والقافية ، والصياغة ... إلخ .

ولقد كان البستانى بارعاً كل البراعة فى تقليده للقدماء من الشعراء فى عصر الجاهلية ، وحسبنا أن نعلم أنه قام بتشطير معلقة عنترة ، فلا يكاد غير البصير بالشعر يدرك الفرق بين عبارة عنترة وعبارة البستانى ، ولنستعرض جزءاً من هذا التشطير لنبين ذلك . قال البستانى :

(هل غادر الشعراء من متردم) فقد ثلمته برأس المرقم
أم هل وددت ظباء منعرج اللوى (أم هل عرفت الدار بعد توهم)
(حيث من طلل تقادم عهده) حتى التوت عنه نهى المترسم
يكى به عــذق الرباب لأنه (أقوى وأقفر بعد أم الهيثم)[2] ...

---

(١) روض الشقيق ، ص ١٨ و ١٩ .

(٢) رواد النهضة الحديثة ، ص ١٨٠ . والمتردم : المحل الذى يرقع ويصلح . والمرقم : القلم . وطلل : ما بقى من آثار الدار . والنهى : جمع نهية وهى العقل . والمترسم . الناظر المتطلع . عذق الرباب : السحاب الأبيض الكثير . أقوى وأقفر : خلا . أم الهيثم : كنية عبلة حبيبة عنترة .

إننا لو أزلنا الأقواس الموضوعة على أبيات عنترة لصعب على الكثير التمييز بين كلام عنترة وكلام البستاني !.

وإنما نريد من النص على هذا الإشارة إلى أن هذه النزعة من البستاني إلى شعر الفحول من القدماء ستكون دافعاً قوياً لشكيب إلى تقليد القدماء في مفرداتهم وعباراتهم، والكثير من أخيلتهم ومعانيهم.

* * *

وأخذ شكيب التلميذ يقول الشعر، فيطول فيه نَفَسُه، حتى تتجاوز بعض قصائده مئةَ بيت، بلا خلل في الوزن، ولا عيب في القافية، ولنتصوره وهو يضع في نهاية كل بيت قافيةً هي كلمة متماثلة في الحرف الأخير منها مع ما يزيد على مئة كلمة، لندرك مبلغ الزاد اللغوي الذي حصل عليه شكيب وهو ما زال تلميذاً في المدرسة.

وهو محمود الجهد مهما بدا في شعره من تقليد أو متابعة، فإنه لناشىء، وإن الجو الشعري من حوله ليوحي بالإيغال في هذا التقليد وتلك المتابعة.

ويمضي شكيب على طريقته ثلاث سنوات، يكون حصادُها مجموعةَ شعره التي حملها إلى الناس مطبوعةً تحت عنوان «باكورة».

فلنستمع إليه يقول وهو تلميذ في المدرسة:

فديتُك ربعاً قد ترحــل آلُه ... تغزلت من غزلانه بالحقـــائق
عفا، وخلت منه المنازل بعد ما ... لقد كان زيناً للنُّهَى والمناطق
وأقوى وأقوى ماحوت من معاقل ... أناخت عليــه عاديات البوائق
وأجدب بعد الخصب إذ كان زاهراً ... بكل كتاب للفوائد واسـق[1]

(١) الباكورة، ص ٨٦. وعفا: درس وزال. والنهى: العقل، أو هو جمع نهية، وهي العقل أيضا. وأقوى: خلا. والبوائق: جمع بائقة، وهي الداهية. وواسق: جامع.

ويقول فى موطن آخر مواصلاً السير على طريقة القدماء :

ما بين غزلان العقيق وبانه ... حربٌ بها بطــلُ الهوى كجبانه
الموت بين العاشــقين موزّع ... مما جرى للعطف مع أقرانه
والقد يطعن مثله ، لــكن يرى ... مطعونه ماقى بغــير ســنانه
حرب تضرم بالحضيض سعيرُها ... وعجاجها بالجــزع فوق رعانه
عبثت بعشاق العقيق وأدغلت ... فدماؤهم تربى على غـــدرانه (١)

ويقول من رثائه لسليم البستانى المتوفى سنة ١٨٨٥ :

الدهر أفتــك فارس بطراده ... أبداً ، وأكثر فتكه بجيــاده
يحنى فإن قصد الفتى لم ينتفع ... بمضاء صارمه وطول نجــاده
ما إن يصوب نحوه سهم البلا ... إلا وكان السهم فى إقصاده (٢)

وهكذا انتفع شكيب بدروس معلمه البستانى ، واستجاب لتوجيهه ، فاختار ألفاظه ، ونقى لغته ، وحافظ على جزالة عبارته ، ووصل أسبابه بأسـلافه قدامى الشعراء : ما بين جاهليين وعباسيين .

ثم يأتى أثر الأستاذ البارودى :

تطلع الفتى شكيب من حوله فرأى فى دنيا العروبة طائفة من فحول الشعراء ، تهتف الدنيا بأسمائهم ، وتردد ما تتلقى من شعرهم ، وتشير إليهم بالبنان فى كل مقام من مقامات الشعر والبيان ، وفى طليعة هؤلاء محمود سامى البارودى ، الذى يعد محيى موقظ الشعر من غفوته الطويلة خلال الحكم العثمانى ، وممهد الطريق أمام الشعراء الذين تألقوا بعده من أمثال شوقى وحافظ ومطران .

---

(١) الباكورة ، ص ٧١ والرعان : جمع رعن ، وهو الجبل الطويل . وأدغلت : اغتالت .
(٢) الباكورة ، ص ٧٣ . والطراد : الرمح القصير . والاقصاد : الإصابة القاتلة والطعنة التى لا تخطىء .

ولقد هدى الإمام محمد عبده شكيب إلى شعر البارودى ، فطالعه وحفظه وأعجب به وقلده ؛ يقول شكيب :

« فلما قرأنا شعر محمود سامى سكرنا بأدبه ، ورقصنا على قصبه ، وبعث لنا نشأة روحية لم تعهدها فى أنفسنا من قبل أن عرفناه ، وعلمنا أن فى المعاصرين من قدر أن يضارع الأولين ، وأن يسامى بنفسه أنفاسهم .

وكنا من قبل محمود سامى نظن الأولين غاية لا تدرك ، وأنهم إذا قُرن بهم المتأخرون أو المعاصرون كان أولئك هم السماء وهؤلاء هم الأرض ، وبقى فينا هذا الاعتقاد إلى أن ظفرنا بشعر محمود سامى ، وحفظنا جميع قصائده التى فى (الوسيلة الأدبية) ، فلم نكن لشدة إعجابنا بها نخرم منها بيتاً واحداً ، وكان حفظنا لها من أقوى عوامل الشعر فينا » [1] .

وكان شكيب يقول فى نفسه إن محمود سامى « مملكة عربية » ، ويقرر أن الإمام محمد عبده كان يقوِّى فيه هذه العقيدة ، ثم يقول شكيب : « ولذلك كنت أنا أرانى خريجاً فى الشعر لمحمود سامى البارودى ، وإلى هذا أشرت فى أول قصيدة أجبته بها يوم بدأ بمراسلتى من منفاه فى سيلان » [2] .

وشكيب يقصد قوله عن البارودى :

أيعجب من تنويه مثلى بمثـــله ... لعمرى الذى قد شق فى شعره فمى

وما دام البارودى هو الذى فتح فمَ شكيب وأطلقه بالشعر ، فلا عجب إذا سمعنا شكيب يقول بعد ذلك : « إن البارودى هو إمامى فى الشعر » ! .

وكان بيت شكيب السابق رداً على بيت من البارودى خاطب به شكيب وهو :

وأنت الذى نوهت باسمى ، ورشتنى [3] ... بقول سرى عنى قنـــاع التوهم

(١) كتاب « شوقى » ، ص ١٠١ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٠٢ و ١٠٤ .
(٣) رشتنى : قويتنى وأصلحت أمرى .

وإذا كان البارودى قد اعتبر هذا التنويه من شكيب فضلا تقدم به ، وفضيلة اشتمل عليها ، فالواقع أن شكيب عمد إلى هذا التنويه لإرضاء نزعة الطموح فى نفسه ، فقد تطلع فرأى البارودى ملء السمع والبصر ، وشكيب قد تكون له شهرة فى ناديه وبين أهليه ، ولكن شهرة البارودى شرقت وغربت ، وإن يكن قد جارت عليه الأحداث بعد إخفاق الثورة العرابية ، ونفى إلى سرنديب ، فحدث شكيب نفسه بأن ينشد وسيلة ، يتحكك بها بهذا الشاعر الكبير ، حتى يحصل منه على جواب فيكون سعيداً ، ولكنه تهيب المراسلة ، خشية ألا يأتيه الجواب ، فبمَ يحتال ؟ .

أخذ يستشهد بشعر البارودى فى مقالاته التى كان ينشرها فى « الأهرام » بعد سنة ١٨٩٠ م ، وبدأ بالاستشهاد دون أن يذكر اسم البارودى ، فذكر له البيتين التاليين :

يا قلب صبرا إن أضرَّ بك الهوى   فلكل فراق أو تلاق له حدُّ
قد يشعب الإلفان [1] أدناهما الهوى   ويلتئم الضدان أقصاهما الحقد

ولكن البارودى لا يجيب ، ولعله اطلع على استشهاد شكيب هذه المرة ، ولكنه لم يحرك منه ساكنا ، وصبر شكيب . وعاد يستشهد بشعر البارودى ، فذكر له بيتا قاله فى أهل (كريت) الثائرين على الدولة العثمانية ، وهو :

قوم أبى الشيطان إلا خسرهم   فتسللوا من طاعة السلطان [2]

وصرح شكيب هذه المرة باسم البارودى ، وزاد فنعته بلقب « أمير الشعراء » والبارودى فى المنفى ، وقد أعرضت عنه الدنيا بعد طول إقبال ، وانصرف عنه الأصدقاء والخلان ، والتنويهُ المتكرر هنا من أمير شاعر غير ناقص فى أدائه

---

(١) يشعب الإلفان : يحدث لهما ما يفرقهما .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٠٥ .

الشعر ، وهو يمضى على طريقة البارودى من اعتزاز بالقديم ، وعناية بالجزالة ، واحتفال للعبارة ، ولذلك كتب البارودى إلى شكيب مقطوعة شعرية يقول فيها :

أشدتَ بذكرى بادئاً ومعقِّبا ... وأمسكتُ لم أهمس ولم أتكلم
وماذاك ضناً بالوداد على امرئ ... حبانى به ، لكن تهيبت مقدمى
فأما وقد حق الجزاء فلم أكن ... لأنطق إلا بالثناء المنمنم (١)
فكيف أذود الفضل عن مستقره ... وأنكر ضوء الشمس بعد توسم ؟
وأنت الذى نوهت باسمى ورشتنى ... بقول سرى عنى قناع التوهم
لك السبق دونى فى الفضيلة فاشتمل ... بحلتها (٢) فالفضل للمتقدم
ودونكها يا ابن الكرام حبيرةً ... من النظم سداها بمدح العلا فمى

واهتبل شكيب الفرصة ، وسارع فنظم قصيدة طويلة بلغت أربعين بيتا ، تفيض مدحا وتمجيداً للبارودى وشاعريته ، وفى أولها يقول :

لك الله من عان بشكر منمنم ... لتقدير حق من علاك محتم
وشهم أبى النفس أضحى يرى يداً ... تذكرَ فضل أو جميل لمنعم
رأى كرما منى تذكر قوله ... فدل على أعلى خلالا وأكرم
ولو كان يدرى فاضلٌ قدرَ نفسه ... رأى ذكره فضلا على كل مسلم
أيعجب من تنويه مثلى بمثله ... لعمرى الذى قد شق فى شعره فمى

ومضى شكيب يهدر فى قصيدته مادحا وممجدا حتى يقول :

وقد طالما حدثت نفسى وعاقنى ... ترددها مابين : أقدم وأحجم
حلفت بما بين الحطيم وزمزم ... وبالروضة الزهرا أليةَ مقسم
لألفيت عندى دوس مشتجر القنا ... وخوضى فى حوض من الطعن مفعم

---

(١) المنمنم : المزخرف المنقوش .
(٢) فاشتمل بحلتها : أدرها على جسدك كله .

أقل بقلبي في المواقف هيبة ‏ ‏ ‏ وأهون من ذاك المقام المعظم (١)

وبلغت القصيدة البارودى مع رسالة من شكيب، فاهتز لها وأعجب بها. وتلقاها كما يقول فى رسالته إلى شكيب فى ٢٨ ذى القعدة ١٣١٥ — ١٨٩٧ م "بيد ترعد فرحاً، وفؤاد يهتز مرحاً". لأنها "نظم لو وصفته لقلت سحراً، ونثر لو وردت شرعته لكان بحراً، إنها وأيم الله منة لا يقوم بها الشكر، ولا يتدرج إلى معروفها النكر، كيف لا وقد أضاءت على غيابة الوحشة، وسرت عنى ضبابة الحسرة". ويذكر أنه أحس من قبل بميل فى النفس إلى شكيب، وأنه قد تم الأمل بتعارف الأرواح قبل تعارف الأشباح، وأنه سيعود إلى مراسلته بعد هذا إن شاء الله (٢).

وحقق البارودى وعده، فكتب إلى شكيب مقطوعةً أطول من مقطوعته الأولى، وفيها يقول:

أدى الرسالة يا عصفورة الوادى ‏ ‏ ‏ وباكرى الحى من قولى بإنشاد
ترفى بسنة الحراس، وانطلقى ‏ ‏ ‏ بين الخمائل فى لبنان وارتادى
لعل نغمة ود منك شائقة ‏ ‏ ‏ تهز عطفَ شكيب كوكب النادى
هو الهمام الذى أحيا بمنطقه ‏ ‏ ‏ لسانَ قوم أجادوا النطق بالضاد
تلقى به أحنف الأخلاق منتديا ‏ ‏ ‏ وفى الكريهة عَمْراً وابن شداد
أنى ودادا، وحسبى أنه نسب ‏ ‏ ‏ خالى الصحيفة من غل وأحقاد
أهدى أدبا من منطق شهدت ‏ ‏ ‏ بفضله الناس من قار ومن باد (٣)

---

(١) ديوان الأمير، ص ٥ و ٦. وألية مقسم: يمين حالف. ومشتجر القنا: أى الرماح المتضاربة.

(٢) كتاب شوقى، ص ١٠٦.

(٣) ديوان الأمير، ص ٧. وأحنف الأخلاق: مستقيم الأخلاق. والكريهة: الحرب أو شدائدها. وذو الكريهة: الصارم لا ينبو عنه شىء.

وإذا كان البارودى قد أرسل إلى شكيب فى المرة الأولى سبعةَ أبيات أجابه عليها شكيب بأربعين بيتا، فإن البارودى فى هذه المرة يرسل إلى شكيب اثني عشر بيتاً يجيبه عليها شكيب بعشرين بيتاً فقط.

لعل شكيب قد أخذ يحس بشخصه أمام شخصية البارودى الضخمة، بعد أن بذل جهده فى أن يسمو بشعره إلى مستوى شعر البارودى أو مايقاربه، وها هو ذا يجيب على مقطوعة البارودى السابقة بقصيدة يحرص فيها على الصورة التقليدية الموروثة التى لم يحرص عليها فى قصيدته الأولى للبارودى التى بدأها بالدخول مباشرة فى الموضوع:

لك الله من عان بشكر منمنم لتقدير حق من علاك محتَّم ... إلخ.

ولكنه فى قصيدته الثانية يبدأ بالحديث عن العيس والحادى، والظعائن والنوى، والتأويب والإسآد، وهماسير النهار وسير الليل، وإذا كان البارودى قد جعل رسوله «عصفورة الوادى» فكأن شكيب أراد أن يكون سلفياً فى قصيدته أكثر من البارودى، فقال فى مطلعها:

هل تعلم العيس إذ يحدو بها الحادى ... أن السرى فوق أضلاع وأكباد
وهل ظعائن ذاك الركب عالمة ... أن النوى بين أرواح وأجساد
تحملوا ففؤادى منذ بينهم ... فى إثرهم نضو تأويب وإسآد
يرتاد منزلهم فى كل قاصية ... وحبه لو درى أحرى بمرتاد
بين الجوانح ما لو أنت جائبه ... أغناك عن ألف أغوار بإنجاد
وفى الفؤاد كشطر الكف بادية ... فى جنبها تيه موسى ليس بالبادى
كم بت أنشد أحبابى وأنشدهم ... فى الهند، ياشدما أبعدت إنشادى (١)

---

(١) المرجع السابق، ص ٨. والعيس: الإبل، مفردها عيساء. والتأويب والإسآد: سيرا النهار والليل.

وامتد حبل المراسلة الشعرية بين البارودى وشكيب ، وأخذ البارودى يطيل نفسه فى شعره إلى شكيب ، كما نرى فى قصيدته التى مطلعها :

ردي التحية يا مهاة الأجرع[1] وصلى بحبلك حبل من لم يقطع

قد قاربت الخمسين بيتاً[2] ، فيحرص شكيب على أن يزيد فيجاوبه بقصيدة تزيد على الستين بيتاً ، ومطلعها :

أترى يحل هواك بين الأضلع ويحل لى بسواك ذرف الأدمع

وفيها يصرح بالاعتزاز بشعره والافتخار به ، فيقول عن نفسه :

ولقد بذذت السابقين ، فمن لهم بوقوف سير بالمكارم موضع[3]

وبلغت من سامى الفخار وجاءنى التـ ـقريظ من « محمود سامى » الأرفع

ثم يعاود التواضع بعد مرحلة من القصيدة ، فيقول عن البارودى :

أضحى يطارحنى القريض ، وهل ترى من أصبع يوماً تقاس بأذرع

أملى إلى قصيدة ، فأذابنى خجلاً وهيبة خاشع متخشع ![4]

ثم يرجع بعد ذلك بزمن طويل فيقول فى كتابه عن شوقى سنة ١٩٣٦ : « ولا أنكر أننى قبل أن قرأت شعر البارودى بدلالة الشيخ محمد عبده كان سبق لى نظم غير قليل ، وكان اطلع عليه الشيخ محمد عبده نفسه ، فقال لى فى اجتماع فى الجامعة الأميريكية فى بيروت وعرفوه بى : أنت ستكون من أحسن الشعراء ، وكذلك قال العلامة الشيخ إبراهيم الأحدب الذى كان الصدرَ المقدَّم فى الأدب ، وقد قرأ لى أبياتاً فى إحدى الجرائد ، وأنا بعد فى المدرسة : إن هذا الولد سيكون شاعراً »[5] .

---

(١) الأجرع : الرمل الأبيض .
(٢) المرجع السابق ، ص ٩ .
(٣) موضع : مسرع .
(٤) المرجع السابق ، ص ١١ — ١٤ .
(٥) كتاب شوقى ، ص ١٠٤ .

ونحن لا ننكر ما كان لشكيب من شعر قبل صلته بالبارودى ، ولا ننكر ما لهذا الشعر من جودة ، ولكن صلته بالبارودى هزته هزاً عنيفاً ، وبعد أن كان يقول الشعر على أنه تلميذ فى مدرسة الحكمة ، أو يقول لينُشَر فى جريدة بيروتية ، صار يقول الشعر على أنه يراسل أمير الشعراء ، وموقظ الشعر سامى البارودى ، وإذن فلابد لشكيب من أن يحاول قدر طاقته أن يرتفع إلى مستوى هذا الشاعر العملاق أو مايدانيه ، وقد فعل ، وحق له أن يقول إن البارودى هو إمامه فى الشعر ، وإنه هو الذى خرجه فيه كما ذكرنا من قبل . وقد ظل شكيب يراسل البارودى بعد العفو عنه ورجوعه من منفاه إلى مصر (١) .

يقول مارون عبود : « فلا تعجب إن رأيت فى الأمير نفحة جاهلية وثروة لغوية ، فشعره الأول ، وخصوصاً نقائضه [مساجلاته] مع البارودى ، هو أصفى شعره وأنقاه ، مع أنه لم يكن اجتمع أشده » (٢) .

وليس البارودى وحده هو الشاعر الذى تأثر به شكيب وتفاعل معه ، فقد تأثر شكيب بغيره وتفاعل مع سواه بعد صدور « الباكورة » ، فكان هناك شوقى الذى عرفه شكيب منذ سنة ١٨٩٢ ، وإذا كان شكيب قد اتخذ البارودى إماماً وأستاذاً ، لأنه أسبق منه وأسن ، ولأنه أرسخ قدماً فى الشعر ، وأعمق غوصاً على المعانى ، فإن شكيب قد اتخذ من شوقى قريناً له وقريعا ، لأنهما متقاربان فى السن ، ومتشابهان فى النشأة والتنقل ، ومن ناحية غنى الأسرة ، وجاه الحياة ، والتعلق بالقديم ، والاعتزاز بمواريث السلف فى المبنى والمعنى .

وقد انعقدت بينهما صداقة متينة ، وأعجب كل منهما بالآخر ، وكان شكيب بعد معرفته شوقى يحرص على قصائد أمير الشعراء ، ويراها قد استوفت شروط

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ، ج ١ ص ٤١٠ .
(٢) رواد النهضة الحديثة ، ص ١١٤ .

الشعر من متانة النسج، ورصانة الأسلوب، وفصاحة الكلمات ودقة المعاني، واطراد الانسجام

وكان شكيب يعارض شوقي، والمعارضة فيها تفاعل وتأثر، وإن كان شكيب يعترف لشوقي بسبقه، فيقول:

أو أعارض فتى القريض، فما عا — رض وردَ الحدائق القُـلاَّم
ذا بحال رضيتُ فيه من السبـ — ـق بعزم لم يثنه الإحجام[1]

ونستطيع من مطالعة كتاب رشيد عن شوقي أن نستخلص الكثيرَ من مواطن التفاعل والتأثر المتبادل بين الشاعرين مما يستحق أن ينفرد بحديث.

وهناك أيضاً الشاعر عبد الله باشا فكرى، فقد أشار الإمام محمد عبده على شكيب عقب ظهور باكورته أن يهديها إلى فكرى؛ فأرسلها مع أبيات يقول فيها:

إذا ما رمت من مهديك كفؤا — لقد أنفدتَ لؤلؤ كل بحر
فكيف يقوم عندك نزرُ شعر — يذيب الرعب منه كل شطر؟

ورد عليه فكرى بقصيدة يمدح فيها شكيب بمثل قوله:

كَميٌّ من سلالة أرسلان — ذؤابة قومه الأسد الهزبر
نمى خطب العلا وصبَّ إليها — فكان له صباه خير مهر[2]

وكان اتصاله بفكرى سبباً فى تفاعل آخر مع أحد شعراء عصره الأعلام.

(1) كتاب شوقي، ص ١١ — ٢٠. والقلام: نبت.
(2) ديوان الأمير، ص ١٨. والكمي الشجاع. والهزبر: اسم الأسد، أو الشديد الصلب.

في الباكورة

كان شكيب يعتز بديوانه الأول " باكورة " المطبوع سنة ١٨٨٧ اعتزازاً واضحاً، ويرى شعره فيه أهلاً لأن يقرن مع ما نظمه من شعر بعد أن استوى عوده، بدليل أنه حينما فكر في طبع ديوانه سنة ١٩٣٥ ـ أي؛ بعد قرابة خمسين عاماً من طبع الباكورة ـ حرص على أن يضمنه أكثر ما في الباكورة لسببين:

أولهما: أن نسخ الباكورة صارت نادرة، والثاني: أنه راجع شعر الباكورة فلم يره دون أن ينسب إليه ولا أصغر من أن يقيد عليه، بل قد رأى أن الشباب أشعر من المشيب، ووجد أحسن القريض ما جاء في العهد الغريض

ويقول عن ديوان شعره الذى يشمل الباكورة : « هذا ديوان شعرى من أيام الصغر إلى أيام الكبر ، تتجلى فيه روحى حدثاً ، وشاباً ، وكهلا ، وشيخاً ، ويعرف منه القارىء أنها روح لم تزل يشبه بعضها بعضاً فى جميع أدوار الحياة [2] » .

ولم يكن هذا رأى شكيب وحده ، بل كان رأى السيد رشيد رضا ، الذى يصفه شكيب بأنه أخ له ، فحينما بعث شكيب بأصول الديوان إلى رشيد ليطبعه ، لم يجد معها شعر الباكورة ، فطالبه به ليضعه فى الديوان ، فأرسل رشيد إليه رسالة بتاريخ ٦ المحرم ١٣٥٣ هـ — ١٩٣٤ م يقول فيها :

« إننى كنت مستاء من طبع هذه القصائد المرسلة فى الكراريس الخمس بدون طبع قصائد الباكورة التى غرست محبتك وتقديرك فى قلبى ، وهذه القصائد فى نظرى أعلى نظما ولغة وموضوعاً من كل ما فى الكراريس من المدائح والمراثى ،

---

(١) ديوان الأمير ، ص ٣ .

(٢) المرجع السابق ، الصفحة الأولى .

حتى جاءتني مكتوباتك الأخيرة تبشرني بالظفر بالباكورة ، وشروعك في اختيار ما تريد طبعه منها ، فلم يعجبنى هذا الاختيار ، لأننى أود أن تطبع كلها[1] » .

وكان رشيد يرى جعل الباكورة في أول الديوان ، ولكن شكيب أصر على جعلها في آخر الديوان[2] .

ونتناول الباكورة فنجد أن شعر شكيب صورة لحياته ، بحيث يمكننا أن نستخلص الكثير من شئون هذه الحياة عن طريق هذا الشعر ، فهو يفتتح الديوان بقصيدة بإهدائه إلى « العالم العامل ، الفيلسوف الكامل ، واسطة عقد الحكماء ، ودرة تاج البلغاء ، الأستاذ الأكبر الشيخ محمد عبده المصرى أيده الله تعالى » . كما نجد قصائد أخرى له في الإمام[3] .

فنفهم من هذا تعرُّفَ شكيب إلى الشيخ ، وإعجابه به .

ونجد في الديوان قصائد كثيرة أنشدها شكيب في مدرسة الحكمة ، وفى المدرسة السلطانية ، وفى أساتذته ومعلميه[4] . فنعرف من ذلك تبكيره في الشعر حتى سمى الديوان « باكورة » ، وظهوره بالشعر في مدرسته ، ووفاءه لأساتذته .

ونجد في الديوان قصيدة بدأها بقوله :

ياجمال الإسلام ، والإسلامُ صدَّه عن هوى الجمال الملام[5]

فنفهم أنه يحيي بها جمال الدين الأفغاني ، وأنه معجب به ، وهو يطالبه بالعمل لإنهاض المسلمين ، ولذلك يقول له فيها :

منك يرجى ياسيدي ياجمال الـــدين وصل الحبال وهى رمام

(١) كتاب السيد رشيد رضا ، ص ١٧٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٧٨٧ .

(٣) الباكورة ، ص ٣ و ٣٠ و ٣٦ و ٤١ .

(٤) الباكورة ، ص ٥ و ١٠ و ٧٦ و ٨٣ و ٨٦ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٣٨ .

ونراه يمدح « على باشا باى تونس الخضراء » ، ويقرظ تأليفه « مناهج التعريف في أصول التكليف[١] » . فنفهم أنه يوسع دائرة صلاته الأدبية إلى خارج وطنه لبنان .

ونراه يهنىء « هولو باشا العابد برياسة نجله أحمد بك على دائرة استئناف الجنحة فى الآستانة » ، ويهنىء « واصى باشا متصرف لبنان بزفافه » ، ويمدح محمد باشا الحسينى كبير أنجال الأمير عبد القادر الجزائرى ، ويهنىء أحمد بك العابد برئاسة دائرة الاستئناف ، ويمدح عبد العزيز أفندى السلطانى ، ويهنىء حسن بيهم بزفافه ، ويمدح جمال راسم ، ويمدح صديقه أيوب عون مدير مدرسة الكاثوليك فى حلب ، ويهنىء المطران يوسف الدبس مؤسس دار الحكمة[٢] .

نرى هذا فنفهم اتصالَ شكيب بهؤلاء ، ومجاملته للكبراء والأصدقاء ، وجمعه فى معرفته بين رجال الحكم ، ورجال القضاء ، ورجال العلم ، وأصدقاء الحياة .

ونجده يرثى حرم واصى باشا متصرف لبنان ، ويرثى أحد الكرام دون أن يذكر اسمه ، ويرثى أحد أعيان لبنان بناء على اقتراح اقترح عليه ، ولا يذكر اسم المرثى ، ويرثى الشيخ محيى الدين اليافى ، ويرثى سليم البستانى صاحب مجانى الجنة والجنان[٣] .

نجد هذا فنفهم منه معنى الوفاء عند شكيب لمن مضوا ، ومعنى المجاملة للكبار حين يرثى أعزاءهم ، ومعنى الاستجابة لصنع الرثاء عند الاقتراح ، ومعنى تقديره للعلم والأدب .

ونجده يتغزل « بالحسن المعنوى مفتخراً بأصحابه[٤] » ، فنفهم أنه كان رجلا

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٢ .

(٢) راجع هذه التهانى والمدائح على التوالى فى الباكورة ، ص ٣٩ و ٤٦ و ٤٨ و ٥٠ و ٥١ و ٥٤ و ٥٧ و ٥٨ و ٧٦ .

(٣) راجع هذه المراثى على التوالى فى الباكورة ، ص ٤٣ و ٦٠ و ٦٦ و ٦٨ و ٧٢ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٨ .

صاحبَ مبادئ وقيم ومعنويات ، ونـكاد نفهم أنه لم يتعرض لتجارب عاطفية حقيقية ، وأن أشعاره التي قالها في الغزل والنسيب[1] إنما هي بنت الصنعة والخيال. وما دامت الصنعة تيسر على شـكيب أن يتغزل دون أن يـكون أمامه من يتغزل به حقيقة ، فلا عليه إذا كان يشـكو دون أن يكون هناك أسباب جوهرية لشكواه

وما تلك الأسباب وشـكيب ينشأ في دعة من الحياة وسعة من العيش ، وقدرة على التعلم ، وحظوة عند الأساتذة وكبار القوم ؟ . لـكنه يشـكو متصنعاً ومقلداً ، فما أطول الشـكوى في أدبنا وما أقدم عهدها . فتراه يقول :

فلله يادنيا حياتك كـــربة   وفيك غراب البين ما زال ينعب
رأيتك محض الغش في محض قدرة   فلا منك رهبان ، ولا فيك أرغب
وإني وإن ضاقت عليّ مذاهبي   لديك فصدري من فنائك أرحب
أرى بك من نـكدى وصبرى عجائباً   وأعجب من حالى ، وحالك أعجب[2]

ولعلى بهذه الإشارات إلى موضوعات القصائد في الباكورة أكون قد أوجزت الأغراض التي طرقها شـكيب في باكورته ، وأما ألفاظه فنقية خالصة فصيحة ، وأما عبارته فجزلة ، وأسلوبه متين ، وأما معانيه فهي معاني العباسيين المعروفة .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٧٠ و ٧٤ و ٧٩ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٠ .

الباكورة بين طبعتين

مضت السنوات تباعاً بعد صدور الباكورة ، حتى جاءت سنة ١٩٣٥ ، حيث اعتزم شكيب إخراج ديوانه ، وأراد أن يضم إليه شعر الباكورة ، فماذا فعل ؟. من حسن الحظ أنني عثرت على نسخة « الباكورة » التي أجرى فيها شكيب بخط يده التعديلات في شعره فيها ، من تصحيح وتبديل وحذف ، وقد حصلت على هذه النسخة من السيدة زوجته .

وبدراسة هذه النسخة ومراجعة طبعة الديوان عليها وجدت أن جميع التعديلات التي أجراها شكيب في النسخة قد أخذ بها ناشر الديوان .

لقد غيَّر شكيب في العناوين ، وفي مقدمات القصائد ، وحذف كثيراً من الأبيات ، وحذف طائفة من القصائد بأكملها ، والدافع القوي الذي دفعه إلى ذلك — فيما يبدو لي — هو رغبته في تخفيف التوسع في المدح ، والتخلص مما لا يجب أن ينسب إليه ، لضعف في صياغته أو معناه ، أو لأنه يتضمن معنى لا يرتضيه شكيب بعد أن قضى في الحياة قرابة أربعين عاماً يغادي ويراوح أمورها وأحداثها وأهلها .

وألاحظ أنه كان يعبر عن نفسه بصيغة الغائب ، مثل : « قال » و « أنشد » و « كتب » و « يمدح » و « يقرظ » . . . إلخ ، فنقل هذه الكلمات إلى صيغة المتكلم ، بأن أخذ يقول : « قلت » و « أنشدت » و « كتبت » و « أمدح » و « أقرظ » . . . إلخ .

وهذا موجود في أغلب القصائد مما لا يحتاج إلى إثبات مواطن له من الديوان .

وقد نسارع فنظن أن هذا التغيير كان نتيجةً لاعتزاز شكيب بنفسه وإحساسه بذاته بين الشعراء والأدباء ، ولكني لا أميل إلى هذا ، وأرجِّح أن شكيب قد فعل هذا تواضعاً أو نأياً عن مظنة الاعتزاز ، لأن صيغة الغائب في مثل هذه

الطلات معروفة مألوفة فى الحديث عن كبار الشعراء فى دواوينهم ، حيث يكون
م رواة ، أو ناشرون يثبتون أشعارهم ، فيقولون : « وقال الشاعر » ، و « مدح
لانا فقال » ، فكأنه أراد أن يقول — بطريق غير مباشر — : « لست ممن له
رواة يقولون عنه : « قال ، ومدح ، وأنشد » ، ولكنى أقدم نفسى إلى قارئى ،
وأقول : « قلت ، ومدحت ، وأنشدت » .

ومن التغييرات المتكررة حذفه الكثير من ألقاب التفخيم والتعظيم التى
كان قد أضفاها على أشخاص يعجب بهم ويشيد بمكانتهم ، وإذا كان هو فى أول
قصيدة قد أبقى على العبارة الفخمة التى وصف بها الإمام محمد عبده وهى « حضرة
الإمام العامل ، الفيلسوف الكامل ، واسطة عقد الحكماء ، ودرة تاج البلغاء ،
الأستاذ الأكبر الشيخ محمد عبده المصرى أيده الله تعالى » (١) .

إذا كان قد أبقى على هذه العبارة مع فخامتها وضخامتها ، فإنه أثبت
فى الباكورة قصيدة قدمها بقوله : « وكتب يمدح بها حضرة رأس الأساتذة وفخر
الجهابذة الشيخ محمد عبده المصرى الشهير » ، ولكنه غيرها فى الديوان إلى :
« وكتبت بها إلى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده » ، فحذف عبارة : « أستاذ
الأساتذة وفخر الجهابذة » .

لم حذفها ؟ ألتخفيف من عبارات المديح فى الإمام ، وقد سبق منه فى تمجيده
ما سبق ، أم للتخلص من السجعة المصنوعة ؟ .

ومثل هذا يقال فى قصيدة قدمها بقوله : « وقال يمدح العالم العلامة الشيخ
محمد عبده . . . » فحذف كلمة « العالم العلامة » من طبعة الديوان (٢) .

وفى قصيدة كانت بعنوان : « قال فى العلم والعصر ، وأنشدها فى محفل مدرسة

---

(١) الباكورة ص ٣ والديوان ، ص ١٣١ .
(٢) أنظر الباكورة ، ص ٣٦ ، والديوان ، ص ١٦١ .

الحكمة » غير العنوان إلى ما يلى : « وقلت ، وأنشدتها فى محفل مدرسة الحكمة ، وكنت فى السادسة عشرة من العمر »[1] .

أضاف هنا إلى التحول من صيغة الغائب إلى صيغة المتكلم ، النصّ على عمره حين أنشأ القصيدة .

وصنع مثل هذا فى القصيدة التالية للقصيدة السابقة ، إذ كانت مقدمتها : « وقال مثل ذلك عند حضور امتحان المدرسة السلطانية » فجعلها فى الديوان . « وقلت فى مثل ذلك عند حضور امتحان المدرسة السلطانية فى السنة نفسها »[2] .

وصنع مثل هذا فى القصيدة التى كانت مقدمتها : « وله رثاء لحرم صاحب الدولة واصا باشا متصرف لبنان الأفخم » فصارت فى الديوان : « ولى رثاء لحرم واصا باشا متصرف لبنان ، وهو من نظمى يوم كنت فى الرابعة عشرة من عمرى »[3] ، فحذف بعض الألقاب ، وذكر سنَّه عند النظم .

وصنع مثل هذا فى آخر مقطوعات الديوان ، حيث كانت مقدمة المقطوعة الأخيرة كما يلى : « وكتب الناظم تحت رسمه » . فصارت فى الديوان هكذا : « وكتبت تحت أول صورة فوتوغرافية استخرجت لى وكنت فى الرابعة عشرة »[4] .

ولعل السر فى ذكر سنة النظم عن طريق تحديد العمر هو الإشارة إلى أن هذه القصائد نُظمت وهو ناشىء ، فلا ضرورة بالناقد إلى أن يشتد فى نقدها دون مراعاة لهذا الأمر .

ولعلَّ من السر فى ذلك أن شكيب قد تعوَّد حين استبحر فى الكتابة والنشر — بعد الباكورة بسنوات — أن يؤرخ ما يكتب كلما استطاع ، ليحدد

---

(١) الباكورة ، ص ٥ ، والديوان ص ١٣٣ .
(٢) الباكورة ، ص ١٠ ، والديوان ، ص ١٣٨ .
(٣) الباكورة ، ص ٤٣ . والديوان ، ص ١٦٦ .
(٤) الباكورة ، ص ٩٢ ، والديوان ، ص ٢٠١ .

الزمن الذي صيغ فيه ما كتبته يده ، وفي كثير من الأحيان يحدد المكان أيضاً .

فهو يؤرخ مقدمة كتابه « الارتسامات » بقوله : « وكتب بلوزان في ٥ ذي الحجة الحرام ١٣٤٩ » .

وهو يؤرخ مقدمة كتابه « غزوات العرب » بقوله : « جنيف ١٩ ربيع الأول ١٣٥٢ » . ويعود فيؤرخ ملحق هذه المقدمة بقوله : « جنيف ١٤ جمادى الثانية ١٣٥٢ » .

ويؤرخ مقدمته لديوان أخيه « روض الشقيق » بقوله : « جنيف في ١٩ رمضان ١٣٥٣ » .

ويؤرخ مقدمة ديوانه بقوله : « جنيف ربيع الأول سنة ١٣٥٤ » ، بينما لم يفعل مثل هذا في الباكورة .

بل نراه يؤرخ مقالاته التي ينشرها في الصحف في أغلب الأحيان (١) .

إن تتابع الأحداث ، وكثرة الكتابة ، واختلاف وجهات النظر باختلاف الظروف والعوامل ، دفعت بشكيب إلى عادة التأريخ لما يكتب ، حتى يفهم قارئه الكتابة في ضوء زمانها الذي صيغت فيه .

* * *

ونعود إلى استكمال ما حدث من تغيير في الباكورة عند نقلها إلى الديوان .

هناك قصيدة يقدمها بقوله : « وله ثناء على حضرة الذكي جمال بك نجل حضرة نموذج الكمال والفضل ، ومعدن النزاهة والعدل ، صاحب الفضيلة رامز بك نائب بيروت الحالي » . فصارت المقدمة في الديوان كما يلي : « ولي ثناء على جمال بك .

---

(١) انظر على سبيل المثال المقالات المجموعة في كتاب عروة الاتحاد ، ص ٥٦ و ٧١ و ١٠٠ و ١٠٢ و ١٥٥ و ١٥٧ و ١٦١ و ١٧٤ و ١٩٨ و ٢١٠ .

نجل رامز بك قاضي بيروت لذلك العهد ، وكان من أفذاذ القضاة فى العدل والنزاهة[١] » .

وهناك تغييرات أخرى لا تخرج عن هذا القبيل .

وفى الباكورة قصيدة مدح لجمال الدين الأفغانى ، ولكن شكيب لا يذكر اسمه فى عنوان القصيدة فى طبعة الباكورة ، بل يكتفى بلفظة : « وكتب » ، ولكنه جعل عنوانها فى الديوان كما يلى : « وكتبت إلى السيد جمال الدين الأفغانى رحمه الله[٢] » . وما نظن أن ترك الاسم كان مقصوداً ، إذ لا حكمة لتركه ، والقصيدة صريحة فى كونها فى مدح جمال الدين . فلعل شكيب سها عن ذكر اسمه .

وهناك قصائد مثبتة فى الباكورة حذفها شكيب من طبعة الديوان وهى :

١ — قصيدة « يهنىء بها صاحب السعادة هولو باشا العابد برئاسة نجله أحمد بك على دائرة استئناف الجنحة فى الآستانة » . وهى ستة وأربعون بيتاً .

٢ — قصيدة « يمدح بها صاحب السعادة الأمير السيد محمد باشا الحسينى الجزائرى كبير أنجال المغفور له الأمير عبد القادر » . وهى واحد وثلاثون بيتاً .

٣ — قصيدة فى « تهنئة سعادة الشهم أحمد بك العابد برئاسة دار الاستئناف فى دار السعادة باقتراح أحد الذوات » . وهى اثنان وثلاثون بيتاً .

٤ — قصيدة « ثناء على حضرة السرى الأنجب عزتلو عبد العزيز أفندى السلطانى » ، وهى أربعة وثلاثون بيتاً .

٥ — قصيدة ذكرها « تاريخاً لورود أحمد وفيق مقبل نجل ذى السعادة جمال بك ناظر رسومات بسورية » وهى تسعة أبيات[٣] .

---

(١) الباكورة ، ص ٤٣ . والديوان ، ص ١٧٢ .

(٢) الباكورة ، ص ٣٨ . والديوان ، ص ١٥٤ .

(٣) راجع القصائد الخمس فى الباكورة على التوالى ، ص ٣٩ و ٤٨ و ٥٠ و ٥١ و ٥٣

وقد أشّر شكيب عليها بخطوط متقاطعة تدل على إرادته حذفها . ونلاحظ أن قصائد المحسن كلها في المديح ، فيحتمل أن يكون شكيب قد حذفها تخففاً من متنوع قديم العهد ، أو لعله حذفها لأنه قد طرأ على صلاته بهؤلاء الممدوحين ما يعكر صفو المديح .

وهناك قصائد حذف شكيب من كل منها كثيراً من الأبيات [1] ، ونص على الحذف أحياناً بطريق غير مباشر حين قال في الديوان : « ومنها » ، و « منها » [2] ، وأحياناً لم ينص [3] . وفي قصائد حذف من كل منها بيتاً أو بيتين أو نحو ذلك ، وهذا تكرر في كثير من القصائد . وكذلك غيَّر شكيب بعض الألفاظ ، إما لأنها خطأ مطبعي ، وإما لأنه استحسن وضع لفظ مكان لفظ وهذا قليل .

وهناك أبيات حذفها شكيب لما فيها من روح النحاة واصطلاحاتهم ، ومنها هذه الأبيات :

١ — أوامره فعـــل مضى بلا مرا ... وتنكص عن فعل المقى الجوازم

٢ — تنوح على البلوى وتشكو ، وإنها ... لتعجم شكواها ، وأشكو فأعرب

٣ — إذا كنتُ ممن قال ذلك موقناً ... فإني من يسعى لأمر وينصب [4]

وحذف بيتاً كأنه أحس فيه لغة المؤرخ ، وهو :

تدارخت عهـدها فيها المسرة مذ ... تقوضت بهنـاها دولة الـكدر [5]

وحذف بيتاً فيه مبالغة شديدة في مدح وزير :

وكيف يبلغ حق الوصف ممتـــدح ... مَن سر عنصره وحي وتنزيل [6]

---

(١) انظر الباكورة ، ص ٣١ و ٣٢ و ٣٣ و ٣٥ و ٣٧ و ٣٨ و ٥٦ و ٥٧ . وغيرها .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٣ و ٣٥ و ٣٧ و ٥٠ و ٥٦ و ٦٤ وغيرها . والديوان ، ١٢٧ و ١٥٨ و ١٦٠ و ١٦٢ و ١٧١ و ١٧٣ وغيرها .

(٣) الباكورة ، ص ٣١ و ٣٢ و ٣٨ و ٦٠ و ٧٣ وغيرها .

(٤) الباكورة ، ص ١٤ و ١٥ و ١٧ .

(٥) الباكورة ، ص ٤٦ .

(٦) المرجع السابق ، ص ٣٦ .

ديوان الأمير

فى سنة ١٩٣٥ أصدر شكيب ديوانه ، وقد صدّره خليل مطران بمقدمة تحدث فيها عن شكيب الذى أجمعت أمته على نعته بأمير البيان ، وذكر أن الناس توقعوا من صاحب الباكورة أنه سيحث بعدها خطاه فى سبيل الشعر ، لينال مقاماً لا يرام بين الشعراء ، ولكن الشئون الضخام صرفت شكيب إلى النثر فترسل ، وظل يتحف قراءه بفيض رسائله ومقالاته ، ويريهم كيف ملك اللغة من أول أمره ، مع سلاسة وانسجام ورصانة تراكيب ، ويذكر مطران أن شكيب رضى لنفسه بأن يكون شاعراً مقلا مجيداً ، وأن أشعاره لؤلؤات منظومة فى بحر من اللآلىء المنثورة .

وعقب تصدير مطران جاءت مقدمة شكيب ، وفيها يخبرنا بأن مادفعه إلى نشر شعر الصغر والكبر ثلاث خصال :

الأولى : « أن الشعر لقائله كالولد لناجله ، فأخشى من بعد انصرافى من الدنيا أن ينسب إلىّ ما لم أقله » .

والثانية : « أن بعض هذه القصائد متعلق بوقائع تاريخية مشهورة ، وبعضها متضمن لمبادىء سياسية مأثورة ، فنشرها حصة من التاريخ يتميز فيها من اعتدل عمن اعتدى ، ويُعرف من ضل ممن اهتدى » .

والثالثة : « أنه كان لى أصدقاء وأتراب وإخوان ، ترافقنى عليهم الحسرات إلى التراب ، ومن الأعلام من لم أعرفه بوجهه ، ولكنى عرفته بآثاره ... فقد أحببت أن أبث أرواحهم الزكية الوجدَ الذى أجده من فراقهم ، وأن أنشر بعد طىّ أجسادهم ماأعرف من محاسن أخلاقهم ، فأكون وفيتهم بعض حقوق الوفاء » .

والديوان يتكون من قسمين : الأول — ويشمل نحو ثلثى صفحات الديوان —

هو ما قاله بعد شعر الباكورة ، والآخر — ويشمل نحو ثلث الديوان — هو ما أبقى عليه من شعر الباكورة ، وقد تعرفنا إلى هذا القسم الأخير من قبل .

وبعد مقدمة مطران ومقدمة شكيب نجد الشاعر يورد لنا « المراسلات السامية » وهي المراسلات الشعرية التي كانت بينه وبين « سامي البارودي » . ولذلك نسبها إليه ، وقد سبق حديث عنها :

ويأتي بعدها القسم الثاني في المساجلات الشعرية والمفاكهات الأدبية التي جرت بين شكيب وبين فريق ممن اتصل بهم أو تصادق معهم أو داعبهم ، مثل : عبد الله باشا فكرى ، وإسماعيل باشا صبرى ، وخليل مردم ، ومحمد كرد علي .

ثم ينتقل إلى المدائح ، فنجده يمـــدح الخديوى توفيق ، ويشترك بقصائده في تكريم حافظ إبراهيم سنة ١٩٠٥ ، وخليل مطران سنة ١٩١٢ ، وأحمد شوقى سنة ١٩٢٧ ، وعبد الله البستانى سنة ١٩٠٤ ، وعبد الحميد الرافعى سنة ١٩٢٩ .

ثم ينتقل إلى المراثى ، فيرثى أحمد فارس الشدياق ، ومحمود إبراهيم نخرى ، ووالدة نعوم باشا متصرف جبل لبنان ، وعبد الله باشا فكرى ، ونجله أمين بك فكرى ، وإبراهيم اليازجى ، ومحمود سامى باشا البارودى ، ومحمد بك فريد ، وملحم ابن الأمير توفيق مجيد أرسلان ابن عم شكيب ، والأمير عبد القادر نجل الخديوى عباس حلمى ، وأحمد مختار بيهم ، والشيخ عبد العزيز جاويش ، وكامل بك الأسعد ، وأخاه نسيب ، وأحمد باشا تيمور ، وعبد القادر الشيبى ، وأحمد بك شوقى ، وعبد السلام بتونه .

ثم ينتقل إلى القسم الرابع ، وهو المدائح السلطانية ، وشئون السياسة العثمانية ، فيورد ما تعيه ذاكرته من مدائح فى السلطان عبد الحميد ، لأنه لم يعثر على أصولها ، ولا على صورها المنشورة ، ويحيى انتصارات الدولة العثمانية ، ويهنىء بصدور الدستور العثمانى ، ويحث على الجهاد ضد احتلال إيطالية لطرابلس الغرب ، وعلى

التبرع من أجل طرابلس ، ويحذر من كيد الاستعمار ، ومن الخروج على الخلافة ، بعد أن يمجد سيرة صلاح الدين الأيوبي .

ثم ينشىء قصيدة طويلة النَّفَس عن « معركة حطين » ، وذلك بمناسبة زيارته لقرية حطين التابعة لطبرية سنة ١٣٢٠ هـ — ١٩٠٢ م ، وينشىء قصيدة طويلة أخرى في ذكرى الأندلس ، بمناسبة زيارته لها سنة ١٩٣٠ م . ويحيي الاتحاد بين الترك والعرب في أثناء الحرب العالمية الأولى .

ويتخلل هذه الأقسام قصيدة في معارضة قصيدة قيلت في السيد محمد المهدي عم السيد أحمد الشريف السنوسي ، وقصيدة قال عنها إنها « من عبث الشباب تقليداً للشعراء » ، وتحية بعض من مدحوه ، والتهنئة ببعض المواليد أو بزفاف ، وشكر لبعض علماء البوسنة ، وأبيات عن ذكرى جوته بمناسبة زيارته لقبره سنة ١٩١٧ ، وبيتان عن زيارته لقبر خالد بن الوليد في حمص سنة ١٩٠٥ .

هذه مواد الديوان وهذه قصائده ، ومنها تلوح لنا الأغراض التي نظم فيها شكيب خلال المدة الطويلة الواقعة بين الباكورة والديوان .

ونلاحظ أن شعره فيه موصول الأسباب بحياته وتصرفاته ورحلاته ، فهو في مساجلاته الشعرية ومراسلاته مع البارودي وفكري وصبري ومردم وكردعلي يطلعنا على جوانب من المؤثرات التي أثرت في شعره بطريق مباشر أو غير مباشر .

وهو في مدائحه للخديوي يرينا أنه اتصل بالسياسة المصرية نوعا من الاتصال .

وهو في قصائد تكريمه للشعراء يطلعنا على صلات وروابط كانت تربطه بهؤلاء .

وهو في مراثيه أيضاً لهؤلاء النفر من العلماء والأدباء والشعراء والمجاهدين يرينا ألوانا من وفائه من جهة ، فوق ما نفهم من توثق علاقاته الروحية والأدبية بينه وبينهم من جهة أخرى .

ومن مدائحه السلطانية والعثمانية نفهم أن شكيب قد واصل التأييد والتمجيد للخليفة العثمانى ، وللسلطنة العثمانية ، وللجامعة الإسلامية ، وقد عرفنا فى عصره وفى حياته أنه استمر فى عثمانيته إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى . ومدائحه للسلطان فى الديوان امتداد طويل العمر لمدائحه له فى الباكورة .

وشعره فى حطين والأندلس وخالد وصلاح الدين ، يشعرنا بنزعته الإسلامية وروحه العربية ، وهيامه بالرحلة والمشاهدة ، وحرصه على التذكير بأمجاد السلف وتاريخ الأجداد .

وتهنئاته فى المناسبات كالميلاد والزفاف ، مع معارضته بعض القصائد لمجرد المعارضة ، وقوله فى عبث الشباب مع نصه على أن هذا تقليد للشعراء ، كل هذا يشعرنا بأن شكيب كان ينظم الشعر أحيانا لا بانفعال أو اندفاع عاطفى ، بل بحكم الصنعة والقدرة على الصياغة الموزونة .

ونلاحظ على الديوان ضآلة حجمه بالنسبة إلى ما كان منتظراً من شكيب فى ميدان الشعر ، فالديوان كله فى مئتى صفحة ، فإذا حذفنا منها قرابة السبعين صفحة، وهى التى ضمت أشعار الباكورة ، بقى بين أيدينا نحو مئة وثلاثين صفحة ، هى كل نتاج شكيب من الشعر خلال قرابة نصف قرن من الزمان، فلو قسمنا الصفحات على السنوات ، لخرجت كل سنة بنحو صفحتين ونصف من الشعر .

والسر فى ذلك قريب غير بعيد ، وهو أن شكيب كان قد عقد العزم على أن يكون علَماً فى النثر ، لا أميراً بين الشعراء ، وكان قد شغلته رسالته القومية والإسلامية والسياسية عن العكوف على سواها .

وقد أشار إلى ذلك مطران حين قال عن شكيب : « غير أن شأناً آخر من الشئون الضخام التى هى أشد إغراء للرجل البعيد المطمح فى مطالب العلياء صرفه وشيكا عن الهيام فى مسابح الخيال والضرب فى آفاقه الأنيقة إلى منازلة الأحداث والأيام فى معترك الحقيقة » .

المحسنات البديعية

إذا نظرنا إلى مجموعة شعر شكيب التي تشمل الباكورة والديوان وجدنا عدة ظواهر، منها :

العناية بالبديع، وشكيب يقول : «ولم نكن نجهل البديع، ولا كان يفوتنا شيء مما في خزانة ابن حجة»[1] . فنجد في شعره «الجناس» كقوله في «الباكورة» :

لا غرو أن أهدى إليك رقائق وأنا رقيـــق فضائل ومآثر

وقوله :

قد جادها صوبُ الصَّبَا، وبنشرها نمَّ الصبا عن كل عَرْفٍ زافر[2]

وقوله يخاطب أمير الشعراء :

لئن كنت أحمد شوقى إلىَّ فما زلت أحمـــد شوقى إليك

وقوله :

شهدت به فى الحسن بدراً وفى التقى شهدت به سيماء من شهدوا «بدرا»

وقوله :

سلانى : هل على بُعد سلانى وهل كان المغيب سوى العيان

وقوله :

كالسيف فى أوضائه ومضائه والليث فى وثْباته وثَباته

---

(١) كتاب شوقى، ص ١٠١ .
(٢) الباكورة، ص ٣ و ٤ .

وقوله عن محمد إسعاف النشاشيبي بمناسبة صدور كتابه « كلمة فى اللغة العربيـة » :

قد قالت اللغة الفصحى بغربتها قد أحسن الله إسعاف « بإسعاف »
هو المجيب لمن قد بات ينشده : أنصر أخاك لدى ظلم، وأسْعاف![1]

ونجد فى شعره « المطابقة » مثل قوله :

لما كل آن فى البرية مظهر يخبِّر أن الله أودعها سرا

وقوله :

يبدو أرقَّ من النسيم فإن عَرَا خطب غدوتَ الصارم المسلولا

وقوله :

فى نعمة الحَمَل الوديع ، فإن عدا عادٍ ترى أسداً يفارق غيلا[2]

ونجد « التورية » ، مثل قوله يخاطب خليل مطران :

أو كانت الدنيا قسوس فصاحة بحذا عكاظَ ، فإنك المطران[3]

وقوله فى الشيخ عبد القادر الشيبى :

يقولون لى : نبغى جواب سؤالنا ويسألنى عن ذاك صحبى وجُلّاسِى
لماذا ترى « الشيبى » عندك أولا وتؤثره فى كل شىء على الناس ؟
فقلت : أرى الشيبى يندر مثله ببرّ وإكرام ولطف وإيناس
وفى خدمة الإسلام قد شاب مفرق لذاك أرى الشيبى تاجاً على الراس[4]

---

(١) مجلة الزهراء ، عدد رمضان ١٣٤٤ — ١٩٢٥م .
(٢) الديوان ، ص ٢٥ و ٧٢ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٤١ .
(٤) الارتسامات اللطاف ، ص ١٩٩ .

ونجد الصنعة اللفظية الظاهرة ، بما فيها من تقسيم وازدواج داخل نظم الشعر . كقوله :

من للبدائع ؟ أو من للصنائع ؟ أو من للوقائع إما داهمٌ دهما ؟
من للصوارم ؟ أو من للمكارم ؟ أو من للمغارم يقضيها عن الغرما ؟

وقوله عن شعر شوقي :

كالدرّ في لمعانه ، والبدر في قسماته ، والصبح في نسماته[1]

---

(١) الديوان ، ص ٦٣ و ٨٣ .

التقليد للسابقين والمعاصرين

ومن الظواهر البادية فى شعر شكيب متابعته للسابقين ، وتقليده للمتقدمين . فى اللفظ تارة ، وفى المعنى تارة ، وفيهما معاً تارة أخرى ، وهو يقلدهم بصفة عامة فى سوق العيس ، وحدو الظعائن ، وفى الوقوف على الديار ، والتغنى بالذكرى والماضى ، والفخر بالنسب والقوم ، وترديد الشكوى والحنين ، والمدح باجتماع المكارم والمحامد ، والرثاء بأن المرثى هو الشمس قد خُسفت ، والبدر قد احتجب ، وأن الدنيا قد انهار منها جانب أو جوانب بموته ، ولا بد من تحدر الدموع كالأنهار .

نستمع إليه يخاطب البارودى فيقول مادحاً له :

جمت العُلَى من تلدها وطريفها لجاءت كعقد فى ثناك منظم[1]

ويقول مرة ثانية :

هل تعلم العيس إذ يحدو بها الحادى أن السرى فوق أضلاع وأكباد ؟
وهل ظعائن ذاك الركب عالمة أن النوى بين أرواح وأجساد ؟[2]

ويقول من رثائه لرشيد رضا سنة ١٩٣٥ ، وهو ما ختم به ديوانه :

تحدّرى يا دموعى بالميازيب وعارضى السحب أسكوباً بإسكوب
وأدركى كبداً لجَّ الأوار بها عن مارج فى صبيب القلب مشبوب
هيهات ، أى الرّزايا بعدُ ترمضنى وأى داهية دهياء تلوى بى ؟[3]

وإذا كان التقليد هنا فى المعنى مع التصرف فى العبارة ، ومع خفاء التقليد على غير البصير بالشعر ، فإننا نرى شكيب فى الباكورة يقلد عمرو بن أم كلثوم فى معلقته تقليداً واضحاً يلحظه كل من وقف على المعلقة ، فهو مثلا يقول :

---

(١) المرجع السابق ، ص ٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٠٢ . والميازيب: خراطيم الماء . والأسكوب : الماء المنسكب. وترمضنى : تؤذينى وتوجعنى . وتلوى بى : تهلكنى .

ألا لا تذهلى يا أم عمرو عن الحق الذى لا تجهلينا
ولا يقتادك الطاغوت إلا وأنت على الطواغت تظهرينا
وأنت صديقة يا أم عمرو لعمرك لن تزالى تظفرينا
فإنا لا نطيق الضيمَ يأتى على أصحـابنا ومُواثيقنا
وإنا نكبح الأرزاء عمن يعوذ بنا مليكاً أو قطينا
وإنا لا نرى الأعداء إلا أسارى عنـوة ومهزَّمينا
سلى إن شئت عنا فى المعالى ترينا من أعز المعتلينا
ترينا لا نكون بلا اعتزاز فنـلزم عزة حتى نكونا
ترينا لا ينازلنا جرىء تخر له الضراغم ساجدينا
ترينا لا يكابرنا كبير سما إلا ونحن الـكابرونا
سلى من شئت إما شئت حتى ترينا ما ترينا يا ظمينا(١)

والقصيدة كما قال شكيب كانت ثلاثمائة بيت ، وقد نشر منها خمسة وستين ، وهى على هذا الطراز .

وشكيب يقلد المتنبى ، فيقول فى الباكورة :

بقلبى ما تهمى العيون وتأرق والعين ما يبلى الفؤاد ويرهق
وما كنت ممن يُرهق العشق قلبه ولكن من يدرى فنونك يعشق !

وهما مأخوذان من قول المتنبى :

لعينك ما يلقى الفؤاد وما لقى وللشوق ما لم يبق منها وما بقى
وما كنت ممن يدخل العشق قلبه ولـكن من يبصر جفونك يعشق(٢)

ويقول شكيب :

فإن يك دفع الشر بالرأى حازما فما زال دفع الشر بالشر أحزما

(١) الباكورة ، ص ٩٠ .
(٢) مجلة الرسالة ، عدد ١٥ ديسمبر ١٩٤٧ مقال (شكيب الشاعر) لمحمد رجب البيومى ، والباكورة ، ص ٣٠ .

وهو ينظر إلى قول المتنبى : « ولكن صدم الشر بالشر أحزم »[1] .

ويقول من قصيدة فى مدح عبد الحميد الرافعى (وهو من طرابلس الشام) :

أكارمٌ بهمُ باتت طرابلس مصراً يقصر عنها كل ما يبسا[2]

وهو ينظر فى هذا إلى قول المتنبى :

أكارم حسد الأرضَ السماء بهم وقصرت كل مصر عن طرابلس

وهو يقلد أبا العلاء فيقول :

فقل ألا فى سبيل الكمال ما أنا فاعل[3]

وأبو العلاء هو القائل :

ألا فى سبيل المجد ما أنا فاعل عفاف وإقدام وحزم ونائل

ويقول شكيب راثياً :

ولم يأت فيه الموت مصرعَ واحد ولكنه كان المصارع أجمعا[4]

وقد أخذه من قول الأول :

وما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

وأخذه أيضاً من قول متمم بن نويرة فى رثائه لأخيه مالك :

لقد لامنى عند القبور على البكا رفيقى لتذراف الدموع السوافك

فقال : أتبكى كل قبر لقيته لقبر ثوَى بين اللوى فالدكادك ؟

فقلت له : إن الشجى يبعث الشجى فدعنى فهذا كله قبر مالك !

ويقول شكيب فى رثاء عبد القادر الشيبى :

تغيرت البلاد ومن عليها وزتبة آل شيبة فى أمان[5]

(١) شعراء الحماسة فى مصر والشام ، ص ٥١ . والديوان ، ص ١٠٠ .

(٢) الديوان ، ص ٤٧ ، وانظر كتاب السيد رشيد رضا ، هامش ص ١١٢ .

(٣) رواية آخر بنى سراج ، ص ٥٠ .

(٤) الديوان ، ص ٥٧ .

(٥) الديوان ، ص ٨١ .

وهو مأخوذ من البيت المدّعى لآدم[١] :

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مسودٌّ قبيح

ويقول فى الباكورة :

من الدهر تشكو أم على الدهر تعتب وما صاحب الحاجات إلا معذب[٢]

وهو مأخوذ من البيت المشهور :

وما الدهر إلا منجنونا بأهله وما صاحب الحاجات إلا معذبا

وغير هذه الشواهد على تقليده السابقين كثير .

ولم يقتصر شكيب على تقليد السابقين ، أو النظر إليهم ، أو النقل عنهم ، بل وقع فى مثل هذا أو قريب منه مع معاصريه ، فهو يقول فى رثائه لشوقى سنة ١٩٣٢ :

كنا نخاف رداك قبل وقوعه فلنا الأمان اليوم من دهشاته[٣]

وهو ينظر إلى حافظ حيث يقول فى رثاء الإمام محمد عبده المتوفى سنة ١٩٠٥ :

لقد كنت أخشى عادى الموت قبله فأصبحت أخشى أن تطول حياتى

ومع هذا أرى أن بيت شكيب قد قصر عن بيت حافظ .

ويقول شكيب فى رثائه لشوقى أيضاً :

قد كنت أطمع أن تُرى لى راثياً يامن غدوتُ اليوم بعض رثاته[٤]

وهذا مأخوذ من قول شوقى فى رثاء حافظ :

قد كنت أوثر أن تقول رثائى يامنصف الموتى من الأحياء !

---

(١) الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه ، ص ٤٤ .

(٢) الباكورة ، ص ١٤ .

(٣) ديوان الأمير ، ص ٨٦ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٨٢ .

ولابد أن شكيب قد قرأ بيت شوقى الذى أراه أفضل من بيت شكيب ، وهذا لا يتعارض مع كون قصيدة شكيب فى رثاء شوقى من عيون قصائد الرثاء ! .

* * *

ومن العجيب أن شكيب يحاول فى بعض الأحيان أن يجعلنا نفهم أنه سبق شوقى إلى معانٍ فى الشعر ، فهو يورد مثلا بيت شوقى فى صلاح الدين :

فلو كان الدوام نصيب ملك لنال بحد صارمه الدواما

ثم يقول لنا : إنه قد وقع بينه وبين شوقى توارُدُ خواطر ، لأنه لما زار قبر خالد بن الوليد كتب على جداره هذين البيتين :

مَبِيتُكَ سيفَ الله فى غمدك الثرى دليل بأن الله لا شك واحد
فلو أن فرداً خلَّدته فُتوحُــه لما كان فى الأقوام إلاك خالد[1]

ثم ينص شكيب على أن هذين البيتين أقدم تاريخاً من بيت شوقى[2] :

وإذا كان شكيب قد قال : إن هذا « توارد خواطر » فقد يفهم فاهم أن هذا ما هو إلا تلطف فى التعبير من شكيب ، وكلام شكيب يدل — على كل حال — على عنايته بنفى تقليده لشوقى .

* * *

وقد يجرنا هذا إلى معرفة رأى شكيب فى « السرقات الشعرية » ، فهو يقول من مقال له فى جريدة « الأهرام » :

« فقد تتوارد الخواطر ، كما يقع الحافر على الحافر ، وكثيراً ما يقول شاعر بيتاً يظن نفسه غير مسبوق إلى معناه ، ثم يعثر عليه فى أثناء استقرائه ، فيعجب

---

(١) البيتان فى الديوان ، ص ٣٩ .
(٢) كتاب « شوقى » ، ص ٢٠٢ .

لهذا التصادف ، ولكن الناس الذين يطلعون على القولين يسارعون إلى الحكم بأن الأحدث قد أخذ عن الأقدم ، والحال أنه لا يكون المتأخر قرأ فى هذا شيئاً للمتقدم ، وربما لا يكون سمع باسم الشاعر الذى جاء بيته مشابهاً لبيته .

ومن لك بعد ذلك بإقناع الناس بأن هذا التشابه بين الكلامين إنما هو مجرد توارد خواطر ، كما قالوا فى بيت امرىء القيس :

وقوفاً بها صحبى على مطيّهم يقولون : لا تهلك أسىً وتجمل

وبيت طرفة :

وقوفاً بها صحبى على مطيهم يقولون : لا تهلك أسىً وتجلد

فالعلماء لم يقولوا إن أحدهما سرق من الآخر ، ومثل هذا كثير فى الشعر العربى ، وإن كنت لا أنفى كون المسروق أيضاً كثيراً ما سرق منه عمداً ، وألبس ثوباً غير ثوبه الأول ، ومنه ما نطق به الشاعر رشحاً لمحفوظ كان قد نسيه ، وظن أنه ورى زنده .

فهذان النوعان اللذان لا شك فى وجودهما لا ينفيان وجود التوارد المحض على معنى واحد دون أن يكون اللاحق ذا علم بما قال السابق[1] » .

ثم ساق شكيب فى مقاله أمثلةً لأناس طرقوا فى شعرهم معانى سبقهم هو إليها . فهذا شاعر نشر فى جريدة « الأهرام » قصيدة رثاء لصديق له قال فيها :

كأن سريرك المحمول فلك ودمع النائحين عليك ماء

ويذكر شكيب أنه لما كان فى الخامسة عشرة رثى سيدة بقصيدة مطلعها :

أتذكر نبذ النصح فيما تحاوله بعذل ، وباكى العين جارت عواذله[2]

---

(١) جريدة الأهرام ، عدد ٢٣ مايو ١٩٣٩ م . مقال « خواطر على توارد الخواطر » .
(٢) القصيدة فى الباكورة ، ص ٤٣ — ٤٦ .

ومنها قوله :

أبمصرعها يوم الثلاثا ، وقد سرى بها نعشها كالفلك ، والدمع حامله

ثم يقول : إن هذا المعنى قد سبق له منذ خمس وخمسين سنة ، وما يظن أن الشاعر الناشر فى « الأهرام » قد اطلع على القصيدة .

هكذا تحدث شكيب عن السرقات الشعرية ، ويحسن أن نتذكر أن هذا الحديث كان فى سنة ١٩٣٩ ، أى بعد صدور الديوان بنحو أربع سنوات ، ثم نتساءل : أكان شكيب يتحدث عن خواطر مطلقة حول « توارد الخواطر » ، أم أن ناقدين عابوا عليه ما قلد فيه سابقيه ومعاصريه ، فأراد أن يدافع بهذا عن نفسه من وراء ستار ؟ ! .

ويحسن أن نتذكر أيضاً أن الأبيات التى قلدها شكيب مشهورة سائرة ، لا يمكن أن تغيب عن شكيب ، فليس التقليد فيها من قبيل ما تحدث عنه من « رشح المحفوظ المنسى » ! .

الجملة القرآنية فى شعره

ومن الظواهر التى نلاحظها فى شعر شكيب اعتماده على « الجملة القرآنية » بلفظها أو معناها ، أو هما معاً فى كثير من الأحيان ، وقد سبق لنا حديث عن الجملة القرآنية فى نثر شكيب ، وعللنا انبثاث هذه الجملة فى كتابته ، وما كان من تعليل هناك يلقى ضوءاً من غير شك على انبثاث الجملة القرآنية هنا .

ولنستعرض أمثلة لأثر الجملة القرآنية فى شعره .

يقول فى الديوان :

وكل ذنوب العالمين مصيرها ... إلى العفو، إلا الشرك ممتنع الصفح
سينصركم من تنصرون كتابه ... ويؤتيكم الفتح القريب من الفتح

ويقول أيضاً :

وبالطائفين العاكفين بهذى الليالى ... تراهم ، من ركوع وسُجَّد

ويقول :

مشاة وركباناً على كل ضامر ... ومن فوق قضبان الحديد المسدد

ويقول :

وجاء الكرام الكاتبون فقيدوا ... لكل عصامى حساباً مرقماً

ويقول :

متاع قليل ، ثم مأوى لحفرة ... فماذا عسى الإنسان أن يتمتعا

ويقول :

أجل لم تزل حتى أصبت « بملحم » ... فتفتأ حتى اليوم تذكر « ملحما »

ويقول :

أثواك ربك فى أفياء جنتــه ممتــع الروح فى روح وريحان

ويقول :

بحيث قد فرق الـــبرين ربهما وحيث قد مرج البحرين عن كثب

ويقول :

وغـدت لمهجة الثنـاء عليـــه مثلما دام للصـــلاة إقام

ويقول :

أطلت عليكم بغتـــة شرد المنى تحقق بعث الله مع عسره اليسرا

ويقول :

ســـلاماً وبرداً نلتموها بلطفه وجيرانكم بالسيف هاماتهم تفرّى

ويقول :

ولاعذر فى التقصير بعد الذى جرى فما فات فرض الصوم من شهد الشهرا

ويقول :

لقد منّ بالشورى عليكم بمقتضى (وشاورهم بالأمر) إن تحمل الأمرا [1]

ويقول :

يوم تلاقى الجمعان ، وانتصب الميـــزان رهن انحرافه الظفر

ويقول :

فراحت كأن لم تغن بالأمس ، وانقضى لهم كل ركز غير ذكر معطر [2]

---

(١) هذه الأبيات موجودة فى الديوان ، ص ٣٦ و ٤٠ و ٤٥ و ٥٨ و ٦٦ و ٨٩ و ٩١ و ٩٦ و ١٠٢ و ١٠٣ على التوالى . وقد قال شكيب (وشاورهم بالأمر) وصحة الآية : (وشاورهم فى الأمر) .

(٢) الديوان ، ص ١١٩ و ١٢٤ .

ويقول :

إن الشهيد لحيّ عند خالقه ‏ ‏ وإنما الميت حقاً خائن الوطن(١)

ويقول :

يتخيل الإنسان أبعد مطمح ‏ ‏ والموت منه مثل حبل وريد

ويقول :

لقد عصفت فى شقة الغرب ريحهم ‏ ‏ فسادت ولكن لم تكن ريح صرصر(٢)

ويقول :

ورماهم بكتائب من كتبه ‏ ‏ فتطايروا كالحُمر لاقت قسورا

وافاهم ببلاغة مضرية ‏ ‏ ما كان معجزها حديثاً يفترى(٣)

ولم تكن « الجملة القرآنية » يتألق ثناها فى شعر شكيب — بمبناها أو بمعناها — اتفاقا أو دون قصد ، بل كان يستضىء بها واعياً قاصداً ، وكأن استضاءته بها فى شعره امتداد مقصود لاستضاءته بها هناك فى نثره ، ولذلك نراه فى رثائه للرافعى سنة ١٩٣٧ يقول :

كثر التفيهق فى الجديد ونهجه ‏ ‏ كم من تكلم بالجديد وما درى

وعدا رجال يحلمون بأن يروا ‏ ‏ شملَ العروبة فى البيان مبعثرا

حرجت صدورهم بأن يجدوا من الـ ‏ ‏ قرآن موردَ أمة والمصدرا

فتقصدوا أن يطفئوا ذاك الضيا ‏ ‏ وتعمدوا أن يفصموا تلك العرى

---

(١) هذا أحد بيتين قالهما شكيب فى الشهيد عادل النكدى ، ونشرتهما مجلة الزهراء ، عدد شعبان ١٣٤٥ هـ — ١٩٢٦ م وليسا فى المراثى الموجودة فى الديوان .

(٢) ديوان الأمير ، ص ٥١ و ١٢٤ .

(٣) جريدة الشباب ، ٩ يونيه ١٩٣٧ . والحمر : جمع حمار ، يريد الحمار الوحشى . والقسور : الأسد .

وتغفلوا قوماً أبت أحلامُهم　　أن تستبين الرُّشد أو تتدبرا

فما بنور الحق آية ليلهم　　وأرام عنه النهار المبصرا(١)

فإذا كان هناك من حاول أن يفصم بيانَ الأمة العربية عن بيان القرآن باسم الجديد ، فقد حرص شكيب أن يوثّق — مع الرافعي — تلك العرى بين البيان وجملة القرآن .

ومما يرجح أن احتماء شكيب بحمى الجملة القرآنية — كما وجد المناسبة موائمة لذلك — كان أمراً مقصوداً منه ، وكانت له صلته بمقاومته للحركة الداعية إلى إبعاد الجملة القرآنية عن البيان العربي ، أننا لا نجده يكثر الاحتماء بهذه الجملة القرآنية في ديوانه الأول « باكورة » المنشور سنة ١٨٨٧ ، بينما يكثر هذا الاحتماء كما رأينا في ديوانه المنشور سنة ١٩٣٥ — وكل الشواهد التي سبقت منقولة من الديوان ماعدا الأخير منها — وذلك لأن « الباكورة » قد ظهرت قبل أن تظهر روح المقاومة للجملة القرآنية ، وقبل أن تثور معركة القديم والجديد على الوجه الذي ثارت عليه بعد ذلك ! .

---

(١) من قصائده التي جمعناها ، ولم تنشر في ديوانه . انظر ملحق الرسالة .

محاولة صنع الملحمة

من الظواهر التي نلاحظها في ديوان شكيب أنه حاول أن يتشبه بشعراء الملاحم، فصاغ في ذلك قصيدة عن «معركة حطين» التي كانت بين صلاح الدين الأيوبي والصليبيين، والتي كتب الله فيها لصلاح الدين النصر المبين، وكان شكيب قد زار بحيرة طبرية في شوال سنة ١٣١٩ هـ — ١٩٠٢ م، وذهب إلى قرية (حطين) التي دارت فيها المعركة، وشاهد المكان الذي جلس فيه صلاح الدين ومن حوله ملك الصليبيين ورفاقه وجيشه أسارى، فثارت في صدره الذكرى، ونظم قصيدة بلغت مائة وأربعة وأربعين بيتا، ونشرتها مجلة المقتطف أولا، ثم مجلة الفتح بعد سنتين، ثم نُشرت في كتاب «ذكرى موقعة حطين»، ثم نشرت في الديوان[1].

ويقول عنها مارون عبود: «وللأمير قصيدة رائعة هي بالملاحم أشبه، قالها في وصف وقعة حطين، وهي أبلغ قصائده، إن لم تكن خير ما قيل في موضوع كهذا[2]».

وفي هذه القصيدة كثير من الأبيات الرائعة، فشكيب بعد أن يذكر في الأبيات الأولى منها أسماء مياه وأماكن كثيرة يتخلص إلى الحديث عن أرض المعركة وجوها وذكرياتها المضمخة بالجلال والتقديس، فهو يتحدث مثلا عن «بحر الجليل» وهو بحيرة طبرية، والأرض الممتدة منها إلى حيفا تسمى «أرض الجليل»، تتوسطها بلدة «الناصرة» التي وُلد فيها عيسى عليه السلام.

---

(١) ذكرى موقعة حطين، ص ١٨، وديوان الأمير، ص ١١٢، ورواية الديوان تقول إن شكيب زار طبرية سنة ١٣٢٠ ولكن كتاب «ذكرى موقعة حطين» يذكر أنه زارها في شوال ١٣١٩ فهل استمر شكيب هناك من شوال هذا إلى أن بدأ عام ١٣٢٠ ؟.

(٢) رواد النهضة الحديثة، ص ١١٣.

ولذلك يفتن شكيب فى إيراد الذكريات المتعلقة بالمسيح فى هذا المكان، فيقول فى روعة وبراعة :

بحر الجليل الذى شواطئه　　فى كل شبر من رحبها أثر
غذا دماء المسيح مورده　　وراقه منه ريقه النضر
وبين أمواجه وأربعه　　كانت تجلى آياته الكبر
كم فيه للكاتبين من سير　　وكم نبيين فيه تذكر
عيسى حواريه وصفوته　　والناس من حول وعظه زمر
والصائدون الألى له اتبعوا　　هدى ، وذاك الشراع منتشر

وكأن شكيب يريد أن يقول إن التخريب المدمر الذى أقبل به وباء الصليبية الغربية لا يلتئم مع جلال الذكريات التى يثيرها المكان وتتعلق بتاريخ المسيح نبى السلام عليه السلام ، فكيف يحاول هؤلاء أن ينتسبوا إليه ، وهم يخربون بلاداً شهدت خطاه وهداه ؟ .

وكأن شكيب يريد أن يقول إن النكبة بالحروب الصليبية ليست بمقصورة على المسلمين ، بل هى تعم المسيحيين والمسلمين ، ولذلك بدأ بالذكريات المسيحية ، ثم أتى بعد ذلك بذكر الإسلام حيث قال :

وقيل دار الإسلام قد حصرت　　وحف باقى بلاده الخطر

وفيما بين حديثه عن المسيحية وحديثه عن الإسلام يشعرنا بأن الاعتداء على هذه البلاد التى انبثقت فيها أشعة الهدى وتنزلت عليها رسالات السماء ، اعتداء على أديان الله كلها ، فهى بلاد فيها لموسى وقومه ذكريات :

وقوم موسى لهم بساحتها　　مركع صدق وأدمع غزر

ومن بعد موسى أنبياء لهم ذكريات :

وكم نبى فى ذى البلاد قفا　　موسى ، وكم مر من ههنا الخضر

ويصور شكيب بطولة صلاح الدين وكيف

أقبل فى جحفل له لجب يطلب ثأر الدين الذى وتروا

ويتحدث عن جهاده وعفوه وكرمه ، وعن النصر العظيم الذى كان ، وكيف بقيت ذكرى صلاح الدين خالدة :

والفضل يحيا من بعد صاحبه والذكر يبقى ، ولو عدت غِيَرْ

ويختم شكيب قصيدته ببيت فيه تعريض بقومه ، لأنهم اكتفوا باجترار الذكريات ، والسمر بها ، دون أن يعمل الخلف كما عمل السلف ، فيقول :

ونحن من بعد كل ذاك وذا لم يبق إلا الحديث والسمر !

* * *

ولشكيب قصيدة أخرى قريبة فى هدفها من قصيدة حطين . فقد زار شكيب الأندلس سنة ١٩٣٠ ، ورأى فيها بقايا مازالت قائمة من ذلك المجد العربى الإسلامى الباذخ الذى كان لقومه يوم كانوا أهلاً له وجدراء به ، وهى قصيدة طويلة النفس أيضاً ، زادت على مئة بيت(١) .

وبعد أن يتحدث شكيب فى أولها عن الذكرى وثورتها وإيقاظها لمشاعر الإنسان ، يرصد لنا فى تركيز وإيجاز « قائمة المفاخر والمآثر » التى كانت لقومه فى الأندلس ، ومع ذلك ذهبت أدراج الرياح ، ولم يبق منها إلا الذكرى .

يقـــول :

وكائنة لم يعرف الدهر أختها ولا حدَّثت عن مثلها كُتُبُ مخبرِ

يكاد الذى يقرا غريب حديثها يظن خيالا ، أو أحاديث مفتر

يقولون : كانت أمة عربية بأندلس سادت بها جمَّ أعصر

وقد عمرت أقطار أندلس بهم فكم بلد فخم ، ومصر ممصر

(١) ديوان الأمير ، ص ١٢٣ — ١٢٨ .

وكم عالم يلقى على الجمع درسه وكم واعظ يمرى مدامع محبر
وكم ملك ضخم ، وكم من خليفة هنا كان يجثو عن جبين معفر

ويصف أساطين المسجد ، ويفتن فى تصويرها ، كما وصف المحراب والقبة ، ثم انتقل إلى ذكر قصور قرطبة وعمارتها ، ويعود إلى العلة التى أضاعت كل هذا ، وهى الخلاف :

محا الخلف من أوضاعهم كلّ نافع وصوح من أعمالهم كل مثمر
ولم يستفيدوا من تقاطع بينهم سوى عيشٍ ذل تحت نقمة موتر

وينتهى شكيب إلى آخر قصيدته وهو مغمور بطوفان الذكرى ، قائلا :

إذا حضرت آثار قومى ، وإن خلوا فإنى منها فى قبيل ومعشر
وأشعر أنى فى بلادى ، كأنما تخاطبنى الأرواح من كل مقبر!

وحينما حاول شكيب فى هاتين القصيدتين أن يصوغ « الملحمة » كان يحاول ذلك عامداً قاصداً فيما يبدو ، وذلك لأنه صديق شوقى ، والمعجب به ، والمعارض لقصائده فى بعض الأحيان ، وهو يقرر أن عظمة شوقى تتجلى فى شعر الملاحم . فلماذا لا يلقى شكيب بدلوه مع شوقى ؟ ولماذا لا يقول الملحمة كما قال شوقى ملاحم ؟.

يقول شكيب فى كتابه عن شوقى :

« وقد آن لنا الآن أن نصف من شعر شوقي القسم الذى هو فيه الشاعر الفرد ، والأسد الورد ، وهو شعر الملاحم EpipuE أو الشعر التاريخي الذى بذّ فيه الأولين والآخرين ، وسما وحلق فى عيون جميع الناظرين ، وإنى برغم عصبيتى لصديقى محمود سامى باشا البارودى ، أقول إنه قد فاته هذا الغرض ، ولم يقيض الله له هذه الفتوحات التى قيضها لشوقى ، والتى ضارع فيها شعراء الإفرنج ، وكفّر عن سيئاته فى المديح ومبالغاته ، إن كان لا بد أن يحسب ذلك عليه من السيئات » (١) .

(١) كتاب « شوقى » ، ص ١٧٨ .

ويعمل شكيب من ملاحم شوقى قصيدته « كبار الحوادث فى وادى النيل » ومطلعها :

همت الفلك واحتواها الماء   وحداها بمن تقل الرجاء

وأطال شكيب فى التعليق عليها والتمجيد فيها ، حتى استغرق فى ذلك عشرين صفحة من كتابه .

ثم ينتقل شكيب إلى التصريح بأنه صاغ قصيدته فى « معركة حطين » على أنها ملحمة ، فيقول عن نفسه : « ولراقم هذه السطور قصيدة فى صلاح الدين ، هى من شعر الملاحم ، نظمتها إذا أنا فى طبرية سنة ١٩٠٢ » (١) .

ثم أخذ يستعرض القصيدة ويعلق عليها ، ويورد الذكريات التاريخية التى أشارت إليها ، حتى يكاد يفعل معها ما فعل مع قصيدة شوقى ، وكأن هذا إيحاء بأن القصيدتين تجريان فى قرن ، مع أن قصيدة شوقى تسبق قصيدة شكيب بمراحل .

ومما يشبه التناقض أن حديث شكيب عن قصيدة « كبار الحوادث فى وادى النيل » يشعر بأن شكيب يعتبرها أحسن قصائده فى الملاحم ، حتى إنه قال عن طائفة من أبياتها : « فلو قلت إن كل ما قاله شوقى فى باب المديح وباب الرثاء وباب الحكايات لا يوازى هذه الأبيات لم أكن مبالغاً » (٢) .

ولكنه فى موطن ثان يقول : « ولا مراء فى أنه لم يقل شوقى من شعر الملاحم أعظم من قصيدته البائية فى الحرب العثمانية التى أولها :

(بسيفك يعلو الحق والحق أغلب)   فإنها القصيدة الغراء ، واليتيمة العصماء ، والكلمة التى طارت فى الآفاق ، فخلقت فوق المحلقات » (٣) .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٩٧ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٨٠ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٢٢٠ .

مدائح للسلطان والدولة

من الظواهر التى نلاحظها فى شعر شكيب أمداحه فى السلطان عبد الحميد وفى الدولة العثمانية ، وهو يبدأ هذا المديح من صغره ، منذ كان تلميذاً فى مدرسة الحكمة ، وهو فى السادسة عشرة من عمره ، حيث يختتم قصيدة أنشدها فى المدرسة بقوله :

كفى عصركم فخراً وعزاً إذا ادعى ... أمير الورى عبد الحميد المعظما
ليجهد فى استرجاع رونق شرقنا ... وتجديد ما من مجده قد تهدما
فلا زال فى عصر الخلافة قائماً ... لما اناد من أمر العباد مقوما
ينث عليه الخافقان بعدله ... ثناء جميلاً بالدعاء مختما[1]

وينتقل شكيب إلى المدرسة السلطانية ؛ ويقول فى السنة نفسها قصيدة أخرى فى المدرسة ، يختمها بأربعة عشر بيتاً فى مدح السلطان ، يبدؤها بقوله :

سلام على السلطان ، أما مراحه ... فنفع ، وأما شغله فالمظائم
سليل بنى عثمان ، أما جداؤه ... فغيث ، وأما عزمه فلهاذم

وينهيها بقوله :

يعيد لنا عز الخلافة عهـــده ... ويغتبط الإسلام إذ هو سالم
تضىء على الدنيا مطالع شكره ... وتعطر فيه بالدعاء الخواتم[2]

وظل شكيب يمدح السلطان والدولة بعد الباكورة ، ففى ديوانه نجد كثيراً من هذه الأمداح ، حتى إنه يخصص لها القسم الرابع من الديوان ، ويعنونه بعنوان : « فى المدائح السلطانية وشئون السياسة العثمانية » . ومن هذه الأمداح قوله :

---

(١) الباكورة ، ص ١٠ . وينث : ينشر ويذيع .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٤ .

يامليك أمير المؤمنين ، ولا تزل تُعطَى مناك ، وما تريد يكون
في دولة غــراء عثمانية متكنفاها النصر والتمكين

وقـــوله :

كل يوم له صنائع تترى في البرايا لباسهن الدوام
تكفل الناس مثلمـا يكفل الغبـــراء غيث له عليها انسجام(١)

وغير ذلك في الديوان كثير .

وشكيب حين يمدح السلطان والدولة كان يمضي على العادة الشائعة في عصره ، وكان يمدح وهو يعتقد أنه يعظم بمدحه خلافة الإسلام وسلطان المسلمين ، ولكنه غالى في مدحه ، حتى أثار عليه كثيراً من نقاده ، وهذا هو الدكتور أمجد الطرابلسي في كتابه « شعراء الحماسة والعروبة في بلاد الشام » يحمل حملة صريحة على أمداح شكيب ، فيذكر أن شـكيب كان يمثل الاتجاه الرسمي أو العثماني في شعره السياسي ، ويورد أبياتاً من مدح شـكيب في السلطان ، منها قوله :

لحبك ذا شرعي وعرفي ومذهبي ومدحك ذا فرضي ووتري وواجبي

وأبياتاً أخرى منها قوله عن الموقف في حضرة السلطان :

موقف تخشع النواظر فيه وتسوى الرءوس والأقدام

ثم يعلق على ذلك بقوله : « لست واثقاً أن هذا الشعر يصوِّر إيمان صاحبه حقاً بما يقول ، فهل صحيح أن رجلا كشكيب أرسلان يستوي رأسه وقدماه على عتبة السلطان عبد الحميد ؟ وهل صحيح أن أحساب آل عثمان لا تطاولها أحساب عصبة أخرى ؟ وهل يجوز في شرعنا أن يخاطب خليفة بمثل هذه اللهجة المؤلهة :

لحبك ذا شرعي ، وعرفي ، ومذهبي
ومدحك ذا فرضي ، ووتري ، وواجبي

(١) الديوان ، ص ٩٠ و ٩٦ .

وهل كان يجهل الشاعر مظالمَ عبد الحميد التي لم يكن يجهلها أحد ؟ . لا ، ولكن الشعر الرسمي المبتذل ، الذي لا يستمد معانيه من حقائق العصر الذي يعيش فيه قائله ، بل من معاني شعر المدح والتملق في عصوره الذهبية البعيدة التي كان الشعراء فيها ملكَ أصحاب القصور ، يغـلون في مدحهم ، وينطقون بلسانهم ، ليقتاتوا من فتات موائدهم ، دون أن يتحسـوا بوجود الشعب من حولهم »[١] .

وحينما يعلن عبد الحميـد الدستور في ٢٤ تموز (يوليه) ١٩٠٨ يصوغ شكيب قصيدة في مدح السلطان ، يذكر فيها أن الدستور نعمة كبرى من السلطان رب العرش ، وأن الخليفة ظل الله في الأرض ، وأن الناس نالوا الحياة بسبب نعمته ، وأن عوارفه وأياديه على الإسلام لا تقبل الحصر[٢] .

ولـكن شكيب لم يذكر شيئاً عن ثورة الجيش العثماني من أجل الدستور ، ولا عن ضغط الضباط الأحرار أمثال أنور ونيازي وشوكت لإصدار الدستور ، ويتجاهل شكيب ضغطَ الشعب الذي أدّى إلى غضب الضباط .

ويتمنى الطرابلسي أن يفعل شكيب ما فعله شوقي حين قال في المناسبة نفسها :

بشرى الـبرية دانيها وقاصيها حاط الخلافةَ بالدسـتور حاميها
الرأي رأي أمير المؤمنين إذا حارت رجال وضلّت في مراعيها
وإنما هي شورى الله ، جاء بها كتابه الحـق يعليها ويغليها
حقنت عنـد مناداة الجيوش بها دم البرية إرضاء لبـاريها

فشوقي أشار إلى الدستور وهو « شورى الله » التي جاء بها القرآن الـكريم ، ونوه بمكانتها ، وذكر أن الجيش قد نادى بالدستور ، وأن الخليفـة أصدره لحقن الدماء[٣] .

---

(١) شعراء الحماسة والعروبة في بلاد الشام ، ص ١٠ .
(٢) ديوان الأمير ، ص ١٠٢ .
(٣) شعراء الحماسة والعروبة ، ص ٢١ و ٢٢ .

وقد يقال هنا إن شكيب أيضاً قال فى آخر قصيدته :

نهيد من « بالشورى عليكم بمقتضى • وشاورهم فى الأمر » إن تحمل الأمرا

ولكن هذا جاء مقترناً بالمنّ والهبة فأضعف الإشارة ! .

ونلاحظ أن شكيب على الرغم من أمداحه الكثيرة فى الخليفة والدولة ، لم يقل شيئا من شعره فى انتقاد ما وقع من أخطاء العثمانيين ، ولم يتوجه إليهم فى شعره بنصح أو إرشاد ، مع شيوع الأخطاء وظهور الانحراف ، وربما قيل إن شكيب كان يذكر نصحه وإرشاده فى كتاباته ومراسلاته حينما اتسعت مسافة الخلف بين الترك والعرب ، ولكنه لم يصرح بهذا النصح إلا متأخراً ، وكان الأنسب أن يضمن شعره شيئاً من هذا التوجيه ، ما دام يحشده بهذه الأمداح فى الخليفة والدولة .

ومن الإنصاف أن نستمع إلى دفاع شكيب عن المدح .

يقول فى كتابه عن شوقى : « وقد عاب بعضهم على شوقى قضاءه عمره فى مدح الأمير ومدح السلطان ، والإشادة بذكر ذوى السلطة ، وربما عابونا نحن أيضاً لمثل ذلك ، وغمزوا بالكثيرين الذين وقفوا أشعارهم على مدح الأمراء والملوك ، وزعموا أن فى ذلك دليلا على طلب الزلفى أو التماس الجائزة » (١) .

ويجيب شكيب على هذه المؤاخذة بأن عادة الملوك فى الشرق والغرب جرت باصطفاء شعراء لهم، يشيدون بذكرهم ليصان وقار الملك وسنام العرش . حتى لو لم يكن الملوك لذلك المدح أهلاً ، لأن الكلام هنا « إنما هو للمقام لا للمقيم ، وأن المقام إنما هو رمز الأمة وعنوان الملة . ثم قد شاءت الأقدار فى أخريات الزمان أن يدخل الضعف على الدول الإسلامية بأجمعها ، وأن تغلظ شوكة الأجانب الغربيين بين

---

(١) كتاب « شوقى » ، ص ٢٤ .

أيديها ومن خلفها ، وأن تحيط بكثير منها ، وتاخذ على أيدى ملوك الإسلام ، فلا تبق لهم سوى الرسوم والألقاب ، ويتغلغل نفوذ الأجانب فى هذه الحكومات المغلوبة على أمرها ، فتصير الأمة التى فى مثل هـذا الموقع — وقد أخذ الأجانب بخناقها — تتطلع إلى أميرها الأصلى ، وتعزز من مقامه ، وتضاعف من إجلاله ، بناء على أنه هو رمز استقلالها الوحيد ، فالمبالغة فى إجلال هذا الرمز إنما هى المبالغة فى حفظ الاستقلال نفسه »[١] .

هكذا يقول شكيب ، وقد يكون من حقنا أن نقول له : إن دفاعك هذا مقصور على مدح أمراء الدول المقهورة المغلوبة على أمرها ، فما رأيك فى الأمداح التى قيلت فى الخليفة والدولة ، حين كان الخليفة قوىّ الركن شديد البأس ، وحين كانت الدولة عزيزة الجانب ؟ .

ثم يرى شكيب أن المدح لمثل الخليفة من قبيل « الصارخة القومية ، والنزعة الإسلامية ، والنضح عن حوض الخلافة ، والذود عن بنيان السلطنة ، وهذا أشبه شىء بالدعاء الذى يقال فى الجوامع نهار الجمعة ، استنزالا من عند الله لنصر سلاطين الزمان »[٢] .

ويقال لشكيب إن الدعاء للخليفة فى خطبة الجمعة — عند من يجيزه — مقصور على طلب التوفيق له من الله ، لا أن تكال له الأمداح الواسعة الفضفاضة .

وإذا كان شكيب يريد اعتبار هـذه الأمداح من قبيل « الدعاء » فهذا اصطلاح له يحتاج إلى من يسلم به ، لأن هناك فرقاً كبيراً بين الدعاء ، وهو رجاء من الله ، والمدح المتضمن الحكم بصفات تحتاج إلى مراجعة .

---

(١) المرجع السابق .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٥ .

ومن العجيب أن يقول شكيب بعد هذا إن « هؤلاء الملوك والأمراء يبزّون عرائهم ويغمرونهم بالنعم الجسام ، ويحسنون إليهم بأنواع الإحسان ، والنفوس مطبوعة على حب من أحسن إليها [١] » . وبهذا يسوغ شكيب هذا الأمر ، مع أن هناك فرقاً كبيراً بين أن يشكر الإنسان يد من أحسن إليه بقصير أو طويل من الشعر ، يدور حول هذه اليد وحدها ، وأن يضفي الشاعر على الممدوح ألقاباً مزورة وصفات كاذبة ، تتعلق بالحياة والحكم والإصلاح وغير ذلك .

وكأنما أحس شكيب بعد قليل بأن حجته هذه واهية ، ولذلك قال : « وأما أنا فقد كان أكثر فرارى من الشعر خشية أن يظن بى مزاولته تكسباً لا تأدباً ، وذلك لكثرة الشعراء الذين سلكوا تلك الشعاب [٢] » .

وهذا الكلام يتضمن استقباح شكيب لأمداح التكسب ، فكيف نوفق بينه وبين تسويغه مدح الشعراء لمن يعطونهم وقوله فيما سبق إن النفوس مطبوعة على حب من أحسن إليها ؟ .

ويعود شكيب إلى الدفاع عن المدح بمثل ماسبق [٣] ، وكأنه يعاود الدفاع عن نفسه ، لأن له أمداحاً كثيرة فى الخليفة وفى سواه ، وله مراثٍ ، ومن السهل اعتبار المراثى من باب المديح .

وليت شكيب وهو يدافع عن المدائح بهذا الإسهاب وهذه المعاودة ، تذكر أن البارودى إمامه وقدوته فى الشعر هو القائل :

---

(١) المرجع السابق
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٦ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٣٩ .

الشعر زين المرء مالم يكن وسيلة للمدح والذام
قد طالما عز به معشر وربما أزرى بأقوام
فاجعله إما شئت في حكمة أو عظة ، أو حسب نام
واهتف به من قبل تسريحه فالسهم منسوب إلى الرامي

وشكيب نفسه قد استشهد بهذه الأبيات في موطن غير بعيد من موطن دفاعه عن المدح[1].

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٥٢ .

التكسب الأدبى بالشعر

لقد كرر شكيب النص على أنه لا يقول الشعر تكسباً ، ولا يمدح تطلباً للعطاء .

وقد نوافق شكيب على أنه لم يتطلب بشعره أو مدحه كسباً مادياً ، فله من يسار وجاه أسرته ما يغنيه ، ولكن شكيب كان يتكسب بشعره تكسباً أدبياً .

فهو يتعرض بالمراسلة أو المساجلة أو المعارضة لطائفة من الشعراء ، كالبارودى وشوقى وفكرى وصبرى ، لينال — وهو فى شبابه — ذلك المجد الأدبى الناشىء عن الاتصال بأعلام البيان وعمالقة الشعر فى عصره .

ومن هؤلاء العمالقة فريق يمدحون الخليفة والدولة ، فلم يكون أقل منهم شأناً ؛ وإلا يمدح الخليفة والدولة كما مدحوا ؟ .

إنه يتعرض للبارودى منوهاً ومراسلاً ومساجلاً ليسمع منه مثل قوله فى شكيب :

هو ذلك الشهم الذى بلغت به ... مشكاتُه حدَّ السماك الأرفع

نبراس داجية ، وعُقلة شارد ... وخطيب أندية ، وفارس مجمع

أحيا رميم الشعر بعد همودِه ... وأعاد للأيام عهد الأصمعى

كلِمٌ لها فى السمع أطرب نغمة ... وبحجزة الأسرار أحسن موقع[1]

ومثل قول البارودى فى شكيب :

فتى يسمح الزمان فألقى ... بشكيب ما فاتنى من مرام؟

هو خلٌّ لَبِستُ منه خلالا ... عبقات كالنَّوْر فى الأكمام

صادق الودّ لا يخيس بعهد ... وقليل فى الناس رعى الذمام

جمعتنا الآداب قبل التلاقى ... بنسيم الأرواح ، لا الأجسام[2]

---

(١) ديوان الأمير ، ص ١٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٦ و ١٧ .

وما يكاد الشيخ محمد عبده يشير على شكيب بإرسال باكورته إلى عبد الله باشا فكرى حتى يسارع شكيب إلى موطن من مواطن التكسب الأدبى. فيرسل الديوان ومعه قصيدة يقول فيها لفكرى باشا :

جعلتُ القول فى سيف ورمح — وعفت النظم فى قدّ وخصر
فإنى عاشق غُرَرَ المعالى — ولى نفسٌ فداؤك نفسُ حرّ
إذا فكرت يوماً فى كلام — يكون بمدح « عبد الله فكرى »(١)

وينال شكيب ما تمنى، فتأتيه قصيدة ثناء من فكرى ، وفيها يقول عن شكيب:

تعلق قلبه من عهد مهد — بكسب المجد مجتنباً لخسر
وأولـع بالمعالى والمعانى — ونظم الشعر ، لا لطلاب وَفْر
ولا لصَبَابة فى ورد خد — ولا لصُبَابة من خمر ثغر
ولا مستبطئا وعدا لدعد — ولا مستبطنا أمراً لعمرو
ولكن لاقتناص شَرودِ معنى — يعنُّ ، وحكمة تبدو ، وسر(٢)

ويصوغ شكيب فى خليل مطران قصيدة مطلعها :

لك يا خليل من القلوب مكان — هو فوق ما بسمائه كيوان
لم يختلف أحد عليك كأنما — لك كل أرباب النهى خلان(٣)

ويكسب شكيب كسباً أدبياً فتعمق المودة بينه وبين مطران ، ويثنى عليه مطران ، حتى يصدِّر له ديوانه ، ويصفه بأنه إمام المترسلين ، ومالك اللغة ، وصاحب اللآلىء المنظومة فى بحر محشود باللآلىء المنثورة .

ويصرح شكيب عن طموحه إلى المجد ، وتطامه إلى هذا التكسب الأدبى ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٨ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٩ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٤١ .

فأنا عليك إلى نزولى فى الثرى ... أذكى الأنام أسىً ، وأبكى محجر[1]

ويثنى على شكيب أحد أصدقائه — وهو الحاج شافعى عبد الهادى — فيعجب شكيب بالثناء ، ويعده كسباً أدبياً ، ويقول لصديقه فى قصيدة :

أهديتنى غــرر الثنا ... ء ، ففزت بالشرف المؤبد

حسبى شهادتك التى ... أزهو بها فى كل مشهد

دُرَرٌ بها جيدى غدا ... متقلداً عقــداً منضد[2] !

---

(١) مجلة الشباب ، ٩ يونيه ١٩٣٧ ، وجريدة منبر الشرق ، ١٣ مايو ١٩٥٥ . والأبيات مما جمعناه من شعر شكيب وليس فى ديوانه .

(٢) مجلة الشباب ، ٣٠ يونيه ١٩٣٧ ، وجريدة منبر الشرق ، ٣ يونيه ١٩٥٥ . والأبيات مما جمعناه من شعر شكيب وليس فى ديوانه .

الرثـــاء

وفى شعر شكيب مراثٍ كثيرة بالنسبة إلى حجم شعره ، وإذا كان حافظ إبراهيم قد قال :

إذا تصفحت ديوانى لتقرأه وجدت أن المراثى نصف ديوانى

فشكيب أحق بهذا القول ، لأن المراثى فى الديوان إذا أضيفت إلى المراثى التى نشرت بعد الديوان تبلغ نصفَ شعره أو أكثر .

ولا عجب أن يكثر شكيب من الرثاء ، وأن يجيد فيه ، « فقد كان ذا وفاء نادر لأصحابه وإخوانه ، فإذا فجعه الدهر فى واحد منهم لجأ إلى القريض يبثه عاطفته ، ويشكو إليه تباريحه ، والواقع أن دموعه الشعرية قد بينت لنا كيف يحافظ الصديق المثالى على مودة صديقه ، إذ بقى له أصدق وفاء فى القرب والنزوح »[1] .

ومن الشعر الرائع لشكيب قوله فى رثائه للشدياق :

للموت حتم ، والمسافة بيننا نزر ، وما من قادم ببعيد
يتخيل الإنسان أبعدَ مطمح والموت منه مثل حبل وريد[2]

ومنه قوله فى رثاء الرافعى ، مشيراً إلى أعدائه :

قد يحرقون عليه من حسد ، ومن بغض ، ولكن يحرقون العنبرا
مازال فى الأدب النزيه مبرزا حتى إذا شهد السفاهة قصرا

وقوله يصف قلم الرافعى :

من أسرة القصب الضعيف ، وفعله فى الخطب يهزأ بالحديد معصفرا[3]

---

(1) مجلة الرسالة ، ٢٢ ديسمبر ١٩٤٧ .
(٢) الديوان ، ص ٥١ .
(٣) جريدة منبر الشرق، ١٣ مايو ١٩٥٥

ولقد كان معاصرو شكيب يستحسنون مراثيه ، ويتناشدونها معجبين بها .
يقول مارون عبود :

« وأول ما أذكره من شعر شكيب هو رثاؤه للبارودى ، وقد كان الشيخ رشيد تقى الدين إمام حلقتنا المكاظية يتبجح بهذه القصيدة ، ويردد مطلعها :

يا ناظرىَّ ، ألا أياً تذرفان دماً أهكذا عهدنا أن نحفظ الذمما ؟

ويطفى رشيد إذ يبلغ هذا البيت ، حتى تخاله الفرات وقد زعزعته رياح الصيف :

فانعوا لنا الشعر والآداب قاطبة معه ، وقولوا لشوقى : إنه يتما

ثم ننتقل إلى قصيدة حافظ إبراهيم فى رثاء محمود البارودى أيضاً فنتمنطق بمطلعها :

ردُّوا علىَّ بيانى بعد محمود إنى عييت ، وأعيى الشعر مجهودى

فنرى فى حافظ رشاقة ، كما رأينا فى شكيب متانة ، ونرى فى (لأيا) بمطلع قصيدة الأمير ما يذكرنا بالنابغة ، فتعلو كفته على كفة حافظ ، تلك كانت عقليتنا » [1] .

ويذكر أحمد عارف الزين أن مراثى شكيب كانت تُنشد فتشجى وتثير ، وأن الشيخ ديب بيضون كان كالمتخصص فى إنشاد المراثى ، وأنه أنشد ذات يوم قصيدة شكيب فى المرحوم أحمد باشا الصلح — وهى ليست فى الديوان — فأشجى بها سامعيها ، حتى إن شكيب نقده عشر ليرات عثمانية [2] .

---

(١) رواد النهضة الحديثة ، ص ١١٠ .

(٢) مجلة العرفان ، عدد صفر ١٣٦٦ هـ — كانون الأول ١٩٤٦ . وقد ذكر الزين أن شكيب رثى سعد زغلول ، ولكن هذه القصيدة ليست بالديوان أيضا .

المواعظ

وفى شعر شكيب كثير من النظم الوعظى ، وقد عجبت حين وجدت صلاح لبكي، يقول

«إن الشعر العربي فى أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين يكاد يكون خلواً من المواعظ »[1] .

وذلك لأن فى شعر شكيب الكثيرَ من شعر المواعظ ، وفى « الباكورة » التى صدرت فى أواخر القرن التاسع عشر مواعظ متعددة ، نأتى على جانب منها :

يقول شكيب مثلا :

لكن على المرء عرك الدهر طاقته ... ولو تحمل ذو الهمات كل شقا
وحب السلامة يثنى عزم صاحبه » ... فإن جنحت إليه فاتخذ نفقا[2]

ويقول :

تقابلت الأمور فكل مُرِّ ... يعاقبه اللذيذُ المستطاب
ولولا المر لم تشعر بعذب ... ولولا العذب لم يشعرك صاب
وكل صعوبة فلها سهول ... وكل سهولة فلها عقاب
وكل بداية فلها ختام ... وكل جريمة فلها عقاب
أما لو لم يكن طرفَى نقيض ... لما قيل الخطاب له جواب
وأفضل ذى شروع من تراه ... يقارن رغب مبدئه الصواب
ومن طلب الصواب ولم يقابل ... وجوه الأمر أعجزه الطلاب

---

(1) لبنان الشاعر ، ص ٦٣ .
(2) الباكورة ، ص ٧٥ .

ومن عدم الصواب وقد نحاه | بأحسن ما يجد فلا يعاب
ومن خاض العباب بقصد ربح | فإن الدر ما ضم العباب
ومن طلب الأمور بغير جد | سيدركها إذا شاب الغراب
ومن حسب الحياة مدى طويلا | يكذب ظنه الأجل القراب
إذا ولى شباب المرء يوماً | فليس يعيد صبوته الخضاب
« ألا ليت الشباب يعود يوماً » | تقول ؛ وإنما ذهب الشباب
فلا يشغل فؤادك فى شباب | عن العمل السماع أو الشراب
ولا يقعدك عن عمل فراغ | ولو لم يعقب العمل اكتساب (١)

ويقول :

وتلقون الألى صلحوا أخيرا | بجنات الإله يتمتعونا
أولئك هم على هدى قويم | وهم عند المعاد المفلحونا
وأما الكافرون بمن براهم | فذرهم فى الضلالة يعمهونا
لئن أنذرتهم أولا سواء | عليهم ، إنهم لا يؤمنونا
ومن كانوا على الإدراك منهم | بآيات الإله يكذبونا
وقالوا : لا كتاب ، وإن هذى | أساطير الأنام الأولينا
وكانوا يسمعون الحق ، لكن | أرادوا أن يكونوا معرضينا
ومن تخذوا المراء لهم حليفا | وكانوا للإله مخادعينا
وقالوا : نحن آمنا . وكانوا | يقولون الذى لا يفعلونا
فسوف يرى انتقامُ الله منهم | بما ظلموا وكانوا يعتدونا
وسوف يحاق من سخروا بحق | بما كانوا به يستهزئونا (٢)

---

(١) المرجع السابق ، ص ٨٠ و ٨١ .

(٢) الباكورة ، ص ٨٩ ، وللأبيات بقية فى نفس المعنى ، والقصيدة كلها محذوفة من طبعة الديوان .

ويقول عن الموت :

تأملوا يا عباد الله واذكروا   على الجميع بهذا قد جرى القدر
يمضون طراً بتقدير الحكيم ، ولا   يبقى سوى صالح الأعمال يدخر[1]

ومراثي شكيب تتضمن الكثير من المواعظ والحكم[2] .

* * *

ومن المآخذ التي نأخذها على مراثي شكيب ما يقع فيها من تشابه وتكرار في اللفظ والمعنى ، يقول في رثائه لشوقي :

تغدو المعاني العصم شُمْسَ مقادة   فيقودها قودَ الغلام لشاته

ويقول مثل هذا في رثائه للرافعي :

وترى المعاني كالشياه مقادة   بينا تكون من الجآذر أنفرا

ويقول في رثائه لشوقي :

هيهات يوجد في البرية منهم   كفؤ ليرثيه بمثل لغاته

ويقول في رثائه للرافعي :

هيهات يطمع طامع في (المصطفى)   إن صال في يوم العراك وهدرا

ويقول في رثائه لشوقي :

يا راحلا ملأ الزمان بدائعا   من قبل أن نزل القضا بسكاته

ويقول مثل هذا في رثائه للرافعي :

ملأ الزمان بدائعاً وروائعا   بقريحة تحكي الغمام الممطرا

---

(١) المرجع السابق ، ص ٩١ .
(٢) أنظر الباكورة مثلا في ص ٦٠ و ٦٨ و ٧٠ .

وقد تسيطر عليه لغةُ الباحث المؤرخ الراصد وهو يرثى ، كما فعل فى رثائه لأحمد تيمور ، إذ خصص أبياتاً لسرد الكتب التى عُنى بها تيمور ، أو علق عليها ، ويرى هذه الكتب أقل من علم تيمور ، فيقول :

أقام « لسان العرب » مما هوى به ... ولولاه حتما ما أقيلت عوائره
ولو كان فى عصر المؤلف لم يكن ... لديه « ابن منظور » بكفء يناظره
ولو أنه وافى « الصحاح » مصححاً ... غلت فوق عهد « الجوهرى » جواهره
وكان كتاب « العين » قد غاب جملة ... عن العين لو أن « الخليل » معاصره
ولو كان فى « القاموس » لجّ ما طما ... وما كان إلا كالرقارق زاخره
ولو أن رب « التاج » عاش بعصره ... لحل من التاج الذى هو ضافره
ولو شمل « المصباح » يوماً بنقده ... لخلاه ملقى ليس يزهر زاهره [1]

أما كان يكفى أن يصور شكيب مراده فيقول : إن علم تيمور اللغوى أكثر من علم أصحاب المعجمات فيوجز ويركز فكرته ، ويكون أقرب إلى أسلوب الشاعر ؟ .

(١) الديوان ، ص ٨٠ .

الهجاء

وما دمنا قد تعرضنا لمدح شكيب ورثائه — والرثاء لون من المدح — فانذكر موقفه من الهجاء. إذ نلاحظ أن شعر شكيب يكاد يكون خلوا من الهجاء، وإن تخلله نقد لبعض الأشخاص.

وشكيب يقول: «من أقبح ما قبّح سمعة الشعراء، وجعل الخلق ينظرون إليهم بنى من الريبة، أن كثيراً منهم رتعوا فى لحوم الناس، وسيّروا المثالب التى قد تكون بلا أصل، أو يكون لها أصل ضعيف، ولكن الناس حفظوها وتدارسوها لبداعة قوالبها خلفاً عن سلف، حتى انتهى الأمر بأن صدقوا فحواها، وصارت فى نظرهم وقائع تاريخية»[2].

وحدّث شكيب عن نفسه فى مقدمته الطويلة لكتاب «النقد التحليلى» للغمراوي، فقال:

«كنت مرة فى جنيف أزور أحد الشرقيين، فحانت منى التفاتة إلى مجلد مخطوط على منضدته، ففتحته فوجدت فيه أبياتاً شعرية منتخبة، ومن جملتها بيتان قيلا في هجو أحد أمراء الشرق ممن ليس اليوم على عرشه، وفى هذين البيتين بذاءة زائدة، وما راعنى إلا أن رأيت اسمى تحتهما.

فغضبت وقلت لصاحب المخطوط: من أنشدك هذين البيتين الساقطين؟ ومن قال لك إنهما من نظمى؟. فقال لى: لا أتذكر من قال لى ذلك، وإنما هكذا سمعت.

قلت له: أنا فى حياتى كلها ما هجوت مخلوقاً ولا هجواً بسيطاً، فكيف أنزل إلى قاذورات كهذه؟.

---

(2) كتاب «شوقى»، ص ٢٧.

وفى الحال ضربت على اسمى الموضوع هناك إفكاً وزوراً » .

ثم يذكر حادثة مماثلة عن قصيدة أخرى ويقول : « إنى كنت ساخطاً على نظمها وعلى شيوعها ، لأنى أعد الهجاء من باب نضح الإناء بما فيه ، وتصوير الإنسان لنفسه ، فالهاجى عندى هو المهجو بعينه ، ولو كان كلامه صحيحا »[1] .

ويعد شكيب من حسنات شوقى أنه لم يلوث شعره بالهجاء ، فقد عصمه الله من ذلك ، ومن مآثره « أنه لم يستمطر عارض خاطره فى تقييد شتماء أو تخليد صلماء » ، ويتفق شكيب بأن شوقى كان عفاً طاهر اللفظ صافى النفس ، تنعكس على مرآة نفسه النقية المحاسن دون القبائح ، وينوه شكيب بقول نصيب الشاعر : « ماقلت بيتاً قط تستحى الفتاة الحيية من إنشاده فى ستر أبيها »[2] .

نرى إذن أن شكيب يكره الهجاء ، ولا يرتضيه ، ولذلك لم يقل فيه ! .

---

(١) النقد التحليلى ، ص ج من المقدمة .

(٢) كتاب شوقى ، ص ٢٧ .

الصورة الشعرية

في أثناء الحديث عن شكيب الشاعر تعرضت للكلام عن أغراض شعره ومعانيه التي طرقها ، والمضمون الشعري له صورة يتجلى فيها ، وهذه الصورة تتعلق باللفظ ، وبما يتخذه الشاعر معرضاً لخواطره وأفكاره من أساليب البيان ، وأفانين التشبيه والتمثيل والاستعارة ، وبالموسيقى التي تتمثل في الوزن ، وفي البحر المختار للقصيدة ، وفي القافية وحروفها .

وشكيب يقيم وزناً كبيراً للقالب الذي يعرض فيه المعنى ، ولذلك نجده يورد أبياتاً من رثاء شوقي لأبيه ، ثم يقول معلقاً عليها : « وقد يقال إن هذا معروف ، ليس فيه معنى مبتكر . والجواب على ذلك أن أفصح الكلام هو ما تضمن المعنى المعروف لا المعنى الغامض ، ولكن العبرة في القوالب ، وأنى نجد هذه الحقائق في مثل هذه الرقائق »[1] .

وهو يعني بالصورة التي يعرض فيها شعره ، وإذا كان المعنى يأتيه عفواً ، وكانت قصائده تقبل عليه طيعة بلا مجهود ، فإنه يحرص على تهذيبها من سخف اللفظ واضطراب القافية ، ولذلك يقول عن قصائده :

إن تأتني عفواً فكم هذبتها من سخف لفظ أو روي نافر[2]

والألفاظ الشريفة عند شكيب هي الألفاظ المأثورة من الشعر العربي القديم ، ولذلك نجد في شعره كلمات : « العيس ، والحادي ، والسرى ، والظعائن ، والركب ، والتأويب ، والإسآد ، والإنجاد ، والخضارم ، والقائف » . وهذه الألفاظ العشرة قد وردت في عشرة أبيات من قصيدة له[3] .

وكذلك نجد في مواطن مختلفة من شعره كلمات : « المتالع ، واللوى ، والعقيق ،

(1) كتاب « شوقي » ، ص ١٦٠ .
(2) الباكورة ، ص ٤ .
(3) الديوان ، ص ٨ .

والكثبان » ونحوها مما يذكر بجو الصحراء ، ويرسم أمامنا بيئة الخيام والنياق والرمال ، ويسرح بخيالنا إلى عهد كان شعراء العربية فيه يسامرون بيئتهم الخاصة ، ويرددون فى قصائدهم ألفاظاً ترسم ظلالاً لهذه البيئة بمميزاتها وعاداتها وتقاليدها .

ويبدو تأثر شكيب بالصور الشعرية الموروثة عن السابقين حين نجده مثلا يقول قصيدة فى تمجيد العلم ، يلقيها فى حفلة بمدرسة الحكمة وهو فتى فى السادسة عشرة من عمره[1] ، فإذا هو يرسم أمامنا للعلم رَبْعًا تصرم عنه ظلام الجهل ، ويخبرنا أن السعد قد طلع صبحه فى ليل النحس فهزمه ، وأن داجى الأفق أصبح زاهرا ، وقد أينع الذاوى من الروض بعد تصوحه ، وغصون العز تهتز حينما رأت طيور المعارف تحوم فوقها . . إلخ . فيقول :

عِمًا بصباح العلم رغدا وأنعما ... بربع ظلام الجهل عنه تصرما
قد انصاح صبح السعد فى ليل نحسه ... فغادره شيئا فشيئا مهزما
وثاب إليه العلم عَدْواً بعوده ... إليه ، فلا لوم إذا ما تلوما
فأصبح داجى أفقه اليوم زاهراً ... وقد كان زاهى أفقه قبل مظلما
وأينع ذاوى روضه اليوم بعد أن ... تصوح من عصف البوارح فى الحمى
ترنح عطف السعد منه بُعَيْدَ ما ... رأى لثغور العلم فيه تبسما
وباتت غصون العز تخطر عندما ... رأت فوقها طير المعارف حُوَّما

* * *

وهذا مثال آخر يدل على استمداده صوره الشعرية من صور السابقين ، فكأنه يحيا بينهم ، ويشاطرهم حياة الجزيرة فى عهدها الأول : إنه يرثى « الشدياق » فيصوره أمامنا على أنه فارس سباق فى كل حلبة تضم الأقران المارسين ، وأنه الأول دائما بين أقرانه ، وهو أقوى فارس من فرسان البيان ، وحينما يصول لا يترك مجالا لغيره ، كما أنه إذا قال انقطع غيره من الكلام ، فلا ناطق معه ولا بعده ، يقول :

(١) الباكورة ، ص ٥ .

وأصبح مضمار البلاغة خاليا لدن غاب عنه اليوم «أحمد فارس»
هو الفارس السباق فى كل حلبة تجمع فيها كل قرن ممارس
أجل مجل فى رهان براعة وأبتع فرسان البيان المداعس
إذا صال لم يترك مصالا لفارس وإن قال لم يترك مقالا لنابس
أقام مناراً هاديا كل حائر وأوقد ناراً أمّها كل قابس (١)

أمامنا : مضمار الجياد ، وحلبة السباق ، والفرسان الأقران ، والرهان المعقود للفائز ، والمجلى الذى يأتى فى السباق أولا ، والصائل الذى يغلب مصاله كل مصال ، والنار الموقدة ليؤمها الراغب فى قبس منها. هذه كلها أشياء تذكر بالجزيرة والصحراء وحياة القدماء ! .

بل نجد شكيب فى قصائده التى قالها فى السنوات الأخيرة من عمره الطويل يأنس إلى الصور الشعرية القديمة ، فهو فى رثائه للسيد رشيد رضا أواخر سنة ١٩٣٥ لم ينس شد الراحلة ، ولا الإسآد والتأويب — وهما سير الليل وسير النهار — ولا الشهاب الخابى بالليلات الغرابيب — وهى الشديدة السواد — ولا الجبال والأهاضيب ، فيقول فيما يقول :

مضى الذى كان فيه منتهى أملى ومن نشدت لتعليمى وتهذيبى
ومن عن الأخذ عنه شد راحلتى ومن للقياه إسآدى وتأويبى
واهاً على حجة الإسلام حين خبا ذاك الشهاب بليلات غرابيب
واهاً على علَم الأعلام حين هوى فلا تصادف قلباً غير منخوب
هوى وكل جبال العلم دانية عن شأوه، فهى منه كالأهاضيب (٢)

* * *

وأما من ناحية الوزن وموسيقى الشعر فشكيب يصرح بأنه يكثر من استعمال

---

(١) الديوان ، ص ٤٨ .
(٢) الديوان ، ص ٢٠٢ و ٢٠٣ .

بحري « الطويل » « والـكامل» فى وزن الشعر ، لسهولة هذين البحرين ، ولذلك يصفهما شكيب بأنهما من « الأبحر الواسعة [1] » ! .

ونلاحظ أن شكيب يختار لـكثير من قوافيه حرف الراء [2] ، وهو حرف فيه رنين وذبذبة موسيقية خاصة ، وكذلك حرف الميم واللام والنون والألف الممدودة . وبطول المدى لو نصصنا على مواطن القصائد ، فهى مبثوثة فى الديوان . ولا شك أن رنين حرف القافية ، بما له من صفة فى النطق ، وبما يصحبه من حركة تـكيّف رنينه ، يعاون على عذوبة الموسيقى التى يمهد لها الوزن ، وينسقها حسن اختيار الألفاظ والقوافى .

وشكيب يحرص على عدم التـكرار فى القافية ، وقد تطول قصيدته وتبلغ عشرات الأبيات ، ويأبى أن يكرر قافية ، وله فى الباكورة قصيدة يتغزل فيها بالحسن المعنوى ويفتخر بأصحابه ، وقد بلغت هذه القصيدة مئة وعشرين بيتا ، ولم يتـكرر فى قافيتها كلمة واحدة [3] ، ولذلك حق له أن يقول عن قصائده :

روامخ أطراف البيوت ، وإنها لـكالظبيات الباديات شوارد [4]

وقد سبق أن تكلمت عن « جلجلة العبارة » فى شعر شكيب ، حينما تحدثت عن جلجلة العبارة فى نثره ، ومن الواضح أن جلجلة العبارة الشعرية تعاون على أداء الصورة الشعرية واجبها فى التأثير والإيحاء ، متى كانت هذه الجلجلة فى المواطن الملائمة لها ، كقوله فى محاربى طرابلس الغرب ووجوب معاونتهم من قصيدة :

---

(١) كتاب « شوقى » ، ص ٦٥

(٢) انظر الباكورة ، ص ٣ و ٤٦ و ٦٣ و ٦٨ و ٧٦ . والديوان ، ص ١٨ و ٢٥ و ٣٨ و ٥٩ و ٦٩ و ٧٨ و ١٠٢ و ١١٣ و ١٢٣ .

(٣) الباكورة ، ص ١٨ .

(٤) الباكورة ، ص ٣٩ .

قد حوصروا براً وبحراً ، وأمطروا بجمر المنايا من سواد الغمائم
وقد طالما أرهفت حداً يراعتي فلما تعالى الخطب عذتُ لصارمي
أجل إننا من أمة عربية نكافح عنها عاديات الأعاجم
ولو أنصف الأقوام في حقهم رأوا مواساتهم فرضاً على كل آدمي (١)

والملاحظ على شكيب أنه لا يألف الصور الشعرية المركبة التي تتعاون على إبرازها متكافلةً جملةُ أبيات ، بل إن البيت المستقل بمعنى هو الذي يكثر وروده في شعر شكيب ، وكذلك كان القدماء ، وهذه أبيات لشكيب ، نوردها على سبيل المثال ، لنرى أنه من الممكن تقديم البيت من أبياتها على زميله ، أو تأخيره عنه . يقول :

مالذات الوشاح جاءت تبختر والضواحي بردنها تتعطر
تقتل الصب بالرنو فيردى وتلافيــه بالدنو فينشر
غادة في خدودها جنة لل ـعين ، والثغر للمراشف كوثر
تُخجل البدرَ طلعةً حين تبدو تفضح البرق مبسماً حين تفتر
جردت من قوامها كل رمح وانتضت من لحاظها كل أبتر
كلما أسلمت لخــديه روح صاح : يامسلمين ، الله أكبر
ماانثنت أورنت لعمرى إلا حاربتنا بأبيض بعد أسمر (٢)

وهذا مثال آخر ، كل بيت فيه مستقل المعنى ، وقابل للتقديم والتأخير ، يقول من قصيدة :

---

(١) الديوان ، ص ١٠٩ .
(٢) الباكورة ، ص ٦٢ .

هي الأحكام يصدرها القضاء　　فليس لمبرم إلا المضاء
ولا ينبو حسام الموت مهما　　أتيح له على الخلق انتضاء
لقد عمّ الردى كل البرايا　　ومات الناس حتى الأنبياء
وأصبحنا رعايا للمنايا　　علينا من ولايتها لواء
ألسنا الخلق غايتنا زوال　　وعنصر خلقنا طين وماء[1] ؟

(١) الباكورة ، ص ٦٠ .

طريقته فى نظم الشعر

يه ينبغى أن نعرف شيئاً عن طريقة شكيب فى نظم الشعر .

والدعه يحدثنا عن نفسه فيخبرنا بأنه حين نظم قصيدته فى طرابلس الغرب التى مطلعها :

ألا هل لديهم من حديث لقادم من الغرب يروى فيه غلة هائم

لم يكن متجهاً إلى نظم شىء ، ولكنه ذهب إلى مركز « الهلال الأحمر » فوجده خالياً هادئاً ، فشرع فى النظم . يقول :

« فوجدت المكان خالياً ، وقلت : لأستفيدن من هذا السكون ، وأنظم بضعة أبيات بالأقل ، فلما بدأت بالنظم انبعث بى الشعر ، وانثالت على الأبيات كأنها تنحدر من صبَب ، فما مضت ساعة إلا وهى فى يدى قصيدة تامة[1] » .

وسمعت الحاج أمين الحسينى يقول : إن شكيب كان يرتجل الشعر ، وحدث وهما فى الحجاز أن ألقى الشاعر إبراهيم الغزاوى قصيدة ، فارتجل الأمير رداً عليها .

وفى رحلة لهما ضاع من شكيب « إصبع التلوين » الذى كان يخضب به شاربه ، فحزن عليه ، ثم وجده فسارع إلى خضب شاربه ، فقال الحاج أمين مداعباً : " وعاد الأمير إلى الشباب " ، فارتجل شكيب قصيدة من أربعين بيتاً كان مطلعها :

بشرى لزينب والرباب عاد الأمير إلى الشباب

وقد نتساءل : أكان شكيب ينظم الشعر بحافز من نفسه يدفعه إليه ، أم كان شكيب يحمل نفسه على صناعة الشعر ؟ .

إن شكيب يحدثنا تارة بأن الشاعر لا يتقدم فى الشعر إلا إذا كان فى نظمه

---

(1) كتاب شوقى ، ص ٤٠ و ٤١ .

« راغباً لا متكلفاً ، ومغرما لا متبرعا[1] » . فنكاد نفهم أنه سيلتزم ما قرره وينفى ما اعتقده من خير فى النظم لنفسه .

ولكننا نجده فى مكان آخر يقول : « مما لا مرية فيه أننى منذ أيام الشباب قلما نظمت الشعر رغبة فيه » . وبعد أن يعلل ذلك بأنه أراد أن يكون ناثراً ، وأن النثر كان أبداً مرمى آماله ومطمح خياله ، وأنه يفخر بأن يكون كاتباً ويستعى أن يكون شاعراً ، يقول :

« وقلما نظمت الشعر انبعاثاً من نفسى ، وإطاعة لمجرد خواطرى ، فليس لى على هذا الوجه إلا قصائد معدودات ، وكل ما عدا ذلك من شعرى إنما نظمته قياما بواجب ، أو امتثالا لرسم ، أو نزولا عند رغبة ، ولهذا تجد أكثر شعرى مراثى للأصحاب أو للأعلام الذين لا مناص من رثائهم[2] » .

ولما مات محمد بك فريد كان شكيب فى برن من أعمال سويسرة ، ومعه الدكتور عبد الحميد سعيد ، فقال لشكيب : لابد أن ترثيه . فوافق شكيب . وفى اليوم التالى سأله الدكتور وهما ينهضان عن الطعام : هل عملت الرثاء للمرحوم فريد ؟ . فأجاب شكيب : لا . فقال الدكتور : يجب أن تعمله الآن . فقال شكيب : لابد لى من القيلولة بعد الطعام . قال الدكتور : إلا أن البريد سيمشى الآن ، فوالله لا تقيل قبل أن تعمل هذا الرثاء .

فذهب شكيب — كما يقص عن نفسه — وصاغ القصيدة فى نصف ساعة ، حتى دهش الدكتور ، وقال له : اذهب الآن ونم .

ولكن شكيب يعلق على هذه القصيدة تعليقاً يبدو متنائياً عن مدلولها ، إذ يقول : « وحقيقة الحال أن سرعة النظم هى على قدر عمق التأثر ، ودرجة الاقتناع

---

(١) كتاب « شوقى » ، ص ٢١ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٠ و ٢١ .

بالموضوع ، وإذا كان الإنسان ملآن من الموضوع انثالت عليه الألفاظ كأنها تتقلع من صبب ، آخذاً بعضها برقاب بعض ، وإذا كان الإنسان محمولا على الموضوع بغير سائق الشعور أو حادى الاقتناع ، كان فى نظمه أو نثره متعملا متكلفاً ، كأنما يصعد جبلا[1] » .

فهل يكون من حقنا أن نسأل شكيب هنا : لماذا لم ترث محمد فريد إلا بهذا التكليف والدفع من الدكتور ؟ وكيف تشيد برثيتك وقد تكلفتها وحملك على نظمها صديق ؟ .

الظاهر أن شكيب كان يقول الشعر بعقله أكثر مما يندفع إليه بعاطفته ، وكان يحمل نفسه على نظمه حملا فى كثير من الأحيان ، ولا عجب فهو القائل فى رثاء عبد الله نكرى :

وكنتُ مللت الشعر حتى كرهته　　　وأصبح عندى فى عداد المحارم
إلى أن قضت أوصافه برثائه　　　فأصبح عندى اليوم ضربة لازم[2]

ولقد انصرف شكيب عن الشعر فى أكثر حياته ، فهو لا يقوله إلا نادراً ، والسبب فى هذا قد أشار إليه هو حيث قال : « لأننى طول حياتى لم أحاول أن أكون فى الشعر سباق غايات وطلاع أنجد ، على حين أنى كنت أرى منتهى السعادة فى الدنيا أن أكون من الكتاب المعدودين[3] » .

ونحن لا ننسى أن شكيب قد شب وهو طُلَعة طموح ، ولعله قد حاول فى أول الأمر أن يأتى أولا فى كلٍ من ميدانى الشعر والنثر ، ولكنه تبين أن ذلك عليه عسير ، فهو القائل : « وقلما زاول الإنسان عملين إلا غلب أحدهما عليه ، أو قصَّر فى الاثنين[4] » .

(١) المرجع السابق ، ص ٢٣٠ و ٢٣١ .
(٢) ديوان الأمير ، ص ٥٥ .
(٣) كتاب « شوقى » ، ص ٢١ .
(٤) المرجع السابق ، ص ٢٣ .

وقد استبد به النثر وطغى عليه، وصار فيه علماً، وأصبح " أمير البيان "؛ فليس لزاما عليه أن يستمسك بإمارة الشعر، ويعبر شكيب عن ذلك في قصيدته التي شارك بها في مهرجان شوقي سنة ١٩٢٧؛ فيقول:

قد صار عهدى بالقريض كأنه ... دِمن تقاضتها الرياح عفاءها
أدعو فلا أرضى الذى يأتى به ... والشعر أن تجد النفوس رضاءها
والشعر ما رسم الضمائر ماثلا ... منها الكنائن ، ناجيا أنحاءها
والشعر ما ترك المعانى مثَّلاً ... فتكاد تلمس بالأكف هباءها
والشعر حيث يقال : من ذا قالها ؟ ... ما الشعر حيث يقال : من ذا قاءها
وهناك نفس مرة ما تأتلى ... تُملى علىَّ من العلا أهواءها
إن لم تجدنى فى المجاجة أولا ... نكرت على ثلاثها وثناءها

ويقول فى ختام القصيدة مخاطباً شوقى :

لما رأيتك قد نزحت قليبها ... ألقيتُ عنى دلوَها ورشاءها
فاسعد بعرش إمارة الشعر التى ... ألقت إليك لواءها وولاءها(١)

أرأيت ؟؟ . لقد كان يروم إمارة للشعر والشعراء ، فلما نالها شوقى انصرف عن الشعر ، ولم يرض لنفسه أن يكون تالياً .

وقد يوهمنا ظاهر هـذا القول أن انصراف شكيب عن الشعر تقرر عنده عام مبايعة شوقى بالإمارة (عام ١٩٢٧م) ، بينما الحقيقة أن شكيب نفسه يحدثنا بأن انصراف نفسه عن الشعر جاء فى وقت مبكر ،وسابق على هـذا العام بقرابة خمسين عاماً ، إذ يقول من قصيدة فى مدح الخديوى توفيق « خلال زيارته الأولى لمصر سنة ١٨٩٠ :

وإنى إذ أهدى « العزيز » مدائحى ... أبوء بصدق القول غير مفند

(١) الديوان ، ص ٤٣ و ٤٤ .

وإلا فما حاولت إدراكَ غاية بشعرى ، ولا نظم القصائد مقصدى[١]

وعلى الرغم من انصراف شكيب عن العكوف على نظم الشعر منذ وقت مبكر ، ظل حفياً بالشعر دارساً له ، فهو ينشر ديوان شقيقه « روض الشقيق » ، ويقدم له ، ويعلق عليه ، وهو يضع كتاباً عن شوقى وشعره يفيض بدلائل العناية بالشعر والشعراء ، وهو يقول الشعر من حين لحين .

وخلاصة الرأى فى شعر شكيب أنه فى مجموعه لا يحقق لأمير البيان مجداً كبيراً ، ولكن شخصية الأمير تلقى على شعرها أضواء من ضخامتها ، فتكسبه قيمة ومكانة .

(١) كتاب « شوقى » ، ص ٦ .

الباب الخامس

شكيب الناقد

الفصل الأول

آراؤه فى الشعر

الفصل الثانى

آراؤه فى النثر

الفصل الأول

آراؤه فى الشعر

حقيقة الشعر

في سنة ١٩١٢ نشر مصطفى لطفى المنفلوطى كتابه « مختارات المنفلوطى » ، وفيه مقال عنوانه « حقيقة الشعر » للأمير شكيب أرسلان (١) ، وفى هذا المقال تصوير لرأي شكيب فى حقيقة الشعر ومكانته ، ولذلك يستحق التلخيص والتعليق .

يعبر شكيب عن الشعر بأنه قول ثقيل وعبء عقلى باهظ ، لا يحسنه إلا أصحاب « السليقة الفائقة ، والطبيعة الصافية التى لا تتاح إلا للآحاد ، ولا يؤتاها إلا الأفراد ، يكاد قائله يتجرد من عالم المادة بقوة نفسه ، وشفوف حسه ، ويلحق بالملأ النوراني فى مضاء عزمه ، وورى زنده ، وسرعة فكره ، ولو كانت الكهربائية شخصاً لكانت هى الشاعر » .

ثم يذكر شكيب أن القدامى كانوا يحسبون الشعر « قوة من وراء الطبيعة ، وربما جعلوا له شياطين ، وكان الشعر فى الجاهلية دولة ومُلكا » . وذكر أنهم كانوا يجلون النابغ من الشعراء إجلالهم للأمراء والرؤساء ، وإذا جاءهم رسولهم بكلام معجز أحالوه على الشعر ، كأن الشعر هو « الدرجة الثانية التى يمكن أن تنزل عنها الآيات من عتبة الوحى » .

ويرى أن الشعر هبة من الله ، وقوة روحية يفيضها على من يشاء من عباده ، فتحلق به فى سموات الخيال ، فيرى الطبيعة فى أجمل صورها ، ثم يصور مشاهدها

---

(١) مختارات المنفلوطى ، ص ٨٣ ــ ٨٦ .

ومميزاته ، بل انطلق يثبت أنه صاحب قلم قدير طيع لأنامله ، يستطيع أن يحركه فيرسم لوحات من التعبيرات ، وصوراً من البيان ، ومعارض من النثر الفنى .

ولنصبر على مطالعة المقدمة كاملة ، فليست بذات طول ، والوقوف عليها مهم لنرى كيف تسبح الحقائق مغمورة بطوفان هذه الصيغ الرشيقة الجذابة التى تكثر فيها المترادفات وتتكرر المعانى .

يقول شكيب رحمه الله :

« شعر الأخ الأستاذ شبلى بك ملاط لا يمكن وصفه بأحسن من عرضه ، ولا نعته بغير الحث على حفظه ، فإنه لا يبلغ الواصف منه معشار ما يبلغ هو من نفسه ، فهو الشعر الذى يصح أن يقال فيه : عينه فراره (١) ، وسبره استظهاره ، وتعريفه تبليغه ، وتحليته تسويغه ، وروايته رواؤه ، ونعته جلاؤه ، والإرشاد به نفس إنشاده ، والترنم به مجرد إيراده ، فمهما نبهت على محاسنه كان تنبيهه على نفسه أبلغ وأسرع ، ومهما أقمت عليه من البراهين كان برهانه فى ذاته أظهر وأسطع .

إنه لعمرى هذا السهل الممتنع ، الدانى المرتفع ، القريب البعيد ، المعتصم بقنن الامتناع ، وهو أقرب من حبل الوريد ، وإنه هو النوع المرقص المطرب المعرب عما فى نفسك ، بأحسن ما تريد أن تعرب ، لا تكلف ولا تعسف ، ولا تصنع ولا تنطع ، ولا تزيد ولا تعمل ، بل الجمال الذى لا يحتاج إلى تجمل .

وهى الألفاظ على أقدار المعانى ، لا تزيد ولا تنقص ، والأثواب على نسبة القدود ، فلا تطول ولا تقصر ، وهى القوافى لا تجد منها قافية إلا معروفة قبل الوصول إليها ، وترى البيت كله منصباً عليها ، مصدقاً ما خلفها وما بين يديها .

---

(١) يقال : فر الدابة يفرها ، كشف عن أسنانها لينظر ما سنها . وفى المثل : عينه فراره ، وهو مثل يضرب لمن يدل ظاهره على باطنه ، ومنظره يغنى عن أن تفر أسنانه وتخبره .

والمرص على ألا ينقطع منه قسم على طريق الإلقاء وفى أثناء الانتقال ، فكأن هذه الزيادة جُملت لتملأ الفراغ الواقع بين المدرِك والمدرَك ، حتى لا يصل إلى الذهن إلا كاملا بكل قوته ، ولا يحل فى العقل إلا بجميع حاشيته » .

ويرى شكيب أن للشاعر أن يفتنّ فى الأساليب بحسب اختلاف المطالب ، ويتعرض لموسيقى الألفاظ والعبارات الشعرية ، فيقول : « وللشعر سعة المذهب والتفنن فى شعوب القول بحسب ما تقتضيه المطالب ، فهو ملك الكلام يتصرف فيه كيف يشاء ، فيه تجسيم المجرد ، وتجريد المجسم ، وتشبيه المجردات بالمحسوسات ، وتلطيف المحسوسات إلى درجة المجردات ، فتارة يجسم المجرد حتى يكاد يحس ويمس ، وتقع عليه الأيدى ، وتنعكس أشعة نوره على العين ، وتهتز دقائقه فتهتز طبلة الأذن ، وطوراً يهفهف[1] به الملموس ، ويهلهل حتى يشف شفوف البلور ، ويسطع من ورائه النور » .

ويرى شكيب أن الكلام لا يحيط بكل الانفعالات مهما كان الإنسان ذلقَ النطق قوىّ الأداء ، مبين اللسان ، لأن الألفاظ تتقاصر عن الإحاطة بجميع المعانى : « وأنَّى للشاعر أن يتغنى لسانه بكل ما يتغنى به جنانه ؟ وأين الثريا من يد المتناول ؟ فإن اللغة رموز محدودة وإشارات مخصوصة ، وهى تطمع أن تعبر عما فى النفس البشرية ، والنفس البشرية عالم بنفسه » .

ثم يعود ليتحدث عن مكانة الشعراء ، وأنهم أمراء الكلام ،ولهم حق التصرف باللغات ، ويتحدث عن خلود الشعر ، والعناية بروايته منذ القدم ، وأن ذكرى الملوك تذهب وتبقى ذكرى الشعراء ،وأن الشعر يحفظ اللغة ، ويسجل التاريخ ، ويزيل عن القلوب صدأ الكروب ، وأن أبقى الآثار الآدمية هو القول ، وأبقى القول هو الشعر ،

---

(١) يهفهف : يرقق .

والسماع، فالإحساس أقوى من الإدراك ، والمشاهدة أقوى من الحكاية ، والصورة أوضح من الكلمة ، فلكى يعوض الشاعر الفرق بين معاناة التجربة والاستماع إلى حديثها ، يعمد إلى لون من المبالغة ، فيعرض الشيء فى شعره مضاعفاً ، ويصوّره بألوان ساطعة ، ويحليه بحلية تزيد عن الحقيقة .

٦ — كان شكيب موفقاً حين تحدث عن لزوم تصرف الشاعر فى القول بحسب ما تقتضيه المطالب ، بحيث يجسم المجرد إذا أراد تقريبه وتمثيله ، ويجرد المجسم إذا أراد له الدقة والعمق المؤديين إلى إثارة التأمل والبحث .

٧ — كان موفقاً حين ذكر أن الألفاظ مهما كثرت تتقاصر عن الإحاطة بجميع المعانى ، ولذلك قال الكثيرون : إن اللغة عبارة عن رموز وإشارات وليست رسماً كاملا ولا نقلا تاماً ، و « أخذ الأدباء والشعراء ينكرون على اللغة قدرتها على أن تنقل إلينا حقائق الأشياء ، وقالوا إنها لا تعدو أن تكون رموزاً تثير الصور الذهنية التى تلقيناها من الخارج ، أو كونّاها من الجمع بين أشتات من الصور التى تلقيناها من ذلك الخارج ، وعلى هذا الأساس لا تصبح اللغة وسيلة لنقل المعانى المحددة أو الصور المرسومة الأبعاد ، وإنما تصبح وسيلة للإيحاء .

ولما كانت وظيفة الأدب الأولى هى توليد المشاركة الوجدانية بين الكاتب والقارىء أو الشاهد ، فقد قالوا بأن الأدب لا يسعى إلى نقل المعانى والصور المحددة ، وإنما يسعى إلى نشر العدوى ، ونقل حالات نفسية من الكاتب إلى القارىء ، أو على الأصح الإيحاء بها ، وبالتالى لا يسعى الأدب أو الشعر الرمزى إلا إلى أن ينقل وقع الأشياء الخارجية أو الداخلية من نفس إلى نفس »(١) .

---

(١) محاضرات فى الأدب ومذاهبه ، ص ٧٧ .

والألفاظ الخطابية مع تكرار المعاني،

٨ — أكثر شكيب في مقاله من المترادفات والألفاظ الخطابية مع تكرار المعاني، لأنه يتحدث عن « حقيقة الشعر »، فالمنتظر مع أن الموضوع يحتاج إلى دقة وضبط، أن يعرّف ويحدد.

•••

وللشاعرية في رأى شكيب شروط ذكرها حينما حكم لشوقى بأنه استوفى جميع شروط الشاعرية، وهى « النسج الرقيق المتين، والأسلوب الرشيق الرصين، واللغة العربية الفصحى التى لا تؤتى من جهة، والمعنى المتناهى فى الدقة، اللابس من اللفظ أجمل حلة، والانسجام المطرد من الأول إلى الآخر فى سكب واحد وسبك متوارد».

ونلاحظ أن فى الشروط تكراراً، فما الداعى إلى قوله: « اللابس من اللفظ أجمل حلة » بعد أن ذكر قبله قوله: « الأسلوب الرشيق الرصين »؟ وماذا يريد بالانسجام المطرد من الأول إلى الآخر؟. أيريد أن يكون لكل كلمة مع صاحبتها مقام، أم يريد وحدة الموضوع وتسلسل الفكرة؟. ليته أوضح!.

ولم يكتف شكيب بالحديث عن شروط الشاعرية فى نثره، بل تحدث عنها فى شعره كما سبق، فقال:

... ...	والشعر أن تجد النفوس رضاها
والشعر ما رسم الضمائر ماثلا	منها الكنائن، نافجاً أحناءها
والشعر ما ترك المعانى مُثّلا	فتكاد تلمس بالأكف هباءها
والشعر حيث يقال: من ذا قالها	ما الشعر حيث يقال: من ذاقها[1]

وهذه الأبيات تذكرنا بمقاله « حقيقة الشعر »، فهناك تحدث عن الطبيعة الصافية، والقوة الروحية، والتغلغل فى أنحاء النفس، وأحناء القلب، والحيام فى أودية الانفعال، وعن مضاعفة الشىء، وتجسيم المجرد، والتفنن فى القول.

---

(١) ديوان الأمير، ص ٤٤.

وهنا يتحدث عن رغبات النفوس ، ونجوى الضمائر ، واستبطان ما فى أعماقها، لنشر ما فى أحنائها ، وتمثيل المعنويات حتى تصير كالمحسات ، وحتى تكاد صفائرها تلمس بالأكف ، فيعجب الناس بمن يحقق هذا ، ويهتفون باسمه . فبين المقامين تشابه وتقارب .

ولكننا نلاحظ أن البيت الأخير من الأبيات السابقة لا يعطى شرطا محددا ، ولعل شكيب اندفع إليه بهوى المقابلة بين كلمتى « قالها » و « قاءها » ، مع ما نحسه من بعد الكلمة الأخيرة عن لغة الشعر ! .

ومن يدرى ، لعلّ هذا هو السر فى أن شكيب حذف هذا البيت من القصيدة حين أوردها فى كتابه عن شوقى[1] .

وإذا كان شكيب فى مقالة « حقيقة الشعر » قد وصف الشعراء بأنهم يكادون يلحقون بالملأ النورانى ، وأنهم كالأمراء والرؤساء فى مكانتهم وجلالة قدرهم ، وأنهم ملوك الكلام ، وأن شعرهم أبقى الآثار ، فلا غرابة إذا رأيناه يوصى الشاعر بأن يجعل الشعر فوق كل شىء ، وفوق كل منحى من مناحى الحياة ، ما دام يريد أن يكون شاعرا عَلَماً ، فيقول شكيب :

« ولا يجوز للشاعر أن يجعل السياسة أو الاقتصاد أو الصناعة أو الفقه أو شيئا آخر من مناحى الحياة فوق الشعر ، بل ينبغى أن يكون الشعر هو غرضه الأول ، وأن تدور حياته من حوله ، فجميع المشاغل تكون له فضلة ، ويكون الشعر هو العمدة » .

ثم قال شكيب : « إن شوقى كان يفكر فى الشعر قاعداً وقائماً ، وحاضراً وبادياً ، وسائراً وساريا ، وفى المركبة وماشياً ، إلى غير ذلك ... فقد قام نحو الشعر

---

(١) كتاب « شوقى » ، ص ٨٥ .

بالواجب الذى لم أقم به أنا ولا غيرى ممن جعل الشعر فضلة عمله ، ولم يقله إلا عند الضرورة ».

وقد أعطى شوقى نفسه للشعر، فأعطاه الشعر مالم يعط غيره فى هذا العصر[١].

وهو يتحدث هنا عن الشاعر الذى يريد أن يأتى مجلّيا ، وإلا فهناك شعراء جمعوا بين الشعر وغيره من الأعمال ، وكان شعرهم جيداً ، وإن لم يتصدروا الطليعة بين الشعراء .

• • •

ويقول شكيب : « ومن المعلوم أن صاحب الصنعة إنما يتقدم فيها إذا كان راغباً لا متكلفاً ، ومغرما لا متبرماً ، وكان مجتهداً أن يبدع فيها لأجل الإبداع ، ولأجل سبق غيره من الصناع[٢] » .

ونلاحظ هنا أنه لم يذكر الهبة أو الطبع فى الشعر ، مع أنه قال فى مقالة « حقيقة الشعر » : إن الشعر لا يحسنه إلا أصحاب الطبيعة الصافية ، وقال فيها أيضاً : إن الشعر هبة من الله .

ولو اقتصرنا على الرغبة والمحبة وحدها — دون الموهبة والاستعداد والمعاناة والتمرس والاقتداء والتجربة — لما كفت الرغبة والمحبة وحدها لتخريج شاعر ، فما أكثر الذين يرغبون ويحبون أن يكونوا شعراء ، ثم لا يكونون ، لأنهم حرموا الطبع الشعرى ، واكتفوا بالأمانى ، وإنما هى بضائع النَّوْكَى[٣] .

• • •

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٢ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢١.
(٣) النوكى : الحمقى.

ولقد يريد شكيب أن يبدى رأيا فى بعض الشعر ، أو يحدث أن يطلب إليه طالب أن يبدى هذا الرأى ، فيأتى حديثه غير محدد ، فيه التعميم والتوسع والتعبير بالألفاظ البراقة ، والعبارات الطنانة ، دون أن تستبين بها معالم واضحة ، ويمكن أن نسوق على ذلك أكثر من شاهد :

يقرأ الأمير قصيدة للشاعر محمد حسن النجمى فى مدح الملك عبدالعزيز بن سعود فيقول عنها :

« قرأت شعراً يمتنقه الطبع ، ويشرب به الخاطر ، ويعرف القارىء أعجازه من صدوره ، وتتمثل قافيته من أول كلمة من بيته ، يدل على ملكة غير معتادة ، وطبع متناه فى الصفاء ، ومكانة فى اللغة رفيعة ، وتصرف فى القول سلس القياد ، ويجول به صاحبه كما أراد ، فقلت : والله إنه لعبقرى من يفرى هذا الفرى » . ثم يلحق شكيب هذا الشاعر بأبى تمام[1] .

وكان من الممكن لشكيب — وهو أمير البيان ، والمالك لنواصى القول بأكثر من عنان ، والجوال بقلمه فى أكثر من ميدان — أن يمد سببَ الحديث على هذا النمط من الأحكام العامة والآراء المبهمة ، كأن يزيد مثلا هذه العبارات : « وقرأت شعرا يطعم منه العقل ، وتكتحل به العين ، ويحيط القارىء بمناهيه من مباديه ، ويلمح قاصيه حين يسمع دانيه ... إلخ » . وإذا كان شكيب لم يمد سببَ الحديث هنا على هذه الصورة فقد مدّه ومده فى موطن آخر .

فقد كتب شكيب بتاريخ ١٠ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٣٨ مقدمة لديوان الشاعر شبلى ملاط ، فماذا فعل ؟ . إنه لم يحلل الديوان ، ولم يفصل القول عنه ، ولم يذكر ماله وماعليه ، ولم يبين طريقة الشاعر فى شعره ، ولا خصائص هذا الشعر

---

(١) مجلة الفتح ، عدد ١٤ فبراير ١٩٣٠ .

وأما دخول الآذان بلا استئذان فإن هذا فى هذا العصر شعر ألفيت فى وجهه حجابة السامع ، وتناولته حتى أفهام البلداء تناولَ الأبصار الجادة للبروق اللوامع ، فيكون شعر الأخ الللاط فى وضوحه ونصوعه ، وبروزه وسطوعه ، وتملق خواتمه بهواديه ، وارتباط أواخره بمباديه ، وبأنه لا يحير قارئاً ولا سامعاً ، ولا يصب لهما ذهناً ، ولا يسومهما بقدر الهَبَاءة كَدّاً ولا جهداً ، وإن كان يسومهما العلاء فهو علاء دون تصعيد جاهد ، ولا كد ناصب ، وإنما يطير بك فى آفاق المعالى وأنت على مهاد وثير ، ومركب كريش النعام موطأً بالحرير ، وأنت راكب جناح الأثير ، لا تسمع لللاط بيتاً إلا هتفت له : صرحى ، وتظن أنك تسمع بيتاً فإذا بك تسمع آية : « يا هامان ابنِ لى صرحاً » ! .

ولا ينحصر نبوغ اللاط فى المقاصد العالية والمرائى النائية ، والمنازع التى تجد فيها طائر شعره محلقاً دائماً ، وإن كان فى هذا الموطن لا يُشق له غبار ، ولا يدرَك له مطار ، وإنما هو مستولٍ على الأمد فى أكثر المواضع .

وإن كان قد ملك ناحية الجزل فما فاته الرقيق ، وإن جال فى مآسد السباع ، فطالما جال فى مراتع الآرام ، لا يرود حتى يصيد ، ولا يجول حتى يصول ، ولا يصول إلا صولة الفحول .

ولعله فاته من مزايا الشعر تقليد ما يقال له « الشعر الجديد » ، وخير له أن لا يحسن هذا النوع الذى يشرب منه الإنسان ولا يروى ، وكأنما قارئه يأكل فى نومه كما يقال .

تعمد أهله أن يأتوا بما لم يأت به الأوائل ، ففاتهم الأوائل والأواخر معاً ، وحاولوا أن يبدعوا ويغربوا ، فما قدروا على شىء سوى الإتيان بالأعجم الذى لا يفهم ولا يفهم ، وما قاربوا الإحسان إلا عند ما استولت عليهم السليقة الأصلية ، ونزع لهم العرق العربى الصحيح ، فرجعوا إلى ما نشأوا ، فهم بين أمرين :

إما أن يقولوا ما يفهمه الناس ، وتستسيغه أذواقهم ، وحينئذ فهو الشعر العربي المطبوع على غرار الشعر الجاهلى أو المخضرم أو المولد ، وليس شيء من هذا بجديد

وإما أن يقولوا ما يخالف أسلوب هؤلاء ، ليقولوا بدعاً ، ويحدثوا غير معهود فحينئذ هو الشعر الذى لا يعرف له قبيل من دبير ، ولا شرق من غرب ، وأنا في شك هل يفهمه أنفس قائليه ؟ وإن تظاهروا بفهمه ! .

إن الفصيح لا يتعلق بقديم وجديد ، وإنما هو ما وافق الذوق البشري ولاءم الطبع الإنسانى ، وخاض فى السمع بلا تفكير ، وامتزج بالطبع بلا تطبع وإن هذا مركوز فى فطرة الإنسان منذ وجد الإنسان .

فإن كان الشعر العربى الملائم لذوق هذه اللغة مرآة صافية نقية ، فيكون فى شعر الأخ اللاط الذى ينادى القارىء كل عبارة منه : أن تحتك معنى سريا وأن هذا الشعر مذ كان كان عبقرياً » (١) ! .

الحمد لله ، لقد انتهت المقدمة ، بل انتهت تلك الجمل المسجوعة المصنوعة الشقفة المنمقة ، التى نستطيع أن نجرى القلم عليها فنحذف نصفها ونبقى النصف الآخر ، ومع ذلك لا يضيع من المعنى الذى احتوته شيء ! .

إما أن تكون المجاملة هى التى دفعت بشكيب إلى أن يزخرف تقديم الديوان بهذه الألوان من البديع وما إليه ، وإما أن شكيب حنَّ إلى المقامات التى كان يحفظها ، فأراد أن يضع مقامة على طرازها ، استرواحاً لذكرى ذلك الماضي الأدبى العزيز ، الذى كان يدمن فيه النظر في المقامات تلاوة وحفظاً ، وإما أن شكيب أراد أن يبرهن للناس أنه — وإن قارب السبعين ، وكتب مترسلا

---

(١) مجلة الكتاب ، عدد يونيه ١٩٥٠ .

فى الأدب والتاريخ والسياسة والاجتماع ما كتب بلا تحسين ولا تزيين — قادر على أن يصوغ ذلك النثر الفنى المقتضى ثروةً لغوية ، وذاكرة قوية ، وقدرة على تصريف القول لتسلم له هذه الصنعة اللفظية الدالة على البراعة والإتقان .

ومهما يكن من أمر فإنك تستطيع أن تسمى هذه المقامة الشكيبية السابقة بما شئت من أسماء ، إلا أن تسميها مقدمة فى تحليل ديوان ! .

أشعر الشعراء

إذا كان لشكيب شروط لتمام الشاعرية ، فمن الطبيعي أن يحدثنا عن أشعر الشعراء عنده ، وهو يخبرنا في كتابه عن شوقي بأنه اطلع على شعر البارودي في صدر شبيبته واستفاد منه ، ثم يقول :

« كنا أنا وأخي نسيب رحمه الله نصبو من صبانا إلى طريقة الأولين في الشعر ، ونؤثر شعر الجاهلية والمخضرمين ، والبطن الأول من المولدين ، على شعر أهل الأعصر الأخيرة مهما حلت نكاتهم ، وكثرت الأنواع البديعية في أشعارهم

ثم يذكر طائفة من هؤلاء القدامى ، ويذكر أن المتنبي كان لا يروقه إلا من جهة الأمثال والحكم ، ويرى شعره نازلا في بعض الأحايين عما يجب أن يكون

ثم يقول : « فلما قرأنا شعر محمود سامي سكرنا بأدبه ، ورقصنا على قصبه ، وبعث لنا نشأة روحية لم نعهدها في أنفسنا » (1) .

ويذكر أنه حفظ جميع قصائد البارودي الموجودة في كتاب « الوسيلة الأدبية » لا يخرم منها بيتاً ، وكانت هذه القصائد من أقوى عوامل الشعرية .

ويقرر كما سبق أنه خريج البارودي في الشعر ، وأن البارودي إمامه (2) .

ثم يرتب لنا صفوة الشعراء في رأيه ، ويذكر أشباههم من السابقين ، ويبين وجه الشبه بين كل معاصر وكل سابق ، فيقول :

« أشعر الشعراء عندي هو محمود سامي ، ثم شوقي ، ثم حافظ ، وهؤلاء الثلاثة في هذا العصر هم السابقون في حلبة الشعر ، الفائقون في إجادته، هم أشبه بالثلاثة

---

(1) كتاب « شوقي » ، ص ١٠١ .

(2) المرجع السابق ، ص ١٠٢ و ١٠٤ .

الماضين : أبي تمام الشعر ، ومتنبيه ، وأبي عبادته ، بل هم اليوم لاتُ الشعر وعُزّاه ومناته ، والذى رجحت لهم على غيرهم بيناته ، وأحب أن أشبه البارودى بأبى تمام فى علو نفسه ، وقوة ملكته ، ومتانة أسلوبه ، وأن أشبه شوقياً بالمتنبى فى دقة معانيه ، وسمو حكمه ، وكثرة جوامع كلمه ، كما أن حافظاً يشبه البحترى فى سلاسة لفظه ، وحسن سبكه ، وتأثيره فى النفس » (١) .

وهذه العبارة منقولة من مقال لشكيب يبين به رأيه فى « أشعر الشعراء » ، وقد كتبه إجابة لسؤال وجهه إليه سليم سركيس صاحب مجلة « سركيس » (٢) سنة ١٩١٠ م ، وفى هذا المقال يوازن شكيب بين شوقى وحافظ ، فيرى لحافظ طلاوة ، ولشوقى إجادة ، ويدفع عن الشاعرين بعض التهم ، فيقول إن عامة شعر حافظ « أطلى من عامة شعر شوقى » وغاية ما يقال فيهما أن جيد شوقى أحسن من جيده ، وأن هذا أعلى وذاك أطلى .

وأما كون أسلوب شوقى ركيكا فهو غير صحيح ، وهذا القول فى حق شوقى هو أشبه بالقول الآخر فى حق حافظ بأنه صانع ماهر ، وأن حيلته أكثر من شعره ، وعندى ألف شاهد — لولا خوف الإطالة لأوردتها — على متانة أسلوب شوقى وتسنمه غارب العربية ، كما أن لى بقدرها على قدرة حافظ الحقيقية ، وأنه شاعر مطبوع الفصاحة فهى سجية لا تلهوق (٣) ، وأن مثل حافظ فى الشعراء قليل .
نعم إن شوقى ليس طبقة واحدة ، حتى لا يخاله القارىء نسجاً واحداً ، وهو يذهب مذاهب غريبة أحياناً ، وربما أتى فى كلامه بالتعقيد ، وهذا من وجوه الشبه بينه وبين المتنبى » .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٨٨ و ٨٩ .
(٢) مجلة نصف شهرية ، كانت تصدر بالقاهرة ، بدأت سنة ١٩٠٥ م — ١٣٢٣ هـ واستمرت إلى سنة ١٩٢٦ م — ١٣٤٥ هـ .
(٣) التلهوق : التحسن بما ليس موجودا (القاموس) .

وبعد حديث عن شهرة المتنبى يسود شكيب ليقول إن عيون شعر شوقي لا يقدر على مثلها حافظ وغيره ، وقد يحلق فى سماء الخيال أحياناً حتى يفوق البارودى نفسه ، وهو عندى حامل اللواء، وأبو الجميع » .

ويدفع شكيب تهمة الركاكة عن شوقي بعبارة أخرى ، ويرى أن « نقاوة اللغة هى الشرط الأول للشاعر والكاتب ، والمعانى وحدها لا تكفى ، ولا ينهض بركاكة اللفظ علو المعنى ، وهذا أمر اتفق عليه العرب والعجم »(١) .

ويتحدث عن عفة شوقي فى شعره ، وعن أخلاقه وصفاء نفسه ، وإغضائه عن حساده بسكوت هو أقتل من الكلام أحياناً .

ويدافع عن معارضة البارودى للقدماء ، ويرى أنه « اختار المعارضة فى بعض المظان ليعلم الناس شأوه مع تقدمه » ، ويقرر أن البارودى يكون مظلوماً إذا قيل عنه إنه لم يلحق متقدميه فى معارضته . « فمحمود سامى قد عارض وفاق من تقدمه وقال فى غير معارضة ، فأتى بالشعر الفحل الذى يعيي على الأوائل فضلا عن الأواخر ، وكل ذى مسكة يقدر أن يميز بين التقليد والتوليد »(٢) .

وكأن شكيب خشى أن يفهم قارئوه أنه حين ينوه بالشعراء الثلاثة الأعلام: البارودى وشوقي وحافظ ، يستخف ببقية الشعراء أو يبخسهم حقهم ، ولذلك احترس فقال :

« ولا يجب أن يؤخذ من كلامى هذا فى تفضيل الثالوث الشعرى الاستخفاف بقدر الباقين ، فإن الذين فضلوا حبيباً والمتنبى والبحترى لم يحصروا الشعر فيهم ولا ازدروا سائر الشعراء ، ولكن لسان حالهم يقول :

محاسن أصناف المغنين جمة ... وما قصبات السبق إلا لمعبد

---

(١) كتاب « شوقي » ، ص ٩٠ .
(٢) المرجع السابق .

ولا بد فى الميادين من مجلٍّ ومصلٍّ وتالٍ ومرتاح إلى السُّكَّيت ، وإنى أرى الكاظمى وصبرى وناصف والمطران وسائر من ورد ذكرهم من الشعراء أشبه بالناشىء والنامى والزاهى والمعرّى وأمثالهم ، فليست شاعرية أبى تمام والمتنبى والبحترى بنافية براعة هؤلاء ، بل لهؤلاء مواطن لا يلحقهم فيها أولئك »[1] .

وأعتب على شكيب وضعه المعرّى فى آخر من ذكر ، وإن كانت الواو لا تفيد ترتيباً ولا تعقيباً ، ولكن المتبادر أن المذكور أولا أهم فى نظر ذاكره .

ثم يرى شكيب أن الشهرة لا يجوز أن تكون ميزاناً للفضل ، لأن فى الناس من يغتصب الشهرة ويلصقها بنفسه ، « بينما الآخر قد قنع من الأدب بلذة نفسه ، فلا يترنم بقصائده فى النوادى ، ولا يبتاع من الصحف الألقاب ، ولا يستخدم الكتّاب لإطرائه ، ولا يتم نقصه بالغض من مقام غيره ، وهذه كلها جمل منحوتة من معدن الحقيقة ، وفلذات منقطعة من كبد الصواب ، فإن الشهرة مزلقة ، ولا يصح اتخاذها معياراً ، وقد يقبع فى كسور الخمول من لو اطلعت على حقيقته لأجللته وأحللته أعلى مقام »[2] .

ويذكر شكيب من هذا الطراز أخاه «نسيب» الذى كان من فحول الشعراء ، وكان يفر من الشهرة فلا يعرفه الكثيرون . ويعود شكيب ليحترس ، فقد يظن ظان بكلامه أنه يحارب حب الشهرة ، وهذا الحب عنده « هو مبعث الهمم ، ومثار كوامن الفضل ، ومظهر **درر القرائح** من أصداف الأدمغة » ، ولكنه يريد أن تكون درجة الشهرة هى درجة الفضل ، أى أن يكون نصيب المرء من شهرته بقدر ما له من مكانته وعبقريته .

ولما كان شكيب قد وصف البارودى بأنه أمير الشعراء ، وبأنه الشاعر الفرد

---

(١) المرجع السابق ، ص ٩١ .

(٢) المرجع السابق .

الأوحد ، وكان ذلك الحكم قبل أن تتجلى عبقرية شوقى ، فقد عاد يذكر أن البارودى قد انطوى ، وأن شوقى قد استولى على المكانة الأولى ، فأصبح « نسيج وحده ، لا يجد الناس عنه عوضاً ، ولا يبتغون به بدلا ، وأصبح آثر فى النفوس من كل شاعر سواه ، ولم ينحصر المجد فى نفسه ، بل تناول وطنه مصر ، فصارت تزهو به على غيرها »[١] .

ثم يتعرض شكيب لنقد الرافعى فى رأى له حول الشعر فى مصر ، فقد قال الرافعى عن شوقى : « انفلت شوقى من تاريخ الأدب لمصر وحدها كانفلات المطرة من سحابها السائر فى الجو ، فأصبحت مصر به سيدة العالم العربى فى الشعر ، وهى لم تذكر قديماً فى الأدب إلا بالنكتة والرقة وصناعات بديعية ملفقة ، ولم يستفض لها ذكر بنابغة ولا عبقرى ، وكانت المستجدية من تاريخ الحواضر فى العالم » .

ويرد شكيب على الرافعى قوله ذاكراً أن « البلد الذى نبغ فيه مثل ابن الفارض ، والبها زهير ، وظافر الحداد ، والأبوصيرى صاحب البردة الشريفة فى القديم ؛ ومحمود سامى البارودى ، ومحمود صفوت ، وأحمد شوقى ، وحافظ إبراهيم ، وأحمد محرم ، وإسماعيل صبرى ، وغيرهم فى الحديث ، لا يقال إنه منقوص الحظ من الشعر »[٢] .

والحق مع شكيب ، فقد قسا الرافعى فى قوله ، وأسرف فى حكمه . ونلاحظ فى رد شكيب اطلاعه على تاريخ الشعر فى مصر ، وإحاطته بأسماء الشعراء ومكانتهم ، وإنصافه فى الحكم ، ولذلك نراه بعد أن خالف الرافعى هذه المخالفة يعود إلى موافقته على أن شوقى هو وحده الذى وضع تاج الشعر على مفرق مصر ، وموافقته على أن شوقى اجتمع له ما لم يجتمع لسواه[٣] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٩٢ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) المرجع السابق ، ص ٩٤ .

وإذا كان شكيب قد أبدى رأيه فى إمارة شوقى للشعراء نثراً ، فإنه قد عاد وترجم عنها شعراً ، حيث قال من رثائه لشوقى كما سبق :

ولقد رويتُ الشعر عن آحاده ... وألفت للسباق فى حلباته
وقضيت فيه صبوتى وصبابتى ... وقطفت منه خيرَ نواراته
وأثرت فى البيداء بُزْلَ فحوله ... وأطرت فى الآفاق شُهُبَ بزاته
فرأيت شوقى لم يدع فى عصره ... قِرْنًا يهز قناتَه لقناته[1]

وإذا وافقنا شكيب على رأيه فى شوقى فإننا نتوقف عند رأى قاله شكيب فى شاعر النيل حافظ إبراهيم ،فقد أقيمت حفلة تكريم لحافظ سنة ١٩٠٤ ، وكتب بعض إخوان شكيب من مصر إليه فى سورية يقترحون عليه إرسال أبيات لتلقى فى الحفل ، ومن جملة ما ذكروا من محاسن حافظ أنه يحب السوريين ، وكان ذلك قبيل عيد الأضحى ، وكان البارودى أحد شعراء هذه الحفلة ، فأرسل شكيب أبياتاً منها قوله يخاطب حافظ :

« فأنت إمام النثر غير مدافَع ... وأنت أمير الشعر من بعد « أحمد »

وهذا فى رأيى توسع فى الحكم ومبالغة فى الرأى ، فلو أن إمارة حافظ الشعر بعد أحمد احتملت أكثر من قول فى رأيى ، **فإن إمامته للنثر بلا مدافَع قولٌ غير مسلَّم، فإن مكانة حافظ في الشعر تفوق مكانته في النثر بمراحل.**

ولقد ألقى الأستاذ أحمد الطاهر محاضرات عن حافظ فى معهد الدراسات العربية العالية سنة ١٩٥٣ ، وتحدث عن نثره ، فغاية ما قال فيه إنه « من أرفع أساليب النثر »[2] ، وقال إنه ليس بين أيدينا من نثر حافظ شيء يعتد به غير ترجمته لرواية

---

(١) الديوان . ص ٨٣ ، وكتاب « شوقى » . ص ٩٦ . وبزل الفحول : الجمال التى ضعت أنيابها .

(٢) محاضرات عن حافظ إبراهيم ، ص ٦٠ .

« البؤساء » ، وبأن « أسلوب حافظ فى جزء كبير من أول هذا الكتاب فيه شيء من الألفاظ الغريبة على أسماعنا »[1] .

وذكر أن حافظ فى أسلوب بعض رسائله كان « مقلداً للقدماء ، مترسما خطاهما لايخرج عن أسلوب ابن زيدون فى رسائله الجدية والهزلية ، إلا ليدخل فى أسلوب الحريرى، ويتحدث بلسان السروجى ، أو ليطلع علينا بروح بديع الزمان الهمذانى ليس فى هذا النثر شىء من طبع حافظ ولا من روحه ، وما كان حافظ ليكتب نثرا بهذا الأسلوب ، وهو صاحب الشعر اليسر السلس العذب ، ولكنه حمل نفسه على غير سجيتها مقلدا وعامدا ، وأراد أن يطلعك على علمه باللغة وألفاظها الغريبة عليك ، وعلى علمه بالتاريخ العربى القديم » .

وبعد أن يورد الطاهر نموذجا لنثر حافظ يقول : « وما يحسن بنا أن نمضى فى هذا النثر المعقد المجوج » ثم يقول : « وألف حافظ فى صباه كتاب (ليالى سطيح نحا فيه منحى وأسلوبا مسجوعا لعل أقرب صورة إليه وأقرب أسلوب له حديث عيسى بن هشام ، وهو فيه مقلد للقدامى ، بعيد عن المحدثين ، حريص على اللغة وألفاظها ، أكثر من حرصه على المعانى والصور والأخيلة العالية[2] » .

ثم يجمل الطاهر رأيه فى نهاية الكتاب عن حافظ بقوله : « وأوفى ما يقال فيه إنه شاعر مصرى بكل ما تحتمل المصرية من معان ، وإنه فى الشعر الحزين من أقوى الشعراء ، وإنه شاعر فحل جزل اللفظ جميل الأسلوب[3] » .

وقد حرصت على أن أستشهد بباحث درس حافظ إبراهيم وأحبه دون الاقتصار على رأيى ، ليكون ذلك أدل على أن شكيب كان متوسعاً فى حكمه حينما قضى لحافظ بالإمامة فى النثر غير مدافَع .

---

(١) المرجع السابق .
(٢) المرجع السابق ، ص ٦٥ .
(٣) المرجع السابق .

وربما كان الأفضل فى بحث هذا الرأى أن يرد ضمن آراء شكيب فى الكتابة والكتّاب ، ولكنه جاء هنا لأن شكيب أصدر حكمه شعرا ، ولأن عجز البيت السابق قد تحدث عن إمارة حافظ الثانية : إمارته فى الشعر من بعد أحمد .

ولقد جاء فى هامش الديوان تعليق على كلمة : « من بعد أحمد » . وهذا التعليق يقول : « من شاء يفهم أن حافظاً هو أمير الشعراء بعد المتنبى ، ومن شاء أن يفهم أنه ثان لشوقى [١] » .

ومع ما فى أصل الحكم بإمارة الشعر لحافظ من حاجة إلى نظر ، جاء هذا التعليق فزاده حاجة إلى نظر و نظر .

فلنبدأ بدعوى إمارة حافظ للشعر بعد المتنبى :

لعله من الخير أن أستعين بشكيب نفسه لإبانة الاحتياج إلى هذا النظر ، فهو نفسه يقرر فى موطن آخر أن خليفة المتنبى هو شوقى . يقول : « ومن يا ترى يصح أن يخلف المتنبى اليوم ؟ أولها أحمد ، وآخرها أحمد [٢] » ! .

وشكيب فى مقالة « أشعر الشعراء » التى لخصناها سابقاً يجعل حافظ بعد شوقى فى ترتيب الشعراء الأعلام [٣] ، فكيف يَخْلُف حافظ المتنبى وشوقى موجود ؟ . وشكيب نفسه قد قرر أن حافظ لم يعل علوّ شوقى فى بعض أبياته ؛ وإذا كان قد حكم لعامة شعر حافظ بأنه أطلى من عامة شعر شوقى ، فقد عاد مباشرة ليقول : « وغاية ما يقال فيهما إن جيد شوقى أحسن من جيده ، [حافظ] وأن هذا [شوقى] أعلى ، وذاك [حافظ] أطلى [٤] » .

---

(١) الديوان ، هامش ص ٤١ .
(٢) كتاب « شوقى » ، ص ٧٩ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٨٨ .
(٤) المرجع السابق .

ويعود ليؤكد سبقَ شوقى لحافظ فيقول إن عيون شعر شوقى « لا يقدر على مثلها حافظ ولا غيره ، وقد يحلق فى سماء الخيال أحيانا حتى يفوق البارودى نفسه وهو عندى حامل اللواء وأبو الجميع [1] ».

ويعود ليقول إنه بعد موت البارودى أصبح شوقى « نسيج وحده ، لا يجد الناس عنه عِوَضاً ، ولا يبتغون به بدلا ، وأصبح آثرَ فى النفوس من كل شاعر سواه [2] » .

وأما إذا كان المراد أن إمارة الشعر لحافظ بعد أحمد شوقى ، فمع أن القَدَر قد سبق بالحكم فى ذلك ، إذ مات حافظ قبل أن يخلو عرشُ الإمارة من شوقى ، أرى أن إفراد حافظ بالإمارة بعد شوقى حكمٌ فيه توسع ، والتدليل على ذلك يقتضى بحثا لا يطيقه هذا المجال .

ولا يفوتنى أن أعيب التعليقَ الذى جاء بالهامش ، إذ أنه مبهم محير ، ولظانٍّ أن يظن أن شكيب أراد أن يُرضى شاعرَ النيل — ولا تنسى أن حافظ يحب السوريين — وأن يُرضى الذين اقترحوا عليه تكريمَ حافظ ، وفى الوقت نفسه لا يغضب صديقه وحبيبه شوقى ، فقال هذا البيت ذا الوجهين ، وجاء هذا التعليق فأكد ما فيه من إبهام وتلاعب بالألفاظ .

ويخيل إلىَّ أن شكيب قد اندفع إلى هذا **الحكم** متابعةً لأستاذه وإمامه « البارودى » ، فقد علم أن البارودى قد شارك فى **تكريم** حافظ ، وأسبغ عليه من قبلُ حللَ الثناء ، فليتابع شكيب خطوات أستاذه ، بدليل أنه جاء قبل البيت الذى معنا مباشرة بيت يقول :

وقبلى قد أولاك « سامى » شهادةً ومثلى بمحمود السجية يقتدى

---

(١) المرجع السابق .

(٢) المرجع السابق ، ص ٩٢ .

ومما يدلنا على روح المجاملة والتصنع فى هذه القصيدة أن شكيب لم يقلها ابتداء ، بل اقترحها عليه إخوانٌ له ذكَّروه بحب حافظ للسوريين ، و « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » ؟ .

ولذلك يقول شكيب فى القصيدة :

يقولون لى : شيِّد عن الشام ذكره — ألم يك ولى الشامَ شطرَ التودد ؟
فقلت لهم : أثنى عليه بصالح — عن العرب طُرًّا ، ذاك أصلى ومحتدى

ومما يدلنا على ذلك أيضا أن شكيب انتهز مناسبة إقامة الحفل فى جو عيد الأضحى — وهو عيد لمن حج وطاف واعتمر وضحى — وتحدث فى القصيدة بعقله وصنعته عن أشياء تتعلق بالحج والكعبة والحطيم وزمزم ، والطائفين والعاكفين والراكعين ، والمشاة والركبان على كل ضامر ، فقال — ولم يكن بحاجة إلى ذلك الذى قال — :

حلفتُ بما بين الحطيم وزمزم — وأقسمت بالبيت العتيق المشيَّد
وبالطائفين العاكفين بهذى الليالى — تراهم من ركوع وسُجَّد
يؤمون مثوى للخليل ومرقدا — تلألأ نورا بالنبى محمد
مشاةً وركبانا على كل ضامر — ومن فوق قضبان الحديد الممدد
فما فى حديث الحج لين ، وقد غدا — يجىء على شرط البخارى بمسند[1]

وهكذا شغل جانباً من القصيدة بما ليس من هدفها فى قليل أو كثير .

(١) المرجع السابق ، ص ٤٠ . والضامر : البعير المهزول من كثرة السير لبعد الشقة.

بين القديم والجـــديد

لقد كان شكيب يحب قديم الشعر ويعتز به ، ولذلك كان طبيعياً أن يقاوم دعوةَ التجديد بما أرادته من تحرر فى اللغة والمعانى والقافية والصُّوَر ، وقد حمل شكيب على الجديد فى أكثر من موطن ، ولعلَّ السر فى هذا هو تأثره بأساتذته أساطين الحِفَاظ على اللغة والاعتزاز بها ، أمثال البستانى ، والشدياق ، ومحمد عبده ، والبارودى . كما أن عثمانيته الأولى كانت سببا فى حرصه على القديم ، لأنه كان يرى هذه العثمانية عنوانَ الصبغة الإسلامية ، وقد نشأ معتزاً بالإسلام مدافعاً عنه ، وقد رأى من حوله الكثيرين من أبناء بلده لبنان لا يلتقون مع العثمانية فى دين ولا فى عاطفة : بل هم ينظرون إلى الأتراك على أنهم دخلاء طارئون ، وكان هؤلاء اللبنانيون — من غير العثمانيين — يولون وجوههم شطرَ أوربة بما فيها من تيارات واتجاهات فكرية واجتماعية ، ليأخذوا عنها القدوةَ والمثل . فكان هذا يثير حفيظةَ شكيب ، ويدعوه إلى الإلحاح فى التمسك بالقديم ، والعضِّ بالنواجذ عليه ، والدعوة إليه ، وإلى الوقوف فى جانب القلة من مواطنيه الذين آمنوا باللغة العربية أمًّا رءوماً تستطيع أن تضم تحت جناحيها جميع أبنائها ، حتى ولو اختلفوا فى الدين والاعتقاد .

كما كان يدعوه هذا الوضع إلى الوقوف فى وجه الجديد أكثر من مرة . فقد أخذ فى مقدمته لكتاب « أناتول فرانس فى مباذله » الذى ترجمـــه ونشره سنة ١٩٢٦ م يمجِّد شأنَ اللغة العربية كما عرفنا ، ويدعو إلى الحفاظ عليها والاعتزاز بها ، حتى تبقى سليمة كريمة ، فيقول :

« لا ينبغى لناشئة العرب أن يعدلوا بهذه الأم العربية البرة أمًّا ، ولا يجعلوا لها من بين اللغات ندًّا ، وأن يجعلوها قطبَ رحى المثاقفة ، ويعلموا أنها نعم السند يوم المماتنة ، فلا يرتبوا أفكارهم فى لغة قبلها ، ولا يضلوا فى الإبانة عن ذات نفوسهم

سبلها ، حتى إذا صفت لهم مشارعها ، وحنت لهم أجارعها ، وصارت ملكتها جارية مجرى المهج من نفوسهم ، نازلة منزلة الأدمغة من رءوسهم ، كان لهم أن يستزيدوا من آداب الغرب والشرق ما شاءوا وتطالت إليه عزائمهم ، وأن يضموا إلى التلاد العربى القديم طريفَ البضائع ، ويضيفوا إلى الإرث العُدْمُلى الكريم حديثَ البدائع ، مشروطاً فى نقلها إلى خزانة العربية لأجل تمام المقصد واجتناب المجنة أن يكون الأسلوب العربى الأصيل ظلها وماءها ، وديباجة النطق بالضاد أرضها وسماءها ، وأن تكون لغة الكتاب المنزَّل على أفصح العرب ألفها وباءها ، إذ بدون ذلك تفسد هذه اللغة الشريفة ، ونكون طلبنا المزيد فوقعنا فى النقصان ، وأردنا الانتصار ، فباء قومنا والعياذ بالله بالخذلان[1] » .

وشكيب هنا منصفٌ فى دعوته ، معتدل فى طريقته ، فهو يطالب أولا بإعزاز اللغة العربية ، لأنه لا قومية بغير لغة ، ويطالب أبناء هذه اللغة بأن يتكلموا بها ، ويرتبوا أفكارهم على طريقتها ، لا على طريقة لغة غيرها ، حتى يكونوا أصلاء فى قوميتهم وفى لغتهم .

ثم هو يبيح — بل يستحسن — بعد ذلك أن نستمد من آداب غيرنا فى الشرق والغرب طريفَ البضائع وحديث البدائع . بشرط أن ننقل ما نستعيره إلى لغتنا وأسلوبنا ، وأن نهضمه بعقولنا وقلوبنا ، وأن نحيله زاداً جديداً ، فيه انتفاع بمواد من هنا ومن هناك ، ولكنه بعد ذلك زاد عربىُّ الصبغة ، عربى الصيغة ، عربى اللسان والبيان .

ثم ينتقل شكيب خطوة فى التصريح عن تأييده القديم ، وتفنيده الجديد ، فنراه فى تقديمه لديوان أخيه نسيب الذى نشره سنة ١٩٣٥ يقول :

---

(١) أناتول فرانس فى مباذله ، ص ٦ . والمثاقفة : المجالسة . والممانتة : المباراة . والعدملى : القديم .

«لم يكن نسيب أرسلان يعرف شيئاً من الأسلوب الشعرى الجديد الذي يترنم بعضهم بجماله ، ويكدون خواطرهم للنسج على منواله ، بل ربما كان إذا قرأه لم يفهمه ، وإذا تأمل فيه لم ينحلّ لديه معجمه ، لأنه مباين لأساليب العرب التي تألفت منها لغتهم ، وانطبعت عليها بلاغتهم ، أيامَ كانت لغتهم فى عنجهية أمرها ، ومقتبل عمرها ، ومهز بيضها ، ومجر سُمْرها ، وأيام اعترف أساطين الحكمة وسلاطين البلاغة من أمم الأعاجم أن هذا هو الدور الذى بلغ به العرب الذروةَ العليا من فيض القرائح ، ونبل الخواطر ، وتمام الشاعرية ، واستفحال العبقرية .

وهؤلاء الغربيون — وهم مقتدَى الشرقيين فى كل شىء — لم نسمع أنهم نبذوا شعر (هومير) لتقادم مدته ، ولا حقروا (فرجيل) لعدم جدته ، ولا عدلوا عن (غوته) و (شكسبير) لأنهما ليسا من أهل القرن الأخير ، بل هؤلاء وأمثالهم ممن غبروا إلى اليوم عندهم أحياء ، تتجاوب بصدى أقوالهم الأحياء ، وهم فى أوربة أوتاد الأدب الذين بهم علت سرادقاته ، وأعلام البيان الذين منهم ظهرت آياته . وعنهم روت رواته .

فالأدب الأوربى إلى هذه الساعة أدب أثينة ورومة ، وجميع ما بسق من فروعه وشماريخه هو مشتق من تلك الأرومة .

فأين إذن الأدب الجديد الذى يدَّعون وجوده ؟ وأين الأسلوب الأدبى الطريف الذى قد أجادوا توليده ؟ . إن الجواب على هذا لمعجز ، وإن الخوض فيه لمحرج (١) » .

ثم يزداد شكيب صراحةً فى مهاجمة الجديد والسخرية به ، فنراه فى كتابه عن شوقى الذى نشره سنة ١٩٣٦ يورد بيتى شوقى :

« هومير » أحدث من قرون بعده شعراً ، وإن لم تخل من آحاد

---

(١) روض الشقيق ، ص ٤ و ٥ .

والشعر في حيث النفوس تلذه   لا في الجديد ، ولا القديم العادي

ثم يسارع شكيب إلى تأييد شوقي في رأيه ، ويتوسع في مقاومة الجديد ، فيقول فيما يقول :

« لو كانت القدمة مما يهجن الشعر لوجب أن يكون (هومير) منبوذاً ، فإنه أقدم شاعر ، ونحن لم نزل نقول لهؤلاء الذين لا يفتأون يتكلمون في القديم والجديد من الشعر ، ويزعمون أن لكل عصر « مدرسة » على قولهم في الشعر : إن هذه « المدرسة » تكون في العلم ، وتكون في الصناعة ، وتكون في الزراعة ، وتكون في كل شيء إلا في الشعر ، فإن مدرسته هي القلب ، وإن طريقته هي النفس ، وإن النفس البشرية لم تتغير ولن تتغير ، فهي هي في أذواقها ومشاربها ، ومواردها في الحياة ومصادرها .

فإذا كان العلم يتغير بظهور حقائق جديدة ، وبروز أسرار كونية كانت حتى اليوم خافية ، فإن العلم شيء والشعر شيء آخر .

وماسمعنا — يا ليت شعري — أن الإنجليز زهدوا في شعر (شكسبير) لكونه عاش قبل هذه الأيام بثلاثمائة سنة ، ولا أن الألمان عابوا (غوته) لقدم عهده ومجيئه قبل اليوم بمائة وخمسين سنة ، ولم يزل (غوته) هو عند الألمان سيد الشعراء ، ولم يزل شكسبير عند الإنكليز أكبر الشعراء .

وشكسبير ، وغوته ، وملتون ، وكورنيل ، وراسين ، ودانتي ، وكل هؤلاء لم يعرفوا شيئاً من أوضاع العصر الحاضر ، ببداهة كونهم قد سبقوه بأعصر ، وهم على كل حال متقدمون لا محدَثون .

وكم من مرة نقول لهم : ليس الشعر بكيمياء ولا طب ولا جغرافية ولا طبيعيات ، وإنما هو تأثرات نفسية وانطباعات فكرية لا غير .

هذا من جهة الشعر على العموم ، وأما من جهة الشعر العربي الذي تريدون أن

نفرنجوه ، فالشعر العربى لا يكون شعراً إلا إذا وافق ذوق العرب ، ولاءم مشارب أنفسهم ، وجانس مذاهب لغتهم ، واتصل بمناحى حياتهم ، نظمه قديم أو متوسط أو محدث ، كلهم على حد سواء .

فإذا باين الشعر العربى أساليبَ العرب فى بيانها وطرقها فى التعبير عن خوالج نفسها لم يتأثر به قارئ ، ولا تسوَّغه سامع من العرب ، وربما لم يفهموه أصلا ، على حد ما قال الأستاذ محب الدين الخطيب : إن الواحد من هؤلاء « يظل يوم يسطو على منظومات الإفرنج ، يستل منها معانيها الغريبة عن الأذواق العربية ، فيصوغها بألفاظ وتراكيب يلعن بعضها بعضاً ، فلا يفهم منها القارئ العربى إلا بقدر ما أفهم أنا من الصينى » . وأنا أيضاً معترف بأنى لا أفهم هذه اللغة التى يكتبون بها[1] » .

ويحسن أن نقف قليلا أمام هذا النص ، فشكيب ينكر وجود المدارس فى الأدب ، ويقصرها على العلم ، ولست أدرى كيف يجيز وجود المدارس فى العلوم ولا يجيزها فى الآداب ، وشكيب نفسه كأنما اندفع بغير وعى إلى إجازتها حين قال : إن مدرسة الشعر هى القلب ، وأن طريقته هى النفس .

فهذه النفس البشرية بعيدة الأغوار ، سحيقة الأعماق ، متكاثرة الألوان بتكاثر أصحابها ، وصدق القرآن حين قال : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » . فالنفس البشرية — ممثَّلة فى أفرادها العديدين — عالم رحيب وسيع ، ولله در الشاعر حين خاطب الإنسانَ صاحبَ النفس البشرية بقوله :

وتزعم أنك جرمٌ صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر

ومادامت النفوس مختلفة المشارب متعددة المنازع ، فلم لا تفترق ، وتتباين مذاهبها ، وتتقارب مسالكها أو تتباعد ، وتتآلف طباعها أو تتخالف ، وتتدانى أو تتنافر ؟ .

---

(١) كتاب شوقى أو صداقة أربعين سنة ، ص ٢٣٦ و ٢٣٧ .

ولم لا يكون اختلافها فى مجال الأدب أوضحَ من اختلافها فى غيره ، لأن للذوق دخلا كبيراً فى مجال الأدب ، والأذواق متباينة . حتى قيل من قديم : « لولا اختلاف الأذواق ماراجت الأسواق » ! . وشكيب كأنه يرد على نفسه بنفسه حين قال فى موطن آخر : « وليس الشعر والأدب ميكانيكيات وموارد يستوى فيها العربى والعجمى[(١)] » .

وكيف نقصر وصف « المدرسة » على نطاق العلم ، والعلم هو إدراك حقيقة وكشف مجهول ، فإذا تحقق الإدراك والكشف ، فقد استوى كل مدرك وكاشف مع غيره فى أصل هذا العلم ، ولن يستطيع فريق من العلماء أن يشذوا ويقولوا إن الأرض ثابتة غير متحركة ، بعد أن أثبت العلم أنها تدور ! .

وإذا كان شكيب ينكر على المجددين تهاونهم باللغة ، أو خروجهم على قواعدها ، أو مسخهم لها عن طريق خلطها بسواها على غير هدى أو بصيرة ، فنحن معه على « طول الخط » ، إذ لابد من رعاية حق اللغة كاملاً فى هذا المجال ، مع تذكر أن اللغة كائن حى ينمو ويزيد ، ويقبل التطعيم فى حدود وبقيود .

وأما إذا كان شكيب ينكر على المجددين أن يسلكوا طرقاً فى أداء أفكارهم غير الطرق الموروثة ، أو يحدثوا تشبيهات أو استعارات أو معانى أو صوراً بيانية غير ما كان مألوفاً ، فلست معه ، فما دامت الحياة تتجدد ، فمن حق الأديب أن يتجدد معها ، فالشاعر القديم كان يريد أن يعرض فى قصيدة أمراً ، فيقدم بين يديه غزلاً أو نسيباً ، فماذا على شاعر اليوم لو أنه اختصر الطريق فلم يتغزل ولم ينسب ؛ ودخل مباشرة فى الموضوع ؟ .

ولقد كان الشاعر القديم يستنبئ الدِّمنَ ، ويقف على الآثار ، ويبكى الطلول ، ويستوقف الرفاق ، ويستبكى معه الصحاب ، فماذا على شاعر اليوم لو أنه لم

(١) المرجع السابق ، ص ١٣٧ .

يفعل شيئاً من ذلك ، وعبّر عن عواطفه ومشاعره بطريقة أخرى فى أسلوب عربي مبين ، يرعى للغة ولأصولها حقوقها كاملة ؟ ! . .

على أنه يجب أن أنبه نفسى وأذكّرها بأنى لا أبحث هنا موضوع القديم والجديد ، ولا أؤرخ له ، ولا أتابع مراحله وأطواره ، ولكنى أعرض رأى شكيب ، فلأعد إليه ، لأراه يواصل زمجرته الراعدة فى وجوه الداعين للجديد ، فيتحدام أن يضارعوا أمراء البيان وفرسان الكلام من السابقين الذين حفظوا على اللغة جلالها ، وعلى الأدب العربى روعته ، فيقول فى رثائه للرافعى :

من ذا يضارع فى البيان عصابةً ... قد أوضحوا نهج البلاغة نيِّرا
هم ذلك السلف الذين لسانُهم ... تنحط عنه جميعُ ألسنةِ الورى
من ذا يطاول فى البلاغة أحمدا ... وصحابَه ، وأبا تراب حيدرا ؟

وأبو تراب حيدر : هو الإمام على بن أبى طالب صاحب « نهج البلاغة » .

ثم يندد شكيب بتفكير المجددين وأعمالهم ، ويُنوّه بالقديم وخلود حلاوته ، فيقول :

زعم الذين نَحَوُا الجديد بأنه ... عصر تحتم أن يخالف أعصرا
حسبوا التدنى فى البيان تقدما ... رأوا الركاكةَ بالثقافة أجدرا
عمدوا إلى التغيير حتى يُحدِثوا ... حدثاً يبلغهم مراداً مضمرا
واستظهروا بمقالة تلخيصها ... أن القديم مضى ، وولى مدبرا
قد فاتهم أن الحلاوة سرمد ... ومذاق طعم الشهد لن يتغيرا
كم من قديم لا يزال رواؤه ... متألقاً يحكى الصباح المسفرا
مهما تقادم جوهر فى عتقه ... فهو الثمين ، وليس يبرح جوهرا
من حاد عن حب الجمال تعنتا ... يتبدل الأدنى ، ويبغى الأحقرا
لغة قَلَوْا أسلوبَها ، وتخيروا ... عنها كلاماً مثل أحلام الكرى

وهكذا مضى شكيب يهاجم الجديد ، ويحض على القديم .

وكما عارض شكيب دعوة « الجديد » عارض تحليل الشعر العربى ، ومقارنته بالشعر الأوربى . ومن العجيب أن شكيب صرح بهذه المعارضة فى كتابه عن شوقى الذى يورد فيه نماذج من شعر شوقى ويعلق عليها ، ويستطرد فى تعليقه ذات اليمين وذات الشمال ، ويترك الموضوع أحياناً ليدخل فى موضوع جديد يتعلق به أو بغيره ، وبعد قليل من الوقت أو طويل يعود إلى الموضوع الأصلى .

يقول شكيب :

« فأما أسلوب التحليل الذى درج عليه بعض أدباء هذه الحقبة الأخيرة من هذا العصر يذهبون فيه مذاهب الإفرنج ، لا فى المعنى فقط ، بل باللفظ تقريباً ، ويورد الواحد منهم البيت ، فيأخذ بتشريحه من وجهه ، ومن قفاه ، ومن أسفله ، ومن أعلاه ، ويشير إلى ما هنا من عاطفة جريئة ، وما هناك من ابتسامة بريئة ، ويستعمل فى الوصف تلك الألفاظ الأوربية التى ليس فيها من العربى إلا الحروف ، بحيث إن كثيراً من العرب لا يفهمون منها قليلا ولا كثيراً ، فلسنا من هذا الأمر فى قبيل ولا دبير .

وإننا لا نحب أن نخلط العربى بالأعجمى ، ولا أن نخاطب العرب إلا بما يعقلون ويشعرون ، وما تسيغه أذواقهم ، فإن لكل أمة أدباً ، ولكل قوم مشرباً ، وإن الخلط بين شعبان ورمضان إظهارا لسعة العلم ، وتزيداً بما ليس من مقتضى الواقع ، ليس بطريقتنا ، وإننا نؤثر على ذلك أن نكتب مثل هذه الفصول التحليلية بلغة أوربية ، كما يفعل المستشرقون الأوربيون إذا أخذوا كتاباً عربياً فشرعوا فى تحليله .

نعم نؤثر الكتابة بلغة أوربية فى هذا الموضوع ، على أن نباشر هذا التحليل بجمل أوربية فى حروف عربية ، يمشى فيها القارىء مرحلة وكأنه واقف مكانه لعدم ألفته بهذه الألفاظ المترجمة ، وبهذه الأعلام التى هى غريبة عن قومه [١] » .

(١) كتاب شوقى ، ص ١٣٦ .

ثم يرى أن هذه الكتابة لا تُرْوِي شاربا ، لأنها وضع للشيء في غير محله ، ويرى أنه لا بأس ، أن يورد الكاتب في تحليله لبيت من شاعر عربي معنى قد توارد عليه مع شاعر أجنبي ، أو ملاحظة ظهر فيها شيء من الموافقات أو المفارقات بين أدبنا وأدبهم » ، وأما أننا كلما أردنا وصف بيت لطرفة أو قصيدة للأعشى أقحمنا أسماء فيكتور هوغو ، والفرد ديموسيه ، ولامرتين ، وغوته ، وشكسبير ، فهذا تنطع وتحذلق ، وتجب مراعاة الذوق العربي ، وأن نستشهد بأدباء العرب ، لأن العربي كما « يعاف طعام الأمم الأجنبية وشرابهم فإنه لا يفسوغ بالسهولة أشعارهم وآدابهم[1] » .

هذا رأى شكيب في أسلوب التحليل ، ويخيل إليّ كأنه قد خلط بين أسلوب التحليل وأسلوب الموازنة ، لأن التحليل لا يستلزم ولا يستدعي أن توجد ألفاظ غربية أو أسماء أوربية في التحليل ؛ ولكن عماد التحليل أن يفصِّل الناقد مدلول كل كلمة ، ومدى تناسب كل لفظة مع أختها ، وأن يبين ما في النص من سر التركيب وطريقة التأليف ، وأن يتحدث عن كل ما يتعلق بالنص الأدبي ، من ناحية اللغة ، والأسلوب ، والجرس ، والمعنى ، والظلال التي تحيط بهذا المعنى ... إلخ .

بل إن الموازنة قد تتم دون إيراد هذه الأسماء الأوربية التي ذكر شكيب طائفةً منها ، فقد أوازنُ بين أديبين أو شاعرين عربيين ، ولا أحتاج إلى مصطلحات غربية ولا أسماء أجنبية .

ولست أرى بأساً في أن نوازن بين أدب عربي وأدب غربي ، كما لا أرى بأساً في أن نوازن بين أديب عربي وأديب أوربي ، متى توافرت شروط الموازنة .

---

(١) المرجع السابق .

ولا أنكر أن بعض المتعالمين بثقافتهم الأجنبية قد يسمجون فيتحذلقون ويتنطعون — كما يعبر شكيب — ويقحمون كلمات أجنبية وأعلاما أوربية فى كلام عربى لهم ، أو يسمونه عربياً ، ولكن هذا لا ينفى إحسان طائفة من الأدباء والنقاد حينما يحاولون نقل الروائع من لغة أجنبية إلى لغتهم ، أو حينما يحاولون إطلاع القارئين بالعربية على تيارات فكرية ، ومذاهب أدبية ، وصور بيانية فى لغة أخرى ، وليست اللغة القوية قمقما مغلقاً على ما ورثه أبناؤها من تراثها ، ولكن اللغة القوية تتلقى ، وتتقبل ، وتهضم ، وتستفيد ، دون أن تفقد أصالتها وجلالتها واحتفاظها بصبغتها ومكانتها .

ولعلّ هذا هو الذى كان ، ولكن ليس من نطاق البحث أن نفصل كيف كان ! .

وهناك ما يسمى بالآداب العالمية ، وهى تلك الآثار الإنسانية التى يمكن أن تُقرأ فى أكثر من لغة ، دون أن تفقد جوهرها وثمرها ، فكيف يقال إن العرب كما يعافون طعام غيرهم من الأمم يعافون أشعارهم وآدابهم ؟ وكيف وقد أثّرت الترجمةُ إلى العربية عن اليونانية والفارسية والهندية فى القديم ، وعن الإنجليزية والفرنسية وغيرهما فى الحديث ، أكبرَ الآثار ؟ .

ومادام شكيب يناهض الجديدَ بالقوة التى رأيناها ، ويعترض على أسلوب التحليل بالشدة التى شهدناها ، فلن يكون غريباً أن يكره طريقة « الشعر الحر » ، فنراه يقول عن شوقى إنه « قد يتحدى الإفرنج فى شعره ، فلا يبالى مثلا بأمر القوافى التى يكررها كثيراً بالمعنى الواحد ، كما لاحظته فى همزيته الشهيرة ، ولا يعبأ بتجوزات أخرى أعرفها له ، وأخشى أن يتمادى به احتقارُ القيود الشعرية إلى أن ينظم أخيراً بدون قافية نظير شعراء الإنجليز[١] » .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٦٥ .

وما دام شكيب يخشى هذا من شوقى ، فهو إذن يكرهه ويأباه .

وشكيب الذى يقول هذا لا يغيب عنه أن الوزن قيد ، وأن القافية قيد آخر ، وأن هذين القيدين — مع لزوم المحافظة عليهما عند شكيب وأقرانه — يسلبان الشاعر حرية التصرف ، ويجعلانه أسير نطاق غير متحرر ، ولذلك نرى شكيب يتحدث عن قصيدة شوقى التى مطلعها :

مضناك جفاه مرقده   وبكاه ورحّم عوده

ثم يخبرنا بأن أخاه نسيب قد عارض هذه القصيدة بقصيدة مطلعها :

مضناك عصاه تجلده   هل أنت بعطفك منجده

ثم يعلق على عمل الشاعرين فى القصيدتين قائلا :

« إن هناك صنعة تعمدها الشاعران اللذان قيدهما هذا الوزن ، فأصبحا له أسيرين ، يسخّران له المعانى ، ويجران القوافى . ولا جرم أن الوزن والقافية طالما حكما على الشاعر ، وسلباه حريةَ التصرف فى إبراز معانيه كيف شاء ، ولهذا كان أطول الشعراء باعاً وأعلاهم درجة من تراه حراً وهو مقيد[1] » .

بل إن شكيب يقرر أن بعض البحور الشعرية أشد ثقلاً وتقييداً من بعض البحور الأخرى ، ولذلك يقول عن البحر الذى اتبعه شكيب ونسيب فى قصيدة « مضناه » السابقة .

« ولكن بحراً كهذا الذى نظما عليه — وإن كان مُرْقصاً يعجب القارئ بمقاطعه ، ويلذ بخَبَبَه — ترى الشاعر فيه راسفاً فى قيد ثقيل يمنعه أن يجرى جريَه المعتاد[2] » .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٩٤ .
(٢) المرجع السابق .

وشكيب فى موطن آخر ينصح لشوق بأن يحسن اختيار البحور التى يملك فيها حريته ، وأن يتجنب « الأبحر التى فى ركوبها خطر » ، ويقرر شكيب أنه يختار البحور السهلة فى شعره ، ويقول : « ولى نُدْحة فى الطويل والكامل وأشباههما عن هذه الأوزان المرجاء ، وغنى بركوب تلك الأبحر الواسعة عن هذه الخلج الموجاء(١) » .

وخلاصة الرأى عند شكيب هنا هو أنه لا يرتضى الشعر الحر ، بل يطالب بالمحافظة على الوزن والقافية ، لأنهما عماد موسيقية الشعر وانتظامه واتساقه ورتابته ، وهو فى الوقت نفسه يدرك ما فيهما من تقييد وتحديد ، وينصح بالتخفف من وطأة هذه القيود باختيار أوسع البحور وأسهلها .

وأريد أن أقول : إذا كان الأصل المحمود — عند أصحاب عمود الشعر — أن تكون القصيدة كلها على قافية واحدة ، فما هناك من بأس أن تأتى القصيدة مقطوعات ، وكل مقطوعة منها على قافية ، ويكون هذا نوعاً من التخفيف الذى يبيحه شكيب .

وكذلك ينبغى أن نتذكر أن المسرحية الشعرية تضطر الشاعر إلى التنويع فى القافية ، وربما ترك التزامها فى بعض المواقف من المسرحية ؛ مع التزامه الوزن ؛ وما أظن شكيب يغاضب فى ذلك ، فقد قرأ عن غير شك مسرحيات شوقى الشعرية ، ورأى تصرفَه المحدود فى تنويع القافية ، ولم يعب عليه ذلك .

وهذ يذكّرنا بملاحظة نبديها على حديث شكيب عن شوقى ، إذ أنه لم يتعرض فى كتابه عن شوقى لمسرحياته ببحث أو تعليق ، فما سر ذلك ؟ .

لعلّ إعجابه بقصائد شوقى فى الإسلام والأخلاق والاجتماع وغير ذلك من أغراض شعر شوقى قد استبد بعنايته ، فشغله عن تخصيص مسرحياته بحديث ! .

* * *

---

(١) المرجع السابق ، ص ٦٥ . والندحة : ما اتسع من الأرض ، والكثرة ، والسعة .

ومن الإنصاف لشكيب أن نقول إنه على الرغم من مقاومته للجديد وللتحليل الشعرى وللشعر الحر ، كان يرى أن الشعر يحسن ويجود إذا ارتبط بالحياة وتفاعل مع الأحداث ، وأغلب تعليقاته فى كتابه عن شوقى تدور حول شوقيات جاءت فى مناسبات وأحداث قومية ودينية ، وشكيب يجعل من حسنات ديوان شقيقه أنه قال فى الشعر الاجتماعى ، فيقول شكيب فى تقديمه له :

« وأنا منبه القارىء إلى ما فيه من قصائد اجتماعية قد ندر النظم فيها ، وأبيات سياسية أبية ، ثبتت أوتادها ، وشردت قوافيها ، وذلك مثل قصائده فى إعلان الدستور العثمانى ، وفى الحرب الطرابلسية ، وفى الخلافة الإسلامية ، وفى غير ذلك من مقامات الكلام السنية التى تتعذر فيها الإجادة لوعورة مسالكها ، وندورة من غلب على ممالكها [1] » .

* * *

وشكيب يفرق بين « النظم » « والشعر » ، فالنظم عنده وزن ، والشعر شعور ، ولذلك يورد قولَ أحد الكتَّاب الفرنسيين فى أناتول فرانس : « كان شاعراً حتى فى النظم » ، ويعلق على ذلك بقوله :

« بعض الناثرين يكونون شعراء فى نثرهم ، ومنهم أناتول فرانس ، والكاتب يريد أن يقول إن المترجَم [أناتول] كان شاعراً فى نظمه أيضاً ، وقد يجد القارىء هذا التعبير غريباً ، إذ كيف يكون المرء ناظما ولا يكون شاعراً ؟ . والجواب : إن كثيرين ينظمون ، وليسوا فى الحقيقة بشعراء ، بل كما قال واحد : (فقل أنا وزان وما أنا شاعر) [2] » .

وهذه تفرقة صحيحة ، لأن بعض الكلام الموزون لا يفترق عن الكلام المنثور إلا بالوزن وحده ، بينما الشعر الحق هو ما حوى شعوراً وانفعالا .

---

(١) روض الشقيق ، ص ٣ و ٤ .

(٢) أناتول فرانس فى مباذله ، ص ١٤ .

طريقة تأليف الشعر

ونكيب يتحدث عن طريقة تأليف الشاعر للشعر : متى ؟ وكيف ؟ . فيقول فى ذلك كلاما جميلا ، يعرف قيمته من عانى تأليف الشعر ، بل من عانى تأليف النثر أيضاً . يقول :

« ومن أهم ما يغفل عنه الناس ، وهو من أحق الحقائق أن نفوس الأدباء لها أوقاتُ صفاء وأوقات كدر ، وأنها فى أوقات الصفاء قد تبرم قوانين ، وتخلق معانى لا تتأتى لها فى جميع الأحايين . وربما لاح فى فكر الأديب خاطر فى إحدى السويعات لو استرسل لأتى فيه بالعجائب ، على حين أنه إذا نشده فى وقت آخر ، وحاول أن يستأنف ما كان يلوح له فى ساعة الصفاء ، لوجد زنده فيه صلْداً ، ورأى أنه يهيب بتلك الخواطر السابقة فلا تجيبه ، ويطمع أن يقتنص تلك الشوارد التى كانت بين يديه فإذا هى الآن لا تطيعه ، ومنها ما ذهب غير معاود ، ومنها ما عصَى غير مقْرِن .

ولذلك كان يجب على الأديب شفافِ الطبع أنه إذا عنَّ له فى سويعات الصفاء معنى مبتكر أو خاطر شريف ، ووجد هذا الموضوع منثالا ، عليه أن يسرع إلى قيد أوابده ، ويأخذ القلم فيحرره ، وإذا كان شعراً نظمه ، وإذا كان نثراً دبجه ، حتى لا يفوته فيما بعد .

فإن الأفكار من جملة حظوظ الدنيا ، تهبُّ أحيانا وتركد أحيانا ، فإذا هبت مرة وجب اغتنامها ، ولم يجز إهمالها على نية أن يعاد إليها مرة أخرى ، وإن الأفكار نظير الأقدار ، ليس فى مقدور الكاتب أو الشاعر أن يجيدها كل حين ، وقد تفيض على الرءوس أشعةً إذا ولت تعذر استردادها .

فالليب اللبيب هو الذى يقنص الشاردة لأول سنوحها ، ولا يدعها تذهب على أمل أنه يصطادها فيما بعد ، فإنها إذا شردت قد تفوت ، والفلاة طويلة عريضة فلا يحيط بها الصائد ، ولاتطوى له كيف يشاء [١] » .

وهذا الكلام له علاقة بموضوع الإلهام عند الأديب أو الشاعر ، إذ هناك لحظات تمر بالإنسان يبلغ انفعاله فيها بالفكرة حداً عاليا ، وحينئذ ينبغى له أن ينتهز الفرصة فيتلق عن نفسه وقلبه أضواء هذا الانفعال الذى يشبه الاشتعال ، لأنه لو أهمله أو أجله برد وجمد ، وإذا جاء بعد هذا ليؤلف أو ينظم ، كان كمن يحكى قصة سمع حوادثها ، أو رأى هذه الحوادث منذ حين ، ولكنه حين يكون فى غمار القصة وهى تقع ، ويصورها وهى قائمة بجوها وأحداثها ، يكون أقرب إلى الصدق وأقوى على التأثير [٢] .

* * *

ولشكيب كلمة لها قيمتها فى مدلول النص الشعرى ، فهو يقرر أن الإنسان كلما اتسعت ثقافته أو تجاربه اتسع نطاق فهمه لمدلول ذلك النص ، وربما نظم الإنسان شيئا وأراد منه معنى ، فإذا اتسع نطاق الثقافة عنده ، ألقى من ثقافته على نظمه ما يجعل نطاقَ مدلوله أوسع وأفسح ، بل قد ينظم الشاعر شيئا يريد به معنى ، ويأتى القارىء الواسع الثقافة ، الدقيق الملاحظة ، العميق الإحساس ، فيفهم من نظم الشاعر أكثرَ من المعنى الذى أراده الشاعر بشعره ، وكم من نصوص فهمنا منها معانى تحتملها ألفاظها ولا تتأبى عليها أساليبها ، ومع ذلك لم يُرِدْها أصحابها يوم قالوها . وإذا كان السابقون قد قالوا : « المعنى فى بطن الشاعر » فيمكننا أن نقول : « المعنى فى عقل السامع أو إدراك القارىء » ! .

---

(١) كتاب « شوقى » ، ص ٢١ و ٢٢ .
(٢) هناك أيضا من يقول إن الانفعال المستمد فى هدوء قد يؤدى إلى التمكن والتجويد .

فلنستمع إلى شكيب يقول :

«إن كان لك فى الشعر فانظمه شاباً ، وطالعه شيخاً ، لأنك تنظمه شاباً أحسن منك شيخاً ، وتفهمه شيخاً أكثر منك شاباً .

وكأيّ من بيت كنت أحفظه من أربعين سنة ، ولا أجد فيه شيئاً يأخذ بعقلى ، والآن أراني أسكر عند تلاوته ، فالبيت فى نفسه لم يتغير ، ولكن تجلت فيه معان جديدة ، بازدياد العقل وازدياد التجربة[1] » .

نعم ، فنحن نقرأ ما نقرأ بأنظارنا وعقولنا وإدراكنا وعواطفنا ، لا بأنظار الذين كتبوا أو عقولهم أو إدراكهم أو عواطفهم .

---

(١) جريدة الشورى ، عدد ٨ يناير ١٩٣٠ . مقال (سوانح وأفكار) .

الشعر الجاهلي

فى سنة ١٩٢٦ أصدر الدكتور طه حسين كتابه «فى الشعر الجاهلى»، فأثار به الخواطرَ، لما تضمنه الكتاب من حديث عن القرآن والتاريخ والأدب، وقد ذهب الدكتور طه فى كتابه إلى أن الشعر المسمَّى بالجاهلى الموجود بين أيدينا مصنوع منتَحل، وأن الشعر الجاهلى الحقيقى قد ضاع وقضى عليه عصرُ الإسلام[1] وقد أثار الكتاب ضجة كبيرة، وعاد صاحبه فعدَّل فيه، وأظهره بعنوان «فى الأدب الجاهلى»[2].

وليس من منهج البحث هنا أن نتعرض لقضايا هذا الكتاب، ولكن شكيب كان له بمناسبة هذا الكتاب حديث عن الشعر الجاهلى من ناحية صحته وانتحاله، فإن الأستاذ محمد أحمد الغمراوى كان قد أعدَّ كتاباً فى الرد على الدكتور طه بعنوان «النقد التحليلى لكتاب فى الأدب الجاهلى»، ونشره سنة ١٩٢٩، وكتب الأمير شكيب له مقدمةً طويلة بلغت خمساً وخمسين صفحة من الحجم الكبير، وأبدى فيها رأيه فى موضوع الشعر الجاهلى من ناحية الصحة والانتحال، ولذلك جعل عنوان المقدمة: «الشعر الجاهلى: أمنحول أم صحيح النسبة». وقد كتب شكيب هذه المقدمة خلالَ شهر نوفمبر ١٩٢٨، كما نفهم ذلك من خلال حديثه، إذ يورد عبارة نفهم منها أنه يكتب سطوره فى العاشر من نوفمبر ١٩٢٨[3].

وقد بدأ شكيب بذكر مقطوعات شعرية ليست له، ولكنه تمثل بها أو رددها، فنسبها بعضُ الناس إليه، وسجلوها على أنها له، وحاول هو أن يتعقبها ويكذب

---

(١) فى الشعر الجاهلى، ص ٧ و ٢٤ وغيرها.

(٢) فى الأدب الجاهلى، ص ٥.

(٣) النقد التحليلى: المقدمة، ص (يا).

نسبتها إليه ، ثم يعلل تلك النسبة بأنها ناشئة عن خطأ فى الرواية ، أو عدم تثبت فى النقل ، أو العمل بمجرد الظن ، أو التدليس والتزوير من الأعداء والحساد .

ثم يعقب على ذلك بتساؤله عن مصير شعره الذى قاله فعلا ، ويبلغ مئات القصائد ، ونثرِه الذى يملأ الألوف والألوف من الصفحات : أيلزم من نسبة بعض القصائد إليه زورا ، أن يكون كل شعره ونثره أدباً منحولاً له ، ومصنوعاً عليه ، وأنه ليس هو بصاحبه ؟ .

وقد أراد شكيب من هذا الحديث أن يمهد لدخوله موضوع الشعر الجاهلى ، فهو يستشهد للماضى البعيد بشىء معاصر قريب ، ليكون ذلك أدعى إلى الرضا والقبول .

ثم يذكر أن طه حسين بمنطقه فى كتابه فى الشعر الجاهلى جدير بأن ينكر كلَّ الشعر المنسوب إلى الأمير ، ما دام بعض الناس قد ألصق به فى بعض الأحيان شعراً لسواه .

ويرى شكيب أن الدكتور طه فى حكمه على الشعر الجاهلى مقلد لمرغليوث وغيره من الأوربيين ، بسائق عقيدة سخيفة هى أن الأوربى لا يخطىء أبداً ، وإذا كان الغربى قد بذَّ الشرق فى العلوم المادية ، فإنه لم يبذه فى العلوم الأدبية والعقلية ، فليس المستشرقون أعلمَ بالأدب العربى من العرب ، وكيف يميز مرغليوث الشعر المصنوع على لسان الجاهلية من الشعر الجاهلى الأصلى ، وهناك « جهابذة العربية وصيارف اللغـة الذين يعرفون فى لحظة صحيحها من بهرجها »[1] لمرانهم ووقفهم أنفسَهم على خدمة هذه اللغة ، فكيف يكون مرغليوث مثلهم ، فضلا عن أن يكون أحسن منهم ؟ .

ثم يشير شكيب إلى أن أئمة العربية أخلصوا الخدمةَ لها ، فضبطوها وهذبوها ،

(١) المرجع السابق ، ص (و) .

وعرفوا الصحيح من العليل فيها ، ونصوا على ما ثبت أو ترجح أنه وضع بعد الجاهلية ، وهو قليل جداً بالنسبة إلى الكثير الثابت .

وإذا كان شكيب قد عاب على المستشرقين أموراً ، فإنه يحمد لهم أموراً إذ نراه ينصفهم ويعطيهم حقه ، فهو يقول عنهم : « ولا ننكر ما عندهم من علوم واسعة ، وآراء صائبة ، ونظرات دقيقة ، ولمحات عامة ، وطرق فى البحث جليلة ؛ وأن منهم مؤلفين عظاماً ، ومنقبين دهاة ، ولكننا لا نتردد فى القول إننا لم نجد منهم واحدا — إذا رجعت إلى المسألة العربية — نقدر أن نعده عالما ، وأن نقرنه إلى علماء هذه الأمة الحاضرين فضلا ، عن الغابرين »[1] .

ثم يمضى شكيب مقرراً أن الأفرنجى « لا يكاد يصل علمه بحادثة أو حادثتين أو ثلاث حتى يجعل منها قاعدة ، ويبنى على ذلك حكماً ، ويسجله إسجالا ، ويرخى بعد ذلك عنان تصوراته ، حتى لا تعرف نفسك أفى منام أنت أم بقظة »[2] .

ويقول إن كتب المستشرقين عن العرب وبلادهم مشحونة خاطا وخبطا ، والنادر ما كان قليلا ، ويضرب أمثلة على التحريف والخلط من كتاب «الأناجيل» لرينان وغيره ، ثم يقول إن فى هذه الأمثلة « ما يكفى أن يأخذ منه الشرقيون أمثلة كافية مقنعة ، وحججاً راوية مشبعة ، بحيث ينتهون عن هذا المرض : مرض تلقى أقوال الأوربيين قضايا مسلمة ، حتى فيما يهرفون فيه بدون معرفة »[3] .

ولذلك لا يليق بنا أن نسلم للأوربى بكل ما يقول ، أو نعجب بكل ما يفعل ، وإذا كنا قد أخذنا عن الغربيين الكيمياء والطبيعيات والهندسة والطب والاقتصاد والعلوم الاجتماعية فليس بلازم أن نأخذ عنهم العربية .

---

(١) المرجع السابق ، ص (ز) .
(٢) المرجع السابق ، ص (ط) .
(٣) المرجع السابق ، ص (يب) .

ذكر شكيب كلَّ هذا ليهدم أولا فكرةَ الاعتزاز الدائم بما يكتبه المستشرقون ، فإذا هدمها فقد أدخل الوهن على حديث الدكتور طه ، لأنه ناقل عن مرغليوث وإخوانه ، ويكون هذا تمهيداً ثانياً منه للدخول على بيان رأيه فى انتحال الشعر الجاهلى وعدم انتحاله .

ويدخل شكيب بعد هذا كله صميمَ الموضوع : بعد خمس عشرة صفحة قضاها فى التمهيد .

ذكر شكيب أن من يزعمون انتحال الشعر الجاهلى يعللون ذلك بأن الإسلام أراد أن يطمس كلَّ ما تقدمه . ويجيب شكيب بأن إعلاء كلمة الإسلام لا يستلزم تعفية كل أثر من آثار الديانات التى سبقته ، بل يزيد فى فضله أن يعلم الناس أنه قد سبقته أديان عريقة ، وجاء هو فما زال يقوَى حتى قضى على هذه الأديان فى جزيرة العرب .

ومما ينهض دليلا على عظمة ما صنعه الإسلام للعرب تذكيرهم بالبيئة السابقة الذليلة ، وبضدها تتميز الأشياء .

ثم يذكر شكيب برهاناً ثانياً على بطلان القول بأن الإسلام تعمد طمسَ ذكر الأديان السابقة ، على حين أن القرآن المجيد الذى هو مشرق الإسلام وينبوع الإيمان ملآن بذكر هذه الأديان السابقة وأخبارها وسيرها .

ثم يصول فى التعليق فيقول : « والحاصل : لا يكاد الإنسان يجد فى العربى على سعته كلاماً يكيل به مقدارَ حماقة أولئك القائلين إن الإسلام زوَّر على شعراء الجاهلية شعراً لم يقولوه ، ورفع من بين أيدى الناس الشعر الذى قالوه ، وذلك ليمحو ذكرَ كلِّ ملة جاءت قبله ، وأثر كل عقيدة سبقته ، عند ما يكون القرآن شمس الإسلام من أوله إلى آخره لا تكاد تخلو منه صفحة من أذكار هاتيك الملل والنحل ،

لا بل من أخبار الوثنية نفسها التي ذكر القرآن أصنامها كاللات و العزى ومناة الثالثة الأخرى، وغيرها من الأصنام (١)".

ويلتفت شكيب التفاتة بارعة حين يذكر أن الشعر الجاهلي الموجود بين أيدينا، والذي يقال إنه مصنوع، لا نجد فيه تأييداً للإسلام ولا موافقة له، فلماذا صنعه الصانعون ومحوا ما قبله ؟. وما الجدوى من محو شعر مخالف، وصنع صورة منه بعد محوه ؟

إن الشعر الجاهلي الموجود بين أيدينا نستطيع أن نأخذ منه أوضاع الجاهلية، ونستطيع أن نجد شواهد كثيرة على أن الشعر المناهض للاسلام قد بقي، بل رواه المسلمون، حتى نقلوا إلينا قول الأخطل :

ولست بصائم رمضانَ عمرى ولست بآكل لحمَ الأضاحى
ولست بقائل ما عشت يوماً قُبَيْلَ الصبح : حيَّ على الفلاح

وقول الآخر :

لعبت هاشمُ بالدِّين ، وما نبأٌ جاء ، ولا وحيٌ نزلْ
ليت أشياخى ببدر شهدوا جزعَ الخزرج من وقع الأسَل

وأورد غير ذلك من الأمثلة، وقال إننا نجد كتب السيرة « مشحونة بتلك الأقوال التي يدل استقصاء المسلمين شواردَها على أن قضية الحذف والطمس التي يتشدق بها بعض المستشرقين ومن تابعهم من مرضى القلوب من الشرقيين لم يكن المسلمون منها في وِرد ولا صَدَر » (٢).

ويشير شكيب إلى أن طريقة كَمِّ الأفواه وتقييد الأقلام إنما عُرفت في الدول

---

(١) المرجع السابق، ص (يز).
(٢) المرجع السابق، ص (نط).

المتمدينة . ولكن سكان المضارب والقبائل الرُّحّل لم يكن فوقهم من يقول لهم : قولوا هـذا الشعر واتركوا غيره ، وفى العربى عزةٌ تأبى عليه أن يستبد به فى فكره مستبد .

ثم يتساءل شكيب متحدياً عن الوقت الذى تمت فيه عملية الانتحال للشعر الجاهلى : متى صدر الأمر بذلك ؟ ولمن ؟ وممن ؟ ومن الذى بدأ الانتحال ؟ ومن الذين اشتركوا فيه ؟ وأين ؟ وكيف ؟ ! . ثم يقول : « مَنْ تلك العصابة التى تولت كِبْرَ هذا التزوير العبقرى » ؟ (١) .

وينتهى شكيب إلى الحكم ببطلان القول بانتحال الشعر الجاهلى على الصورة التى رسمها الدكتور طه ، ويقول إن المصنوع منه نزر ضئيل ، وقد نبه عليه العلماء من زمن بعيد ، فلا معنى للشك بلا برهان ، وما كان يقيناً لا يزول بشك أو احتمال .

وأرى أن شكيب — على الرغم من إسهابه وتكراره فى مقاله — قد أورد أدلة قوية على رأيه ، وهذه الأدلة تثبت أولا دقة فهمه ، وسعة اطلاعه ، إذ أورد الكثير من الوقائع والحوادث والنصوص ، وكان شكيب فى مناقشته موضوعياً ، لم يسب ولم يشتم ، على الرغم من أن الموضوع يتعلق بأكثر من ناحية من نواحى الدين الذى يعتز به شكيب ويغار عليه .

وقد سبق لشكيب أن تعرض لموضوع الشعر الجاهلى فى مقال عنوانه : « التاريخ لا يكون بالافتراض ولا بالتحكم » ، ونشره الرافعى فى كتابه « تحت راية القرآن » (٢) . وهـذا المقال مذيل بتاريخ كتابته وهو « رومة فى ٨ مارس سنة ١٩٢٦ » ، ولكن مقدمة شكيب لكتاب النقد التحليلى أوسع بكثير من هذا

---

(١) المرجع السابق ، ص (كو) .

(٢) تحت راية القرآن ، ص ٩٣ — ١٠٣ .

المقال ، لأنها تقع فى أضعاف صفحاته ، وهى كلها حول موضوع الشعر الذى يهمنا الآن ، ولذلك كانت أولى بالتقديم ، وإن كانت متأخرة فى الزمن .

وأما مقال « التاريخ لا يكون بالافتراض ولا بالتحكم » فهو — فوق صغره بالنسبة إلى المقدمة — يتحدث عن أمور كثيرة جاء بها موضوع الشعر الجاهلي

وهو فى المقال يقرر خطأ من قال إن السلف فى صدر الإسلام وضعوا رقابة (سانسورا) على الشعر الجاهلى ، لأن هذه دعوى مبنية على الافتراض بلا دليل ، والواقع يناهضها من كل الجهات [1] .

وذكر شكيب طائفة من الأدلة لا تخرج عما فصله وحلله فى مقدمته لكتاب « النقد التحليلى » .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٩٤ .

الفصل الثانى

آراء شكيب فى النثر

بين القديم والجديد

فى الشهور الأخيرة من عام ١٩٢٣ والشهور الأولى من عام ١٩٢٤ ثارت مناقشة أدبية حول تجدد اللغة وأساليبها بين شكيب أرسلان وخليل السكاكينى ، وقد نشرت هذه المناقشة جريدةُ « السياسة » فى خلال المدة السابقة ، ثم جمعها السكاكينى فى كتابه « مطالعات فى اللغة والأدب » الذى طُبع سنة ١٩٢٥ . ومن حسن الحظ أن السكاكينى كان أميناً فى نقل هذه المناقشة ، لأنه لم يقتصر على إيراد كلامه وآرائه ، بل ذكر كلام شكيب وآراءه كذلك ، ولم يذكر كلامَ مناظره تلخيصاً ، بل ذكره بنصه ، فعاون ذلك على إعطائنا صورة كاملة وواضحة لأطوار المناقشة ومراحلها ، ولآراء شكيب فى مسائل كثيرة تتعلق بالنثر ، ولذلك ينبغى استعراضُ المناقشة لتصورها ، ثم يكون الحكم عليها .

بدأت المناقشـة بأن نشر خليل السكاكينى فى عدد ٢٦ سبتمبر ١٩٢٣ من جريدة « السياسة » المصرية مقالا بعنوان « تطور اللغة فى ألفاظها وأساليبها »[١] . ذكر فيه أن اللغـة تتطور فى ألفاظها وأساليبها تطوراً مستمرا فى تؤدة وخفاء ، فلكل عصر — بل لكل إقليم فى كل عصر — لغتُه وأسلوبه ، وضرب أمثلةً على اختلاف اللهجات وبعض الكلمات بين مصر وسورية وفلسطين ، تدل على تطور الألفاظ .

---

(١) مطالعات فى اللغة والأدب ، ص ٩٤ — ٩٩ .

ثم قال إن هناك مذهبين بشأن الأسلوب ، هما المذهب القديم والمذهب الجديد ، ومن خصائص المذهب القديم الولوع بتكرار الكلام فى غير مواطن التكرار ، والإسراف فى استعمال المترادفات على غير حاجة إليها ولا فائدة منها ، واستشهد على ذلك بثلاث عبارات من بيان سياسى كتبه شكيب ، دون أن يذكر السكاكينى اسمه . وقال : إن سبب هذا الترادف إما قلة البضاعة ونزارة المادة الفكرية ، حتى يحسب أصحاب هذا المذهب أن اللغة هى كل شىء ، وإما متابعة لما قال به بعض العرب من الترادف لضرورة ، وإما تقليد للشدياق فى كتابه « الساق على الساق » ، مع أن الشدياق كان يقصد جعلَ كتابه فى المترادفات ككتاب « الألفاظ الكتابية » للهمذانى .

ويقرر السكاكينى أن « هذا النوع من الكتابة غير طبيعى وغير عربى ، أو على الأقل لا يستمرئه ذوقُ هذا العصر[١] » .

ثم يختم حديثه بأن الكلام إما مساواة ، وهى مقبولة مطلقاً ، وإما إيجاز ، وإما إطناب ، ولكل منهما مواطن وشروط ، وأن العرب يميلون إلى الإيجاز ، ويكرهون التطويل الممل ، وأن عصرنا تتغلب فيه لغة « التلغرافات » ، بل تتغلب فيه روح الاقتصاد ، فإذا لم يقتصد الكاتب فى كتابته لم يجد من يقرؤه ، « بل نحن فى عصر المعنى فيه الأول ، واللفظ المحل الثانى ، وبعبارة أخرى إذا لم يرتكز الأدب فيه على العلم فلا قيمة له[٢] » .

* * *

كانت هذه المقالة هى الشرارة الأولى فى معركة المناقشة ، وطالع شكيب المقالة بعد فترة من صدورها ، لأنه كان فى (لوزان) ، « والسياسة » تصدر فى القاهرة ، وعرف أنه المقصود بنقد السكاكينى ، لأن الكلام المستشهد به كلامه . وفى عدد

---

(١) المرجع السابق ، ص ٩٨ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٩٩ .

٧ نوفبر ١٩٢٣ من « السياسة » ظهر ردُّ شكيب على السكاكيني ، وكان ردًا مسهبًا استغرق أكثر من عشرين صفحة من كتاب « مطالمات[١] » ، بينما كان مقال السكاكيني فى أقل من ست صفحات ، وقد قرر شكيب فى أول المقال أن كل عصر من عصور العربية « لا يخلو من ديباجة خاصة » ، وأن كل إقليم له أسلوبه ولهجته ومنزعه ، وهو يتداول طائفة خاصة من الألفاظ ، ثم يذكر شكيب أن السكاكيني أصاب فى أشياء وأخطأ فى أشياء .

وعلل انتقال بعض الأقاليم من استعمال لفظ إلى استعمال لفظ آخر بأن الإقليم كان مخطئاً فى الاستعمال الأول ، ثم عرفَ الصوابَ فرجع إليه ، كما كان بعض المصريين مثلا يجمع كلمة « خصم » على « أخصام » ، ولما عرف هذا البعض أن الصواب هو « خصوم » اتجه إلى استعماله ، « فأنت ترى أن السبب فى ذلك التطور هو متابعة القاعدة واعتقاد تنكب الخطأ[٢] » .

ثم ذكر السبب فى التكرار أو الترادف الواقع فى النداء الذى استشهد به السكاكيني ، وهو أنه قد « وجهه إلى الأمة العربية قاصيها ودانيها ، وحاضرها وباديها ، وخاصيِّها وعاميها ، مراعياً حالة من يخاطبهم ، وضرورة تمكين المعانى من نفوسهم ، وتحريك عواطف حميتهم ، مما هو فى كل لغة وفى كل منطق وفى كل أدب موطن التكرار الأكبر ، ومحل التأكيد الألزم ، إذ كانت المناشير العامة والرسائل الموجهة إلى الجماهير دائماً على هذا النسق[٣] » .

والحق مع شكيب فى أن التكرار له مواطن ، وإن كان السكاكيني — كما نفهم من كلامه — لا ينكر هذا ، ولكنه يعيب التكرار فى غير مواطنه[٤] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٠٠ — ١٢١ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٠٢ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٠٣ و ١٠٤ .
(٤) المرجع السابق ، ص ٩٧ .

وبعد أن يعرّض شكيب بالسكاكيني في عبارات شديدة يتعرض لموضوع المذهب القديم والمذهب الجديد ، فيقول :

« إنني لا أعلم مذاهب جديدة إلا في العلم والفن ، وأما في الأدب واللغة فلا أعرف إلا مذهباً واحداً ، هو مذهب العرب ، وهو الذي يريد [أي السكاكيني] أن يسميه بالمذهب القديم ، وهو الذي يجتهد كل كاتب في العربية أن يحتذي مثاله ، ويقرب منه ما استطاع ، لأنه هو المثل الأعلى والغاية القصوى .

وإذا أراد الكاتب المصري أن يجول في المواضيع الحديثة والمعاني المستجدة ، استنفد جميع مُنّته في إلباس هذه المعاني الجديدة حُلَلَ الأساليب العربية القديمة التي هي أصل اللغة ، والطراز المنسوج على منواله .

وقصارى الأديب العربي اليوم أن يتمكن من إفراغ الموضوع المصري في قالب عربي ، بحيث لا يخرج باللغة عن أسلوبها ، ولا يهجن لهجتها ، ولا يجعلها لغة ثانية ، إذ كان التباعد عن الفصاحة ، والحرمان من حظها ، هما على مقدار التجانف عن أسلوب العرب عند ما كانوا عرباً ، لم تخالط لغتهم العجمة ، ولم تفسد منهم السليقة .

وإن القمة العليا من ذلك هي لغة الجاهلية وصدر الإسلام ، ثم ما يليه نوعاً عند ما كانت العربية في عنجهيتها ، والفصاحة في إبان سورتها .

فأما المذهب الجديد الذي أشار إليه في الأدب والإنشاء العربي فلا نعلمه في المذاهب ، ولا وصل إلينا خبره ، فحبذا لو أتانا صاحبنا بتعريف المذهب الجديد هذا ، ودلنا على أمثلة منه وكتب مؤلفة فيه ، وأخبرنا من هم أساطين هذا المذهب وحملة أعلامه ، فإننا نقر بكوننا لا نعرف في العربي إلا مذهباً واحداً ، كلما قرب إلى نسق الأولين كان أقرب إلى الفصاحة ، وأما في العلوم والفنون فذاك موضوع آخر ، كل يوم نحن منها في شيء جديد ، فلا يجوز أن نخلط هذا بذاك »(١) .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٠٤ و ١٠٥ .

واستشهد على مثال هـذه المحافظة بحال اللغة الفرنسية التى يصونها أهلوها .

ثم نقل شكيب عن « صبح الأعشى » للقلقشندى أن الإطناب « هو الإشباع فى القول ، وترديد الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد ، وقد وقع الكثير منه فى القرآن الكريم للتأكيد » ، كما وقع فى كلام العرب للتأكيد ، وأن بعضهم ذكر أن الإطناب أرجح ، لأن البيان يستلزم إيضاح العبارة ، وإيضاحها يستلزم مرادفة الألفاظ ، حتى يحاط بكل المعنى دون لَبْسٍ أو إبهام .

وبعد أن يذكر الأقوال الواردة فى التفاضل بين الإيجاز والإطناب والمساواة ؛ يخلص إلى تسويغ الإطناب فى منشوره السابق ، لأنه للناس كلهم ، وأما الإيجاز فيكون للخاصة ، ويقول :

« إذن ليست هناك مسألة تطويل ممل وإيجاز مخل ، بل مسألة الإيجاز فى محل الإيجاز ، والإطناب فى محل الإطناب ، فإذا خوطب الحكماء والعظماء والملوك بالكلام المشبع المبسوط المؤكد كان ذلك خللا بأصول الكتابة ، ومنافياً للذوق السليم ، كما أنه إذا خوطبت الجماهير التى لا تجد فيها خاصياً إلا كان بجانبه ألف عامى ، بدقائق من البلاغة وإشارات وكنايات تقتضى إعمال الفكر ، ولا يدرك الجمهور مغزاها ، كان ذلك مخالفاً لآداب الكتابة ، وفات الغرض المقصود من الخطاب ، نعم كان العرب يميلون إلى الإيجاز ، ولكن كانوا يميلون أكثر من ذلك إلى وضع الشىء فى محله » (١) .

ويعود شكيب فيطيل النقل عن « صبح الأعشى » ، ويورد شواهد عربية تدل على استعمال المترادف وإبراز المعنى الواحد بصور مختلفة ، فينقل نصوصاً قالها أبو هلال العسكرى وشهاب الدين الحلبى وأبو طالب وعثمان بن عفان وزياد بن أبيه وعبد الملك بن مروان والحجاج وأبو بكر وعمر وعلى وآخرون .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٠٨ .

واستغرق فى الاستشهاد نحوَ سبع صفحات من الكتاب طال بها المقام وإن كانت هذه النصوص تدل على سعة الاطلاع وحسن الاختيار لموضوع الاستشهاد .

وما كاد شكيب يترك الاستشهاد ليحدثنا قليلا بأن « الاقتصاد فى غير موضعه هو تبذير وإفراط » ، وأن لغة « التلغرافات » لا تصلح للتفصيل والإحاطة ، وأن الغربيين أيضاً يطيلون ، حتى يعود إلى الاستشهاد مرة أخرى ، فينقل عبارات فيها مترادفات للجاحظ ، وعلى بن الجهم ، وبديع الزمان ، والخوارزمى ، وابن خلدون، والصابى ، وعلى بن حمزة .

ويستغرق فى هذا الاستشهاد ثلاثَ صفحات أخرى ، وكان يكفي ما قدم من شواهد ، مع التذكير بمواطن الباقى ، ما دام مناظره لا ينكر ورودها ، ولكن شكيب يعتذر عن التطويل ، إذ أنه قد قصده للإقناع ، ويختم مقاله بعبارة لا ينسى فيها التعريض فيقول :

« وماذا عسى الإنسان أن يستشهد مما ليس له نهاية ، وأرجو الأستاذ المنتقد ألا يؤاخذنى على الإطناب ، لأنه ضرورى لإيجاد صورة تامة فى الذهن ، ولإقناع من كان مكتفياً برأيه ، وأن يتغمد « قلة بضاعتى ونزارة مادتى الفكرية » بوفرة بضاعته وغزارة مادته ، وفوق كل ذى علم عليم » .

* * *

وفى عدد ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٢٣ من « السياسة » كتب **السكاكيني** رده الأول على شكيب[١] ؛ وبدأه بتلخيص مقاله الأول ؛ ثم قال إن شكيب وهو ذلك « الكاتب الكبير الذى نعرف فضله ؛ وإن كنا ننكر عليه مذهبه ؛ غضب جداً » .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٢٢ — ١٢٨ .

ويدلل السكاكيني على صحة انتقاده بأنه لم يرد عليه أحد من الكتّاب حتى ردّ شكيب ليدافع عن نفسه . ورأى أن هذا دليل غير مسلّم ، فعدم الرد لا يستلزم صحة ما قيل :

ثم يعبر السكاكيني بطريقة غير مباشرة عن اعتزازه بنفسه فيقول : « إن جريدة السياسة — ومكانُها في الصحافة الراقية مكانها — قد شرفتني فجعلت مقالي في صدر صفحة الأدب ، وهو المكان المعد لرسائل الأستاذ طه حسين [1] » ! . ويظهر أنه أراد أن يدافع عن نفسه أمام تعريض الأمير به .

ثم قال السكاكيني : إن شكيب لم يغضب إلا لأنه — أي السكاكيني — استشهد بأقواله في التكرار والترادف ، وهما الأمران اللذان أصر عليهما شكيب حتى في رده على السكاكيني ، مما يؤكد « أن الأمير من أصحاب المذهب القديم ، وأنه لا يزال مولعاً بالمترادفات على غير حاجة إليها » [2] .

ثم أورد السكاكيني كثيراً من المترادفات الواردة في رد شكيب ، وانتقل بعد هذا إلى أمر له أهميته ، وهو مصير المترادفات حين الترجمة إلى لغة أخرى ، فقال :

« ما قول الأمير أعزه الله لو شئنا أن نترجم عباراته هذه إلى لغة أجنبية ، ولم يكن فيها من المترادفات ما في اللغة العربية ؟ أفلا نضطر إلى تكراره اللفظ بعينه في غير مواطن تكراره ، فنقع في عيب حاولَ الأمير أن يتجنبه بذكر مرادف اللفظ ، وإن لم يكن فرق في الحقيقة بين تكرار اللفظ بعينه وتكرار بمرادفه » [3] .

ثم ينتقل إلى نقد شكيب لأنه اعتذر عن التكرار والترادف في منشوره بأنه موجَّه إلى الأمة ، فيسائله عن حكمة الترادف في رده الأدبي الذي لا يقرؤه إلا من يهمه :

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٢٣ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٢٤ .

« أما كان الأولى بأدبه وعلمه أن يلزم نفسه قاعدة « خير الكلام ما قل ودل » ؟ ولكنه يظهر أنه لم يراع هذه القاعدة لا فى منشوره الذى « طبعت منه ألوف وألوف من النسخ ليوزع على ملايين وملايين من الأمة العربية فى المدر والوبر ، أو « الأمة العربية جمعاء فى آفاق الأرض ومناكبها ، ومشارق الأرض ومغاربها » أو « الأمة العربية قاصيها ودانيها ، وحاضرها وباديها ، وخاصيها وعاميها » . نعم لم يراع هذه القاعدة لا فى منشوره ذاك ، ولا فى ردّه هذا .

إذا كان لكل مقام مقال فما باله — أعزه الله — يجعل المقال الواحد لكل مقام ؟ . ولست أظن أن كاتباً كبيراً مثله يتعذر عليه أن يتنكب هذا الأسلوب من الكتابة ، لولا أنه ألفه ، واتخذه مذهباً فى كل ما يكتب ، سواء أكان منشوراً تقرؤه الأمة العربية جمعاء فى المدر والوبر ، وفى آفاق الأرض ومناكبها . . . إلخ ، أم رداً ينشر فى صفحة الأدب ، ولا يقرؤه إلا من يهمه أمره وقليل ما هم .

فصار إذا أمسك القلم انهالت عليه المترادفات كأنه يتناولها عن حبل ذراعه ، فلا يتركها حتى يجىء على آخرها ، وليس هذا أسلوب الأمير ، ولكنه أسلوب قديم أكل عليه الدهر وشرب ، ولعله يتصل بعصر الكهان ، وليس الأمير فيه إلا مقلداً » (١) .

ويؤكد السكاكينى أنه لم ينتقد لأجل الانتقاد ، بل ليشرح مذهباً جديداً يؤمن به ، وقال إن الشواهد التى أوردها شكيب — بعد أن أجهد نفسه فى التنقيب عليها — « لم تزد على أن للإيجاز مقاماً وللاطناب مقاماً ، وقد سبقتُ فقلت فى رسالتى تلك إن للإيجاز والإطناب مواطن وشرائط نص عليها البيانيون ، أمسكت عنها تأدباً مع الأمير ، ولو فرضنا أنها تعنى ما يريد فأرجو أن أنبه من الأمير غيرَ غافل أننا نتكلم عن مذهب جديد ، لا مذهب قديم » (٢) .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٢٤ و ١٢٥ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٢٦ .

ويرى السكاكيني أن التكرار يكون لزيادة التأكيد ، ويقول لشكيب :

« إن العامة ياسيدى الأمير لا تفهم منشورك ، أكثرت فيه من المترادفات أم أقللت . إذا أردت أن تخاطب الجمهور فلا إخالك تنكر علىّ أنه يجب أن تخاطبه بلغة مفهومة ، تتجنب فيها مثل قولك : (الشقص الأوفر) إلا إذا كان قصدك أن تنوّمه لا أن تُفهمه »[1] .

وإذا كان شكيب قد أتى بفيض من الشواهد على الإطناب ، فالسكاكيني لا يعجز — كما قال — عن أن يورد أضعافَ أضعاف هذه الشواهد . مما لا ترادف فيه ولا تكرار ، من كلام من يُوثَق بعربيته ، ثم يختم السكاكيني ردّه بقوله :

« كان الأولى بالأمير أن يقول إنه قد ورد في بعض أقوال العرب المنقولة إلينا على ذمة راويها شيءٌ من الترادف ، لا أن هذا أسلوب العرب »[2] .

* * *

وفي عدد ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٢٣ من « السياسة » كتب شكيب ردّه الثاني[3] ، وذكر أنه كان يظن بعد إيراده النصوص التي أوردها أنه لا محل للمناكرة والمكابرة ، ثم يتندر على قول السكاكيني عن نفسه إنه (صاحب مذهب) ، ثم يقول عن السكاكيني إنه : « أنكر جواز استعمال المترادف مطلقاً ، فأوردنا له نطفة من بحر من كلام الأئمة الذى فيه ما فيه من المترادف ، وزعم أن للاطناب مواطن غير المواطن التي أطلنا فيها ، فأوردنا له النصوص والشواهد التي هي مثل فلق الصبح على كون الإطناب مألوفاً في المناشير العامة — التي هي في موضوع منشورنا إلى الأمة العربية — فكيف تكون تلك الشواهد في واد ومسألتنا في واد ؟ . ورحم الله القائل :

(١) المرجع السابق ، ص ١٢٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢٨ .

(٣) مساجلات في اللغة والأدب ، ص ١٢٩ — ١٤٣

وليس يصح فى الأفهـام شىء إذا احتاج النهار إلى دليل »(١)

وغضب شكيب لأن السكاكينى قال عمن استشهد شكيب بإطنابهم : « مَن يسميهم بلغاء وفصحاء » مع أن فيهم اسم الرسول والخلفاء وأعـلام الخطباء والكتّاب ، وفسر شكيب هذه الكلمة بأن مراد السكاكينى منها أنه لا يسميهم بلغاء ولا فصحاء ، وهذا التفسير من شكيب تفسير خَطِر ، وخطورته تكمن في ذكر اسم الرسول والخلفاء بين المستشهَد بكلامهم !.

ثم يقول شكيب مخاطبا السكاكينى : « تحرير القضية أنك أنت تنكر المترادف مطلقاً ، وأنا أقول : بل له مواضع ، وقد جاء فى كلام أهل اللسان المقتدى بهم فى البيان ، ولا ينشأ من ذلك كما يُفهم بالبديهة أننى أنكر بدائع الإيجاز ، أو أوجب الإطناب فى كل مكان ، حتى تورد لى شواهد على مالم تسبق لى دعوى بإنكاره (٢) » .

ثم يقول : « إن الطبيعة البشرية فى هذا العصر وفى كل عصر واحدة ، تميل إلى الإيجاز فى محل الإيجاز ، وتهتف بالمترادف فى محل التأكيد ، وأن الذى قرره من ذلك علماء الأدب هو المنطق المعقول الملازم للبشرية ، الذى ليس فيه قديم وجديد ، لأن العقل ليس فيه قديم وجديد (٣) » .

ثم يرد شكيب على مسألة صعوبة الترجمة للمترادف فيقول : « وأما أنه لو أراد الإنسان ترجمة المترادف إلى لغـة أجنبية لازم تكرار اللفظ بعينه فليس بوارد ، لأن كل لغة لها روح ، ولا يقال إن هذا الفرنساوى ليس بفصيح لأننا عند ما ترجمناه إلى العربى بنصه لم يكن له طعم ، ولا أن هذا العربى غير بليغ .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٣٠ و ١٣١ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٣ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٣٥ .

أفلا ترى أننا عند ما جملناه فرنساوياً ظهرت فيه كلمات مكررة ، فمن البديهيات أن معيار فصاحة اللغة لا يكون إلا فى نفس اللغة .

خذ فيكتور هوغو وترجمه إلى العربية ، فماذا تجد فيه مما يستحق كل هذا الإعجاب ، مع أنه فى لغته هو السنام الأعلى (١) » ؟ .

ثم أخذ شكيب على السكاكينى أنه هو أيضاً أكثر من المترادفات فى مقالته ، وأنه كرر جملة : « ولا حاجة إليها ولا فائدة فيها » ثمانىَ مرات فى مقالة قصيرة .

ثم يعاود شكيب إيرادَ أمثلة للترادف من كتّاب معاصرين ، ويقول خاتماً ردّه بهذه العبارة التى لم تخل من حدة :

« لا أظن القارىء البصير يحتاج إلى تبيُّن ما فى هذه الجمل البديعة من المترادفات التى تزيد المعنى توضيحاً ، وصبغة القول تلويناً ، والتى لولاها لم يتم التأثير المطلوب فى النفس ، ولكن قاعدة الأستاذ السكاكينى تحظر كل هذا ، وتعده « غير عربى » وإذا حاججته بكلام السلف الذين ورد فى كلامهم مثله قال لك « غير طبيعى ، أولا يستمرئه العصر » ، وإذا قلت له إن هذا أسلوب الروائى الروسى إيفان ترجنيف ، ولا شك أنه أسلوب عصرى أوربى لا تقدر أن تقول فيه شيئاً ، أجابك : إلا أن هذا ليس مذهبى ، وجفّ القلم . ومن هنا تعلم أن صاحبنا ليس فى القديم ولا الجديد (٢) » .

***

وفى عدد يناير عام ١٩٢٤ من « السياسة » كتب السكاكينى ردّه الثانى على

(١) المرجع السابق ، ص ١٣٥ و ١٣٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤٣ .

شكيب[1] ، وأشار فى أوله إلى تطويل الأمير فى رده ، وقرر أن التكرار لا يكون إلا لزيادة التأكيد التى لا تقتضيها إلا المعانى التى يراد شدتها وعظم تأثر النفس بها وأن المناشير العامة يجب أن تكون بلغة مفهومة لا غريب فيها ، وقال إن المناقشة لم تتقدم ، ولذلك يكون الجدال عقيما ، ثم لاحظ ما يلى :

١ — أقلع شكيب فى رده عن المترادفات ، وهذا فى رأى السكاكينى اعتراف من شكيب بأن مذهبه ليس طبيعياً ولا عربياً ، ولا يستمرئه ذوق العصر ، وتمنى من شكيب ألا يعود إلى الترادف .

٢ — كان الأمير فى رده الأول يستشهد من « صبح الأعشى » وأقوال القدماء ، فجعل فى رده الثانى يستشهد بكلام المعاصرين ، وهذا دليل على أنه تجدد .

٣ — الأمير أكثر من كلمات التعريض واستعداء القراء ، وليس هذا من لب الموضوع فى شىء .

٤ — شكيب يعظم شأن القدماء ، ويقول إنهم أساطين اللغة وسلاطين البلاغة ، وهو يقلدهم ، فكأنه يريد أن يحشر نفسه معهم فى هذه الأوصاف .

٥ — شكيب حاول إثارة القراء حينما ذكر اسم الرسول وأسماء الخلفاء ، وكأن شكيب يريد أن يقول للقراء عن السكاكينى : « هذا هو الذى ينتقص فضل السلف الصالح فارجموه » .

٦ — على الرغم من إقلاع الأمير **فى أكثر رده الماضي** عن المترادفات أراد أن يظهر بمظهر المحافظين ، **فأتى بجمل فيها ترادف** .

ثم يختم رده بقوله : « إذا كان هذا مذهبك أيها الأمير ، ولا إخال أحداً

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٠٤ — ١٠٩ .

يقرُّك عليه ، فقد انقطع الجدال ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وصار يحق لى الآن أن أقول : لك مذهبك ولى مذهبى ، وإنهما لمختلفان جدا ، ومن المستحيل أن أقنعك ، ومن المستحيل أن تقنعنى ، وما أحرانى أن أقف هنا ، وأترك بقية تعليقاتى على ردك [١] » .

وفى عدد ٦ مارس ١٩٢٤ من « السياسة » كتب شكيب مقالاً بعنوان « العربى شرط لازم فى القديم والجديد » [٢] . وبدأه بأنه لاينكر الأسلوب الجديد : « أنا لم أقل فى وقت من الأوقات إنه لايوجد أسلوب جديد ، وإنه يحرم على الناس التجدد ، وإنه إن جاز فى شىء فلا يجوز فى البيان ، وإنما قلت إن لكل لغة أسلوباً أصلياً ، أو نصاباً معروفاً لا بد من المحافظة عليه ، وليس هذا خاصاً بالعرب وحدهم .

وإن اللغة العربية يمكنها أن تسع المعانى الجديدة، ومن المواضيع العصرية كان مايعن للكاتب ، ويتوخاه المؤلف ، مع مراعاة ديباجتها الأصلية التى إن خرج البيان عنها كان عند العرب مستهجنا .

وقلت فى موضوع التجدد : إن العقل البشرى هو بنفسه لايتغير ، بل المعلومات هى التى تتغير ، فأما الميزان الذى هو الراجع إليه الحكم بأن هذا صحيح وهذا فاسد ، وأن هذا أصح من هذا ، فإذا كان قابلاً للتغيير فقد بطلت جميع الأحكام » [٣] .

وقال إن هناك أموراً استحسنها الناس ، وسيظلون يستحسنونها دائماً : « وذلك أن هناك ذوقاً خُلق فى فطرة الإنسان لا يزول إلا بزوال هذه الفطرة ، أو استئناف فطرة ثانيــة مباينة للفطرة الأولى ، وليس المراد من ذلك حظر التجدد فى الطرق والأساليب والزيادة والنقصان ، ومراعاة المكان والزمان ، والتلون بصبغة الألوان المختلفة . كلا . إن التجدد فى هذه العوارض هو مما لم يخل منه زمان ، ولا قال بمنعه

(١) المرجع السابق ، ص ١٤٨ و ١٤٩ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٠ ــ ١٦٢ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٥٠ .

عاقل ، كما أن هـذا لا يمنع القول بوجود مبادىء ثابتة راهنة لا تقبل التغيير ولا التبديل[١] » .

كما يرى شكيب أن الأدب يجب أن يرتبط بالحياة وأحداثها ، وأن تكون المعاني حضارية مع بداوة الألفاظ ، وأن كل عصر له أسلوب ، وكل قديم فى الأصل جديد ، وكل جديد سيعود قديماً ، ولـكن اللغة ليست فوضى ، بل يجب التزام قواعدها وضوابطها .

ثم لا يقلع شكيب عن عادته فى هـذه المناقشة وهى كثرة الاستشهاد ، فيورد « نتفة من الشواهد على الترادف » ، ويذكر فيها كلمات للزمخشرى وابن الأثير ، وكلمات لأحمد زكى وطه حسين وغيرهما ، بل يستشهد بأن البيان الصادر عن الوفد الفلسطيني الذى يرجح أن السكاكيني كاتبُه فيه ترادف .

ثم يعرض شكيب بالسكاكيني حين يذكر أنه لم يقرأ له شيئاً من النثر ليعاكه إلى نفسه من نفس كلامه ، وكل ما قرأه له هو سطور معدودة « تجنب فيها جهد الطاقة استعمال الترادف ، ولـكن الأسلوب العربى غلبه كما مرّ بك من كلامه »[٢] .

ثم يستمر شكيب فى التعريض بالسكاكيني ليختم بذلك مقاله .

• • •

وفى عدد ١٩ مارس ١٩٢٤ من « السياسة » نشر السكاكيني ردَّه الثالث والأخير على شكيب[٣] ، وقد قال فيه إن انصراف السابقين إلى الصناعة اللفظية — ومنها الإطناب والترادف — كان مرضاً اشتد فى زمن الزمخشرى وابن الأثير وغيرهما ، ثم سرت عدوى هذا المرض إلى زماننا ، « فلم يسلم منها أحد : من أكبر

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٥١ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٦١ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٦٣ — ١٦٨ .

كاتب مثل الأمير شكيب إلى كاتب هذه السطور » ولكن وطأة المرض خفت .، قال الكتّاب إلى الإيجاز ، وبقى شكيب يكثر من المترادفات ، سواء أكانت كتابته منشوراً إلى العامة أم رسالة فى الأدب .

ويرى أن الاستدلال على حسن الإطناب بأن هناك من يطنب لا يجدى ، إذ « من العجب أن تقول للمريض : أنت مريض ، فيقول لك : وأنت مريض وكل الناس مرضى ، كأن مرض غيره يعزيه ، أو ينفى المرض عنه »[١] .

ثم ينتقل السكاكينى إلى ذكر بقية الفروق بين المذهب القديم والمذهب الجديد ، ومنها أن أصحاب المذهب الجديد يميلون فى « الاستعارة » إلى استعارة « اللازم المعنوى » دون استعارة الجزء ، أو التصريح بالذات ، فيقولون : « نطقت الحال بكذا » ولا يقولون : « نطقت لسان الحال » ، وهم يريدون بذلك الإيجاز والاختصار .

ثم يقول : « بل يخيل إلىّ أن أصحاب المذهب الجديد يميلون إلى الإقلال من الاستعارات ، وقد يفضى بهم الأمر إما إلى العدول عنها بتاتاً ، وإما إلى استعمالها فى الشعر دون غيره ، فيكون للشعر لغة ولغيره لغة أخرى »[٢] .

ويختم مقاله بقوله : « أكثر العرب من الاستعارات يوم كانوا أهل خيام وأحلام ، فكانت لغتهم شعرية ، لا يستعملونها إلا فى بيان تأثيراتهم ، فكانوا يتلاعبون بالألفاظ للمبالغة فى بيان تلك التأثرات ، وأما اليوم وهم يحاولون أن يجعلوها لغةَ العلم والفلسفة والسياسة والاجتماع فلا بد أن تتطور ، فتراعى النسبة بين اللفظ والمعنى ، وبعبارة أخرى لا بد أن يقصد بها تقرير حقائق بألفاظ محدودة موضوعة

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٦٥ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٦٧ .

لاتقبل الزيادة والنقصان ، ولا بد أن تتغلب هذه اللغة على لغة الشعر، لأنها أعم ولغة الشعر أخص ، هذا إذا لم تتغير حدود الشعر »(١) .

وبهذا انتهت تلك المناقشة المهمة التى أخالف السكاكيني في وصفها بأنها « عقيمة » لأنها فى الواقع قيمة عظيمة ، إذ كشفت لنا عن آراء رجلين لهما مكانتهما الأدبية فى موضوع القديم والجديد ، وعلى الرغم من حدة الخلاف بين الرجلين ألاحظ أنهما اتفقا فى جملة أمور ، منها :

١ — للإطناب مواقف ، وللإيجاز مواقف .

٢ — التكرار يكون للتأكيد .

٣ — المعانى الجديدة مطلوبة ، ولا بأس بها .

٤ — كل عصر له أسلوب أدبى يتميز به من غيره .

ولم تكن هذه الأمور واضحة أولَ الأمر فى كلام شكيب ، ولكن مرور الأفكار على محك المناقشة جعله يصرح بها بعد أن كان يجمجم ، وهذا كسب كبير بالنسبة لشكيب ، إذ أن تكراره مع إلحاحه فى نصرة القديم دون تحديد لموطن النصرة فى هذا القديم ، يبدو كالكَلَف فى مرآة أدبه الكبير .

وإذا كان المتناظران قد اتفقا فى أمور ، فمن الطبيعى أن يختلفا فى أمور ، ومنها :

١ — السكاكيني يقصر التكرار والترادف على موطن زيادة التأكيد .
وشكيب يرى أنهما يأتيان فى مواطن أخرى كالفتوح والمناشير العامة ، ومخاطبة الجماهير .

٢ — شكيب يرى الإبقاء على التكرار والترادف فى مواطنهما، و السكاكيني.

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٦٨ .

يقول إننا فى عصر السرعة، فيجب أن نتخلص من التكرار والترادف، وأن نجعل لغتنا لغة علم وفلسفة وسياسة واجتماع .

٣ — السكاكينى يرى أنه لابد من تطور اللغة ، ومراعاة النسبة بين اللفظ والمعنى ، وأن يقصد باللغة تقرير الحقائق بألفاظ محدودة موضوعة لاتقبل الزيادة والنقصان ، وشكيب يرى أن اللغة بيان ، وأن البيان يستلزم التوسع ، حتى يحيط السامع أو القارىء بجميع الموضوع .

٤ — شكيب يرى أنه لايجوز التجديد فى البيان ، والسكاكينى يدعو إلى التجديد ، ويبدو أن مراد شكيب أنه لايجوز الخروج على قواعد اللغة وضوابطها ، وإلا فقدت اللغة شخصيتها ، ولكن السكاكينى يرى أن التجديد يكون فى الأسلوب ، وفى طريقة الأداء ، وفى التناسب بين اللفظ والمعنى .

وهناك بعض الفروق المتعلقة بطريقة كل من الكاتبين فى المناقشة ، فالسكاكيني يختصر ويوجز ، بينما يطيل شكيب ويسهب ، والمناقشة استغرقت من كتاب « مطالعات فى اللغة والأدب » خمسا وسبعين صفحة ، وعدد الصفحات التى استغرقها كلام شكيب ضعف عدد الصفحات التى استغرقها السكاكينى .

ومن الملاحَظ على شكيب أنه تعرض للرسالة التى رُوى أن أبا بكر الصديق بعث بها عن طريق أبى عبيدة بن الجراح إلى على بن أبى طالب حينما تأخر على عن بيعة أبى بكر ، ونقل شكيب أجزاء من هذه الرسالة ، ولكنه لم يتحدث عن الاختلاف الوارد فى أمر هذه الرسالة « فمنهم من أكد نسبتها إلى أبى بكر ، وأفرد لها المؤلفات ، ومنهم من زعم أن فضلاء الشيعة وضعوها ، ومنهم من زعم أن فضلاء السنة وضعوها ، ولتحقيق هذا الموضوع مكان آخر (١) » .

---

(١) أمين الأمة أبو عبيدة بن الجراح ، ص ٦٥ .

وإذا كان شكيب قد فاته الإشارة إلى الشك فى أمر هذه الرسالة ، فقد فات السكاكينى كذلك أن يشير إليه فى رده عليه .

ومن الفروق التى نلاحظها فى هذه المناقشة أن السكاكينى كان أرقّ فى الخطاب ، وأهدأ فى النقاش ، وأرعى لحرمة الأمير شكيب ، بينما كان شكيب قاسياً ولاذعاً فى أكثر من عبارة .

نجد فى كلام السكاكينى أمثال الكلمات الآتية عن الأمير شكيب وكتابته :
« رسالة لكاتب كبير — ذلك الكاتب الكبير الذى نعرف فضله ، وإن كنا ننكر عليه مذهبه — أقوال كاتب كبير يوثق به — للاطناب شروط ومواطن أمسكت عن ذكرها تأدباً مع الأمير — ليسمح لى الأمير أن أتجرأ على فضله — للأمير أن يسعنى بحلمه — تشرفت أن أكون مناظرك — أكبر كاتب مثل الأمير شكيب أرسلان [1] » .

يقول السكاكينى كل هذا ولكنّا نجد الأمير عنيفاً فى تعريضه بالسكاكينى وحملته عليه ، فهو يقول إنه كان ينوى تجاهل نقد السكاكينى ، ثم يصفه بالخطأ ، وأنه يضع نفسه فى غير موضعها ، وأنه يمضى فى غلوائه ، ويخشى أن يتمادى فى وهمه ، ويخشى أن يصل وهمه إلى غيره ، ولذلك سيبين له مناهج اللغة فى الإيجاز والإطناب والمساواة [2] ، ويصفه بالجرأة [3] ، ويصفه بالمناكرة والمكابرة [4] .

ويسخر من السكاكينى بقوله : « صاحبنا أصبح صاحب مذهب ، ولا غرو فلكل زمان أبطال ، ولكل دولة رجال [5] » .

---

(١) انظر مطالعات فى اللغة والأدب ، ص ٩٧ و ١٢٢ و ١٢٣ و ١٢٦ و ١٢٧ و ١٤٥ و ١٤٧ و ١٦٣ على التوالى .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٠٤ .
(٣) ص ١١١
(٤) ص ١٢٩ .
(٥) المرجع السابق .

ويتندر على السكاكيني قائلا : « لا بل والله كنت غافلا عن أنك صاحب مذهب ، ولم يخطر ببالي أن أسلوب الجاحظ صار قديما باليًا ، وأن مثلي ومثلك صرنا مجدِّدين في اللغة [1] » . ولا يزيل معنى التندر هنا ذكر شكيب كلمة « مثلي » وهو يعني بها نفسه ، فذلك ستر ظاهري للتندر ، كما لا يزيله أن يقول شكيب بعد ذلك : « لا تحمل كلامي هذا محمل التهكم » . فلعل هذا القول يؤكد قصد التهكم أكثر مما ينفيه .

ويقول شكيب هذه الكلمات القاسية : « فاربع على ظلعك [2] ، ولا تركب غير سرجك — كان الأولى أن أمسك القلم عن مناظرته — هـذا المراء الذي لا يليق بأديب مثله — أخذ اللغة بالجسارة والقوة [3] » .

تمنيتُ أن يترك شكيب هـذا العنف في المناقشة ، لأن موضوعية البحث تقتضيه من جهة ، وهدوء السكاكيني في حواره يقتضيه من جهة أخرى .

وقد يخطر بالبال أن يتساءل عن مصير القضية ، فأقول إن الزمن قد حكم فيها ، ورجَّح جانبَ السكاكيني على جانب شكيب من الناحية الواقعية العملية ، فقد قل الذين يُكثرون من التكرار والمترادفات ، وانتصر مذهب الاعتزاز بالفكرة والمعنى عند الكثيرين ، وإن كانت قصة القديم والجديد لم تتم فصولا .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٣٠ .

(٢) على ظلعك : أي إنك ضعيف فانته عمالا تطيقه ، ويقال : ارق على ظلعك ، أي تكلف ما تطيق . ويقال : ارقأ على ظلعك ، أي أصلح أمرك أولا .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٣٠ و ١٣٢ و ١٣٣ .

شدة العبارة والمبالغة

وشدة شكيب فى عبارته حين المناقشة غير مقصورة على مناقشة السكاكيني فقد تحدث شكيب عن طه حسين ، ووصفه بالتهجم على أمجاد العروبة ، ثم قال ساخراً ومجرّحاً :

« ولكن طه حسين أذنه صماء عن الفحشاء ... فلا يحب أن يسمع هذا اللغو الذى هو مدح العرب ... وسبحان من جمع بين عمى البصائر وعمى الأبصار ، وأولهما أشد وأدهى .

يعلم الله أننا كنا نحب أن لا نستعمل لهذه الطائفة مثل هذه الألفاظ ، ولكن وقاحتهم على الوطن والدين واللغة والأخلاق والصيانة والقومية وما أشبه ذلك تجاوزت حدها[1] » .

***

ويتعرض شكيب للتفرقة بين النقد الأوربى والنقد العربى ، فى مقال له عن كتاب «المساواة» لـ « مَىّ زيادة » ، فيقول إن النقد الأوربى لا يقتصر على الاستحسان وذكر المحاسن ، بل ينص على الأخطاء أيضاً ، وأما النقد العربى « فتراه كله عبارة عن تقريظ وتمجيد ، وأسجاع يكثر فيها ذكر الغرر والدرر ، والروائع والبدائع ، والفرائد والخرائد ، والكواكب والكواعب ، والمآثر والمفاخر ، مع جملة : كم ترك الأول للآخر ، إلى غير ذلك مما ليس فى الحقيقة بنقد ، بل هو محض ثناء وإطراء[2] » .

وهذا الكلام صحيح ، وليت شكيب تقيد به وهو يكتب عبارات المديح والثناء

---

(١) مجلة الزهراء ، جمادى الأولى ١٣٤٥ هـ - ١٩٢٦ - مقال لشكيب بعنوان « حضارة العرب وفلسفتهم » . ٣/٢٩٠ - ٢٩١

(٢) مجلة المجمع العلمى العربى - عدد كانون الأول ١٩٢٤ .

الفضفاضة ، كمقدمته لديوان شبلى ملاط ، وكلمته عن شعر النجفى ، وقد ذكرناها في آرائه عن الشعر .

ثم يذكر شكيب فى مقاله السابق أن النقد العربى قد ينتقل من المدح إلى شدة الذم والقدح « فلا توسط عندنا فى الأمر » ، ثم يقول عن طريقته فى النقد :

« وأما الطريقة التى نحن سائرون عليها اليوم فهى طريقة النقد الحديثة التى سبق للعرب على أسلوبها شيء قليل ، وهى التى تنوه بالحسنات . ولا تغفل عن الهنات ، وهى طريقة التصفح بدون صفح ، ولكن بدون تعنت ، والاستقراء بغير ضعف ولكن بغير تشدد[1] » .

وليت شكيب التزم طريقته هذه ، لأننا نراه أحياناً يبالغ فى القدح أو المدح ، وينسى التوسط ؛ فهو مثلا يقول عن الشقاق بين المسلمين : « وإن كان الشقاق عاماً فلا شك أن تسعة أعشاره عند المسلمين ، والعشر الواحد عند سائر الأمم بأجمعها[2] » . ولعله أراد بذلك تجسيم خطر الشقاق عند قومه ، ولكن العبارة صارخة المبالغة .

ويقول شكيب عن كتاب « إعجاز القرآن » للرافعى :

« ولقد رأينا أجمع ما كتب فى هذا المقام كلام الأستاذ الكبير مفخرة العرب ، وحجة الأواخر على الأوائل فى علو طبقة الإنشاء ووفرة الأدب ، السيد مصطفى صادق الرافعى فى كتابه (إعجاز القرآن) فإنه جمع فأوعى . وأصاب الحزّ وطبّق المَفْصِل[3] » .

ويقول عن الكتاب أيضاً : « ولو كان هذا الكتاب خطاً محجوباً فى بيت .

---

(١) المرجع السابق .

(٢) كتاب « شوقى » ، ص ١٩٠ .

(٣) حاضر العالم الإسلامى ، ج ١ ص ٧٤ . وقوله : أصاب الحز وطبق المفصل : معناه أن توفيق قد صاحبه . وفى أمثال العرب : « إنك لتكثر الحز وتخطىء المفاصل » . والحز : القطع والتأثير والمفاصل : الأوصال ، جمع مفصل ؛ يضرب لمن يجتهد فى السعى ثم لا يظفر بالمراد . مجمع الأمثال للميداني ، ج ١ ص ٥٧ .

حرامٌ إخراجه للناس منه ، لاستحق أن يُحَجَّ إليه ، ولو عُكِفَ على غير كتاب الله في نواشيء الأسحار لكان جديراً بأن يُعْكَفَ عليه »[١] .

والعبارتان شبيهتان بكلمات المجاملة التي يكتبها الأدباء في مجال التقديم للكتب أو التقريظ العام للمؤلفات ، فليس فيها تفصيل ولا تحديد ، وليس معنى هذا أني أغض من قيمة كتاب الرافعي ، فهو كتاب جليل ، ولكني أتكلم عن طريقة شكيب في النقد .

ومما يتصل بمبالغة شكيب في أحكامه ، وفي الصفات التي يطلقها على أصدقائه أو أحبائه ، أن يلقب أحمد زكي باشا بلقب « الأستاذ الأكبر[٢] » ، وأن يلقب يعقوب صروف باللقب نفسه[٣] ؛ فما قيمة أفعل التفضيل هذه المحلاة بأداة التعريف ؟ . وفوق هذا نذكر أن العادة جرت في مصر منذ عشرات السنين على إطلاق لقب « الأستاذ الأكبر » على شيخ الجامع الأزهر الشريف .

ولقد كتب شكيب مقدمةً لكتاب صديقه عبد القادر المغربي — وهو كتاب البيِّنات — وأثنت مجلة « العرفان » على هذه المقدمة قائلة : « بقطع النظر عن المبالغة التي جاءت فيها ، والمبالغة — ولا سيما في الإطراء — خُلُقٌ من أخلاق الشرقيين يصعب التنكب عنه[٤] » .

---

(١) حياة الرافعي ، ص ٥٣ . وانظر رسائل الرافعي ، ص ١١ .
(٢) جريدة الشورى ، عدد ١٢ إبريل ١٩٢٨ .
(٣) الكتاب الذهبي ليوبيل المقتطف الخمسيني ، ص ١٢٨ .
(٤) مجلة العرفان ، عدد آب وأيلول ١٩٢٩ .

واجب المؤرخ

يبدى شكيب رأيه فى واجب المؤرخ ، فيوفق إلى كلمة حق وصدق حين يقول : « ولعمرى حسن جدا أن يدقق المؤرخ فى كل رأى يطلع عليه ، وأن لا يقبله بالغاً ما بلغ من الشهرة إلا بعد تمحيص تطمئن به نفسه ، وتحقيق يصل به إلى برد اليقين ؛ ولكن قبيح جداً ، ومضر بالعلم جدا ، ومغرر بالمتعلمين ، أن تدور جهود اجتهادات الباحث حول نقطة الإتيان ببدع ، والسبق إلى رأى لم يقل به أحد ، أو تقوية رأى ضعيف [1] » .

وإذا كان شكيب قد صدق ووُفِّق فى كلامه هذا ، فإنه قد نسى تطبيقه أحياناً ، فهو فى كتابه (تاريخ غزوات العرب) ينقل عن المستشرق « رينو » هذه العبارة عن طارق بن زياد : « وقد روى أحد مؤرخى العرب أنه لأجل أن يلقى الرعب فى القلوب أمر مرة بقتل بعض الأسرى الذين وقعوا فى يده ، وجعل من لحومهم شواء أطعم منه عسكره [2] » .

وتوقعت أن ينقد شكيب هذا الخبر لمخالفته الإسلام ، فإن لحم الإنسان يحرم فى الطعام ، ووجدت بالفعل تعليقاً طويلا لشكيب ، ولكنه لم يكن فى نقد الخبر أو تمحيصه ، بل كان عن نسب طارق ، وذكر أن راوى الخبر السابق هو « ابن القوطية » فى كتابه « فتح المسلمين للأندلس » ، ثم انتقل إلى الحديث عن كلمة « القوطية » ، وترجمة ابن القوطية ، وترك الخبر البشع بلا نقد ! ! .

وفى موطن ثان من الكتاب ينقل شكيب عن « رينو » هذه العبارة فى حق المسلمين الفاتحين للأندلس : « فأما البلاد التى لم تخضع لهم إلا بالسيف فقد كانت عرضة لجميع المظالم التى تصحب الفتوحات ، وكان يضرب عليها ضعف جزية البلاد

---

(١) مجلة المجمع العلمى العربى ، المجلد ١١ سنة ١٩٣١ ـ ص ٤٤٩ .

(٢) تاريخ غزوات العرب ، ص ٣٠ .

الخاضعة بلا قتال ، وكانوا يتركون فيها حامية لحفظها ، وربما جعلوا من هذه الناحية بعض اليهود الذين كانت عداوتهم للمسيحيين أضمن سبب للثقة بهم [١] » .

نقل هذا وتركه بلا تعليق ، مع أن هـذا التصرف لا يسهل تصديقه ، لمخالفته المشهور عن سماحة العرب المسلمين وعدالتهم .

والحير من أمر شكيب أنه فى مواطن أخرى ينقد ماهو أخف من ذلك غلوا وغرابة ، فهو يقول فى بحثه عن « الترك » :

« فلما دخل الأتراك إلى بلاد البلقان التى يقولون لها (الروملى) بدأ هؤلاء البوغوميل [٢] يدخلون الإسلام ، وهذا قبل أن يفتح السلطان محمد الفاتح ممالك بوسنة ، ولكن عندما دخل السلطان بجيوشه أسلم سائر البوغوميل اختياراً من تلقاء أنفسهم ، فمؤرخو الإفرنج يزعمون أنه لما دخل السلطان إلى بوسنة خيّر الناس بين الإسلام والنصرانية ، وأن الذى أسلم بقيت له أملاكه ، ومن لم يقبل الإسلام جرده الأتراك من ثروته ، وكل هذا من أكاذيب المؤرخين الأوربيين ، والحقيقة هى ما ذكرنا... [٣] » . ثم أخذ شكيب يفند ذلك بحرارة .

ألا يفتح هذا الدفاع البابَ أمام ناقدى شكيب ليقولوا إن حبه القديم للترك قد عاوده ، حتى بعد أن كان من حكام الترك مع العرب ما كان ؟ ! . .

ونعود مرة أخرى إلى كتاب « تاريخ غزوات العرب » لنجد شكيب يظل ساكتاً عن تفنيد التهم الموجهة من الأوربيين إلى العرب ، ومنها الاتهام بالسلب والنهب ، ويتكرر ذلك عشرات المرات ، حتى نبلغ الصفحة السابعة والأربعين بعد

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٦ .

(٢) طائفة من أهل بوسنة كانت مسيحية ، لكنها لا تعتقد ألوهية عيسى . تاريخ ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول ، ص ١٣٥ .

(٣) المرجع السابق .

المائتين من الكتاب ، فإذا هو يتذكر بعد اللتيا والتى[1] أن ينقد ، فيعلق على اتهام من هذا القبيل بقوله :

« لا نريد أن ننفى عن هذه الفئة من مغيرة العرب حبَّ النهب والكسب ، ولكنا نؤكد أن أكثر هذه الروايات هى من وضع أولئك المؤرخين المتعصبين الذين كان جُلُّهم أو كلهم رهباناً أو قسيسين ، وناهيك بعداوة الدين ، وحسبك دليلاً على ذلك أن هذه الفئة من رجال الكنيسة هى التى بقيت مدة قرون فى أوربة تؤكد لشعوبها الجاهلة أن المسلمين وثنيون ، وأنهم يعبدون محمداً ، وأن لمحمد (صلى الله عليه وسلم) تماثيلَ من ذهب وفضة ، وما أشبه ذلك من الخرافات التى كانت تلك الشعوب تصدقها وتنقلها فى كتبها ، فكيف نقدر بعد هذا أن نتلقى بدون احتياط روايات المؤرخين الكنسيين عن وقائع عصائب العرب[2] » .

ليت شكيب سارع بهذا الاحتياط من أول الطريق ، وليته بدأ بنقد هذه المفتريات فى طليعة ورودها حتى لا يقلق القارئ ، وليته توسع فى نقد هذه المفتريات ، ففيها أشياء تتطلب التوسع فى النقد ، وشكيب من عادته أن يطيل ، وقد أطال مثلا فى تفنيد التهم الموجهة إلى « الدروز » فى حوادث العراك بين المسيحيين والدروز سنة ١٨٦٠ ، وكان تفنيده حاراً قوياً استغرق جملة صفحات[3] .

ومن العجيب أن شكيب فى « تاريخ غزوات العرب » يستمر فى الترجمة عن

---

(١) فى أمثال العرب : « بعد اللتيا والتى » وهما : الداهية الكبيرة والداهية الصغيرة ، وكنى عن الكبيرة بلفظ التصغير تشبيها بالحية ، فإنها إذا كثر سمها صغرت ، لأن السم يأكل جسدها ، وقيل إن الأصل فى المثل أن رجلا تزوج امرأة قصيرة أتعبته ، وكان يعبر عنها بالتصغير فتزوج طويلة ، فتضاعف بلاؤه منها ، فطلقها وقال : « بعد اللتيا والتى لا أتزوج أبداً » فجرى ذلك على الداهية . وقيل : إن العرب تصغر الشيء العظيم . مجمع الأمثال للميدانى ، ج ١ ص ٩٢ .

(٢) تاريخ غزوات العرب ، ص ٢٤٧ .

(٣) تاريخ ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول ، ص ٣٠٢ — ٣٠٧ . ومن شواهد إطالته الدفاع عن « الدروز » مقال له بعنوان « آل معروف فى الذروة من العروبة ، ولا يمكن أن يكونوا عضدا الأفرنج على العرب » ، وقد استغرق المقال اثنى عشرة صفحة من كتاب « عروة الاتحاد » . ص ٢٥ — ٣٦ . وانظر أيضا جريدة الشورى ، عدد أول أكتوبر ١٩٢٥ م .

« رينو » مع التعليق أحياناً ، وأغلب تعليقاته إيرادُ نصوص من كتب تتعلق بالأندلس وبالعرب فى أوربة ، ثم يقول فى الصفحة الثالثة والأربعين بعد المائتين : « انتهى كتاب رينو ببعض اختصار وتصرف » .

إذن كان هناك اختصار وتصرف ، ومع تساؤلنا عن مدى مواءمة الاختصار والحذف لتصوير الحقيقة كاملة — نقول : ما دام هناك اختصار وتصرف ، فلماذا لم يختصر شكيب العبارات القاسية التى وصف بها « رينو » العربَ والمسلمين ؟. ولماذا لم يرد عليها وينقدها ، ما دام قد أوردها ؟ .

* * *

وشكيب يعطى أهمية خاصة لتراجم الرجال وصلتها بمؤلفات هؤلاء الرجال وأقوالهم ، وينصح بأن نتخذ هذه الآثار الفكرية نبراساً نهتدى به إلى حقائق أحوالهم ، لأنها مرآتهم وقطع من قلوبهم وعقولهم ، ولذلك يقول :

« يقولون إن تراجم الرجال فيها كذب كثير وطمس للحقائق . وأنا أقول إنها برغم ما فيها من الكذب لا تزال أقربَ إلى حقيقة أحوالهم ، وأحسن وسيلة للتعريف عنهم ، ومع ذلك فإن شككتَ فى الروايات المأثورة عنهم فابحث عن كلماتهم ، وتآليفهم نفسها ، وأنعم النظر فيها ، فإنها تحل لك كثيراً مما يشكل عليك من أمرهم فى الكتب المؤلفة عنهم » [(١)] .

---

(١) جريدة الشورى ، عدد ٤ مارس ١٩٣١ — مقال « خواطر » .

التردد فى الحكم

وشكيب يتردد فى الحكم أحياناً ، حتى يصعب عليك أن تحدد موقفه بالنسبة إلى الموضوع الذى يتحدث عنه ، ومن أمثلة ذلك أنه يذكر كثرة القرود فى اليمن ، حتى تندر البعض على اليمنيين بأن أباهم قرد ، ثم يقول :

« فمن هنا يظن أن مذهب داروين كان ملحوظاً فى الغابرين ، وكان خاطر أبوة القرد لابن آدم وارداً ، إلا أن ما كان يقال فى الماضى مزاحاً صار اليوم جداً بحتاً وحقيقة علمية ، أقول حقيقة علمية بحسب رأى بعضهم ، وإلا فليس بصحيح أن الجمهور كلهم فى أوربة تلقوا هذا الرأى بالتسليم ، بل العلماء فى أوربة لا يزالون فيه مختلفين ، وقد كثر فى السنين الأخيرة العلماء القائلون بنقضه ، والأكثرون على عدم الجزم ، لعدم كفاية دلائله ، ولوفرة نواقضه ونواقصه ، ومن العلماء من يقف موقفاً وسطاً فى النظرية الداروينية ، فيحكم بصحة بعضها ، ويرد البعض الآخر مما ليس هنا موضعه »[1] .

وهكذا تردد شكيب بين رأى ورأى ورأى ، ولم نعرف له فى الموضوع رأياً .

ذكر أولا أن نظرية داروين كانت لها بذور فى الماضين السابقين ، وأن النظرية بعد أن كان مزاحاً صارت جداً بحتاً وحقيقة علمية ، ثم عاد ليقول إن ذلك بحسب رأى بعضهم ، ثم عاد ليقول إن العلماء ما زالوا مختلفين فى الموضوع ، ثم عاد ليقول إن هناك من يقف موقفاً وسطاً ، فبعض النظرية صحيح ، والبعض الآخر مردود ! .

ولكن ما رأى شكيب ؟ . . . لم يذكر شيئاً .

وفوق أن هذا الكلام كان استطراداً غير لازم ، نذكر أن شكيب رجل متدين ، ورجال الدين يهاجمون نظرية داروين بعنف ، فلماذا لم يعارضها شكيب ، واكتفى بسرد الآراء المتباينة ؟ .

---

(١) الارتسامات اللطاف ، ص ٢٦٢ .

مكانة الأدب

وشكيب يرفع مكانة الأدب إلى قمة عالية ، ولقد ألقى محاضرة فى جمعية الشبان المسلمين بالإسكندرية مساء ٢١ يوليه سنة ١٩٣٩ قبيل سفره إلى أوربة بعنوان « تأثير الأدب فى الأمم » ، وقد طالعتُ نصّ هذه المحاضرة بخط الأمير شكيب وهى فى ثمان عشرة صفحة متوسطة الحجم ، أعارنيها الأستاذ أحمد محمد نعمان، وفيها يرى شكيب أن الأمم لا تنهض إلا بالعلم ، وأن العلم فنون ، وأهم فن منها هو الأدب ، وهو المرحلة الأولى فى طريق نجاح الأمم ، لأنه « ثقاف النفس وصقال الهمة ، ومثار كوامن العزائم ، وهو المشتمل على نواحى الحياة الروحية كلها » .

وينوّه بجلال قيمة العلوم المادية ، ولكنه فى الوقت نفسه يرى أن الملكة الأدبية هى التى تؤدى إلى البحث العلمى ، ويتحدث عن مكانة الآداب والأشعار، وما قام به الشعراء من إثارة العزائم وحفز الهمم ، ويتحدث عن مكانة الأدب والشعر عند العرب فى الجاهلية والإسلام ، وأن الأدب القرآنى هو الذى هذب الأدب العربى وأبقاه . . . إلخ .

ومما يتصل بتقدير شكيب للأدب تقديره للقلم الذى يخط الكلمة ، فهو يقول: « خروج رجال السياسة من رواق طبقة الحكمة ، وصف حملة الأقلام ، فى الأعم الأغلب ، أقرب إلى السلامة من خروجهم من طبقة أخرى » ، ثم يقول بعد أن يتحدث عن تقسيم الأوربيين العلوم فروعاً وأفناناً : « ومع هذا فلا تزال ترى لرجال القلم المزية الكبرى على غيرهم ، لأن العلم بلا قلم أشبه بطائر أحص الجناح ، صاحبه عاجز عن الرقىّ .

وإن القلم فى كف العالم هو أداة التقدم وجناح النجاح ، ولهذا نجد أكثر رجال السياسة والإدارة فى أوربة — ولا سيما فى فرنسة — هم من حملة الأقلام

وكتّاب الصحف ورقاة المنابر ، ويندر أن يوجد فيهم نابغة أو رجل مشهور إلا وقد سبق له كتابة أو مؤازرة فى إحدى الجرائد ، وذلك أن ثمرات العلم لا تُعرف إلا على أسلات الأقلام »[١] .

ويرى أن بث الثقافة هو سبيل التفاهم والوحدة ، فيقول : « ما من بوتقة لسبك الشعوب خير من الثقافة »[٢] . ويقول : « رابطة الفكر أقوى من رابطة الدم. »[٣] .

ولكن شكيب الذى يجل الأدبَ ويرفع قدره ، والذى يعرف للكلمة قوتها وفضلها ، والذى يُشيد بالثقافة والمعرفة ، يكره الأدب المكشوف وينفر منه ، وهاهو ذا يعلق على نفور السيد رشيد رضا من الأسلوب المصرح بالمجون أو الشهوات ، فيقول تعليقاً على كلام السيد :

« الأستاذ المترجم مصيب إلى الغاية فى استهجانه التصريحَ بالسوءات والألفاظ التى تنبو عنها الأسماع ، وما إلى ذلك من التخيلات الشعرية المخالفة للآداب الاجتماعية ، وهو مذهب شريف لم نجد ذا ذوق سليم وعقل قويم ينازع فيه ، وإنما حاد عنه كثير من أدباء العرب وشعرائهم ، وأورثوا الأدب العربى موضعَ ضعفٍ ومجالَ انتقاد بحق ، بحيث إننا نقرأ كثيراً فى كتب الأجانب من تقبيح هذا الأسلوب الممجوج الذى يكثر فى كتب العرب ، ولا نقدر إلا أن نوافق على هذا »[٤] .

وهذا القول ليس بغريب من تلميذ الشيخ محمد عبده ، والمعجَب بجمال الدين الأفغانى ، والذى رأى نفسه أهلاً لأن يكون صاحبَ دعوة وخادم رسالة ، يعِزُّ بها قومَه العرب وإخوته المسلمين .

---

(١) مجلة المقتبس ، المجلد الأول سنة ١٣٢٤هـ – ١٩٠٦ م ، ص ٥٧٥ . وأسلة القلم: طرفه.

(٢) جريدة الشورى ، ٥ فبراير ١٩٣٠ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) كتاب السيد رشيد رضا ، ص ١١٦ .

ولذلك يعود شكيب إلى هذا الموضوع ليعالجه فى ضوء الدين والفقه . فيذكر أن البعض قال بمطالعة كل قارىء كلَّ شىء مهما كان مثيراً ، والبعض يقول بمنع كل شىء من هذا القبيل المثير عن الفتيات ، والبعض يقول بالتوسط فى المنع ، وباطلاع الشابة على ما يجب علمه من حقائق الحياة بقدر ، ويميل شكيب إلى الرأى الوسط الأخير ، ويقول عنه :

« ويظهر أن فقهاءنا أميلُ إلى هذا المشرب عند مايقولون : (لاحياء فى الدين) ، ويشرحون بعض ما لا بد من معرفته من القواعد ، وهذه الطريقة هى عندى ألفَ مرة أقلُّ خطراً على أخلاق الأوانس من قراءة القصص المغطاة أفاعيها بالأزهار ، والتى لا تزيد النفوس إلا اتطاماً ، لا بل الطريقة الفقهية هى أسلم عاقبة من الجميع ، لأنها تبرز فى القالب الذى يزيد الحشمة والانقباض فى أثناء تقرير الحقيقة ، وما الآفة إلا خلابة القول وسحر البيان [(١)] » .

ولأن شكيب يكره الأدب المكشوف ، ويخاف خطره وأثره ، نراه يوصى بكتمان الأمور الذاتية والآراء الشخصية التى فيها تبذل أو تحلل ، فحينما يصف أناتول فرانس مراودةَ امرأة لشاب ، يعلق شكيب قائلا :

« أخطأ الأستاذ فرانس بإذنه لكاتبه (بروسون) بقيد أوابده وضبط شوارده ، فقد يكون سبق لسانه فى مجلس خاص مرتفع الحشمة بعيد التكلف إلى حكاية مثل هذه لمجرد الإحماض ، فلم يكن يجوز لبروسون أن يأثرها عنه على أنها من آدابه التى يوصى بها [(٢)] » .

---

(١) أناتول فرانس فى مباذله ، ص ٩٣ .

(٢) المرجع السابق ، هامش ص ١٧١ . والإحماض : رعى الحمض (بفتح فسكون) ، وهو نبت فيه ملوحة تتفكه به الإبل وتشرب عليه ، يقولون : الخلة (بضم الخاء) خبز الإبل والحمض فاكهتها . وفى أمثلة العرب : من أخل أحمض . ومن المجاز . أحمض القوم : أفاضوا فيما يؤنسهم من الحديث ، وكان ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يقول لأصحابه : أحمضوا ، فيأخذون فى الأشعار وأيام العرب . الأساس ج ١ ص ١٩٨ .

ويسرد أناتول فرانس قصة مكشوفة له مع المرأة ، فيعلق شكيب على ذلك بقوله :

« قد يكون أراد الترويح عن قلبه بإحماضات يتبذل بها في مجالس خلصانه ، فلم يكن يحسن بمن كان حافظ سره ، وقد أفاد من بره ، أن يصوره صغيراً بعد أن عرفه الناس كبيرا[1] .

ولعل كراهية شكيب للأدب المكشوف كانت بعض الأسباب التي صرفته عن قراءة الروايات المطبوعة على الطريقة الأوربية ، والتي تفيض عادةً بالحديث عن الحب والمرأة والصلات الغرامية والمغامرات العاطفية ، حتى قال : « أكره الروايات لاسيما بالعربي ، وما قرأت في حياتي رواية عربيـة على النمط الأوربي ، لأنني شديد الولوع بالتاريخ »[2] .

---

(١) المرجع السابق ، هامش ص ١٨٧ .

(٢) الكتاب الذهبي ليوبيل المقتطف الخمسي ، ص ١٢٨ .

أدوات الأديب

وأخيراً يذكر شكيب أن الأديب لا يصح أن يسمَّى أديباً إلا إذا استكمل أداته من اللغة والنحو والصرف والبيان. يقول فى كتابه عن «شوقى»:

«الأديب لا يصح أن يسمى أديباً إلا إذا استكمل أداته من اللغة والنحو والصرف والبيان، وإلا فإنه يبقى متأخراً فى صفوف المتأدبين، مهما سمت معانيه، وزهت تصوراته، وأثر كلامه، ونفذت طعناته، وذلك أن الناس أجمعوا على أن الفصاحة واللحن لا يجتمعان، وأن من نقص حظه من النحو نقص حظه من الأدب، وليس هذا منحصراً فى العرب، بل هو عند الإفرنج أيضاً، فليس عندهم لمنقوص النحو مكانة أدبية تذكر.

وقال أناتول فرانس — وهو من أعظم أدباء أوربة —: «لا يقول الكاتب قولا سديداً إلا بنحو متين ولغة صحيحة». وقال بوالو: «أعلى الكتَّاب كعباً إذا حرم الرسوخ فى اللغة فليس بكاتب»، فمهما نبغ شوقى فى الشعر، وفاق أقرانه فى سعة التخيل ولطف التأثر، فإنه يكون منقوص البهاء لو آنس الناس فيه ضعفاً من جهة العربية»[1].

وفى المقال المنشور لشكيب فى جريدة «المؤيد» يوم الاثنين ٩ فبراير سنة ١٩١٢ يتحدث عن حدود الأدب، ويرتضى قولَ السابقين إنه «الأخذ من كل علم بطرف»، ويذهب مع ابن خلدون إلى أن الأدب لا موضوع له ينظر فى إثبات عوارضه أو نفيها، وإنما المقصود ثمرته وهى إجادة المنظوم والمنثور، وقد تتحصل الملكة بذلك من مطالعة المجموع المختار من أشعار العرب وسجعهم، ومسائل اللغة والنحو، مع ذكر بعض أيام العرب.

---

(١) كتاب «شوقى»، ص ٥٥.

ثم يقول شكيب : « ولو كان ابن خلدون اليوم لاشترط في استكمال أداة الأدب حفظ أيام الناس ، لا أيام العرب وحدهم ، ومعرفة مجمل تواريخ العالم ، والضرب بسهم في كل علم عصرى ، بحيث يمكن الإنسان اليوم أن يسمى أديباً ، وأن يكتب ما يفهمه الناس ، ويفهم ما يكتبونه .

وقد أشار ابن خلدون بقوله : « وما عساه أن تحصل به الملكة » إلى كون جمع كلام العرب لا يستلزم دائماً الاضطلاع بالأدب ، بل هناك استعداد فطرى يضعه الله في صدر الإنسان ، وسر في سويداء فؤاده وعلقة قلبه ، لا يعلمه إلا الذى أودعه ، وإنما يزكو على المطالعة ، ويربو بارتياد الأشكال الملائمة ، فمن أودع الخالق فيه هذا السر استفاد من حفظ الأشعار والأيام والأنساب وما أشبه ذلك ، وربى منها ملكة طائلة وبلغة كافية .

وأما من لم يقيض لهذا الأمر ، ولا نفحه الله بشىء من هذه النعمة ، فإنه يقف من دون عتبة الأدب ، ويبقى أجنبيا عن أهله ، ولو نزف مناقع الأدب كلها ، وتتبع مواقع الحكمة بأجمعها ، ومهما أبعد الإنسانُ النُّجْعة فى مسارح الطلب ، وتنوق فى ضروب الاختيار ، وكان لم يوهب طبعاً صافياً ، ولا قريحة سمحة ، ولا بصراً نافذاً ، ولا زنداً فى التحصيل وارياً ، فإنه يمكث فى هذه الغاية قاعداً ، ويبقى طائره أحصَّ الجناح ، ويقع على زمكه كلما حاول الطيران .

ومن هذا الطريق وُجد من طالع لباب الآداب ، واشتمل على خزائن العلوم ، وأحاط بشذاذ الأخبار ، واقتاد أوابد المعارف ؛ لا بل شوهد من قضى حياته فى تدريس متون البلاغة والدلالة على طرق البيان ، ولم يهده الله إلى سلوك سبلها فى كتابته ، ولذلك قال الإمام الجاحظ — وهو فى الأدب المنارة العالية التى يهتدى بها فى الليل ، والصخرة المتينة التى ينحط عنها السيل — : إن الطبيعة إذا كان فيها قبول فالكتب تشحذ وترهف ، ومعناه أنها إذا كان رشحها رشح الحجر فمطالعة

الكتب لا تنبط منها معيناً ، وأنه إذا كان ضرع القريحة بكيئاً فلا يستدر من حسن الرعى ولا نضارة المنتجع لبناً .

وبعد أن يسلم السائل بأن الاستعداد الغريزى هو الشرط الأول فى الأدب ، إن أراد أن ينزل على حكمنا فى الارتياد ، قلنا له : ذكر ابن خلدون أن أصول كتب الأدب هى أربعة دواوين : هى أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبى على القالى ، ودل غيره على غير هذه الكتب أيضاً ، وأطال صاحب المثل السائر فى الإيضاح »[1] .

ثم يقول : « ولا يعد الأديب أديباً متحققاً بعد هذا كله حتى يحفظ كثيراً من كتاب الله ، ومن أحاديث رسوله عليه الصلاة والسلام حفظاً تنهض به الملكة أن يحسن منه الاقتباس ، ويجيد أمامه توطئة الاستشهاد ، وماذا أقول بنهج البلاغة وعليه مسحة الكلام النبوى ولألاء النور العلوى ؟ . وشرط على من شاء أن يكون أديباً وعانى هذا الشوق المبرح أن يقيم العربية ، فإنه لا ينجو به فى مأزق الكتابة ومعترك الفصاحة مثل مطية قوية من النحو ، وأهم من ذلك علم اللغة »[2] .

---

(١) رسائل الرافعى ، ص ٨ و ٩ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٠ و ١١ .

خلاصة الآراء

ونستطيع أن نلخص آراء شكيب عن النثر والكتابة فى الأمور التالية :

١ — يؤيد شكيب التكرار والترادف فى مواطن التأكيد والتأثير ومخاطبة الجموع .

٢ — يحارب نزعة الخروج على قواعد اللغة وضوابطها .

٣ — يعتبر أدبَ القدماء الفحول مثالا يُحتذَى فى الكتابة .

٤ — يدعو إلى حضارة المعانى مع بداوة الألفاظ ، ويؤيد اتصال الأدب بأحداث الحياة .

٥ — كل عصر له أسلوب ، ولكن هناك أصولا ثابتة لا تقبل التطور أو التجدد .

٦ — يجب على الباحث أو المؤرخ ألا يقبل رأياً أو خبراً إلا بعد تمحيصه .

٧ — يمكن استخلاص الكثير من حقائق حياة الرجال عن طريق النظر فى كلامهم ومؤلفاتهم .

٨ — الأدب له مكانة سامية ، وهو المرحلة الأولى فى طريق نجاح الأمم .

٩ — الأدب المكشوف له خطره وأثره السيء ، ولا داعى لنشر المباذل الشخصية المثيرة على الناس .

١٠ — لا يستحق الأديب لقب الأديب إلا إذا استكمل أداته من اللغة والنحو والصرف والبيان .

١١ — الأدب هو الأخذ من كل علم بطرف ، مع مطالعة الأساليب

المختارة لتحصيل الملكة ، والاستعداد الفطرى الغريزى هو الشرط الأول فى الأديب ، ويعاون على تكوينه قراءةُ أمهات الكتب المشهورة ، مع حفظ الكثير من القرآن والحديث ، والعناية بالنحو واللغة : « فإنه لا يرش خوافي اليراع ، وينهض به فى جو البيان ، ولا يعين على التغلغل فى أحناء النفس ، وإبراز دقائق الخواطر راولة فى المطارف اللائقة بها من الألفاظ ، مثل النظر فى اللغة ، والتأمل فى وجوه اشتقاق الكلمات بعضها من بعض ، وسبيل هذا من هذا ، ولمح معنى من آخر ، ومن شاء أن يقرأ تاريخ النفس البشرية فعليه باللغة »[1] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١١ .

البَابُ السَّادِسُ

شكيب اللغوى

— عنايته باللغة

— مساجلاته اللغوية

— بين شكيب واليازجى

— بين شكيب ورشيد

— المعاجم ليست كل شىء

— شكيب وشوقى

— شكيب ومَىّ

— ملاحظات لغوية

— تعريب الأعلام

— العامى الفصيح

عنايته باللغـــة

لاح لنا من خـلال الحديث السابق عن شكيب أنه كان حَفِيًّا باللغة حريصاً عليها ، يدافع عن ألفاظها وأساليبها ، ويدعو إلى التقيد بقيودها وضوابطها ، ولقد كان شكيب عضواً فى المجمع العلمى العربى بدمشق رَدَحًا طويلا من الزمن [1] ، وهذه العضوية تتضمن شهادةً لشكيب بأنه أهل للقيام مقامَ الحراسـة للغة والذود عنها ، بل رأينا حكومة دمشق تختاره رئيساً لهذا المجمع ، ولولا الظروف السياسية التى دعت بشكيب إلى التخلى عن هذه الرياسة ، لنهض بأعبائها وتبعاتها .

ولقد كان شكيب صاحبَ باعٍ طويل فى اللغة ، حتى قال عنه خليل مطران :

« ملك اللغةَ من أول أمره ، ولا أتغالى إذا قلت إنه جمع معجمها فى صدره ، بَلْهَ ما استظهره من أساليب بلغائها ، ورواه من روائع فحول شـعرائها ، وفى أثناء وروده تلك المواردَ من فُصُحِ العربية كان يرى وجوهَ الانطباق بين المصطلحات القديمة والمصطلحات الحديثـة ، ويتبين كيف تصرف المتقدمون فيما وصل إليهم من الأصول ، ليفرِّعوا عليها المعانى الجديدةَ التى تعلق بها تصرفاً لم ينافى سلامةَ القول ، ولم ينابذ مقتضى البلاغة على تحول الأحوال وتعدد العهود [2] » .

وقال فيه إسعاف النشاشيبي : « وقول الأمير — مدَّ الله فى عمره — فى الأدب واللغة هو القول [3] » .

وقد التفت شكيب إلى العناية باللغة منذ صغره ، وها هو ذا السيد محمد رشيد رضا يذكر فى ترجمته لنفسه بأنه قد بكر فى طلب العلم ، وهو أكبر من شكيب

---

(١) نجد اسم شكيب بين أعضاء المجمع منذ سنة ١٩٢٢ . انظر مجلة المجمع العلمى العربى المجلد الثانى ، ص ٣٦٢ .

(٢) ديوان الأمير ، ص (د ، هـ) .

(٣) مجلة المجمع العلمى العربى ، المجلد ١٣ ، ص ٣٩٩ .

بأربعة أعوام تقريباً ، ومع ذلك يذكر أن شكيب قد سبقه في طلب العلم، ومعنى هذا أن تبكير شكيب فى طلب العلم كان أوضحَ من تبكير رشيد وأكثر
ويذكر السيد رشيد أن شكيب فى المرحلة الأولى من طلبه العلم كان يستعين بكتاب « لسان العرب » ويراجعه عند الاشتباه .

يقول السيد رشيد مخاطباً شكيب : « وإنى لأعلم يا أخى سعةَ اطلاعك فى اللغة ، وكثرةَ مراجعتك لكتبها فى مظنة الخطأ ، بل أقول إنك كنت أول من نبهنى إلى مراجعتها عند الكتابة فى أول عهدى بمعرفتك ، إذ كنتُ قد زرت بيروت فى أول عهدى بطلب العلم — وأنت سبقتنى فى الطلب — فاجتمعت بك فى فندق (كوكب الشرق) ، ورأيت معك فى حجرتك (لسانَ العرب) ، ولم أكن رأيتهُ من قبل ، ورأيتك تراجع فيه وأنت تكتب بعض المكتوبات»[1]

ولسان العرب هو أوسع معجم مطبوع فى المكتبة العربية ، ومن القليل النادر أن يجرؤ على المراجعة فيه متعلم قبل المرحلة الجامعية من الدراسة .

ولقد ساعد شكيب على النبوغ اللغوى ذاكرتهُ القوية التى تعى فى سرعة ، ولا تضيعُ ولو بعد حين . يقول مارون عبود متحدثاً عن دراسته فى مدرسة الحكمة :

« وينقضى عامى الأول فى مدرسة الحكمة ، فأتتلمذ فى عامى الثانى والأخير للشيخ سعيد الشرتونى ، ونأتى على ذكر أسلافنا الذين أخرجهم معقلُ الضاد ، حتى إذا جاء ذكرُ شكيب انفتحت حدقتا شيخنا سعيد وقال : المير شكيب قُفَّنَة .

فقلت : وما معنى قُفَّنَة ؟ . فأجاب شيخنا الجليل : أى يحفظ كلَّ ما يسمع ولا ينساه [2] ، فكأنما يضعه فى صندوق ويقفل عليه . ثم طَفِقَ يطرى ثروة شكيب اللغوية كل الإطراء » [3] .

---

(١) كتاب السيد رشيد رضا ، ٦٠٤ .
(٢) فى القاموس : « القفنة كهمزة : الحافظ لكل ما يسمع » .
(٣) رواد النهضة الحديثة ، ص ١١٢ . وكلمة المير : هى الأمير فى لهجة أهل لبنان .

وكان لشكيب فى ميدان اللغة أساتذة أولهم عبد الله البستاني صاحب معجم « البستان » وصاحب المساجلات اللغوية الدالة على تمكنه من مفردات اللغة وعلمه بسرائرها ، وقد كان شكيب تلميذاً له فى مدرسة الحكمة ، وثانى الأساتذة هو سعيد الخورى الشرتونى صاحب معجم « أقرب الموارد » والذى صاحبه شكيب وتلقى عنه ، وتعلم منه الحرصَ على اللغة والبحثَ عن شواردها وأوابدها ، وهناك أستاذ ثالث لشكيب فى اللغة ، وإن لم يره شكيب ولم يجتمع به ، وهو أحمد فارس الشدياق ، فقد قرأ له شكيب الكثيرَ من لغوياته التى زادته حباً للغة قومه ووطنه .

واستطاع شكيب بثقافته اللغوية المبكرة التى أخذ يزيد فيها على الأيام أن يدخل فى مناقشات لغوية سنعرف جوانبَ منها بعد قليل ، فكانت له مناقشات مع السيد رشيد رضا فى الرسائل المتبادلة بينهما ، وكانت له مناقشات مع إبراهيم اليازجى بمناسبة نقد اليازجى لرواية أحمد شوقى « عذراء الهند » ، وقد سجل شكيب تفاصيلَ لهذه المناقشة فى كتابه عن شوقى . وكانت له مناقشات مع شوقى ، فهو يخطِّئه فى كثير من الأحيان ، ويتحدث عن ذلك فى الكتاب المذكور كما عرفنا ، وكانت له مناقشات مع الشيخ عبد القادر المغربى فى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق .

وإذا كنا قد عرفنا أن شكيب قد امتدت يده وهو فى المرحلة الأولى من طلب العلم إلى « لسان العرب » ، ينظر فيه ويستنبئه ويستشهد به ، فإنه من السهل علينا أن نتصور شكيب وهو يفزع إلى المعجم كلما اشتبه فى كلمة ، أو أراد أن يعرف معنًى للفظ غريب ، حتى إن شكيب نفسه قد أشار إلى ذلك فى رسالة خطية منه بين يدىَّ أرسلها إلى السيد رشيد رضا بتاريخ ٢٧ مايو ١٩٣١م ، وفيها يذكر أن أعداءه يقولون عنه : « لا يقدر أن يكتب إلا إذا كان محاطاً بكتب اللغة » . ويقرر شكيب أنه مسرور بهذا الطعن ، « وأى شرف أعظم من هذا ؟ . ويا ليتنى أقدر أن أبحث عن كل لفظة » . ثم يقول : « والخلاصة أن المراجعة فى كتب اللغة هى سعادة لمن يقدر عليها » .

ويخيل إلىّ أن مصاحبة شكيب لكتب اللغة أينما حل وحيثما نزل كانت أحد الأسباب التى جعلته يحتفظ بلغته السليمة وبيانه النقى، على الرغم من ترحاله وانتقاله، واختلاطه بهؤلاء وهؤلاء من أصحاب اللغات المخالفة للغته، فهو على الرغم من اغترابه عشرات السنين، وبعده عن وطنه العربى، وإقامته فى أوربة، واختلاطه المباشر بالأتراك والفرنسيس والألمان وغيرهم، وسماعه أكثر من لغة، وتحدثه بأكثر من لغة، ظل قوياً متيناً فى لغته العربية، لا تناله هُجْنة ولا لُكْنة، لا فى كلامه ولا فى كتابته.

ويبدو واضحاً من استشهادات شكيب اللغوية فى كتاباته خلال اغترابه أنه كان يفزع إلى المعجمات العربية، يستنبئها ويستشيرها، ويمحص عبارته عن طريقها.

* * *

وشكيب يؤمن بوجوب الحرص على اللغة، ويرى أن الكاتب لا يكون كاتباً إلا إذا رعى لها حقَّها، ولذلك يعجبه قول أناتول فرانس: « لا يقول الكاتب قولا سديداً إلا بنحو متين ولغة صحيحة ». وقول بوالو الفرنسى: « أعلى الكتَّاب كعبا إذا حُرِم الرسوخَ فى اللغة فليس بكاتب[1] ».

وحين يستشهد شكيب بكلام لمثل هذين يريد أن يؤكد رأيه، فيقول لنا إن غيرته على اللغة أمر لا يعاب، لأن الذين تقدموا وتمدنوا وتحضروا يغارون عليها ويعنون بها.

ويقول شكيب أيضاً: « الأديب لا يصح أن يسمى أديباً إلا إذا استكمل أداته من اللغة والنحو والصرف والبيان، وإلا فإنه يبقى متأخراً فى صفوف المتأدبين، مهما سمت معانيه، وزهت تصوراته، وأثَّر كلامُه، ونفذت طعناته[2] ».

---

(١) كتاب شوقى، ص ٥٥.

(٢) المرجع السابق، وقد سبق الاستشهاد بهذا

ولما كرر شكيب الدعوة إلى العناية باللغة والنحو خشى أن يفهم قام أنه يريد اقتصار الأديب على الاشتغال بأمر الألفاظ وإعرابها ، دون بقية المعارف العمرانية والعلوم المفيدة ، فينتهز فرصة إيراد قصة عن السيوطى جاء فيها أن إعراب « زيد قائم » فيه مائة وثلاثة عشر بحثاً ، فيقول : « وماسبقنا الأوربيون فى المعارف العمرانية والوسائل المادية إلا بكثرة اشتغالنا بزيد قائم إلى الحد الذى يخرج عن اللزوم ، بينما كانوا يقضون أوقاتهم بالعلوم الرياضية ، والتجارب الطبيعية المفيدة ، وهكذا تفوقوا وتغلبوا علينا[١] » .

وإنما هو يطالب بنقاوة اللغة وسلامة التركيب مع صحة الإعراب ، لأن المعنى إذا جاء فى ركيك اللفظ نالت من علوه الركاكة فعابته . يقول :

« ولولا متانة لغة شوقى لما عُدَّ شاعراً أصلا ، لأن نقاوة اللغة هى الشرط الأول للكاتب ، والمعانى وحدها لا تكفى ، ولا ينهض بركاكة اللفظ علوُّ المعنى ، وهذا أمر اتفق عليه العرب والعجم[٢] » .

• • •

وتبدو غيرةُ شكيب على اللغة العربية واضحةً فى كثير من المواقف ، فهو يطرب حين يجد أهلها يؤثرونها فى مواطن كانوا يُهملونها فيها ، وما يكاد يسمع أن سفيراً مصرياً ألقى خطاباً بالعربية عند تقديم أوراقه إلى رئيس دولة غير عربية حتى يفرح بذلك ، ويعبر عن فرحه بقوله :

« إن صحَّ كونُ سيف الله باشا سفير الدولة المصرية فى برلين — عندما قدَّم أوراق اعتماده لحضرة المارشال هيندنبورغ رئيس الجمهورية الألمانية — ألقى خطاباً باللغة العربية ، فتكون يداً تُذكر لمصر منضمةً إلى ما سلف لها من الأيادى

(١) تاريخ ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول ، ص ١٢٦ .
(٢) كتاب « شوقى » ، ص ٩٠ .

التي لا تُمد ولا تحصى على لهجة الضاد في الأرض ، فهذه في العهد الجديد — لا في العهد القديم عندما كان ملوك أوربة يراسلون خلفاء العرب — أول مرة استعملت فيها اللغةُ العربية كلغة رسمية في مقامات دول أوربة العظمى .

وحقيق بالدولة الألمانية التي في أمتها أحسن المستشرقين أن تُعلي قدر اللغة العربية ، وترضاها لغةً رسمية في المفاوضات لدولة مصر ، وللدول العربية التي لابد بحول الله أن تكون ذاتَ علاقات مع ألمانية في المستقبل ، كدولة اليمن ودولة نجد ودولة الريف ، بل ودولة سورية ودولة العراق ، فإن اللغات هي أعظم عوامل الاستقلال للأمم[1] » .

وهو يسر حين يجد شخصاً يصحح خطأ ، أو يتكلم كلاماً مضبوطاً ، وذلك يقول في كتابه « الارتسامات اللطاف » :

« ومررتُ ببستانية في الفَرْع [قرية في الحجاز] يديرها شاب لا يتجاوز العشرين ، فأخذت أحادثه وأسائله عن (الفرع) ، فقال لي : سقى الله الفرع ، فيها من فضول الله مالا يحصى .

أعجبني جداً كلامه ، وقوله : (سقى الله الفرع) هذه العبارة الشعرية ، ثم قوله : (فضول الله) . لو كان من أهل بلادنا الشامية لقال : أفضال الله ، فجمع فضلاً على أفضال ، وهو خطأ ، وصوابه : فضول ، كما قال الشاب الفرعي الثقفي[2] » .

* * *

ويرى شكيب وجوبَ تحفيظ الطلاب ما يمكن تحفيظه من مفردات اللغة ، ويرى أن حفظ « المقامات » يحقق للأديب — بما حوته من مفردات — ثروةً لغوية ، فيقول : « ومقامات الحريري هي من المنثور الذي حفظُه يساعد الأديب

---

(١) جريدة الشورى ، عدد ٢ يوليه ١٩٢٥ .
(٢) الارتسامات اللطاف ، ص ٢٦٧ . والبستانية : الساقية .

كثيراً على حفظ مفردات اللغة ». ويقول : « وإنى أرى مفيداً جداً تحفيظ طلبة الأدب من مقامات البديع ورسائله ، وقد كنت من عهد حداثتى كثيرَ المطالعة رسائل بديع الزمان الهمذانى وأبى بكر الخوارزمى ، أتلو تلك الرسائلَ المرة بعد المرة ، إلى أن استظهرت كثيراً منها[1] » .

وإذا كان حفظ المفردات من المعجم عملا مسئما قليلَ الثمر إلا إذا صحبه استعمال لهذه المفردات فى عبارات ، وكان حفظ المقامات قريباً من حفظ المفردات ، لأن عمادها هو سرد هذه المفردات فى عبارات مصنوعة ، فإننا نجد شكيب لا يقتصر على المطالبة بهذا ، بل لعلّه أحسَّ فى نفسه بقلة الجدوى من وراء هذه المطالبة ، فأراد أن يسلك سبيلا أخرى فى إشاعة هذه المفردات بين القراء ، وفى إحياء ما يمكنه إحياؤه من مهجور اللغة أو مجهولها ، فكأنه أخذ على نفسه عهداً أن يطعِّم كتابتَه بنصيب من هذا الغريب ، وقد يخف هذا النصيب تارة ، ويثقل تارة أخرى ، فنراه يتعمد إيراد المفرداتِ اللغوية الغريبة فى مقدمات الكثير من كتبه ، وإذا كنا عند دراستنا للسجع عنده قد رأيناه يعتبر « السجع » أمراً « رسميا » فى المقدمات ، فإننا نراه وكأنه يعتبر إيرادَ هذه المفردات أمراً « رسميا » آخر ، لا فى المقدمات وحدها ، بل فيها وفى مواطن كثيرة من كتاباته .

نراه فى تقديمه لكتاب « حاضر العالم الإسلامى » يقول :

« الحمد لوليِّه ، والصلاة على نبيه ، والسلام على كل هادٍ إلى سَوِيِّه ، وبعد ، فإن الأوربيين الذين يغورون فى كل أمر ، ويختتلون كل سر ، ويوسعون كلَّ قضية درسا ، ولا يسامون فى أطراف الأرض بحثاً ولا فحصاً ، يذهبون إلى أن فى العالم الإسلامى حركةً شديدة وغلياناً عظيما ، وأن آسية وأفريقية ماخضتان بحوادث خطيرة يكون من الجهل تجاهلها ، ومن الخُرْق الاستخفاف بها ، ومنهم من يغلو

(١) كتاب السيد رشيد رضا ، ١٢٢ و ١٢٣ .

فى تقدير هذه الحركة وتوسيع دائرتها، فيرى الإسلام من أقصاه إلى أقصاه متحسحساً للقيام ، والشرق من أوله إلى آخره متحفزاً للصراع ، ويجد العالم القديم كله مستوفزاً يريد أن يقتفى أثرَ اليابان ليسترد مجداً سالفاً ، ويستجد عزاً آنفاً ، ويُشحِط عنا كلّ غريب ، ويكشف كل مغير .

وأن الشرقيين — لا سيما المسلمين منهم — يأبون إلا استرجاع أملاكهم المغصوبة بأصبارها ، وإحراز حقوقهم المهضومة بحذافيرها ، كما أن نفراً نراهم بالعكس يقولون إن الإسلام جسمٌ متفكك الأجزاء ، متقطع الأوصال ، عاجز عن الصراع ، فاقدٌ لأسباب الدفاع[1] » .

فتراه هنا قد استعمل كلمة « يختتلون » بمعنى : يتسمعون للسر ، وكلمة « ما خضنان » بمعنى : حاملتان ، وكلمة « متحسحساً » بمعنى : متحركا ، وكلمة « مستوفزاً » بمعنى : متهيئاً للوثوب ، وكلمة « يُشحِط » بمعنى : يبعِد ، وكلمة « بأصبارها » بمعنى : بجميع أجزائها .

ونجده فى مقدمته لكتاب « الدرة اليتيمة » يذكر كلمات : « الإيجاف ، والإيغال ، وأثَّت العلائق ، والعارض المغدق ، وصنابير الأقلام ، وأنابيب اليراع ، وتعادل المُتنتين ، وثوبه الأبلق ، وعقبة عنود لدى التصعيد ، ومصاقع الخطباء ، وتترشف من أسآر مشاربهم ، وحماطة قلبه[2] » .

وفى مقدمته لديوان « روض الشقيق » يذكر الكلمات : « الفرُار ، الفريدة المعطال ، لا يرنُّ له حجل ، الندّ والالطيم ، المنجهية ، الشماريخ ، الشنشنة[3] » .

---

(١) حاضر العالم الإسلامى ، ج ١ ص (و) .

(٢) الدرة اليتيمة ، ص ٤ — ٩ .

(٣) روض الشقيق ، ص ٣ — ١١ .

وفى مقدمة كتابه « تاريخ غزوات العرب » يذكر الكلمات : « مداحض القدم ، الضَّرَم ، لهاميم العرب ، تنباع ، تستوفز ، شأو ، الغابر ، لينثلوا من كنائنها ، الطوائح[1] » .

ونراه فى كتاب أناتول فرانس فى مباذله — وهو كتاب مترجَم عن الفرنسيَّة — يتعمد الإكثارَ من المفردات اللغوية ، ففى المقدمة يورد هذه الكلمات : « الأشكَ ، الألحن ، الألكن ، أثَّت العلائق ، الذليقة ، الثقاف ، بنائقه ، صُبَّابة ، المنجهية ، السُّهم ، القُذَّة ، العطن ، تأثل ، المثافنة ، المماتنة ، المشارع ، الأجارع ، العُذْمُلى م- خايْطَى[2] » .

ولا يكتفى شكيب بالإكثار من هذه المفردات فى مقدمة هذا الكتاب وحدها ، بل يورد مزيداً منها خلالَ الكتاب ، فنجد فى الصفحة الثامنة عشر كلمات : « الشنشنة ، والمنمنة ، وديمومة » .

وفى الصفحة الرابعة والتسعين نجد كلمات : « يكرثهم ، عُدَوَاء ، شأوه ، منتدح ، مشاده » .

وفى صفحة (٣٠١) نجد كلمات : « مغنى ، الفراهة ، الشَّمَام » .

وفى صفحة (٣٠٢) كلمة : « تَفَخَّل » .

وهكذا لو ذهبنا نحصى المفردات اللغوية فى هذا الكتاب لوجدناها أكثر من مثلها فى الكتب الأخرى ، مع أن الكتاب مترجم كما ذكرنا ؛ وكأن شكيب أراد أن يتشبه بأناتول فرانس فى حرصه على مأثور اللغة ، أو أن يقول : إذا كان للفرنسية من يحيى مفرداتها ، فللعربية من يحيى مفرداتها كذلك ! .

---

(١) تاريخ غزوات العرب ، ص ٤ — ٦ .
(٢) أناتول فرانس فى مباذله ، ص ٣ — ٧ .

وكما تعود شكيب إيرادَ المفردات اللغوية فى نثره ، تعود إيرادها فى شعره، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك حين الحديث عن شكيب الشاعر .

ولا يقتصر هذا الإيراد على الكتب والقصائد ، بل يشمل مقالات شكيب فى الصحف ، فهو مثلا يقول فى بعض مقالاته بالشورى : « بعد أن اسبطر رواق الأمن[١] » . ويقول : « ليقيم به شهرا أو شَيْعَ شهر[٢] » ، ويقول : « وأنت قد رقيت هذه الشناخيبَ الضاربة فى السماء »[٣] .

وقد يكرر الكلمة الغريبة فى الشعر بعد النثر لإشاعتها ، ككلمة « شناخيب » الماضية ، إذ ذكرها فى رثائه للرافعى ، فى قوله :

لا غرو أن يرقى شناخيبَ الذرى   مَنْ كان مِنْ ذاك النِّجار تحدرا[٤]

ولذلك يقول محمد كرد على :

« وكان الأمير أثابه الله منذ وَعَى على نفسه مُولَعًا بإحياء غريب اللغة ، وما برح استحضارُ الفُصَح المنسية من الأمور الطبيعية فيه ، ساعده على التبريز فى ذلك جودةُ ذاكرته ، وتتخلل هذه الألفاظ مقالاته العلمية والسياسية ، وحواشيه وترجماته فى الكتب التاريخية والاجتماعية ، وهذه طريقة مفيدة فى الاحتفاظ بتراث الأجداد وإحياء الموات ، أو ما هو من قبيله[٥] » .

* * *

---

(١) جريدة الشورى ، عدد ٢٦ فبراير ١٩٢٥ .

(٢) المرجع السابق ، عدد ١٤ أكتوبر ١٩٢٦ .

(٣) المرجع السابق ، عدد ٤ نوفبر ١٩٢٦ .

(٤) مجلة الشباب ، عدد ٩ يونيه ١٩٣٧ . والشناخيب : جمع شنخوب (بضم الشين) وهو أعلى الجبل ، والنجار : الأصل .

(٥) مجلة للجمع العلمى العربى ، المجلد ٦ ، ص ٣٣٠ .

وقد تكونت لشكيب على مر الزمن وطول البحث و تكرار المراجعة ثقافة لغوية واسعة ، حتى غدا فسيح الاطلاع على معانى الكلمات و أسرار اللغة ولهذا شواهد كثيرة ، منها أن أحمد زكى باشا كتب يقول : إن كلمة « الجوالي » مفردها « جالية ، » ولكنها لا تستعمل إلا بصيغة الجمع ، وإنه قد أكثر التنقيب فلم يجد لمفردها أثرا ، وإن هذا المفرد ميت من أيام العباسيين إلى يومه . فيأتى شكيب ويقدم له شاهداً على استعمال المفرد من كلام أبى إسحاق الصابى[1] .

ودارت مناقشة حول اسم بلدة « دارين » من بلاد البحرين على صفحات جريدة الشورى ، اشترك فيها الأساتذة محمد أمين بك واصف وعبد العزيز الثعالبي ، ومحمود بك رشاد وأحمد زكى باشا وخير الدين الزركلى ، فاشترك شكيب فى المناقشة ، وصحح بعض المعلومات ، وتلطف وهو يفعل ذلك ، إذ قال للمحرر : « اطلعت على ما دار فى جريدتكم الغراء بشأن (دارين) ، وتأملت فى أقوال أولئك الفحول الذين دروا ما جهله غيرهم ، وما كل الناس بدارين ، ولقد تضوع عرف كلامهم الدارى حتى نشقناه من ساحل (مرسين) حيث هذا العاجز من المرسين » . ثم أخذ يورد المعلومات التى تدل على خبرته اللغوية ودرايته بالتاريخ[2] .

ونراه يكتب فى مجلة المجمع العلمى العربى مقالا بعنوان « مطالعات لغوية » يستغرق خمس عشرة صفحة ، وفيـــه شواهد على مطالعاته اللغوية الواسعة ، ومنه قوله :

« وأما المخابرة بمعنى (المطالعة أو المفاوضة) فهى خطأ محض ، وقد كنت أول من أرسل إلى الشام فى أيام ولاية فيصل بن على بإلغاء جملة (قلم المخابرات) ، وأشرت عليهم بأن يقولوا (ديوان الرسائل) .

---

(١) جريدة الشورى ، عدد ١٦ يوليه ١٩٢٥ .

(٢) المرجع السابق ، عدد ١٦ إبريل ١٩٢٥ .

وأما ما جاء من استفتاء الأستاذ أحمد رضا للمجمع العلمي من جهة تصحيح (المخابرة) قياساً لها على (المبادلة) من البدل ، فلو حضرت هذه المذاكرة لكنت في جهة المنع ، لأن هذا القياس يبعد بنا كثيراً ، واللغة عمدتها السماع لا القياس فلهذا أنا على رأي سعادة الأخ عارف بك نكد في بحثه المتعلق باقتراح العلامة الشيخ عبد القادر المغربي الوارد في الجزء العاشر من المجلد الثامن من مجلة المجمع .

وأقول : أعفونا من (خَابَرَ) فإن (طَالَعَ) و (راسل) و (راجع) و (خاطب) و (فاوض) وغيرها تغنينا عنها .

وفي لسان العرب : (نابأت الرجلَ : أنبأته وأنبأني) فالمنابأة إذاً صحيحة ، وهي في المعنى المقصود من (المخابرة) من الخبر ، فلنستعمل المنابأة بالأقل »[1] .

وشكيب يبدي براعته في تفسيراته اللغوية بما له من ثقافة واسعة في هذا المجال ، ومن نماذج تفسيراته اللغوية ما يشرحه قوله :

« عند ما قصدنا ميدانَ القتال على ترعة السويس ، نزلنا من معان لجبال الشراة إلى مكان في أول صحراء التيه ، يقال له (الغَرَنْدَل) بفتح الغين والراء معاً ، فسكون النون ففتح الدال ، ولما وصلنا إليه وجدته بابَ وادٍ ضيق تنبع منه مويهات في أماكن متعددة ، فأقمنا هناك يومين ، وصادفنا بعض شبان من أدباء الوطن متحيرين في تفسير كلمة غرندل ، هذا يقول : أصلها (قارون ذل) ، والثاني يقول : (غار الذل) وهلم جرا .

فقلت : لا والله إن هو إلا (غار الندى) ، والبدو من عادتهم تسكين أوائل كثير من الكلم ، فسكنوا نون الندى ، فصارت (غارندا) ، وألحقوا بها اللام كما يجري ذلك أحياناً على ألسنة العامة في كلمات أواخرها لينة ، فكأنهم يريدون أن يتوكأوا على حرف جامد ، فجعلوا غارندا (غرندل) .

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي ، المجلد ٩ ، ص ٧٤ وما بعدها .

ووجه كون هذا المحل هو غار الندى كونه أشبه بغار ، وفيه موبهات وأنداء تسيل من هنا ومن هناك ، وإذا حفر الإنسان فى الرمل قليلا وصل إلى الماء ، فهو فى الحقيقة (غار ندى) ، واللام عصا للتوكؤ لاغير ، وحروف اللين جوفاء خوّارة ، فكأنهم أرادوا أن يقوّوها بحرف صحيح »[1] .

ويمضى شكيب فى ألوان كتابته من تأليف إلى نظم إلى مراسلة ، دون أن ينسى نصيبَ اللغة من عنايته ورعايته ، بل لعله كان يعطيها أحياناً أكثر مما تستحق بالنسبة إلى موطن الكلام ؛ لا بالنسبة إلى ذاتها ، فهى فى ذاتها أهل لكل رعاية وعناية .

نراه فى « الارتسامات اللطاف » إذا عرضت له لفظةٌ فيها غرابة تتبعها بالتفسير والتحقيق والتعليق وإيراد الأقوال فيها والشواهد عليها ، فتمر عليه مثلا كلمة « المواجن » وهى بمعنى سيل الماء ، فيتناولها بالبحث والتعليق ، ويتتبع مصادرها ، والتغييرات التى دخلت عليها ، ويستغرق فى ذلك صفحة ونصف[2] .

ثم تمر كلمة « المطوِّف » فيبحثها من ناحية اللزوم ، والتعدى ، والاشتقاق ، والمعنى ، وكذلك فعل مع كلمة « المزوَّر » ، ويستغرق فى ذلك صفحة[3] .

ثم ترد كلمة « المثناة » فى أحد النصوص ، فيتناولها بالتحقيق اللغوى من جهة أصلها ونطقها ، وما دخل عليها من تحريف أو تحوير ، ويشغل فى ذلك أكثر من صفحتين[4] .

وحينما تحدث عن معادن الحجاز تناول عشرات من الأسماء والألفاظ بالشرح اللغوى عن طريق الرجوع إلى كتب اللغة[5] .

---

(١) مجلة المجمع العلمى العربى ، مجلد ٤ — عدد ٦ .

(٢) الارتسامات ، ص ٣٠ .

(٣) الارتسامات ، ص ٧١ .

(٤) الارتسامات ، ص ١٢٨ . والمثناة : اسم مزرعة فى الطائف .

(٥) الارتسامات ، من ص ٢٢٩ إلى ص ٢٤٧ .

وأحياناً يقطع شكيب تسلسل حديثه ليشير إلى أمر لغوي ، كأن يقول مثلا « صارت الأمة ماهى عليه الآن بحول الله ، ثم بابن سعود » ، وهنا يفتح قوساً ويقول « وإخواننا النجديون لا يجيزون فى مقام كهذا إلا استعمال ثم ؛ وينكرون استعمال الواو ، فنحن لا نقول لهم إلا ثم » ، ثم يعود إلى حديثه [1] .

* * *

وهو يدقق فى استعمال الكلمات وفى تحديد معانيها ، يتثبت من ذلك لنفسه أولا حين يكتب ، ويراجع غيره فيما يشتبه عليه ، أو لا يقره إذا استعمل غيره شيئاً من ذلك ، ويصحح ما يقع فيه غيره من أخطاء .

وكان شكيب إذا سمع مذياع أية دولة يخطىء فى اللغة العربية ينبرى له بالرد السريع الصحيح ، كى يرجع المذيعُ إلى القواعد الصحيحة ، كما ذكر ذلك الدكتور الطيب الناصر [2] .

ونجد شكيب يقول عن السيد رشيد رضا :

« كنت دائماً إذا وجدت فى كلام السيد لفظةً لا أجد لها أصلا فى اللغة ، أعترض عليه فيها ، وأسأله عن الوجه الذى عنده فى هذه اللفظة ، وكان هو يفعل وهى كذلك ، وسنورد جُلَّ ما وقع بيننا من المطارحات اللغوية ، لأن فيها فوائد لطلاب العربية » [3] .

وأثبتُ هنا نص رسالة من « شكيب » إلى « رشيد » كنموذج للمناقشات اللغوية التى كانت تدور بينهما فى هذه الرسائل :

---

(١) الارتسامات ، ص ٧٤ .
(٢) ذكرى الأمير ، ص ٨١ .
(٣) كتاب السيد رشيد ، هامش ص ٣٤٦ .

« لوزان فى ٩ أغسطس ١٩٣١

سيدى الأخ الأستاذ أيده الله :

تناولت كتابك رقم ٢٤ يوليو وهو الذى فيه الكلام على أغلاطى اللغوية والبيانية وغيرها ، وقد شكرتك على ذلك كثيراً ، ولم يسرنى كتابٌ منك أكثر من هذا الكتاب ، فإننا قوم مهنتنا الكتابة ، وبقدر ما نبعد عن الخطأ ، ويقل تعرضنا للانتقاد يكون سرورنا ، وهذا بديهى .

إلا أنى مضطر أن أراجعك فى أشياء ، لا لأنه يصعب عليَّ الاعتراف بالخطأ ، لا سيما إذا نبهتَ عليه أنت ، بل لأنه يجوز أن تكون أنت غيرَ متذكر بسبب كثرة أشغالك ، ولذلك ينبغى تذكيرك . ومن باب التمثيل أقول لك : إنك خطـأْتنى فى استعمال « الفيلق » بالتذكير ، وذكرتَ ذلك فى حاشية أحد الكتب التى طبعتها عندك ، وقد كنتَ تقدر أن تقول إنه يجوز فيها التذكير مراعاة للفظ ، أو تأويلا لها بجيش ، مما له نظائر كثيرة فى كلامهم ، فلم تفعل ، بل جزمت بالخطأ ، وهذا الجزم هو الذى اضطرنى إلى أن آتى لك بشاهد من ابن الأبار القضاعى :

وأوطئْ الفيلق الجرار أرضَهمُ حتى يطأطئْ رأساً كلُّ مَنْ رَأَسَا

وما كنتُ ممن يجهل أن ابن الأبار وأمثاله مولدون ، وأنه لا يؤخذ كلامُهم حجةً فى اللغة ، بل لا يؤخذ بكلام من هو أعلى منهم فى اللغة ، ولا بكلام المتنبى ، ولا بكلام أبى تمام ، ولا بكلام أبي نواس ، ولا بكلام هذه الطبقة كلِّها ، مع رسوخهم فى اللغة ، ولقد علمت هذا وأنا ابن ١٤ سنة ، فلا يخفى عليَّ وأنا ابن إحدى وستين ، فقولك لى : « لاتفاق علماء اللغة على أن المولدين لايحتج بعربيتهم فلا يجعل شاهداً على أن الكلمة العربية . (وتريد أن تقول إن الكلمة عربية فوضعت أل سهواً) وأنا عند ما كتبت لمثلك أن كلمة الفيلق مؤنثة مثلا ، فإنما أعنى بذلك الاستعمال الحر الفصيح . . . إلخ » .

هذا قد استغربته لأنى منتظر منك فوائد جديدة ، لا ذكر شىء أعرفه منذ الصغر . ولعلك تقول لى : فإذا كنت تعرف هذا من الصغر فلماذا تستشهد بكلام المولدين ؟ فأجيبك بأن كلام المولدين إن لم يصلح حجة ككلام الجاهليين والمخضرمين ، فإنه يصح الاستئناس به ، ولاسيما إذا كان هناك أصل من نفس اللغة ، وكان المولد من أمثال المتنبى وأبى تمام الذين كانت إحاطتهم باللغة موصوفة ، فهؤلاء لا ينطقون بالكلمة إن لم يعرفوا لها أصلا ، وكذلك ابن الأبَّار القضاعى الحافظ الشهير ، لاشك أنه يُستأنس بكلامه ، وتطمئن النفس إلى استعماله ، ومثله أبوالبركات الأنبارى رأس النحاة وأمير علماء اللغة فى وقته ، إن لم يتخذ كلامه حجة ككلام امرىء القيس،أو على بن أبى طالب،أو الأخطل،أو جرير مثلاً ، فلا يجوز أن يهمل ويزدرى به .

ولقد رأينا كثيراً من المؤلفين فى مباحثهم اللغوية يستشهدون بكلام الأئمة من المولدين ،أو يجرون مجراهم ، وذلك كما قالوا (مشاهير) مثلا ، لكثرة ورودها فى كلام الأئمة . ولوكان ابن الأبار والأنبارى استعملا لفظة (جاوب) بمعنى أجاب ولم يكن لها أصل من اللغة ، لكنَّا نقول إنهما أيضاً قد غلطا ، ولكن (لسان العرب) يقول : « والتجاوب » : التحاور ، وتجاوب القوم جاوب بعضهم بعضاً ، واستعمله بعض الشعراء فى الطير فقال جحدر :

ومما زادنى فاهتجت شوقاً غِناء حمامتين تجاوبان

تجاوبتا بلحنٍ أعجمىٍّ على غصنين من غَرْبٍ وبانِ

ثم نعود إلى (التحاور) الذى فسَّر به « التجاوب » فنراه يقول فى مادة (حور) ما يلى :

« كلمته فما رجع إلىَّ حَواراً وحِواراً ومحاورة وحَويراً ومَحُورة بضم الحاء بوزن مشورة أى جواباً . وأحار عليه جوابه ردَّه ، وأحرت له جواباً وما أحار

بكلمة ، والاسم من المحاورة الحَوِير ، تقول سمعت حويرهما وحوارهما ، والمحاورة المجاوبة والتحاور التجاوب » .

ثم يذكر حديثاً لعلى (رض) فيه : « يرجع إليكما ابناكما بحور ما بعثتما به » ويقول فى تفسيره : « أى بجواب » . وبالاختصار نجد هنا المجاوبة والتجاوب والجواب نظير المحاورة والتحاور والحوار ، فكلها صحيحة فصيحة ، وغاية ما يقال إن : (أجاب) أشيع فى الاستعمال من (جاوب) ، وإن جاوب يقتضى أخذاً ورداً بين المتجاوبين .

ولقد أنصفتَ فى قولك إنك إنما تبغى الاستعمال الحر الأصلى فى اللغة أو الفصيح أو الأفصح ، وإذا كان مرادك الأفصح فلا كلام لى ، ولكن يا سيدى هذا الأفصح أرجوك أن تقول لى مَنْ تقيد به ؟ . هذا كلام الأئمة كلهم ، تجد فيه من العدول عن الأفصح ومن استعمال الضعيف ما لا يحصى ، وأنت — وإنك لا شك من الأئمة — لك فى (المنار) استعمالات كثيرة من هذا القبيل ، منها ما هو ليس من العربى الأصلى الحر ، ومنها ما لا يصح إلا بتأويل ، وما ألومك على ذلك ولا ألوم الأئمة ، وذلك لأن مقصدهم التفهيم ، ولكل عصر ألفاظ غالبة عليه ، فلم يكن لهم مندوحة عن الاستعمالات التى هى أقرب إلى فهم الناس .

ومؤخراً كتبتَ لى تقول لى : « بنوتة لم يستلم الكتب » ، وهذا اصطلاح عامى فى هذا الموضع ، وإن صح فلا بد من تأويل بعيد ، والأصح فيه : « لم يتسلم الكتب » . ولكنك جريت هنا مجرى الجمهور من أبناء هذا العصر . وأنا إنما أذكرك بذلك لتعلم أنى مثلك قد أتابع الناس أحياناً ، لا جهلاً بل مراعاة لفهمهم .

ولقد قرأت فى حياتى (درة الغواص) وشرحها للخفاجى وشرحها للآلوسى ، وقرأت كثيراً من المباحث التى فى معناها ، وقرأت مناقشات أحمد فارس ، وإبراهيم اليازجى ، أى (سلوان الشجى فى الرد على إبراهيم اليازجى) ، وقرأت (لغة الجرائد)

لإبراهيم المذكور ، وغير ذلك ، وكنت كثيراً ما أشافه البستاني والشرتوني في هذه الأمور : ما يجوز وما لا يجوز ، وما يمكن تأويله وما لا وجه له ، فلست بدون بضاعة في هذا الباب ، ولكني لا أدعي مع ذلك أني سالم من الخطأ حتى في اللغة التي أكثر ما أشتغل بها .

وما أراجعك فيما تقوله استصعاباً لنقدك إياي ، بل أنا والله شاكرٌ لك حداً هذا النقد الذي معناه حبُّ الكمال لي ما أمكن ، ولكني أراجعك حتى أذكرك وأنبهك إلى ما قد تكون أشغالك أذهبته عن بالك ، أو لستَ منه على بيِّنة .

قلت لي مرة إن استعمال « فضلا عن كذا » تحسبه مولّداً ، وأنا أراه كذلك ، ولكني رأيته في كلام المنشئين الكبار الأولين وقيدته ، وأظن أني رأيته في كلام الجاحظ ، وحسبنا أن نقتدي بهؤلاء .

ولقد ساءني كون وقتك لم يتسع للإتيان بأمثلة من أغلاطي اللغوية والبيانية ، فحبذا لو تيسر لك ذلك ، فيكون لك الفضل العظيم فيه .

أما استعمالي (رأساً) بمعنى تواً فهو فاشٍ ، ولا يصعب تأويله ، لأن « رأس كل شيء أوله » في اللغة ، فقولنا : « ذهب رأساً » أي أولا . فأي شيء في هذا ؟ .

وأما العياء فالمتنبي — الذي كان يعرف معنى العياء — يقول : « عياء به مات المحبون من قبل » . وأنت مصيب في قولك إنه المرض الذي يُعْيي الأطباء ، وهو ما كان مرضي بمكة ، لولا أن الله سلم ، فقد كانوا خافوا كثيراً ، وأقروا لي بذلك بعد أن شفيت ، وقالوا لي : إني قبل صعودي إلى الطائف كنت أشفيت .

« ونحو كذا » بدلا من « نحو من كذا » قالوا فيه إنه خطأ كما تقول ، وقرأت أنا ذلك ، ولكني أنا أعلم جيداً أنهم يقولون : « زهاء مائة » أي قدر مائة ، ولا يقولون زهاء من مائة ، وقد فسروا الزهاء بالقدر ، وماذا عليَّ أن أجري « نحواً » مجرى زهاء والمعنى واحد ؟ . وقد ورد في مستدرك التاج : « والنحو المثل والمقدار » .

وأما « صدر منه » بدلا من « صدر عنه » ، فلعمرى هذا عائد للمعنى ، فإن كان المراد الإتيان بذنب ، وقلنا : « الذنب الذى صدر منه » بمعنى برز منه ، أفترى ذلك غلطا ؟ .

التقديم والتأخير فى المسند والمسند إليه ومتعلقات الفعل قد نقع فيه من العجلة وعدم اتساع الوقت للمراجعة ، وأرى منه كثيراً فى كلام الكبار الذين لا يقدرون أن يراجعوا من ضيق وقتهم ، وحبذا لو جئتنى ببعض جُمل من كلامى لأتجنب الوقوع .

والعطف فى غير موضعه فى كلامى أريد له مثالا ، ومتى عطفتُ أنا فى ابتداء الكلام ؟ ، ومتى تركتُ العطف حيث يجب ؟ ، كل هذا ممكن بسبب العجلة ، لكن يتضح لى أكثر لو أتيتنى بشاهد ، ومثله جواب الشرط فى موضع جواب القسم ، ويجوز من كثرة العجلة أن تبقى كلمات فى المحبرة ، على حين أنا أظن أنى أثبتها ، ثم إنى لا أتنبه لها إلا فيما بعد ، وقد وقع لى ذلك مراراً .

وأما رسالة « لماذا تأخر المسلمون » فبنونة كان غائباً ، ولما جاء تسلمها ، وقريباً يبعث إليك بالثمن ، أى عن ١٥٠ نسخة ، ولذلك أرجو أن تبعث له بخمسين نسخة من (الارتسامات) أو بإحدى وخمسين ؛ الواحدة له هدية والخمسون للبيع .

والزاهرى يرى عدم وصول الكتب إلى أصحابها بالجزائر وتلمسان ناشئاً عن عدم صحة العناوين ، لهذا كتبت إلى السيد عبد الرحمن عاصم ليصحح جيداً العناوين، ويبعث بالرسالة والارتسامات طروداً صغيرة ، كل طرد ٢٠ نسخة ، وليجرب بطرد إلى الزاهرى والمدنى ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

أخوك

شكيب أرسلان

١ — الملك فيصل تغدى عندى أمس هو وجميع حاشيته ، وعاد عصر النهار إلى برن »[1] .

* * *

(١) هذه حاشية وضعها شكيب فى أعلى الرسالة .

وكان شكيب يدقق فى تمييز لفظ على لفظ ، أو تفضيل كلمة على كلمة ، لنمط أو نكتة ، ومن أمثلة ذلك قوله : « ومنذ ذلك الوقت (أقول : منذ ، ولا أقول : مذ ، لأنى سمعت شوقى يستحلى الأولى على الثانية ، ويقول : منذ أخف على القلب من مذ) كنت تكتب الأوابد السائرة . . .[1] » .

ومن أمثلة ذلك أيضاً قوله :

« إن لفظ الجزية كلمة شرعية ، ولها مكان معلوم من الشرع ، فلا تقال لما يأخذه الإمام من المسلمين ، لا بل ثقلت على العرب جميعاً فى صدر الإسلام ، فالذين لم يكونوا أسلموا منهم مثل نصارى بنى تغلب مثلا عندما ضربها عليهم سيدنا عمر أجابوا بأنهم لا يؤدون جزية . قيل : فلما أنذرهم بالبطش بهم أو يدفعوها قالوا : إنا نؤديها ، ولكن لا على أنها جزية ، بل على أنها إتاوة ، قال : فأجابهم سيدنا عمر رضى الله عنه : هاتوها وسموها كما شئتم .

فأنت ترى أن الجزية ثقيلة اللفظ ، وأن استعمالها ألغى من عهد بعيد ، ولا نزال نقرأ فى الجرائد المصرية : الجزية ، الجزية ، للمال الذى كانت مصر تؤديه للدولة العثمانية ، وهو استعمال بغير محله ، لأن الخليفة لا يأخذ الجزية من أمته ، وكان الأولى أن يقال : خراج مصر ، أو بالأقل : إتاوة مصر[2] » .

وقد علق أحمد زكى باشا على هذا الكلام فقال فيما قال : « ولقد كان للشمم العربى مكانه فى صدر الإسلام ، فأبى بعض الذين حقت عليهم (الجزية) أن يقبلوا التعبير بها ، واختاروا لفظ (الإتاوة) على ما شرحه الأمير شكيب ، بيض الله وجهه وأعلى رأسه[3] » .

---

(١) الشورى ، عدد ٢٠ أغسطس ١٩٢٥ . وهو يوجه الخطاب إلى أحمد زكى باشا .
(٢) المرجع السابق ، عدد ٢٥ يونيه ١٩٢٥ .
(٣) المرجع السابق ، عدد ١٦ يوليه ١٩٢٥ .

ولكني ألاحظ هنا أن عمر رضي الله عنه حين قال لنصارى تغلب ما قال لم يرد أن يغير اسم الجزية . بل أراد أن يظهر عدم اهتمامه بالشكليات ، وكأنه أراد أن يقول : سموها في كلامكم كما تشاءون ، فإنها جزية على كل حال ، والمهم هو الدفع .

وذلك لأن القرآن الكريم يقول في شأن المطلوب منهم الجزية : « حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ » . وقد قال الراغب الأصفهاني : « والجزية ما يؤخذ من أهل الذمة ، وتسميتها بذلك للاجتزاء بها في حقن دمهم »[١] .

ومادة (الجزاء) فيها معنى الغناء والكفاية والمقابلة ، وأصل المادة (وهو الجيم والزاي والياء) يدل على « قيام الشيء مقام غيره ومكافأته إياه[٢] » .

والجزية تؤخذ في مقابل حماية أهليها من العدوان الخارجي ، وتحقيق الأمن الداخلي لهم ، فليس فيها غضاضة ، مادام أهلها قد ارتضوا البقاء على وضعهم .

ثم إن شكيب على حق حين ينادي بالإقلاع عن استعمال كلمة « الجزية » بمعنى الخراج ، لأن المسلم يتأذى من استعمال كلمة « الجزية » معه ، إذ معنى ذلك أنه غير مُسْلِم .

---

(١) مفردات القرآن ، ص ٩١ .

(٢) معجم مقاييس اللغة ، ج ١ ص ٤٥٥

بين شكيب واليازجى

عرفنا أن شكيب عُنِي باللغة منذ نعومة أظفاره ، وأنه كان يرجع إلى المعجم الأكبر « لسان العرب » وهو فى المرحلة الأولى من طلب العلم ، وأنه قد تكونت له ثقافة لغوية واسعة فى سن مبكرة ، فلا عجب بعد هذا إذا رأيناه يشارك فى المناقشات اللغوية ، وكأنه أراد أن يُرضى طموحَ نفسه ، فاختار للمساجلة اللغوية الأولى علَماً من أعلام اللغة وهو إبراهيم اليازجى الذى قيل فيه إنه « لغوى مدقق من الدرجة الأولى ، وصحافى مجدد ، فهو موئل اللغة الحصين ، ورقيب الإنشاء فى عصره »[1] . بل يصفه شكيب نفسه بقوله : « من أبصر جهابذةِ اللغة وأفرس فرسان الإنشاء »[2] . ويقول عنه أيضاً : « كان من علماء اللغة المعدودين ، ومن كبار الكتاب ، وأمتنهم تركيباً ، وأحسنهم نسق عبارة »[3] .

وسبب المساجلة أن اليازجى نقد روايةَ أحمد شوقى « عذراء الهند » فى مجلة « البيان » سنة ١٨٩٨ م ، وكان عمر شكيب حينئذ سبعة وعشرين عاماً ، وعمر اليازجى فوق الخمسين ، وشهرته أوسع من شهرة « شكيب » ، وفى اللغة بخاصة .

وشوقى صديق لشكيب وحبيب إليه وعزيز عليه ، فانتضى قلمه ، وردَّ على اليازجى نقده بمقال نشره فى عدد ٢٥ يناير سنة ١٨٩٨ م من جريدة الأهرام ،

---

(١) مصادر الدراسة الأدبية ، ج ٢ ص ٧٥٩ .
(٢) كتاب « شوقى » ، ص ٥٦ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٦٧ .

جعلوه بمعنى المأوى ، ولأن أصله من المبيت ، فسواء بات الإنسان فى مأوى من الشعر أو من الحجر ، فيصح أن يقال لمأواه هذا (بيت) .

وكذلك (الشباك) الذى كان من قصب أيام لم يكن الحديد مبذولا ، بقى يقال له الشباك بعد أن سخر الله الحديد للناطقين بالضاد وألانوا منه القضبان .

وكذلك (الناقوس) كان خشبة فى أيام الجاهلية ، فصار فى أيام المدنية نحاساً ، وبقى يقال له (ناقوس) ، ونطق به الفصحاء » .

ومضى شكيب يسرد له كلمات من هذا القبيل ، وذكره شكيب بأنه هو نفسه قد استعمل الكثير منه ، وضرب له الأمثال على ذلك ، ثم قال إننا لو جارينا اليازجى فى تحجيره واسع اللغة « لما كان فى لغات العالم أضيق من العربية »[1] .

ويأخذ اليازجى على شوق قوله : « جنى ظلك » لأن الجنى هو الثمر ، والظل لا يثمر ، ويرد شكيب بأنه لا مانع من هذا التوسع ، لأنه « لا غراس بلا ظل ، وأن الظل غير مانع من الجنى »[2] . ويذكره شكيب بقولهم : ظل الله ، وظل الأمن ، وظل العدل ، وظلال مجردة كثيرة ممتدة فى الكلام العربى ليس لما تضاف إليه أدنى حجم .

ويأخذ اليازجى على شوق قوله : « الرأى العام » ويقترح بدلها كلمة « أهواء النفوس » ، ويرد شكيب بأن كلمة « الرأى العام » مترجمة عن لغات الإفرنج ، ولا يوجد فى العربية ما يسد مسدها بالتمام ، ومع هذا فاتصاف الرأى بالعام كاتصاف البلاء بالعام ، وشاعر الجاهلية يقول :

يا ليت شعرى عنك والأمر عَمَمْ ... ما فعل اليوم أُوَيْسٌ بالغنم ؟

---

(١) كتاب « شوقى » ، ص ٥٧ .

(٢) المرجع السابق .

« فإن كان يقال : أمر عَمَم ، فلماذا لا يقال : رأى عام ! وأى إثم فيها ؟[١] »

ويذكرّ شكيب اليازجى بأنه — أى اليازجى — يدعو إلى وجوب الوضع فى اللغة قضاء لحاجة العصر ، ووفاء بالمعانى الحديثة التى لم تكن عند العرب ، فكيف يتفق هذا وتحجيره فى اللغة ؟ .

ويسلم شكيب لليازجى ببعض نقده ، كأخذه على شوق استعمال كلمة « برهة » بمعنى هنيهة ، مع أن البرهة هى الزمان الطويل كما يقول القاموس ، ويقول شكيب عن هذا الاستعمال إنه « استرسال إلى اصطلاح العامة ، أو عدم تحقيق » .

ومثل هذه كلمات أخرى اعترف شكيب بأن شوقى قد أخطأ فيها ، وأن اليازجى مصيب فى نقدها ، وهذا إنصاف من شكيب فى الحكم واعتدال فى القول .

وبعد أن يستوفى شكيب الردَّ على مآخذ اليازجى يقول : « هذا ما عنَّ لى إيراده من محاكمة هذين الفاضلين ، لا أقصد به تهضمَ جانب أحد منهما ، ولا الاستطالة على أحد ، فإننى أول من أقر بعجزه ، ولى من مودة كل منهما ما يكفل تصحيح دعواى هذه[٢] » .

ويوجز شطرى حكمه بقوله : « وبالجملة فلا أبرئ (البيان) من التشديد فى مؤاخذة شوقى بك ، والتحجير فى الواسع ، كما لا أبرئ شاعرنا الشهير من النزوع إلى أبعد مذاهب الشعر أحياناً فى كتاباته ، ومن تسلط التأمل على مخيلته إلى حد الذهول الذى يحمله أن يقع فى فرطات منشؤها السهو[٣] » .

والذى يبدو أن اليازجى فى نقده يحكِّم كتب اللغة ، وينسى المجاز والتوسع ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ٦١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٦٦ . والبيان مجلة اليازجى .

وشكيب يحكم كتب اللغة ويضيف إليها عنصر المجاز والتوسع . والحق في هذا إلى جانب شكيب .

***

وغضب اليازجي من نقد شكيب ، وقامت قيامته — كما يعبر شكيب — لأنه لم يكن يطيق اعتراضاً عليه من أحد ، وكان يهزأ بالمتقدمين ويجهلهم فى اللغة ، حتى خطأ بعض أصحاب المعلقات فى تأنيثه كلمة « ضوضاء » ، إذ يراها مذكرة .

وعبر اليازجي عن غضبه بنشره مقالا فى « البيان » فاض بالحدة وألفاظ الوقيعة ، وخرج — كما يقول شكيب — عن المناظرة إلى المهاترة[1] ، وعاد شكيب إلى الرد مقتصرا على المسائل اللغوية ، تاركا ما هو خارج عنها ، وأخذ يعزز آراءه السابقة ، ويقرر أن المجاز يقع لأقل ملابسة . وأن المجاز هو فصاحة اللغة العربية وبيانها ، وهو « ما أريد به غير المعنى الموضوع فى الأصل ، وهو من جاز أى انتقل ، كأنما يريدون به الانتقال من مقصد إلى آخر »[2] . وبهذا الانتقال اللازم يتسع رحاب اللغة وينفسح مداها .

كما يقرر أنه لا عبث فى اللغة العربية « أكثر من التحجير فى الواسع ، والقطع بعدم جواز هذا ، وعدم ورود ذاك ، ظناً بأن اللغة قد انتهت عند الذى طالعناه »[3] .

ثم يختم شكيب رده بقوله : « هذا ، وأما الشخصيات فلا شغل لنا بها ، والله المسئول أن يبصرنا ذنوبنا ، ورحم الله من أهدى إلينا عيوبنا[4] » .

وكانت هذه المناقشة سبباً فى انقطاع ما بين الاثنين من وُدٍّ قديم موروث ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ٦٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٧١ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٧٣ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٧٦ .

ومات اليازجى سنة ١٣٢٤هـ — ١٩٠٦م ، وليس بينه وبين شكيب صلة ، ولكن شكيب رثاه بجيد الشعر ، ومنه قوله :

يا راحلاً شكَتِ الأقلامُ غربتَه ... وليس بعدك منها غير منكسرِ
نهجت فى بلغاء الأرض واردةً ... بالحق لولاك لم تُسفر ولم تَنِرِ
إليك حقك لا ظُلْم ولا سَرَفٌ ... لا ينكر الشمسَ إلا فاقدُ البصر
وإن يؤاخذك نقّادٌ يبادرة ... فليس يُرْجَم إلا مثمرُ الشجر
وقد يعاب الذى فى البدر من كَلَفٍ ... وليس يسلب معنى الحُسن فى القمر (١)

(١) ديوان الأمير ، ص ٦٠ . وكتاب شوقى ، ص ٧٧ .

المعاجم ليست كل شيء

سبق لشكيب كلمة لها قيمتها وخطرها، وهي التي يشير فيها إلى أن أكبر العبث في شأن اللغة العربية هو أن نظن أنها انتهت عند الذي طالعناه منها في كتب اللغة المعروفة لنا.

وهذا المعنى قد جلاه شكيب في أكثر من موضع، وحق له أن يفعل ذلك لأن الوهم قد سيطر على كثيرين فحسبوا أن الكلمة إذا لم تَرِد في أحد المعاجم فهي ليست بعربية، حتى ولو وُجدت في كلام عربي ابن عربي من سلالة أعراب أقحاح.

فنرى شكيب في وقت مبكر من عمره — سنة ١٨٩٩ م — يكتب في مجلة «المشرق» مقالا بعنوان «فوائد لغوية»(١)، وفيه يؤكد أن كتب اللغة ليست هي كل شيء في تعريفنا بمفردات اللغة، ويورد شكيب اعتراضَ بعض الناس عليه لاستعماله كلمة «النوادي» بدل الأندية، لأن النوادي لم تَرِدْ في المعاجم، وأجاب شكيب أولا بأن القياس هو «النوادي»، إذ يُجمع فاعل على فواعل لغير العاقل، ثم أجاب ثانياً بأن الكلمة وردت في مقدمة القاموس، وفي بيت جاهلي لمعاذ الخزاعي:

ولستُ بِرِعْديد إذا راعَ معضلٌ ... ولا في نوادي القوم بالضيق المسك

ويصحح شكيب استعمال كلمة «استأسر» بمعنى أسر، لأنها جاءت في حديث عبد الرحمن وصفوان نقلا عن المطرزي، وفي كلام ابن الأثير صاحب التاريخ وهو علم في اللغة.

ويصحح استعمال «احتمى» بمعنى طلب الحماية، وإن كان أصلها بمعنى امتنع عن الطعام حِمْيَةً، لأنها وردت في كلام فحول الكتاب والشعراء، واستعملها ابن الأثير، وابن هانىء الذي «كان يحمل من اللغة أمراً عظيما».

---

(١) مجلة المشرق، السنة الثانية، ص ١٠٦٥ — ١٠٦٧.

ويصحح استعمال كلمات أخرى لم ترد فى المعاجم ، ولكنها وردت فى كلام من يوثق بهم ، مثل كلمة « بارح » بمعنى برح ، والنوال بمعنى النَّيل ، وعدّو ألدّ .

ثم يختم قائلا : « تلك اعتراضات فيها وفى أجوبتها مجالٌ واسع للقول ، والعربية بحر لا ساحل له ، وقد أخطأ كلُّ مَنْ ظنَّ احتكارَ علمها ، أو التبحر فى فقهها ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

ويعود شكيب إلى هذا الموضوع مرة ثانية . فقد كتب الشيخ عبد القادر المغربى سنة ١٩٢٤م مقالا فى مجلة المجمع العلمى العربى عن الكلمات والتراكيب التى يمكن أخذها من كتاب « نشوار المحاضرة » للقاضى أبى عبد الله المحسن التنوخي المتوفى سنة ٣٨٤ هـ .

فعلق شكيب على هذا بمقال مؤيِّد سنة ١٩٢٥ جاء فيه :

« وطالما حدثتنى نفسى بمراجعة كتب الخراج وتاريخ الإدارة فى أيام العباسيين والدول التى بعدهم والتى فى عصرهم ، مثل الدولة الفاطمية بمصر والدولة الأموية بالأندلس ، والدول التى تداولت المغرب كالمرابطين والموحدين وبنى مرين والسعديين وبنى حفص فى تونس ، والدولة المصرية فى أيام المماليك ، ودول اليمن ، وغير ذلك ، واستقصاء جميع الألفاظ التى كانت تستعملها تلك الدول فى المواضيع الإدارية والمالية والحربية ، والاعتيام[1] منها لمثالها أو لما يقاربها من أوضاع العصر الحاضر ، تخلصاً من العُجْمة والركاكة ، فجاء صنيع الأستاذ المغربى فاتحةً لهذا العمل بما قطفه من (نشوار المحاضرة) .

وفى نيتى عندما تصل إلىَّ بعض كُتبى التى طلبتها من دار (الشويفات) إلى (مرْسين) لتشاطرنى هذه الغربة المتطاولة أن أنضد طاقةً ثانية من أزاهر تاريخ الوزراء للصابى الذى عهدتُ فيه كثيراً من هذه الأوضاع ، ومن رسائل أبى إسحاق

(١) الاعتيام : الأخذ . وفى القاموس : اعتام : أخذ .

الصابى الأول رئيس كتاب الديوان ببغداد ، فقد عثرت فيهما على ألفاظ هى الأصل لاصطلاحات تركية جارية اليوم ، أذكر منها قوله : (ساعده فى السفر إلى المكان الفلانى) مما جعله الأتراك تدريجاً بمعنى أذن فى مقام التعظيم ، إذ الإذن من الرئيس للمرءوس فى السفر يعدُّ مساعدة ، فانتهى الأمر بأن الأتراك صاروا يعبرون عن مجرد الإذن بالمساعدة كما هو معروف »[١] .

وعاد شكيب إلى هذا الموضوع مرة ثالثة ، فكتب فى أواخر ديسمبر سنة ١٩٢٨ م مقالا نشره فى مجلة المجمع بعنوان « مطالعات لغوية » ، ذكر فيه شواهدَ كثيرة على استعمال ألفاظ كثيرة ، وأخذ هذه الشواهد من كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد ، وشعر ابن هانىء الأندلسى ، ورحلة ابن جبير ، والأغانى لأبى الفرج الأصفهانى[٢] .

وعاد مرة رابعة فكتب مقالا عنوانه « آراء وأفكار — تاريخ بعض الألفاظ » ، وذكر فيه شواهدَ من رحلة ابن جبير ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ، ومقامات الهمذانى ، ويتيمة الدهر للثعالبى[٣] .

وعاد مرة خامسة فكتب سنة ١٩٣٠ م مقالا عنوانه : « ليس للغة قاموس يحيط بها » وقال فيه : « يظن بعض الناس أن كل كلمة لم ترد فى قاموس الفيروزابادى ، وفى صحاح الجوهرى ، وفى لسان العرب ، ليست من اللغة ، وأن استعمالها يكون خطأ . ويتهجمون على الكاتب الذى يكون قد استعملها بالتجهيل والتنديد .

ويتوسع بعضهم فى الأمور فيضيف إلى هذه المعاجم الثلاثة مخصَّصَ ابن سيده ، وأساس البلاغة ، والمصباح ، وتاج العروس ، فإذا كانت اللفظة لم ترد فى هذه المعاجم السبعة فهى عنده ليست من كلام العرب فى قليل ولا كثير .

---

(١) مجلة المجمع العلمى العربى ، المجلد ٥ — ص ٣٧ .
(٢) المرجع السابق ، مجلد ٩ ، ص ٥٠ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٧٨ .

وقد غلب هذا الوهم على أكثر الناس ، ونسوا أن مؤلفى هذه الكتب بشر مثلنا ، وأنه لا يمكن أن تكون تآليفهم أحاطت بكل شىء ، فلم تدع شاردةً ولا واردة ، وإنما نقل بعضُهم عن بعض ، وقلد الآخر الأول حتى فى الخطأ ، ونسوا أنه من المأثور أنه لا يحيط بلسان العرب إلا نبىّ » (١) .

ثم يحكم شكيب بعربية الكلمة إذا وردت فى كلام علىّ بن أبى طالب ، أو الجاحظ ، أو ابن المقفع ، أو كُتاب وشعراء متأخرين من الثِّقات الأثبات الذين ينزِّلون ما يقولون منزلةَ ما يروون (٢) .

ثم يورد شكيب مجموعة من الألفاظ التى لم ترد فى المعاجم ، ولكنها وردت فى كتب أخرى مثل (الدرة اليتيمة) لابن المقفع ، و(الطبقات) لابن سعد ، و(نوادر الحمقى والمغفلين) لابن الجوزى ، (وتاريخ الوزراء) للصابى ، ورسائل بديع الزمان الهمذانى ، وهذه هى المجموعة :

١ — وإن رأيت نفسك تصاغرت الدنيا (أى رأتها صغيرة) .

٢ — استركَبَ ، بمعنى طلب الركوب .

٣ — رَاكَمَ ، بمعنى ركم بعضه فوق بعض .

٤ — استشركَ ، بمعنى طلب الاشتراك .

٥ — عيالات ، جمع عيل .

٦ — عديد ، بمعنى كثير .

٧ — النوادى ، جمع النادى .

٨ — قوَّده ، بمعنى جعله قائداً .

٩ — التحصيل ، بمعنى الإدراك فى الأشخاص .

---

(١) المرجع السابق ، مجلد ١١ ، ص ٧١٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٧١٨ .

١٠ — استفقَهَ ، بمعنى استوعب أو استفهم .

١١ — المائق ، بمعنى الأحمق .

١٢ — خَطَبَهم ، بمعنى خَطَبَ فيهم خطبة .

١٣ — تقلَّق ، بمعنى تكلف القلق .

١٤ — إشهار ، بمعنى تنديد .

١٥ — التبخيل ، بمعنى الحمل على البخل .

١٦ — التركاض ، بمعنى قوة الركض .

١٧ — دَبَّرَه ، أى دبر أمورَه ، أو كان مستشاراً عنده (١)

* * *

ثم عاد مرة سادسة إلى الموضوع ، فكتب سنة ١٩٣١ م مقالا بعنوان : « الكلمات غير القاموسية » ، وخلاصته ما يلى :

١ — الكلمات التى وردت فى كلام فصحاء العرب ، ولم تدونها المعاجم ، مثل (تبدَّى) بمعنى ظهر ، تُقبل بشرط أن توثَّق من جهة الرواية ، ولا بأس من جعلها درجاتٍ من جهة الصحة والحسن والضعف .

٢ — الكلمات التى وردت فى كلام فصحاء الإسلاميين الذين يُحتج بأقوالهم ، مثل (أقصَّ) بمعنى قصَّ ، تدوَّن فى المعاجم ، مع الإشارة إلى أنها ليست جاهلية .

٣ — الكلمات التى اصطلح عليها أهل العلوم والصناعات ، ولا يعرفها أهلُ اللسان ، مثل : ميزانية ، وكمية ، وذاتية ، تدخل فى المعجم إذا لم يكن لها لفظ عربى قديم .

٤ — الكلمات التى ولَّدها العرب الإسلاميون من مادة عربية مثل « خابر »

(١) المرجع السابق .

و « تفرّج » و « احتار » نرد منها ما لا تدعو إليه ضرورة ، ونقبل منها ما نحتاج إليه ، مثل : تفرّج ، وتنزّه ، وتطوّر .

٥ — الكلمات المولَّدة بالتعريب ، مثل : فيلم ، وأتوموبيل ، مما لا نجد فى لغتنا ما يسد مسدَّه من لفظ قديم ، أو لفظ نشتقه ونصطلح عليه ، نقبله بلا مراء .

٦ — الأساليب والتراكيب ذوات المعانى الأعجمية ، مثل : ذرَّ فى عينه الرمادَ ، وساد الأمن فى البلاد ، وعاش ستة عشر ربيعاً ، لا نسد عليها البابَ وإن كانت غير مستحسنة ، ويشترط فى قبولها انطباقها على الذوق العربى ، وعدم مخالفتها للقواعد[1] .

ثم عاد مرة سابعة إلى الموضوع ، فكتب كلمة سنة ١٩٣٢ بعنوان « من العنت أن نرفض كل كلمة لم ينص عليها القاموس » ، وأكد فيها أن كلمات كثيرة جدا لم تذكرها المعاجم ، أو لم تذكرها أغلبُ المعاجم ، وأنه تتبع هذه الكلمات فقيَّد منها جملةً صالحة فى بعض كُنَّاشاته[2] ، ويقرر أنه « لا يجب أن نخطِّئ كلَّ لفظة لم ترد فى المعاجم المشهورة ، إذا كانت قد جاءت بصورة لا تحتمل التحريف ولا التصحيف فى كلام العرب الأولين أو المخضرمين[3] » .

* * *

لقد أوردتُ ذكر هذه المقالات مرتبةً حسب زمنها ، ومنها رأينا أن شكيب — منذ نهاية القرن التاسع عشر ، وقبيل أن يبدأ القرن العشرين — أخذ يتحدث عن الكلمات غير القاموسية ، ويدعو إلى تتبع هذه الكلمات فى مظانِّها من كتب

---

(١) المرجع السابق ، مجلد ١٢ ، صفحة ٢٦٦ .
(٢) الكناشات : الأصول التى تنشعب منها الفروع (القاموس) .
(٣) المرجع السابق ، مجلد ١٣ ، ص ٣٩١ .

السابقين للانتفاع بها . ولعله كان عجباً لبعض الناس أن يتجه شكيب هذا الاتجاه وهو ربيب عبد الله البستانى اللغوى المحقق المدقق ، وسعيد الشرتونى اللغوى المحقق المدقق ، وهو أليف (لسان العرب) وغيره من كتب اللغة منذ حداثة الصبا .

ولكن لاعجب ، فشكيب قد دخل مدرسة الحياة ، وعالج الكتابة فى شئون كثيرة ، وقرأ كتباً عربية جمة ، فيها مفردات كثيرة غير مقيدة فى كتب اللغة المعروفة ، وتعلم لغات أخرى طالع فيها كتباً كثيرة ، واتصل بالحياة المدنية بما فيها من مخترعات ومنشئات وأدوات ، واتصل بالحضارة الحديثة وما استتبعت من تعبيرات وأساليب ، ورأى أن لغته العربية العزيزة الغالية تتسع مسافة البعد بينها وبين الاستعمال الواسع النطاق فى مجالات التعليم والثقافة والمدنية والحضارة والتأليف .

فكان من لوازم غيرته عليها ، وشواهد حبه لها ، أن يدعو فى تكرار وإلحاح إلى تحصينها وتقويتها بهذه الكلمات غير القاموسية التى تعتبر بنات صلب للعربية .

ثم نشهد نزعة التطور والتجديد عند شكيب تتجلى حين يقترح ضم الكلمات المصطلح عليها عند أهل العلوم والصناعات إلى المعجم إذا لم يكن لها لفظ عربى قديم ، ويقترح قبول الكلمات المولدة التى نحتاج إليها ، ويقترح قبول الكلمات المعربة التى لا مقابل لها فى العربية ، ويوافق على أن نقبل من التراكيب الأعجمية ما لا يتأبى على الذوق العربى ، وما لا يخالف قواعد العربية .

إن هذه المقالات التى بكّر بها شكيب منذ حين طويل مع قلة من أقرانه كانت البواكير الطيبة التى تفتحت فيما بعد عن الجهود الطيبة التى بذلها أعضاء المجامع اللغوية فى تطعيم اللغة بالكلمات غير القاموسية ، والكلمات المولدة الصالحة ، والكلمات المعربة التى نحتاج إليها .

ومن الإنصاف ألا نستخف بالخطوات الأولى التى عبّدت الطريق لمن ساروا عليها خفافاً بعد تعبيدها وتيسير الخطوات عليها .

بين شكيب ورشيد

كانت بين شكيب ورشيد رضا مراسلات دامت سنوات عدة ، وقد سجل شكيب أكثر رسائل رشيد فى كتابه « السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة » ، كما طالعتُ أكثر الرسائل المخطوطة التى بعث بها شكيب إلى رشيد ، وفى هذه المراسلات مناقشات لغوية كثيرة . وقد بدأت هذه المناقشات فى سنة ١٩٢٣ [١] واستمرت إلى سنة ١٩٣٥ حيث تُوفى رشيد فى هذا العام . وقد سبق أن عرضنا نص رسالة من رسائل شكيب إلى رشيد فيها مناقشة لغوية .

ويضيق المجال عن التعرض لكل مسألة لغوية تناقش فيها شكيب ورشيد ، وحسبنا أن نكوِّن فكرةً عامة عن هذه المناقشات .

بدأت المناقشة بأن سأل شكيب أخاه رشيد عن استعماله كلمات « الدعاية » ، و « القداسة » و « الإعدام » ، فرد عليه بأن كلمة « الدعاية » وردت فى كتاب النبى لهرقل : « أدعوك بدعاية الإسلام » وأن كلمة « القداسة » سرت إليه من استعمال المعاصرين ، وأن كلمة « الإعدام » بمعنى القتل لا الإفناء ، ومعناها فى أصل اللغة إفقاد الشىء ، وقد ورد : لا أعدمنى الله فضله .

وعلق شكيب على الإجابة بأن كلمة « دعاية » تستعمل فى مقابلة « بروباغندا » الإفرنجية ، وذكر قول من قال إن كلمة « دعاية » فى كتاب النبى حدث فيها خطأ نسخ ، وأصلها « دعاوة » لا يجوز غير ذلك ، لأن الفعل واوى ، ولكن شكيب يقرر أنه لو كان هناك خطأ فى النسخ لأصلحه العلماء ، ويذكر طائفةً من الألفاظ المماثلة لدعاية تأتى بالياء والواو ، مثل : سناية وسناوة ، ونقاية ونقاوة ، ونفاية ونفاوة ، وجباية وجباوة . . إلخ [٢] .

---

(١) كتاب السيد رشيد ، ص ٣٤٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٤٥ و ٣٤٦ .

وفى رسالة لرشيد بتاريخ ١٨ صفر ١٣٤٢ هـ — ١٩٢٣ م يأخذ على شكيب طائفةً من المآخذ اللغوية فى كتابه « رواية آخر بنى سراج » منها أنه يصف الله تعالى بصفة « الزعيم » ، مع أن هذه الصفة لم ترد فى القرآن الكريم ولا فى السُّنة النبوية ، ومنها أنه استعمل « الصلاة » بمعنى الدعاء لرجاء المسلمين رجوعَ غرناطة إليهم ، مع أن لها معنى شرعياً غلب عليها ، وهو العبادة المعروفة ، ويرجح رشيد أن شكيب ترجمها حرفياً عن تعبير إفرنجى[1] .

ورد شكيب على هذه الملاحظات فى رسالة خطية بين يدىَّ بتاريخ ٢٨ أيلول سنة ١٩٢٨ فيقول عن كلمة الزعيم : « ليس كل ما يُسند إلى الله تعالى يجب أن يكون من جملة الأسماء الحسنى ، فقد تكون صفات مختلفة فى اللفظ ، متفقة فى المعنى » .

ويقول عن كلمة الصلاة : « هى ترجمة حرفية بلا نزاع ، ولكنى لا أجد فيها خطأً ، لأن الصلاة هى أيضاً بمعنى الدعاء ، وأصلها الحرارة فى الدعاء ، وتؤول بأنها الصلاة التى يدعى فيها برجوع غرناطة إلى الإسلام » .

وتمضى المساجلات اللغوية بين شكيب ورشيد تعمر بها رسائلهما ، ويلفت نظرنا أن نجد شكيب يقول لصاحبه فى رسالة بتاريخ ٢ ذى الحجة ١٣٤٣ هـ — ١٩٢٤ م : « ليس بشرط أن لا نستعمل لفظة عربية إلا كما استعملوها قبل الإسلام ، فقد أوجد الإسلام ألفاظاً فقهية ، وأوجدت الحكمةُ ألفاظاً فلسفية ، وأوجدت الكيمياء ألفاظاً صناعية » .

وفى الرسالة نفسها يقول : « أما (فضلا عن كذا) فعلى فرض أنها لم ترد فى كتب المتقدمين فلا أجد منها مانعاً ، لأن المولدين أحدثوا اصطلاحات كثيرة

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٤٧ .

لم تكن عند الجاهلية ولا فى صدر الإسلام ، ولا بأس بها ، بل لا غنى عنها ، وما دامت لا تخالف قواعدَ اللغة والنحو ، فما المانع » ؟ .

ويستشهد شكيب فى الرسالة ذاتها على صحة كلمة « مهول » بقول بديع الزمان الهمذانى : « أراكَ على شفا خطر مهول ، بما أودعت لفظك من فُضُول » ويقول : « إن بديع الزمان ينزَّل ما يقوله بمنزلة ما يرويه ، ولا حاجة بى إلى شاهد آخر » .

ويحسن أن نلاحظ هنا ميلَ شكيب إلى التوسع فى اللغة ، وإلى الاستشهاد بكلام المولدين ، وإلى مخالفة الاقتصار على كتب اللغة فى تسويغ الاستعمال للكلمة ، وهذا يتفق مع كتاباته فى مجلة المجمع العلمى العربى وغيرها ، مما يدل على أن الفكرة كانت واضحة فى ذهن شكيب ، ولم تكن خطرةً عابرة أو لفتة سريعة ، فهو يُبدِىء فيها ويعيد ، ويلح فى الدعوة إليها إلحاحاً ظاهراً ، ولا شك أنها فكرة تزيد فى ثروة اللغة ، وتمكنها من أداء وظيفتها فى مناحى الحياة .

وفى رسالة من شكيب إلى رشيد تاريخها ١٣ ربيع الثانى ١٣٥٠ — ١٩٣١ م نراه يشكر لرشيد أنه نبهه إلى أغلاطه وموضع الانتقاد فى كلامه ، ثم يقول : « أنا كنت ولا أزال من المشددين فى اللغة ، المانعين التوسع فى الاستعمالات المخالفة لأصول اللغة ولكلام الجاهلية ، فإن إطلاق العنان يوصلنا إلى حل القواعد والأوضاع ، فتذهب اللغة ، ولا يفهم الآخر الأول » .

وقد يشمّ شامٌّ من هذا الكلام رائحةَ العدول عن فكرة التوسع فى اللغة التى أطال عنها شكيب الحديث ، ولكنه يعود فيستدرك ويقول : « إن لكل شىء حداً ، فإذا أردنا أن نجارى بعضَ المتحذلقين فى تشديداتهم ، ولم نجوِّز إلا كلام البادية قبل الإسلام ، ضاق نطاقُ اللغة إلى حد أنها عادت لا تفى إلا بحاجات بعض قبائل رُحَّل » .

ويرى شكيب أن النطق بالشاذ أو اللغة الضعيفة ليس غلطاً ، بل يقال

إن الأكثرين نطقوا بغير ذلك . ويقول إن اللغة فيها « رُخَص يجب أن تؤتى ولا يكون مخطئاً من أتاها » ، وإن اللغة بعد الإسلام اتسعت كثيراً ، والكُتّاب والخطباء كتبوا أو تلفظوا بأشياء ليست فى متون اللغة ، فإما « أن يكون فات أئمة اللغة ضبطها وتقييدها ، وهذا ممكن لأنهم ليسوا بمعصومين ، وإما أن يكون أولئك الفصحاء أخذوها بالقياس على غيرها ، فإن قولنا إن اللغة لا يصح فيها القياس ليس عاما » .

ويرى أن اللغة فيها باب التأويل والتضمين وهو يجيز التوسع ، والتوسع موجود من أول الزمان ، ويشير إلى تنطع المتنطعين فى تحجير الواسع ، ويورد أمثلة على ذلك .

* * *

إن شكيب يتحدث عن اللغة حديث المجدد الواعى البصير بمطالب الحياة وحاجات العصر ، وإذا كان قد تشدد وهو يناقش خليل سكاكينى فى قضية القديم والجديد مما يتعلق بضوابط اللغة وقواعدها ، فإنه هنا يتوسع ويُعتبر فى طليعة المجددين .

ويقول شكيب فى كتابه عن رشيد وهو بمعرض المناقشة بينهما فى المسائل اللغوية : « لو نقضنا كلامَ المؤلفين من بعد الإسلام[1] إلى اليوم لوجدنا فيه مالا يُحصى من الاستعمالات التى لم يكن يعرفها العرب ، ليس فى الأمور العلمية والفنية والمواضيع الفلسفية فحسب ، بل فى الأمور المعتادة الاجتماعية أيضاً ، فقد استعمل العرب بعد الإسلام جُمَلا وألفاظاً لا يأخذها الإحصاء ، لو نُشر عرب الجاهلية اليوم وأُلقيت على أسماعهم لم يفهموها ولا عرفوا المراد منها .

حتى إنهم قالوا إن بدوياً سئل عن القلم فلم يفهم معناه ، فقيل له : ماذا تصور

---

(١) يقصد : منذ ظهور الإسلام وبدئه .

من كلمة القلم ؟ . فقال : أتصور أنه شيء يقطع أو يقلم ، ولا أقدر أن أفهم شيئاً وراء ذلك .

وبقى العرب بعد الإسلام بكثير يتحامَون كثيراً من الاصطلاحات . قال سيبويه فى باب الجموع : اعلم أنه ليس كل مصدر يجمع كالأشغال والعقول والحلوم والألباب . ألا ترى أنك لا تجمع الفكر والعلم والنظر اهـ .

فتأمل الآن لغة عربية لا يجوز فيها جمعُ العلم والفكر والنظر ، والحال أنه لا يكاد الكاتب يمشى بضعة أسطار حتى يضطر إلى ذكر العلوم والأفكار والأنظار ، وهى مستفيضة فى النظم والنثر »[١] .

ويبدو لنا شكيب فى المناقشات اللغوية بينه وبين رشيد حريصاً على إجازة تعبيرات يقع فيها الخلاف أو يمنعها كثيرون ، فهو يجيز قوله : « وما هو ذلك القصر » ورشيد يمنع ، ويوجب قوله : « ما ذلك القصر » .

وشكيب يقول : « ولذلك فإن بقاء آبائه » ورشيد يوجب أن تحذف الفاء ، وشكيب يجيز قوله : « فضلا عن كذا » فى حالتى الإثبات والنفى ، ورشيد يمنع ذلك فى مقام الإثبات[٢] . وشكيب يبيح استعمال (جاوب) بمعنى أجاب ، ورشيد يمنع ؛ وشكيب يستعمل كلمة (الفيلق) مذكرة لشيوع تذكيرها ، ورشيد يقول إن الوارد فيها هو التأنيث ، لأنها فى الأصل بمعنى الداهية ، ثم أطلقت على كتيبة الجيش[٣] .

ولذلك يبدو رشيد فى المناقشات أكثرَ تحفظاً من شكيب ، مع أن شكيب مشهورٌ منذ حداثة سنه بالغيرة على اللغة والدفاع عنها كما رأينا ، وقد يتطرق إلى

---

(١) كتاب السيد رشيد ، هامش ص ٣٩٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٨٨ و ٣٩٣ .

(١) كتاب السيد رشيد ، ص ٦٠٤ و ٦١٣ .

نفس بعض الناس الظن بأن قلم شكيب يسبق إلى مالا يرتضيه أو يشتهيه ، فإذا عارضه أحد حاول التسويغ والتصحيح ، بالتنقيب عن الآراء المجيزة ، أو اللجوء إلى التأويل ببراعة[1] ، وقد يكون فى ذلك فوائد ، ولكن له — من جهة أخرى — قيمته فى تصور العوامل النفسية التى تدفع بشكيب إلى المناقشة .

ولعل هذا يلقى ضوءاً على السر فى قول شكيب وهو يناقش رشيد : « ولا مراء فى أن المولدين ليسوا بحجة فى اللغة ، ولكن الاستظهار بكلامهم ممكن فيما يقع فيه الخلاف »[2] .

بل إن السيد رشيد يفصح أكثر من ذلك عن هذه الناحية حين يقول لشكيب فى رسالة تاريخها ٢٤ يوليه ١٩٣١ :

« إننى أجد فى كلامك كثيراً من هذه الألفاظ المخالفة فى اعتقادى للصحيح ، أو للفصيح ، فلا أغيرها ولا أذكرها لك . لأننى أعلم أن ذكرها يفتح باباً للمناقشة لا أجد له فراغاً من وقتى ، وإن كان لا يخلو من فائدة .

ومنه ما أغيره فتقرأ أنت التغيير ولا تشعر به ، لأن ما أغيره به لا تشك فى صحته وفى كونه مما تستعمله ، وأن الذى غيرته — أى تركته — لم يجر به قلمك إلا بتأثير قراءتك له فى الصحف أو فى كتب المتأخرين »[3] .

وأرى أن من واجب المشتغلين بالبحوث اللغوية أن يستوعبوا مراجعة هذه المناقشات ، ففيها فوائد كثيرة ، وفيها مواطن تثير الفكر وتدعو إلى التدبر ، ولعلى أستطيع فى فرصة أخرى تقديم كل الرسائل التى بعث بها شكيب إلى رشيد ، والتى تفوز فيها اللغة بنصيب كبير .

---

(١) انظر مثلا المرجع السابق ، ص ٣٨٣ و ٤٠٦ ، وجريدة الشورى ، عددى ١٣ و ٢٠ أكتوبر ١٩٢٧ م

(٢) كتاب السيد رشيد هامش ص ٦١٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٦١٤ .

شكيب وشوقى

والعجيب أننا نرى شكيب الذى صاح فينا صيحاته المتكررة من أجل التوسع فى اللغة ، والأخذ بأقوال الإسلاميين والمولَّدين ، واصطلاحات أهل العلوم والصناعات ، وتطعيم كتب اللغة بالمفردات والتراكيب الواردة فى كتب الأدب والتاريخ والرحلات والخراج وغيره ، نراه كالمناقض لنفسه ، وكالخارج على فكرته ورأيه ، حين يتناول شوقى بالتخطئة فى الكتاب الذى وضعه بوحى وفاته للشاعر الكبير .

فشكيب فى هذا الكتاب يخطِّىء شوقى لأنه استعمل كلمة (الفخيم) ، ويقول إن الموجود هو (الفخم) ، وإن (الفخيم) لغة دواوين . ويخطئه فى استعماله كلمة (المحتار) لأنه لا يوجد فعل مطاوعة من (حَارَ) ، وإن استعمل ذلك بعض الأعلام كعبد الغنى النابلسى وابن عابدين . ويخطئه فى استعماله (أطَّار) ، اسماً بمعنى (طار) إذ لم يرد . ويخطئه فى استعمال (الأميال) جمعاً لمَيْل بفتح الميم ، لأنها جمع لمِيل بكسر الميم . ويخطئه فى استعمال (القنبلة) بمعنى القذيفة المعروفة ، ويقول إن الصواب هو (قنبرة) . ويخطئه فى استعمال (الزهور) جمعاً لزهر ، والصواب الأزهار ، ويخطئه فى قوله (تثب الحزون) لأن وثب لا يتعدى إلا بحرف . . [1] إلخ .

والأعجب من هذا أن شكيب يعلق على قول شوقى :

صُوَرٌ لم تكن حقاً ، وحلم فُجِعَ الصبحُ فيه لما تبدَّى

بقوله : « يظهر أن شوقى هو ممن يجيز استعمال (تبدَّى) بمعنى بدا ، أى ظهر ،

---

(١) كتاب « شوقى » ص ١٠٩ و ١١٥ و ١١٧ و ٢٣٠ و ٢٢٦ و ٢٨٤ و ٢٣٢ على التوالى .

إذ لا يخفى وقوع الاختلاف فيه ، ومن الناس من يذهب إلى أن تبدّى لا تفيد إلا معنى الدخول فى البداوة » [١] .

ومعنى هذا أن شكيب يعتبر هذا الاستعمالَ مأخذاً لغوياً يؤاخذ عليه شوقى ، مع أن شكيب نفسه قد نادى بقبول هذه الكلمة [٢] ، كما رأينا من قبل ، فكيف يتفق هذا مع ذاك ؟ .

إن شكيب نفسه قد أجاز استعمال الضعيف فى اللغة إذ قال : « أنا على مذهب أن اللغات المرجوحة لا يجوز هجرها ، وأنها تُؤتى التعبيرَ سعةً هى عين الصلاحة لها ، وكما أنه فى الشرع (يحب الله أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه) كذلك فى اللغة يحسن أن نأتى باللغات الضعيفة فى بعض الأحايين لنثبت أنها موجودة ، وإن كان المشهور خلافها » [٣] .

من حقنا أن نتساءل هنا : أين التوسع ، والتأويل ، والتضمين ، وقبول كلام المولدين وغيرهم ؟ . أنسيَ شكيب خطته ، أم تنكر لرأيه ، أم عدل عنه ، أم أراد أن يظهر بمظهر الناقد لأمير الشعراء ، وكفى ؟ .

مهما يكن السبب فإن الذى لا شكَّ فيه أن نقده لشوقى لا يتلاقى مع رأيه فى التوسع اللغوى الذى أسهب فى شرحه وأفاض .

---

(١) كتاب « شوقى » ص ١٥٨ .
(٢) مجلة المجمع العلمى العربى ، المجلد ١٢ صفحة ٢٦٦ .
(٣) كتاب السيد رشيد رضا ، هامش ص ٦٢٠ و ٦٢١ .

شكيب « ومَى »

كذلك نقد شكيب الكاتبةَ «مى زيادة» فى كتابها « المساواة » ، إذ كتب عن ذلك مقالاً نشره فى مجلة المجمع العلمى العربى ، وعلى الرغم من أنه وصف « مى » فى هذا المقال بأنها « سيدة المنشئات » أخذ عليها ما عدَّه أخطاء لغوية وقعت فيها .

استعملت « مى » كلمة (الثورروية) ، والصواب ـ كما يذكر شكيب ـ هو الثورية أو الثورانية . واستعملت كلمة (أرعبت) والصواب (رعبت) . واستعملت (أخطر) بمعنى أنذر ، وإنما معناها : أذكر بالبال ، وبمعانٍ أخرى من الخطر أى القَدْر . واستعملت (رَضَخَ) بمعنى خضع ، والصواب أنها بمعنى أعطى أو كسر النوى ، وقالت : « وتظاهروا بحيازها » والصواب بحيازتها ، وقالت (أغاظَ) والصواب غاظ ، وقالت (إناطة) والصواب نوط . . . إلخ[1] .

° ° °

على أنه يعجبنى قول شكيب : « وللكلمات والألفاظ أحياناً أعمار كالآراء والأفكار »[2] . وقوله : « الألفاظ والكلمات كالنبات ، منه شىء ينبت فى وقت من الأوقات ، ثم ينمو ، ثم يزهو ، ثم يدخل فى طور الكمال ، ثم يعسو [ييبس] ، ثم يصوِّح ، ثم يذهب هشيماً تذروه الرياح »[3] . وقوله : «وهكذا الألفاظ مثل سائر الأشياء ، تحيا وتموت بآجال مقدرة »[4] .

إن شكيب بهذه الكلمات يصور ظاهرةً لغوية لها قيمتها .

° ° °

---

(١) مجلة المجمع العلمى العربى ، المجلد ٤ ص ٥٣٨ .
(٢) أناتول فرانس فى مباذله ، هامش ص ٧٧ .
(٣) جريدة الشورى ، عدد ١٢ نوفمبر ١٩٣٠ .
(٤) الارتسامات اللطاف ، ص ٣١ .

ملاحظات لغوية

أورد فيما يلى بعض ملاحظاتى اللغوية على تعبير شكيب ، وإنما أوردها لأنه لغوى مدقق أولا ، ولأنه نقد غيره فى مثلها ثانيا :

١ — يقول شكيب : « كدت معه أرد الكتاب معتذراً عن إجابة الطلب الذى طلبه مترجم الكتاب »[1] . والصواب أن يقول : « عن عدم إجابة الطلب » لأن الاعتذار ليس عن الإجابة ، بل عن عدمها .

٢ — ويقول : « وليست السيادة قاصرة على آل البيت »[2] ويقول : « ولعل زحفة موسى عليها كانت قاصرة على غارات سريعة »[3] . ويقول : «ولم نجعله قاصراً على سورية والعراق »[4] . ويقول : « وكانت الثورة الأرناؤوطية فى بداية الأمر قاصرة على الأرناؤوط المسلمين »[5] . ويقول : «وليست زيارة الأمير فيصل السعود لأوربا بقاصرة فى حسن التأثير على الأوربيين »[6] .

والصواب أن يقول : مقصورة ، ومقصور ، لأنه اسم مفعول من قصره على كذا ، بمعنى حبسه عليه لا يتعداه ، وأما القاصر — كما فى القاموس — فهو صفة للماء البعيد عن الكلأ ، وامرأة قاصرة الطرف : لا تمد عينها إلى غير بعلها .

والعجيب أن شكيب حينما أراد تسويغ هذا الاستعمال قال : « وأكثر

---

(١) كتاب السيد رشيد ، هامش ص ٣٣٧

(٢) مجلة الفتح ، عدد ٢ المحرم ١٣٥٢ هـ — ١٩٣٣ م .

(٣) تاريخ غزوات العرب ، ص ٣٦ .

(٤) كتاب السيد رشيد رضا ، هامش ص ٦٣٦ .

(٥) تاريخ ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول ، ص ٣٥١ .

(٦) مجلة الفتح ، عدد ٢٧ المحرم ١٣٥١ — ١٩٣٢ م .

ما تستعمله الجرائد المصرية ، فتراها تكتب مثلاً : كانت الحفلة قاصرة على الأهل والأصحاب »[١] .

فهل تُعتبر الجرائد مرجعاً فى الاستعمال اللغوى أيضاً ؟ .

والعجيب أن شكيب قد استعمل كلمة (مقصورة) بدل (قاصرة) فى قوله : « ولنحذر أن نظن براعته مقصورة على تنسيق الألفاظ »[٢] .

٣ — يقول شكيب : « ولما بنى السلطان أورخان مدرسته فى بلدة أزنيق انتدبه — يعنى المولى داود القيصرى — للتدريس بها »[٣] . والصواب أن يقول: ندب ، بمعنى دعا ، لأن انتدب معناها استجاب ، ففى الأساس : « وندب لكذا وإلى كذا فانتدب له » . وفيه : « وتكلم فانتدب له فلان أى عارضه »[٤] ، وفى القاموس : « ندبه إلى الأمر كنصره دعاه وحثه ووجهه » . وفى الحديث : « انتدب الله لمن يخرج فى سبيله » أى أجابه إلى غفرانه ، ويقال : ندبته فانتدب ، أى بعثته ودعوته فأجاب[٥] .

٤ — يقول شكيب فى كتاب أناتول فرانس: « إن هذا الهازل العظيم كلما توغل فى حب الطبيعة وعشق الإنسانية تقرب إلى المسائل الاجتماعية . أنجبه الشعب فأراد أن يبقى من الشعب »[٦] . ويقول : « فهو عندى أعظم عبقرى أنجبته فرنسة »[٧] . ويقول : « أنجبت أفريقية الإسلامية اجتماعياً من الطبقة الأولى فى شخص

---

(١) مجلة المجمع العلمى العربى ، المجلد ٩ ص ٧٥ .

(٢) أناتول فرانس فى مباذله ، ص ٤٠ .

(٣) تاريخ ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول ، ص ١١٥ .

(٤) أساس البلاغة ، ج ٢ ص ٤٣١ .

(٥) النهاية لابن الأثير ، ج ٢ ص ١٣٤ .

(٦) أناتول فرانس ، ص ٣٨ .

(٧) المرجع السابق ، ص ١٥٨ .

ابن خلدون »[1] . ويقول عن شوقي : « وجدير بالشاعر الذي أنجبه هذا الوادي أن يكون له منه خطاب شهير »[2] .

فاستعمل شكيب فى هذه العبارات كلمة (أنجب) متعدية بنفسها ، وهذا لم يرد فى كتب اللغة ، فإذا راجعنا اللسان ، والقاموس ، والنهاية ، فى مادة (نجب) لانجد هذه التعدية ، والذى نجده : أنجب الرجل ، أو أنجبت المرأة ، إذا ولدَا ولداً نجيباً ، أو ضد ذلك ، وفى الأساس : « وأنجب به والده ، فعدّاه بالباء » ، واستشهد له بقول الأعشى :

أنجب أيامَ والداه به إذ نجلاه فنعم ما نجلا[3]

٥ — يقول شكيب فى كتاب تاريخ غزوات العرب : « هل هم الذين أشار إليهم صاحب نفح الطيب فى أوائل الجزء الأول عند ذكر الأمم التى عمرت الأندلس وسماهم البشتولقات أم لا » . ويقول أيضا : « هل فرنسة وسائر ممالك أوربة التى لمَّا تخضع لهذا الشعب الجديد تقدر أن تحتفظ بأعز ما يحتفظ به الإنسان من دين ووطن وأوضاع أم لا » . ويقول : « وهل كان المغيرون كلهم من العرب أم كانوا من أمم شتى » . ويقول : « وهل بقى فى البلاد منها آثار أم لا » . ويقول : « ولا أعلم هل معتقد ذلك فعلا أم يحاول إنكار وجود آثار للعرب[4] » .

وأكثر علماء النحو على أن (هل) لا يؤتى معها بمعادل ، فلا يقال مثل ما قاله شكيب من عبارات ، وفى كتاب شرح السعد فى البلاغة ، جاء هذا النص : « هل يتنبه أم لا : أم هذه منقطعة على ما مرّ تحقيقه . فما قيل : الصواب أيتنبه أم لا ،

---

(١) تاريخ ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول ، ص (ج)
(٢) كتاب « شوقى » ، ص ٣٣٤ .
(٣) أساس البلاغة ، ج ٢ ص ٤٢١ .
(٤) كتاب تاريخ غزوات العرب ، ص ١٣٥ و ١٧٥ و ٢٧٨ على التوالى .

ليس بصواب ، على أن أم المتصلة تجيء مع هل على قلة كما فى الرضى[(١)] » .

وفى الكتاب أيضاً عند الكلام على (أم) :

« تقرر فى كتب النحو أن (هل) لا يؤتى لها بمعادل ، على أن ابن مالك جوّز وقوعَها موقعَ الهمزة ، فيؤتى لها بمعادل[(٢)] » .

وكان الأجدر بشكيب أن يتبع الأصل ، وأن يتابع جمهرةَ النحاة ! .

٦ — يقول شكيب عن مدينة طلوزة : « ودخلت فيها النصرانية بواسطة القديس سيرنيه[(٣)] » . ويقول : « حتى إذا ما تمكن هؤلاء بواسطتهم من سرادهم قبوا لهم ظهر المجن[(٤)] » . ويقول عن الخديوى : « تعرض لى إذ أنا بجنيف بواسطة بعض الأصحاب »[(٥)] .

والصواب أن يقول « الوساطة » مكان « الواسطة » ، لأن الواسطة — كما يقول القاموس — هى مقدَّم الكُور ، وجاء أيضا فى القاموس : « توسط بينهم : عمل الوساطة ، وأخذ الوسط بين الجيد والردىء » .

والعجيب هنا أن شكيب قد عاب على السيد رشيد استعماله كلمة « الواسطة » ، وردّ عليه رشيد معتذرا بأنه جارى فى استعمالها العلماء ، ثم يذكّر شكيب بأنه رآها فى كلامه أيضا ، فكيف يعيب شكيب ما يفعله[(٦)] ؟

---

(١) شرح السعد ، ج ١ ص ٢٠٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٩ .

(٣) تاريخ غزوات العرب ، ص ١٣ .

(٤) جريدة الشورى ، عدد ١٣ أغسطس ١٩٣٠ .

(٥) كتاب السيد رشيد رضا ، هامش ص ٦٥٧ . وكررها فى هوامش ص ٩٥٩ و ٦٦٠ و ٦٦٢

(٦) المرجع السابق ، ص ٤٠٣ و ٤٠٤ .

٧ — ويقول شكيب : « فأنا أقول إن الوجوه الثلاثة متوفرة[١] » : ويقول : « حتى يتوفر لكل معنى نديدهُ من اللفظ[٢] » .

والصواب أن يقول : « متوافرة » و « يتوافر » ، وذلك لأن معنى « توفر على فلان » هو رعى حرماته ، وتوفر على كذا إذا كان مصروفَ الهمة إليه[٣] وأما التوافر ففيه معنى الوجود والكثرة ، وفى الأساس : « وكان ذلك وأصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم متوافرون[٤] » .

٨ — يقول شكيب : « فمع الأسف نقول : إن المسألة ليست بسيطة ، وإنها إلى حد هذه الساعة لا تزال فى دور الخطورة القصوى[٥] » . ويقول : « لكنى لم أجد ضروريا مخاطبة رئيس حكومة إيطالية فى قضية بسيطة كهذه[٦] » . ويقول : « ليس بحادث بسيط لا يستوجب الاعتناء[٧] » .

فهو يستعمل كلمة « بسيطة » بمعنى قليلة و « بسيط » بمعنى قليل ، وهذا خطأ ، لأن البسيطة كلمة فيها معنى الاتساع والعظم والانتشار ، وفى القاموس أن البسيط والبسيطة الأرض الواسعة ، والقِدر العظيمة ، والبسيط المنبسط بلسانه ، والبسيط الوجه المتهلل ، والبسيط اليدين المسماح ، والبسطة فى العلم التوسع فيه ، وفى الجسم الطول والكمال .

---

(١) تحت راية القرآن ، ص ٣٤ .
(٢) الدرة اليتيمة ، ص ٣ .
(٣) أساس البلاغة ، ج ٢ ص ٥١٩ .
(٤) المرجع السابق .
(٥) مجلة الفتح ، السنة الخامسة — العدد ٢٢٠
(٦) المرجع السابق ، السنة السادسة ، العدد ٢٩٦ .
(٧) الارتسامات اللطاف ، ص ٨٣ .

تعريب الأعلام

كتب شكيب سنة ١٨٩٨ مقالا فى مجلة (المشرق) تحدث فيه عن الاضطراب فى تعريب الأعلام العربية المكتوبة بحروف أجنبية ، ثم قال :

« وقد كنتُ فى أول عهد المعاناة عرَّبت تاريخاً لبلاد الجزائر وأخبار المرحوم عبد القادر ، فوجدت فيه كثيراً من الأعلام . من أسماء قبائل وأماكن لم أدر تماماً ما حقيقة أصلها ، فقيدتها كلَّها فى فهرس معى ، وعرضته على حضرة العلامة الشريف السيد محمد مرتضى الحسنى الجزائرى ابن أخى المرحوم الأمير عبد القادر ، وأحد علماء المغرب فى المشرق ، لحقق فى ألفاظها ، وهكذا أمكننى ردُّها إلى أصلها ، لأنه إن أمكنت معرفة الأعلام المشهورة مثل (أوران) بأنها (وهران) ، فكيف تمكن — بدون موقِّف — معرفةُ (أين مدهى) بأنها (عين ماضى) وهلم جرا»(١) .

فلنلاحظ هنا أن شكيب قد كتب هذا المقال سنة ١٨٩٨ ، وأنه بدأ الترجمة — كما أشار — فى أول عهد المعاناة ، أى قبل كتابة المقال بسنوات ، وهذا يدل على تبكير شكيب إلى العناية باللغة وما يتصل بها من ترجمة أعلام وتحقيق .

وبعد أن يتحدث شكيب فى المقال المذكور عن خطأ الذين يعرِّبون الأعلامَ المكتوبة بحروف لاتينية ، ويضرب على ذلك أمثلة ، يقترح وضعَ معجم لهذه الأعلام فيقول :

« وأنجع علاج لهذا الداء تأليفُ معجم للأعلام ، يجمع أكثر ما يمكن جمعه من اسم رجل ومدينة وجبل ونهر وغير ذلك مشاراً إلى كلٍّ بعلامته فى محله ، لئلا يقع الوهم فيه والخلط بينه وبين غيره .

---

(١) مجلة المشرق ، المجلد الأول ، ص ٨٧٣ .

ولا يستغنى مع ذلك الكاتب أو المترجم عن علم العربية ومعرفة التاريخ فقد يخلط في ضعفه بين العَلَم والصفة، كما رأيته في أحد التواريخ الحديثة". ثم يقول: " تمس الحاجة إذن إلى معجم تلك صفته، ضناً بشأن العلم والعلماء ووفاء مع الكتابة والكتّاب، وتخلصا من أخذ أسمائنا عن لسان الإفرنجي الذي انتفى منه الحاء والخاء والقاف والعين، وتمكنت العداوة بينه وبين كثير من الحروف "(١)، وقد كان من وراء هذه العدواة أن اشتد تحريف الإفرنج لهذه الأعلام تحريفا فظيعا، حتى يقول شكيب:" وتحريف الإفرنج أسماءالعرب بحر لا يلجج فيه (٢)".

ويظهر أن معاناة شكيب منذ صغره ترجمةَ هذه الأعلام مع النظر فيها قد أكسبته خبرة واسعة بالأماكن والمواقع والأسماء والأشخاص والبلدان والقرى، ولذلك كان الكتّاب والمؤلفون وأصحاب المجلات يستفتونه في ذلك، ويتخذوه حجة، وهذا هو الأب لويس شيخو اليسوعي ينشر سنة ١٩٢٧ كتاب " تاريخ بيروت لصالح بن يحيى، فيستنجد فيه بخبرة شكيب في هذه الناحية، ويستجيب شكيب فيفيدنا الكثير (٣).

وشكيب يطلعنا في كتاباته على شواهد لبراعته في رد الأسماء العربية التي حرَّفها الإفرنج إلى أصلها العربي، ففي سنة ١٩٢٧ دُعي لمشاهدة الحفلات التي أقيمت في روسية لمناسبة مرور عشر سنوات على قيام جمهورية السوفيت، وهناك اجتمعت بالمسيو سادول الشيوعي الفرنسي، ودار بينهما حديث، فقال له شكيب: إن اسمك يا أخي لا يظهر لي أنه فرنسي، فهل تدري ما أصله ؟. قال سادول: قيل لي في أنقرة إنه اسم تركي.

---

(١) المرجع السابق.

(٢) تاريخ غزوات العرب، ص ٦٧.

(٣) انظر مثلا، ص ٤٧و ٥٢، ٥٦، ١٠٠، ١١٠، من الكتاب المذكور.

قال شكيب : هو فى الحقيقة اسم عربى أصله « سعد الله » ، والأتراك يلفظون هذا المركَّب بحال الرفع ، أى هكذا (سعدو الله) ، ثم يحذفون نصفَ الاسم للتخفيف ، فيصير (سعدول) ، وعندهم من هذا القبيل أسماء أخرى يختصرونها ، مثال ذلك (ويسل) منحوتة من (أويس القرنى) ، و (زنيل) منحوتة من (زين العابدين) ، فأنت اسمك منحوت بدون شك من (سعد الله) .

فقال سادول : ولعل اسمى عربى من أجل أنى من بلاد كانت عربية .

فسأله شكيب : من أى بلد من بلاد فرنسة ؟ .

فأجاب سادول : ولاية تولوز فى الجنوب .

فهتف شكيب : هى طلوزتنا أصلحك الله ، وقد أقمنا هناك .

فقال سادول: عدة قرون ، ولكم آثار باقية ، وكثير من أسماء أماكننا لايزال عربيا ، وكثير من وجوه سكان بلادنا عليه سيماء العرب ، كاللون والعيون .

وعقَّب شكيب على المحادثة قائلا : « وهناك دخلنا فى التاريخ مع ابن عمنا سعدول أو سعد الله ، ولم نخرج منه إلا بعد ساعة[1] » .

***

وقد وقع فى يد شكيب رسالةُ تقويم باللغة الفرنسية مطبوعة فى باريس تحت عنوان (تقويم النصائح الحسنة) Al manack De Bon Conceils .

فكتب عنها مقالا قال فى أوله : « ولفظة (الماناك) هذه بمعنى التقويم هى بدون شك عربية ، وبعضهم يذهب إلى أنها (المناخ) بناء على أن التقويم يتضمن حوادث الجو والهواء ، وسمعت الأستاذ الأكبر الطيب الذكر صاحب الفضل على الشرق والشرقيين الدكتور فانديك الأمريكى يقول : إن أصلها (المنهاج) وهو كتاب فى علم التقويم لأحد علماء العرب[2] » .

---

(١) مجلة الزهراء ، المجلد الرابع ، ص ٢٠١ .

(٢) جريدة الشورى ، عدد ١٤ يناير ١٩٢٦ .

وفى كتاب تاريخ غزوات العرب يمر على شكيب اسم zoton فيقول : إن المؤرخين يسمونه تارة (زاتون) ، وطوراً (زادو) Zaddo ، وأحياناً (زاد) Zaad . ولعل أصله سعدون أو سعد ، وفى تاريخ الملك لويس الحليم ورد أن (سعدون) وقع أسيراً فى سربونة[١] .

ويذكر أن أهل سرقسطة يقولون كلمة (رابال) وهى فى الأصل عربية ، لأن أصلها (الربَض) ، وأن أناساً من ثقيف وهذيل يقلبون الضاد لاماً ، وأنه ذكر ذلك فى رحلته الحجازية المسماة بالارتسامات اللطاف[٢] .

ويرى شكيب أن كلمة (ترسانة) أصلها عربى هو (دار صنعة) أو (دار صناعة)، لأن العرب كانوا يطلقون هذا الاسمَ على المعامل التى كانت تُبنى فيها المراكب البحرية ، فأخذ الافرنج الكلمةَ ونطقوها هكذا (دارسنا) بحسب صعوبة إخراجهم لحرف العين كما لا يخفى ، ثم قلبوها إلى (آرسنا) ، وأضافوا إليها حرف اللام المستعمل عندهم فى النسبة والمقامات الظرفية ، فصارت (أرسنال) . وجاء الترك فحرفوا الكلمة إلى (ترسانة) ، فقالوا عن دار الصناعة التى فى خليج استانبول (ترسانة عامرة)[٣] .

ويقول الأستاذ ساطع الحصرى :

« وكلمة (آرسينال) ، « ترسانة » التى يستعملها الأوربيون للدلالة على المصانع والمخازن الحربية والبحرية كذلك ، محرّفة من كلمة عربية هى دار الصناعة ، وشكل هذه الكلمة فى الأسبانية لا يترك مجالا للشك فى هذا الأصل العربى : دارسانا Darsana »[٤] .

---

(١) تاريخ غزوات العرب ، ص ١٣٧ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٣٤ .
(٣) المرجع السابق ، هامش ص ١٣٩ .
(٤) المحاضرة الافتتاحية ، ص ٦ .

ويستبد التحليلُ اللغوى بشكيب أحياناً كثيرة ، فنراه مثلا يعلق على كلمة (الصقالبة) فيذكر أن الصقالبة يقال لهم السلاف ، ومعنى السلاف : الشرفاء ، وانقلب المعنى فجاء من السلاف لفظة اسكلاف بمعنى عبد ، والعرب قلبوا الفاء باء ، ولفظوا الإسكلافون إصقلابون ، والصقلاب هو الرجل الأبيض أو الأحمر .. إلخ[١] .

ومن مظاهر ملاحظته الدقيقة فى مجال التعريب للأعلام قوله :

« قد ضبطنا (الأولنب) بالنون ، لأن من عادة العرب أن لا يأتوا قبل الباء إلا بالنون ، بخلاف الإفرنج الذين يقولون Olympe و Tombouctou ، فيجعلون الميم قبل الباء ، ويكتبونها : تمبكتو ، ويقولون AMBIC أى الأنبيق ، ويكتبونها أمبيق[٢] » .

***

ويرى شكيب أننا إذا عربنا كلمة فيها حرف صائت (U, Eu, ou,o) يجب أن نضع فوق مقابله العربى ما يشير إلى جهة نطقه ، فنضع واواً إذا كان مائلا إلى الواو ، وياء إذا كان مائلا إلى الياء ، وألفاً إذا كان مائلا إلى الألف ؛ ثم يقول : « وبدون هذه الإشارات يبقى التعريب ناقصاً جداً ، وهو شَيْنٌ لاحقٌ بالعربية »[٣] .

وهو يحث على الترجمة ، ويطالب باستمرار الاستفادة منها ، لأن اللغة العربية استفادت قديما من الترجمة فوائد كثيرة ، ويقول : « وكذلك يكون من تمام محاسن هذه اللغة أن تكون حاوية من آداب الأجانب الحاضرين وفنونهم وعقائل نظمهم ونثرهم ما إن لم يكف ذوى الإخصاء مئونة درس هذه الآداب فى لغتها الأصلية كان كافياً لسواد السواد الأعظم مئونة المشاركة بها فى اللغة العربية نفسها » .

---

(١) تاريخ ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول ، ص ١ و ٢ .
(٢) أناتول فرانس فى مباذله ، هامش ص ٢٦٨ .
(٣) مجلة الزهراء ، عدد صفر ١٣٤٤ — ١٩٢٥ م ص ٨٨ .

ولكنه يشترط على ناشئة العرب أن لا «يعدلوا بهذه الأم العربية البرّة أمّا، ولا يجعلوا لها من بين اللغات نداً»، فيجعلوها أولا، ويحسنوها قبل كل شيء، ثم يستزيدوا ما أرادوا. وأن يجمعوا بين التليد والطريف، وينقلوا البدائع بشرط أن يكون الأسلوب العربي الأصيل ظلها وماءها، وديباجة النطق بالضاد أرضها وسماءها، وأن تكون لغة الكتاب المنزّل على أفصح العرب ألفها وباءها، إذ بدون ذلك تفسد هذه اللغة الشريفة»(١).

---

(١) أناتول فرانس في مباذله، ص ٦.

العامى الفصيح

لشكيب كتاب مخطوط عنوانه « القول الفصل فى رد العامى إلى الأصل » يرد عنه حديثٌ عند الكلام عن كتب شكيب وآثاره ، وليس بغريب أن أن يعنى شكيب بتتبع ملامح الفصحى بين جنبات العامية ، وقد كانت هذه العناية منذ وقت مبكر فى حياته ، فنحن نراه يعلق فى مجلة المجمع العلمى العربى على اقتراح الشيخ عبد القادر المغربى باستعمال كلمة (نَفَشَ) الواردة فى كتاب (نشوار المحاضرة) بمعنى تحرك الشىء حركة اضطراب ، فيقول :

« إن نغش هذه تستعمل كثيراً فى حركة القلب ، وجاء فى اللغة : نغش إليه بمعنى مال إليه [1] ، والعامة عندنا فى جبل لبنان تقول : صار القلب ينغنش ، يضيفون إليها النون كعادتهم فى ألفاظ كثيرة يضاعفونها ، وذلك فى معنى حركة القلب من الحب .

وأحياناً يقلبون النون ميما ، كما هو شأنهم فى كلمات عديدة ، فيقولون (ينَغْمِش) و (نَغمَش) ، ويقولون عن المرأة الحسناء ، أو التى فيها جذب لمحب (نغِشَة) ، كأنهم لحظوا فى ذلك حركةَ القلب عند رؤيتها ، أو حركتها هى التى ينغش لها القلب » [2] .

ويتحدث عن كلمة (استهتر) بمعنى اتبع هواه فلا يبالى بما يفعل ، ويلاحظ أن العامة فى جبل لبنان نقلوها إلى معنى الاستخفاف ، ويقولون : ما زال يستهتر بهذه المسألة حتى كبرت ، أو : لا تستهتر بهذا الأمر تندم ، وما أشبه ذلك .

ويذكر شكيب وجهَ المناسبة ، وهو أن كل من يتبع هواه ولا يبالى ، يصير

---

(١) فى القاموس : « وهو ينغش إليه : يميل » .

(٢) مجلة المجمع العلمى العربى ، المجلد ٥ ـ الجزء الأول ، كانون الثانى ١٩٢٥ .

مستخفاً بما يقوله الناس وبما يحدث ، فالاستهتار بمعنى الاستخفاف أصله الاستهتار بمعنى اتباع الهوى [١] .

ويذهب شكيب لزيارة بلدة « قلعة جندل » بلبنان فيقول له الخورى هناك: « لنا معتوب عليك ، وهو أنك لما جئتَ لم تعلم حتى صرت على مقربة من القرية فلو علمنا من قبل لكان استقبالنا لك أحفل » : فقال له شكيب : « ما أرى بقى من أهل القرية أحد لم يخرج للاستقبال ، بارك الله فى همتكم » .

ثم يعلق شكيب بأن الخورى قال (معتوب) بمعنى (عَتب) ، أي جاء بالمصدر على وزن اسم المفعول ، وهو وارد فى اللغة ، ومنه مصادر معدودة ، ثم قال شكيب : « سبحان الله ، حتى العامة تنطق بألفاظ لها أصل أصيل فى اللغة » [٢] .

ويستعمل شكيب كلمة (الزيطة) فى إحدى مقالاته ، ويقول عند الاستعمال: « الزيطة من العامى الفصيح » [٣] .

وفى كتاب « أناتول فرانس فى مباذله » أورد شكيب كلمات و تعبيرات نص على أنها من العامى الفصيح ، منها (الكَسْع) بمعنى ضرب دبر الإنسان بصدر القدم ، و (الخَرْمَشة) بمعنى إفساد السطور ، و (الهَفّاف) بمعنى الشفاف الرقيق ، و (تَمَنفَصَ) بمعنى زها وتكبر ، و (السخام) بمعنى سواد القدر ، و (أشحطه) بمعنى أبعده ، و (خباص مخرفش) بمعنى الذى يخلط الأشياء ، و (المراح) بمعنى مأوى البهائم — والعامة تفتح الميم المضمومة فيه — و (هدهدة) بمعنى تحريك الصبى لينام [٤] .

---

(١) المرجع السابق .

(٢) الشورى ، عدد ٢٦ نوفمبر ١٩٢٥ .

(٣) المرجع السابق ، عدد ٨ إبريل ١٩٢٦ .

(٤) أناتول فرانس فى مباذله ، ص ٤٤ و ١١٠ و ١٣٤ و ١٥٣ و ١٥٥ و ١٢٩ و ١٩١ و ٢٠١ و ٢٨٣ ، على التوالى .

وينبغى أن نتذكر هنا أن شكيب الذى يعنى برد العامى إلى الفصيح، ويدعو إلى استعمال هذا العامى بعد رده، هو نفسه الذى يحرص على استعمال الغريب النادر، فهو يجمع بين الطرفين، وكأنه يريد أن يثبت قدرته فى المجالين، وأن يبين تبريزه فى الميدانين.

إن شكيب الذى تقبع هذا العامى الفصيح المأنوس فى الاستعمال عند العامة هو نفسه الذى يأتى فى الكتاب ذاته بالمجهول للعامة ولكثير من الخاصة، فيستعمل (اللمَّ المتيَّح) للذى يعرض فى كل شىء وقلبه كثير التنقل. و (عَدَان)[1] بمعنى عهد، و (أتو) بمعنى طريق، و (جَرَاهيَة) بمعنى جلبة. و (المنفَهِق) المتسع، و (انتجاف) بمعنى إسراع، و (الخُرْثِيّ) لأثاث البيت، و (وَافِه البِيْعَة) بمعنى قيّم البيعة، و (البعاع) بمعنى الثقل، و (المَاجّ) بمعنى الشيخ الذى لا يقدر أن يمسك ريقه من الكبَر، و (المَجْمَجَة) بمعنى التخليط فى الخط، و (سُبْرُوتَة) بمعنى صعلوكة، و (المُسْطِل) بمعنى الذى يتكلم بكلام لا نظام له، و (الخَرُوط) — بفتح فضم — بمعنى من يركب رأسه بدون معرفة، و (البَزَاعَة) بمعنى الكيْس والظَّرف، و (المُسَرْهَد) الذى يتنعم ويتغذى، و (البَرَهْرَهَة) للمرأة الشديدة البياض، و (لَثْلَثَ فى كلامه) بمعنى لم يبينه أو تردد فيه، و (القَهْقَاه) للحسن القيام على المال، و (الهِبْلَاع) للمفرط فى الأكل، و (السَّرِيس) للعاجز عن الباه، و (تَفَخَّلَ) بمعنى لبس أحسن ثيابه[2].

ويلاحظ شكيب أن الناس فى جبل لبنان يقولون (قندى) بمعنى ضعف

---

(١) بفتح العين وكسرها (القاموس).

(٢) المرجع السابق، ص ٢٦ و ٢٧ و ٥٠ و ٨٠ و ٨١ و ٨٢ و ٩٩ و ١٠٠ و ١٠٤ و ١١٠ و ١١٩ و ١٥٠ و ١٥١ و ١٧٠ و ١٨٥ و ١٩٣ و ٢٠٢ و ٢١٩ و ٢٢٤ و ٢٥٣ و ٣٠٢. على التوالى.

واستخذى ، ويبحث شكيب عن اللفظة لمشروع كتابه فى ردّ العامى إلى الأصل الفصيح ، فلا يجد (قندى) بعينها ، ولكنه يجد (قندلَ) بمعنى ارتخى[١] .

ويعْنَى بتتبع ما أدخلته العامة على الفصيح عند استعمالها له من تغيير ، فكلمة (مرسح) فى رأيه مقلوبة من (مسرح) ، ثم يعدّل رأيه فيقول إن (المرسح) تحريف من كلمة (المرزح) ، وهو ما اطمأن من الأرض ، وبعبارة أخرى : الساحة ، وحرّفها العامة مرسحا ، كما يحرفون كثيرا من الزاى إلى السين ، ومن السين إلى الزاى[٢] .

وتبرع الأمير شكيب بجانب من المال لمنكوبى بلدة (الصلت) فى شرق الأردن ، بمناسبة زلزال أضرّ بها ، فأعلنت جريدة الشورى النبأ ، وكتبت اسمَ البلدة بالسين والطاء (السلط) حسب الشائع ، فكتب شكيب خطابا إلى صاحب الشورى بعنوان : (الصلت لا السلط ، ولا ندفع إلا على هذا الشرط) . وقال فى خطابه : « إياكم أن تكتبوها السلط » . ثم يقول : « والعامة — لا بل الخاصة أحيانا — لا يزالون يحرقون قلوبنا بتحريف الكَلِم عن مواضعه ، وبكتابتها بالسين والطاء ، وفى ذلك من ربكم بلاء » . كما يقول : « ولكنى متعجب من الأستاذ خفير اللغة إسعاف أفندى النشاشيبى كيف لا ينضم إلينا نحن الاثنين[٣] فى هذا المأتم الذى ليس زلزالُ الصلت بأصدع منه للقلوب ، وأن لا يكون له صوت فى هذه المناحة .

ولا أعفى الأستاذ السكاكينى [خليل السكاكينى] نفسَه من مشاطرتنا هذه القيامة

---

(١) مجلة المجمع العلمى العربى ، المجلد ٤ ـ العدد ٦ .

(٢) أناتول فرانس فى مباذله ، ص ١٠٧ .

(٣) يقصد نفسه وأحمد زكى باشا الذى شارك شكيب فى القول بأنها (الصلت) لا (السلط) ، واستشهد زكى باشا على ذلك بمعجم البلدان ، وأضاف شكيب الاستشهاد بتاريخ أبى الفداء ، وبشعر المتنبى . انظر المقال نفسه .

مهما يكن من حبه للتجدد ، وشنآنه لكل قديم ، فإن الانفلات من كل قيد لا ينبغى أن يصل إلى قُدس أقداس اللغة والعياذ بالله [١] » .

إن شكيب يبالغ فى تصوير الأمر ، فيصف تحريف كلمة (الصلت) بأنه بلاء، وأنه مأتم ، وأن زلزال الصلت ليس بأصدع منه للقلوب ، وبأن التحريف استحق مناحة وصفها بقوله « هذه القيامة » ، وقال إن الموضوع يتعلق بقدس أقداس اللغة ! .

ولابد أن معترضين عترضوا على مبالغة شكيب ، ولذلك عاد يخفف حدةَ المبالغة ويقول إنه أراد بهذه المباحثة اللغوية الإحماض والمداعبة لزكى باشا [٢] .

• • •

وقد أسهم شكيب منذ زمن متقدم فى وضع المصطلحات والكلمات العربية فى مقابل الكلمات الأفرنجية ، وفى اقتراح استعمال كلمات لمعانٍ تحتاج إليها . وإحصاء هذه المصطلحات والكلمات يحتاج إلى مجال واسع ، وحسبى أن أثبت هنا طائفة منها :

استعمل شكيب كلمة (الصُّنْبور) لترجمة كلمة بايب (Pipe) ، و (الدَّرَّاعة) للجاكت ، و (البَنِيقَة) لمكان القبة (الياقة) ، و (بيوت الزَّرَاجِين) للبارات (Bars) [٣] .

واستعمل (الظهير) فى مقابلة (الفرمان العثمانى) [٤] ، و (تذكرة النفوس) لجواز السفر أو البطاقة الشخصية [٥] ، و (المَغْنَى) للفيلا ، و (الناموس) للسكرتير [٦] ، و (الهاتف) للتليفون [٧] .

---

(١) الشورى ، عدد ١٥ سبتمبر ١٩٢٧ .
(٢) المرجع السابق ، عدد ١٣ أكتوبر ١٩٢٧ .
(٣) أناتول فرانس ، ص ١٩٠ و ١٣٤ و ١٣٠ و ٩٨ .
(٤) تاريخ ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول ، ص ٢٠ .
(٥) منبر الشرق ، عدد ٢٧ فبراير ١٩٥٣ نقلا عن رسالة من شكيب للغاياتى تاريخها ٢١ مايو سنة ١٩١٩ .
(٦) الأمير شكيب ، ص ٢٠١ .
(٧) أناتول فرانس ، ص ١٨٣

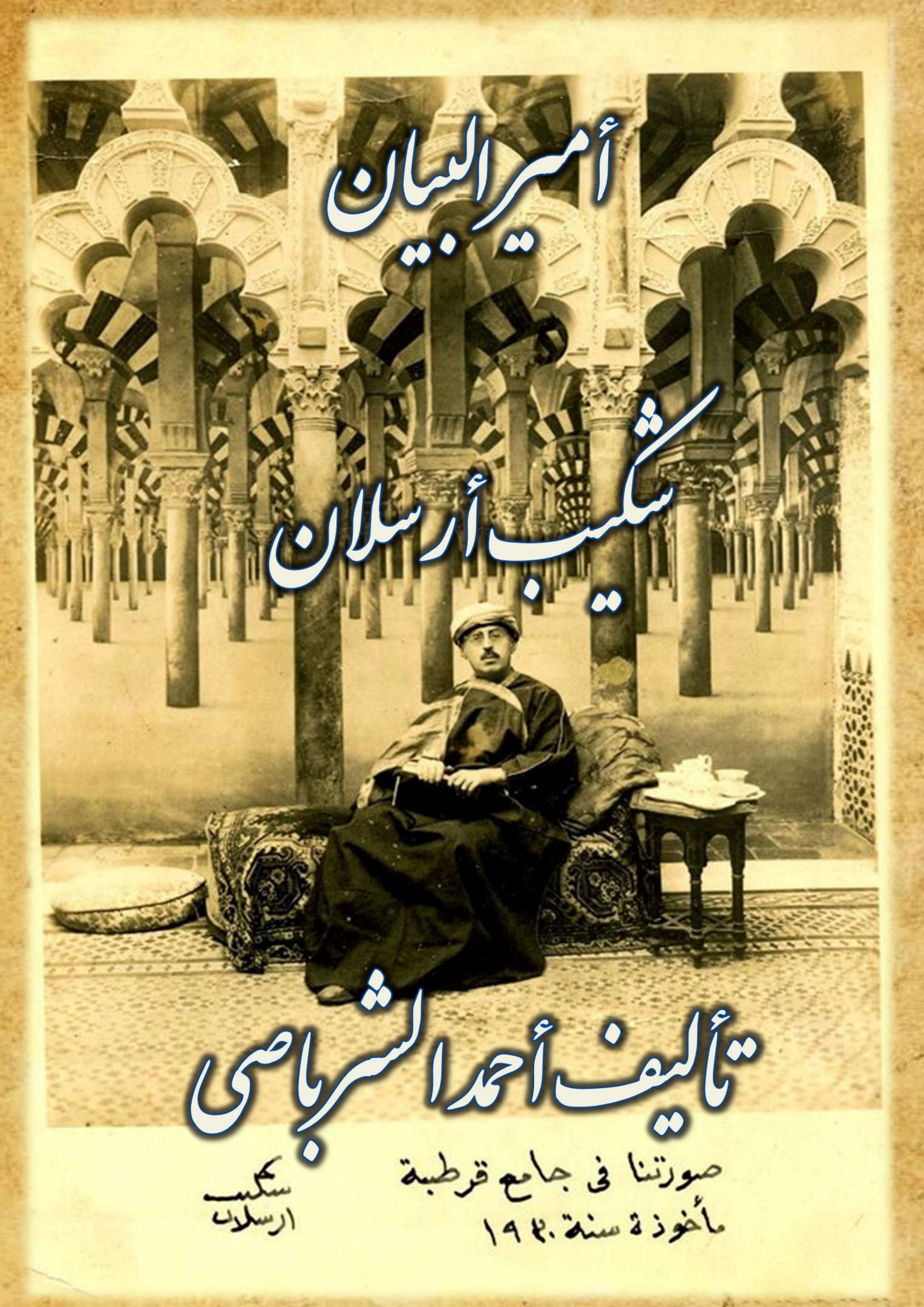
وليس معنى هذا أنى أجزم بأن شكيب هو أول من دعا إلى استعمال هذه الكلمات فى هذه المواطن ، فقد يكون سابقاً فى بعضها ، وقد يكون غيره شاركه أو سبقه فى الدعوة إليها ، وتحديد هذا كله يحتاج إلى بحث مستقل .

لا شك أن شكيب قد خدم اللغة العربية ، ودافع عنها ، ودعا إلى توسيع نطاقها ، وأحيا الكثير من مفرداتها ، ولو أن باحثاً عكف على استيعاب الجهود اللغوية لشكيب ، منذ التفت إليها حتى ترك الدنيا ، لوجد بين يديه مادة ضخمة تصلح أساساً كاملا لبحث لغوى كبير متشعب الجهات .

« تم الجزء الأول بحمد الله تعالى »

فهرس الجزء الأول

« ملاحظة : المصادر والمراجع ستأتى فى الجزء الثانى »


أمير البيان
شكيب أرسلان
تأليف أحمد الشرباصي
صورتنا في جامع قرطبة
مأخوذة سنة ١٩٣٠
شكيب
ارسلان

أمير البيان

شكيب أرسلان

تأليف

أحمد الشرباصي

الجزء الثاني

مطابع
دار الكتاب العربي بمصر
محمد حلمي المنياوي

الطبعة الأولى

١٣٨٣ هـ — ١٩٦٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله تبارك وتعالى ، وأصلى وأسلم على أنبيائه ورسله ، وعلى خاتمهم سيدنا محمد وآله ، وصحبه وأتباعه ، ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين ، وأستفتح بالذى هو خير :

« رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ، وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا ، وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ »

مقدمة

هذا هو الجزء الثانى من دراستى الأدبية اللغوية عن أمير البيان شكيب أرسلان ، وكانت هذه الدراسة هى الرسالة التى تقدمت بها لنيل شهادة « الماجستير » من معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة ؛ ونوقشت هـذه الرسالة مساء ٨ يناير ١٩٦٣ ، ونال صاحبها الشهادة المذكورة ، بدرجة « ممتاز » ، مع تقرير طبع الرسالة على نفقة المعهد تقديراً لها .

وقد تضمن الجزء الأول من هذه الدراسة ستة أبواب هى :

عصر شكيب ، حياة شكيب ، شكيب الناثر ، شكيب الشاعر ، شكيب الناقد ، شكيب اللغوى ؛ وجعلت فى آخر الجزء الأول فهرساً لموضوعاته فقط ، ناوياً بمشيئة الله أن أذيل هذا الجزء الثانى من الدراسة بفهارس أوفَى وأوسع . ولذلك جعلت أرقام الصفحات فى الجزءين مسلسلةً ومتوالية ، ليسهل الرجوع إلى الصفحات عن طريق الفهرس ؛ وستكون فى طليعة الفهارس قائمةُ المصادر والمراجع التى جاء ذكرها خلال الدراسة .

والجزء الذى بين يديك سيضم ـ بمشيئة الله تعالى ـ أربعة أقسام من الدراسة ، الأول : هو الباب السابع والأخير من الأبواب ، وموضوعه كتب شكيب وآثاره ، والثانى : عن شكيب فى ذمة التاريخ ، مع نتائج البحث ، والثالث : هو الملحق الأول للرسالة ، وهو مجموعة من رسائل شكيب إلى رشيد رضا ، والرابع والأخير : هو مجموعة من قصائد شكيب وأبياته لم تُنشر فى ديوانه .

هذا وقد استبحت لنفسى فى بعض المواطن من حديثى عن كتب شكيب وآثاره ، وفى بعض المواطن القليلة الأخرى التى مرت ، أن أعيد الاستشهاد بنص

أو بجزء منه ، لأن المناسبة اقتضت هذه الإعادة ، ولأن الإحالة على نصوص سابقة متناثرة هنا وهناك يصعب معها تجلية المراد من النص من جهة ، وتحوج إلى تلخيص هذا النص من جهة أخرى ، وربما تقاصر التلخيص عن الوفاء بالمراد . كما أن ذاكرة الباحث وذاكرة المطالع لا تسعفهما بصفة دائمة بتذكر النص السابق على الوجه المطلوب .

والله جل جلاله المسئول — بفضله ومنّه — أن يرشد على الطريق ، ويهدى إلى سواء السبيل .

أحمد الشرباصي

الباب السابع

كتب شكيب وآثاره

الفصل الأول

المطبوعات والمنشورات

الفصل الثاني

المخطوطات

الفصل الثالث

كتب مقترحة أو كانت فى النية

الفصل الأول

المطبوعات والمنشورات

لشكيب آثار كثيرة، منها الكتاب المؤلَّف، والمترجَم، والمحقَّق، والمشروح، والملقَّ عليه؛ ومنها المقالة، والرسالة، والمحاضرة، والبيان السياسي؛ ومنها المطبوع، والمخطوط الموجود، والمجهول المصير، وقد ظل شكيب نحو ستين عاماً يكتب ويخطب ويحاضر ويراسل، فلا عجب إذا ترك هذه الآثار الكثيرة المختلفة.

وسأذكر هنا آثارَ شكيب، مع تعريفٍ بها وملاحظات عليها. وسأرتب كتبه ومنشوراته بحسب تتابعها الزمني، ثم أذكر المخطوطات التي لم تنشر، ثم الكتب التي كان ينوي تأليفها ولا ندري مصيرها.

(١) باكورة

هذا الكتاب هو أول كتاب ظهر لشكيب أرسلان، وهو يضم مجموعة من قصائده الشعرية، وهو غير ديوانه الذي سنتحدث عنه فيما بعد، وإن كانت هذه الباكورة تعتبر أصلا للديوان، لأن شكيب حذف من الباكورة بعض القصائد وبعض الأبيات من قصائد أخرى، ثم ضم الباقي إلى الديوان.

وقد كُتب على ظهر الكتاب هذا العنوان: «باكورة نظم الأمير شكيب أرسلان عُفي عنه». وطُبعت الباكورة بالمطبعة الأدبية في بيروت سنة ١٨٨٧، وهي في نحو تسعين صفحة من الحجم الكبير، وتحت يدي نسخة طالعها شكيب، وأحدث فيها بعضَ التعديلات، وشطب منها بعض الأبيات.

وقد قدم لها، كما أشرنا من قبل، بهذه الكلمات:

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وعلى سيدنا محمد وآله أفضل الصلاة والتسليم ،

وبعد . فقد جمعت بعضَ ما وقع لديَّ من باكورة نظمى وأنا فى رَوْق الشبيبة ، ولُدون الحداثة القشيبة ، حديث العهد بهذه الصنعة ، قريب الوِرْد بهذه الشِّرْعة ، متطفل على ما ليس فى طوق قبل أن أشب عن الطوق ، متطاول إلى ما هو فوق دون أن أضمن لنفسى الفَوْق، انتخبتها وليس من مقصدى نشر ديوان ، ولا التلبس بحالة من هذا الشأن ، بل إجابة لطلب بعض الإخوان ، كنت أعتذر إليهم بأنها من عهد الطلب ، وهزة الاقتبال والطرب ، وتطفل الحديث على الأدب ، بل عبث الوليد إذا شب .

فلما لم أر لعرضهم صدًّا ، ولم أجد من إجابتهم بدًّا ، اقتصرت على هذه الأنموذجات ، وأحسبنى تطاولت جدا ، فإن صادفت من الإقبال محلا ، ولاقت قبولا فذاك وإلا

فقد يتزيا بالهوى غير أهله ويستصحب الإنسان مالا يلائمه »(١)

وجعل شكيب إهداء الباكورة « لحضرة العالم العامل الفيلسوف الكامل ، واسطة عقد الحكماء ، ودرة تاج البلغاء ، الأستاذ الأكبر الشيخ محمد عبده المصرى أيده الله تعالى » . ووجَّه إلى الإمام الشيخ محمد عبده قصيدةَ إهداء ، قال فى مطلعها :

لو هاج مثلُ الفضل خاطرَ شاعر ألقيت بين يدى سواكَ بواكرى
أو لو وجدت بمثل فضلك عاذلا كان الكمال إذا سلوتك عاذرى
لكن سطوتَ على القريض بأسره وغدوتَ أعذبَ منهلٍ للخاطر(٢) ... إلخ

ويختم القصيدة بقوله :

أهديتها لا كى تليق ، وطالما قَبِلَ الكبير هديةً من صاغر

(١) باكورة ، ص ٢ .
(٢) باكورة ، ص ٣ .

هي دون ما يهدى إليك ، وإنما مثلى على ما فاق ليس بقادرِ[١]

وفي آخر « باكورة » قال شكيب : « فهذا أثر مما سمح به الخاطر والعمرُ في أول أطواره ، وجواد القريحة في بدء مضماره ، رسمتُ به النفس على حالتها تلك والمرء مولع بآثاره ، والفتى كَلِفٌ بأبكاره ، راجياً ممن تردى برداء الأدب واستثمر بثماره ، أن يتلقى الخلل بواسع حلمه ، ويتغمد الزللَ بوارف ستاره ، على أنه لما كانت الباكورة مجموعَ منتخبات ، ومقتطف أنموذجات ، اقتضى أن أودعها أحاسنَ قصائدى ، وأطوى الباقى على غِرِّه ، سائلا الله تعالى ما يسددنى إلى طرق الصواب ، وينكب بى عن مداحض الارتياب ، وأن يرشدنى إلى الحق ، ويهدينى بمناره ، ثم الحمد لله ربّ العالمين ، والصلاة على محمد بن عبد الله رسوله الأمين ، وعلى آله المقرّبين ، وأصحابه المكرّمين ، وأعوانه وأنصاره ، آمين »[٢] .

هذا وقد ذكر عارف النكدى أن « باكورة » شكيب طبعت مرتين[٣] .

(٢) الدرة اليتيمة

بكر شكيب فى حبه التنقيب عن المخطوطات والآثار الأدبية والعلمية ، وذلك على الرغم من شواغله السياسية والاجتماعية والفكرية ، وقد كان هذا الحب سبباً فى أن ينشر أكثرَ من كتاب قديم ، مثل كتاب الدرة اليتيمة لابن المقفع ، ورسائل الصابى ، وكتاب عن الإمام الأوزاعى ، وكتاب أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر ، وغيره .

وقد عثر شكيب على كتاب « الدرة اليتيمة » فى إحدى خزائن استنبول ،

---

(١) الباكورة ، ص ٤ و ٥ .

(٢) باكورة ، ص ٩٢ .

(٣) مجلة المجمع العلمى العربى — المجلد الثانى والعشرون ، ص ٨٩ .

وهى مكتبة « بنى جامع » فنسخه بخط يده [١] ، وهذا الكتاب — كما جاء على غلاف الطبعة الأولى — « من حكم الأديب المصقع عبد الله بن المقفع ، الكاتب المشهور ، مصححة بقلم عزتلو الأمير شكيب أرسلان عُفِى عنه » .

وقد طبعه أول طبعة فى بيروت سنة ١٨٩٣ ، ثم طُبِع طبعة ثانية فى المطبعة الأدبية ببيروت سنة ١٨٩٧ [٢] ، ثم طبع طبعة ثالثة ببيروت سنة ١٩١٠ [٣] .

وقد ظهر الكتاب فى ست وأربعين صفحة من القطع الكبير [٤] . وفى أوله مقدمة بقلم شكيب ، بدأها بالإشارة إلى عناية طلاب العربية فى عهده بالإقبال عليها ، والاجتهاد فى تحصيلها ،* وأنهم يحاولون ذلك بالنظر فى كتب السلف ومنشآت الأولين ، حتى تتكون لهم الملكة الراسخة ، ثم يشير إلى أن العناية بصناعة الإنشاء أجدرُ ما تُصرف إليه الهمة ، ولا سيما فى هذا العصر الذى تمددت فيه مناحى الكتابة ، وتكاثرت الموضوعات ، وتشابكت الأمم والمدارك ، حتى كأن الأمم أمةٌ واحدة ، وكأن الأمة فرد واحد .

ويشير إلى أن المعانى إذا كثرت على الألفاظ ضاق دونها ذرعُ الكتبة ، فذهبوا فى إبرازها مذاهب الضعف أو السخف ، وإذا كثرت الألفاظ على المعانى

---

(١) حاضر العالم الإسلامى ، ج ١ ص ٢٣٠ .

(٢) مجلة المشرق — السنة الثالثة — العدد ٢ — ١٥ كانون الثانى سنة ١٩٠٠ . وفى محاضرات الدكتور الدهان عن شكيب ما يشعر بأن الكتاب نشر سنة ١٩١٠ لأول مرة ، وهذا غير صحيح . انظر ص ٩٣ من محاضرات عن الأمير شكيب .

(٣) محاضرات عن الأمير شكيب أرسلان ، ص ١٦٠ . وقد طبع الكتاب بعد هذا طبعات كثيرة ، بدليل أن « المنار » يذكر أن الكتاب طبع الطبعة الخامسة فى مطبعة الرغائب فى أواخر سنة ١٩١٠ . انظر عدد المنار الصادر بتاريخ ٣٠ يناير ١٩١١ ص ٧٤ .

(٤) نشر الأستاذ محمد كرد على فى مجلة المقتبس (المجلد الثالث سنة ١٣٢٦ هـ — ١٩٠٨ م) هذه اليتيمة فى ص ١٧٨ — ٢٠٢ ثم علق عليها بكلمة ، وقال إن هناك يتيمة ثانية لابن المقفع ، ثم ساق هذه اليتيمة الثانية فى ص ٢٠٦ وما بعدها ، ونلاحظ أن بعض الباحثين يسمى الكتاب « اليتيمة » ، وبعضهم يسميه « الدرة اليتيمة » .

بين قوم سادت بينهم الصناعة اللفظية ، ولا بد من تناسب القوتين وتضارع المادتين ، حتى يتوافر لكل معنى نديده من اللفظ . وهذه غاية بعيدة وعقبة كئود ، ويمكن اجتيازها بالتطبع على بلاغة الأولين ، وتقليد مناهج السالفين .

ويرى أن أهم ماتخدم به اللغة نشر كنوزها واستخراج جواهرها ، إذ لم يصلنا منها إلا النزر اليسير ، ثم ينتقل إلى إظهار شغفه بنشر الآثار الأدبية مع كثرة الأعمال والأشغال .

ويذكر أنه عثر على كتاب ابن المقفع فى دار الخلافة العظمى مع جملة كتب ، فاستحسن نشره ، لما فيه من بلاغة وحكمة وحجة ، مما لم يتضمنه كتاب قبله ، ويطنب فى الثناء على الرسالة ، وعلى صاحبها ابن المقفع ،فيقول : «ولعمرى لو استفرغ مجتهد وسعه فى إهداء أرباب الأقلام طرفة تعجبهم ، فقصاراه نشر كلام مثل ابن المقفع »(١) .

وينوه شكيب بقيمة الاختيار ، وأنه لا يقل قيمة ولا جهداً عن التأليف والإنشاء ، فيقول : « فقد يكون من فضل المرء فى حسن انتقائه ما يربو على فضله فى حسن إنشائه ، إذ كان من الاختيار ما هو أنطق بالفضل ، وأدل على العقل ، على حد قول القائل :

قد عرفناك باختيارك ، إذ كا ن دليلاً على اللبيب اختياره »(٢)

ثم يورد ملخص ما ذكره ابن خلكان فى « وفيات الأعيان » فى ترجمة ابن المقفع ، وذلك فى نحو ثلاث صفحات .

ويبدأ كتاب ابن المقفع الذى نراه يفتتحه بالثناء على السابقين ، وأنهم ولجوا كل باب من أبواب العلم ، وأنه سيذكر شيئاً من أبواب الأدب مشتقاً من حكم

---

(١) الدرة اليتيمة ، ص ٥ .
(٢) المرجع السابق .

الأولين ، ثم يتحدث عن الأخلاق والآداب اللازمة للإنسان والسلطان ، ثم عن الآداب اللازمة لمن يصحب الملوك ، ثم يتكلم عن أخلاق الصديق .

ويحسبنا أن نورد مثالين موجزين من أسلوب الكتاب ، الأول هو :

« وأصل الأمر في البأس ألا تحدث نفسك بالإدبار وأصحابك مقبلون على عدوهم ، ثم إن قدرت أن تكون أولَ حامل وآخرَ منصرفٍ من غير تضييع للحذر فهو أفضل »[١] .

والنموذج الثاني هو :

« لا تتركن مباشرةَ جميع أمورك ، فيعود شأنك صغيراً ، ولا تلزم نفسك مباشرةَ الصغير فيصير الكبير ضائعاً . اعلم أن رأيك لا يتسع لكل شيء ، ففرغه للمهم ، وأن مالك لا يغني الناس كلَّهم ، فاختصَّ به ذوي الحقوق ، وأن كرامتك لا تطيق العامة ، فتوخَّ بها أهلَ الفضائل ، وأن ليلك ونهارك لا يستوعبان حاجاتك وإن دأبت فيهما ، وأنه ليس لك إلى أدائها سبيل مع حاجة جسدك إلى نصيبه منهما ، فأحسن قسمتهما بين دَعَتِك وعملك .

واعلم أنك ما شغلت من رأيك بغير المهم أزرى بالمهم ، وما صرفت من مالك بالباطل فقدتَه حين تريده للحق ، وما عدلت به من كرامتك إلى أهل النقص أضرَّ بك في العجز عن أهل الفضل ، وما شغلت من ليلك ونهارك في غير الحاجة أزرى بك في الحاجة »[٢] .

ولا شك أن نشر هذا الكتاب عمل مشكور ، لأنه قطعة من الأدب الجليل ، فهو طبقة عالية في البلاغة ، ودرجة سامية في الحكمة ، بلا سجع ولا تكلف ، وقد بذل شكيب في تحقيقها جهداً .

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٣ .

ولكن يمكن أن نلاحظ الملاحظات التالية :

١ — أهمل شكيب « الترقيم » مع احتياج عبارة ابن المقفَّع أكثر من غيرها إلى الترقيم ، والترقيم مما لا ينبغى التساهل فيه ، وإن بدا أمراً شكلياً ، لأن فهم المعنى يتوقف أحياناً على ضبط الترقيم .

٢ — كان يمكن وضع عناوين — ولو فى جوانب الصفحات — بدل أن تأتى الرسالة سرداً ، اللهم إلا عنواناً واحداً فى الصفحة السابعة والعشرين من عمل ابن المقفَّع ، وهو « باب الصديق » .

٣ — هناك كثير من الكلمات تحتاج إلى الضبط والشكل ، وكثير من العبارات تحتاج إلى الإيضاح ، لما فى كلام ابن المقفع أحياناً من التقديم والتأخير .

٤ — اقتصرت التعليقات على شرح لغوى وجيز لبعض الألفاظ ؛ ومجموع هذا الشرح لا يتجاوز — إن جمع — صفحتين . مع أن هناك مواطنَ كان ينبغى أن نسمع فيها رأى شكيب ، فابن المقفع مثلاً ينهى عن مجالسة المغضوب عليه من الوالى [1] ، فهل يوافق شكيب على هذا ولو كان المغضوب عليه كريماً ومُحِقًّا ؟ .

ويدعو ابن المقفَّع إلى احتمال ما خالفَ من رأى الولاة [2] ؛ فما رأى شكيب ؟ .

ويدعو ابن المقفع إلى السكوت عن تصحيح أخطاء الأصدقاء [3] ، فهل يرتضى ذلك شكيب ؟ .

ويقول ابن المقفع إنه « لا سبيل لك إلى قطيعة أخيك » [4] ، فهل هذا مسلَّم؟ وما مدى اتفاقه مع القول القائل : «أحبب حبيبك هوناً ما » ؟! .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٦ .

(٢) ص ٢٥ .

(٣) ص ٢٨ .

(٤) ص ٣٠ .

ويدعو ابن المقفّع إلى الرضا بأفضلية الغير[1] ، فهل يُرضى هذا طموحَ شكيب ؟ . .

• • •

وبعد ظهور الكتاب كتب المستشرق « بروكلمان » فى المجلة العلمية الشرقية الألمانية يقول إنه يظن أن « الدرة اليتيمة » هى كتاب « الآداب » لابن المقفّع ، وأن تسمية « الدرة اليتيمة » من عمل بعض النساخ ، والدليل على ذلك أن « الفهرست » لابن النديم يلحق « اليتيمة » بالرسائل ، والدرة المطبوعة ليست من الرسائل ، وابن قتيبة فى المجلد الأول من « عيون الأخبار » يذكر قطعة من « اليتيمة » لاتوجد فى الرسالة التى طبعها شكيب ، وكذلك تكلم الفهرست عن تأليفين تحت عنوان « الآداب » لابن المقفّع ، أحدهما كبير ، والآخر صغير .

وقد ردَّ شكيب على المستشرق شاكراً له عنايتَه ، وقال إن ما ذهب إليه المستشرق « وإن كان غير بعيد من الصواب لا يمكن الجزم به ، لما سيأتيك من اختلاف أسماء تآليف ابن المقفّع ، وتباين نسختين من بعض كتبه فى نصهما واتفاقهما فى الاسم ، أو اتحادهما فى النص واختلافهما فى الاسم ، مما يحيِّر الفكرَ فى هذه القضية ، وإن كان يرجح أن النساخ هم مصدر هذا الاختلاف » .

ويذكر شكيب اتفاق مترجمى ابن المقفع على ذكر كتاب « اليتيمة » ، وأن الشيخ محمد عبده كتب إليه بأنه يوجد فى « الكتبخانة الخديوية » بمصر كتاب اسمه « كتاب الأدب » لابن المقفّع ، وهو حِكَمٌ منثورة أصغر من اليتيمة ، وأنه يوجد فى دمياط كتاب لابن المقفع اسمه « الأدب الجامع » هو اليتيمة بعينها التى طبعها شكيب .

---

(١) المصدر السابق ص ٣٤ .

يقول الإمام محمد عبده فى رسالته : « ومن هذا يتبين أن له كتابين : الأدب ، والأدب الجامع ، والأول غير اليتيمة ، والثانى هو هى » .

ثم يقول شكيب : « فأنت تنظر مقدارَ الصعوبة فى حصر اليتيمة ، ومعرفة أى كتاب من كتب الرجل هى » .

ثم يذكر النسخ التى جاء فيها اسم « الدرة اليتيمة » ، والاختلافات الموجودة بينها ، ثم يقول إنه طبع الكتاب كما وجده بدون تحريف ، والنقل أمانة[١] .

وهناك من الباحثين من يجزم بأن كتاب « اليتيمة » هو كتاب « الأدب الكبير » . فقد كتب الأستاذ طه الحاجرى فصلا عن « كتاب اليتيمة لابن المقفَّع » ، يقول فيه :

« لا أقصد فى هذا الفصل أن أتحدث عن الكتاب الذى نشره الأمير شكيب أرسلان فى أواخر القرن التاسع عشر ، باسم (الدرة اليتيمة) تبعاً للمخطوطة التى نشره عنها ، ثم نشره الأستاذ كرد على بهذا الاسم أيضاً ، فى مجموعة (رسائل البلغاء) ، فليس هناك شك فى أن الاسم الصحيح لهذا الكتاب هو الأدب الكبير أو الآداب ، كما كان ابن قتيبة يسميه فيما ينقل عنه فى كتابه (عيون الأخبار) .

وإنما أعنى كتاب اليتيمة الذى كان يُطلَق عليه هذا الاسم فى العصر الذى وُضع فيه ، والذى تعرَّض لما تعرَّض له معظمُ كتب ابن المقفع من طغيان العصور وآفات الزمن ، فضاع فيما ضاع من ذلك التراث الأدبى ، ثم انفرد من دونها بكثير من الغموض والإبهام »[٢] .

---

(١) مجلة المشرق — بيروت — السنة الثالثة — عدد ١٥ كانون الثانى سنة ١٩٥٠ — مقال « يتيمة ابن المقفع » .

(٢) مجلة الكاتب المصرى — المجلد ٣ . العدد ١٠ — ص ٢٦٥ — شعبان ١٣٦٥ — يوليه ١٩٤٦ .

و كتاب الدرة قد قيل عنه إن صاحبه ابن المقفع قد عارض به القرآن ، ولكن هذا القول لم يسنده دليل مقبول ، وهذا هو الباقلانى يقول :

« وقد ادعى قوم أن ابن المقفع عارض القرآن ، وإنما فزعوا إلى الدرة واليتيمة . وهما كتابان : أحدهما يتضمن حِكَماً منقولة ، توجد عند حكماء كل أمة مذكورة بالفضل ، فليس فيها شيء بديع من لفظ ولا معنى .

والآخر شيء من الديانات ، وقد تهوس فيه بما لا يخفى على متأمل . وكتابه الذى يفناه فى الحكم منسوخ من كتاب بزرجمهر فى الحكمة ، فأى صنع له فى ذلك ؟ وأى فضيلة حازها فيما جاء به » ؟[1] .

ونلاحظ هنا أن الباقلانى قد فرق بين « الدرة » و « اليتيمة » ، وقد جعل الدرة كتاباً مترجماً فى الحكمة ، وقد جعل اليتيمة كتاباً مؤلفاً فى الديانات .

ومصطفى صادق الرافعى ينفى عن ابن المقفَّع أنه عارض القرآن فى كتابه « الدرة اليتيمة » ، وقال عنه :

« طُبع هذا الكتاب مرارا ، وهو من الرسائل الممتعة ، يعد طبقةً من طبقات البلاغة العربية ، ولكنه فى المعارضة ليس هناك ، لاقصداً ولامقاربة ، ونحن لانرى فيه شيئاً لا يمكن أن يؤتى بأحسن منه ، وما كل ممتع ممتنع . وقال الباقلانى : إنه منسوخ من كتاب بزرجمهر فى الحكمة ، وهذا هو الرأى ، فإن ابن المقفّع لم يكن إلا مترجما ، وكان ينحطُّ إذا كتب ، ويعلو إذا ترجمَ ، لأن له فى الأولى عقلَه ، وفى الثانيـة كلَّ العقول . . . . . . وفى اليتيمة عبارات وأساليب مسروقة من الإمام على »[2] .

---

(١) كتاب إعجاز القرآن للباقلانى ، ص ١٢٥ .

(٢) كتاب إعجاز القرآن للرافعى ، ص ٢٠٣ . الطبعة الرابعة .

هذا وقد عاد الأستاذ جورجى شاهين عطية فطبع « الدرة اليتيمة » فى سنة ١٩٣٢ فى ثلاث وثمانين صفحة بمطبعة صادر ببيروت ، وأشارت مجلة « المشرق » إلى أنه أعاد النظر فى الدرة بعد طبعة شكيب الثانية لها ، وأن الأستاذ جورجى ضبطها وعلق عليها بعض الحواشى ، ووطأ لكل ذلك بنبذة مختصرة فى حياة ابن المقفع وآثاره[١] .

(٣) رواية آخر بنى سراج

هذه قصة ترجمها شكيب عن الفرنسية . وهى من تأليف الفيكونت دو شاتو بريان الكاتب الفرنسى الشهير ، وشاتو بريان كما يقول عنه شكيب هو « أكتب كتّاب فرنسة ، ويمتاز أسلوبه بعلوّ الطبقة والفُخَمية[٢] ، وغزارة التصورات ، ورقة الشعور ، وشفوف الحس ، ودقة الوصف ، ونصوع اللون ، وكان من رجال السياسة ، ونُصّب وزيراً للأمور الخارجية عند رجوع الحكم الملكى بعد الثورة[٣] » . وقد طبعت الرواية أولا بمطبعة الأهرام[٤] بالإسكندرية سنة ١٨٩٧م ، ثم أُعيد طبعها بمطبعة « المنار » بالقاهرة سنة ١٣٤٣هـ — ١٩٢٥م .

والواقع أن هذا الكتاب يشمل أربعة أجزاء ، وإن كان فى مجلد واحد . الأول هو « رواية آخر بنى سراج » ، والجزء الثانى هو « خلاصة تاريخ الأندلس إلى سقوط غرناطة » بقلم شكيب ، والجزء الثالث هو كتاب « أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر » لمؤلف مجهول شهد وقائع سقوط الأندلس بنفسه ، والجزء الرابع « أثارة تاريخية رسمية فى أربعة كتب سلطانية أندلسية صادرة عن أبى الحسن

---

(١) مجلة المشرق — المجلد ٣٠ — ص ٨٧٩ . سنة ١٩٣٢ .
(٢) الفخمية (بضم الفاء وفتح الخاء) : التعظيم والاستعلاء .
(٣) أناتول فرانس فى مباذله . هامش ص ١٥٨ .
(٤) نشرت القصة أولا فى جريدة الأهرام ، ثم طبعت بمطبعتها فى كتاب مستقل ، انظر مجلة الزهراء ، المجلد الثانى سنة ١٣٤٤ هـ — ١٩٢٥م ص ٦٠ .

علي بن أبي النصر بن أبي الأحمر إلى بعض فرسان الاسبانيول وزعمائهم بين سنتي ١٤٧٠ و ١٤٧٥م » . وأبو الحسن هذا هو والد أبي عبد الله آخر ملوك العرب بالأندلس . وأكبر هذه الأجزاء حجما هو خلاصة تاريخ الأندلس ، لأنه يستغرق ثماني وستين وثلاثمائة صفحة ، وأصغرها هو الأثارة التاريخية الرسمية لأنها تستغرق ست صفحات . والكتاب كله في سبع عشرة وأربعمائة صفحة من القطع الكبير .

وهذه الرواية تدور « على سياحة شاب تام الرجولية ، باهر الفروسية ، من بقايا آل سراج الغرناطيين ، من أكرم بيوتات العرب الباقين ، كانوا بالأندلس لعهد خُلوها من الإسلام ، ونبوّها عن حمر الأعلام ، هبَّ من تونس حيث كان جالية الأندلس قد نزل أكثرهم سائحاً إلى وطنه القديم ، متعللا بالمطام الرميم ، طائعاً هوى النفس في الذهاب أين ساقه التذكار والحنين : هائماً على وجهه في تلك الأرض التي عمرها آباؤه مئين من السنين[١] » .

وهذا الفتى أحبَّ فتاةً من سريات الأسبانيول ، وحال دون اقترانهما إعجاب كل منهما بدينه ، ثم ما تبين لابن سراج من أن معشوقته من سلالة « آل بيفار » الذين فتكوا بآبائه عند جلائهم عن الأندلس .

وقد اختار شكيب نقلها إلى العربية « للطف معناها ، وشرف مغزاها ، وما تضمنته من آداب المحبين ، وإيثاراً لما فيها من مكارم الأخلاق ، ومزايا الأشراف من الفرسان ، واطلاعاً على كثير من الصفات الملكية متزحزحة عن أفق الملأ العلوي إلى عالم الإنسان ، استدلالاً على بديع صنع الله حين يجمع بين الحسن والإحسان ، ثم تعريفاً بحال الفروسية إذ ذاك ، وما انطوى من مكارم الأخلاق بين الإلجام والإسراج ، وتلذذاً بذكرى السلف ، واستقراء لآثار العرب ، على نحو الغرض الذي حدا بقية بني سراج[٢] » .

---

(١) رواية آخر بني سراج ، المقدمة ، ص ٢ . والرميم : البالي .
(٢) المصدر السابق ، ص ٣ .

وفى موطن آخر يتحدث شكيب عن السبب فى تذييل القصة بخلاصة عن تاريخ الأندلس ، فيقول : « إنما حدا بى إلى تذييل هذه الرواية أمران : الأول : إعانة القارئ على فهم الحوادث ومعرفة الوقائع بما تفقد بدونه لذة المطالعة ، والثانى : ما رأيته من اختصار جرم الرواية ، فآثرت إردافها بذيل يطيل من قدها ويزيد حجمها ، ويكون فيه من حقائق الوقائع التاريخية ما لا يقصر فكاهة عن موهوم الرواية الغرامية[١] » .

والتعليل لكتابة الخلاصة بإطالة قد الرواية وزيادة حجمها لا نرتضيه سبباً قوياً ، لأن العبرة ليست بالكم ، وإنما هى بالكيف كما يقولون .

ويذكر شكيب أن كتب العرب لا تشير إلى شىء من هذه القصة ، ومعنى هذا أنها بنتُ خيال ، ولو كانت واقعيةً لما فات المقَّرِى صاحبَ « نفح الطيب » أن يذكرها .

وهذا ضياء باشا الأديب التركى يشير فى تاريخه للأندلس إلى هذه القصة ، ويبين استحالةَ وقوعها ، ويرجح أنها من أوهام الأسبانيول ، ويرى شكيب أنها إن كانت ذات أصل فلابد أن يكون ضعيفاً جدا[٢] .

ويبدو أن أمير البيان لم يتمسك بنص الترجمة ، لأنه يستشهد خلال الرواية بأبيات وقطع من الشعر ليست من أصل الرواية ، مثل استشهاده فى وصف فتاة جميلة بقول الشاعر :

لها منظر قيدُ النواظر لم يزل ... يروح ويغدو فى خفارته الحب

وقول الآخر :

بأبى من هِمتُ فيـه سَحَرا ... يتهـادى كنسيم السحرِ

---

(١) المصدر السابق ، ص ٦٠ .

(٢) رواية آخر بنى سراج ، ص ٦٥ .

أقبس الصبح ضياء ساطعاً فأضا والفجر لم ينفجر
واستمار الروضُ منه نفحةً بثها بين الصَّبا والزهر
أيها الطالع بدراً نيّراً لا حلالت الدهر إلا بصرى[١]

وقد بذل شكيب جهداً واضحاً في تحقيق الأعلام العربية والأسماء العربية المكتوبة في أصل الرواية بالحروف اللاتينية، وهو يشير إلى هذه الناحية، ويتحدث عن خطأ المعربين في نقل الأسماء العربية المكتوبة بحروف لاتينية، ثم يقول :

« ولقد عانيتُ من هذه الأسماء شدةً في رواية (آخر بنى سراج) وذيلها، لكثرة ما تتناوح الأعلام الأندلسية هناك بين العربية والأسبانية، فوفقنى الله بعد الإمعان الطويل إلى تحقيق أكثرها، ولكننى لا أزال في ريبة مما لم أجد ما يقاربه في العربى مما ينطبق عليه علامته الجغرافية، لا سيما بعد أن تأملت كثيراً من الأسماء التي حققت أنها هي على ما بين لفظيها العربى والإفرنجى من البون البعيد »[٢].

وقد لاحظ السيد رشيد رضا — في بعض رسائله إلى شكيب — وجودَ كلمات تحتاج إلى تصحيح أو تغيير في ترجمة (آخر بنى سراج)، وفي أثناء الطبع كان السيد رشيد متوليا التصحيح والإشراف على الطبع، فأصلح جانباً من هذه الكلمات، وفي الطبعة الثانية للرواية صحح شكيب ما يلزم تصحيحه[٣].

---

(١) المصدر السابق، ص ١٣. وقد تكرر مثل هذه الاستشهادات في ص ١٥ و ٢٥ و ٢٨ و ٣٠ و ٣٢ و ٣٦ و ٣٨ و ٣٩ إلخ.

(٢) مجلة المشرق (بيروت) ـ المجلد الأول ـ سنة ١٨٩٨ ـ العدد ١٩ ص ٨٧٢ مقال « الأعلام العربية باللغات الأجنبية » لشكيب. وتتناوح : تتقابل

(٣) كتاب السيد رشيد رضا، ص ٣٤٨ و ٣٥١ و ٣٧٥.

وقد كتبت الدكتورة سهير القلماوى مقالاً عن القصة ، ولاحظت عليها الملاحظات التالية :

١ — القصة كلها لا أصل لها فى التاريخ .

٢ — الفكرة الدينية عنصر هام فيها .

٣ — تعد من مؤلفات شاتوبريان الثانوية ، ولكنها تؤثر فى نفس قارئها .

٤ — أبطال القصة مرتفعون بشهامتهم وشرفهم ارتفاعاً لا يقربهم إلى نفس القارئ .

٥ — الحادثات فى القصة متكلفة بشكل غريب .

٦ — كان المؤلف وصّافاً أكثر منه قصصياً ، وغلب عليه الاهتمام بوصف « الحمراء » .

ثم حكمت على الترجمة بقولها : « ترجم القصة الفرنسية الكاتب المعروف شكيب أرسلان ، ولكن الترجمة حرفية ، وقد أخلّت حرفيتُها بكثير من معانيها ، وجعلت لها صبغةً غريبة لغرابة تراكيبها وتعابيرها ، ولو عمدت إلى نقل المواضع التى أفسدتها الترجمة الحرفية لأكثرتُ وأمللت[1] » .

ومن اللافت للنظر أن الأستاذ محمد عبد الله عنان كتب فصلاً عن هذه القصة ولكنه لم يشر إلى ترجمة شكيب لها[2] .

ويبدو أن شكيب لم يتقن ترجمةَ الرواية ، ولعل ذلك لأنها أول محاولة له فى الترجمة ، ولأنه لم يكن قد تمرس بعد بأسباب البيان كما توافر له هذا فيما بعد ،

---

(١) مجلة الرسالة — السنة الثانية — المجلد الأول — ص ٣٧٥ — ٢١ مايو ١٩٣٤ مقال « مغامرات آخر بنى سراج » لسهير القلماوى .

(٢) مجلة الكاتب المصرى — مجلد ٢ عدد ١٠ — شعبان ١٣٦٥ — يوليه ١٩٤٦ ص ٢٨٤ مقال « مأساة بنى سراج » لعنان .

وقد أشار إلى هذا السيد رشيد رضا فقال لشكيب : « إن عبارتها دون ما يعرفه العلماء والأدباء من كتابتك ، بأنها ترجمة ، وبأنها من أول العهد بتمرنك على الترجمة [1] » .
كما أن شكيب خلط بين الترجمة للأصل والزيادات التي دسها خلال الترجمة .

(٤) المختار من رسائل

أبي إسحاق إبراهيم بن هلال بن زهرون الصابي

طبع هذا الكتاب في المطبعة العثمانية في بعبدا بلبنان سنة ١٨٩٨م . وقد جاء على غلاف الكتاب أنه « الجزء الأول » ، وأنه قد « نقّحه وعلّق حواشيه جناب الأمير شكيب أرسلان أحد أعضاء الجمعية الآسيوية الفرنسية » . وظهر في ثمان وثمانين ومائتي صفحة من القطع المتوسط ، وبه مقدمة لشكيب ، وتعليقات لغوية وتاريخية ، وقد وقعت في الكتاب أغلاطٌ مطبعية كثيرة قيدها الناشر بآخر الكتاب ، وقال الأب لويس شيخو عن الكتاب : « ويا حبذا لو كانت المطبعة أخرجت هذا الأثر الخطير في معرض أبهى وأليق بشأنه ، وتجنبت بعض أغلاط تشوّه محاسنَه [2] » .

ويبدو أن شكيب قد قسم رسائل الصابي إلى جزأين ، ونشر الجزء الأول ، ومات قبل أن ينشر الجزء الآخر ، ولم يُنشر حتى الآن ، وكان شكيب قد عثر على الكتاب في خزانة « يني جامع » إحدى خزائن الكتب باستانبول [3] ، فنسخ الكتاب بخط يده .

ويبدأ شكيب مقدمة الكتاب بعبارة مسجوعة لا تخلو من صنعة ، وتشتمل على

---

(١) السيد رشيد رضا ، ص ٣٥١ من رسالة بتاريخ جمادى الآخرة ١٣٤٣ ـ أول يناير ١٩٢٥ .

(٢) مجلة المشرق ـ السنة الثانية ـ العدد ١١ ـ أول حزيران ١٨٩٩ .

(٣) حاضر العالم الإسلامي ج ١ ص ٢٣٠ ورسائل الصابي : ص .

الحمد لله والصلاة على الرسول والأنبياء ، ثم ينوه بمنزلة الصابى بين الأدباء ، ويقول :
« وإن كلَّ من أصاب من الأدب ذَرْوًا ، وعرف للقلم بريًا ، وللمداد جريًا ، ليصبو إلى بيان الصابى ، وينتشى بإنشائه العالى ، فهو ينظر فيه من خطط البلاغة ومراسمها ، ما يعز الإتيانُ بمثل بدائعه على رائمها ، وتخفر عذارى خطبه دون خاطب كرائمها[1] » .

وبعد أن يقضى رغبتَه من هذا الثناء يشير إلى الكتاب ، وأنه عثر عليه فى أثناء تنقيبه فى (دار الخلافة) ، فاجتهد فى إبرازه ، وقسمه جزءين لكثرة ورقه ، ويقول :
« علقت عليه ما يناسب من شرح الوقائع ، وذيلته بما يلزم من تفسير الغريب ، تتميا للفائدة ، وإجزالا للعائدة ، ووقوفاً بالقارىء على أسرار الكلام وأنحائه ، وما يطوى من الحكم والنكت فى أثنائه ، خصوصاً وأن اكتناه الأسباب ضرورى لتفهمِ المسائل ، وأن معرفة الوقائع التاريخية تزيد فى حلاوة الكتب والرسائل »[2] .

ثم يورد شكيب ترجمةً للصابى ، يأخذها عن أبى منصور الثعالبى وغيره ، مع تلخيص وتصرف كما يقول[3] ، ويستطرد عقب هذا فيسرد أخبارَ الفتنة بين الأتراك والديلم بالأهواز ، وبعد أن يتم سردها يقول : « وقد استوفينا شرحَ هذه القصة ، لأنها من أحسن ما رُوى فى الوفاء والبر بالأهل ، وهكذا وهكذا ، وإلا فلالا »[4] .

ولا شك أن الأمير فى تعليقاته وشروحه وحواشيه أديب مؤرخ لغوى ،

---

(١) المختار من رسائل الصابى ، ص ٢ و ٣ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٤ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٠
(٤) المصدر السابق ، ص ١٤

وهو يستفيء المراجعَ في تعليقاته ومراجعاته ، ويستعين فيها بالمعجمات والآيات والأحاديث والأمثال والأشعار وكتب التاريخ والأدب ، ويناقش الصابي أحياناً .

ولاشك أنه مشكور أيضاً شكراً جزيلا على سَبْقه في نشر هذه الآثار الأدبية في وقت قلَّ فيه النشر ، وقلت وسائله ، ولم تكن الطباعة ولا وسائل النشر والتحقيق قد تيسرت بالشكل الذي نراه الآن .

ولكننا نلاحظ الاستطرادَ المتكرر عند شكيب ، فهو مثلا عند ما يأتي في الكتاب ذكرُ رسالة موجهة إلى القرامطة ، يسارع إلى الاستطراد الطويل جداً ، فيأتي على تاريخ القرامطة ، معولاً في أكثر كتابته على ابن الأثير ، ويستمر في ذلك حتى يستغرق أكثر من خمس عشرة صفحة[1] . وهذا يُعتبر بحثاً مستقلا ! تدع إليه مناسبة سوى مجيء ذكر القرامطة ! .

ولكن الأمير يعلم أنه يستطرد ، ويرضى بهذا ، وإن كان يسوغه أحياناً . فهو يذكر « رسائل الصابي » في إحدى مقالاته ويذكر أنه طبعها وعلّق عليها حواشي ، ثم يعلل لذلك بقوله : « لأنه كُتِبَ عليَّ فيما يظهر أن أكون محشياً »[2] .

ويقصِّر شكيب في التعليق أحياناً ، فعند ما يقول الصابي : « فإن المستحب في الحدود أن تقام بالبينات وتدرأ بالشبهات » يقتصر شكيب على تعليقه على كلمة « المستحب » بقوله : « وفي رواية ابن الأثير : فإن (الواجب) بدل (المستحب)[3] » .

ويسكت شكيب ، وكان الواجب عليه أن يفرِّق بين الروايتين ، وأن يعتمد روايةَ ابن الأثير لأنها هي الصحيحة ، إذ لا يستحب إقامةُ الحدود بالبينات ودرأها بالشبهات فقط ، بل إن ذلك واجب مفروض شرعاً .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٤٦ — ٢٦١ .
(٢) جريدة الشورى — ٢٠ أغسطس ١٩٢٥ — مقال « من القلب إلى القلب سبيل » .
(٣) رسائل الصابي ، ص ١٠٥ .

وبينما يُعنى شكيب بتفصيل القول فى شرح مفردات كثيرة تراه يترك غيرَها بلا شرح ، وقد تكون المفردات التى تركها أكثر من غيرها حاجة إلى التفسير ، وذلك مثل الكلمات التالية : « يربها — الإدالة — الزِّيال — حَوْبائه — مَوْبِل — التَّوَقُّل — المَقْوة — الثَّـأى — استنطاف » (١) .

كما قد يقصِّر فى تفسير اللفظ ، مثل كلمة « الأمْرَاس » فإنه يفسرها بقوله : « جمع مرس » (٢) ، ثم لا يفسر المرس ، وهو الحبل .

(٥) إلى العرب ، بيان للأمة العربية

طُبع هذا البيان فى كتاب سنة ١٣٣٢ هـ — ١٩١٣ م ، وعنوانه الكامل : « إلى العرب ، بيان للأمة العربية عن حزب اللامركزية » ، وقد ندَّد فيه شكيب بالعصبية الجنسية التى حاول البعضُ إثارة العرب بها على الدولة العثمانية .

هذا وقد أصدر شكيب أيضاً بياناً إلى الأمة العربية سنة ١٩٢٣ يدعو فيه إلى الجامعة العربية ، واشترك معه فيه إحسان الجابرى ، وقد وجَّهاه إلى البلاد العربية وملوكها ، ووزعا منه آلاف النسخ ، وطلبا فيه تكوينَ كتلة عربية ، لأن الخطر شديد على البلاد لو بقى أبناؤها متخاذلين متفرقين (٣) .

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٨ و ٢٧ و ٣٠ و ٤٠ و ٥٧ و ٩٥ و ٨٣ و ١٠٩ .
ويربها : يصلحها ، والإدالة : الغلبة . والزيال . المفارقة . والحوباء : النفس ، والموبل : الشديد من العصا الغليظة . والتوقل : الصعود فى الجبال ، والمقوة . ماحول الدار ، والمحلة ، ونحو : والثأى . الإفساد والجراح والقتل . والاستنطاف : إسالة الماء .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢١٧ .

(٣) مجلة الأديب — السنة السادسة — الجزء الثانى — شباط ١٩٤٧ .

(٦) أعمال الوفد السورى الفلسطينى

طُبع هذا الكتاب فى « المطبعة السلفية » بمصر ، فى ثنتين وخمسين ومئة صفحة من القطع المتوسط ، وذلك فى كانون الثانى (يناير) ١٩٢٣ م . وقد نشرت هذا الكتابَ اللجنةُ التنفيذية للمؤتمر السورى الفلسطينى بمصر .

واشترك فى مواد الكتاب مع شكيب زملاؤه أعضاء الوفد السورى الفلسطينى إلى مؤتمر (جنوى) ، وهم : إحسان الجابرى ، وميشيل لطف الله ، وسليمان كنعان ، وتوفيق اليازجى . والكتاب يضم البيانات والمذكرات والمطالب التى قدمها الوفد إلى مؤتمر (جنوى) وغيره فى القضية السورية ، وذلك خلال المدة من آيار (مايو) سنة ١٩٢٢ إلى تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٢٢ م .

وشكيب كان السكرتير العام للوفد ، فهو إذن الذى يكتب البيانات والمذكرات بحكم منصبه ، ثم هو أكثر زملائه اشتغالا بالكتابة والبيان ، ولذلك نرجّح أنه الذى كتب هذه البيانات والمذكرات .

ومما يدل على ذلك أن شكيب كتب إلى رشيد رضا رسالة تاريخها ٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٢٩ ، يقول فيها :

« الشيء الذى طلبتموه فى كتابكم الماضى ، وهو تلخيص عمل الوفد السورى من بعد انفضاض مؤتمر جنيف إلى الآن ، سأعمله وأبعث به إليكم » .

والمذكرات والبيانات السياسية التى أصدرها شكيب منفرداً أو بالاشتراك مع غيره كثيرة ضخمة ، وهذا هو شكيب يقول فى رسالة لأحد أصدقائه : « وقد تكلمت مع زميلى إحسان بك الجابرى فى قضية ما قدمناه من التقارير إلى جمعية الأمم فى مدى هذه الخمس عشرة سنة دفاعاً عن سورية وفلسطين ، وكلها تقارير مطبوعة لا يلزمها غير الجمع ، فوجدناها تبلغ بضعةَ عشر مجلداً ، وإن أردنا أن نضيف إليها

والكتابات التي صدرت منا إلى المقامات الرسمية الأخرى في موضوعي سورية وفلسطين أنافت هذه المجموعة على عشرين مجلداً »[1] .

وفي موطن آخر يقول : « وعند ما انعقد الاتفاق الأخير في السنة المنصرمة (١٩٣٦ م) بيننا وبين فرنسة ، وتألفت الحكومة الوطنية في دمشق ، أردنا جمع ما تقدم منا [يقصد وفد المؤتمر السوري الفلسطيني إلى أوربة] في الست عشرة سنة المذكورة من النداءات والمذكرات والاحتجاجات إلى جمعية الأمم ، وماوجهناه من المخاطبات إلى رجال الدول ، فوجدنا ذلك يقع في خمسة عشر إلى عشرين مجلداً ، مما تتعذر النفقة اللازمة لأجل طبعه ، فقررنا إهداء هذه الوثائق كلها إلى نظارة الخارجية السورية »[2] .

(٧) حاضر العالم الإسلامي

هذا الكتاب في الأصل من تأليف الكاتب الأمريكي « لوثروب ستودارد » .

وقد ألفه صاحبه ونشره سنة ١٩٢١ ، وتحدث فيه عن حاضر المسلمين ، وقد ترجمه إلى العربية الأستاذ عجاج نويهض مساعد السكرتير العام للمجلس الإسلامي الأعلى بفلسطين حينئذ ، وأمضى في ترجمته سنتين[3] ، ثم قدَّمه إلى الأمير شكيب الذي علَّق عليه تعليقات كثيرة ، ووضع له حواشيَ كبيرة حتى كاد يضيع أصل الكتاب بين فيضان التعليق والتحشية ، وأصبح الكتاب لا يُنسب إلى مؤلفه ، ولا إلى مترجمه ، بقدر ما يُنسب إلى الأمير شكيب .

وقد ظهرت الطبعة الأولى من الكتاب سنة ١٩٢٥ م — ١٣٤٣ هـ بالمطبعة السلفية بالقاهرة ، في ألف صفحة بحروف دقيقة في مجلدين .

---

(١) مجلة الشباب ـ العدد ٣٣٦ ـ ٣ مارس ١٩٣٧ .
(٢) كتاب السيد رشيد رضا ، ص ١٥٨ .
(٣) جريدة الشورى ، عدد ١٦ إبريل ١٩٢٥ .

وفى فبراير سنة ١٩٢٧ زار الأمير شكيب صديقه العالم الاجتماعى الدكتور « لوثروب ستودارد » فى مدينة بوسطن فى أمريكة بدعوة منه ، وجرى بينهما حديثٌ عن الكتاب [1] .

وفى سنة ١٣٥٢ هـ — ١٩٣٣ م أعيد طبعُ الكتاب فى مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه بمصر ، بعد أن ندرت نسخُ الكتاب ، وبيعت بأثمان عالية [2] ، وبعد أن عاد شكيب إلى النظر فى حواشيه ، وزاد فيها وتوسَّعَ ، فأطلق القلم فيها عِناناً ، وأرهف للتحقيق سِناناً ، ولذلك ظهرت هذه الطبعة فى أربعة أجزاء [3] بدلا من جزءين .

وقد جاءت تحت عنوان الكتاب هذه العبارة : « وفيه فصول وتعليقات وحواشٍ مستفيضة بقلم أمير البيان والمجاهد الكبير الأمير شكيب أرسلان » .

ويقول شكيب عن الكتاب فى مقدمته للطبعة الثانية منه :

« أما كتابنا هذا فى أجزائه الأربعة هذه المرةَ فإنه — إلى أن يُتاح للإسلام حظُّ هذا العمل الكبير [4] — يكون من الكتب التى تفى بجانب من هذا العوز ، ويجوز أن يقال إنه مَعْلَمَة إسلامية صغيرة ، بل هو فى المباحث الجغرافية والتاريخية والإحصائية عن أقطار الإسلام النائية وبقاعه المجهولة فذٌّ فى بابه .

وكذلك يمتاز هذا الكتاب بالمباحث السياسية التى قُيِّض لمحررها أن يعلها من عَين صافية ، وأن يقف على الرواية الوُثْقَى منها بطول خبرته ، وقرب سَنَده ، واستمرار مزاولته لهذه الأمور من سبع وأربعين سنة .

---

(١) جريدة الشورى — السنة الثالثة — عدد ١٧ مارس ١٩٢٧ .

(٢) حاضر العالم الإسلامى — ج ١ ص (ج) مقدمة الطبعة الثانية .

(٣) الجزء الأول فى ٣٧٥ صفحة ، والثانى فى ٤٠٧ ، والثالث فى ٣٩٨ ، والرابع فى ٤٠٨ من القطع الكبير ، فتكون صفحاته قد زادت عن ألف وخمسمائة صفحة .

(٤) يشير إلى اقتراحه بوضع معلمة إسلامية وافية (دائرة معارف — موسوعة) .

وفيه بعدُ تراجمُ وأخبار ، لم يسجلها كتاب ، ولا جرى بها قلم ، فلا يجدها الناشدُ في غيره ، إذ هي نتيجة مشاهدات الكاتب ، وما رآه بالعين ، وما سمعه بالأذن ، وما كان له فيه أخذ ورد »[1] .

***

ومن الواضح أن شكيب في تعليقاته قد استطرد أحياناً ، وتوسَّعَ أحياناً ، وأطال أحياناً ، وكان يلخِّص من هنا ، وينقل من هناك ، حتى يقول مثلاً عن الحبشة واضطهادها للمسلمين : « وأنا نفسي كتبت في هذا الموضوع ، في حواشي (حاضر العالم الإسلامي) أربعين صفحة ، هي زُبْدة ما أخذته من التواريخ العربية والأوربية »[2] .

وقد حدثني الأستاذ محب الدين الخطيب صاحب مجلة (الفتح) أن أغلب تعليقات شكيب على كتاب (حاضر العالم الإسلامي) لم يكتبها خصيصاً للكتاب ، بل كانت عنده من قبل ، والتمسَ لها المناسباتِ في الكتاب ووضعها .

وهناك من أثنى على هذه التعليقات والحواشي ، كالأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي الذي أهدى إليه شكيب نسخةً من الكتاب ، فكتب إليه النشاشيبي يقول :

« ذكَّرتْني هذه الحواشي بقولين لإمامين : قيل لأبي بكر الخوارزمي عند موته : ماذا تشتهي ؟ . قال : النظر في حواشي الكتب . وقال أستاذ الدنيا جار الله [الزمخشري] : الزيت مُخُّ الزيتون ، والحواشي مِخَخَةُ المتون »[3] .

---

(١) حاضر العالم الإسلامي ، ج ١ — المقدمة ، ص (هـ) .

(٢) مجلة الفتح — السنة التاسعة — العدد ٤٤٤ — ٦ صفر ١٣٥٤ هـ — ١٩٣٥ م مقال « فرصة لتحسين حال مسلمي الحبشة » .

(٣) كتاب أناتول فرانس في مباذله ، هامش ص ٩٠ . والمخخة (بكسر ففتحتين) : جمع مخ (القاموس) .

وهناك من حمَلَ على هذه التعليقات ، وانتقد طريقة تلك الحواشى . كالدكتور زكى نجيب محمود، الذى يقول : « أما حواشى الأمير فليس إلى حصرها سبيل ، وكلها شيِّق ممتع ، ولكنها عندى قد خرجت بالكتاب عما يجب أن تكون عليه الكتب من تركز فى موضوع بعينه ، وأدنته من دوائر المعارف التى من شأنها أن تجمع بين دفاتها شتيتاً من ضروب العلم والمعرفة ، وهو يعترف بذلك فى المقدمة » .

ثم يقول : « ومهما يكن من أمر هـذه الفوضى فى التآليف التى لا نطمئن إليها ولا نرضاها ، فهو كتاب جليل القيمة كبير النفع[1] » .

والسيد رشيد رضا — وهو صديق شكيب وأخوه — يتلطف و يتدرج في نقد الطريقة التى سار عليها شكيب فى الكتاب ، فالسيد فى مقال له عن الكتاب يقول : إن مترجم الكتاب عَرَضَه على الأمير فكتب له مقدمة ، « ولكنه أربَى فى الكرم ، فوضع على الكتاب حواشىَ وذيولاً لا يصح فى وصفها قول العرب : على التمرة مثلها زُبْداً ، بل تُرْبِى على صحائف الأصل عَدّاً ، ولعلها أمدت مادته بضعفيها مدا ، فهى بطولها واستطرادها تضاهى الحواشىَ الأزهرية .

ولا غَرْوَ فروحُ الأمير العلمية والأدبية أغلبُ عليه من روحه الاقتصادية والاجتماعية ، فإنه لو جعل هذه الحواشىَ كتاباً مستقلاً لكان أليقَ بمقامه ، وأجدر بإفادتها من جعله إياها تابعةً لغيرها ، ولكان له منها ربح مالى يزيد على ربح الكتاب الأصلى ، بل ربما زاد عليه موشًّى وموشَّحًا بها أيضاً .

فإن أكثرها موضوعات مستقلة بنفسها ، وما فيها من إيضاح لبعض غوامض الكتاب ، أو استدراك عليه هو أقلها ، ولكنه — على ما يظهر من معرفته لقدر نفسه ، وعلى ما يقول بعض حسَّاده أو مكبرى فضله من إعجابه بها — كثيراً

---

(١) مجلة الرسالة ، السنة الثانية — العدد ٤٣ — ٣٠ إبريل ١٩٣٤ ، مقال (حاضر العالم الإسلامى) .

ما يهضمها ، ويضعها تواضعه دون ما رفع الله من قدرها ، ومن ذلك ظنه أن جعل هذه الحقائقَ الثمينة ذيولاً لترجمة هذا الكتاب أحرى باستمالة الناس إلى مطالعتها ، كأنه لم يشعر بأنه أشهر من صاحب الكتاب لدى قراء العربية ، ولم يستشعر أن الثقة به فى شئون الإسلام أقوى من الثقة بذلك عند جميع الشعوب الإسلامية ، وغيرهم من الشعوب الشرقية ، وكثير من علماء البلاد الغربية[1] » .

ويعود السيد رشيد رضا بعد ذلك فى إحدى رسائله إلى شكيب ليقول له عن حواشى الكتاب إنها « بلغت من الطول المشذَّب مبلغاً ترك الأصل الذى وضعت عليه أثراً بعد عَيْن ، أو كهلال الشك لا تدركه كلُّ عين ، وصارت قراءة كل منهما مع الآخر مضيعةً لكل منهما ، وقراءتُه وحده لا ترتاح إليه الأنظار ارتياحَها لو لم يكن معه ما يشغل عنه » .

ثم شبه رشيد هذه الحواشى بشرح ديوان البارودى ، فإنَ الشارح يشرح البيتَ بصفحة أو صفحات ، باستطرادات كثيرة ، ولذلك لم يَرُجْ الديوان .

ويقترح رشيد على شكيب جعلَ هذه الحواشى كتاباً مستقلاً فى تاريخ الإسلام[2] .

ويعلق شكيب على كلام رشيد بأنه ما كان ينوى هذا الطول ، ولكن الكلام أخذ يتسع تدريجاً ، وصارت التعليقات تزداد طولا ، بحيث صارت الحواشى ثلاثةَ أرباع المطبوع ، ويرى شكيب أنه لو أفرد هذه الحواشى بكتاب لَما راجت ، لِما « فى طباع الشرقيين عموماً من الاحتفال بكلام المؤلف الأوربى أو الأمريكى بنوع خاص » .

---

(١) مجلة المنار ، الجزء الثالث ، ص ٢٢٤ . وكتاب السيد رشيد رضا ، ص ٢٤٣ .

(٢) كتاب السيد رشيد رضا ، ص ٢٣٦ . من رسالة بتاريخ ٢٣ من المحرم ١٣٤٢ هـ . والمشذب : الطويل .

ثم يذكر شكيب كتأييد لكلامه هذا أن الكتاب بحواشيه لاقى رواجاً كبيراً حتى نَفِدَت نسخُه ، وأعاد طبعَه ، وضاعف حواشيه حتى صار متن الكتاب بمقدار الثمن[١] !.

ويعود رشيد ليلوم أخاه على إعادة طبع التعليقات مع الكتاب ، ويعدِّل اقتراحه السابق ، بأن يقسم شكيب التعليقات إلى موضوعات ، وينشر كلَّ موضوع فى كتاب مستقل ، فيجعل موضوع « دعاة النصرانية » كتاباً ، وما كتبه المستشرقون فى الإسلام ونبيه صلى الله عليه وسلم كتاباً ، وهكذا[٢] .

٭ ٭ ٭

ورأيي أن الكتاب متعب بصورته الحاضرة ، وكان خَطْبه محتملا نوعاً ما فى طبعته الأولى ، ولكن الاستطراد زاد ، والحواشي امتدت ، وليس من السهل أن نسلِّم لشكيب بأنه كتبَ التعليقات من أجل الكتاب ، وأنها طالت على الرغم منه ، ولكن المعقول أن كثيراً من هذه التعليقات كانت بحوثاً جاهزة ، ونقلت برمتها إلى الكتاب ، وقد ضاع على القارئ متابعةُ الكتاب الأصلى المترجَم ، لأنه غرق بين طوفان التعليق والتحشية ، حتى يصعب على القارئ أحياناً التمييزُ بين الأصل والتعليق .

وليس فى هذا أى استهانة بقدر التعليقات ، فإنها تدل على علم غزير ، واطلاع واسع ، وإدراك لأحوال المسلمين فى حاضرهم وماضيهم ، ويظهر أن شكيب أراد أن يضع نواة لدائرة معارف إسلامية ، ولكنه لم يلتزم — ولو من ناحية المنهج والشكل على أقل تقدير — طريقةَ وضع دوائر المعارف ، ولذلك أؤيد الاقتراحَ الداعى إلى فصل التعليقات عن الأصل المترجم ، بحيث لا يبقى منها سوى ما فيه جلاءٌ لإبهام ، أو تصحيح لخطأ ، أو توضيح لغامض ، ثم تُطبع هذه التعليقات مستقلة ، بعد ترتيبها وتنسيقها ، وجمع الأشباه مع الأشباه ، وربط النظائر بالنظائر .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٣٣٧ و ٣٣٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٧١٦ . من رسالة بتاريخ ١٩ ربيع الآخر سنة ١٣٥٢ هـ .

(٨) أناتول فرانس فى مباذله

هذا الكتاب من تأليف « جان جاك بروسون » ، وهو يدور حول مذكرات الكاتب الفرنسى المشهور « أناتول فرانس » المولود سنة ١٨٤٤ م فى باريس ، والمتوفى فى أكتوبر سنة ١٩٢٤م .

وقد ترجمه شكيب ، وقدّم له وعلّق عليه ، وقد طبعته المطبعة المصرية بمصر فى ثلاثمائة وعشر صفحات من القطع الكبير ، وبهوامشه تراجم كثيرة أوربية ، ومعها صور أصحابها ، وفيه كذلك تعليقات لغوية وجيزة للناشر إلياس أنطون إلياس ، ويبدو أن شكيب ترجم هذا الكتاب سنة ١٩٢٥ ، لأن مقدمته مؤرّخة بهذا التاريخ : « مرسين فى ١٥ يوليو سنة ١٩٢٥ » ، وكان شكيب مسرعاً فى الترجمة والإعداد للطبع ، ولذلك يقول فى نهاية المقدمة :

« وقد وافقت هذه الترجمةُ أياما عدتنى فيها عُدَوَاء الانشغال عن إيتاء التنقيح حقَّه ، وإبلاغ التمحيص شأوَه ، بل كنت أنقله من النص الإفرنسى رأساً إلى المسودة المعَدَّة للطبع بدون تبييض ، حتى أخرجتهُ كلَّه فى ثلاثة أشهر لا غير ، وأنا أتمنى لو كان فى الوقت مُنْتَدَح أوسع ، فأبذل فيه أكثر مما بذلت من الجهد[1] » .

وقد ظهر الكتاب فى ربيع سنة ١٩٢٦ م .

وقد ترجم شكيب هذا الكتاب لعدة أسباب يراها ، منها :

١ — أن أناتول فرانس كان شديدَ المحافظة على القديم من اللغة ، مع كونه عصرىَّ الأفكار ، والواجب أن ننسج فى بياننا على منوال السلف ، كما نسج أناتول .

---

(١) أناتول فرانس فى مباذله ، ص ٩٤ . والعدواء . الشغل يصرفك عن الشىء ، والأرض اليابسة الصلبة ، والمنتدح : سعة .

٢ — يتحتم على ناشئتنا السير مع العصر الحالى فى كل ما يتمحص من الحقائق الكونية ، وتتقرر فائدته من المناحى الاجتماعية ، بلا إخلال بوحدة اللغة وصفائها ، فنجمع بين التالد والطريف .

٣ — إطلاع من لا يعرفون الفرنسية على خلاصة عن أكبر أديب فرنسى فى هذا العصر ، لعجزهم عن مطالعتهم بالفرنسية .

٤ — التعريف بأعاظم الأوربيين وأعلامهم الذين جاء ذكرهم فى الكتاب ، مع الإشارة إلى المسائل الاجتماعية والآراء الفلسفية المتداولة عندهم ، مما هو أحرى بكل أديب عصرى ألا يفوته علمه ، وذلك فى توسط ، وبلا إطالة .

ولكن هناك أسباباً كان من المتوقع أن تصرف شكيب عن ترجمة هذا الكتاب ، منها : أن أناتول فرانس « وافق بالقلم واللسان على مبادئ الشيوعية الروسية[١] » ، وشكيب لا يؤمن بهذه المبادئ ، ويعرف مخالفتها لمبادئ الإسلام . وقد ذكر هذا فى الكتاب دون أن يعلق عليه[٢] .

ومنها أن أناتول فرانس كان « منكراً للوحى ، قائلا بدين الطبيعة[٣] » ، وشكيب يؤمن بالوحى ، ويقول بدين الله الإسلام ، وقد ترجم شكيب هذا ولم يردّ عليه .

وقد ذكر أناتول فى كتابه مجوناً كثيرة لم يستطع شكيب ترجمتها وإطلاعَ القارئ العربى عليها .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٨٩ و ٩٠ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١١ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٦ .

وأناتول نفسه يقول لكاتبه جان جاك بروسون : « وغاية ما أتقدم به إليك ياولدى هو أن لا تنشر شيئاً من كل هذا[١] ما دمت أنا حياً ، لا سيما أنه ليس عليك أن تنتظر طويلا ، فإنك إن فعلت أوقعتها بينى وبين كثير من الناس ، فمتى صرتُ مضطجعاً تحت البلاطة فاجعلنى أقول كلَّ ماتشاء »[٢] . ولا عجب فهو ينكر التوحيد ، ويهزأ بالأديان ، ويسخر من الفضائل ، ويمجد الشهوات ، ولا يستحى ، وإنما يخشى الوقيعة بينه وبين الناس فقط ! .

ويرى أناتول أن المدنيــة انخرمت بظهور النصرانية ، ولم تظهر إلا فى عهد التجديد بإيطالية فى القرن الخامس عشر[٣] . ولم يشر أناتول إلى « المدنية الإسلامية » ، وشكيب مؤمن بها ، ومع ذلك لم يُظهر هنا غضبته لحق هذه المدنية المهضوم .

ولـكن يظهر أن كتابة أناتول فرانس التى حافظ فيها على القديم ، وعنايتــه الـكبيرة باللغة ، وحرصه على مناهج السلف ، حتى يقول عنه الأديب الفرنسى « بول سوداى » : « كانت تتألق على كلامه ديباجة الأولين » — يظهر أن هــذه الأسباب تغلبت عند شكيب على الأسباب السابقة التى كانت ينبغى أن تصرفه عن الترجمة ، ولو من وجهة نظر شكيب المتمثلة فى آرائه ومبادئه .

* * *

ويشير شكيب إلى آراء أناتول الدينية المتمردة ، ويذكر أنه تصرف فى الترجمة بالحذف قائلا : « وقد حــذفنا كثيراً من الألفاظ التى استعملها فى هذ المقام »[٤] .

---

(١) يقصد المذكرات .
(٢) المصدر السابق ، ص ٩٦ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٦ .
(٤) المصدر السابق ، ص ٥٢ (بالهامش) .

وهو يحذف من الكتاب صفحات وموضوعات ، فتارة يحذف شيئاً لأنه لا يليق ، وتارة يحذف أشياء لأن الفضيلة تأباها ، وتارة يحذفها لأنها تفاصيل لا طائل فيها ، وهكذا [١] ، حتى إنه يقول : « كما طوينا كثيراً من الفصول برمتها . واجتزأنا من بعضها بالقليل الذى يغنى عن الكثير » [٢] .

وكان ينبغى لشكيب أن ينصرف عن ترجمة الكتاب ما دامت فيه أجزاء لا ترضيه ، أو لا يريد ترجمتها . لأن الحذف بهذه الصورة يجد من يعارضه بحجة الأمانة فى النقل . وما دام قد نفّذ خطته ، فمن حقنا — بل من واجبنا — أن نقول إن الكتاب « مختارات من كتاب أناتول فرانس فى مباذله » .

ومع هذه الملاحظات نجد للكتاب أهميةً وقيمة أدبيـة كبيرة ، ذلك لأنه وَصَلَ للقراء العرب بالأدب الفرنسى فى وقت مبكر من عصر نهضة الترجمة ، لأن الكتاب مترجَم سنة ١٩٢٥ م . وفى الكتاب إشارة موجزة إلى المذاهب الأدبية المختلفة ، وفيه كثير من الألفاظ والمصطلحات اللغوية التى أوردها شكيب ، وفيه مناصرة للغة النقية والمحافظة على الأسلوب الجزل ، وفيه تراجم كتبها شكيب فى إيجاز لعشرات وعشرات من أدباء فرنسة وشعرائها .

ولذلك يقول الأستاذ أحمد حافظ عوض عن الكتاب : « وهو وإن يكن كتاباً مترجماً عن رجل فرنسى عظيم ، فإن التعليقات والشروح واختيار الألفاظ العربية فى الترجمة والتعبيرات ، تدل على أن الأمير فى هذا الكتاب قد قدم للغة العربية خدمةً عظيمة فى التعريب ، وفى شرح المعانى الفرنسية ، هذا غير ما زاد فيه من وصف وشرح » [٣] .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٩٠ و ٩١ . وفى هاتين الصفحتين ذكر شكيب الصفحات والموضوعات التى حذفها ، وهى كثيرة .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٧٢ .

(٣) جريدة الأسبوع ، أول ديسمبر ١٩٤٦ نقلا عن كتاب ذكرى الأمير شكيب أرسلان ص ٨٥ . وجريدة الأسبوع هى مجلة أسبوعية كانت يصدرها بالقاهرة إدوارد عبده سعد من سنة ١٩٣٣ م إلى سنة ١٩٤٧ م .

ويقول المرحوم مصطفى صادق الرافعى لمحمود أبو رية من رسالة :.

« اشتر (أناتول فرانس فى مباذله) ، فإن لغة شكيب فى ترجمته موفقة فى ألفاظها ، كأنه نثل له من القاموس نثلا ، والكتاب فيما عدا أفكار الإلحاد محصول عقلى يفيدك جداً » (١) .

ويظهر الفرق واضحاً بين أسلوب الترجمة فى « رواية آخر بنى سراج » وأسلوبها فى كتاب « أناتول فرانس فى مباذله » ، ففى هذا الكتاب الذى معنا تبدو الترجمة مشرقة ، وكأن الإنسان يقرأ كتاباً مؤلفاً ، وفى نحو ذلك يقول الأستاذ محمد كرد على : « وقد جوّد الأمير الترجمة التى لا تشعر بأنك تقرأ كتاباً مترجماً ، وأحسن ما شاء الإحسان بتعليق حواشٍ على المتن تبيّن الغامض ، ولا سيما من تراجم العظماء الذين وردت أسماؤهم فى كلام (فرانس) ، أو الوقائع التى أشار إليها ، بحيث لا يحتاج الناظر العربى فى الكتاب إلى الرجوع إلى شىء آخر لإدراك النص الأصلى والتشبع بروحه الحقيقى » (٢) .

ومن الملاحظات التى لاحظناها على الكتاب أنه أطال فى صدره بإيراد الكلمات والمراثى التى قيلت فى أناتول فرانس ، ونُشرت فى الصحف ، أو ألقيت فى حفلات التأبين ، حتى استغرق فى ذلك نحو خمسين صفحة ، وكان يمكن تذييل الكتاب بهذه الكلمات ، لا أن تتصدر فتشغل القارىء عن الموضوع الذى يشير إليه عنوان الكتاب .

وكذلك وضع بعد الكلمات السابقة خلاصة لكتاب اسمه « محادثات مع أناتول فرانس ، أو هواجس العقل » لمؤلفه الكاتب الفرنسى « نقولا سيغور » ، ويعلل شكيب إيرادَ هذه الخلاصة بقوله : « لم نشأ إغفالَ هذا الكتاب من بين التراجم التى قرأناها لأناتول فرانس ، علماً بأن أحسن التواريخ وأوثق التراجم

---

(١) رسائل الرافعى ، ص ١٢٠ .

(٢) مجلة المجمع العلمى العربى ، المجلد السادس ، ص ٣٣٠ .

ما كان عن مشاهدة بالعيان ، وسماع بالآذان[١] ، وانتخبنا منه الخلاصة الآتية »[٢].

واستغرقت هذه الخلاصة أربعين صفحة ، وكان يمكن وضعها كذلك ملحقاً للكتاب . ولم يبدأ كتاب جان جاك بروسون عن أناتول — وهو الأصل — إلا فى الصفحة الخامسة والتسعين ! .

(٩) لأنحتى إلى المسيو جوفنيل

فى عدد ١٤ يونيه سنة ١٩٢٨م من جريدة « الشورى » ذكر الأمير شكيب تحت عنوان : « لأنحتى إلى المسيو جوفنيل[٣] سنة ١٩٢٥ وافتراء المفترين من حولها » أن الأمير ميشيل لطف الله وجماعته أخذوا عليه أموراً كثيرة بما شاءت أهواؤهم ، ثم يقول : « وجدت من الواجب لعدم تهور الناس فى تصديق شىء من هذه الأضاليل أن أنشر رداً على بيان لطف الله وزمرته ، ووضعت رداً مشبعاً على فرية من أقوالهم ، وجاء ذلك فى نحو ١٥٠ صفحة تضمنت أكثر الأشياء التى أدت إلى الخلاف بيننا وبين هؤلاء الجماعة » .

ثم يذكر أن كثيرين طلبوا وقفَ هذه المناقشات ، فطواها شكيب على غرها ، ولكن الطائفة ازدادت تمادياً فى التعرض لشكيب بالتلميح والتصريح ، فبدأ شكيب بنشر هذه الرسالة فى جريدة (الشورى) ابتداء من عدد ٢١ يونيه ١٩٢٨ بعنوان « من أسرار السياسة السورية » ، وبعد أربع حَلَقات من الرسالة بدَّل العنوانَ وجعله « نظرة فى رد لطف الله وجماعته » ، ونشر تحت هذا العنوان أربع حلقات أخرى من الرسالة[٤] .

---

(١) يظهر أن سيفوز كان صديقاً لأناتول فرانس . انظر ص ٤٧ من كتاب « أناتول فرانس فى مباذله » .

(٢) المرجع السابق .

(٣) هو المفوض الفرنسى السامى فى سورية حينئذ .

(٤) انظر جريدة الشورى ، السنة الرابعة ، الأعداد ١٨٥ — ١٩٢ .

(١٠) مجلة الأمة العربية

هذه مجلة شهرية باللغة الفرنسية كان يصدرها شكيب في جنيف، بالاشتراك مع زميله في الكفاح إحسان الجابري، دفاعاً عن العرب وقضاياهم، وتعريفاً للذين يطالعون الفرنسية بأحوال الأمة العربية، ولعله من هنا جاء اسمها.

وقد صدرت هذه المجلة في شهر مارس سنة ١٩٣٠ وشعارها أنها « مجلة سياسية أدبية انتقادية اجتماعية، لسان الوفد السوري الفلسطيني لدى جمعية الأمم، تخدم مصالح البلدان العربية ومصالح الشرق »، وصفحاتها بين الأربعين والخمسين.

وقد اشتمل العدد الأول منها على الموضوعات التالية:

كانت مقدمة المجلة في (نشأة العرب المستأنفة)، وتليها مقالة عن (حالة سورية السياسية)، وتليها مقالة عن (السياسة الاقتصادية في لبنان وإلغاء المدارس فيه)، وتليها (تصريحات للسيد عبد الحميد كرامي عميد طرابلس الشام)، وبعدها مقالة عن ذكرى (استقلال سورية في ٨ مارس سنة ١٩٢٠)، وتليها مقالة (تأمل قليل بمناسبة نازلة الجنوب الغربي من فرنسة)، ثم بحث عنوانه (الصهيونية إلى الهاوية)، ثم فصل عن (ظفر ابن سعود)، ثم مقال (التجدد التركي والمدنية العربية)، وختام العدد قطعة للكاتب الفرنسي الشهير « كلود فارير » عن (حمراء غرناطة) [١].

وجاء في كتاب (عروة الاتحاد) عن المجلة هذه العبارة:

« وأما مجلة (لا ناسيون آراب) العربية المنهج الفرنسية الملهج، التي كان يصدرها عطوفته [٢] وإحسان بك الجابري من أعضاء الوفد السوري الفلسطيني،

---

(١) جريدة الشورى، السنة السادسة — العدد ٢٧٠ — ١٧ ذي القعدة ١٣٤٨ — ١٦ أبريل ١٩٣٠.

(٢) يقصد الأمير شكيب.

ثم صار يصدرها وحده ، فإنها تصدر من عشر سنوات فى جنيف . والجزء الواحد منها كان يكلفهما خمسين جنيهاً ، وقلما كان يأتيهما من بدل الاشتراك ما يقوم بثلث مصاريف المجلة »[١] .

وفى رسالة من شكيب إلى رشيد بتاريخ ٧ من المحرم ١٣٥١ هـ (١٩٣٢ م) يشكو من عسر حالته المالية ، وقلة الاشتراكات فى مجلة الأمة العربية ، ولهذا تأخر شكيب أربعةَ أشهر حتى أصدر العددَ الأخير من المجلة ، ويقول : « وربما آخر عدد إن لم تأتنا الاشتراكات المتأخرة » . وكان يوزّع منها فى أوربة نحو من ألف نسخة مجاناً بلا عوض ، وذلك على رجال الحكومات ، وعلى مشاهير السياسيين ، والنواب والشيوخ ، وأمهات الصحف الأوربية ، وكان يرسل منها ٥٠٠ نسخة إلى فرنسة وحدها[٢] .

ولما ثقلت وطأة الإنفاق على المجلة ، انتقد السيد رشيد الأميرَ فى رسالة له ، قال فيها : « وأنتقد كذلك أشدَّ الانتقاد هذه النفقات على مجلتكم الإفرنسية ، وهى فوق طاقتكم ، والأمة التى تخدمونها ، والوطن الذى تخصونه بخدمة هذه المجلة كنودٌ ، لايستحق أهلهُ تضحية مثلكم فى كل هذا ، وثَمَّ ما هو خير له ولكم مما يدوم نفعه »[٣] .

وعلق شكيب على كلام رشيد بما يتضمن دفاع شكيب عن وجهة نظره فى إصدار المجلة ، وثناءه عليها وعلى أثرها ، فقال :

« هى مجلتنا (لاناسيون آراب) التى نشرناها أنا وزميلى إحسان بك الجابرى من سنة ١٩٣٠ م ، فأقبل الناس من المسلمين والأجانب على مطالعتها ، لأنهم رأوا

---

(١) كان اشتراكها عشرة فرنكات سويسرية ، أى نحو أربعين قرشا مصريا (المصدر السابق)
(٢) كتاب عروة الاتحاد ، ص ٨ .
(٣) كتاب السيد رشيد رضا ، ص ٥٧٦ . والكنود : الجحود .

فيها لسانَ حال العروبة والإسلام فى أوربة ، وكانت تظهر لنا علاماتُ اهتمام الدول الأوربية بما كان يُكتب إلينا من تلك الدول فى السؤال عن أعدادها ، والإلحاح فى إرسال ما يفقدونه منها .

ولما كنا نعلم أهمية وجود مجلة فى أوربة تتكلم بلسان الإسلام ، وتدافع عن حقوقه وحقائقه ، وهى محررة بأشهر لغة أوربية ، كنا ملتزمين إصدارَها لفائدتها السياسية والأدبية ، ولم تكن بدلات الاشتراك بها توازى نفقاتنا عليها ، كما هو معلوم من تقصير المسلمين فى تأدية بدلات الاشتراك فى الصحف ، وهذا مما كان يعلمه صاحب (المنار) أكثر من غيره ؛ فقد ضاع له عند المشتركين بالمنار أموالٌ لا تُحْصَى .

كما أننا من سبع سنوات ننفق أنا وزميلى من صُلْب مالنا الخاص على مجلتنا (لاناسيون آراب) ، لاسيما بعد أن منعت الحكومة الإفرنسية دخولها إلى شمال أفريقية وإلى سورية ، ومنعت الحكومة الإنكليزية دخولها إلى فلسطين ، وقد كان قبل هذا المنع لا تقوم بنفقاتها ، فكيف من بعده » [1] ؟ ! .

(١١) لماذا تأخر المسلمون

ولماذا تقدم غيرهم ؟

فى شهر ربيع الآخر سنة ١٣٤٨ هـ — ١٩٢٩ م أرسل الشيخ محمد بسيونى عمران من « جاوه » إلى صاحب مجلة « المنار » رسالةً يثنى فيها على الأمير شكيب ، ويطرى كتاباته الإسلامية فى « المنار » وغيرها ، ويقترح عليه أن يبين لقراء « المنار » أسبابَ ما صار إليه المسلمون من الضعف والانحطاط والذل ، والأسباب

(١) المصدر السابق ، ص ٥٧٧ .

التى ارتقى بها أهل أوربة وأمريكة واليابان ، وهل يمكن أن يصير المسلمون أمثالهم فى هذا الارتقاء إذا اتبعوهم فى أسبابه مع المحافظة على دينهم الإسلامى .

فأحال السيد رشيد رضا صاحبُ « المنار » الكتابَ إلى الأمير ، فأبطأ فى الإجابة قليلا [١] بسبب رحلته فى أسبانية ، ولما رجع منها كتب الجواب منفعلا بالمؤثرات التى أثرت فى نفسه خلال رحلته ، ونُشر الكتاب أولا فى « المنار » ثم طُبع فى كتاب فى أواخر سنة ١٩٣٠ م بمطبعة « المنار » ، وفى أوله مقدمة للسيد رشيد رضا ، وعلى الكتاب تعليقات منه ، كما وضع بعض العناوين خلال الكتاب ، لأن العناوين « كمحطات الطريق للسالكين » [٢] .

وطبع الكتاب طبعة ثانية سنة ١٣٥١ هـ — ١٩٣٢ م فى مطبعة المنار أيضاً ، بعد أن أجرى فيه شكيب بعضَ الإصلاحات بناء على ملاحظات أبداها السيد رشيد رضا ، ولم يوافقه على قليل من هذه الملاحظات ، وقد رد عليه شكيب فى هوامش كتابه عن رشيد [٣] .

وقد طُبع الكتاب للمرة الثالثة فى مطبعة عيسى الحلبى سنة ١٣٥٨ هـ — ١٩٣٩ م بعد أن أضاف إليه شكيب فصلا بعنوان : « أسباب انحطاط المسلمين فى العصر الأخير » [٤] .

ويقول السيد رشيد رضا عن هذه الرسالة :

« وهى هى الرسالة التى :

سارت بها الركبان تطوى نَفْنَفًا فَنَفْنَفَا ، وسَبْسَبًا فسبسبا

---

(١) صحيفة الفتح ، السنة السادسة ، العدد ٢٧٧ — ٩ رجب ١٣٩٠ هـ .
(٢) الكتاب ، ص ٥ .
(٣) كتاب السيد رشيد رضا ، ص ٥٧٨ — ٥٨٤ و ص ٥٨٧ — ٥٩٠ .
(٤) انظر الطبعة الثالثة : ص ١٣٥ — ١٦٤ .

فاضطربت بها بعض دول الاستعمار ، وزلزلت زلزالا شديداً ، حتى قيل لنا إنها أغرت حكومة سورية بمنع نشرها فيها ، وهى أحق بها وأهلها ، فانفردت بهذه المداوة للاسلام دون من أغروها بها » (١) .

وكذلك منعت فرنسة دخولَ هذه الرسالة الجزائر حينئذ ، وجعلت عقوبة لمن يطالعها (٢) .

وقد اقترح الأستاذ محمد تقى الدين الهلالى أستاذ اللغة العربية فى كلية ندوة العلماء بالهند تعميم نشر هذا الكتاب « مصححاً مضبوطاً مشكولا ، ليستوى فى مطالعته الخاصة والعامة ، وأن يُسهم الأغنياء فى توزيع نسخه ، وأن يدرسه المدرسون للطلبة ، وأن يخطب به الخطباء مدة طويلة ، وأن يترجَم إلى اللغات الأخرى » (٣) .

ونحب أن نلاحظ هنا أن شكيب مسبوق بالحديث عن انحطاط العالم الإسلامى فى عصره ، فقد سبقه عبد الرحمن الكواكبى فى كتابه « أم القرى » الصادر فى مصر سنة ١٣١٦ هـ — ١٨٩٨ م ، حيث يتكلم المؤلف فى كتابه هذا عن العوامل التى أدت إلى انحطاط العالم الإسلامى ، على شكل مناقشات تجرى بين مفكرين منتسبين إلى مختلف البلاد الإسلامية ، ويخرج من هذه المناقشات بالدعوة إلى إقامة خلافة عربية من مكة المكرمة (٤) .

---

(١) كتاب الارتسامات ، اللطاف مقدمة رشيد له ، ص ٩ . والنفف : الصحراء ، وكذلك السب .

(٢) كتاب عروة الاتحاد ، ص ٧٤ .

(٣) مجلة الفتح ، السنة السادسة ، العدد ٢٠٨ — ٢٣ صفر سنة ١٣٥٠ . وقد ترجم الكتاب إلى عدة لغات ، وطبع أكثر من مرة (انظر كتاب السيد رشيد رضا ، هامش ص ٥٥٣) . وانظر أيضاً كتاب عروة الاتحاد بين أهل الجهاد ، ص ٧٤ ، ومن اللغات التى ترجم إليها الملايوية ، والهندية ، والسلافية .

(٤) وسائل تقدم المسلمين ، ص ١٤ .

وكذلك هو مسبوق بما كتبه « لوثروب ستودارد » فى كتابه « حاضر العالم الاسلامى » الذى طبع مترجماً أول مرة سنة ١٣٤٣ هـ — ١٩٢٤ م ، أى قبل كتاب شكيب بسنوات .

وشكيب قد اطلع على هذا الكتاب قطعاً ، لأنه علق عليه تعليقات كبيرة كما عرفنا ، وأغلب الظن أنه اطلع على كتاب الكواكبى ، إذ لا يخفى مثله على مثله ، ومع ذلك لم يشر شكيب إلى انتفاعه بالكتابين ، ولا يظهر لكتاب شكيب امتياز واضح عليهما ، ولعل السبب فى عدم الامتياز البارز هو أن شكيب كتب كتابه وهو مثقل بالأشغال ، وكتبه — كما يقول — فى ثلاثة أيام فقط [١] .

وقد يكون من الإنصاف لشكيب أن نقرر أنه أشاد بعد ذلك بكتاب « أم القرى » فى مكان آخر ، حيث كتب فى مجلة « الفتح » تحت عنوان : « نعم العبقرى الكواكبى » ، وأشار إلى العباقرة الذين يرون الأمور وهى فى صدورها وبدايتها كما يراها الناس وهى فى أعجازها وعواقبها ، ثم يقول :

« ومن هذا النمط السيد عبد الرحمن الكواكبى فى (أم القرى) يصف أمراضَ العالم الإسلامى منذ ثلاثين سنة أو أكثر ، بما لو شخصه جميع أطباء المجتمع الإسلامى اليوم لم يقدروا أن يزيدوا شيئاً » [٢] .

وقد ذكر الدكتور سامى الدهان أن كتاب شكيب هذا « رسالة كبيرة » [٣] ، وهذا محل نظر ، لأنها رسالة صغيرة لو نُشرت فى مجلة لكانت ثلاث مقالات أو أربع مقالات فقط ، ولعله انخدع بضخامة حروف الطبعة الثالثة من الكتاب .

ويقول أيضاً إن هذه الرسالة « آية من آيات بلاغته [٤] ارتفع بها إلى مستوى

---

(١) مجلة الفتح ، السنة السادسة ، العدد ٢٧٧ — ٩ رجب سنة ١٣٥٠ .
(٢) مجلة الفتح ، السنة السابعة ، العدد ٣٣٥ — ١٣ ذى القعدة سنة ١٣٥١ .
(٣) كتاب الأمير شكيب أرسلان ، ص ١٥٠ .
(٤) يعنى شكيب .

العالم المصلح الكبير » ، وعندى أنها أشبه بخطبة طويلة النفَس ، فيها من الإثارة والتحميس أكثر مما فيها من البحث والإقناع .

ويقول كذلك: إن شكيب قد كتب الرسالة « وقد بلغ السبعين من العمر » وهذا غير صحيح ، بل كان فى حدود الستين ، لأن الكتاب طُبع سنة ١٩٣٠ م ، وشكيب ولد سنة ١٨٦٩ .

وذكر أيضاً أن آراء شكيب فى رسالته شبيهة بما كتبه الكواكبى [١] ، فلماذا لم يؤاخذ الدهان شكيب على إغفاله ذكر الكواكبى ؟ . . .

وملاحظاتنا العامة على الكتاب وله هى :

١ — أسلوب الكتاب خطابى صحفى ، ولعل السبب هو أنه كتبه ليُنشر فى مجلة ، وكتبه إجابةً على سؤال قارىء ، وكتبه فى زحمة أشغال ، وكتبه عقب رحلة تأثر بها وانفعل فيها لما رآه من أمجاد المسلمين القديمة .

٢ — يكثر من المقارنة بين المسلمين اليوم وأمس ، ليُظهر الفروقَ الواسعة بين هؤلاء وهؤلاء [٢] .

٣ — يُكثر إيرادَ الأمثلة من البلاد الأوربية ومن غير المسلمين ، لاستنهاض الهمم وابتعاث العزائم [٣] .

٤ — إذا كانت هناك أمور يعيبها الأوربيون على المسلمين بلا حق لجأ شكيب إلى الإتيان بأمور مماثلة عند الغربيين ، ليثبت تناقضهم وكذبهم على

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٥٣ .
(٢) انظر الصفحات ٨ و ١٠ و ١٢ و ١٦ .
(٣) انظر الصفحات ١٢ و ١٧ و ١٩ و ٣٨ و ٤٧ و ٥٥ و ٥٩ .

المسلمين ، وكثيراً ما يبين أن الأوربيين هم المصابون بالداء لا أبناء الإسلام [١] .

٥ — يكثر من إيراد الآيات القرآنيـة لتأييد ما يقول [٢] ، والاستشهاد بالحديث قليل .

٦ — هناك بعض تـكرار فى المعانى [٣] .

٧ — يكثر شكيب من الاستشهاد بمطالعاته فى الصحف والـكتب والمراجع التاريخية [٤] .

٨ — يضرب الأمثلةَ من الأحداث التى يجب أن تلتفت إليها الأبصار ، ويواصل الحث على الاهتمام بها ، مثل قضية « الظهير البربرى » ، وفلسطين ، والحرب الطرابلسية [٥] .

٩ — يقع أحياناً فيما يشبه التناقض [٦] ، ففى موضع يؤكد أن الإسلام هو الذى خلق العرب وأنهضهم ، وفى موضع ثان [٧] يقول : « فليترك إذن بعضُ الناس جعلَ الأديان هى المعيار للتأخر والتقدم » . وفى موضع ثالث [٨] يقول : « إن إدخال الأديان فى هذا المعترك ، وجعلها هى معيار الترقى والتردى ليس من النصفة فى شىء » .

---

(١) انظر الصفحات ٢٤ و ٤١ و ٦٥ و ٧١ و ٨٤ .
(٢) انظر الصفحات ١٥ و ٣٥ و ٤٩ و ٦٧ و ٦٨ .
(٣) انظر مثلا صفحتى ١٢ و ٤٤ .
(٤) انظر الصفحات ١٢ و ٢٤ و ٥٥ و ٥٩ و ٨٩ .
(٥) انظر الصفحات ١٧ و ٢١ و ٢٥ و ٢٨ .
(٦) انظر ص ٨ و ٩ .
(٧) ص ٩١ .
(٨) ص ٩٣ .

(١٢) الارتسامات اللطاف فى خاطر الحاج

إلى أقدس مطاف

وهو كتاب يتحدث فيه شكيب عن رحلته لأداء فريضة الحج سنة ١٣٤٨ هـ — ١٩٢٩ م، وعبر عن الكتاب ناشره — وهو السيد محمد رشيد رضا — بقوله : «هى الرحلة الحجازية لأمير البيان ونادرة الزمان الأمير شكيب أرسلان »[١]، كما أن رشيد قدّم للكتاب وعلق عليه وصححه .

وقد طُبع الكتاب لأول مرة سنة ١٣٥٠ هـ — ١٩٣١ م فى مطبعة المنار، فى مائتين وتسعين صفحة من الحجم الكبير . ويذكر مؤلفه أن الفراغ من تبييضه كان « بمدينة لوزان من بلاد سويسرة لأربع خلون من ذى الحجة ١٣٤٩ الموافق ٢٢ أبريل سنة ١٩٣١ م »[٢] . وكتب المقدمة فى ٥ ذى الحجة الحرام ١٣٤٩ بلوزان[٣] .

وقد وصف شكيب فيه مشاهداته فى الحجاز ، كما ذكر التاريخ الماضى لما رأى من المشاهد ، وما ينبغى لها فى حاضرها ومستقبلها .

ويظهر أن غرابة كلمة « الارتسامات » جعلت الكثيرين يخطئون فى ذكرها ، فيقولونها « الابتسامات »[٤] .

ومن حسنات الكتاب أننا نرى صاحبه مولعاً بتتبع الكتابات القديمة المنقوشة على الصخور فى « الطائف » وما حولها ، وقد أحصى كثيراً من هذه

---

(١) انظر غلاف الكتاب .

(٢) الارتسامات ، ص ١٢٨١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٥

(٤) انظر مثلا مجلة الأديب ، عدد كانون الثانى (يناير) ١٩٤٧ ، ص ٧٦ و ٢٣ .

الكتابات ، واستنتج منها نتائج تدل على بصر ودقة فهم [١] . وقد استبدت « الطائف » باهتمام شكيب ، مع وجود غيرها مما يستحق العناية ، ولعل ذلك لطيب هوائها وحلاوة ثمرها ، وقد كان مريضاً .

وكذلك لم يحدثنا عن تنظيم مؤتمر الحج الأكبر ، واستخدامه لفائدة الإسلام ومصلحة المسلمين ، مع أنه توسع فى أمور أخف وزناً من ذلك الأمر الجليل بكثير ، كحديثه عن الرحمة بالمطوِّفين [٢] .

ولم ينبسط حديثه عن النواحى الاجتماعية والأخلاقية والدينية ، ولم يكن لحديث الأدب والثقافة المعاصرة نصيب ملحوظ فى الكتاب ، وقد صَاحَبَ هذا أنه اعتمد على التاريخ أكثر من اعتماده على المشاهدة ووصف الحاضر ، وتوسع فى إيراد التراجم للقدماء بمناسبة قوية أو ضعيفة [٣] .

وقد أكثر من الحديث عن الماء والآبار والعيون والينابيع ، بحيث استغرق ذلك نحو نصف الكتاب ، وهو يعتذر عن ذلك مراراً بقلة الماء فى الحجاز ، وغلائه ، ويظهر أن مرضه بسبب الحر ، واستشفاءه بالطائف ومياهها ، أغرياه بذلك الحديث .

وشكيب يستطرد فى كتابه كثيراً ، كما أشرنا فى غير هذا الموضع ، فهو يتحدث مثلا عن « عرفات » ، ثم يستطرد إلى سيرة الوزير الجواد الأصفهانى جمال الدين ، لأنه أجرى الماء إلى عرفات أيام الموسم ، ولا يكتفى شكيب بالقليل ، بل يظل فى استطراده وترجمته ، حتى يشغل ما يزيد على أربع صفحات [٤] .

وهناك استطراد أطول وأوسع ، فإنه يعرض للحديث عن العمران فى الحجاز ، ثم يستطرد إلى أخبار أخرى فى موضوع العمران ، فيتحدث عن آثار عبد الرحمن

(١) الارتسامات ، ص ١٩٥ — ٢٠٢ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٧١ وما بعدها.
(٣) انظر مثلا من ص ١٤٣ إلى ص ١٧١ .
(٤) من ص ٤٦ إلى ص ٥٠ .

الناصر ، وعن عبد المؤمن صاحب دولة الموحدين ، وعن المنصور السعدى صاحب المغرب ، وعن مولاى إسماعيل سلطان المغرب ، ويستغرق هذا ست عشر صفحة[1] !.

وهو لا يستطرد ساهياً ، ولذلك يعتذر عن استطراده ، فهو يتحدث عن « الطائف » ، ثم يستطرد إلى ذكر ما وقع بين « ابن سعود » وبين « ابن بجاد » و « الدرويش » ، ثم يقول :

« والذى أدّى بنا إلى هذا البحث الذى بَعُدَ كثيراً عن أصل الموضوع خبر واقعة الطائف هذه التى كانت الضربة الثانية التى قضت على عمرانها ، والتى لو أغفلنا ذكرها وأسبابها لم يكن ذلك منا نُصْحًا للتاريخ ، ولكنَّا مسئولين عن هذا الإغفال[2] » .

ويستطرد مرة أخرى حين يتحدث عن الطائف ، فيعرض لمسجد ابن عباس فيها وقبره بها ، ويسرد مناقب ابن عباس ، وبعد صفحات يعود ليعتذر فيقول :

« ولو شئنا استقصاء مناقبه لطال المقال جدا ، لا سيما أن كتابنا هو رحلة إلى الحجاز ، لا ترجمة لابن عباس رضى الله عنه ، وإنما أوردنا ما أوردنا منها ، لأن التراجم الزكية هى خير ما يطرف به الكاتبُ القراء ، ولا سيما القراء الناشئين الذين قد يقتدون بما فيها من الفضائل ، ويتعلمون مكارم الأخلاق ومعالى الأمور ، ونِعْمَ التاريخ الذى يزكى النفوس ويشحذ الألباب »[3] .

ويتحدث شكيب عن فتح النبى صلى الله عليه وسلم للطائف ، ثم يستطرد إلى الحديث عن أسلحة الحروب قديماً وحديثاً ، وقوة المسلمين فى الماضى وضعفهم الآن ، وفى النهاية يقول :

« وأرانى قد بعدت عن الموضوع الذى كنت فيه ، وليست هذه بأول مرة

---

(١) من ص ٥٥ إلى ص ٧٠ .
(٢) الارتسامات اللطاف ، ص ١٤٢ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٥٣ .

جرنا الاستطراد إلى ما هو بعيد عن المقام الذى نكون فيه ، ولكننا فى كل مرة لم نخرج إلى شىء غير مرتبط بأصل الموضوع »[1] .

وهذا تسليم أوضح من الاعتذارات السابقة ، ولو أننا أخذنا برأيه المذكور هنا فى آخر العبارة السابقة ، لما وقف سيل الاستطراد عند حد ، لأن التداعى سينتقل بنا من مجال إلى مجال لأقل مناسبة ، ومن الممكن أن نوجد أية مناسبة !.

ومع هذا الاستطراد المتكرر الذى لا تلجىء إليه ضرورة ، ولا يحرض عليه حافز ، نجد شكيب يترك التعليق الذى ينبغى أو يجب ، فهو مثلا يتحدث عن المسلمين غير العرب ، وتلقين المطوفين لهم صنوف الأدعية والابتهالات والجمل العربية الفصيحة التى تتشقق حلوقهم بقافاتها وحاآتها ، وتتلبك ألسنتهم بضاداتها وثاآتها..

« وكم من مرة يضطر أن يعيد له الكلمة أو الجملة ، وهو يقولها بعكسها ، ويقلبها عن معناها ، ويجعلها عن المراد أبعد من الأرض عن سماها ، وربما أعادها له المطوف ثلاثين مرة ، وهو لا يقيمها ولا يفتأ يغلط فيها[2] » .

فلماذا لم ينقد شكيب هذا ؟ . أليس من الصواب أن يدعو الإنسان ربه باللغة التى يعرفها حتى يدعو بما يريد ؟ . أفما كان الأحسن أن يقترح شكيب إيجاد ترجمات لهذه الأدعية ؟ .

لقد ذكر شكيب نفسه أن هؤلاء المطوفين يعرفون لغات كثيرة[3] ، فلماذا لم يلقنوا هذه الدعوات لغير العرب بلغاتهم التى يفهمونها ؟ .

وكنا ننتظر من شكيب أن يحدثنا فى كتابه عن اللهجات الموجودة فى هذه البلاد ، وعن لغة العامة ، وعن مستوى الثقافة ، ولكنه لم يفعل ذلك ، اللهم

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٩٥ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٧٥ .
(٣) الارتسامات ، ص ٧٥ .

الإشارة سريعة إلى فصاحة أهل « شقرا »[١] وهو أحد الوديان هناك ، وإلى نماء عربية « ثقيف »[٢] أو نحو ذلك ، مع أن هذا الموضوع كان يستحق استحواذه على عناية شكيب المحب للغة ، الباحث عن أسرارها .

(١٣) محاسن المساعى

فى مناقب الإمام أبى عمرو الأوزاعى

طبع هذا الكتاب بمطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه بمصر فى مئة وست وستين صفحة من الحجم المتوسط ، ومقدمة الكتاب بتاريخ ٢٠ ربيع الأول سنة ١٣٥٢هـ — ١٩٣٣م ، وليس على الكتاب غير هذا مما يُستدل به على وقت طبعه .

والكتاب من تأليف الشهاب أبى العباس أحمد بن محمد بن أبى بكر الشهير بابن زيد الموصلى الحنبلى المتوفى بدمشق سنة سبعين وثمانمائة . وهو فى ترجمة الإمام المشهور أبى عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الأوزاعى إمام أهل الشام ، المولود ببعلبك سنة ثمان وثمانين هجرية ، وتُوفى سنة سبع وخمسين ومائة ، ودفن ببيروت على شاطىء البحر .

وقد نشره شكيب بعد تنقيحه وتعليق حواشيه وتصديره ، وذكر لنا أنه عثر على أصل الكتاب مخطوطاً فى المكتبة الملوكية فى برلين ، وأن مؤلفه أكمله سنة ثمان وأربعين بعد الألف [٣] ،

ويذكر شكيب فى أول الكتاب الأسبابَ التى دعته إلى نشره ، وهى أنه

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٦٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٦٧ .

(٣) يقول شكيب إن المخطوط يقول . « فى مناقب الإمام أبا عمرو الأوزاعى » ولا يعلم أهذا من خطأ الناسخ ، أم من نفس المؤلف عملا بلغة : « إن أباها وأبا أباها » . الارتسامات اللطاف ، ص ١٥٠ . والعجيب أنه لم يشر إلى هذا فى الكتاب .

الكتاب الوحيد الذى عثر عليه خاصاً بمناقب الأوزاعى ، وأن الأوزاعى من الطبقة الأولى فى مجتهدى الإسلام ، ولا يتأخر عن الأئمة الأربعة ، وأن الأوزاعى كان إمام أهل الشام ، وظلوا يعملون بمذهبه أكثر من مائتى سنة ، وأن الأوزاعى كان عالماً يطبق العلم بالعمل ، حتى كان يصلح للامامة ، وأنه كانت له جرأة على الخلفاء والأمراء يقل نظيرها ، وأنه دفين بيروت ، وهو مفخرة مسلمى بيروت ولبنان (١) .

ويقول شكيب أيضاً فى كتابه عن السيد رشيد رضا فيما يتعلق بسبب نشره لسيرة الأوزاعى :

« وقد قمتُ بهذا خدمةً لذكرى الأوزاعى الذى كان يقال له إمام أهل الشام ، وكان العمل بمذهبه فى الشام وفى الأندلس ، وكان إماماً لأجدادنا ، وبجوار مقامه مدفون كثير منهم » . وهو يذكر فى أثناء الكتاب محبة عائلته الأرسلانية للامام الأوزاعى ، كما يذكر منها الذين كانوا يختارون أن يدفنوا إلى جواره (٢) .

وفى مقدمة الكتاب يذكر شكيب معونةَ الأساتذة عبد القادر المغربى وعلال الفاسى والحسن أبو عياد (٣) ، وينسب إليهم أو إلى غيرهم ما أمدوه به من معلومات ، وحق لشكيب أن يفعل هذا ، فإنها أمانة العالم ، وهو نفسه قد أبدى إعجابه فى كتابه عن شوقى بأديب الأتراك عبد الحق حامد لأمانته وحفظ حقوق غيره ، فإن عبد الحق قال فى روايته عن طارق بن زياد : « إن الطبيعة من كتب الله المنزَّلة » ، فلما سمع ذلك شكيب منه قال : « ربما كانت أقدمها » فأعجب عبد الحق

---

(١) محاسن المساعى ، ص ٤ — ١٩ .

(٢) كتاب السيد رشيد رضا ، هامش ص ٦٢٤ . ومحاسن المساعى ، ص ١٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٤ . وقد أشار إلى معوناتهم فى الصفحات ٧٣ و ٩٥ و ١١٩ و ١٢١ وغيرها .

حامد بهذا التعقيب ، وأثبت عبارة شكيب فى روايته حين طبعها ، وقال : « هذه الجملة هى من الأمير شكيب أرسلان » .

ويعلق شكيب قائلا : « فقضيت العجبَ من أمانة هذا الشاعر الكبير ، الذى أبى أن ينسب المعنى إلى نفسه ، وأصر على نسبته إلىَّ بالصراحة ، بينما كثير من الشعراء والأدباء ينتحلون أقوالا لم يكونوا هم قائليها » [١] .

ولكن الأمير لا يدوم على نسبة الأشياء لأصحابها ، فنى الكتاب نراه يذكر فى التراجم قوله : « وجاء من فاس » [٢] ، ولا ندرى من الذى كتب إليه من فاس ، وكان عليه أن يوضح ذلك .

* * *

وقد ثار نقاش طويل حول مؤلف الكتاب ، فإن الأمير قد نشره دون أن يذكر فيه اسم مؤلفه ، إذ لم يعثر فى المخطوط على اسم المؤلف [٣] .

وبعد ظهور الكتاب كتب الأستاذ علال الفاسى إلى شكيب يذكر أنه وجد فى فهرس دار الكتب المصرية أن هذا الكتاب تأليف الحافظ الكبير شهاب الدين أحمد بن على بن محمد بن على بن أحمد المعروف بابن حجر الكنانى العسقلانى الشافعى المتوفى فى ذى الحجة سنة ثنتين وخمسين وثمانمائة ، وأنه فرغ من تأليفه فى المحرم سنة خمسين وثمانمائة .

وأن النسخة الموجودة فى دار الكتب بخط عبد الغنى بن عبد الرحمن البنداق ، وفرغ من كتابتها فى الثانى عشر من رمضان سنة ثلاث وتسعين ومائتين بعد الألف .

ويستبعد الأستاذ علال نسبةَ الكتاب إلى ابن حجر ، لأن الكتاب من

---

(١) كتاب أحمد شوق ، ص ١٨١ .
(٢) محاسن المساعى ، ص ١١١ و ١١٢ .
(٣) كتاب السيد رشيد رضا ، ص ٦٢٤ هامش .

الوجهة الحديثية ليس في مقام الحافظ، والذين ترجموا لابن حجر لم يذكروا هذا الكتاب بين تآليفه، ولو سلمنا بأنه من تأليفه، وأنه ألفه قبل وفاته بعامين، لكان معنى هذا أنه قد ألفه بعد أن بلغ غايته من العلم والتحرير، ولذلك يجب التثبت من هذه النسبة (١).

وكتب الشيخ محمد صبري عابدين في مجلة الرسالة يستنكر أن يكون مؤلف الكتاب هو ابن حجر، وأن مؤلفه هو أحمد بن محمد الموصلي الدمشقي الحنبلي المعروف بابن زيد المولود سنة تسع ثمانين وسبع مائة، والمتوفي بدمشق سنة سبعين وثمانمائة، كما ذكر ذلك السخاوي في كتابه" الضوء اللامع " (٢).

ويرى الشيخ أن السبب فى نسبة الكتاب لابن حجر هو — والله أعلم — ما حدث من تحريف فى كلمة « ابن زيد » وتحويرها إلى « ابن حجر » بأيدى جهلة النساخين ، ولا سيما أن ابن زيد اسمه أحمد ولقبه شهاب الدين ، وابن حجر كذلك فى الاسم واللقب ، على أن ابن زيد معاصر لابن حجر ، وسمع منه فى رحلته إلى دمشق كما نص على ذلك السخاوى (٣) .

وكذلك كتب الأستاذ محمد أحمد دهمان فى مجلة المجمع العلمى العربى يثبت أن مؤلف الكتاب هو « الشهاب أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن أبى بكر الشهير بابن زيد » . وكان ذلك تعليقاً على ما ذكره شكيب فى الكتاب(٤) من عدم عثوره على اسم مؤلفه(٥) .

---

(١) كتاب السيد رشيد رضا . ص ٦٢٤ و ٦٢٥ .
(٢) الضوء اللامع ، ج ٢ ص ٧٢ .
(٣) مجلة الرسالة ، السنة ١٥ — العدد ٧٥٥ — ص ١٤١٩ — بتاريخ ٢٢ دیسمبر ١٩٤٧ مقال « مؤلف تاريخ الأوزاعى » .
(٤) ص ٣ و ١٦٥ .
(٥) مجلة المجمع العلمى العربى — من المجلد ٢ — ص ١٨٧ .

وفعل مثل ذلك الأستاذ محمد راغب الطباخ(١)، وذكر أنه أخبر الأمير بذلك، فشكره، ووعده بتدارك ذلك عند إنجازه الطبع.

ومما نلاحظه على عمل شكيب فى الكتاب أنه نقل تراجمَ كثيرة للأوزاعى، عن وفيات الأعيان لابن خلكان، وتاريخ أبى الفداء، ودول الإسلام للذهبى، ومعجم البلدان لياقوت، ومروج الذهب للمسعودى، وخطط الشام لمحمد كرد على، وطبقات الحفاظ للذهبى، والأنساب للسمعانى(٢).

وفى هذه التراجم تكرار وتشابه فى أغلب المعلومات، وكان يكفى ذكر هذه المراجع مع الإتيان بما فى كل مصدر من شىء انفرد به فى ترجمة الأوزاعى. حتى لا يقع هذا التكرار وهذا التطويل، وبخاصة أننا سنجد ترجمة مفصلة للأوزاعى فى محاسن المساعى.

وقد لاحظ مثل هذه الملاحظة السيد رشيد رضا حين قال لشكيب فى رسالة: «رأيتك بالغت فى استقصاء ترجمة الإمام الأوزاعى وتاريخه، حتى لا يعد ترجمة ولا تاريخاً، مما يجعل فى مقدمات التصدير». ويضرب بعض الأمثلة على ذلك ثم يقول له: «وتركت أهمَّ ترجمة له على الإطلاق فى رأيى، وهى ترجمة الحافظ الذهبى له فى (تذكرة الحفاظ) وهى ورقة أو تزيد، ولا شك أنك لم تطلع عليها، وأنك تأذن فى زيادتها(٣)».

ومما نلاحظه فى الكتاب استطراد شكيب فى التعليق، ومن أمثلة ذلك أن يرد اسم «محمد بن إبراهيم» فيعلق عليه بأنه «محمد بن إبراهيم التيمى المدنى»، ثم يستطرد فيترجم لمحمد بن إبراهيم بن عثمان بن حواشى العبسى الكوفى، ثم

(١) المصدر السابق، ص ٢٨٢.
(٢) محاسن المساعى، من ص ٢٥ إلى ص ٤٥.
(٣) كان السيد رشيد يشرف على طبع الكتاب وتصحيحه، وقد أضاف الترجمة فعلا، انظر محاسن المساعى، ص ٣٩. وانظر أيضا كتاب السيد رشيد رضا، ص ٧٠٣.

لمحمد بن إبراهيم بن محمد بن علي العباسي المعروف بالإمام ، ثم لمحمد بن إبراهيم ابن معمر الهذلي[١] .

ومما نؤاخذ عليه الأمير أنه حذف قطعاً من الكتاب ، فهو يقول مثلا : « يلوح لنا دائماً أن في هذا الكتاب جملا ناقصة قد سقطت تكملتها من النسخ . ولهذا قد اضطررنا إلى طيّ بعض جمل برمتها ، وإبقاء أخرى على ما فيها من اضطراب ، والله أعلم بمكان الأصل[٢] » .

وليته أبقى الأصلَ مع محاولة تصحيحه والإشارة إلى ذلك ، وقد يمكن فيما بعد العثورُ على مراجع تقيم الأصل وتصححه وتكمله .

ويعود شكيب إلى الحذف ، فيسقط من الكتاب المراثيَ التي قيلت في الأوزاعي ، ويعلق على ذلك بقوله : « هذه مراثي جماعة من المتأخرين ، قالوها في الأعصر الأخيرة ، لا عند موت الإمام الأوزاعي ، وهي من الشعر النازل الذي لا يليق بمثل الإمام ، وفيها لحن وفيها غلط ، وهي في آخر طبقة شعر الفقهاء ، فلذلك طويناها كلها . واكتفينا منها بالمطالع لا غير[٣] » .

« ما هكذا تورد يا سعد الإبل » ! . كان يجب على الأمير أن يُبقي ما في الأصل .

ومع شغف شكيب بتفسير المفردات نراه يترك طائفة منها بلا تفسير ، مثل هذه الكلمات التي جاءت في عظة للأوزاعي : « الثَّواء ـ خَدَّدوا ـ رِكْزا ـ صُبَابة ـ أرسالُ فتن[٤] » .

---

(١) محاسن المساعي ، ص ٥٥ . ولو أنه شك في الاسم لكان له عذر في ترجمته لهؤلاء ، ولكنه ترجم الأول بما يفيد أنه المقصود ، فلم ترجم للباقين ؟ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٦٣ .

(٤) المصدر السابق ، ص٨٧و٨٨ . والثواء : الإقامة بالمكان . وخددوا : شقو الأخاديد . والركز : الصوت الخفي . وصبابة : بقية وأرسال فتن : قطع متوالية من الفتن .

وقد يكرر شكيب بعض التراجم مع يسير من الاختلاف ، فهو يقول مثلا : «سعيد بن عبد العزيز التنوخي شيخ دمشق وفقيهها وعالمها ، كان يقول : ما قمت إلى صلاة قط إلا مثلت لى جهنم . قال الحاكم : هو لأهل الشام كمالك لأهل المدينة ، مات سنة ١٦٧»[١] .

وبعد صفحات يعود ليقول : «سعيد بن عبد العزيز التنوخي ، تقدم ذكره ، فقيه الشام بعد الأوزاعي ، أخذ عن مكحول وغيره ، وروى كثيراً عن البلاذري فى فتوح البلدان ، وذكره ياقوت فى علماء بيروت[٢] » .

وكان الأولى بشكيب أن يذكر كل هذه المعلومات — وهى قليلة — فى مكان واحد ، هو المكان الأول .

وشكيب لا يسير فى التراجم على طريقة واحدة ، فتارة يوجز ، وتارة يتوسط ، وتارة يطيل جداً ، ولا يضع لذلك قاعدة ، ولا يذكر تسويغاً ، فبينما نراه يترجم للحسن وابن سيرين معاً فى أربعة أسطر فقط ، نراه يترجم للبخارى فى أكثر من صفحتين ، ويأتى مسلم عقب البخارى مباشرة فيترجم له فى أقل من ثلث صفحة ، مع أن هناك من يجعل البخارى ومسلم قرينين وفرسَىْ رهان .

ويأتى اسم أبى حنيفة فيترجم له بثلاث صفحات . وأعجب من هذا أن يأتى اسم أبى جعفر المنصور فيترجم له فى ست صفحات ! .

وقد يلجأ إلى ما يشبه التناقض ، إذ يرد مثلا اسمُ الخليفة الخامس عمر بن عبد العزيز ، فيورد شكيب ترجمةً له تستغرق أكثر من صفحة[٣] ، وبعد قليل يرد

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٣٨ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٥٩ .
(٣) ص ٤٨

اسما الحسن وابن سيرين فيقول : « الحسن البصرى وابن سيرين من أكابر أولياء الله لا يحتاجان إلى تعريف[١] » .

أهذان لا يحتاجان إلى تعريف وعمر بن عبد العزيز الإمام المشهور والخليفة الراشد المعروف ، هو الذى يحتاج إلى تعريف ؟ .

والكتاب بحاجة إلى فهرس للموضوعات والتراجم ، حتى يسهل الانتفاع به .

وعلى الرغم من أن الأمير قد أورد نسبَ أسرته كاملاً فى ديوان أخيه « روض الشقيق » ، فقد انتهز فى محاسن المساعى أكثرَ من مناسبة لإعادة أجزاء من هذا النسب فيه[٢] .

ويظهر أن الأمير قد أعد كتاب « محاسن الأوزاعى » للنشر قبل كتابه « تاريخ غزوات العرب » ، إذ جاء فى الكتاب الأخير ذكرُ الإمام الأوزاعى فقال شكيب : « وقد استوفينا الكلامَ على ذلك فى الكتاب الذى حررناه عن الأوزاعى ، وهو الآن تحت الطبع[٣] » .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٥١ .
(٢) انظر مثلا الصفحات ١٩ و ٢٨ و ٩٨ و ١٦٢ .
(٣) تاريخ غزوات العرب ، ص ٦٦ .

(١٤) تاريخ غزوات العرب

فى فرنسة وسويسرة وإيطالية وجزائر البحر المتوسط

طُبع هذا الكتاب فى مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه بمصر ، ولم يُذكر على الكتاب تاريخ الطبع ، ولكن تاريخ المقدمة فى أول الكتاب هو ١٩ ربيع الأول سنة ١٣٥٢ هـ (المقابلة لسنة ١٩٣٣ م) . وفى هذا التاريخ ما يفيد أن شكيب كتب الكتاب فى « جنيف » ، وللمقدمة ملحق مذيل بهذا التاريخ : « جنيف ١٤ جمادى الثانية ١٣٥٢ هـ » . والكتاب فى ثلاثمائة وسبع صفحات من القطع الكبير .

ويذكر شكيب فى ملحق المقدمة أن الملك فيصل ملك العراق « كان قد سمع بخبر هذا التأليف ، وسألنى — واحسرتاه عليه — إذ كان مؤخراً فى (برن) عنه وعن مباحثه ، وعما أمكننى الاطلاع عليه من آثار العرب فى القرى السويسرية التى كان انتهى إلى سمعه أننى ذهبت إليها ونقبت فيها ، وكان مهتما بهذا الموضوع ، مرتاحا إلى نشر هذا الكتاب ، كما كان مرتاحا إلى نشر كل أثر عربى[١] » .

ويقول شكيب عن الكتاب : « وهو أول تأليف عربى مستقل فى هذا الموضوع[٢] » .

وقد لاحظ شكيب أن مؤرخى العرب لم يعنوا بالحديث عن فتوحات العرب فى أوربة خارج الأندلس ، مع أن لهم فتوحات فى فرنسة وإيطالية وسويسرة والبحر المتوسط تطلبت من العرب همماً وعزائم وألواناً من الصبر ، ولذلك أقدم على تأليف هذا الكتاب ، ليكون إنصافاً للعرب ، وتحدثاً بأمجادهم ، وتخليداً لفتوحاتهم .

---

(١) تاريخ غزوات العرب ، ص ٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٢ .

ويعتبر الكتاب تمهيداً أو فاتحة لحديث شكيب المسهب عن الأندلس، فإنه في سنة ١٣٤٨هـ — ١٩٣٠م اعتزم زيارة الأندلس لمشاهدة ما فيها من آثار العرب وللكتابة عن تاريخهم وأمجادهم فيها ، ولكنه اضطر أن يقصد إلى الأندلس عن طريق فرنسة التي حصل على رخصة المرور بها أياماً معدودات .

ولما كان غرضه الأصلي من الرحلة « اقتفاء آثار العرب كيف حلوا، وأنى ارتحلوا من هذه الديار الغربية » ، كان لابد له أولا من زيارة فرنسة « التي كانت فيها للعرب جولة ، بل كانت لهم في جنوبيها دولة وصولة ، وطالما عصفت ريحهم ببلاد الفرنجة ، بعد أن عصفت ببلاد القوط والجلالقة والباشكنس ، وغيرهم من أمم الغرب التي خفضوا دعائمها ، ونقضوا مرائرها ، وكادوا يلحقون بأولها آخرها[١] » .

وقد استعان شكيب في كتابه بما كتبه المستشرقون في هذا المجال ، وبخاصة « رينو » الفرنسي ، و « كيلار » الألماني ، كما استعان بكتب المؤرخين العرب الذين كتبوا عن الأندلس أو المغرب ، ويضيف إلى ذلك مشاهداته الخاصة ، وهو نفسه يحدثنا بأنه اشترى من « مكتبة غوتنر » بباريس طائفةً من الكتب التي يتعلق أكثرها بالأندلس[٢] .

وفي الصفحات الأولى من الكتاب[٣] نفهم أنه سيكون مشاهداتِ مرتحل، مع أداء حق التاريخ ، ثم نراه يتحدث عن مدينتي « طلوزة وقرقشونة[٤] » ، ثم ينتقل إلى ذكر مراجعه[٥] ، ثم يأخذ في تلخيص مقدمة كتاب « رينو » عن غزوات العرب في أوربة ، واسمه الكامل « غارات العرب على فرنسة ومن فرنسة على

---

(١) المصدر السابق ، ص ٩ . والمرائر : جمع مريرة ، وهي الحبل الشديد الفتل .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٠ .
(٣) انظر ص ٩ و ١٠ .
(٤) ص ١٣ و ١٤ .
(٥) ص ١٤ و ١٥ .

بنواى وبيمونت وسويسرة فى القرن الثامن والتاسع والعاشر من التاريخ المسيحى بحسب روايات المؤرخين المسيحيين والمسلمين[١] » .

وبعد عشر صفحات يستغرقها فى تلخيص مقدمة هذا الكتاب يقول : « انتهى ملخصاً كلام المستشرق الإفرنسى رينو فى مقدمة كتابه »[٢] . ثم يعود فيما بعد إلى التلخيص عنه .

ويتضح من هذا أن مرجع شكيب الأساسى هو هذا الكتاب الذى يقول عنه شكيب : « ولم نجد فى هذا البــاب كتاباً أوعى من كتاب المسيو رينو المذكور لأنه وُضع خاصاً بتاريخ هذه الغارات ، ولأن واضعه هو من أشهر المحققين فى المسائل التاريخية[٣] ، والمطاعين حق الاطلاع على اللغة العربية ، بحيث يمكنه عند كل رواية أن يقابل ما جاء عنها فى الكتب اللاتينية القديمة بما جاء فى الكتب العربية » . ثم يثْنى شكيب على اطلاعه ودقته وتمحيصه ، ويقول : « ومن أجل ذلك كان أكثر اعتمادنا فى تاريخ هذه الوقائع على المستشرق المشار إليه » .

كما أن هناك مرجعاً أساسيا اعتمد عليه ، وهو كتاب « غارة العرب على سويسرة فى أواسط القرن العاشر » تأليف الدكتور فرديناند كيلار ، والكتاب من مطبوعات جمعية الآثار القديمة فى زوريخ .

ويقول شكيب : « كما أننا اعتمدنا فى تاريخ استيلاء العرب على قسم من شمالى إيطالية ومن أهالى سويسرة عليه[٤] ، وعلى مؤلف آخر من أهالى سويسرة الألمانية اسمه فرديناند كيلار ، سنأتى بتلخيص تأليفه بعد الانتهاء من تلخيص كتاب المسيو رينو ، وسنقابل جميع رواياتهم بما لدينا من التواريخ العربية الشهيرة[٥] » .

---

(١) ص ١٥ .

(٢) ص ٢٥ .

(٣) عاش رينو فى الثلثين الأولين من القرن التاسع عشر (انظر كتاب شكيب ، ص ١٤).

(٤) يقصد كتاب رينو .

(٥) ص ١٦ .

وشكيب يصرح بأنه يعتبر كتابه « تاريخ غزوات العرب » جزءاً من كتابه « الحلل السندسية » . فيقول مثلا : « وسيأتى خبر موسى وطارق وغزواتهما مفصلا فى باطن هذا الجزء ، ثم الأجزاء المتعلقة بفتح العرب لأسبانية[1] » .

ولا شك أن الكتاب يحوى معلومات تاريخية ضخمة وهامة ، وهو يدل على سعة الاطلاع ، والصبر على القراءة والترجمة والدراسة والمشاهدة ، ولكننا نستطيع أن نقول فى الوقت نفسه إن الكتاب إلى باب الترجمة أقرب منه إلى باب التأليف ، ولا يعيب شكيب أن يكون مترجماً ، بل لعل الترجمة أشق من التأليف فى كثير من الأحيان ، ولو وضعت على غلاف الكتاب كلمة « ترجمة » بدل كلمة « تأليف » لكانت أقربَ إلى تصوير الواقع .

ومن حسنات الكتاب تتبعه لفتوحات العرب ، وتمجيده لبطولاتهم ، وتنويهه بالقواد والأعلام منهم ، وعنايته بتتبع الملامح العربية الباقية فى تلك البلاد التى كانت فى الماضى مجالا للحياة العربية ، وعنايته كذلك بتتبع الباقى من آثار العرب مهما دقّ هذا الباقى كسُمْرة الوجوه ، أو بعض الأسماء العربية ، أو بعض الكتابات أو النقوش هنا أو هناك .

ومن حسناته كذلك مقابلتهُ روايات المستشرقين بروايات العرب ، مع التعليق على ذلك .

(١٥) روض الشقيق

فى الجزل الرقيق

هذا هو ديوان شقيق شكيب الأمير نسيب أرسلان المولود سنة ١٢٨٤ هـ — ١٨٦٧م قبل شكيب بسنة ونصف ، ونشآ معاً كأنهما توأمان ، وتعلم نسيب فى

(١) تاريخ غزوات العرب ، هامش ص ٢٨ ، ومثل هذا جاء فى هامش ص ٢٩ و ٣٠ و ٣٣ .

المدارس التى تعلم فيها شكيب ، وتوفى فى ١٠ جمادى الآخرة سنة ١٣٤٦هـ — ١٩٢٧م . وقد نشر شكيب ديوان أخيه سنة ١٣٥٢هـ — ١٩٣٥م بعد أن جمعه وعلق عليه ، وصدره بترجمة للشاعر ، وذيله بنسب العائلة الأرسلانية .

وقد طُبع هـذا الديوان فى مطبعة ابن زيدون بدمشق ، ونلاحظ السجع الموجود فى العنوان ، وفى كلمة « الشقيق » تورية لا تخفى ، إذ لهـا معنيان : الأول قريب ، وهو الأخ لأب وأم ، والآخر بعيد ، وهو واحد شقائق النعمان ، وهو النبات المعروف[١] .

وفى المقدمة يشير شكيب إلى أن الديوان يضم قصائدَ اجتماعية ندر النظم فيها ، وقصائد سياسية فى الدستور العثمانى ، والحرب الطرابلسية ، والخلافة الإسلامية ، بأسلوب عربى حر ، ولغة نقية صافية ، لأن أخاه لم يكن يعرف الأسلوب الشعرى الجديد المباين لأساليب العرب[٢] .

ثم نقل شكيب ترجمةَ أخيه عن مجلة (الزهراء) بقلم الأستاذ محب الدين الخطيب ، ثم عقبها بكلمة منه عن شقيقه ، و بقصيدة له فى رثائه ، ثم أورد قصائد الديوان ، وأغلبها فى المناسبات ، وتبدو فيها الصنعة واضحة ، ولعل أجود القصائد هى القصيدة الفائية فى وصف الفقير ، وقد وصفها شكيب بأنها « فذة فى بابها » .

وتعليقات شكيب على الديوان قليلة ، وتكاد تقتصر على تفسير المفردات الغريبة ، وتحديد الأماكن أو البلاد التى ترد فى الشعر .

وحِرصُ شكيب على نشر الديوان يُعَدُّ مظهراً من مظاهر وفائه ، فإذا

---

(١) روض الشقيق فى الجزل الرقيق ، ص ٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤ و ٦ .

تذكرنا ما كتبه عن أحمد شوقى ، ورشيد رضا ، وغيرهما ، أمكننا أن نقول أن الأمير كان يحرص على الوفاء لذكرى أحبائه وأصدقائه .

وأما نسب العائلة الأرسلانية الذى جعله شكيب ذيلا للديوان، فقد توسع فيه وأفاض ، حتى استغرق أكثر من مائة وخمس وعشرين صفحة بحروف صغيرة[1] ، والأولى بهذا النسب أن ينفرد بكتاب ، ولذلك يعده بعض الأدباء كتابا لشكيب .

وقد ذكر شكيب فى صدر الكتاب أن أخاه نسيب نظم وهو فى مدرسة الحكمة رواية ذات أدوار على واقعة سيف بن ذى يزن الحميرى فى قيامه على الحبشة وطرده إياهم من اليمن ، وقال : « وسننشر له هذه الرواية فى جملة ما ننشره من آثاره »[2] .

ولكن شكيب لم ينشر شيئاً من الرواية فى الكتاب ، ولا نعرف أنه نشرها فى غير هذا الكتاب .

(١٦) ديوان الأمير شكيب أرسلان

طبع هذا الديوان سنة ١٣٥٤ هـ — ١٩٣٥ م بمطبعة المنار بمصر ، ولكن يظهر أن الديوان لم يكمل طبعهُ إلا فى وسط عام ١٩٣٦ ، بدليل أن المقدمة التى كتبها خليل مطران للديوان مذيلة بتاريخ « ٢٥ مايو ١٩٣٦ » . وكُتب على الصفحة الأولى منه : « وهو ما أمكن العثور عليه من شعر أمير البيان فى خمسين سنة » . كما كتب عليها : « وَقَفَ على طبع القسم الأكبر من هذا الديوان

---

(١) المصدر السابق ، من ص ١٤٥ إلى صفحة ٢٧٠ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٩ .

وتصحيح ملازمه فقيدُ الشرق والإسلام المرحوم الإمام السيد محمد رشيد رضا منشئ المنار » .

وعدد صفحات هذا الديوان مائتان وخمس صفحات من الحجم الكبير .

وكان شكيب يريد أن يسمى ديوانه « الصوت الغريض من أيام القريض » . ذكر ذلك فى رسالة خطية له هى بين يدىَّ ، بعث بها إلى رشيد بتاريخ ١٥ رمضان سنة ١٣٥٣ هـ حيث يقول :

« ديوانى الذى سأطبعه إن شاء الله قريباً باسم (الصوت الغريض من أيام القريض) . . . » .

ويظهر أن الأستاذ محمد على الطاهر اعترض على هذا العنوان لما فيه من سجع ، ولكن الأمير أصر عليه ، فقد كتب إلى السيد رشيد رضا خطاباً هو بين يدىَّ — وهو بتاريخ ٨ ذى الحجة ١٣٥٣ هـ — وفيه حاشية تقول عن الطاهر : « أبو الحسن لا يحب السجع ، وقد أطعته فى أسماء بعض كتب ، ولكنى هذه لمرة أريد أن أعصيه ، فديوانى يجب أن يبقى اسمه (الصوت الغريض من أيام القريض) . . . » .

ولكن الديوان انتهى إلى عنوانه : « ديوان الأمير شكيب أرسلان » . وخضع الأمير لرأى أبى الحسن . ففى رسالة من شكيب إلى رشيد بتاريخ ١٥ ذى الحجة سنة ١٣٥٣ هـ يقول شكيب : « خضعنا لأمر أبى الحسن المؤيَّد برأيك فى جعل اسم الديوان ساذجاً ، وهو (ديوان الأمير شكيب أرسلان) ، والحمد لله على أن ديوان أخى نسيب جارٍ طبعه فى دمشق ، أى ليس تحت انتداب أبى الحسن ، فأسجاعى هناك حرة طليقة » .

وكتب تصديرً لديوان « شاعر الأقطار العربية وشيخ الأدباء خليـل بك مطران »[(١)] . وقال فى أول هذا التصدير :

« هذا ديوان أمير البيان ، أَفِى حاجة أنا إلى تسمية صاحبه بعد هـذا النعت الذى نعته به الإجماع فى الأمة العربية ؟ .

أتيح لى أن أصدِّره بهذه الـكلمة ، وفى النفس داعٍ من الودِّ القديم ، وباعث من الإعجاب والإكبار ، فانتهزت الفرصةَ السانحة ، مغتبطاً بها ، ولا أبرىء اغتباطى من أثر فيه للأَثَرَة ، فإن حظى من الفخر بهذا التصدير أضعاف حظ الصديق الـكريم »[(٢)] .

ثم أشار خليل مطران إلى ديوان « باكورة » وذكر أن شكيب انصرف بعد إظهاره إلى الـكتابة النثرية فى الموضوعات المختلفة ، فله فى الصحف والمجلات كل يوم » قلائد تزهى بها صفحاتها ، أو فرائد تزخر بها أنهارها » .

وتحدث عن تمـكن شكيب من اللغة ، واطلاعه على مفرداتها وغرائبها وأساليب الفحول من الـكتاب ، ثم يقول : « إذا كان قد رضى لنفسه فى الشعر أن يكون المُقِلَّ المُجيد ، فلا مشاحة فى أنه انفرد بين المترسلين بأنه المـكثر المُجيد »[(٣)] .

وبعد التصدير تأتى مقدمة بقلم شكيب يفتتحها بقوله : « بسم الله الرحمن الرحيم ، « ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا . هذا ديوان شعرى من أيام الصغر إلى أيام الـكبر ، تتجلى فيه روحى حَدَثاً وشاباً ، وكهلا وشيخاً ، ويعرف القارىء أنها روح لم تزل يُشبه بعضها بعضاً فى جميع أدوار الحياة » .

---

(١) ديوان الأمير شـكيب أرسلان ، ص ... (ج) .
(٢) المصدر السابق .
(٣) الديوان ، ص (هـ) . هذا وقد ذكرت مجلة « الشباب » فى العدد ٣٤٤ بتاريخ ٢١ إبريل ١٩٣٧ أن الشيخ رشيد رضا « هو الذى وضع للديوان مقدمة ، وشرح الغاية من نشره » . وهذا غير صحيح ، فقد رأينا أن صاحب التصدير هو خليل مطران .

ثم يذكر شكيب أنه لم ينشر ديوانه لمفاخرة أو إثبات براعة ، بل لأن الشعر لقائله كالولد لناجله ، وهو يخشى أن يُنسَب إليه ما لم يقله ، أو ينسب كلامُه إلى سواه ، ولأن قصائده تتعلق « بوقائع تاريخية مشهورة ، وبعضها متضمن لمبادىء سياسية مأثورة » ، فنشرها جزء من التاريخ ، ولأن له أصدقاء طواهم الردى ، فبكاهم بشعره ورثاهم ، ثم نشر شعره فيهم ليكون تخليداً لذكراهم ، وليوفيهم بعضَ حقوق الوفاء .

ثم ذكر شكيب أنه قد ضمن الديوان أكثر ما في « الباكورة » ، وأنه يعتز بما فيها من شعره ، ويقول : « قد رأيت الشباب أشعرَ من المشيب ، ووجدت أحسن القريض ماجاء في العهد الغريض » ! . والغريض : الطرى ، وهو يريد حداثة السن .

وقد جعل شكيب الديوان أقساماً ، فالقسم الأول هو المراسلات السامية ، أي التي كانت بينه وبين الشاعر محمود سامى البارودى « أمير الشعراء في وقته » كما يعبرِّ عنه شكيب .[1]

والقسم الثاني في مساجلات شعرية ومفاكهات أدبية ، والقسم الثالث في مراثى العلماء والأدباء والكبراء ، وقد رثى شكيب هؤلاء : أحمد فارس الشدياق ، وعبد الله فكرى ، ومحمود سامى البارودى ، وأمين فكرى ، ومحمد فريد ، وكامل الأسعد ، وأحمد تيمور ، وعبد العزيز جاويش ، وأحمد شوقى ، وعبد القادر الشيبى ، وعبد السلام بنونه ، ونسيب أرسلان[2] ، وإبراهيم اليازجى ، والأمير عبد القادر نجل الخديوى عباس حلمى ، وأحمد مختار بيهم ؛ وغيرهم .

والقسم الرابع في المدائح السلطانية وشئون السياسة العثمانية ، ثم يأتى بعد

---

(١) الديوان ، ص ٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢ .

ذلك ما أثبته فى الديوان من قصائد ديوانه الأول « باكورة »[1] .

هذا ، وقد وجدتُ بين رسائل شكيب الخطية إلى السيد رشيد رضا نبذةً تتعلق بالديوان والتعليق عليه ، بعث بها شكيب إلى رشيد ليثبتها فى موطنها من الديوان ، ولكن ذلك لم يتم ، وفيما يلى نص هذه النبذة :

« لا يخفى أن قصيدتنا فى وصف معركة حطين فيها أعلام من أسماء رجال وأماكن ، وعلى هذه الأعلام وضعنا بعض تفاسير فى الحاشية ، فإن كنتم لم تطبعوا الكراسة التى فيها هذه القصيدة طبعاً نهائياً ، فأرجو أن تجعلوا فى الحواشى ما يأتى :

عند ذكر الملك الذى سقط أسيراً فى يد صلاح الدين ، وهو ملك الإفرنج ، يكتب فى الحاشية ما يلى :

هو الملك أغوى دولزينان Guy Delusignan . وهذا الملك آل إليه الملك على الفرنج بواسطة امرأته ، وذلك أنه كان الملك بودوين الرابع المجذوم قد توفى بلا عقب ، فكانت الوارثة للملك بعده الأميرة « سيبيل » Sibylle أى شقيقته كونتة يافا ، فأرادوا تزويجها بأحد أمراء فرانسة ، ليساعدها على إدارة المملكة ، وتزاحم الأمراء على ذلك ، إلا أنها فضّلت « أغوى دى لوزينان » ، لأنه كان أجمل شبان عصره .

فاستدعوه من فرنسة ، وزوَّجوه بها ، وبعد ذلك بايعوه بالملك خلافاً لرأى

---

(١) يبدو أن السيد رشيد رضا هو الذى قام بتقسيم الديوان وترتيب قصائده . انظر كتاب السيد رشيد رضا ص ٧٨٩ . وفى رسالة من شكيب إلى رشيد هى بين يدى ، وتاريخها ١٥ ذى الحجة ١٣٥٣ يقول شكيب : « ترتيب الديوان أنا تاركه لك ، تكرم بترتيبه على حروف الهجاء ، أو بوضع ما تراه مناسبا أولا فأولا ، ولكن بشرط أن يكون أبو الحسن حاضرا ، لأنى لا أخشى عليك من السهو فى معرفة اللغة ، ولكنى أخشى بسبب كثرة أشغالك من السهو فى الترتيب ، وهذا ما يقع لى مثله . أنت حر فى ترتيب الديوان كيف شئت ، وغاية ما أريد هى المجلة ، لأنى أؤمل إذا جرى طبع هذه الكتب بسرعة ترد علينا شيئا يسد بعض مصاريفى اليومية ».

ريموند الثالث كونت طرابلس الذى كان ابن عم بودوين الرابع ملك القدس ، وكان أعقل أمراء الصليبيين فى ذلك الوقت . قال عنه بهاء الدين بن شداد مؤرخ سيرة صلاح الدين — عند ذكر وقعة حطين — : « وكان القمص ذكيَّ القوم وألمعهم ، فرأى أمارة الخذلان قد نزلت بأهل دينه ، فهرب فى أوائل الأمر قبل اشتداده » .

ولهذا أشرت فى القصيدة بقولى :

وأدبر القمصُ معْ فوارسه ما غرَّه مثل غيرِه الغرر[1]

وكان العرب يقولون له : القمص ، لأن لفظة كونت كانت فى زمان الصليبيين يتبعها أحياناً حرف السين فى آخرها ، ويقول العماد الأصفهانى على عادته فى السجع والتجنيس :

« ولما أحس القمص بالكسرة ، حَسَرَ عن ذراع الحسرة ، واقتال[2] من العزيمة ، واحتال فى الهزيمة . وكان ذلك قبل اضطراب الجمع واضطرام الجمر ، واحتداد الحرب ، واحتدام الحر ، فخرج بطابه يطلب الخروج ، واعوجَّ إلى الوادى وما ودَّ أن يعوج ، ومضى كومض البرق ، ووسَّع فى خُطى خرقه قبل اتساع الخرق . . . » إلخ .

وقوله : (خرج بطابه) معناه بجماعته ، فقد كانت هذه اللفظة تستعمل فى ذلك الوقت ، وكثيراً ما وردت فى تواريخ الحروب الصليبية ؛ فيقولون مثلا : جاء السلطان « ورتب الأطلاب » . يعنون بها جماعات الجند ، مفردها طَلَب محركة . وكان الطلب هو ما يقول له الأتراك (البلوك) وهو اسم جمع ، ومفرده طالب ، وهو الذى يحاول أخذ الشىء .

---

(١) هذا البيت فى ص ١١٩ من ديوان الأمير شكيب .

(٢) اقتال : مال واستراح .

وقد جاء فى لسان العرب وفى تاج العروس هذا اللفظ ، واستشهدوا بحديث يقال له حديث الهجرة ، وهو : قال سراقة : « فالله لكم أن أردّ عنكما الطلب » قال ابن الأثير [1] : هو جمع طالب ، أو مصدر أقيم مقامه ، أو على حذف المضاف ، أى أهل الطلب .

وفى حديث أبى بكر فى الهجرة ؛ قال له : « أمشى خلفك أخشى الطلب » .

وجاء فى لسان العرب وتاج العروس : « وعن ابن الأعرابى : الطَّلَبة الجماعة من الناس »، وهى بالكسر ، والطُّلبة بالضم السفرة البعيدة ، نقله الصاغانى ، وطاب إذا اتبع ، وطَلِبَ كفرح إذا تباعد .

أردنا الاستقصاء عن هذه اللفظة لكثرة ما تدور فى تواريخ العرب فى تلك الحقبة .

هذا ، وكان القمص صاحب طرابلس معارضاً للملك أغوى ، وعدواً له ، وإنما وفَّق بينهما جمهور الإفرنج قبل وقعة حطين . ولما اجتمعت الإفرنج فى صفورية لمقابلة صلاح الدين كان من رأى القمص المذكور عدم مناجزة صلاح الدين القتال ، والبقاء فى صفورية على قدم الدفاع ، لأنه كان يرى جيش صلاح الدين ضعف جيش الإفرنج فى العدد وربما أكثر ، فقد كان جيش الإفرنج على أصح الروايات ثلاثين ألف مقاتل ، وأقل ما حُزِرَ [2] به جيش صلاح الدين ستون ألفاً ، وقيل أكثر من ذلك .

ومع أن طبرية كانت تخص القمص صاحب طرابلس ، وكان صلاح الدين نزل عليها ودخلها ، وامتنعت القلعة ، وكانت فيها البرنسيسة امرأة القمص ، فلم

---

(١) يقصد فى كتابه « النهاية فى غريب الحديث والأثر » . انظر ج ٣ ص ٤١ .
(٢) أى أقل تقدير له .

يكن القمص بدهائه وأصالة رأيه يريد تقدم الجيش الإفرنجى إلى طبرية لاستخلاصها من يد صلاح الدين .

بل كان رأيه بقاء الفرنج فى صفورية مدافعين إذا هاجمهم السلطان ، وإنه هكذا صلاح الدين يمل من الانتظار ، فيعود إلى الشام ، وتتفرق عساكره ، وتعود إلى أوطانها ، ولكن الملك أغوى ومقدم الداوية أو الميكليين أصرا على الحرب ، وزحفا صوب صلاح الدين الذى كان ينتظر المناجزة ، فكان ما كان فى حطين .

* * *

عند الوصول إلى ذكر البرنس أرناط فى تفسير قولنا :

وفى بأرناط نذره بيد إذ طالما لم تحك به النذُر
وقال إذ تَلَّه بصارمه: هأنذا للنبى أنتصر(١)

يكتب هكذا : (أرناط) هو الذى يقول له الإفرنج « رينوط دوشايتون » Renot de Chatillon . وهكذا كانوا يكتبونها فى زمان الصليبيين ، وصاروا يكتبون هذا الاسم الآن بالدال فى آخره بدلا عن التاء هكذا Renaud

وأما فى ذلك الوقت فكان هذا الاسم يلفظ بالتاء ، والعرب جعلوه (أرناط) لأن الإفرنج كانوا يلفظونها (رينوط) مع فتح الواو قليلا حتى تصير بين الواو والألف ، فجعلها العرب ألفا ، ومن عادة العرب أن يزيدوا الألف فى أول الأعلام الإفرنجية ، فيقولون مثلا للفرنسيس (الافرنسيس) .

وعلى هذه القاعدة جعلوا ألفاً فى أول اسم « رناط » فصارت « أرناط » .

هذا من جهة اسم هذا البرنس ، وأما من جهة فعله فقد كان ذميما جدا ، وكان

(١) البيتان فى ص ١٢٠ من ديوان الأمير .

يشنّ الغارات دائما ولا يتقيد بهدنة ، وكان تزوج من قبل بأميرة أنطاكية ، وأدار أمور أنطاكية مدة طويلة ، وساءت سيرته حتى بين الصليبيين ، ثم أقطعوه — في خبر ليس هنا محله — بلادَ شرق الأُرْدُنّ ، واعتصم بقلعة الكرك ، وكانت له هناك وقائع أفحش فيها النكاية في قلوب المسلمين ، وطالما قطع الطرق على القوافل بين مصر والشام ، وأراد غزوَ تيماء فلم يفلح .

وكانت تحدثه نفسه بغزو المدينة المنورة ، وجهز سفناً في بحر القلزم[1] ، ولكن لم يطل أمر دعارته[2] البحرية ، لأن الملك العادل أخا صلاح الدين أرسل أسطولا بقيادة لؤلؤ أمير البحر ، فقبض على سفن الصليبيين في بحر أيلة ودمرها ، وكان جماعة من الصليبيين نزلوا إلى البر ، وساروا في طريق المدينة بدلالة بعض البدو ، وإلى هذا أشار القاضي الفاضل بقوله :

(ودلهم على عورات البلاد من الأعراب مَنْ هم أشد كفراً ونفاقا) .

فأدركهم المسلمون وقبضوا عليهم ، وأمر صلاح الدين بقتل هؤلاء جميعاً ، حتى لا يبقى منهم من يعرف تلك الطريق .

ثم إن من أفعال البرنس أرناط أنه كان يقطع الطريق على الحجاج ، وفي إحدى المرار أخذهم وحبسهم في قلعة الكرك وقال لهم : قولوا لمحمد ينقذكم .

ومؤرخو الإفرنج بأجمعهم يعترفون بأن أعمال أرناط هذا كانت فوق تحمل النفوس البشرية ، ويعتقدون أنه هو الذي عجل بفظائع أعماله عزيمة صلاح الدين في حشد الجيوش ، والقضاء على مملكة الإفرنج في فلسطين وسورية .

وآخر مرة — وكان ذلك في سنة ١١٨٦ مسيحية — قبض أرناط على قافلة

---

(١) هو البحر الأحمر .

(٢) الدعارة : الفساد والخبث والفسق

قادمة من مصر إلى الشام ، ونهبها ، وألقى برجال القافلة فى السجن ، فأرسل السلطان فى بادىء الأمر إلى الملك أغوى دولوزينان صاحب بيت المقدس يطلب منه إعادة ما نهبه البرنس أرناط ، فأرسل أغوى إلى أرناط يأمره بردّ السلب بأجمعه ، فلم يطعه .

وكان قد سبق لأرناط ما سبق من الأفاعيل المنكررة ، وكان بلغ السلطان — وهو فى بلاد الجزيرة — قذفُ أرناط بالنبى صلى الله عليه وسلم ، فأقسم أنه إن وقع فى يده سيقتله بيده لا بيد أحدٍ سواه ، وقيل إن الفقهاء أخذوا منه موثقاً بذلك .

فلما وقع فى يد صلاح الدين فى واقعة حطين ملكُ الفرنج وأسراؤهم أجمع ، كان من جملتهم البرنس أرناط هذا ؛ وكان أعظم الأسرى مع الملك هم هؤلاء : رينوط دو شاتليون أمير الكرك ، وجرارت دو ريدفورت Jerard de Ridefort مقدم الداوية ، وأمير أنفروا الرابع من آل طورون Onfroi de Toron ، والمركيز غليوم الثالث دو مونفرات Guillaume III de Montferrat ، والقائد آمورى — والعرب يقولون مرى — دولوزينان أخو الملك أغوى Amaury de Risignan ، وهوغ — والعرب يقولون (أوك) — أمير جبيل Hugue de Jibélet . وبليبانوس أمير البطرون Plepanus de Boutron . وباليان بن بارزان ، والأفرنج يقولون Balian di Belin .

فلما جلسوا فى فسطاط السلطان — رحمه الله — بعد الوقعة أخذ السلطانُ يوبّخ أرناط على أفعاله ، وقال له : كم تحلف وتحنث ، وتعهد وتنكث ! . فقال أرناط للترجمان : بذلك قد جرت عادة الملوك .

وكان الملك يلهث ظمأً ، فجاءوا له بماء مثلوج ، فشرب ثم ناولَ منه البرنس أرناط ، فقال السلطان للترجمان : قل للملك أنت الذى سقيته ، وأما أنا فما سقيته .

قال ابن شداد : وكان على عادة جميل العرب وكريم أخلاقهم أن الأمير إذا أكل أو شرب من ماء لمن أَسَرَه أَمِنَ بذلك ، جرياً على مكارم الأخلاق .

ثم أمرهم بمسيرهم إلى موضع عيّن لنزولهم ، فمضوا وأكلوا شيئاً ، ثم عادوا فاستحضرهم ، ولم يبق عنده سوى بعض الخدم ، وأقعد الملك في الدهليز واستحضر البرنس أرناط ، وأوقفه على ما قال ، وقال له : هأنذا أنتصر لمحمد عليه الصلاة والسلام .

ثم عرض عليه الإسلامَ فلم يفعل ، ثم سل النمجاة وضربه بها فحل كتفه ، وتمّم عليه من حضر ، فأخذ ورُمى على باب الخيمة ، فلما رآه الملك قد خُرج به على تلك الصورة لم يشك أنه يثنّى به ، فاستحضره وطيّب قلبه ، وقال : لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك .

وإلى هذا أشرت بقولي :

فأصبح المَلْك وهو مرتجف [1] إلخ . . .

وقد روى رينه غروسه René Grousset مؤلف أحدث تاريخ للحروب الصليبية وأجلّها وأعظمها تدقيقاً ، فى الجزء الثانى من تاريخه صحفة [2] ٨٩٣ مايؤيد رواية أن الملك أغوى ناول البرنس أرناط الماء المثلوج ، وأن السلطان صلاح الدين قال للملك أغوى : أنت سقيته ، فأما أنا فلم آذن بذلك . ثم أخذ يقرع أرناط على أفعاله وأسره قافلة الحجاج فى حال السلم ، فأجابه أرناط بأنه هكذا جرت عادة الملوك .

قال غروسه : وبقى هذا الأمير — الذى هو المسئول أكثر من الجميع عن سقوط مملكة القدس — يأتى بأدلة على عدم فهمه أقلّ بديهيات الحق .

قال : وقد روى مؤرخ إفرنسى أن صلاح الدين سأل أرناط : كيف كنت تفعل لو كنتُ أنا وقعت فى يدك ؟ . فأجابه أرناط : كنت أقطع رأسك . فقال صلاح الدين : أيها الخنزير ، أنت الآن فى يدى ، وتجاوبنى بهذه القحة ؟ .

---

(١) البيت فى ص ١٢٠ من ديوان الأمير ، وبقيته : « ما شك أن بالحسام يبتدر » .

(٢) هكذا بالأصل ، والصواب صفحة .

ثم هجم عليه، وقطع كتفه بسيفه، وأجهز عليه الحاضرون، وجيء بجثته تحت رجلي الملك أغوى، فصار الملك يرتمش، فأسعفه صلاحُ الدين، وقال له: إن الملوك لا يقتلون الملوك، ولكن هذا الرجل تجاوز جميع حدود القحة والغدر».

هنا تنتهي نبذة شكيب التي وجدتها بين رسائله الخطية إلى رشيد رضا أثبتُّها هنا بنصها.

(١٧) شوقي أو صداقة أربعين سنة

هذا الكتاب مطبوع لأول مرة في مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر، سنة ١٣٥٥ هـ — ١٩٣٦ م، وعدد صفحاته ثلاثمائة وأربع وخمسون صفحة من القطع الكبير. وقد ظهر هذا الكتاب يوم الثلاثاء ٩ صفر ١٣٥٦ هـ — ٢٠ إبريل ١٩٣٧ (١).

وقد ذكر شكيب في أول الكتاب سببَ تأليفه له، فقال إنه ما مرَّ عامان على وفاة شوقي حتى رأى الناس كأنهم نسوه، وهي عادة الخَلْق، وكان شكيب قد وعد عقب موت أمير الشعراء بإخراج كتاب عن ذكرياته مع شوقي، ولكن الشواغل شغلته عن الوفاء بهذا الوعد، فلما ذهب إلى فلسطين عقب ذلك التقى بالأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي، فاستنجزه النشاشيبي وعدَه — وكان النشاشيبي يعجَب كثيراً بشوقي، ويشيد به — فحرص شكيب على الوفاء بالوعد، وكتب الكتاب (٢).

وقد جاء على غلاف الكتاب أنه «سبق نشرُ جانب من هذا الكتاب في جريدة الجهاد، ولكن أعيد النظر فيه، وتمثل في هذه الطبعة تاماً منقحاً».

---

(١) مجلة الشباب، العدد ٣٤٤ بتاريخ ٢١ إبريل ١٩٣٧.

(٢) شوقي أو صداقة أربعين سنة، ص ٣ و ٤.

ويتحدث شكيب فى طلائع الكتاب عن مطالعته لشعر شوقى ، وتعرفه به ، واتصال الود بينهما ، وتناشدهما أشعارهما ، ومعارضة شكيب لشوقى بعض قصائده ، ثم يأخذ شكيب فى عرض « أماثيل من شعر شوقى » [١] ، ويعلق عليها تعليقاً خفيفاً سريعاً ، وتغلب عليه النزعة اللغوية فى تعليقه ، ويطيل فى إيراد الشواهد من شعر شوقى ، ويعيد كلمات الإعجاب بشعره .

وهو يذكر فى صدر استشهاداته أن شعر شوقى ثلاثة أقسام : الشعر المطرب (الغنائى) ، والشعر التاريخى أو شعر الوقائع (الملاحم) ، والشعر الروائى (المسرحى والقصصى) . ويذكر أن الشعر الشخصى هو الجانب الأوفر من شعر شوقى [٢] .

ويحرص شكيب فى كتابه على أن يخبرنا بأنه كان يعارض شوقى فى بعض الأحايين ، وأنه عارض قصيدته التى أولها : « رضى المسلمون والإسلام » بقصيدة جعل مطلعها :

هل لسانٌ أقوالُه الإلهامُ أم بيانٌ آياته الإحكام ؟

ويحكم شكيب على قصيدة شوقى بأنها « غير خالية من أبيات فيها غموض ، وأخرى فيها تعقيد ، ولكنها على كل حال عامرة بشوارد الأبيات » . ويمضى شكيب فى إخبارنا عن نتيجة المعارضة — وإن كان يتواضع فيقرر « أن الدُّر لا يعارَض بالحصى » — فيذكر لنا أن هناك من فضّل قصيدته على قصيدة شوقى ، كالشاعر الأديب داود عمون ، ثم يقول شكيب : « وعلى كل حال فلست أدَّعى سبقَ شوقى فى هذا الميدان » [٣] .

ولنلاحظ هنا أنه قَصَرَ عدم الادعاء على « سبق شوقى » ، ويبقى أن نتساءل : هل معنى هذا أن الشاعرين متساويان ؟ .

---

(١) ابتداء من ص ١٠٨ حتى ص ٣٤٦ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٠٨ .
(٣) شوقى أو صداقة أربعين سنة ، ص ٢٠ .

ذلك سؤال لم يجب عنه شكيب بصورة قاطعة !.

ومن هذا القبيل أن يتحدث شكيب عن قصيدة شوقى فى الحرب البلقانية التى مطلعها : « يا أختَ أندلسٍ عليك سلام » ثم يقول : « وفى هذه المسألة أرانى وشوقى متواردَيْن على رأى واحد ، وليست هذه بالمرة الوحيدة التى أجدنى فيها وإياه على وفاق ، كأن قلبينا قلب واحد ، وكأنا نفكر عن خلية دماغ واحدة ».

ويذكر قول شوقى فى تلك القصيدة :

صور العمى شتى ، وأقبحها إذا نظرتْ بغير عيونهن الهامُ

ويذكر شكيب أنه يقول من قصيدته فى « استرداد أدرنة » :

وكابرَ قوم ينظرون بأعين ألا عَمَهُ الألباب أعْمَى من العمى[1]

وهو يورد قول شوقى :

وسلا مصر : هل سلا القلب عنها أو أسا جرحَه الزمانُ المؤسى ؟

ويذكر أن شوقى قد جانس بين (سلا) من السؤال و (سلا) من السُّلُوِّ ، ثم يقول : « وقد سبق لى هذا الجناسُ نفسه ، ولم أكن اطلعت على شعر شوقى هذا ، وهو فى قولى فى رثاء الشيخ عبد القادر الشيبى سادن البيت الحرام رحمه الله :

سـلانى : هل على بعد سلانى وهل كان الغياب سوى العيان »[2].

* * *

(١) المصدر السابق ، ٢٧١ و ٢٧٢ .

(٢) المصدر السابق ، ٣٠٩ . والبيت فى الديوان ، ٨١ ، وقد جاء فيه : « وهل كان المغيب » بدل : « وهل كان الغياب » .

ويذكر لنا شكيب أن شوقى عارض البارودى فى وصف الحمام ، وأن البارودى عارض أبا نواس ، كما عارض ابن دراج القسطلى أبا نواس من قبل[١] ، ويورد شكيب من شعر كل منهم أبياتاً ، ولكنه لا يتلبث ليحلل ، أو يقارن ، أو يحكم بأدلة وبراهين ، بل يعلق تعليقا خفيفا سريعا .

وكأنه يحس باعتراض القارىء عليه فيحاول دفع هذا الاعتراض بقوله : « إنى لو شئت أن أردف كلَّ بيت بما يبدو لى فيه لاستغرق ذلك أجلادا[٢] » . ولكنه كما يقول لم يرد الشرح ولا التعليق ، وإنما أراد تجديدَ ذكرى شوقى ، وتسجيل علاقته مع أخ قديم إنجازاً لوعده ، وكأنما أراد أن يتحلل من هذا الوعد بصورة ما ، فساق ما ساق .

يقول : « ولكن إن خطرت فى بالنا جملةٌ أرسلناها عفواً ، أو عنَّت ملاحظة يروق الأدباء قيدها لم نجمجم بها ، وسنتبع هذه الطريقة إلى الآخر[٣] » .

وها هو ذا مثلا يعود إلى حديث المعارضة ، فيذكر معارضة شوقى للبحترى فى القصيدة الرائية ، ويورد نماذج للشاعرَيْن ، ولكنه لا يأخذ فى المقارنة أو التحليل ، ويكتفى بقوله : « من قرأ القصيدتين البحترية والشوقية لم يتردد فى أن يقول : إن القديم طبع ، والجديد تطبع ، وإن الأول توليد ، وإن الآخر تقليد[٤] » .

وبعد صفحات كثيرة من الكتاب يخبرنا بأنه سيورد معارضةَ شوقى للبحترى فى سينيته مع سينية البحترى ، وأنه سيقابل بينهما ، ويستغرق فى استعراض القصيدتين وما ألحقه من استطرادات تاريخية وتعليقات لغوية نحو عشرين

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٢٨ — ١٣٤ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٣٥ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٣٦ .
(٤) المصدر السابق ، ص ١٤٣ .

صفحة[1] ، ثم لم نجد شيئاً من المقابلة أو المقارنة أو الحكم سوى كلمات عاجلة مثل قوله : إن شوقى قصر عن البحترى ، أو إنه نزل عنه أولا ، ثم ساواه فى الأوابد والملاحم ، أو إن شوقى أخذ جملة « يَحْسِرِ العيون ويُخسى » من كلام البحترى .

ولا ينسى شكيب هنا أن يذكر لنا معظمَ قصيدته الأندلسية . لماذا ؟ . لأن شوقى قد تحدث عن الأندلس فى سينيته ! .

والأعجب من ذلك أن شكيب تعرض لقصيدة شوقى فى (الروح) التى عارض بها ابن سينا ، ولكنه لم يعقد أية مقابلة أو مقارنة بينهما ولو بجملة واحدة ، ولم يذكر أيضاً شيئاً من المقابلة بين قصيدة شوقى النونية : « يانائح الطلح » التى عارض بها قصيدة ابن زيدون : « أضحى التنائى بديلا من تدانينا » .

***

وشكيب كثير الاستطراد فى هذا الكتاب ، فهو يريد أن يتحدث عن جفوة وقعت بينه وبين شوقى ، فيستطرد إلى الحديث عن الحرب الطرابلسية ، وجهوده فيها ، وقدومه إلى مصر ، ومقابلاته للخديوى ، وعرض الخديوى عليه المال ، وإباء شكيب ذلك ، وبعد أن يستغرق فى الاستطراد أكثر من ثلاث صفحات يعود إلى الموضوع ، وهو أن شوقى لم يَسْعَ للقائه فى هذه الزيارة .

والعجيب أن شكيب نفسه يعترف بأن ذلك استطراد ، فيقول : « ليس هذا من موضوع شوقى فى شىء ، ولكنه جاء استطرادا » . ويقول : « وليس هذا الحديث بذى صلة مع ما نحن بسبيله[2] » .

---

(١) من ص ٣٠١ إلى ص ٣٢١ .

(٢) ص ٣٧ و ٣٨ .

فهو يستطرد عامداً متعمداً ، مع سبق الإصرار » .

وهو يذكر رثاء شوقي لأمين فكرى ، ثم يستطرد فيذكر قصيدة إسماعيل صبرى فى أمين ، وقصيدة شكيب فى أمين ، ثم يقول : « ولو فسح المجال لاستوفيت له ثلاثين مرثية ، وكان بها قمنا » . ثم يزيد فى الاستطراد ، فيورد ذكريات له ، ولابن عمه عارف أرسلان مع إسماعيل صبرى وأمين فكرى[١] .

وحينما ترد قصيدة شوقى : « كبار الحوادث فى وادى النيل » ، ويتعرض فيها لذكر الصليبيين ، يسارع شكيب إلى حبيبه وعزيزه « الاستطراد » ، فيحدثنا عن الصليبيين وأفاعيلهم فى البلاد الإسلامية ، ويستغرق فى ذلك أكثر من أربع صفحات ، وقد تجد لوناً من الصلة بين هذا وبين قصيدة شوقى ، ولكن شكيب يستطرد أكثر ، فيحدثنا عن قصيدة له فى صلاح الدين قاهر الصليبيين ، ثم يبين لنا : متى قيلت ؟ وأين نشرت ؟ ومتى تظهر مطبوعةً فى ديوانه ؟ .

ثم يقول : « ولا أجد داعياً لإعادتها هنا برمتها » إلا أنه يذكر أكثرَها مع شىء من التعليق عليها ، ويستغرق فى ذلك نحو أربع صفحات[٢] ! .

وتأتى إشارة إلى « الحرب البلقانية » فى قصيدة لشوقى ، فيستطرد شكيب إلى إيراد ذكريات شخصية له عن هذه الحروب ، ثم يدافع عن استطراده بقوله : « ولا بأس أن يكون للتاريخ مكان من كتاب أدب ، لاسيما إذا تعلق بالحمية والإنسانية[٣] » .

ومن غرائب الاستطراد عنده أن يتحدث عن سينية شوقى التى عارض بها سينية البحترى ، فيأتى على قصيدة البحترى بأكملها ، ويعلق عليها بعض التعليقات

---

(١) ص ١٦٧ — ١٧١ .

(٢) ص ١٩٣ — ٢٠١ .

(٣) ص ٢٨٠ .

اللغوية ، ثم يستطرد إلى أمداح البحترى ، وإشادته بمجد العجم ، فيذكر منها نماذجَ ، ثم يستطرد إلى وصف البحترى لواقعة بحرية ، ثم يستطرد فيذكر نماذج من مدحه ليعقوب بن أحمد بن صالح والحسن ابن مخلد وإبراهيم بن المدبر وإسماعيل بن نيبخت [١]، ثم يعود بعد هذه الاستطرادات كلِّها إلى سينية شوقى . . .

ليست هذه طريقة تأليف فى موضوع له منهج ، وإنما هى أحاديث وأسمار .

والذى يثير الدهشةَ أن شكيب مع هـذا لم يتحدث عن مسرحيات شوقى ولا عن كتابه ، « دول العرب والإسـلام » ، والحديث عن هذا كلّه من صميم موضوع الكتاب ! . . .

* * *

وشكيب يبالغ فى أحكامه أحيانا خلال هذا الكتاب ، فهو مثلا يشير إلى القصيدة التى صاغها شوقى وقدمها إلى الكاتب الشهير « هول كين » ، ومطلعها : « آذار أقبل قم بنا يا صاح » .

ثم يقول شكيب : « وليس فى زهريات الشعراء أجمع ما يبزُّ زهرية شوقى هذه »[٢] . فهل بَنَى شكيب هذا الحكمَ على دراسة ، ومراجعة ، واستقصاء ؟ . أليس فى كلمة : « الشعراء أجمع » لونٌ من التوسع والمبالغة ؟ .

قد يقال : فلم لا تجعل من هذا الباب قولَ شكيب عن قصيدة شوقى فى النيل : « ومهما قيل فى النيل فهو قليل ، إلا أن شوقى جاء من وصف النيل بما يناسب جلاله وجماله ، ولا أظن شاعراً قديماً ولا حديثاً وصف النيل بمثل هذه الإجادة »[٣] .

---

(١) ص ٣٠٣ — ٣٠٩ .

(٢) ص ٣٠٠ .

(٣) ص ٣٢٥ .

وأقول إن الشعر فى النيل بهذه الصورة التى رسمها شوقى قليل نادر ، وأما الزهريات فى الشعر العربى فكثيرة ، وبخاصة فى شعر الأندلسيين والعباسيين .

* * *

وشكيب يخطئه التوفيقُ فى النقد أحياناً ، فإنه مثلا يورد قول شوقى :

إن ملكتَ النفوسَ فابغِ رضاها ... فلهـا ثورةٌ ، وفيها مضاء
يسكن الوحشُ للوثوب من الأســرِ ، فكيف الخلائقُ العقلاء ؟

ثم يعلّق عليه قائلا :

« وليس لى اعتراض هنا إلا على قوله : يسكن الوحش للوثوب من الأسر . إلخ . فإن السكون والوثوب لا يقترنان ، ولو قال : ينزع الوحش للوثوب من الأسر لكان أقعد »[1] .

ومن قال إن السكون والوثوب هنا مقترنان يا أمير البيان ؟ . إنما يسكن الوحش أولا ، ثم يثب ، ففيم الاعتراض ؟ ! . .

ويذكر بيتَ شوقى :

وطنى لو شُغلتُ بالخُلْد عنه ... نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

ويقول : « وكأنه يشير إلى بيت المتنبى :

خُلقتُ أَلُوفاً ، لو رجعتُ إلى الصِّبا ... لفارقت شيبى موجعَ القلب باكيا »[2]

ومن الواضح أن كلاًّ من البيتين له وجهةٌ مستقلة ، فشوقى لا يعدل بوطنه شيئاً ، مهما غلاَ أو علا ، ولو كان الخُلْدَ ، وأما أبو الطيب فيحدثنا عن روح الألفة فى نفسه ، فلو فارق ما تعارف الناس على بغضه — وهو الشَّيْب — لفارقه حزيناً ! .

---

(١) ص ١٨٢ و ١٨٣ .
(٢) ص ٣١ .

ويذكر شكيب قولَ شوقى فى قصيدته عن دمشق ومسجدها الأموى :

تغيّرَ المسجدُ المحزون ، واختلفت على المنابر أحرارٌ وعُبْدانَ
فلا الأذانُ أذانٌ فى منارته إذا تعالى ، ولا الآذانُ آذانُ

ويعلق شكيب قائلا : « الحقيقة أن الأذان لا يزال كما كان ، وإنما اختلف تأثيره فى الآذان ، وعسى كل شىء يعود إلى أصله » (١) .

وكأنه بهذه العبارة يريد أن يعترض على شوقى ، ولا محل للاعتراض ، لأن شوقى نفسه يريد تغيرَ الأذان عما كان عليه فى الماضى من جهة التأثير والتوجيه .

ولو مشينا على طريقة شكيب هنا لخطَّأنا شوقى فى قوله : « ولا الآذان آذان » فإن الآذان ما زالت موجودة ! . .

ويورد قول شوقى فى دمشق :

آمنت بالله ، واستثنيت جنته دمشقُ رَوْحٌ وجنات وريحان

ويقول : « قال : آمنت بالله ، يقلد الدمشقيين فى كلماتهم ، لأنهم يستعملون هذه الجملة كثيراً فى موضع العجب » (٢) .

أفهذا ما أراده شوقى ، أم أنه أراد أن يتجنب حملاتِ المنتقدين ، فاحترسَ بتقديم ذكر الإيمان بالله واستثناء جنته ، بين يَدَىِ الحكم على دمشق بأنها جنات ، حتى لا يثور عليه ثائرون باسم الدين ، وهو رجل يحب المسالمة ، وبخاصة أنه سيعود فى القصيدة بعد أبيات منها ليقول :

خَلَقتُ لبنان جنات النعيم ، وما نبِّئت أن طريق الخلد لبنان

* * *

(١) ص ٣٢٣ .
(٢) ص ٣٢٤ .

وبينما يفعل شكيب هـذا يترك أشياء لشوقى بلا نقد ، فهو مثلا يورد قولَ شوقى يخاطب الخديوى :

مولاى ، ذا شهرُ الصيام انقضى أحيـاكم الله إلى كل عام

وهذا تعبير نثرى شبيه بأسلوب العامة ، ولا يصله بلغـة الشعر نسب قوى ، فلم تركه شكيب بلا تعليق ؟ .

ويتحدث شكيب عما ذكره شوقى فى قصيدته عن النيـل من إلقاء فتاة عذراء فى النيل كل سنة فى يوم مخصوص ، ثم يقول شكيب : « ولقد أبطل الإسـلام عادةَ تقديم بِكْر كل سنة للنيل »[١] .

ومعنى هـذا أن شكيب يسلم بصحة القصة ، مع أن هناك من ينـكر وقوع هذه الحادثة ، كالأستاذ عبد القادر حمزة فى بحوثه عن التاريخ المصرى القديم . حيث قال فى كتابه : « على هامش التاريخ المصرى القديم » ما يلى :

« ومثل آخر من أمثلة الخرافات المـكذوبة على المصريين : زعم المؤرخون العرب أن للنيل عروساً كان المصريون يقدمونها له كل سنة . . . » .

ثم يقول : « نعم هى أكذوبة . . . » .

ثم يقول : « ثم إن فيما تركه لنا المصريون من الآثار وصفاً لاحتفالات دينية كانت تقام للنيل المرفوع إلى صف المعبودات ، وقصائد وجهها إليه الشعراء ، وأغانى تغنى فيها المغنون ، وهذه الاحتفالات والقصائد والأغانى خاليـة كلها من أية إشارة إلى إلقاء فتاة فيه تسمى عروس النيل ، ولو أن قصة هذه العروس صحيحة لما خلت منها »[٢] .

---

(١) ص ٣٢٦ و ٣٢٧ .

(٢) على هامش التاريخ المصرى القديم ، ص ١٦ و ١٧ .

وينبغى أن نلاحظ هنا أن شوقى شاعر ، لا يؤاخَذُ فى عُرْف الشعراء إذا قبل مثل هذه الأسطورة ، وأما شكيب فمؤرِّخ ، وهنا كان يحسن الاستطراد .

ويذكر شكيب قولَ شوقى فى قصيدته عن توت عنخ آمون :

والعلم (بَدْرِىٌّ) أُحِلَّ لأهـــله ما يصنعون

ويعلق شكيب قائلا : « يشير إلى ما ورد فى الأثر من أن أهلَ بدر مغفورة لهم ذنوبهم إلا الكبائر »[1] .

ولا أدرى من أين جاء شكيب بكلمة « الكبائر » فصيغة الحديث هى : « لعلّ الله عز وجل اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ماشئتم ، فقد غفرت لكم »[2] .

* * *

ونخلص من هذا إلى أن كتاب شكيب عن شوقى لا يلتزم منهج البحث ، وإنما يسير على طريقة الأحاديث والأسمار ، ويُكثر فيه إيراد الشواهد الطويلة من شعر شوقى وغيره مع التعليق السريع ، كما يُكثر فيه الاستطرادَ لمناسبة قوية أو ضعيفة ، ويُكثر فيه إيرادَ الأحاديث الشخصية عن نفسه ، كما قد يتحدث عن أشياء لا تستحق الحديث .

ومع ذلك فالكتاب يحوى معلومات قيمة وكثيرة عن شوقى وعن الشعر والشعراء ، كما يحوى أخباراً تاريخية هامة ترتبط بالفترة التى عاشها شوقى وشكيب .

* * *

---

(١) ص ٣٣١ .

(٢) الحديث رواه الأربعة : البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى . التاج الجامع الأصول . ج ٤ ص ٢٦٧ .

ويختم شكيب كتابه بهذه العبارة :

« ولقد فككنا والحمد لله هذه القيود [١] ؛ وبهذا ختمنا هذا الكتاب الذى كان ذمةً علىَّ لأخ قديم ، رعيته ورعانى مدة أربعين سنة ، ولشاعر عظيم ، بايمناه جميعاً بإمارة الشعر فى هذا العصر ، وكان السيد الإمام صاحب (المنار) رحمه الله قد كتب أن شكيب أرسلان كان أول من لقَّب شوقى بأمير الشعراء ، وليس من سعادة للمرء فى هذه الحياة مثل أن يحب مَنْ يحترم ، وأن يحترم مَنْ يحب ، وقد كان هذا شأنى مع أحمد شوقى رحمه الله ، وأبقى كلماته على الدهر حليةً للأدب ، ومفخرة للغة العرب » [٢] .

(١٨) التعليق على تاريخ ابن خلدون

قام محمد المهدى الحبابى صاحب المكتبة التجارية بفاس وتطوان فى سنة ١٣٥٥ هـ — ١٩٣٦ م بنشر كتاب تاريخ ابن خلدون المسمى « كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » ، وقام الأستاذان علال الفاسى وعبد العزيز بن إدريس بتصحيح الأصول ، وضبط الأعلام فى الكتاب ، وقام بالتعليق عليه « كاتب العصر الأكبر أمير البيان الأمير شكيب أرسلان » [٣] .

وطُبع الجزء الأول من الكتاب فى مطبعة النهضة بالقاهرة ، فى إحدى وخمسين وأربعمائة صفحة من القطع الكبير ، ومن بينها الفهارس ، وطُبع الجزء الثانى فى ستين وخمسمائة صفحة .

---

(١) يشير بهذا الى القيود التى صنعها الاستعمار للأمة العربية ، وقد ورد ذكرها فى بيت لشوقى جاء قبل هذه العبارة ، وهو :

وعلينا كما عليكم حديد ... تتنزى الليوث فى قضبانه

(٢) ص ٣٤٧ .

(٣) هكذا جاء على غلاف الكتاب .

وأما الجزء الثالث من الكتاب ، فهو فى الواقع ملحق للجزء الأول ، إذ يشمل تعليقاتِ الأمير على هذا الجزء الأول ، ويقع الجزء الثالث فى ثمان وأربعمائة صفحة ، وقد طبع بالمطبعة الرحمانية بمصر ، وفيه مقدمة طويلة لشكيب تاريخها هو : « جنيف ٢٦ شعبان المعظم ١٣٥٥ » [١] ، ثم تعليقاتٌ تدور حول الصقالبة ، والأنساب ، والخلافة واشتراط القرشية فيها ، ومذهب النشوء والارتقاء ، ونوح وولده ، وقضية الطوفان والسلائل البشرية ، والتوراة ووقوع التبديل فيها ، وتاريخ العرب الأولين ، ثم الترك .

وموضوع الترك هو أطول ما فى الكتاب ، ويكاد يكون كتاباً بمفرده ، إذ يشغل أكثر من ثلاثمائة صفحة [٢] ، وبه ينتهى الكتاب ، وكان يذكر فى تاريخ كل سلطان من نبغ فى عهده من العلماء والفقهاء والقضاة ، حتى استبدت هذه التراجمُ بأكثر الحديث . وقد ذكر شكيب خلاله أموراً تتعلق بشخصه ، ووقف نشرُ الكتاب عند هذا الحد .

ويشير ناشر الكتاب إلى الذين اشتركوا فى تصحيح الكتاب والتعليق عليه ويقول : « وكان فى طليعتهم نادرة الزمان وأمير البيان ، ورافع لواء الفضل والعرفان ، المحقق المدقق ، الثَّبْت الثقة ، سعادة الأمير شكيب أرسلان ، جزاه الله عنى وعن العروبة والشرق والإسلام أفضلَ ما جزى مجاهداً شجاعاً فى الحق » .

ثم يذكر الناشرُ الأستاذين علال الفاسى وعبد العزيز بن إدريس اللذين راجعا الكتاب ، وضبطا أعلامه ، وشرحا بعض العبارات ، ثم يعود إلى ذكر شكيب قائلا :

« فقد أمدنى أولهم بقدر ضافٍ من التعليقات والتوضيحات ، رأيت أن أجعلها

---

(١) انظر ص (غ) .

(٢) من ص ٨٨ إلى ص ٤٠٥ . ويظهر أنه كان معدا عند شكيب من قبل .

فى جزء مستقل ، على الأول من أجزاء الأصل ، وهى المثل الأعلى فى التحقيق ، على ما يراه القراء[1] » .

وكأن الناشر خاف أن تُجحف التعليقاتُ بالأصل — كما حدث فى كتاب حاضر العالم الإسلامى — فجعلها مستقلة ، ولعلَّ له عذره ! .

وكثير من التعليقات يظهر فيها التلخيص ، والتعريب ، والنقل عن دائرة المعارف الإسلاميـــة ، وصبح الأعشى ، وكتب المستشرقين ، ومع ذلك تحوى معلومات غزيرة وحقائق كثيرة ، وتدل على الجهد المضنى الذى بذله شكيب فى إعدادها وكتابتها .

(١٩) الحلل السندسية

فى الأخبار والآثار الأندلسية

يُعَدُّ هذا الكتاب مَعْلَمَةً تاريخية عربية إسلامية ، تحاول أن تضع بين يدى قارئها كلَّ ما يتعلق بالفردوس الإسلامى المفقود « الأندلس » .

وكان شكيب قد رسم لهذا الكتاب خطة ، هى أن يصدر فى ثمانية أجزاء أو عشرة أجزاء ، يستوفى فيها الحديثَ عن الأندلس من ناحية الجغرافية ، والتاريخ ، والتراجم ، والعلوم ، والفنون ، والآداب وغيرها ، ولكن لم يصدر من الكتاب سوى ثلاثة أجزاء ، طُبعت بمطبعة الحلبى ، طَبع الأول سنة ١٩٣٦ م . والثانى سنة ١٩٣٩م . وهما عن شمالى الأندلس ، والثالث سنة ١٣٦٧ هـ — ١٩٤٧م عن شرق

---

(١) انظر ج ١ ص (هـ) .

الأندلس[1] ، ولسنا على يقين من مصير بقية الأجزاء : أ كَتَبَهَا شكيب وخلّفها ضمن تراثه ، وهى الآن موجودة ، أم كتبها وخلفها وفقدت ؟ .

أم أنه جمع أصولها وموادها وتركها دون صياغة ؟ أم أنه انتواها فقط ، ولم يشرع فيها ؟ . . . إن الذين يستطيعون إعطاءنا القولَ الفاصل فى هذا هم الذين سيطروا على مخلّفات شكيب .

ويعتبر كتاب « الحلل السندسية » الخطوةَ الثانية بعد كتابه « تاريخ غزوات العرب » ، ولو أننا رجعنا إلى « تاريخ غزوات العرب » لوجدنا فى صدره ما يدلنا على السبب الذى دفع بشكيب إلى تأليف « الحلل السندسية » ، قال :

« ليس بعجيب أن يكون مثلى مغرماً بالأندلس ، وآثار العرب فيها ، وفيما جاورها من الأصقاع الأوربية ، فإن كل عربى صميم حقيق بأن يبحث عن آثار قومه ، ويتعلم مناقبَ أجداده ، ويتدارس معالم هممهم مع إخوانه ، ويترك من ذلك تراثاً خالداً لأعقابه ، ولعمرى إن آثار العرب فى الأندلس هى غرة شادخة[2] ، وهمة شامخة فى تاريخ الأمة العربية .

بل نقول — ولا نخشى مغالطا — إنها من أنفس ما أثره العرب ، بل من أنفس ما أثره البشر فى الأرض ، فلا عجب أن يُعْجَب بها العربى ، وينقِّب عنها ، ويشد الرحالَ إليها ، ويأخذ العبرةَ اللازمة منها[3] » .

---

(١) أشرف على تصحيح هذا الجزء الثالث وترتيبه وضبط أعلامه الأستاذ محمد شوقى أمين . وهو مزين بالتصاوير التاريخية الأندلسية النادرة ، ويساوى تقريبا حجم المجلدين الأولين معا لأنه جاء فى ٦٦٤ صفحة بالقطع الكبير ، وبحروف صغيرة ، منها فهارس مطولة للموضوعات وأسماء الأعلام ، بلغت صفحاتها ١١١ صفحة . وأشرف الأمير بنفسه على طبع الجزء الثانى فى ربيع سنة ١٩٣٩ بمصر . وكان ينوى جعل الكتاب عشرة أجزاء . انظر مقال (مؤلفات المرحوم الأمير شكيب أرسلان) منبر الشرق ، عدد ٨ إبريل ١٩٠٥ .

(٢) غرة شادخة : أى منتشرة (القاموس) .

(٣) تاريخ غزوات العرب ، ص ٥ .

وفى نفس الموطن الذى يقول فيه هذا يذكر أيضاً غرامه منذ ريعان الشباب بحضارة الأندلس العربية ، حيث ترجم منذ أربع وثلاثين سنة قبل كتاب « غزوات العرب » رواية آخر بنى سراج ، لمؤلفها « دوشاتوبريان » ، وذيلها بملحقات تتعلق بتاريخ الأندلس .

ويتحدث شكيب فى فاتحة كتابه « تاريخ غزوات العرب » عن حاجة هذه الغزوات إلى من يتحدث عنها ، لأن ناشئة العرب لا تعرف عنها قليلا ولا كثيراً ، ثم يقول :

« فلهذا خصصت بهذا الموضوع كتاباً مستقلا أسميته (الحبيئة المنسية فى مقام العرب بجبال الألب والبلاد الأفرنسية) وجعلت هذا الكتاب أشبه بجزء من أجزاء كتابى الذى أنا مباشر تأليفه عن الأندلس باسم (الحلة السندسية ، فى الرحلة الأندلسية) وسيكون فيما أحْزِر أربعة أو خمسة أجزاء إن لم يكن أكثر[1] » .

والظاهر أن كتاب « الحبيئة المنسية » هو كتاب « تاريخ غزوات العرب » نفسه ، وذلك بدليل ما ذكره شكيب بعد ذلك ، إذ يقول : « فكان هذا الكتاب وإن استقل باسم (تاريخ غزوات العرب فى فرنسة وسويسرة وإيطالية وجزائر البحر المتوسط) هو فى الحقيقة جزءاً من رحلتى الأندلسية التى نحن بسبيلها ، لأنها هى خاتمة مطاف العرب فى أوربة ، وفاتحة ما أفاضوا إليه من الممالك بعد فتحهم للأندلس[2] » .

وهكذا نجد أن الدافع الأقوى لشكيب إلى الكتابة عن الأندلس هو شعوره بحاجة هذا التاريخ إلى عرض جديد ، وبأن فتوح العرب فى الأندلس وفى أوربة فيها مفاخر لقومه تستحق التنويه ، وقد يقوى هذا الحافز أن شكيب ينتسب إلى

---

(١) تاريخ غزوات العرب ص ٧ — وأحزر : أقدر .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٢ .

قبيلة « لخم » ، وهذه القبيلة كان عددٌ كبير من أبنائها فى الأندلس ، ثم نزحوا عنها تحت حكم الظروف القاهرة ، وشكيب يتذكر هذا ويأسَى معه ، ويريد أن ينصف قومه ، فيعرض صفحات تاريخهم الباهر .

ويظهر أن شكيب كان يريد أولا تسمية كتابه باسم « الحلة السندسية فى الرحلة الأندلسية[1] » ، ثم عدل عن هذه التسمية إلى اسم « الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية » . وقد تكون التسمية الأخيرة أدلَّ على موضوع الكتاب وأوفق له .

وقد قضى شكيب قرابة ست سنوات يجول فى أفق الأندلس ، يطالع تاريخها ، ثم يتطلع إلى حاضرها ، ثم يقارن بين الرؤية والرواية ، ثم يفى بحق هذه وتلك فى كتابته .

وهو فى الكتاب يكثر من النقل عن المؤرخين ـ عرباً كانوا أو مستشرقين ـ ويسرد الكثير من المعلومات الجغرافية والتاريخية ، كما أورد كثيراً من تراجم الرجال على اختلاف مناهجهم ومسالكهم فى الحياة ، فهو يترجم للملوك ، والأمراء ، والفقهاء ، والأدباء ، وسواهم .

وقد سرد فى الكتاب أقوالَ القدماء والمحدثين عن الأندلس ، وما يتعلق بتاريخها وشئونها ، وقابلَ بين روايات العرب وروايات الإفرنج ، واستعان بمصادر كثيرة تدل على سعة اطلاعه وانفساح مطالعته .

وهو يتحدث فى كتابه بلغة الذاكر للماضى العربى الإسلامى وعظمته فى هذه الديار ، الباكى على الحاضر الذليل الذى لا يوائم هذا الماضى ، المحرِّض لقومه على أن يكونوا كأسلافهم ، وأن يستعيدوا ما كان لهم من قوة وعزّة .

---

(١) انظر مجلة الشورى ، العدد ٢٨٢ ، السنة السادسة — ١٦ يوليو ١٩٣٠ والعدد ٢٨٦ — ١٣ أغسطس ١٩٣٠ ، مقال « الرحلة إلى الأندلس » . والعدد ٢٨٧ — ٢٠ أغسطس ، مقال « رندة » .

ونلاحظ أن شكيب اهتم فى الجزء الأول بنقل أقوال السابقين — كياقوت ، والمسعودى ، ولسان الدين بن الخطيب — عن جغرافية الأندلس مع التعليق عليها ، وقد حدث تكرار خلال ذلك ، وهو يكرر ذكر الأعلام وأسماء البلاد باللغات الأسبانية والأفرنجية والعربية . وفى الجزء الثانى تحدث عن المدن ، وذكر من نَبَغَ من أهل كل مدينة ، وفى الجزء الثالث تحدث عن شرق الأندلس من نواحيه المختلفة .

والأسلوب فى الكتاب سهل واضح ، يترسل فيه صاحبه ، والمقدمة هى التى تميزت بأسجاعها .

وقد ذكر شكيب أنه سيجعل الجزء الأخير من هذه الموسوعة باسم « الأصول المعرقة ، والغصون المورقة ، فى تاريخ جزيرة ميورقة »[١] .

* * *

وهنا يمكن أن نعتب عتباً خفيفاً على شكيب حينما نراه كالمتناقض مع نفسه ، فهو هنا يقرر ويؤكد أن تاريخ الأندلس مهم ، وأنه مجهول من قومه ، وأنه محتاج احتياجاً شديداً إلى التأليف فيه ، فهل يسهل عليه أو علينا التوفيق بين هذا الكلام وبين كلام يعارضه أو يناقضه قاله منذ أكثر من أربعين عاماً قبل صدور « الحلل السندسية » ، حيث نجده فى تذييله لترجمة رواية « آخر بنى سراج »[٢] يقول :

« وما أقصد بهذا الذيل استقصاء تاريخ الأندلس الإجمالى إلا ما اضطر إليه مساق الكلام ، فقد كنت منذ نشأتى ممن لا يحبون التأليف فيما كثر فيه التأليف ، وطال فيه المقال ، كأنما أعده تكراراً لسابق ، أو إعادةً لصدى ، وخلواً من كل براعة .

---

(١) جريدة الفتح ، السنة السادسة ، العدد ٢٦٨ — بتاريخ ٥ جمادى الأولى ١٣٥٠ هـ .
(٢) طبعت هذه الرواية أول طبعة بمطبعة الأهرام بالإسكندرية ، سنة ١٨٩٨ .

وأخبار الأندلس مستفيضة فى التواريخ شرقاً وغرباً ، ومعروفة عند الأدباء بما لا يكون التأليف فيه سوى زيادة فى عدد الكتب ، وإنما يستحب الإنشاء فيما ندر فيه الكلام ، وعزّ البحث ، وطمست الأعلام ، فإذا قرأته العامة — بل الخاصة — سقطت منه على جديد ذى طلاوة ، ولم تسأمه النفوس لعدم تداولها مطالعته المرة بعد الأخرى مدارسةَ كتب القواعد التى لا تتغير »[1].

ومرور أكثر من أربعين عاماً على هذا الكلام لا يمكن أن يجعل أخبارَ الأندلس أقلَّ استفاضة ، بل المعقول أن تزيد استفاضتها على مرّ الأيام .

(٢٠) السيد رشيد رضا

أو إخاء أربعين سنة

طبع هذا الكتاب بمطبعة ابن زيدون فى دمشق سنة ١٣٥٦ هـ — ١٩٣٧ م . وهو فى اثنتين وثلاثين وثمانمائة صفحة[2] من الحجم المتوسط ، وبآخره فهرس فى أكثر من عشرين صفحة ، وفى آخر الكتاب يقول شكيب :

« وقد وقف بنا القلم عند هذا الحد ، بعد الاشتغال بهذا التأليف مدة شهرين ونصف شهر ، واصلين فيه الليلَ بالنهار ، فنسأل الله أن يتقبل عملنا هذا الذى لم نقصد به رئاء ولا سمعة ، وإنما قصدنا القيام بواجب معرفةِ الفضل العظيم الذى كان للمترجَم السيد رشيد رضا على العالم الإسلامى ، وبخاصة على هذا الفقير إليه تعالى ، بالغين فى كتابنا هذا منتهى الطاقة من التدقيق والتحرى ، وكان الفراغ

---

(١) رواية آخر بنى سراج ، ص ٦٠ . الطبعة الثانية .

(٢) جاء فى كتاب الدكتور سامى الدهان عن شكيب (هامش ص ١٦٦) أن عدد صفحات الكتاب هو (١١٨ صفحة) ويبدو أن هذا سهو أو خطأ مطبعى .

من تأليفه فى التاسع من صفر الخير سنة ١٣٥٦ هـ الموافق ٢١ من شهر إبريل ١٩٣٧ م ، وذلك فى مدينة جنيف فى سويسرة والحمد لله أولا وآخراً » [١] .

وقد فهمنا من العبارة السابقة أن شكيب قضى شهرين ونصف شهر فى تأليف الكتاب ، ولكن مقدمة الكتاب مذيلة بهذا التاريخ : « جنيف ٢٠ محرم سنة ١٣٥٦ »[٢] ، فإذا اعتبرنا المقدمةَ أول ما كتبه شكيب ، وقارنا بين تاريخ المقدمة وتاريخ الفراغ من التأليف كما ذكره شكيب وهو (٩ من صفر الخير ١٣٥٦) فإن النتيجة تكون هى أن شكيب ألَّف الكتاب فى أقل من شهر ، وليس هذا ببعيد ، فإن الكتاب ليس تأليفاً بالمعنى الصحيح للتأليف ، وإنما هو جمع ، إذ يضم الكتاب رسائل رشيد إلى شكيب ، ومقالات كتبها شكيب من قبل عن رشيد ، ومقالات نشرها رشيد من قبل عن شكيب .

ولكننا نعود فنقف أمام تحديد شكيب لمدة التأليف بشهرين ونصف شهر ، فنجد نصاً صريحاً يستحق الاعتبار ، فلعل خطأ قد وقع فى كتابة التاريخ فى المقدمة ، أو فى ذيل الكتاب ، أو لعلَّ شكيب كتب المقدمة خلال تأليف الكتاب لا فى أول تأليفه .

* * *

ويحدثنا شكيب عن السبب فى تأليف الكتاب بقوله : « قد كنتُ وعدت عند وفاة أخى شوقى رحمه الله بأنى أكتب فى ترجمة حاله وتحليل شعره وعلاقاتى الأخوية معه كتاباً أسميه (شوقى أو صداقة أربعين سنة) . وقد أنجزت وعدى بعونه تعالى ، وأهديت إلى روحه العبقرية هذه الريحانةَ الزكية التى روحت فيها من وجدانى ، وخففت من بثِّى ، وكذلك سأزف إلى روح الأستاذ الأكبر والمصلح

---

(١) السيد رشيد رضا ، ص ٨٠٢ .
(٢) السيد رشيد رضا ، ص ٣١ .

الأنور السيد رشيد رضا كتاباً يتضمن ما أعرفه من مناقبه ، وما أوثره من بدائعه وروائعه ، وأسميه أيضاً (السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة) ، فإني كنت قد عرفت شوقي قبل السيد رشيد — رحمهما الله تعالى — بسنتين أو أكثر قليلا ، والآن مضى على إخائنا — واحسرتاه — أربعون سنة [١] ، كما كان مضى على إخائي لشوقي يوم وفاته أربعون سنة » [٢] .

ويعود شكيب ويقول عن رشيد : « إنه قد سوَّد في خدمة هذه الأمة عشرات وعشرات ألوف من الصفحات ، فليس بكثير أن نخدم روحه بكتاب خاص » [٣] .

* * *

ويبدأ شكيب كتابه بمقدمة عن غرض الكتاب وعن السيد رشيد وجهوده ومؤلفاته ، ثم يورد — في نحو مئة وأربعين صفحة — [٤] ترجمة للسيد رشيد رضا بقلم رشيد نفسه ، وقد علق عليها شكيب تعليقات مفيدة متنوعة .

ويستطرد شكيب — على عادته — فيتحدث عن نفسه وعن أعماله ، لمناسبات قوية أو ضعيفة ، ثم يذكر في نحو خمسين صفحة [٥] كلاماً للسيد رشيد عن علاقته بالشيخ محمد عبده ، وعن صلته بشكيب ، ثم يورد رثاء رشيد لأخي شكيب

---

(١) في ص ٢٧٩ يذكر أنه تعارف معه مدة اثنتين وأربعين سنة .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٥٧ نقلا عن جريدة الجهاد ، من مقال لشكيب في تأبين السيد رشيد رضا عقب وفاته .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٧٦ .

(٤) من ص ٢٣ الى ص ١٤٣ . وقد نشر السيد رشيد هذه الترجمة في كتابه « المنار والأزهر » الذي يقول عنه شكيب : « وفيه ترجمة السيد رشيد نفسه بقلمه ، ونحن ناقلوها بحروفها في كتابنا هذا ، وقد علقنا عليها حواشي وافية في تاريخ علاقتنا معه » ص ١٠ كتاب السيد رشيد رضا .

(٥) من ص ١٦٦ إلى ص ٢١٧ .

«نسيب أرسلان»[١] ، ثم ينقل مقدمة رشيد لكتاب «الارتسامات اللطاف»[٢] ، ثم ما كتبه رشيد عن كتاب شكيب «حاضر العالم الإسلامى»[٣] .

وبعد استكمال استطراداته ، يورد شكيب رسائل رشيد إليه ، بعد أن يحذف منها ما يرى حذفه ، ويكتب هوامشَ وتعليقات على الرسائل خلال الكتاب ، ومنها ما يدور حول شكيب نفسه[٤] .

ويمكن أن نقول إن الكتاب للسيد رشيد وليس لشكيب ، فعمل شكيب فيه هو الجمع ، والترتيب ، والتعليق ، والتقديم .

وقد دارت هذه الرسائل حول أمور كثيرة منها : الخلافة ، والحكومة الكمالية ، والاتحاد بين العرب والترك ، والمؤتمر السورى الفلسطينى ، والعلاقات بين الملك ابن سعود والإمام يحيى ، والمسألة المصرية العربية ، والسياسة الهاشمية فى الحجاز ، والإصلاح الدينى ، والقضية السورية ، وثورة فلسطين ، وكتب شكيب ، وكتب رشيد ، والوحدة العربية ، وعظماء الإسلام ، ومباحثات لغوية ودينية كثيرة .

والكتاب له قيمته الكبيرة ، لما ضمه من معلومات ورسائل وتحقيقات لغوية ودينية ، وتصوير لجوانب مختلفة من العصر الذى كتب فيه ، ولكن الرسائل الموجودة فيه تحتاج إلى المحذوف منها ، كما أن قيمتها تزداد حين تتكامل مع الردود عليها .

* * *

---

(١) من ص ٢١٨ إلى ص ٢٢١ .

(٢) من ص ٢٣٢ إلى ص ٢٤١ .

(٣) من ص ٢٤٢ إلى ص ٢٥١ .

(٤) انظر مثلا ص ٨١ و ١١٢ و ٣١٨ و ٣٢٢ و ٣٣٧ و ٣٥٢ و ٣٦١ و ٥٢٥ و ٦٤٣ ... إلخ .

ونلاحظ هنا ملاحظة خفيفة :

لقد سمى شكيب كتابه عن شوقى « شوقى أو صداقة أربعين سنة » ، وسمى كتابه عن رشيد « السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة » ، فاستعمل كلمة « صداقة » مع شوقى ، وكلمة « إخاء » مع رشـيد ، والناس قد جَرَوْا على التعبير بالإخاء إذا كانت الصداقة قوية بالغة ، فهل كانت الصداقة بين شكيب ورشيد أقوى من الصداقة التى بين شكيب وشوقى؟ .

ربما كان ذلك كذلك ، فإن صلة شكيب بشوقى عمادها الناحية الأدبية والشعرية ، وهى لم تكن طليعةً النواحى فى شخصية شكيب ، وبعد أن انصرف إلى الشئون الإسلامية والعربية بوجه خاص ، وأما صلته برشيد فقد كانت صلة يوثقها أكثر من رابط ، فهناك ناحية الدين ، وناحية الاشتغال بالمسائل العربية والإسلامية، وناحية التلاقى فى كثير من الآراء .

ومع ذلك لا يفوتنا أن نقول إن شكيب قد عبر عن شوقى بكلمة « أخى » أو مادتها فى كثير من الأحيان ، وقد مرت علينا منذ قليل العبارة التى يشرح فيها شكيب سبب وضعه كتابه عن رشيد ، وفى هذه العبارة ذكر شكيب شوقى بوصف الأخوة أكثر من مرة .

وفى كتاب شكيب عن شوقى جاء وصف شوقى بالأخوة لشكيب عدة مرات . فهو يقول مثلا : « ويعلم الله أن ملاقاة أخى شوقى بغية تُقْصَد ، ومنهل يُورَد ، وإنى لأحج إليها من بلد إلى بلد ، فكيف وهى على طرف الثُّمَام ، وإنى لأحن إلى لقاء هذا الأخ الحميم(١) » . ويقول : « أخى شوقى الذى بينى وبينه من الإخاء والذِّمام مالا يكاد يوجد بين اثنين(٢) » .

---

(١) شوقى أو صداقة أربعين سنة ، ص ٧٩ والثمام والثموم : نبت معروف . ويقال لما لا يعسر تناوله : على طرف الثمام ، لأنه نبات لا يطول

(٢) المصدر السابق ، ص ٨٢ . والذمام: الحق والحرمة .

ويقول عن شوق : « فإنى لأبكيك بصفتين : صفة الأديب البَرِّ بلغته ، الغيور على صناعته ، وصفة الأخ الضنين بأخوته ، الحريص على مروءته ، فأنا فى مقدمة من لك من الإخوان والأتراب[1] » .

ويقول عن كتابه فى شوق : « وإنما هى رسالة توخينا فيها تجديدَ ذكرى شاعر كبير ، وتسجيل علاقاتنا مع أخ قديم ، إنجازاً لوعد قطعناه على أنفسنا يوم فُجعنا به ، والإخاء إخاءٌ فى الحياة وبَعْد الممات[2] » .

ويقول مخاطباً روح شوق : « فسلاماً يا أخى ومولاى ونورَ عيونى[3] » .

ومن يدرى ، فلعل شكيب لم يلتفت إلى التفرقة بين العنوانين فجاءا هكذا .

ونلاحظ وجوهَ شبه بين علاقة شكيب بشوقى وعلاقة شكيب برشيد ، فكل من شوقى ورشيد كان يعجب بهما شكيب ويمدحهما ، ويضفى عليهما أفوافَ الثناء ، وكل منهما صادقه شكيب مدةً طويلة بلغت أربعين سنة ، وحفلت بالروابط والمودّات .

وكل منهما قد حدث بينه وبين شكيب جفوة عارضة ، ثم زالت[4] .

وإن كنا فى الوقت نفسه نلاحظ أن شكيب يغلب عليه الاحترامُ لرشيد والحب لشوقى ، وكان بين شكيب ورشيد خلاف فى مسائل وآراء ، ولكن الخلاف يقلُّ بين شكيب وشوقى .

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٢٥ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٣٥ .
(٣) المصدر السابق ص ١٢٦ .
(٤) انظر ص ٣٨ من كتاب « شوقى أو صداقة أربعين سنة » . وانظر ص ١٥٥ و ٣٢٥ من كتاب « السيد رشيد رضا » .

(٢١) الوحدة العربية

هذا كتيب فى ست وعشرين صفحة من القطع الكبير ، طُبع بمطبعة الاعتدال بدمشق ، ونشره محمد ياسين عرفة صاحب مكتبة عرفة بدمشق ، وهو فى الأصل محاضرة ألقاها الأمير شكيب فى النادى العربى بدمشق مساء الاثنين ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٣٧ م .

(٢٢) النهضة العربية فى العصر الحاضر

طُبع هذا الكتاب فى مطبعة دار النشر بمصر ، وعُنيت بطبعه ونشره إدارة جريدة الجزيرة بدمشق ، وهو فى الأصل محاضرة ألقاها الأمير فى دار المجمع العلمى العربى بدمشق فى شهر تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٣٧ م ، وقدَّم له بتقدمة قصيرة محمد تيسير ظبيان الكيلانى منشىء الجريدة ، وقد تحدث شكيب فى الكتاب — أو المحاضرة — عن نهضة العرب الحاضرة من النواحى العلمية والأدبية والصحافية ، وفيها وصف دقيق لليقظة الفكرية التى دبت فى نفوس العرب .

وقد أشار شكيب فى بدء المحاضرة إلى محاضرته التى نشرت باسم (الوحدة العربية) . يقول : « لقد تكلمنا منذ أيام فى النادى العربى عن نهضة العرب السياسية ، وسيرهم فى طريق الاتحاد فيما بينهم ، اقتداء بغيرهم من الأمم اللائى كنَّ مفككات مبعثَرات ، فما زلن يسعين فى الانضمام إلى أن أصبحن كتلة واحدة ، ونحن نتكلم الآن عن نهضة العرب العلمية التى هى فى الواقع أساس النهضة السياسية ، مختارين لهذه المحاضرة مكانَ المجمع العلمى الذى هو المنبر الطبيعى للمباحث العلمية ، كما اخترنا النادى العربى منبراً للكلام عن الوحدة العربية التى هى من مباحثه »[1] .

---

(١) النهضة العربية ، ص ٥ .

(٢٣) عروة الاتحاد بين أهل الجهاد

هذا الكتاب مجموعة مقالات كتبها شكيب ونشرها فى صحف مختلفة ، ثم جمعتها وطبعتها إدارة جريدة « العَلَم العربى » التى تصدر فى « بوينس إيرس » ، وصاحبها الأستاذ عبد اللطيف الخشن ، وكان الطبع على نفقة إدارة الجريدة .

وقد ظهر من الكتاب الجزء الأول فقط ، وجاء على غلاف الكتاب : « وكان الفراغ من جمعه وطبعه فى شهر رجب سنة ١٣٦٠ هجرية ، الموافقة لشهر آب سنة ١٩٤١ ميلادية . طبع فى بونس إيرس عاصمة الجمهورية الفضية » .

والكتاب فى مائتين وخمسين صفحة من القطع المتوسط ، تشغلها مقالات عربية ، ثم ألحق بها سبع وخمسون صفحة فيها مقالات باللغة الفرنسية .

وفى أول الكتاب صورة لشكيب كتب تحتها : « رسم أمير الجهاد ، وعميد الأحرار ، دعامة الوطن العربى المفدَّى ، صاحب هذه الآثار الخالدة ، والآيات البليغة ، والحكَم الجامعة الدامغة ، سعادة الأمير شكيب أرسلان ، الرابض فى (جنيف) والعامل لاستقلال بلاده » .

وبعد ذلك نجد مقدمة بقلم الدكتور تقى الدين الهلالى ، تحدث فيها عن « صفحة جهاد عبقرية من أعمال الأمير شكيب أرسلان » .

ثم يحدثنا الأستاذ الخشن عن « الأسباب التى دعت لطبع هذا الكتاب ومسبباتها » ويقول فيما يقول : « التمسنا من عطوفته (١) أمراً بطبع مقالاته التى نشرت فى العَلَم ، وفى الصحف العربية الاستقلالية الحرة فى الوطن ، والمهجر ، فتلطف وأمرنا بطبعها ، وتقديم رَيْعها إلى جريدة العلم العربى ، نظراً لخدماتها وثباتها وجرأتها الوطنية ، ومبدئها الاستقلالى » .

---

(١) يقصد الأمير شكيب .

وتدور فصول الكتاب حول الحرب العالمية الثانية، وعن قومه «آل معروف»، وعن الحلفاء وتمويههم، وفرنسة وألاعيبها الاستعمارية، وواجبات العرب والمسلمين تجاه الأحداث، والعروبة جامعة كلية بين المسلمين والمسيحيين، ومستقبل البلاد العربية، وضرورة عقد المؤتمر العربي فى المهجر . . . إلخ .

(٢٤) رسالة البلاشفة

كتب شكيب هذه الرسالة، ودفع بها إلى جريدة « الجهاد » المصرية فنشرتها تباعاً، ثم جُرِّدت منها لتطبع مستقلة [١] .

(٢٥) رسالة رحلة ألمانية

هذه مجموعة مقالات وصف فيها شكيب زيارته لألمانية، ونشرها تباعاً فى جريدة (الجهاد) المصرية، ثم جمعها لنشرها فى كتاب [٢] . ويذكر الأستاذ عارف النكدى أن ذلك لم يتم فى حياة شكيب [٣] .

(٢٦) رسالة عن ضرب الفرنسيين لدمشق

يتحدث شكيب فى كتابه عن شوقى عن قصيدة شوقى فى ضرب الفرنسيين لدمشق بالمدافع، ثم يقول : « وقد نشرت أنا فى ذلك رسالة بالإفرنسية، وطبعتها فى جنيف، ووزعتها فى الآفاق، واستحسنها الناس، وجاءنى من المستر ماكدونالد

---

(١) انظر كتاب السيد رشيد رضا ص ٧٧٩ و ٧٨٤ و ٧٨٥ و ٧٩١ . والأستاذ عارف النكدى يقول إنها لم تطبع فى حياة شكيب — مجلة المجمع العلمى العربى — المجلد ٢٢ — ص ٩٠ .

(٢) كتاب السيد رشيد رضا، ص ٧٩٠ .

(٣) مجلة المجمع العلمى العربى — المجلد ٢٢ — ص ٩٠ — سنة ١٩٤٧ .

نفسه استفكار لتدمير دمشق ، وقد كان ذلك بعد رئاسته الأولى لنظارة انجلترة ، ولكن ماكدونالد هذا لم يكن بأقل ظلماً فى عمله لتهويد فلسطين التى نجيعتها لا تقاس بها نجيعة »[١] .

(٢٧) مقالات شكيب

يقول الأستاذ على الطنطاوى : إن شكيب « أعظم شخصية عربية » و « كان لسان الإسلام ومِذْرَه العرب » و « أحسب أن مقالاته لو جُمِعت لجاء منها كتاب فى ضعف حجم الأغانى »[٢] .

ويقول الأستاذ محمد على الطاهر : « وأما مدوّناته السياسية ومذكراته لجمعية الأمم البائدة باللغة الفرنسية وحدها ، فيقدرها خلصاؤه بعشرين ألف صفحة ، وقد أهدى مجموعتها رحمه الله قبل وفاته إلى وزارة الخارجية السورية »[٣] .

وجاء فى كتاب « عروة الاتحاد » أنه يقدَّر ما كتبه شكيب من الكتب والمقالات بخمس وثلاثين ألف صفحة من الحجم الكبير ، وذلك عدا رسائله الخصوصية التى هى أشبه بمقالات الصحف ، فإنه ظل عشرين سنة يكتب فى كل سنة ما يتراوح بين ١٥٠٠ و ٢٠٠٠ مكتوب ، والمقالات التى يحررها فى السنة من ٢٠٠ إلى ٢٥٠ مقالة بالعربية والفرنسية[٤] .

ويقول الأستاذ محمود طاهر إن كتابات شكيب تبلغ عشرين مجلداً ، كل مجلد

---

(١) كتاب شوقى ، ص ٢٥٥ .

(٢) كتاب ذكرى الأمير شكيب أرسلان ، ص ٦٦ . والمدره : السيد الشريف ، والمقدم فى اللسان واليد عند الخصومة والقتال (القاموس) .

(٣) المصدر السابق ، ص ٥٣ .

(٤) عروة الاتحاد ، ص ٧ و ٨ . والكتاب مطبوع سنة ١٩٤١ ، وشكيب توفى سنة ١٩٤٦ ولم ينقطع عن الكتابة فى سنواته الأخيرة إلا قبيل وفاته بأسابيع . انظر منبر الشرق ، عدد ٨ إبريل ١٩٥٥ .

ألف صفحة ، وتتكلف ثلاثة آلاف وخمسمائة صفحة ، كما يذكر أن الأمير كان ينوى اختيار طائفة من مقالاته فى المقتطف ، والمقتبس ، ومجلة المجمع العلمى ، والفتح ، والشورى ، والعهد الجديد ، والمؤيد ، وكوكب الشرق ، ليصدرها فى أجزاء متوسطة .

ويذكر أنه اقترح على الأمير جمعَ آثاره القلمية ، وذكر له أنه يمكن إصدار المجلد الأول من مجموعة آثاره ، وبعد ذلك تصير العناية بإصدار مجلد بعد مجلد ، واختار الأستاذ طاهر اسم « النمير المسلسل لأمير البيان المرسّل » عنواناً لهذه المجموعة . ويذكر أن الأمير وافق على ذلك الاقتراح بصفة مبدئية .

كما يذكر أن الأمير منذ سنة ١٣٤٠ هـ وهو يقيد محصول قلمه فى دفتر عنده ، سواء أكان مقالا أم رسالة .

وفى سنة ١٩٣٧ قال شكيب عن كتاباته : « حالتى الراهنة الآن من جهة الكتابة هى أنى أكتب فى الحَوْل ١٧٠٠ إلى ١٨٠٠ مكتوب خصوصى ، ونحواً من ٢٥٠ مقالة فى الصحف ، عدا التآليف المطبوعة التى تبلغ بالأقل ألفين إلى ٢٥٠٠ صفحة فى السنة(١) » .

* * *

وقد حدثتنى السيدة زوجته أن لدى أسرة شكيب خمسة وعشرين صندوقاً لم تُفتح ، فيها أوراق وكتابات لشكيب ، كما قالت إن الأمير قبل عودته الأخيرة إلى لبنان جمع كلَّ كُتبه المخطوطة ومذكراته ، ووضعها فى هذه الصناديق ، وأحضرها إلى لبنان ، وهذه الصناديق موجودة عند الأمير حسن شقيق شكيب ، وقد حاولتُ فى أثناء زيارتى له فى بيت أرسلان بالشويفات أن أطلع على شىء من هذه الآثار فلم أستطع .

---

(١) كتاب السيد رشيد رضا ، هامش ص ٥٢٦ .

وكذلك حاول الأستاذ محمد على الطاهر فى أثناء اصطيافه بلبنان سنة ١٩٥٣ العثورَ على مذكرات شكيب ، وبقية كتاب « الحلل السندسية » ، ولكنه لم يستطع[١] .

* * *

ومن فصوله المسهبة مقدمته لكتاب « النقد التحليلى » الذى ألَّفه الأستاذ محمد أحمد الغمراوى فى الرد على كتاب « فى الشعر الجاهلى » للدكتور طه حسين ، وجعل شكيب موضوعَ مقدمته : « الشعر الجاهلى ، أمنحول أم صحيح النسبة » ، وهى فى خمس وخمسين صفحة ، وقد تحدثنا عنها فيما سبق ، وقد عدها الزركلى فى كتابه « الأعْلام » كتاباً مطبوعاً[٢] ، ولكننا لا نعرف أنها نُشرت مستقلة .

---

(١) مجلة منبر الشرق ، عدد ٨ إبريل ١٩٥٥ .
(٢) الأعلام ، ج ٣ ص ٢٥٢ .

الفصل الثانى
المخطوطات

(١) بيوتات العرب فى لبنان

هذا الكتاب أحد مخطوطات شكيب المهمة ، وهو يقع فى ثلاث وثلاثين كراسة ، ونسخته موجودة عند الأستاذ محمد على الطاهر الذى يحدثنا بأن الكتاب فيما يبدو لم يتم تماماً ، لأن آخر المخطوط فى الكراريس يدل على قطع السياق . فالظاهر أن الأمير كان ينوى المضىّ فى إكمال كتابه عندما يستقر فى وطنه لبنان عقب عودته إليه من جنيف فى آخر أكتوبر سنة ١٩٤٦ ، ولكنه تُوفى فى العاشر من ديسمبر من السنة نفسها(١) .

ونذكر فيما يلى المقدمةَ التى كتبها شكيب للكتاب ، فى جنيف ، وهى مذيلة بتاريخ ١٩ تموز (يوليه) ١٩٤٦م ، وهى مع وجازتها تلخص موضوعات الكتاب ، وتوضح طريقته ، قال :

« الحمد لله سياجُ النعمة ، ومخافة الله رأسُ الحكمة ، ونشهد أن لا إله إلا الله ، شهادةً نستفتح بها أبوابَ الرحمة ، ونلجأ إليها فى كل بادرة وأزمة ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله ، كاشف الغمة ، وسراج الظُّلْمة ، صلى الله عليه وعلى إخوانه الأنبياء والمرسلين الذين باتباع وصاياهم تمام العقل وكمال الشِّيْمَة(٢) .

وبعد ، فإننى منذ عشر سنوات نشرت ديوانَ المرحوم أخى نسيب أرسلان ،

---

(١) المصدر السابق .
(٢) الشِّيمة (بكسر فسكون) : الطبيعة (القاموس) .

وعلقت عليه بعضَ حواشٍ ، وصدرته بترجمة الناظم ونسبه ، وسلسلة نسب العائلة الأرسلانية ، وسميت ذلك الديوان « بروض الشقيق فى الجزل الرقيق » .

ولما كنت قد رأيت نشرَ سجل النسب المحفوظ عندنا بأجمعه شيئاً لا يتناسب مع حجم الديوان نفسه ، عدلت فيه إلى الاختصار بقدر الإمكان ، ولكنني لم أجد بُدًّا من ترجمة كثير من الأعلام المشهورين فى التاريخ ، ممن وقعوا على ذلك النسب ، وأتيت على ذكر حوادث كثيرة تتعلق بأخبار جبل لبنان والمدن الساحلية من بر الشام ، متوخياً فى ذلك كلّه الاختصار .

إلا أننى وجدت الموضوع المتعلق بهذه الحوادث من الأهمية بحيث أنه يجدر باستيعاب أوفى ، وتدقيق أشمل . ولما كنت من بداية نشأتى مغرماً بعلم التاريخ ، وقد حررت فيه تواريخ كثيرة للبلاد النائية عنا ، وجدت من الأحرى بشأنى أن أؤرِّخ حوادثَ بلادى ، وأبدى فيها وجهة نظرى ، مع التحرِّى التام ، والتمحيص البليغ الذى تستطيعه الأفهام .

فوضعت هذا الكتاب الذى أعطيته عنوان (بيوتات العرب فى لبنان) ، ونقلت فيه نسبَ عائلتى بنى أرسلان بتمامه ، مع تراجم جميع الأعلام الذين جاء ذكرهم فى هذه الإثباتات المتوالية منذ سنة ١٤٢ للهجرة إلى يومنا هذا ، ما استطعت إلى وجود الترجمة سبيلا .

وتعرضت للحوادث التاريخية بصورة تكشف القناعَ عن كثير من غوامضها ، وأتيت بالجملة على أخبار القبائل العربية التى أوطنت جنوب لبنان من صدر الفتح العربى إلى اليوم ، وذكرت أخبار الأُسَر المشهورة الذين عاصروا أجدادنا طويلا أو قصيراً من الزمن ، وكان لهم شأن فى إدارة أمور لبنان ، وذلك مثل الأمراء التنوخيين ، والأمراء من بنى عَلَم الدين ، والأمراء بنى العساف ، والأمراء بنى سيفا ، والأمراء اللمعيين ، وذوى الإقطاعات المشهورة كالمشايخ الجانبلاطيين ،

والعماديين ، والنكديين ، وبنى تلحوق ، وبنى عبد الملك ، وغيرهم من ذوى الشهرة فى هذا الوطن العزيز وما جاوره .

فجاء كتاباً وافياً بهذا الموضوع بقدر الاستطاعة ، وسلكت فيه سبيلَ التمحيص التى هى مزية المؤرِّخ الذى يحترم نفسه ، ويريد أن يكون فى عداد المؤرّخين .

وما أبرّىء نفسى من الخطأ ، إذ كانت العصمة لله وحده ، والله تعالى أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب »[١] .

وقد يحسن أن نشير إلى أن الأمير قد أشار فى كتابه (الارتسامات اللطاف) إلى كتاب فى مثل هذا الموضوع ، وهو كتاب « تاريخ الأعيان فى جبل لبنان » تأليف الشيخ طنيوس الشدياق (شقيق أحمد فارس الشدياق) والمعلم بطرس البستانى[٢] .

وشكيب قد استشهد كثيراً فى كتاب « روض الشقيق » بكتاب « تاريخ الأعيان فى جبل لبنان » لطنيوس ، ونقل عنه كثيراً[٣] ، وقال : « وإنما ننقل عنه لاطلاعه على أكثر تواريخ لبنان ومخطوطات نادرة »[٤] .

(٢) البيان عما شهدت بالعيان

وعمن شاهدت من الأعيان من إعلان الدستور العثمانى إلى الآن

هذا كله عنوان كتاب مخطوط لشكيب ، تحدث عنه وقال إنه قد نقل فيه كتابَ الإمام الأوزاعى إلى الأمير صالح بن على بن عبد الله بن عباس فى أوائل

---

(١) نقلت المقدمة عن مجلة منبر الشرق ، عدد ٨ إبريل ١٩٥٥ من مقال للأستاذ محمد على الطاهر .

(٢) الارتسامات اللطاف ، ص ١٥١ . وفى كتاب الآداب العربية فى القرن التاسع عشر (ج ١ ص ١١١) أن اسم الكتاب « أخبار الأعيان فى جبل لبنان » .

(٣) انظر مثلا ص ١٤٦ و ١٥٥ و ١٥٦ و ١٦٩ و ١٧٠ و ٢٠١ و ٢١٨ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٣٦ .

الخلافة العباسية ، وذلك بمناسبة نظام الحكم فى لبنان : أهو استقلال أم امتياز [١]

وتحدث عنه قبل ذلك فى جريدة « الشورى » تحت عنوان : « لماذا لم يشترك الأمير شكيب أرسلان والشيخ عبد العزيز جاويش بالثورة العربية » . فذكر أنه لم يشترك فيها لأنه عرف أن البلاد العربية ستصبح نهباً مقسما بين انكلترة وفرنسة ، وتكون فلسطين وطناً قومياً لليهود ، ثم يقول :

« ولم يكن اعتقادنا أن البلاد صائرة إلى ما صارت إليه بعد الحرب عن مجرد حَدْس وتخمين ، وأخذ بالقرائن ، وإدراك طرف من خزائن الغيب ، كلا بل كنّا عدا القرائن والإرهاصات قد عرفنا تقسيم فرنسة وانكلترة لسورية وفلسطين سنة ١٩١٢ ، واطلعنا من ذلك على معلومات راهنة لا تقبل الرد ، وسأشرح هذه المسائل كلّها مع غيرها فى كتاب أنا مباشرٌ تحريرَه تحت اسم (البيان عما شهدته بالعيان ، وعمن شاهدته من الأعيان ، من إعلان الدستور العثمانى إلى الآن) ، وأن هذا التقسيم الذى وقع سنة ١٩١٢ اعترف به المسيو بوانكاريه سنة ١٩١٢ فى جواب أجاب به المسيو فيكتور بيرار فى مجلس السنات ، فهو أمر راهن ، لا يرجم بالغيب »[٢] .

وفى رسالة من شكيب لعلى الغاياتى بتاريخ ١١ إبريل ١٩١٩ يقول : « وأنا الآن أكتب خاطراتى تحت عنوان (البيان عمن شاهدت من الأعيان وشهدت بالعيان) فيه ذكر كل من عرفتهم فى حياتى ممن يستحق الذكر ، مرتبة أسماؤهم بحسب حروف الهجاء ، وكل هذه الأخبار تَرِدُ هناك ، ما يتعلق بكل واحد تحت اسمه ، وكل مسألة أبرهن عليها ، وآتى بأدلتها وشهودها[٣] » .

---

(١) جريدة الشورى ، السنة السادسة — العدد ٢٦٤ — ٢٧ رمضان ١٣٤٨ هـ — ٢٦ فبراير ١٩٣٠ م .

(٢) جريدة الشورى — السنة الخامسة — العدد ٢٢١ — ٣٠ شوال ١٣٤٧ — ١٠ إبريل ١٩٢٩ .

(٣) جريدة منبر الشرق ، عدد ٦ فبراير ١٩٥٣ .

(٣) تاريخ بلاد الجزائر

وأخبار المرحوم الأمير عبد القادر

لاحظ شكيب فى شبابه الاضطرابَ الذى يقع فى تعريب الأعلام العربية المكتوبة بحروف أجنبية ، فحاول أن يبذل مجهوداً لإصلاح ذلك ، وعبر عن ذلك المجهود بقوله :

« وقد كنت فى أوائل عهد المعاناة عرَّبت تاريخاً لبلاد الجزائر وأخبار المرحوم الأمير عبد القادر ، فوجدت فيه كثيراً من الأعلام من أسماء وقبائل وأماكن لم أدر تماماً ما حقيقة أصلها ، فقيَّدْتها كلها فى فهرس معى ، وعرضته على حضرة العلامة الشريف السيد محمد مرتضى الحسنى الجزائرى ابن أخى المرحوم الأمير عبد القادر وأحد علماء المغرب فى المشرق ، فحقق لى ألفاظها .

وهكذا أمكننى ردها إلى أصلها ، لأنه إن أمكنت معرفة الأعلام المشهورة مثل (أوران) بأنها (وهران) ، فكيف تمكن — بدون موقِّف — معرفة (أين مدهى) بأنها (عين ماضى) وهلم جرا[1] » .

ولا ندرى مصيرَ هذا الكتاب المترجَم .

(٤) ما لم يرد فى متون اللغة

فى رسالة خطية بين يدىَّ من شكيب إلى رشيد بتاريخ ١٣ ربيع الأول ١٣٥٠هـ (١٩٣١م) يقول : « وقريباً سأنشر رسالةً فيما جاء عن الذين يستشهد بعروبتهم ولم يرد فى متون اللغة » .

---

(١) مجلة المشرق (بيروت) — المجلد الأول — العدد ١٩ — ص ٨٧٣ — سنة ١٨٩٨ م

(٥) حياة شكيب بقلمه

كتب المرحوم شكيب أرسلان ترجمة حياته بقلمه ، وضمّنها مذكراته عن الأحداث السياسية والاجتماعية التى وقعت فى عصره ، واشترك فيها أو تأثر بها ، أو وقف على أخبارها وأسرارها .

وقد استودع هذه الترجمة مكتب المؤتمر الإسلامى بالقدس ، بعد الاحتياط له بالتصديق والتسجيل ، وذلك حتى تنشر الترجمة بعد وفاته[١] .

وكان هذا المؤتمر الإسلامى قد انعقد فى القدس سنة ١٣٥٠هـ — ١٩٣١م لبحث قضية فلسطين ، وكان له مكتب مستقل وسجلات خاصة فى المسجد الأقصى ، وقد سألتُ زوجةَ شكيب عن هذه الترجمة ، فقالت إنها سألت عنها الحاج أمين الحسينى فأجابها : إننى خلَّفتها بالقدس . وسألتُ الحاج أمين عن الترجمة ، فأجابنى بأنه تركها فى مكتبة المؤتمر فى عهدة شخص اسمه « على » ، وأنه سيبعث للسؤال عنها .

وحاولتُ العثور على هذه الترجمة ، فكتبتُ فى أغسطس سنة ١٩٥٥ كتاباً إلى أخى الأستاذ عبد العزيز حسين — وكان مقيما بالقدس حينئذ فى زيارة موقوتة — ورجوته أن يعيننى فى البحث عن هذه الترجمة ، فجاءتنى منه رسالة بتاريخ ١٩٥٥/٨/٢٠ وفيها يقول :

« كلفتُ أكثرَ من واحد للحصول على ما أردت ، فاتضح أن المكتبة مقفلة ، وذكر أحدهم أنه سبق أن بحث عن الكتاب فلم يجده فى تلك المكتبة أو سواها ، والتقيت بالأستاذ محمود يوسف[٢] ، فذكر لى أنه على علم بجدِّك

---

(١) كتاب السيد رشيد رضا ، ص ١٦١ و ١٦٢ و ١٩٨ وهامش ص ٢٠١ .

(٢) الأستاذ محمود يوسف حبيه ، مدرس فلسطينى ، تخرج فى الأزهر الشريف ، وكنت قد كتبت إليه فى الموضوع نفسه .

فى الحصول على الكتاب ، أو على نبذة منه ، وأنه لم يتيسر ذلك ، وعلى كل حال فإنى طلبت من الأستاذ محمود ومن شخص آخر أن يحاولا محاولةً أخيرة ، فإذا جدّ شىء بلّغتك إياه » .

ثم كتبتُ إلى سماحة الشيخ عبد الله غوشة رئيس الهيئة الإسلامية العليا بالقدس ليبحث عن الترجمة ، فجاءتنى منه رسالة بتاريخ ١٧ صفر ١٣٧٥ هـ — ٤ أكتوبر ١٩٥٥ م وفيها يقول :

« بالإشارة إلى كتابكم الذى تطلبون فيه البحث عن ترجمة المرحوم الأمير شكيب أرسلان المكتوبة بخط يده ، والمودعة فى مكتب المؤتمر الإسلامى فى القدس أرجو أن أعلمكم أن الجهود التى بذلت للعثور على الترجمة المذكورة لم تُجْدِ نفعاً ، ذلك لأن أوراق المؤتمر والإضبارات الخاصة به قد وُضعت فى غرفة ، وتكدس بعضها فوق بعض ، بحيث أصبح من العسير فى الوقت الحاضر معرفة ما إذا كانت هذه الترجمة موجودة أم لا . .

وعلى كل فسوف أبذل جهوداً أخرى فى البحث والتنقيب ، وفرز الأوراق المبعثرة هنا وهناك ، لعلِّى أصل إلى شىء ، وسأخبركم عن كل ما يجد فى الموضوع » .

وفى أكتوبر سنة ١٩٥٥ زرت القدس مشتركاً فى « مؤتمر الخريجين العرب » . والتقيت بالأستاذ عارف العارف ، وسألته عن الترجمة ، فقال إنه يسمع بها ، وذهبت معه إلى المكتبة ، ودخلناها فإذا أوراق متناثرة ، وأضابير مشوشة ، وبحثنا طويلا بلاجدوى ، وكان معنا أحد العلماء هو الشيخ عبد الحميد السائح رئيس محكمة الاستئناف الشرعية ، فوعدنى بمواصلة البحث ، فإذا عثر على الترجمة أعطاها للأستاذ صالح رجب الخميسى المبعوث من مصر للتدريس بالقدس ، لينقلها ويبعث بها إلىَّ .

ثم جاءتنى رسالة من الأستاذ الخميسى بتاريخ ١٢ نوفمبر سنة ١٩٥٥ م وفيها يقول :

« طالت غيبتى عنك ، وطال انتظارى إجابةً من سماحة القاضى فضيلة الشيخ السايح ، ثم كان لقاؤنا بعد نحو أسبوع من عودتك ، اتفقت معه على أن أزوره فى مكتبه ، ثم نقوم معاً إلى المشرف على مكتبة المؤتمر ، وذهبت إليه فى الموعد ، فأخبرنى أنه كان قد كلَّف المشرفَ البحث عن المخطوط ، وقد عاد إليه بنبأ غير سار ، هو أن المخطوط مفقود ، فطلب منه القاضى ورقة رسمية تثبت فقدانه ، فعاد المشرف فطلب مهلة ليبحث بدقة ، ثم كان موعد ثان ، فثالث ، فرابع .

وأخيراً عاد المشرف ليقول : إنه متأكد من فقدان المخطوط ، ولو أن فى بعض الغرف (دشتاً) من الأوراق مبعثراً ، والتنقيب فيه يحتاج إلى فسحة من الوقت غير قليلة ، ولعل المخطوط بين هذه الأوراق المهملة ، فصبراً » .

وصبرت حيناً ، ثم عدت فى صيف ١٩٥٦ فكتبت إلى الأستاذ روكس بن زائد العزيزى بعمان أسأله أن يتصل بالأستاذ عجاج نويهض لعل عنده معلومات عن حياة شكيب وترجمة حياته بيده ، فجاءتنى منه رسالة تاريخها ٢٨ أغسطس ١٩٥٦ م وفيها يقول :

« حال مرضى المفاجىء الذى أزمنى المستشفى أياماً دون الاتصال بالأستاذ الكريم عجاج نويهض ، وفى اللحظة التى غادرت فيها الفراش ذهبت لزيارته ، وذكرت له أن سيادتك تبحث عن مراجع يمكن الاعتماد عليها بشأن المرحوم شكيب أرسلان ، وقد رحب حضرته بالفكرة ، ووعد بكل مساعدة ممكنة ، لكنه يرى أن تجودوا بالأسئلة التى تريدونها ، ليتولى هو الإجابة عما يستطيع الإجابة عليه .

أما مذكرات الأمير شكيب فقد ضاعت فى جملة ما ضاع من المجلس الإسلامى الأعلى ، لكنه يوجد منها نسخة عند ابنه غالب أرسلان . . » .

ثم ذكر الأستاذ روكس عبارة عن غالب ينتقده فيها ، لأنه حجز مذكرات أبيه ، وحجب مراسلاته وأوراقه عن النشر ، وهو أمر لا يليق بحق والده .

هذا وقد أطلعنى الأستاذ على رشدى الذى كان يراسل الأمير من القدس على بعض رسائل من شكيب إليه ، ومن هذه الرسائل نفهم أن شكيب كلّفه بنسخ ترجمة حياته على الآلة الكاتبة ، وأنه يتأخر قليلا فى إرسال الترجمة إلى مكتب المؤتمر الإسلامى بسبب الثورة فى فلسطين .

ففى رسالة بتاريخ ١٥ ربيع الأول ١٣٥٥ ﻫ — ١٩٣٦ م كتب شكيب إلى على رشدى من جنيف يقول :

« قد تلقيت جميع ما أرسلتموه من نسخ ترجمة حياتى إلى آخر ما وصلنا فيها ، وهو صفحة ٨٧ بالآلة الكاتبة ، وقرأت جميع مكاتيبكم التى فى صحبة الترجمة ، وشكرت همتكم ، ولولا الحوادث الحاضرة فى فلسطين ، وشغل البال من جهتها ، لكنت باشرت إرسال التكملة قطعة بعد قطعة ، ولكن شغل البال بفلسطين من جهة ، ووجود أربعة كتب لى تحت الطبع من جهة أخرى — ولا بد من متابعة الإرسال إلى المطابع — كل ذلك جعلنى أتأخر هذه المدة عن إكمال الترجمة ، وسأشرع بذلك إن شاء الله بعد أن تتقدم المطبوعات فى طريق النجاز » .

وفى رسالة لشكيب من جنيف بتاريخ ١٠ جمادى الآخرة ١٣٥٥ ﻫ — ١٩٣٦م إلى الأستاذ رشدى — الذى كان حينئذ بالقاهرة — يقول شكيب :

« عرفت أن تأخرك عن جوابى هو بسبب الثورة فى فلسطين ، وهذا أيضاً هو السبب فى تأخيرى إعادة ترجمة حياتى إلى مكتب المؤتمر الإسلامى ، وعسى أن تجاب مطالب العرب ، وتهدأ الحال فى فلسطين ، وتعودوا إلى القدس ، فأبعث إليكم بالترجمة تحت التصديق ، ثم أباشر إكمالها ، لأنها ليست إلا الربع بالنسبة إلى الباقى » .

ونفهم من هذا أن الترجمة تبلغ نحو ثلاثمائة وخمسين صفحة من الحجم الكبير الذى اعتاد الناس الكتابة عليه بالآلة الكاتبة .

(٦) بحث عن طرابلس وبرقة

فى تعليقات الأمير شكيب على الطبعة الثانية من كتاب (حاضر العالم الإسلامى) يذكر أنه شرع فى بحث عن البلاد الطرابلسية ، فيقول :

« ولما كنا قد دخلنا فى بحث طرابلس وبرقة فقد رأينا أن نتم هذا الفصل بمعلومات إحصائية وجغرافية عن تلك البلاد كنا جمعناها فى أثناء ذهابنا بنفسنا إلى الجهاد فى برقة سنة ١٩١١ إلى ١٩١٢ ، وأجمعنا أن نحررها فى كتاب مستقل برأسه ، إلا أن العوائق الكثيرة من توالى الأسفار وتحرير الأسفار ، وغير ذلك من الأشغال والمهمات لم تتح لنا أن نبرز هذا الكتاب إلى الوجود .

فرأينا الآن أن نلخص هذه المعلومات هنا فى هذه الطبعة من هذا الكتاب ، كما أننا كنا فى الطبعة الأولى قد ذكرنا كثيراً منها فى عرض البحث عن السادة السنوسيين وزواياهم »[١] .

ويقول شكيب أيضاً فى شأن هذا الكتاب : « لعلنا فى يوم من الأيام ننشر كتاباً على حدة فى قضية طرابلس ، نثبت فيه جميعَ ماوقع بيننا وبين إيطالية فى هذا الموضوع بالوثائق الخَطِّيَّة ، وننشر جميع المكاتيب الواردة إلينا من الطرابلسيين ، غير محتجنين شيئاً سوى ما يجوز أن يقع من أجله ضرر بحق كاتبيه ، فإننا لا نرضى أن يصاب أحد بأقل ضرر لأجل إثبات حجتنا »[٢] .

---

(١) حاضر العالم الإسلامى ، ج ٢ ص ٨٥ .

(٢) مجلة الشباب — العدد ٢٧٦ — ١٢ شوال ١٣٥٦ هـ — ١٥ ديسمبر ١٩٣٧ .
وغير محتجنين : غير كاتمين أو محتجزين .

(٧) الحلة السنية فى الرحلة البوسنية

يقول شكيب فى تعليقه على تاريخ ابن خلدون : « ولنا رحلة إلى بلاد (بوسنة . وهرسك) جمعنا فيها كل المعلومات اللازمة عن أصل (البوشناق) وعن أصل (البوغوميل) ، ومرادنا نشرها فى أول فرصة » (١) .

وفى مكان آخر يقول : « وقريباً سأصدر كتاباً أسميه (الحلة السنية فى الرحلة البوسنية) أذكر فيه سياحتى فى هذه الأيام الأخيرة إلى بلاد المجر ويوغوسلافية ، وألخص فيه هذه المباحث إن شاء الله تعالى » (٢) .

وحينما يتحدث شكيب فى كتابه (تاريخ غزوات العرب) عن الإسماعيلية يقول : « وسنذكر شيئاً أوسع من هذا عن الإسماعيلية (أى مسلمى المجار) فى رحلتنا إلى بلاد المجر وبوسنة » (٣) .

ولما مات سالم أفندى مفتيج وجمال الدين أفندى جاويشو — وكانا رئيسين لمجلس علماء البوسنة والهرسك — رثاهما شكيب ، وقال فيما قال : « وإنى لكاتب هنا على العجلة ما يحضرنى بشأنهما ، ولا سيما بشأن أخى سالم أفندى مفتيج على أن تكون هذه العجالة مقدمة بين يدى كتاب خاص مجموعة عندى مواده عن سياحاتى الثلاث إلى يوغوسلافية ، ولم يؤخرنى عن ترتيبه وتمثيله سوى تراكم الشواغل وتزاحم الشواده » (٤) .

---

(١) تاريخ ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول — ص ١٣٥ .
(٢) مجلة الفتح ـ السنة السابعة ـ العدد ٣١٠ — ١٤ جمادى الأولى ١٣٥١ ، مقال (أصل إسلام البوشناق) .
(٣) تاريخ غزوات العرب ، ص ٢٠٨ .
(٤) مجلة الشباب ـ العدد ٤٠٥ — ٦ يوليو ١٩٣٨ . وفى القاموس : المشاده : الشواغل .

وفي رسالة خطية بين يديّ من شكيب إلى رشيد تاريخها ٩ سبتمبر ١٩٣٢م يقول في حاشية بأعلاها:" قريباً نضع رسالة عنوانها الحلة : السنية في الرحلة البوسنية، نطبعها عندكم إن شاء الله" .

(٨) اختلاف العلم والدين

هذا كتاب ترجمه شكيب عن الفرنسية فى صدر شبابه ، ومؤلف الكتاب هو العلامة « درابر » الأمريكى المشهور ، وقد سبقت إشارة إليه ، وكان شكيب معجباً بهذا الكتاب ،ولذلك يقول عنه :

« ومن أعظم المؤلفين الذين أجادوا فى موضوع الإسلام العلامة (درابر) الأمريكى المشهور ، صاحب كتاب (اختلاف العلم والدين) ، فقد كتب كتاباً نادر المثال فى تاريخ الحركة الفكرية العلمية فى العالم ، وما كان بإزائها من العقائد والأديان ، وما وقع من المصارعة بين المبدأ العلمى والمبدأ الدينى .

وكنت اطلعت على هذا الكتاب ، إذ كنت فى الثامنة عشرة من العمر ، وأجمعت ترجمته إلى العربية ، ثم أنجزت ذلك نقلا عن نسخته الإفرنسية التى كان يسهل على الترجمة عنها أكثر من اللغة الإنكليزية .

ثم إنى لأجل زيادة التدقيق والضبط أطلعتُ عليها العلامة الشهير أستاذ أساتيذ العصر الدكتور فانديك ، الذى كان لى عليه تردد كثير ، وكان له نحوى ميل شديد ، وكنت ممن يستضىء بآرائه ، فالدكتور فانديك والأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده طيَّب الله ثراهما ، هما اللذان صححا عزمى على ترجمة هذا الكتاب ، وباشرت ذلك ، وصرت آتى من الترجمة إلى الدكتور بكراسٍ كراس ، وهو يطالعها ويراجعها ، ويصحح ما يراه محتاجاً إلى التصحيح .

وقد كان تصحيحه للألفاظ العلمية والاصطلاحات الفنية التى لم أكن لذلك

العهد أركن إلى نفسى فيها ، ولا تزال تصحيحات الدكتور فانديك بخط يده على حواشى المخطوط .

وإن يسّر الله طبعَ هذا الكتاب فسأطبع عبارات تصحيحه كما كتبها هو ، أى منذ ٤٣ سنة ، ولقد شهد لى الدكتور يومئذ بصحة الترجمة ، وقال لمن سأله عنى فيها هكذا : (جاء بالصنعة)[١] »

وقد ذكر شكيب فى (حاضر العالم الإسلامى) الفصل الرابع من هذا الكتاب وعنوانه : (فى تجدد العلوم فى الجنوب) . وقد استغرق أكثر من عشر صفحات[٢].

وبعد أن ينقل شكيب هذا الفصل يقول : « هذا ما اخترنا نقله من ترجمة كتاب درابر (اختلاف العلم والدين) ، وهو كتاب شهير مشحون بالفوائد ، إذا انتدح الوقت قد نعيد النظر عليه ، ونطبعه مع تعليقات الدكتور فانديك الذى طالع الترجمة كلها »[٣] .

(٩) مدنية العرب

هذا كتاب ترجم خلاصتَه شكيب عن غوستاف لوبون الفيلسوف الفرنسى المشهور ، ولم ينشره . وعنه يقول شكيب :

« وممن تكلم على مدنية العرب وأجاد ، واشتهر كتابه فى كل ناد ، الفيلسوف الإفرنسى الدكتور غوستاف لوبون الذى توفى منذ نحو شهرين أو ثلاثة عن ٩١ سنة ، جزاه الله عن العرب وعن الإسلام خيراً .

ولقد لخصت كتابه فى رسالة وجيزة تذكرة لنفسى ، ثم بلغنى أن الكاتب

---

(١) حاضر العالم الإسلامى ، ج ١ ص ١٤١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٤٢ — ١٥٥ .

(٣) المرجع السابق . وانتدح الوقت : اتسع ، إذ يقال ندحه كمنعه : أى وسعه (القاموس) .

المصري المعروف السيد محمد مسعود قد ترجم الكتاب إلى العربية ترجمة تامة، فلهذا فضلت طيَّ رسالتي هذه على غرِّها . منتظراً ظهور الترجمة الكاملة"(١)

(١٠) الجيش المعبا من تاريخ اوربا

في ملحق لرسالة من شكيب لرشيد بتاريخ ٢ ذي الحجة ١٣٤٣هـ - ١٩٢٤م يقول: " فإنني لما ذهبت إلى أوربة شاباً سنة ١٨٩٢ كنت شرعت بكتاب أسميه: (الجيش المعبا من أخبار أوربا)

(١١) قضيتنا مع سمو الخديوى السابق

من أولها إلى آخرها

بين يدىَّ رسالة خطية من شكيب إلى رشيد ، وهى غير مؤرخة ، ولكن يترجح من سياق تتابع الرسائل أن هذه الرسالة كُتبت فى أوائل سنة ١٣٥١ هـ — ١٩٣٢ م . وفى هذه الرسالة يقول بعد أن أشار إلى خلافه مع الخديوى :

« لذلك أنا مباشر تأليف كتاب عنوانه (قضيتنا مع سمو الخديوى من أولها إلى آخرها) سأكتب فيه تاريخ علاقتى معه ، ومعرفتى به من يوم حرب طرابلس إلى اليوم ، ولا أتعرض إلا لما عرفته بنفسى ، وما تعلق بى ، إلا فى الأمور التى تسوقها شجون الحديث ، وسيخلو كتابى من أى كلمة طعن أو سب . وإنما سيذكر الأمور كما وقعت .

هو يريد أن يثبت أنى قبلت منه دراهم . نعم مع الأسف فى أوربة قبلت كلام بعض الأصحاب ، وقبلت منه الراتب ٣٠ جنيهاً فى الشهر ، ثم استعفيته منه ، فأصر عليه ، فقبلت ثانية حياء منه ، إلا أنى والحمد لله لم أسرق دراهم منه ولا من غيره .

---

(١) حاضر العالم الإسلامى ، ج ١ ص ١٠٥ .

قبلت معاونة أمير مسلم عظيم الثروة بعد إلحاحه بها ، وأنفقت هذه المعاونة على قضية وطنية عامة ، وأنفقت أكثر منها بكثير ، وبعت من أملاكي في سبيلها ، وفي العام الماضي بعت بألف وأربعمائة جنيه ، ومن سنتين رهنت بألفي جنيه ، والآن أنا مديون بسبعمائة جنيه ، وحالتي المالية غير مجهولة .

فماذا يريد أن يثبت الخديوى بنشر هذه المكاتيب ؟ [1] .

أما جنابه العالي فلما قبض ذلك المبلغ من الألمان ليرشو به بعض صحافي فرنسة ، وأعطى منه جانباً إلى بولو . . . وافتضحت المسألة إلى أن أدت إلى شنق المذكور ، واضطر سموه إلى رد المال إلى الألمان ، أعاده ناقصاً ، يقال بنحو من النصف ، ويقال بقيمة الثلث ، وهذا الذي يعاب ، والذي يصح أن يكون فضيحة .

كون رجل خادم لقضية وطنية عامة يقبل رفداً بسيطاً من أمير غنى من أمراء الإسلام ، هذا ليس بعيب ، لا سيما إذا كان هذا الوطني ليس بذي ثروة . أما أن يأتي أمير مسلم كان على عرش مصر فيجعل نفسه واسطة رشوة بين أجانب ، ويتسبب في قتل صديق له ، ثم يعيد المال بعد أن يأكل منه جانباً كبيراً ، فهذا هو العيب ، وهذا هو العار .

وثائق دعوى بولو موجودة ، ووثائق اتفاقه مع إيطالية على مسلمي طرابلس موجودة ، وهلم جرا .

أما في كتابي سيكون كلامي بكل صراحة ، ومن هذا النمط . ولقد فاتني بدون شك الاحتياط الذي عمله هو بحفظ مكاتيبي وإيداعها في بنك مثل الكنوز ، مما يدل على سوء نيته من الأول ، ولكنني هذه المدة بحثت في أوراقي فوجدت من أنطون مستشار الخديوى بقايا مكاتيب بأمر الخديوى ، نشرُها يضر بالخديوى .

---

(١) يشير شكيب إلى مجموعة رسائل بعث بها إلى الخديوى ونشرها في ذلك الوقت بسبب متاعب لشكيب ، وتفصيل القول عن الموضوع ليس هذا مجاله .

ووجدت مكاتيب من عبد الله البشرى بأمر سموه يثبت منها أنه كان يتعرض لنا بتقديم المساعدة ، ولم نكن نحن الذين نطلبها . كتابى سيكون مهماً ، ولكنى متربص الآن ، حتى أرى ماذا يريد أن يصنع » .

ويضع شكيب هامشاً على الرسالة يقول فيه : « على كل حال كتابى على قضيتى مع سموه ينبغى أن يكون حاضراً » .

(١٢) ذكريات الحرب

فى رسالة خطية بين يدىَّ من شكيب لرشيد بتاريخ ٩ ديسمبر سنة ١٩٢١ يقول:
« أما ما عملته أثناء الحرب من معاكسة جمال فى أمر القتل والتعذيب ، وما قمت به من خدمة أبناء الوطن بدون استثناء ، ومن مساعدتى حتى لأعدائى ... إلخ ، فكنت باشرت تحرير كتاب اسمه (ذكريات الحرب) أى كما يقول الأتراك (خاطرات الحرب) سيكون فيه كل شىء ، فصرت أعجِّل الآن فى تحريره وطبعه ليظهر كل شىء بالبرهان والدليل ، بل بالأسناد والوثائق ، لكن لما كنتم تطلبون شيئاً مختصراً مستعجلا ، هأنذا مقدِّم لكم خلاصةً صافية على حدة ، انشروها ، أو خذوا منها ما شئتم للمنار ، ثم أعطونى رأيكم فى اسم الكتاب هكذا ، هل هو موافق أم لا » .

وفى رسالة خطية بين يدىَّ منه إلى رشيد بتاريخ ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٢١ يقول إنه مرسل معها جزءاً من ذكريات الحرب ، وأنه قدَّم منها عشرين صفحة ، وأنه سيكتب فصلا عن المجاعة ، وهو يقصد مجاعة لبنان فى أثناء الحرب .

وفى رسالة أخرى بتاريخ ٤ يناير ١٩٢٢ ما يفيد أنه أرسل حلقات من هذه الذكريات . وقد نشرت جريدة « المنار » معظم هذه المذكرات تحت عنوان « كوارث سورية فى سنوات الحرب » فى المجلدين الثانى والعشرين والثالث والعشرين .

(١٣) مخطوطات أخرى

كتب الأستاذ عارف النكدى فى مجلة المجمع العلمى العربى [1] مقالا يذكر فيه مخطوطات أخرى لشكيب منها :

١ — تاريخ لبنان ، وقال إن عنده نسخة منه . ويظهر أنه (بيوتات العرب فى لبنان) .

٢ — إصلاح العامية ، ويظهر أنه المسمَّى (القول الفصل ، فى رد العامى إلى الأصل) . وقد كتب شكيب فى مجلة المجمع العلمى العربى مقالا بعنوان « استطلاع واستفتاء » وفيه يقول : « ثم فى جبل لبنان يقولون (قندى) بمعنى ضعف واستخذى ، وقد بحثت عنها فى مشروع كتاب أتوخى وضعَه فى ردِّ العامى إلى الأصل ، فلم أجد (قندى) ، وإنما وجدت (قندل) بمعنى ارتخى » [2] . وقد ذكره الدكتور سامى الدهان بالاسم الأخير ، كما ذكر أن من مخطوطات شكيب كتاباً اسمه (اللهجات العربية) [3] .

٣ — وهناك أيضاً كتاب (التعريف بمناقب سيدى أحمد الشريف) ، وهو فى تاريخ السيد أحمد الشريف السنوسى الذى كان شكيب صديقاً عزيزاً عليه ، وكانت بينهما مراسلات تدل على إخلاص وثقة ، وقد تم هذا الكتاب ولم يُطبع [4] . ويقول شكيب عن هذا الكتاب إنه « فى ذمتى دَيْن مستحق لابد من تأديته إن شاء الله قبل الرحيل من هذه الدنيا » [5] .

---

(١) المجلد ٢٢ — ص ٩٠ — سنة ١٩٤٧ .

(٢) مجلة المجمع العلمى العربى ، المجلد الرابع ، عدد حزيران ١٩٢٤ .

(٣) انظر محاضرات عن الأمير شكيب أرسلان ، هامش ص ١٩٤ .

(٤) جريدة منبر الشرق — ٨ إبريل ١٩٥٥ — والشباب — العدد ٣٨٣ — ٢٤ ذى القعدة ١٣٥٦ هـ — ٢٦ يناير ١٩٣٨ .

(٥) الشباب — العدد ٤٠٥ — ٦ يوليو ١٩٣٨ .

الفصل الثالث

كتب مقترحة أو كانت فى النية

---

(١) الفوضى الإسلامية

فى كتاب شكيب عن شوقى يقول : « وإن فُسح لى الوقت لأكتبنّ كتابا ، وأسميه : « الفوضى الإسلامية ، وما جنته على المسلمين ، والوحدة الإسلامية وما جنته للمسلمين[1] » . وهو يقصد بالفوضى هنا الشقاق والفرقة التى تقع بين أبناء الإسلام .

(٢) قطف العسلوج

حينما كان شكيب فى رحلته للحج أحس بالحرارة الشديدة والقيظ العنيف ، فكان يتطلب الماء البارد ، ويرجوه مثلوجا ، ويتغنى بذلك ، حتى قال : « فالثلج إذا اقتصد فى شربه روح للأرواح ، وشفاء للملتاح ، فى مثل الحجاز ، حاشا الطائف وجبالها ، حيث لا لزوم له البتة ، وكنت هممت بنشر رسالة اسمها : (قطف العُسْلُوج[2] ، فى وصف الماء المثلوج ، بجوار البيت المحجوج) ، أصف فيها محاسن هذا الماء فى مكة أيام القيظ ، وأجعلها تقدمة للأستاذ الأكبر السيد محمد رشيد رضا[3] » .

---

(١) شوق أو صداقة أربعين سنة ، ص ١٩٦ .

(٢) العسلوج (بضم فسكون) : مالان واخضر من القضبان ، وجارية عسلوجة النبات : ناعمة (القاموس) .

(٣) الارتسامات اللطاف ، ص ٢٠ .

وأما السر فى إهدائه هذا الكتاب إلى السيد رشيد فهو أن السيد يحب الماء المثلوج حباً جماً ، ولذلك يقول عنه شكيب :

« وقد كان رحمه الله مغرماً بالماء البارد ، يشرب به فى ساعة معلومة بعد الظهر ، كما يشرب الناس الشاى ، وتجد إبريق الزجاج أمامه مملوءاً بقطع الجَمَد[١] . وله فى ذلك لطائف يعرفها إخوانه .

ولما حج البيت الحرام لأول استيلاء ابن السعود على الحجاز كان الملك يرسل إليه يومياً بمقدار كبير من الجمد ، وكنا نداعبه فى هذا الأمر ، حتى إنى قلت فى جريدة الشورى إننى سأضع رسالة اسمها (قطف العسلوج ، فى وصف الماء المثلوج ، بجوار البيت المحجوج) وأُهدى هذه الرسالة للسيد رشيد رضا[٢] » .

(٣) الحجر الكريم

يقول شكيب فى مقال له بجريدة الشورى عنوانه (إنها لا تعمى الأبصار) :

« وإنى لأتذكر مرة مجلساً لى مع العلامة الأستاذ الشيخ طاهر الجزائرى قدّس الله روحه ، كنا نقرأ فيه كتاب تراجم ، وما تمر به صفحة إلا فيها ترجمة عالم حضرمى يقول عنه إنه وُلد بترِيم ، فما زال المؤلف يقول : ولد بتريم ، حتى قلت للشيخ طاهر : يا أستاذ ، دعنى أؤلف كتابا أسميه (الحجر الكريم فيمن ولد من العلماء بتريم[٣] » .

---

(١) الجمد (بفتحتين) : الثلج (القاموس) .
(٢) السيد رشيد رضا ، ص ٣١٣ .
(٣) تريم : اسم مدينة حضرموت .

(٤) الديانة فى ألمانية

كتب شكيب فى جريدة الشورى يقول فى مقال بعنوان (الألمان والإنجليز رجعيون [١]) .

« بأول فرصة سننقل إلى اللغة العربية كتابا كبيراً اسمه (الديانة فى ألمانية) ، موضوعه شرح أحوال الكنائس الألمانية من بروتستانتية وكاثوليكية ، على ماهى عليه فى حالتها الحاضرة ، وذكر علاقاتها بالتعليم العام ، وبالأحزاب السياسية ، وبمبادىء العملة ، وبسير العلم والصناعة ، إلى غير ذلك مما يجدر بكل شرقى أن يعرفه عن أرقى أمة وأصعدها فى سلم المدنية الحديثة [٢] » .

(٥) سيرة صلاح الدين

يتحدث شكيب فى كتابه عن رشيد رضا عن سيرة صلاح الدين الأيوبى التى كتبها بهاء الدين بن شداد ، وينقل عنها وصيةَ صلاح الدين لابن الظاهر وهو متوجه إلى حلب بعد فتح القدس ، وبعد أن يورد شكيب جانباً من الوصية يخبرنا بأنه قد ترجم الوصية كلَّها إلى الأفرنسية ، ونشرها فى مجلته (لا ناسيون آراب) ، وأن فى نيته ومراده أن يترجم سيرة صلاح الدين كلها إلى الإفرنسية ، لأن الإفرنج بأجمعهم معجبون بأخلاق صلاح الدين الأيوبى ، ولكنهم يجهلون نوادره التى كسب بها هذه الشهرة [٣] .

(٦) العقد الثمين

من دقة ملاحظة شكيب أنه لاحظ وهو يقرأ كتب التراجم عند العرب ،

---

(١) الشورى — السنة السابعة — العدد ٣٢٠ — ١٠ إبريل ١٩٣١ .

(٢) الشورى — السنة الثالثة — العدد ١٣٨ — ١٠ محرم ١٣٤٦ — ١٤ يوليو ١٩٢٧ .

(٣) السيد رشيد رضا ، ص ٢٧٤ و ٢٧٥ .

ويتتبع أسنان أصحاب الأقلام منهم ، أن الثلثين منهم يتجاوزن الثمانين عاما ، ومثل ذلك عند الإفرنج .

ولذلك ذكر لبعض أصحابه أنه إن اتسع أمامه الوقت فسيؤلف كتابا يسميه : « العقد الثمين فيمن من العلماء تجاوز عقد الثمانين [1] » .

(٧) الإسلام فى المستعمرات الأوربية

فى رسالة خطية بين يدىَّ من شكيب لرشيد بتاريخ ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٢٣ يتحدث شكيب عن حواشيه وتعليقاته على « حاضر العالم الإسلامى » ، ويعترف بأنها طويلة ، ولكنها غير مملة ، ويَعِدُ بأنه على الرغم من ذلك سيختصر منها ، يقول : « نعم صرت أختصر نوعا ، واجعل الوفاء بالموضوع لكتاب خاص أضعه فى (الإسلام فى المستعمرات الأوربية) ، أو (الإسلام فى المستعمرات) » .

(٨) الحرب العامة

فى آخر كلام شكيب عن (الترك) عند تعليقه على تاريخ ابن خلدون أشار إلى بعض المسائل المتعلقة بالحرب العالمية الأولى ، وقال :

« وهذه مسائل عائدة إلى الحرب العامة وذيولها ، ونحن أحببنا الوقوف فى تاريخ الدولة العثمانية عند هذا الحد ، لأننا لو دخلنا فى موضوع الحرب العامة لطال بنا الموضوع جداً ، ولمَّا كنا نريد أن نُفرد الحربَ العامة وذيولها ، إلى أن انعقدت معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣ بتأليف خاص — إن شاء الله — لم نجد لزوماً للدخول فى هذا التاريخ بموضوع أكبر حرب عرفها العالم مما يجب أن يفرد بتأليف على حدة » [2] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٢٥ .

(٢) تاريخ ابن خلدون — ملحق الجزء الأول — ص ٥٠٤ .

(٩) دليل العالم الإسلامى

كان مكتب المؤتمر الإسلامى بالقدس قد قرر تأليفَ دليل جامع باسم (دليل العالم الإسلامى)، يتضمن معلومات أكيدةً عن جميع الأقطار التى يوجد فيها مسلمون، وطلب المكتب من الأمير أن يشارك فى تأليف هذا الدليل.

ومع مالدى شكيب من معلومات عن البلاد الإسلامية، وما فى خزانة كتبه من التآليف الموضوعة عن المستعمرات الأوربية التى أكثر أهلها من المسلمين، أحب أن يزيد الاستقصاء فى البحث، فكتب إلى جهات كثيرة، ومن جملتها الحبشة، ليأخذ من أهلها معلومات يعتمد عليها فى تأليف هذا الكتاب [١].

(١٠) بعض آثار شكيب بالألمانية

ذكر الأستاذ محمود طاهر فى مقال له بمجلة (الفتح) أنه كان يوجد فى (برن) أستاذ مستشرق، وهو قسيس بروتستنتى فى الوقت نفسه، اسمه الدكتور (فيدمار)، وقد تعرف القسيس إلى شكيب، وأُعجب به، وترجم بعض آثار شكيب إلى الألمانية، ومنها مقدمته الواسعة لكتاب (النقد التحليلى) لمحمد أحمد الغمراوى، ومقالة لشكيب عن (النهضة الشرقية) نشرها المقتطف، ومقالة له عن الشعر، وهى التى اختارها المنفلوطى فى مختاراته بعنوان: «حقيقة الشعر»، وقد تحدثنا عنها طويلا فيما سبق.

وذكر الأستاذ طاهر أن المستشرق أتم الترجمة، وصدّرها بترجمة لحياة شكيب، وباشر طبع الكتاب [٢].

---

(١) مجلة الفتح، العددان ٣٥٨ و ٤٤٤ — ٦ صفر و ٢٥ ربيع الآخر ١٣٥٤.

(٢) مجلة الفتح — السنة السادسة — العدد ٢٦٨ — ٥ جمادى الأولى ١٣٥٠.

خاتمـــة البحث

— فى ذمة التاريخ

— نتائج البحث

فى ذمة التـــاريخ

لقد أفضى شكيب إلى ربه ، وأصبح فى ذمة الله ، وذمة التاريخ ، وقد استعرضنا عصره وحياته ، ودرسنا نثره وشعره ، وعرضنا آراءه ونقده ، وعرفنا لغوياته ومساجلاته ، وذكرنا ما له وما عليه قدرَ طاقة البحث ، وآن لنا أن نضع قوله وعمله فى الميزان ، لنحدد مكانته ، ولنعرف ما صنعت الأيام بآرائه وتراثه .

إن شكيب من غير شك كاتب بليغ ، استطاع أن يقلد السابقين ، فنجح فى تقليده ، ثم تحرر واسترسل ، فكان أروعَ وأمتع ، وعنى باللغة فكان أحدَ الرواد القلائل الذين خدموا لغة العرب أجلَّ الخدمات فى مطلع القرن العشرين ، ولن تُنسى خدماتهم عند المنصفين على مرّ السنين .

وقال الشعر فلم يقصِّر عن شعراء عصره الأعلام ، وإن كان جزء كبير من هذا الشعر قد انتقل إلى ما يشبه « دار الآثار » ، كعثمانياته ومدائحه ، فغاية ما يؤديه هذا الجزء هو أن يعطينا صورةً لما كان .

وكتب فى التاريخ والقضايا العربية والإسلامية ، وتحدث عن الإسلام والمسلمين فى حاضرهم وماضيهم ، فكان عمله خطوةً واسعةً نحو وضع دائرة المعارف العربية الإسلامية بأيدى أبناء العروبة والإسلام ، كما أدى خدمات جليلة للقضايا العربية والإسلامية خلالَ نصف قرن من الزمان تقريباً .

وإذا كانت لشكيب عيوب ، فهى قليلة بالنسبة إلى مفاخره وحسناته .

* * *

ولننتقل إلى مكانة آرائه وجهوده من التاريخ :

١ — شارك شكيب ، كما رأينا ، فى الإحياء اللغوى مبكراً ، عن طريق

عنايته باللغة ، واستعماله لمفردات مهجورة أو مجهولة ، وهذا الإحياء الذى اشترك فيه مع أقرانه كان فاتحةً لازمة للنهضة اللغوية التى أقبلت بعد ذلك .

وقد بذل جهوداً فى ميدان « التعريب » ، ووضع مصطلحات عربية فى مقابل المصطلحات الإفرنجية ، وكان هذا العمل منه ومن أقرانه بدايةً لاتساع باب التعريب ، والانتفاع به فى تطعيم اللغة بما يشد أزرها ويوسع نطاقها .

ولابد لنا من أن نتذكر شكيب وأمثاله حين ننظر إلى ما جدَّ بعد ذلك من جهود المجامع اللغوية فى مصر والشام والعراق ، حيث ظهرت على أيدى رجالها معاجم عصرية فيها للتوسع اللغوى نصيب كبير .

ولقد كان شكيب يدعو إلى عدم الاقتصار على الاستشهاد بكلام الجاهليين ، بل يرى الاستشهادَ بكلام الإسلاميين والمولّدين الذين تنزل أقوالهُم منزلةَ روايتهم ، ويرى أن كتب اللغة قد فاتها شىء كثير ، وأن هناك مفردات فى كتب الأدب ، والتاريخ ، والخراج ، وغيره ، ينبغى ضمُّها إلى كتب اللغة ، وكذلك اصطلاحات أهل العلوم ، والصناعات ، والحِرَف .

وقد تحقق كثير مما أراده شكيب ، فأخذت مجامعنا تهتدى بهذه الآراء فى جهودها اللغوية .

ولكن الغيرة على اللغة ومفرداتها بالصورة التى أرادها شكيب نجدها اليوم مقصورةً على فئة قليلة من الكتاب والأدباء ، وقد ترددت دعوات إلى العامية ، وإلى التخفف من النحو والإعراب ، وإلى التخلص من قيود الفصحى .

٢ — بذل شكيب جهوداً فى الترجمة عن الفرنسية ، والتركية ، والإنجليزية ، فكان بهذا أحدَ الرواد الذين ألقوا بذوراً فى حقل الترجمة إلى العربية ، فتعهدت الأيام هـذه البذورَ حتى نبتت ، وارتفعت بجذوعها ، وآتت ثمارها على أيدى الذين بذلوا جهودَهم الكبيرة فى الترجمة بعد ذلك .

٣ — بذل جهوداً مشكورة فى إحياء تاريخ العرب وتاريخ الإسلام ، وتتبع مآثرَ العرب والمسلمين فى الشرق والغرب ، للتنويه بها والتذكير بشأنها ، ثم عرَّف بحاضر العرب والمسلمين على عهـده ، وما زالت لهذه الجهود قيمتُها .

٤ — شارك — فى وقت مبكر ، وقبل عهد الإحياء العلمى الواسع — فى نشر التراث العربى ، وتحقيق المخطوطات ، كما فعل فى « الدرة اليتيمة » لابن المقفع ، و « رسائل الصابى » ، و « محاسن المساعى فى مناقب الإمام الأوزاعى » ، و « أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر » ، فكان بهذا أحدَ السابقين إلى ولوج هذا الباب فى العصر الحديث .

٥ — إذا انتقلنا إلى الكتابة النثرية ذكرنا أنه كان يحرص على السجع فى مقدمات كتبه ، ويعاوده الحنينُ إليه من حين إلى حين ؛ ونلاحظ أن عهد السجع قد انتهى أو كاد ، وأصبح عامة الكتَّاب والأدباء يترسلون فى المقدمات وفى غيرها ، وإذا كان هناك من يشذ عن ذلك فليس للشاذ نصيب عند إصدار الحكم العام .

٦ — كان شكيب يلقب « بأمير البيان » ، ونلاحظ أنه بعد — موت شوقى « أمير الشعراء » ، وموت شكيب « أمير البيان » — قد انتهت أمثال هذه الألقاب ، فلم تعد للنثر ولا للشعر إمارة ، وقد كانت هناك محاولات بعد موت شوقى للمبايعة بإمارة الشعر ، ولكنها لم تبلغ ما أرادت .

٧ — شارك شكيب فى إيقاظ الشعر من غفوته ، وجرى فى ذلك مجرى البارودى ، وكان هذا الإيقاظ مقدمةً لنهضة شعرية واسعة ، وقد تطور الشعر بعد ذلك ، وانتقل من حال إلى أحوال ، فتجددت المعانى والصور ، وظهر شعراء للشعر الحر ، وظهرت دعوات للتحرر من القافية والوزن ؛ وإن تكن جمهرة الشعراء ظلّت وفيّةً لموسيقى الشعر من ناحية الوزن والقافية مع ألوان من التجديد المحدود ، وأصبح الشعر فى معظم أمره ابنَ بيئته ، ورقّت روابطُه بالبيئة الصحراوية القديمة .

٨ — كانت كتابة شكيب عن أحمد شوقى أشبهَ بتهيئة مواد البناء الأولية (الخام) التى يمكن بها بناء بيت ، فوضع بين أيدى الباحثين مايصلح لتأليف دراسة تحليلية عن شوقى ، وقد ظهرت بعد كتاب شكيب كتب عن شوقى تمتاز بالدراسة والتحليل .

وأما كتاب شكيب عن السيد رشيد رضا ، فقد ظلّ بلا ثانٍ ، إذ لم يؤلف أحد كتاباً مستقلا عنه ، مع أن حياته فيها مادة صالحة لكتابة دراسة كاملة عنه ، ومن الوفاء القيام بهذه الدراسة .

٩ — كان لشكيب آراء قيّمة فى السياسة ، وأسباب تأخر الأمم ، وحِيَل الاستعمار والاحتلال ، وما زالت هذه الآراء كأنها بنت اليوم ، لما اعتمدت عليه من سعةِ تجربة وعمقِ نظر .

١٠ — دعا بعد الحرب العالمية الأولى إلى نُصرة القومية العربية ، وإلى وحدة الأمة العربية ، وإلى إنشاء جامعة عربية ، وكان فى هذا سابقا ، وحاول كثيراً توثيق الروابط بين العروبة والإسلام ، ولا عجب فالعروبة وعاء الإسلام ، والاسلام روح العروبة ، وبينهما من الروابط العميقة ما باركته يد الله عز وجل .

وقد تكونت فى الأعوام الأخيرة من حياة شكيب «جامعة الدول العربية»، وَقَوِىَ الوعى القومى العربى، ورأينا أكثرَ من دولة عربية تنص فى دستورها على أنها جزء من الأمة العربية، وأصبحت قضية الوحدة العربية من كبرى القضايا فى ميدان السياسة العربية.

وقد حدث «الاتحاد الفيدرالى» بين مصر وسورية أولا، ثم حدثت التجربة الجليلة، وهى وحدة مصر وسورية، وبرغم النكسة ظلت لهذه التجربة دلالتها الخطيرة فى حقل العمل للوحدة العربية.

١١ — كان شكيب يتمنى بقاء الدولة العثمانية والخلافة الإسلامية، مع إيمانه بوجوب قيام الدولة بالإصلاح المطلوب، وبتوثيق الروابط بين الترك والعرب، ليقوى اتحاد الجميع تحت لواء الخلافة، ولكن حكام الأتراك وَلَّوْا ظهورَهم لهذا الاتجاه، وظهر ذلك منهم واضحاً عقب الحرب العالمية الأولى، مما جعل شكيب ينصرف عن نصرتهم، بل أخذ يندد بمواقفهم التى وقفوها من العرب والمسلمين.

وحتى اليوم لم يحدث تغيير جوهرى فيما يتعلق بهذه الناحية، فتركية دولة «علمانية»، ترى نفسها أقربَ إلى أوربة منها إلى الشرق العربى الإسلامى، والعلاقات بينها وبين العرب شبهُ محصورة فى النطاق الرسمى السياسى.

١٢ — حاول شكيب أن يجعل من تعليقاته على كتاب «حاضر العالم الاسلامى» تمهيداً لإنشاء دائرة معارف إسلامية كاملة، كما ذكرنا، وكان يأمل أن يجد من ورائه من يوسع النطاق، ويُكْمل العمل الكبير، ولكن لما يتحقق له ما رجا، فما زالت «دائرة المعارف الإسلامية» الموضوعة بأيد غربية فى طريق الترجمة، ولم توضع دائرة معارف إسلامية أو عربية بأيدٍ إسلامية أو عربية.

وتقرير هذا لا يتعارض مع التسليم بأن جهوداً فردية قد بُذلت للتعريف بأحوال العرب والمسلمين هنا وهناك .

١٣ — كان شكيب مغرماً بالكتابة عن الأندلس ، وبذل فى ذلك جهوداً طيبة ، كان آخرها كتابه الذى لم يتم « الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية » ، وكان شكيب يتمنى التوسعَ فى هذه الدراسات حتى يبلغ نهاية الشوط ، ولكنه لحق بربه قبل أن يتم ما أراد .

وقد ظهرت كتب عن الأندلس قد تكون أعمقَ دراسة وتحليلا من كتابة شكيب فى الموضوع ، كما أنشىء معهد للدراسات الإسلامية بمدريد ، وهو يُعْنَى بالدراسات الإسلامية والعربية ، وفى طليعتها الدراسات المتعلقة بالأندلس ، وللمعهد مجلة منتظمة الصدور [1] .

١٤ — الحق الذى لا مرية فيه أن شكيب يحتاج إلى المزيد من الإنصاف والتقدير ، إذ لا يكفى أن تتكاثر عنه عقبَ وفاته كلماتُ التأبين والرثاء ، بل هناك ما هو أعمق وأنفع ، وإذا استثنينا الجهدَ المشكور الذى بذله الدكتور سامى الدهان كمحاولة أولى للتعريف بحياة شكيب وآثاره ؛ فإننا نجد شكيب مهضومَ الحق فى الذكر والتعريف عند الكثيرين ، بل مع أنه لم يمض على وفاته وقت طويل نجد المعلومات التى تُذكر عن حياته وأدبه تقل وتضطرب .

وهذا مثلا كتاب « مصادر الدراسة الأدبية » ، وهو أحد المراجع فى التراجم الأدبية ، نجده يترجم لشكيب ، فإذا هو يذكر فى صدر الترجمة مولد شكيب ، فلا يذكر اليوم ولا الشهر ، ويخطىء فى السنة

---

(١) ديوان ابن دراج القسطلى ، المقدمة ، ص ١٤ و ٢٣ .

فيذكر أنه ولد سنة ١٨٧٠ (١) ، بينما الواقع أنه وُلد — كما بيَّنْتُ — في ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٦٩م .

وقال الكتاب: إن شكيب تولى رياسةَ المجمع العلمي العربي بدمشق « رَدَحًا من الزمن (٢) » ، والردح هو الوقت الطويل — كما يقول القاموس — والواقع أن شكيب لم يلبث طويلا في رياسة المجمع ، فما أسرع ما اعتذر عن عدم قبول الرياسة بسبب وجود الاستعمار الفرنسي في سورية .

وذكر الكتاب أن شكيب « أتقن اللغات التركية والفرنسية والألمانية (٣) » . وترك الكتاب ذكرَ الإنجليزية التي تعلمها شكيب ، والتي كان يعرفها أكثر من الألمانية .

وقال الكتاب : إن شكيب « لُقِّب بحق : أمير البيان وحامل لواء الصناعتين (٤) » . وهذه عبارة يفهم منها أن لقب « حامل لواء الصناعتين » نظير للقب « أمير البيان » الذى عُرِفَ به شكيب ، أو على الأقل قريب منه في الشيوع ، ولكننا لم نجد لقب « حامل لواء الصناعتين » بين الألقاب التي تتبعنا إطلاقَها على شكيب ، وقد يكون بعضُ الكتاب استعمل هذا التعبيرَ وصفاً لشكيب ، ولكنه لا يصير بهذا لقباً يقال عنه إن شكيب لُقِّبَ به بحق .

وذكر الكتاب أن شكيب « تلقى مبادىء العلم في بيروت (٥) » ، وهذا غير صحيح ، لأن شكيب تلقى مبادىء العلم — كما بينتُ — في بيت والده بالشويفات ، أولا على الشيخ مرعى شاهين سلمان ، ثم قرأ

(١و٢) مصادر الدراسة الأدبية ، ج ٢ ص ٩٦ .
(٣و٤) مصادر الدراسة الأدبية ، ج ٢ ص ٩٦ .
(٥) المرجع السابق ، ص ٩٧ .

القرآن وحفظ الكثيرَ من آياته بعد هذا على يد أسعد أفندى فيصل في بلدة « عين عنوب » ، ثم تعلم ثالثاً فى مدرسة بالشويفات .

يقول شكيب عن نفسه وعن أخيه : « ثم أدخلونا مدرسة للأمريكيين فى حارة العمروسية بالشويفات ، فتعلمنا فيها مدة ، وقرأنا من جملة ما قرأناه الجغرافية والحساب ومبادىء الإنجليزية ، وسنة ١٢٩٦هـ (١٨٧٩م) أدخلونا مدرسة الحكمة فى بيروت[1] » .

فشكيب مرَّ بثلاث مراحل تعليمية أولية قبل أن يذهب إلى بيروت ليدخل مدرسةَ الحكمة فيها سنة ١٨٧٩ م .

وقال الكتاب : « واشترك [شكيب] مجاهداً بحرب طرابلس الغرب دفعاً لغزوة إيطالية لها ، ثم انقطع للسياحة والرحلة » . وهذه العبارة يُفْهَمُ منها أن شكيب — بعد حرب طرابلس بمدة — انحصر جهدُه فى السياحة والرحلة ، وهذا غير صحيح ، فبعد حرب طرابلس — التى وقعت سنة ١٩١١م — كان لشكيب جهود ومواقف فى الشام وتركية ، حتى انتهت الحرب العالمية الأولى ، ثم انتقل لظروف خاصة إلى أوربة ، حيث وَقَفَ نفسَه على الدفاع عن قضية بلاد الشام، وقضايا العروبة والإسلام ، وتأليف الكتب ، وكتابة المقالات والبيانات والبحوث ، فهو إذن لم يكن مقصوراً على « السياحة والرحلة » ، وإن كان نشاطه فى أوربة قد اقتضاه أن يرحل هنا وهناك .

وذكر الكتاب أن ديوان شكيب « قد ضم إليه الباكورة[2] » . وهذا التعبير غير دقيق ، لأن الموجود فى الديوان من الباكورة هو مختارات منها — كما بينتُ ذلك — وليس كلَّ الباكورة .

---

(١) روض الشقيق ، ص ١٨ .

(٢) مصادر الدراسة الأدبية ، ص ٩٨ .

وذكر الكتاب أن « الحلل السندسية » بأجزائها الثلاثة طُبعت في المطبعة الرحمانية[١] بينما الحقيقة أن الكتاب مطبوع - كما ذكرتُ - في مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر.

وذكر الكتاب اسم « خلاصة تاريخ الأندلس » على أنه كتاب لشكيب، ثم قال: « ويليه رواية آخر بني سراج [٢] ». وهذا قَلْبٌ للوضع الصحيح، لأن رواية بني سراج - كما أبنتُ - هي الأصل في الطبع، وتليها « خلاصة تاريخ الأندلس ».

وذكر الكتاب اسم « محاسن المساعي في مناقب الإمام الأوزاعي » ضمن مؤلفات شكيب، وهو ليس من مؤلفاته، بل من منشوراته، فكان الواجب أن يُذْكر ضمنَ ما ذكره من كتب أحياها شكيب.

وذكر الكتاب اسم « النهضة العربيـة في العصر الحديث[٣] » ضمن مؤلفات شكيب، وصحة الاسم « النهضة العربية في العصر الحاضر ».

ولم يذكر الكتابُ ضمن آثار شكيب تعليقاتِه على تاريخ ابن خلدون، ولا نشره لديوان شقيقه « روض الشقيق ».

وذكر الكتاب من كتب شكيب التي لم تنشر ثلاثةَ كتب فقط مع أنها بلغت - كما ذكرتُ - ثلاثةَ عشر كتاباً.

فإذا كانت هذه المآخذ التي ذكرتها قد وقعت مجتمعة في ترجمة لم تستغرق أكثر من ست صفحات - فهي أكثر من غيرها حاجة إلى التدقيق مع التركيز - وهي في كتاب ضخم مطبوع سنة ١٩٥٦م،

---

(١) المرجع السابق، ص ٩٩.
(٢) المرجع السابق.
(٣) المرجع السابق.

أى بعد وفاة شكيب بعشر سنوات فقط ، ومن كاتب فاضل متخصص فى التراجم ، وهو لبنانى يعيش فى بلد شكيب ، وهو متقدم فى السن حين نشر كتابه ، ولعله رأى شكيب واجتمع به .

إذا كانت هذه المآخذ قد وقعت — والحال ما ذكرتُ — فكيف إذا طال المَدَى على رحيل شكيب من هذه الحياة ؟ أوْ كان الكاتب غيرَ متصل ببيئة شكيب ، أو غير متمكن من مصادره ومراجعه ؟ .

أخشى إذا أهملنا العنايةَ بسيرة شكيب وكتبه وآثاره أن يزداد الجيل الصاعد به جهلا وعنه بُعداً .

نتائج البحث

لا أريد هنا أن ألخص أبوابَ البحث السابقة ، ولا أن أنص على كل مسألة عالجتُها ، وإنما أكتفى بذكر عدة أمور أحسبها نتائجَ لهذا البحث لعلها تكون ذات قيمة :

١ — فى الباب الأول صورت عصرَ شكيب من النواحى السياسية والاجتماعية والأدبية . وأوضحت كيف كان عصراً ممتلئاً بالأحداث الكبرى ، سواء منها ما يتعلق بالدولة العثمانية ، أو ما يتعلق بالعلاقة بين الأتراك والعرب ، أو ما يتعلق بداخل البلاد العربية من ناحية الثورة والاحتلال والتقسيم ، وغير ذلك .

ثم انتقلت فى الباب الثانى إلى حياة شكيب ، فتتبعتُها من المولد إلى الوفاة ، وذكرت تفاصيلَ عن هذه الحياة لم يسبق ذكرُها فى بحث أو تأليف ، وبخاصة ما يتعلق بوالدة شكيب وزوجته وأولاده وتنقلاته ، وذلك لأننى استقيتُ هذه المعلومات من زوجة شكيب وأصدقائه ، ومن رسائل شكيب الخطية إلى السيد رشيد رضا ، وهى الرسائل التى وُفِّقتُ إلى العثور عليها وجمعها ، ومن الصحف والمجلات التى كانت تعنى بأخبار شكيب .

وحددت الذين تأثر بهم شكيب سياسياً ، وفكرياً ، وأدبياً ، والعوامل التى كونت شخصيته .

٢ — فى الباب الثالث حققت المؤثرات التى دعت شكيب إلى « السجع » فى كتابته ، وبخاصة مقدمات كتبه ، وأبنت لماذا كان يعاوده الحنينُ

إلى السجع من حين إلى حين ، بعد أن عرف الترسل ، واشتغل بالتأليف والكتابة المختلفة الأغراض ، المقتضية لترك المحسنات اللفظية .

٣ — وفى الباب الثالث أيضاً أبنتُ أثرَ « الجملة القرآنية » فى كتابة شكيب ، ولم يسبق أحدٌ إلى الحديث فى هذا الموضوع ممن تكلموا عن شكيب ، وتتبعت ملامح هذه « الجملة القرآنية » فى أدبه ، ما بين استشهاد ، واقتباس ، وتضمين ، وذكرت الأسبابَ التى دفعت بشكيب إلى الاهتداء بضوء « الجملة القرآنية » .

ثم استكملت بحثَ هذه الناحية الطريفة فى دراسة شكيب ، فتحدثت عن « الجملة القرآنية » فى شعره ، وتتبعت مواطنها ، ومازالت فى النفس نية العودة إلى هذه الجملة فى مقام آخر .

وأبنتُ المواضعَ التى خان شكيب فيها التوفيقُ حين اهتدائه بالجملة القرآنية .

٤ — وفى الباب نفسه استخلصت ظاهرةً أدبية فى كتابة شكيب وشعره ، وهى « جلجلة العبارة » التى تقوم على الاستعانة بألفاظ فيها شدة صوتية ، أو طول فى مبناها يقصده المتكلم لتقوية معناها ، على أساس أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى ، وما رأيت أحداً تعرض لهذه الناحية من كتابة شكيب .

٥ — وفى الباب نفسه ربطتُ بين أدب شكيب وحياته ، وأبنت فى مواطن مختلفة كيف كانت كتابة شكيب وقصائده وثيقةَ الارتباط بأحداث عصره ووقائع حياته ، وكيف تأثرت كتاباته تأثراً واضحاً بهذه الأحداث والوقائع ، وأبنت ما لذلك التأثر من حسنات ، وما عليه من مآخذ .

٦ — تتبعت إطلاقَ لقب « أمير البيان » على شكيب أرسلان ، وحاولت أن أعرف أول مرة أطلق فيها هذا اللقب عليه ، وأول من أطلقه ، فكدت أجزم بأن السيد محمد رشيد رضا هو أول من فعل ذلك فى سنة ١٩٢٤ ، وأثبتُّ أن رشيد كان يخاطب شكيب بهذا اللقب فى الوقت الذى نجد فيه الصحفَ والمجلات التى يكتب فيها شكيب وتمجده لا تطلق هذا اللقب عليه . .

كما تتبعت الألقابَ المختلفة التى كانت تطلق على شكيب تقديراً أو مجاملة ، ونصصت على مواطن استعمالها .

٧ — حصلت بعد جهد على نسخة ديوان « باكورة » التى طالعها شكيب بنفسه ، وعلَّق عليها بخطه ، وحذف منها ما حذف ، وأضاف إليها ما أضاف ، وعدَّل فيها ما عدل ، واعتمد عليها عند طبع ديوانه فى تضمينه ما تضمَّنه من شعر هذه الباكورة .

وفوق ما لهذه النسخة فى ذاتها من قيمة ، اتخذتها فى الباب الرابع رائداً فى بيان التغييرات التى أدخلها شكيب على ديوانه الأول ، واستخلصت الأمورَ التى تدل عليها هذه التغييرات .

٨ — إذا كان بعض المتحدثين عن شكيب قد أشار إلى تقليده للسابقين فى شعره ، فإنه لم يتحدث أحدٌ منهم عن تقليده للمعاصرين ، وقد بحثت فى الباب الرابع أيضاً تقليدَه للسابقين ، ثم استخلصت من شعره أمثلةً لتقليده لمعاصريه من الشعراء فى الفكرة أو فى الصورة .

٩ — تحدثت عن ظاهرة « التكسب الأدبى بالشعر » عند شكيب ولم يسبق أحد بالحديث عن هذه الناحية عند شكيب فيما أعلم ، وأبنت أن هذا التكسب الرفيع كان من دوافع شكيب إلى معارضة مَنْ عارض من الشعراء الأعلام فى عصره .

١٠ — قرر بعض الباحثين أن الشعر العربى فى أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين يكاد يكون خلواً من شعر المواعظ ، فأبنت خطأ هذا القول ، ودللت من شعر شكيب على وجود هذا اللون من الشعر فى تلك الفترة .

١١ — راجعتُ شكيب فى طائفة من آرائه عن الشعر وأحكامه على الشعراء ، وأوضحت ما فيها من تعميم ، أو توسع ، أو غموض ، أو اضطراب ، أو تناقض ؛ وأظهرت كيف قدَّم رجلا وأخر آخرى فى تحديد «أمير» الشعراء فى رأيه ، ورددت عليه قوله إن حافظ إبراهيم هو « إمام النثر غير مدافع » ! .

١٢ — أوضحت المآخذَ التى تؤخذ على أدب شكيب من الارتجال فى التأليف ، والاستطراد ، والإسهاب ، والتكرار ، والتوسع الزائد عن الحد فى التعليق والتحشية .

كما أخذت عليه تصنعَه فى الشعر ، وإسرافه فى إيراد المفردات الغريبة أحياناً ، وفى النقل والاستشهاد أحياناً ، وشدتَه فى العبارة مع مناقِشه أحياناً ، وأنصفت منه خليل السكاكينى فى هذا المقام .

١٣ — أقمت الدلائلَ على أن شكيب كان من الرواد الذين سبقوا فبذلوا جهودهم فى حركة الإحياء اللغوى فى أواخر القرن التاسع عشر ، وظل باللغة حَفِياً إلى ما قبيل منتصف القرن العشرين حيث لحق بربه .

وأظهرت كيف كان طويلَ الباع فى مساجلاته اللغوية مع الأعلام من معاصريه ، وكيف دعا — رغم حِفاظه على اللغة — إلى التوسع فيها ، وتطعيمها بما لا يتعارض مع قواعدها وذوق أهلها ، من المولَّد ، والمعرَّب ، وغيرهما ، وإلى عدم الاقتصار على مافى المعاجم ، لأن كتب العربية فيها الكثير .

ونوهت بتعريبه الكثيرَ من الأعلام ، وبردِّه الكثيرَ من العامى إلى الفصيح .

١٤ — أحصيت كتبَ شكيب وآثاره ، ووصفتها ، وعلقت عليها بملاحظات ، وذكرت الدوافع التى دفعته إلى تأليفها ، وشرحت ارتباطها بالأحداث التى كانت قبيل وضعها أو صاحبتها .

واستقصيت فى ذلك الباب مؤلفات شكيب ، والكتب التى حققها ونشرها ، والتى علق عليها وحَشَّى لها ، وكتبه المخطوطة التى أتمها ، والتى نشرها مقالات ولم يجمعها فى كتب ، والتى شرع فيها ولم يتمها ، والكتب التى فكر فيها ، أو وعد بها ، ولم يتمكن من إظهارها .

ولعلى لا أكون مجازفاً ولا مباهياً إذا قلت إن هذا الباب أوسع ما كتب عن مؤلفات شكيب وآثاره ، وقد استبحت أن أذكر فيه بعض النصوص أو الشواهد التى سبق لى الاستئناس بها ، وذلك لكى تكون الصورة عن كتبه حاضرة متكاملة .

١٥ — صححت الكثيرَ من الأخطاء التى وقعت فى كلام من تكلموا عن شكيب فى تراجم وجيزة أو مبسوطة ، دون أن أبخسَ هؤلاء الفضلاء حقَّهم ، وأقربُ شاهد على ذلك تصحيحُ ماجاء عن شكيب فى كتاب « مصادر الدراسة الأدبية » .

١٦ — وفقنى الله تعالى إلى العثور على رسائل شكيب إلى السيد رشيد رضا ، فتتبعتها ، وجمعت منها ما يقرب من مائة وثلاثين رسالة تتحدث فى السياسة ، والأدب ، واللغة ، والعرب ، وغير ذلك من الشئون .

ولهذه الرسائل قيمتها الأدبية الجليلة ، وقد اكتفيت مضطرا بذكر خمس وخمسين رسالة منها ، جعلتها ذيلا للرسالة . وكنت أود لو اتسع

النطاق لدراستها والتعليق عليها رسالةً بعد أخرى ، ومقابلتها بأجوبتها الموجودة فى كتاب « السيد رشيد رضا » ، ولعلى أفعل هذا بمشيئة الله فى مجال آخر .

١٧ — جمعت أكثرَ من عشرين قصيدة ومقطوعة شعرية لشكيب لم تُنْشر فى ديوانه ، وقد جعلتُ هذه المجموعة ذيلاً ثانياً للرسالة ، وقصدت أن يكون ذلك الجهد خطوةً لتجميع شعر شكيب كله وتحقيقه ، تمهيداً لطبعه مع آثاره الأخرى ، والله ولىّ التوفيق .

الملحق الأول للرسالة

من رسائل شكيب إلى رشيد رضا

مرسين ٢١ مارس ١٩٢٥

سيدي الاخ الاستاذ

منذ اربعة ايام وصلت الى مرسين وشاهدت العائلة ولله الحمد بكمال العافية واستقررت الآن بهذه البلدة، ولزمت منزلي قلّما اخرج الا لغرض اذ كان عليّ كتابات كثيرة لا بد من انجازها

ارجو من فضلكم ان تبعثوا لي ابن سراج المطبوع من اوله الى آخره، مع جدول اصلاح الغلط الذي كنت بعثت به من جنيف وذلك حتى اصحح ما يبدو لي واكمل الجدول المذكور، واعيد اليكم الكراريس، ويبقى تجديد طبع الملزمة المعهودة وطبع الكتاب الذي ارسلناه اخيراً مع الرسائل او ربع من ابن الاحمر

ومروا بارسال ما ترسلونه مضموناً بالبريد . احمد زكي باشا لم يرسل لي برأيه عن اسم مؤلف "اخبار العصر في نهاية ملك بني نصر"، ولعله في البحث والتنقيب واما احمد باشا تيمور فلعلكم سألتموه عن هذه المسألة. هذا وانا بانتظار جوابكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

اخوكم
شكيب
ارسلان

اهنيكم برمضان المبارك اعاده الله عليكم
وعلى آلكم وعيالكم اعواماً رخيّة بالعز والاقبال
ووفقكم لاجر صيامه وقيامه بياض الايام
وسواد الليالي آمين

« صورة رسالة بخط شكيب »

رسائل شكيب إلى رشيد

أصدر شكيب كتاباً ضخما بعنوان « السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة » ، وهذا الكتاب من حقه أن يُنسب إلى رشيد لا إلى شكيب ، لأن شكيب قد نشر فيه مجموعة الرسائل التى بعث بها رشيد إليه ، ومعها مقالات أخرى لرشيد ، وعلق شكيب على هذه المجموعة ، وقدَّم لها .

وقد حذف شكيب أجزاء مختلفة من هذه الرسائل عند نشرها ، كما أن المنشور منها يحتاج فى فهمه فهماً كاملا إلى الوقوف على مقابلها ، وهو رسائل شكيب إلى رشيد ، ولذلك تمنى الكثيرون من قراء شكيب أن يطالعوا رسائلَه هذه ، لتكمل عندهم الصورة عن مراسلات شكيب ورشيد ، وقد استطعت أن أجمع نحو مئة وثلاثين رسالة مخطوطة من رسائل شكيب إلى رشيد ، واستغرق جمعى لها أكثرَ من عامين ، حيث بذلت فى ذلك من الجُهْد ما الله به عليم ، إذ كانت هذه الرسائل مفرقةً مطمورة خلال تلال من الرسائل الأخرى ، والأوراق المتعددة ، والمقالات المتناثرة ، ضمن ما خلَّفه السيد رشيد رضا من أوراق وغيرها .

وكان لا بد من مراجعة هذه التلال وفحصها لاستخلاص تلك الرسائل من بينها ، وأعاننى على ذلك الأستاذ المعتصم رضا نجل السيد محمد رشيد رضا ، وقد أذن لى متفضلا بطبعها ونشرها مع الرسالة ، واستطعت بعد وقت طويل ومجهود عنيف أن أحصل على هذه الرسائل وأرتبها ، وأخذت أدرسها وأنقل عنها ، ولكن الحصول عليها جاء على دفعات فى أوقات ، فمنها القليل الذى عثرت عليه وأنا أكتب صدر هذا البحث عن شكيب ، ثم توالى العثور على هذه الرسائل شيئاً فشيئاً ، وبحثى عن شكيب تتكامل أبوابه وفصوله ، ومن الرسائل قدر حصلت عليه بعد أن استوفى هذا البحث أركانه ، وأتممت أبوابه .

والواقع أن تنقيبى عن رسائل شكيب إلى رشيد وغيره قد بدأ حينما اخترت شكيب موضوعا للبحث ، وأذكر أنى نشرت فى عدد ٢١ أكتوبر سنة ١٩٥٥ من جريدة « منبر الشرق » رسالة من شكيب إلى رشيد ، تاريخها هو ١١ شوال ١٣٣٤ ه ، مع تعليقى عليها ، وفى عدد ١٧ نوفمبر سنة ١٩٥٥ من مجلة « الصباح » المصرية نشرت رسالة من شكيب إلى رشيد تاريخها هو ٢١ مايو سنة ١٩٢٤ ، وعلقت عليها ، وفى عدد ١٨ نوفمبر سنة ١٩٥٥ من جريدة « منبر الشرق » نشرت رسالة من شكيب إلى فؤاد أباظة ، تاريخها ٤ يوليه ١٩٣٩ .

كما حصلت على رسائل أخرى من شكيب إلى أدباء أو علماء ، ولا يتسع المجال للحديث عنها .

وكان بودى أن أجعل هذه الرسائلَ كلها ملحقاً لبحثى ، مع تعليقى عليها ونظرى فيها ، ولكنى نظرت فوجدت حجمَ البحث قد استوفى حظَّه ، أو كاد يزيد عنه ، ومجموعة الرسائل — مع التعليق عليها والنظر فيها — قد تصير فى مثل هذا الحجم أو تزيد .

فهل أصرف النظرَ عن إثباتها هنا لأشغل نفسى بدراستها فى مجال آخر ؟ .

ولكن الرسائل لها قيمة أدبية وتاريخية كبيرة ، والتوفيق فى العثور عليها ولمِّ شتاتها أمر يستوجب من الإنسان الحمد لربه ، وهى تلقى أضواء ساطعة على أمور كثيرة لعلها ما زالت مبهمة أو غامضة ، وأنا أذكر كلمة الدكتور سامى الدهان حيث يقول: « بقيت رسائل شكيب [إلى رشيد] لم تنشر حتى اليوم ، وهى فى حوزة آل رضا من غير شك ، وهم كرام سراة علماء ، يقضون حق الوفاء ، ويعملون قريباً — إن شاء الله — على نشرها وجمعها ، خدمة للإخاء ، كما فعل شكيب فى شأن سيدهم وعميدهم ، فنشر فضله وعلمه ، وكرّمه أى تكريم فى هذا الكتاب »[1] .

---

(١) الأمير شكيب أرسلان ، ص ٣٥٧ .

فماذا أصنع ؟ . إن مالا يُدرَك كله لا يترك كله .

اخترت أمراً وسطاً ، وهو أن أثبت هنا الرسائل التى لها مزيد صلة بأبواب هذا البحث ، بأن تكون قد تحدثت عن حياة شكيب أو كتبه أو لغوياته أو أدبه ، مع ما تتعرض له من أمور أخرى — وبذلك يكون هذا القدر من الرسائل مرجعاً لبعض ما جاء فى البحث أو توثيقاً له ، وإن تكن مجموعة الرسائل فى الواقع — بحاجة إلى دراسة وتعليق ، وربط بينها وبين رسائل رشيد المنشورة فى كتاب شكيب عنه ، وقد تتهيأ لنا هذه الدراسة فى مجال آخر ، لنقول فى هذه الرسائل ما لها وما عليها .

وقبل إثبات ما اخترته من رسائل شكيب المخطوطة أحب أن أذكر عن رسائله كلِّها إلى رشيد طائفةً من الملاحظات تلقى ضوءاً عليها :

١ — وجدت هذه الرسائل داخل أغلفتها ، والنادر منها ما كان خارج غلاف ، ويكتب شكيب على ظهر الغلاف فى أغلب الأحيان العنوان هكذا : « حضرة الأستاذ الأكبر السيد رشيد رضا — دار المنار رقم ١٤ شارع الإنشاء بالقاهرة » . ويكتب اسم القاهرة غالبا بالفرنسية بعد كتابته بالعربية ، وسبب ذلك أن الرسائل تصدر عنه من بلاد أوروبية .

٢ — أغلب هذه الرسائل بخط شكيب ، والقليل منها بخط غيره حينما كان يضعف عن الكتابة فيملى على آخر ، ثم يوقع شكيب الرسالةَ بخطه ، وإذا أملى فإنه يراجع الرسالة بعد إملائها ، بدليل أنه يضيف إليها ، أو يعدل فيها .

٣ — يكتب شكيب رسائله بالخط « النسخ » ، مع ميله إلى خط « الرقعة » فى بعض الحروف ، وحروفه كبيرة واضحة ، كأنها كتابة عناوين ، والكلمات غير متلاصقة ، وخط شكيب أنيق واضح ، فهو مثلا

يكتب السين أو الشين بأسنان ، ويحرص على فتحة القاف ووضع نقطتين منفصلتين فوقها ، وهكذا .

٤ — لا يتبع شكيب القاعدة الإملائية دائماً ، فهو مثلا يكتب كلمة « مسألة » هكذا « مسئلة » ، وهو لا يضع الهمزات الواجب وضعها .

٥ — يكتب شكيب بالحبر دائماً ، وهو يكتب الورقة أحياناً من صفحتيها ، وفى بعض الأحيان يكتب على صفحة واحدة من الورقة ، وهو يضبط بالشكل الكلمات التى يراها محتاجة إلى الضبط .

٦ — لا يلتزم حجماً معيناً من الورق ، فأحياناً يكون الورق من الحجم الكبير ، وأحياناً من الحجم المتوسط ، وأحياناً من الحجم الصغير . والكثير من هذه الرسائل مكتوب على ورق مطبوع عليه أسماء فنادق ، فهذا فندق فى لندن ، وثان فى لوزان ، وثالث فى باريس .. إلخ ، مما يدل على انتظام شكيب فى الكتابة خلال رحلاته وتنقلاته بين هذه الفنادق .

٧ — لا يضع شكيب علامات ترقيم إلا نادراً ، وقد وضعت من هذه العلامات قدراً يعاون على تنسيق الكلام .

٨ — تختلف الرسائل من ناحية الحجم ، فتارة تكون فى صفحة أو نصف صفحة ، وتارات تكون فى عشر صفحات ، أو خمس عشرة صفحة ، والملاحظ أنه يطيل إذا كان يتحدث فى الشئون السياسية والقومية ، أو كان يدافع عن نفسه ، أو يفند تهمة نُسبت إليه .

٩ — كان بينه وبين رشيد ما يشبه الشفرة — فيما يظهر — بدليل قوله فى رسالة تاريخها ٢٨ ديسمبر ١٩٢٥ : « واليوم أبرقت إلى القدس بما يفيد هذا المعنى بحسب الإصطلاح الذى بيننا » ، وفى رسالة تاريخها ٣ يوليه

عام ١٩٢٤ نجد رمزاً إلى بعض الأشخاص برسوم بلوية غير واضحة ، ويبدو أن الخشية من رقابة البريد ، أو ضياع الرسائل ، كانت تدعوه إلى هذا الرمز .

١٠ — مما يتصل بالملاحظة السابقة أن شكيب يستعمل بعض الصفات للدلالة على بعض الأشخاص على طريقة الرمز أو للاختصار ، وقد استخلصتُ من قراءتي للرسائل وتتبعي لموضوعاتها هــــذه الرموزَ ومن تدل عليها ، وهي :

شريفنا = الشريف حسين بن علي شريف مكة .

السنوسي = السيد أحمد الشريف السنوسي .

ابن لطف الله = الأمير ميشيل لطف الله .

زيد = زيد بن الحسين بن علي .

الجناب العالي = الخديوي عباس حلمي الثاني .

المحنَّك = الخديوي عباس حلمي الثاني .

الشريف = الشريف حسين بن علي .

مفتي القدس = الحاج أمين الحسيني .

صاحب نجد = عبد العزيز بن سعود .

س . س = سليم سركيس .

حبيبنا الأمير = الأمير حبيب لطف الله .

جلالة المنقذ = الشريف حسين بن علي .

المنياوي = الشيخ فرج المنياوي .

الهمام = الملك عبد العزيز بن سعود .

الجددى = محمد صادق الجددى .

صاحب الشورى = محمد على الطاهر .

أبو الحسن = محمد على الطاهر .

ذلك الرجل = الخديوى عباس حلمى الثانى .

باطل الإسلام = مصطفى كمال أتاتورك .

الجناب العالى السابق = الخديوى عباس حلمى الثانى .

١١ — شكيب يؤرخ رسائله أحيانا بالتاريخ الميلادى ، وأحياناً بالتاريخ الهجرى ، ويضع التاريخ دائماً فى صدر الرسالة ، وأحيانا يكتب اليوم والشهر ويترك السنة اتكالا على أن المرسل إليه يعرفها من زمن إرسال الرسالة ، وأحياناً لا يكتب شيئاً من التاريخ .

١٢ — لا يذكر شكيب اسم السيد رشيد رضا فى صدر الرسالة ، بل يكتفى بالنعوت والصفات ، مثل « حضرة مولانا الأستاذ والأخ الحميم » ، أو « أخى الأستاذ » أو « مولاى الأستاذ » ، أو « سيدى الأخ ومولاى الأستاذ » . . . إلخ .

١٣ — بعد ذكر عبارة المخاطبة الأولى يبدأ فى موضوع الرسالة دون عبارة تحية ، فهو لا يقول مثلا : « والسلام عليكم ورحمة الله » ولا يقول : « تحية طيبة » ، بل يشرع فى الموضوع مباشرة .

١٤ — يغلب عليه أن يختم رسالته بجملة : « والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » ، أو بجملة : « وأطال الله بقاءكم » .

١٥ — فى أكثر الأحيان يكون توقيع شكيب على الرسالة هو « أخوك شكيب أرسلان » ، ولكنه يضع هذه الكلمات الثلاث فى خط

رأسى ، فكل كلمة منها تحت سابقتها ، فكلمة « أخوك » فى سطر ، وكلمة « شكيب » تحتها فى سطر ، وكلمة « أرسلان » تحتها فى سطر ، وأحياناً يجعل التوقيع : «أخوك أبو غالب» ، وتكون كلمة «أخوك» فوق كلمة « أبو غالب » .

١٦ — يضع شكيب على الرسائل حواشىَ أحيانا ، وتأتى هذه الحواشى فى نهاية الرسالة غالبا ، وأحيانا يضع الحاشية فى رأس الرسالة بجوار تاريخها ، وأحيانا يجمع بين الأمرين ، فيضع حواشيه فى رأس الرسالة وفى ذيلها .

١٧ — يجعل شكيب للرسالة ملحقا أحيانا ، ويكتب عليه أحيانا كلمة « خصوصى » ، ويقول لرشيد إن هذا « الخصوصى » لا يجوز اطلاع غيره عليه ، وكان شكيب يبيح لرشيد أن يُطْلع اللجنةَ التنفيذية للمؤتمر الفلسطينى السورى بالقاهرة على رسائله ماعدا « الخصوصى » منها .

١٨ — وفى بعض الأحيان يجيب شكيب على رسالة رشيد ، ثم يجعل للرسالة ملحقاً يدير الحديثَ فيه حول المسائل اللغوية التى يتباحثان فيها .

١٩ — بعض هذه الرسائل نشره رشيد فى مجلته « المنار » ، إما بنصه ، وإما بعد تعديله ، أو حذف شىء منه ، وقد وجدت طائفةً من التعديلات والتعليقات مكتوبة بقلم رشيد على طائفة من الرسائل ، مما يدل على أنه كان بذلك يهيئها للنشر ، ولكن أصل الرسالة واضح يمكن إثباته كما كتبه شكيب .

٢٠ — هناك عدد قليل من هـــذه الرسائل ناقص ، فإحدى الرسائل مثلا ضاعت منها ورقة فى وسطها ، وثانية ضاعت منها ورقة أو أكثر فى آخرها ، وهكذا .

وأثبت فيما يلى هذه الرسائل مع بعض تعليقاتى عليها ، وسأجعل لها أرقاما مسلسلة ، والحواشى أضعها فى آخر الرسالة ، وأبدأ بكتابة ما جاء منها فى رأس الرسالة ، ثم ما جاء بذيلها ، وأرقم هذه الحواشى حسب ورودها .

— ١ —

برلين ٤ ٢ ك ١٩٢٢[١] .

أخى الأستاذ .

هذه المرة الرابعة التى أكتب إليك بها من برلين ، وفى كل مرة أبعث إليك بطائفة من ذكريات الحرب ، لتعلم بالوثائق ماذا عملته أنا ، وتنشر ما شئت فى المنار ، على أنك إن لم تنشر منها شيئاً فلابد من نشر مقالة المجاعة هذه بحذافيرها ، لأنها مقالة تاريخية لم يُكتب فى موضوعها مثلها .

أنا منتظر جوابك على وصول كل ما بعثت إليك به ، وعلى ملاحظاتك بذلك .

« المنار » الأخير وصل وقرأت أكثره . أما رسالتى : « سورية عربية أولا وآخراً » فلم أرها ولا فى عدد ، فهل هى آتية فيما بعد[٢] ؟ .

صرت أرسل إليك فى البريد القادم : « انتداب العرب على سويسرة فى القرون الوسطى » ، لأننا فرغنا من ذكريات الحرب التى اقتضاها افتراء الأراذل اللئام . . .

إن لم يمكنك نشر ذكرياتى الحربية فى « المنار » فأرجو لفَّها كلها فى ظرف واحد كبير مضمون ، وإعادتها إلىَّ ، لأننى أرسل بها حينئذ إلى جريدة « البيان » أو « الوطن » بأميركة[٣] .

---

(١) تاريخ الرسالة هو ٤ كانون الثانى (يناير) ١٩٢٢ . وهى صفحة واحدة على ورقة متوسطة الحجم .

(٢) عاق رشيد هنا بالقلم الرصاص بقوله : « هى فى الجزء الثامن » أى من المجلد الثانى والعشرين من « المنار » وقد نشر رشيد مقالات « ذكريات الحرب » لشكيب تحت عنوان : « كوارث سورية فى سنوات الحرب » فى المجلد الثالث والعشرين من المنار .

(٣) فى الأصل : أميركا .

مسألة الإعلانات أنا مشتغل بها[١] ، وسأفيدك عما يتم بها ، وساعة تحريره عندي الوسيط مدعواً للغداء ، وقد أطلعتُه على (المنار) ، وقلت : هذه مجلة العالم الإسلامي .

سروري بوصول « صبح الأعشى[٢] » فوق الوصف ، وقد بدأت بتجليده . هذا دائرة معارف الأدب العربي ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وسلامي إلى حضرة السيد عاصم أخوك

شكيب أرسلان

— ٢ —

لوزان ٢٢ ديسمبر[٣] ١٩٢٢ .

مولاي الأستاذ .

أخذت أمس كتابك العظيم ، وسمرت عند صاحبنا « المحنَّك » الذي نراه دائماً ، وتلوته عليه فاهتز له كثيراً ، وأثنى على الأستاذ السيد ثناء طويلا عريضاً ، وقال إنه من الأول كان يقدِّر الأستاذَ قدره ولا يزال ، ولما وصلنا إلى عبارة : « واحسرتا على ما فاتني من لقائه في العام الماضي » ضحك واستغرب وقال : أي والله . وهو يهديك مزيدَ السلام ، وكان حديثه هذا أمام « بركة الله » الهندي المشهور الذي هو هنا في هذه الأيام ، وقد طلب مني تقديمه إلى « المحنك » ففعلت .

---

(١) يظهر أن المراد هو الإعلانات التي تنشر في المنار .

(٢) يقصد كتاب « صبح الأعشى » ، وكان شكيب قد طلب من رشيد شراء نسخة له وإرسالها إليه .

(٣) هذه الرسالة في أربع ورقات صغيرة الحجم ، منها ورقة بيضاء ، والثلاث الباقية كل منها مكتوبة من الجهتين .

بهذا العجالة لأجاوب على جميع كتابك ، لأن فيه مواضيع كثيرة ، وأنا الآن أشغل من ذات النحيين على رأى الشيخ أحمد عباس ، وإنما أجاوب على قضية المقالة التى أرسلتها إلى الأخبار : إن جملة : « ليس فى قرار أنقرة ما يخالف الشرع » مازال منذ أرسلت بالمقالة ضميرى يؤنبنى عليها ، وما حملنى عليها سوى مصانعة أنقرة ، حتى لا نفشل فى سياستنا مع وفدها بلوزان ، لأننى كتبت المقالة فى رومة وأنا على أوفاز[1] إلى هنا ، نخفت أن يغضبوا من المقالة ويسيئوا إلينا ، وأتعرض لملامة اللجنة التنفيذية التى ربما قالت : إن مقالتك هذه قد حملت الوفد التركى على الضرر بالمصلحة السورية ، لأنك أنت من الوفد السورى .

أما الآن فلم يبق مانع من نشر ذلك وحذف جملة : « ليس فى قرار أنقرة ما يخالف الشرع » . وأن يقال هكذا : (إن كان فى قرار أنقرة ما يخالف الشرع فقد وقعت فى الماضى من تاريخ الإسلام مخالفات أعظم) .. إلخ ، هكذا أراه أوفق .

رحم الله أستاذنا الإمام[2] القائل : « ما دخلت السياسة شيئاً إلا أفسدته » ، فأنت حر أن تأخذ المقالة من الأخ الرافعى[3] ، وتنشرها فى « الأخبار » أو فى « المقطم » كما تريد ، وتوعز إلى مكتب الاستعلامات السورى أن يبعث إلىَّ من الأعداد التى تنشر بها ثلاثَ نسخ . أشكرك جداً على تصحيح الآية الكريمة على وجهها ، وكما علمت لم يكن معى مصحف أراجعه .

مقالات السيد العلوى فى « الأخبار » وصلتنى ، وسأطلع الجابرى والأصيل مندوب الحسين والوفد العراقى عليها ، وأقول لهم : هل يجوز مثل هذا التحريض من الملك نحو الكماليين ؟ وهل ينتظر من الأتراك أن يحافظوا على العرب بعد أن

---

(١) الأوفاز . جمع وفز ، وهو العجلة ، يقال : نحن فيه على أوفاز ، أى فى عجلة .
(٢) يقصد الإمام الشيخ محمد عبده .
(٣) جميل الرافعى .

بكفرهم «القبلة[١]» ، ونفضل اليونان والفرنسيين عليهم ، فضلا عن الإنكليز .. إلخ .
لأنهم بمجرد ما سمعوا من كون الأتراك[٢] قرروا تركَ البلاد العربية إلى الحلفاء
بدلا من أن يزعلوا رأيتهم فرحوا ، وذلك لأن أساس سياستهم هو التماس العذر
للشقاق وفك عرى الجامعة الإسلامية .

أرسلت بتاريخ ١٧[٣] تقريراً إلى اللجنة رسمياً ، ثم فى ٢١ تقريراً آخر .
لابد أن تطلعوا عليهما لتعلموا تطورات الحالة هنا ، وأستغنى عن التكرار مع
ضيق وقتى .

ترون أن حبيب لطف الله ليس فقط غشنا ، ونكث بوعده معنا ، وكلفنا أن
نؤدى من كيسنا ٤٥٠ ليرة إنكليزية هو ونفس أخيه[٤] ، بل لما رأى أننا نهضنا
بالحملة ، ونجح شغلنا فى إيطالية ذهب إلى لندرة ، واغتنم فرصة مجىء موسولينى إلى
هناك ليختلف إليه ، وآخر مرة يقابله ويزعم له أنه هو الرئيس[٥] ، وهو الأصل ،
ولولاه لم يكن شىء ، وأنه هو الذى أرسلنا إليه عندما ذهبنا إلى ميلانو . . .
ولا نعلم ماذا هذى غير ذلك .

نعم عندما جاء حبيب إلى هنا ، وكان بلغنا الخبر من نفس البعثة الإيطالية
سألناه عن ذلك ، فأنكر أن يكون قابل موسولينى ، لأنه يعلم ماذا قال . . .

ثم علمنا أنه أثناء وجوده هنا قابل بعض البعثة البولشفية وقال لهم : إنه هو الرئيس
وإن المفاوضات ينبغى أن تكون معه ؛ وكانوا صدَّقوا ذلك ، لمَّا رأوا اسم أخيه رئيساً

---

(١) مجلة كان يصدرها شريف مكة الملك حسين بن على بمكة ، وكانت تحمل على شكيب بعنف .

(٢) شكيب يكتب الكاف المفصولة غالبا هكذا . « ك » .

(٣) يقصد ١٧ ديسمبر ١٩٢٢ . ويقصد باللجنة اللجنة التنفيذية للمؤتمر السورى الفلسطينى .

(٤) هو ميشيل لطف الله .

(٥) أى رئيس الوفد السورى الفلسطينى فى أوربة .

فى النداء الذى طبعناه عامَ أول ، غير أننا أفهمنا البولشفيك والطليان الحقائق ... ولا تخافوا من أن يكون وقع قصور فى الإيضاح .

من أهم ما سأكتب إليك عنه المرة الآتية كتاب ستودورت الأميركانى المسمى « العالم الإسلامى الجديد[1] » الذى هو خير ما ألف فى هذا الباب ، وصل سنة ١٩٢١ وندر أن يكون أوربى فهم الإسلام والشرق من ماض وحاضر فَهْمَ هذا الرجل ، واطلع على ما اطلع عليه بشأنهما . مترجم إلى الفرنسوية ، وقد نقله عجاج نويهض إلى العربية ، وأرسل يعرض على أن أطالعه قبل طبعه ، وأعلق عليه ماشئت ، وأجبته إلى ذلك .

وقد رأيت كثيرين طالعوه ، ومنهم الكونت أوستروروغ الذى هو من أحسن المستشرقين ، وأعلم علماء أوربة[2] مترجم «الأحكام السلطانية[3]» إلى الفرنساوى ، هذا أيضاً يقول فى هذا الكتاب قولى .

ثم كتاب آخر اسمه « الإسلام ماضيه وحاضره ومستقبله » لزويمر الذى هو من زعماء التبشير بالمسيحية ، طاف فى اليمن وعمان ، ورأس مؤتمرات التنصير فى القاهرة سنة ١٩٠٦ ، وفى لكنو سنة ١٩١١ ، وكتابه أفيد ما أُلِّف للاسلام ، لا بكونه ينصفه ، ويحذر أوربة من الجور عليه نظير ستودورت ، بل لكونه يحمل عليه حملةً شديدة ، ويحث أوربة على استعمال قوتها السياسية ، واغتنام ضعف الإسلام الحاضر ، لأجل القضاء على الدين الإسلامى ، وهو يكشف لنا مكايد ودسائس لم نكن نعرفها ، ويبين لنا جمعيات التنصير فى بلد من بلاد الإسلام ، وأين نجحوا ، وأين لم ينجحوا ، كل ذلك بالتدقيق .

---

(١) هو كتاب « حاضر العالم الإسلامى » ، وقد تحدثت عنه فيما سبق .

(٢) فى الأصل : أوربا .

(٣) يقصد كتاب « الأحكام السلطانية » للماوردى .

مرادى تعريب ذلك ، ونشره فى « المنار » ، ثم فى كتاب مجلد ، وربما ينفق على طبعه الحنك الذى تذكر أمس — بمناسبة هذه المسألة ، وهذا الكتاب — مشروعكم دارَ الدعوة والإرشاد[1] .

والحاصل : هذا موضوع خطير سأبادلك رأيى فيه ، ولما رأيت فى الكتاب مناحة هؤلاء المبشرين من جراء كون انكلترة سلمت ولاية كافرستان إلى أمير الأفغان عبد الرحمن ، حتى حمل أهلها على الإسلام فأسلموا قاطبة ، بعد أن كانوا منذ ٢٥ سنة طلبوا دعاة مسيحيين بزعمه لتنصيرهم ، وأن الجمعية البرسبيتيرية تُعِدُّ بعثةً لتركستان وأفغانستان ، تكون نقطة ارتكازها فى مشهد على وبشمال أفغانستان ، ويتنبه بأن فى بلوجستان بقرب كيلان قوماً ليسوا مسلمين إلا بالاسم ، فينبغى البدار لتنصيرهم .

حررت إلى صديقى محمود ترزى خان سفير الأفغان فى باريز كلَّ تلك العبارات ، وطلبت منه أن يتخذوا كل التدابير لمنع هؤلاء الناس من الدخول إلى أفغانستان التى — لا يدخلونها أبداً — بل لعرقلة مساعيهم فى تركستان وبلوجستان ، قبَّحهم الله ، وقبَّح المسلمين النائمين عنهم . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أخوكم

شكيب أرسلان

١ — السيد عبد الرحمن عاصم أنبأنى بأنه أرسل إلىَّ الجزء الرابع من (المنار) ، ولَمَّا يصل[2] .

(١) مدرسة أنشأها رشيد رضا لتخريج دعاة الإسلام .

(٢) هذه الحاشية موجودة فى نهاية الرسالة .

— ٣ —

جنيف فى ٨ أيلول[(١)] ١٩٢٣ .

مولاى الأستاذ :

منذ نحو ثلاث جُمَع حررت إليك مكتوباً ، بل كتاباً لا ينقصه إلا التجليد ، عساه يكون وصلك ، وعوّض من قصور الماضى .

اليوم نحن الثلاثة فى جنيف لأجل تقديم التقارير اللازمة ، والقيام بالمساعى الواجبة لدى جمعية الأمم ، وقد قدمنا تقريراً وسيطاً ، وسنقدم تقريراً بسيطاً[(٢)] يتضمن الحوادثَ والتفاصيل ، ونرسل إليكم صورتيهما ، حتى إذا شاءت اللجنة التنفيذية — إن كان هناك لجنة[(٣)] — تعريبَهما ونشرهما باشرت ذلك ، ولها منذ الآن أن تنشر فى الجرائد خبرَ وجودِ الوفد السورى الفلسطينى فى جنيف ، وتقديمه الاحتجاجات اللازمة لجمعية الأمم .

اليوم زرنا البعثة اليابانية ، وقدمنا لها واجب التعزية ، وأكدنا لها أننا نشاطر اليابان ألم هذه الفادحة أكثر من غيرنا ، لأننا شرقيون ، واليابان مفخرٌ للشرق ، وقد قابلونا بالشكر الوافر .

الشىء الذى طلبتموه فى كتابكم الماضى ، وهو تلخيص عمل الوفد السورى من بعد انفضاض مؤتمر جنيف إلى الآن ، سأعمله ، وأبعث به إليكم ، ولكن يكون عبارة عن خلاصة ، وأما الوثائق والصور مما قدمناه من التقارير فكلها أرسلناها إلى

---

(١) سبتمبر ، وهذه الرسالة فى ورقتين من الحجم المتوسط ، الورقة الأولى مكتوبة من الجهتين ، والثانية مكتوب نحو ثلثها من جهة واحدة .

(٢) الوسيط بمعنى الوسط بين الإسهاب والإيجاز ، والبسيط الواسع .

(٣) كان شكيب غير مستريح من اللجنة حينئذ .

اللجنة التنفيذية، وقد طالعناها في الكتاب المنشور عن أعمـــال المؤتمر والوفد هاتين السنتين.

الوفد الفلسطيني يقول أخونا الجابرى إنه قادم إلى جنيف ، لـكننا لم نحس له بمار كزاً إلى الآن ، ولا أعلم هل يأتون أم يعدلون عن الحضور .

منذ شهرين أو أكثر ما رأينا « المنار » . يظهر أن الإشارة وردت إلى الصحف السورية من مكة وعمان بالرد على الصحف المصرية ، وعليكم فى قضية الحج وخلاف مصر مع الحجاز .

« المحنَّك » ذهب إلى ألمانية لأجل إنزال بارجة « يخت » استصنعها فى « كيل » ويريد إنزالها فى البحر ، وهى سفينة نزهة ، ولـكنها بغاية الانتظام ، وفى طول ٨٠ متراً ، وفيها ٤٠ ملاحاً ، وقد طلب منى لها اسماً فقـدمت له ٢٠ اسماً ، فلم يعجبه ولا واحد ، ولـكن نظراً لما حدث عن الأشياء التى فيها سميتها « سفينة نوح » ، أما هو فسماها « نعمة الله » بطلب أخته نعمت هانم .

دائماً يذكر اليمن ومصيره ، ولزوم الذهاب إليه ، وتقرير حال لجزيرة العرب قبل أن يتسع الشق ويعيي حَوْصُه[1] ، وأنه لا يوجد لهذه المهمة مثلى ومثلـكم ، وأنا أكدت له أننى حاضر ، لا سيما بعد أن ذهبتم أنتم فى هذه المهمة ، لـكن لابد قبل ذلك أن أشاهد عائلتى ، إما فى (مَرْسين) ، أو فى مصر إن أمكن .

مسألة الترخيص لى بالذهاب حررت بها كتابين ، أحدهما إلى محمد باشا الشريعى والثانى إلى فؤاد بك سليم ، وأنا منتظر جوابَ كل منهما ، ولـكن لأجل التعجيل إذا تفضلتم بمحادثتهما فى ذلك فأكون شاكراً ، ولا أظن هناك مانعاً إلا إذا كانت ريبة من صاحب الشأن بمصر من جهة صلتنا مع المحنك[2] .

---

(١) حوصه : خاطته .

(٢) يقصد بصاحب الشأن الملك فؤاد الأول ، وبالمحنك الخديوى عباس حلمى الثانى.

والحال أن هذه الصلة بسيطة ، وليس فى برنامجها معاكسة لزيد أو عمرو ، عدا كونى أتعهد أننى طول إقامتى بمصر لا أدخل فى السياسة المصرية ، لا فى قليل ولا فى كثير ، فإن مرادى من الذهاب إلى مصر هو الالتقاء بعائلتى التى لا تريد أن تسكن معى إلا فى بلاد إسلامية ، ووالدتى لا ترضى إلا بذلك ، فأرجو أن تجاوبونى عن نتيجة سعيكم مهما بهذه المسألة .

أرجو إفادتى : هل ابن العم السيد عبد الرحمن عاصم بمصر أم ذهب إلى طرابلس ، لأن مرادى الكتابة إليه ، وشكره على إرسال كتاب : ترسل الأمير قابوس .

اليمن اليمن . تحقق أن رابطته انقطعت بتركية ، فلابد من النظر فى نظام يجمع شمل اليمن من شافعى وزيدى ، وبعد ذلك يجمع إليه سائر الجزيرة قبل أن تفسد الأمور ويُدخل الغريبُ ... أصابعه .

ما هذه القصة : قَتْلُ الوهابيين لألفين من حجاج اليمن ، وهل الخبر صحيح ؟ .

هذا ، وإننى بانتظار جوابكم ، وأطال الله بقاءكم .

أخوكم
شكيب أرسلان

العنوان لا يزال
Palmaral Hotel Lousanne

— ٤ —

لوزان ٩ أيلول[١] ١٩٢٣

مولاى الأستاذ

أمس فى جنيف حررت إليك مكتوباً مضموناً [٢] بالبريد ، ولما أقرأ جوابك

---

(١) سبتمبر . والرسالة مكتوبة فى ثلاث ورقات ، كل ورقة من جهتيها .
(٢) أى مسجلا .

الأخير رقم ٩ المحرم ، لأنى كنت جئت من لوسرن إلى جنيف بدون أن أعوج (١) على لوزان محل بريدى وملقى عصاى الآن ، فلما جئت إلى لوزان إذا منك كتاب كريم ، فحمدت الله على صحتك ، وشكرت لطفك ، وتوجه فؤادك ، أما الحواشى فقد اضطررنا لها لأن الكتاب موضوعه العالم الإسلامى (٢) . وقد أشار إلى الأصول وشوق إلى الفروع ، فلزم أن نشرح كل مسألة ، ونذكر أخبار كل بلد من بلدان المسلمين فى الحال الحاضرة ، ليعلم المسلمون بعضهم بعضاً ، ويطلعوا على ما يدس لهم ويطبخ ، وليس المسلمين بالتخصيص فقط بل ، قرأت فى الكتب المؤلفة على أفريقية — لأننى اشتريت أكثر من ١٠٠ مجلد على أخبار المستعمرات — ما يعمله البلجيكيون فى الكونغو ، والفرنسيس فى النيجر والسنغال وغينية والكامرون ووادای وماداغسكر والقومور ، والإنكليز فى شرق أفريقية والأوغانده لتقليص ظل العرب والعربية هذا عدا مساعيهم فى ذلك فى جزائر الغرب ، فليس الإسلام مهدداً فقط بل العربية — ولعمرى : هل يعيش هذا بدون هذه ؟ .

فلو كنت أردت أن أؤلف كتاباً خاصاً بالعالم الإسلامى لزمه وقت أطول ومال وفرص لا تتاح لى بالحال التى أنا فيها ، فقلت ما لا يدرك كله لا يترك كله ، وجعلت هذه الحواشى وسيلة للغرض الذى ذكرناه .

أما طبع الكتاب عندك فيا أيها السيد الأخ إن الطبع لا يخصنى منه شىء ، وما كان يصعب أن أشير على عجاج نويهض بطبعه عندكم ، وقد كان يقبل الرأى ، لكن ما شعرت إلا وقد اتفق مع المطبعة السلفية (٣) ، وأرسل إلى الكراس الأول مطبوعاً فيها ، فسبق السيف العذل .

---

(١) أعوج : أقيم أو أقف .
(٢) يقصد حواشيه على كتاب « حاضر العالم الإسلامى » .
(٣) صاحبها الأستاذ محب الدين الخطيب .

أما فوائدك فلا نحرم منها إن شاء الله ، وبالطبع بطبعتك ليس بشرط فى فيضها ، ومن يمنع السحب أن ترسل المطر ؟ .

بقدر ما تأخرنا فى مجاوبتك المرة الماضية ابتدرناها هذه النوبة ، فكتابان فى يومين ، وبمجرد قراءة الكتاب كان الجواب ، مع أن أخاك هذا غريق فى لجة كتابات لا يدرك قعرها .

علمنا أسباب وقوف حركة اللجنة ، وأن القطن أضربها ، وليت عندى ثروة اللطف[1] ، ولو خسرت ٦٠ ألف جنيه ، أما نجيب فضنكه من السيدة قرينته وإسرافها أكثر مما هو من تضييق أحمد عزت باشا عليه فى نجوم الإيجار ، وأما غضب الباشا على الفرنسيس لعدم دفع أجرة مبانيه فقد سرنى ، وما أحدث للفرنسيس عملا غيره ، فإن مثل هذا لا خير يرتجى منه ، وبالحقيقة هذا المال نهب من الأمة ، فحق للأمة أن تنتفع به .

أما العمل مع الفرنسيس والتفاهم معهم كما يقال فى اللغة العصرية فإنهما لا يأتيان بالنتيجة المطلوبة ، ولكن الزمان سيصلح الأمور ، وكما كانت حوادث أوربة[2] هى السبب فى سقوط سورية بأيديهم ، كذلك حوادث أوربة ستأتى بخلاص سورية ، وهذه الحوادث لا يطول أمرها أكثر من بضع سنين ، أما الترك فكما قلتم لا أمل بهم ألبتة ، ومرادهم — أى حكومة أنقرة الحاضرة — مخاصمة العرب وإيذاؤهم بأى وجه كان ، أى سياسة أهواء وشهوات وطيش ونزق ، فعلى العرب أن يتركوهم وينظروا إلى أنفسهم ، فمتى رأى الترك أن العرب انتظمت حالهم جاءوا هم يخطبون ودهم .

ما ذكرتموه من كونهم يذكرون سيئات العرب وينسون الحسنات بيناه

---

(١) يقصد ميشيل لطف الله .
(٢) فى الأصل : أوربا .

في جوابنا لعبد الغني سني في المقطم ، تحت عنوان (نجاة الشرق في اتفاق العرب والترك) : وهو الذي أرسلناه من هنا في ٢٦ المنصرم [1] ، فلا بد أن يكون ظهر واطلعتم عليه .

قابلت أول من أمس في جنيف اثنين من أفضل فضلائهم وأعلم علمائهم ، وشرحت لهما جميعَ سياسة الخطأ والخطل والغرور والطيش التي هم عليها الآن ، وبغيهم على العرب ، وذكرت لهما خيالاتهم واعتقادهم الفاسد بالتورانية ، وظنهم أن جنكيز وأعقابه كانوا فتحوا بلاد الإسلام بالسيف ، وأن إسلامهم أخيراً أنقذ الإسلام ، واعتدادذلك مِنَّةً على الإسلام والعرب ، وبينت لهما أن هؤلاء في أول الأمر جاءوا كالجراد ، فنسفوا عمران الإسلام ، وارتكبوا ما يُخجل منه من الخراب ، لا ما يفتخر به ، ولكن ما لبث الإسلام أن نهض ولَمَّ شعثه ، ودق رقابهم ، ولو لم يدخلوا هم في الإسلام لاستؤصلوا عن بكرة أبيهم ، فلا مِنَّةَ لأحد على الإسلام .

والحاصل ما أبقيت شيئاً إلا ذكرته ، فأجابا بأن ما أقوله يعبر عن الأفكار العمومية في الأمة التركية ، وليس أحد في الحقيقة راضياً عن هذه الخطة ، ولكن الناس صابرة الآن خوف الفوضى لا غير ، وهذان الشخصان من أكبر هذه الأمة في العلم والفضل جاءا لمجمع الصليب الأحمر والهلال الأحمر . وكان الجابري قابلهما ، وقال لي إنهما هما متعصبان وعلى خطة أنقرة ، لكن لدى مقابلتي لهما علمت أن في قلوبهما ما في قلوبنا من هذه الحالة ، لكن لم يثقا بالجابري ، ولا بَاحَا له بذات صدرهما .

كتابكم إلى الشعب الإنكليزي أعجبني كثيراً ، ولكن يلزم ترجمته إلى الإنكليزي ، وإن كنت أعتقد أنهم ترجموه سراً ، لأنه بلغني أن البيان الذي

---

(١) يقصد ٢٦ أغسطس ١٩٢٣ .

نشرناه للأمة العربية ترجموه بالقدس بتدقيق لا يوصف، وكانت السلطة الانكليزية تأمر بترجمته بالحرف، وتأدية معاني المترادفات كما هي بدون قبول عذر أصلا، وكانوا كلما ترجموا صحيفة أعادها المندوب السامي، وقال للتراجمة: هذه ترجمة ناقصة وبقوا جمعة يشتغلون بها، ثم يبيضونها وأرسلوها إلى نظارتي الخارجية و المستعمرات، وأظن أنهم يفعلون ذلك بكتابكم

ما اطلعت ماذا كتب أحمد جودت عن كتابكم فى الخلافة ، ولكن لما أعطيته الكتاب هنا وعد بأنه يكتب عنه .

مجلة « سبيل الرشاد » تجاهد فى قتال التورانية كالأول ، وقد وصلتنى منها ثلاثة أعداد أخيراً ، والظاهر أن الحس الدينى الإسلامى متنبه اليوم فى الأتراك أكثر من ذى قبل ، وقد عاد منهم أناس يحجون ، بالرغم من قول رضا نور : ليس من تركى يجسر أن يحج .

لكن لا يكفى نهضة إسلامية فى تركية لإقناع التورانيين بالوقوف عند حد ، بل تجب النهضة الإسلامية فى بلاد العرب ومصر ، ويجب إقناع الناس بأنه لا يجوز التسليم للأتراك بكل رئاسة وزعامة ، لأن ذلك أطمعهم فى حصر كل شىء بهم .

واحد من ذوات مصر كتب إلىَّ عن مصطفى كمال على النسق الذى ترونه فى الجرائد المصرية ، فجاوبته أن مصطفى كمال هو من بطل الأبطال[1] بلا نزاع ، وهو الذى أعاد تركية من العدم ، لكن لا أراه أعظم بطولة من محمد بن عبد الكريم القائم بشمالى المغرب ، لأن الجيش الأسبانيولى الذى قاتله ابن عبد الكريم[2] سنة ١٩٢١ واستأصل منه ٢٥ ألفاً ، وغنم منه ١٧٠ مدفعا إلخ كان ٢٠٠ ألف ، مع أن الجيش اليونانى الذى قاتله الترك لم يتجاوز ١٥٠ ألفاً ، ثم الآن عند أسبانية هناك

(١) هكذا بالأصل ، والسياق يقتضى حذف كلمة « من » .
(٢) يقصد الأمير محمد عبد الكريم الخطابى .

١٦٠ ألفاً ، وعبد الكريم هو المهاجم ، وبعد هذا فأين اليونان خمسة ملايين من أسبانية التي هي ٤٠ مليوناً ؟ وأين منطقة عبد الكريم التي هي كلها ٤٥٠ ألف نسمة من تركية ١٣ مليوناً . . . إلخ .

وقلت له : لماذا يا أخي هذا الإعجاب كله بأنقرة وكال ، ولا أحد تقريباً يذكر محمد بن عبد الكريم إلا عرضاً ، ولا أحد يرسل إليه : كيف حالك يا أيها الأخ ، ولو سراً ؟ بمثل هذه الأشياء احتقرنا الترك وصغروا شأننا .

قريباً ستأتى لى مقالة فى « البيان » على ابن عبد الكريم ، أذكر فيها هذه التنظيرات كلها ، فستطلعون عليها ، وعندى تجب الإشادة بذكر عبد الكريم ؛ وتكرار الكلام عنه فى الجرائد العربية ، وأنتم يلزم أن تكتبوا فى شأنه مقالة طنانة ، وتستكتبوا أصحابكم حتى يظهر للملأ أن عمل مصطفى كمال ، وانتصاره على دولة صغيرة كيونان ، ليس فيه مع كونه مفخرة عظيمة ما ينسينا مفاخر أجل وأعظم ، فإن التنويه بمآثر هذا الرجل وأبطال طرابلس الغرب هو الذى يخفف من هذه الغلواء الأنقرية التى أصبحت لا تطاق ، وأرى عند كتاب العرب قصوراً فى ذلك سببه أن الجرائد المصرية الإسلامية مفتونة بالترك مهما فعلوا ، والجرائد المسيحية لا يمكنها الإطناب فى ذكر عبد الكريم والسنوسية ، لأنهم يقاتلون دولا مسيحية ، ولكن يلزم الاجتهاد فى حملهم على ذلك ، فإن أهمية العرب لا تظهر إلا بإظهار مآثر هؤلاء وغيرهم .

أما المجمع الذى عقده هؤلاء التورانيون لجعل التركية لغة العالم الإسلامى فكلام فارغ ؛ وسنكتب عليه أولا أن المغرب ومصراً [1] وبلاد العرب لا يتركون العربى ليتعلموا التركى ؛ وأن إيران لاتترك الفارسى ، لا بل الهند والأفغان لا تترك الفارسى . بقى الجاوى والصين ، فالجاوى مهذبو الإسلام فيها هم العرب ، كما أنهم مهذبو مسلمى

(١) هكذا بالأصل.

الحبشة والصومالى وشرق إفريقية وأوساطها وغربيها ، وهم متغلغلون فى أحشاء هذه القارة من أولها إلى آخرها .

أما الصين فعندهم لسانهم ، ولسان الدين عندهم وعند غيرهم هو العربى ، فلا يبقى إذن سوى بلاد تركستان والقازان وأذربيجان ، وهؤلاء ترك وتتر ، أما الطاغستانيون فأبوا أن يتعلموا التركى بدل العربى ، هذا محقق ، وأين قدرة أنقرة على القيام بمشروعات كالتى قالوا عنها ؟ .

نحن لا ننكره أن نبهاء الإسلام فى كل صقع يتعلمون التركى ، إلا أنه لا يجوز أن يكون ذلك لنقص أهمية العربى ، وليس عندى ذرة من الخوف من ذلك ، لعلمى أنهم لا يقدرون عليه ، وإنما هو من جملة تشدقات التورانية ، واللغة العربية ستبقى برغم أنوف هؤلاء لغة شعوب الإسلام المشتركة ، حتى أن الهنود الذين هم أشد الناس تعصباً لتركية لا يريدون بدلا من العربى فى الدين ، وأما الخليفة والحزب الدينى فى تركية فليسوا أصحاب هذا الاقتراح ، بل هو من ترك أوجاغى لأجل المباهرة والتبجبح لا غير ، وقد يقولون : ليس مقصدنا انتقاص العربى ، بل إيجاد لغة يتفاهم بها المسلمون عامة عدا لغات شعوبه الخاصة ، فهذا لا ينفى ذاك .

وأنا أقول : ليس عندهم للمعارف ميزانية تكفى للتعليم الابتدائى فى نفس بلادهم ، فكيف يقدرون على نشر التركى فى العالم الإسلامى المتنائى الأطراف ؟ دع عنك هذا . كلُّه تنفج[1] بالباطل وغيظ بالعرب ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أخوكم

شكيب أرسلان

١ — رجل أرمنى من وجوه الأرمن وأكابر عُلاّتهم ، كان منسوباً للسلطان عبد الحميد ، وبعد سقوطه فرّ إلى أوربة ، وهو الآن من الملازمين للمحنَّك ، واسمه

(١) تنفج فلان : افتخر بأكثر مما عنده .

أنطون بك كوشه جى أوغلو ، له تأليف على حادثة الأرمن ، ذكر أن أصلها سياسة أجنبية ، وبرهن بالوثائق ، وهو متمسك بدينه ومطلع عليه ، قال لى منذ أيام : إن عقيدة القرآن بالمسيح هى أقدم ما قيل فى المسيح . قلت له : وكيف ذلك ؟ . قال : لأن القرآن منذ ١٣٠٠ سنة والأناجيل الموجودة اليوم ليس فيها على التحقيق ما يتجاوز عمر نسخته الأصلية ٨٠٠ سنة ، فإن الأناجيل كانت نحو ٤٠ ، فاحترقت كلها بحريق مكتبة الإسكندرية ، والباقى منها متأخر تاريخ نسخه عن القرآن بقرون ، عدا ذلك عقيدة الإسلام فى المسيح مطابقة لعقيدة آريوس تقريباً ، باعتبار بنوة المسيح لله مجازية .

قلت له : هذه المسألة الأخيرة أعرفها ، لكن كونك تقول مثل المسلمين إنه فى المجمع النيقى تقررت العقيدة المسيحية خلافاً لآريوس ، ونفيت كل الأناجيل التى كانت كلها ما عدا هذه الأربعة ، ونسخها منذ ٨٠٠ سنة أو ٩٠٠ سنة ، فهذا مهم ؛ وقصدت أن أروى لك هذه الرواية ، لأنها تتعلق بأبحاث «المنار» : منار الإسلام[١] .

— ٥ —

مرسين ١٢ مايو ١٩٢٤[٢] .

سيدى الأخ الحميم والأستاذ الكبير :

تأخرت كثيراً هذه المدة عن الكتابة الك لأسباب عديدة ، منها النقلة إلى مرسين ، ومنها الاهتمام بجلب العائلة ، ومنها انهماكى أكثر الأوقات بكتابات وأشغال عائدة لصديقنا الأستاذ السيد السنوسى[٣] ، والسبب الأهم هو أننى كلما

---

(١) هذه حاشية جاءت فى آخر الرسالة .
(٢) هذه الرسالة كانت فى خمس ورقات مكتوبة كل منها من الجهتين .
(٣) هو السيد الشريف أحمد السنوسى .

هممت أن أكتب لك فاضت عليّ المواضيع التى أبغى مناجاتك بها ، فأجلت ذلك إلى نُدْحَة[١] يكون فيها البال رائقاً والوقت متسعاً ، ولم أشأ أن يكون حديثى معك مقصوراً على أسطر معدودة ، فكان شغلى عنك بك فى الواقع .

أسأل الله أن يعيد شهرَ الصيام المبارك ، وهذا العيد عليك وعلى ذويك أعواماً لا تكاد تحصى ، وأنت وإياهم فى الصحة والإقبال ، والأمة الاسلامية فى دور أسعد ، وعَوْد إلى سابق المجد أحمد ، أما أنا فقد مضى عليّ عيد لم أعيد مثله فى حياتى ، إذ نهار العيد نفسه وصلت عائلتى من حيفا وهى جميعاً بكمال العافية ، وشاهدتهم وأنا لا أكاد أصدّق عيونى ، بعد أن مضت عليّ ست حؤول[٢] كاملة وأنا أجوب الأقطار ، ولا أنزل من قطار إلا لأصعد إلى قطار ، وأفكر فى مكان أقدر أن أجتمع فيه بأهلى فلا أجد .

فها أنا ذا والحمد لله بعد هذه الغيبة المتطاولة ، وبعد أحوال وأهوال وليالٍ مظلمات طوال ، قد جمعنى الله بأهلى ، وشاهدت سيدتى الوالدة التى كنت أذوبُ شوقاً إليها وهى بالعافية ، وقرَّت عينى برؤية فلذة كبدى (غالب) الذى تركته ابن سنة ونصف سنة عَيِيّاً بمرجوع الخطاب ، غير قادر على الإبانة عما فى نفسه إلا بلحظه ، فإذا به فى سنته الثامنة ، وهو كما قالوا لكم لولا أن يقال إنه بابنه مفتون لحدثتكم عن نكاته الكثيرة .

ويوم وصوله أخذته إلى حضرة الأبر الأستاذ السنوسى ، ففرح به كثيراً ، وثانى يوم دعانى وإياه ، فجئت وحدى واعتذرت عنه ، فأبى إلا أن يحضر ، وأرسل عسكرياً جاء به ، وأهداه ساعة ذهب نفيسة مع ثياب أطلس طرابلسية ومصاحف مذهبة ، منها واحد إلى والدتى التى وجدنا عندها مقداراً من ماء زمزم ، فقدمناه

---

(١) الندحة : السعة من الوقت .
(٢) الحؤول : جمع حول ، وهو السنة ، ويجمع على أحوال وحوول أيضا .

إلى السيد ، وثالث يوم جاء مجيمي باشا السعدون ، وفاتح أفندي المرعشلي من أعيان حلب ، وهو مهاجر مثلنا ، فأخذ السيد حاشيته المديدة ، وهؤلاء ، وجاءوا جميعاً لزيارتنا ، وتذكرنا كيف أننا اجتمعنا من أقطار متباعدة : واحد من طرابلس الغرب ، والآخر من العراق ، والآخر من سورية . . الخ على مبدأ واحد ، وآل أمرنا إلى الهجرة والغربة ، واجتمعنا بقَدَر الله فى بلدة واحدة .

ثم أدّب السيد لنا مأدبة ، فلما قلت لغالب : هيا بنا يا غالب إلى السيد ، قال لى : أكل يوم إلى السيد ؟ تراه يقنط منا ! . إلا أن السيد أرسل مُصِراً على مجىء غالب ، فلما حضرنا أخبرته بما قال غالب ، فقال له : لا والله يا ولدى ما نقنط .

والحاصل بالرغم من كل ما نعمّت نفسى فى أسفارى ومن معيشتى فى بلاد الانتظام والرفاهة مدة طويلة ، لم أذق طعم الراحة الحقيقية إلا منذ جمعة بعد اجتماع شملى ، مما يدل أن لا راحة إلا راحة القلب ، ومثل ذلك نفس ولدى فى هذه المدة القصيرة ، نَصَعَ لونُه ، وجادت صحته ، فالحمد لله ، ثم الحمد لله لا نحصى ثناء عليه .

سيدى إن مسألة الذهاب إلى اليمن أنا من الأول إلى الآخر لا رأى لى فيها ، إلا على شرط وجودك فى رئاسة ذلك الوفد الذى سيذهب إلى اليمن ، وهذا أمر كنت اتفقت فيه مع ذلك « الحنَك » عند ما كنا وإياه فى سويسرة ، ووعد هو بدفع نفقات السفرة . ولكننى أنا قلت له : أما الآن فأنا لا أقدر على هذه الرحلة ؛ لأننى لا أفكر إلا بمشاهدة أهلى ، وبعد مشاهدتهم بسنة من الزمن أصير حاضراً للسفر . وقد مضى عليها ستة أشهر منذ فارقت الحنك ، فلا أعرف هل هو باقٍ على عزمه من جهة إرسال هـذا الوفد إلى اليمن أم لا . لا أظن هناك مانعاً يمنع من استمراره على ذلك العزم .

أما ما كتبته أنا للأستاذ الثعالبي[1] من الترغيب من الذهاب إلى هناك ، فهو

---

(١) هو الأستاذ عبد العزيز الثعالبي المتوفى سنة ١٩٤٤ م .

بنى على كونه آنست منه هذا الميل ، فقلت لعله يقدر أن يرود الأرض بين يدى سفرتنا نحن ، أو لعل له رفاقا يذهبون ويقومون بعمل ، ثم نذهب نحن الاثنين ومعنا من ننتخب .

أما من جهة وفدك إلى اليمن فما علمت شيئاً من أمره ، وقد حان له أن يتنفس من تلك الجهة بخبر مفصل ، على أنه إن كان هو الذى أثر فى إحباط تلك المعاهدة المشؤومة . . . فوالله نعم العمل ، ولا أشك فى أن نصيحتك أثرت جداً فى الإمام[١] ، ولكن واحداً ممن يعرف اليمنَ والإمامَ حقَّ العلم يؤكد لى أنه لا يخشى من اتفاق الإمام مع دولة من هذه الدول . . إذ ذلك مخالف لشروط مبايعته بالإمامة .

مع هذا أرجو منك أن لا تُغِبَّه[٢] الآراء السياسية والمعلومات الخارجية التى يحتاج إلى معرفتها ، وقد أصبتم جداً فى التقريب بينه وبين سلطان نجد[٣] ، وبذلك تتشكل قوة عربية مهمة يعتد بها ، فحبذا لو قدرتم أن تحملوهما على معاهدة تربطهما هما الاثنين ، وتكون مبدأ اتحاد العرب .

ومما لا يلزم أن تملوا تذكير الإمام به معمل السلاح و « الفشيك » ، لأنها مسألة حيوية ، وأنا كما تعلمون لا أعتقد للإسلام حياة إلا من بعد أن تصير معامل سلاحه فى وسط بلدانه ، ولا حاجة إلى ذكر ما جاهدناه فى هذا الموضوع ، ليس بالكتابة فقط ، بل بالسعى ، وقد كان لى يد عند ما كنت ببرلين فى عضد الأفغان فى هذه القضية ، واليوم أنا متفق مع السيد السنوسى أنه بعد أن يتمكن من العودة إلى (الكُفُرة) يبذل كل ما يقدر عليه من المجهود ، ويجمع ما أمكن من النقود ، لنؤسس له — ولإسلام أفريقية — معملا ، ولو بدأنا به صغيراً لصنع « الفشيك » ، كما أنى متفق مع أناس ألمان سراً على الطريقة اللازمة لإتمام هذا المشروع .

---

(١) يقصد الإمام يحيى إمام اليمن .

(٢) لاتغبه : لا تتأخر عليه . يقال : فلان لا يغبنا عطاؤه : أى يأتينا كل يوم .

(٣) عبد العزيز بن سعود .

كثير من إخواننا المصريين لاسيما أعضاء مجلس النواب عند ما انتخبوا هنأناهم بمناصبهم ، فأجابونا بما لهم من الآمال فى الاستقلال التام ، فجاوبناهم ثانية بما معناه إنه إن لم يقدروا على تأسيس معمل سلاح واف بالحاجة بنفس مصر ، وتنظيم جيش لا يقل فى السلم عن ١٥٠ ألفا فلا يتكلموا فى استقلال ولا فى استرجاع سودان ، وليقصروا كل ذلك على اللفظ يلوكونه بألسنتهم فقط ، وأما إذا صار لهم جيش ومعمل سلاح ، فكل هذه المفاوضات التى سيدخلون فيها تنجح من نفسها ، وبدون قوة مادية فهذه المفاوضات لا تثمر الثمرة المأمولة ، ولو تولاها بسمرك فضلا عن سعد زغلول .

الخلاصة يا أخى إن كان لك كلمة مسموعة عند الإمام يحيى وابن سعود — ولا شك أن كلا منهما يحترمك بما لا يحترم به غيرك فى هذه الديار المصرية والشامية — فلا تمل من تذكيرهما بقضية تأسيس معامل كهذه فى بلادهما ، فقد شبعنا نظريات ، ويلزمنا عمل ، وإن معملا للقرطاس أو لسكك الزراعة أفيد وأصلح للعرب من عدة مؤتمرات ومائة ألف خطبة .

أما جمعية البيت الحرام[1] ففهمت كل ما ذكرته من أمرها ، وأنا مطلع على برغرامك من قبل ، وله المزية بأنه أول برنامج وضع لهذه المسألة ، وفيه آراء صائبة جداً ، لكن يا أخى هناك مسائل لا يمكن إجراؤها إلا بقوة مادية ، لأن ملك الحجاز يعارضها ، فأين القوة المادية التى نقدر أن نحمله بها على تنفيذ هذه الأمور ؟ وهل إذا جاءت دول إسلامية مثل مصر أو اليمن أو الأفغان لتنفذ ذلك بالقوة تمكنها إنكلترة ؟ كلا . لا شك أنها ترسل أسطولها إلى جدة ، وتقول : هذا ملك مستقل ، وهذه مملكة مستقلة متحالفة معنا . ثم أنى لنا اتفاق المسلمين على عمل كهذا ؟ فإن اتفقوا فى النظر فلا يتفقون فى العمل .

---

(١) هى جمعية عمل رشيد رضا على إنشائها لخدمة الحجاز والحرمين .

إن القوة الوحيدة التي يمكنها تطبيق پروغرامات كهذه هي قوة العرب ، وذلك بأن يتحد ابن سعود والإمام والإدريسي ، ويزحفوا على مكة ، وهـذا فضلاً عن صعوبته فإنه يؤدي إلى حرب لا تعلم عقباها ، وتسفك فيها الدماء في نفس بيت الله الحرام ، فلهذا كان الأولى أن يكون برنامج كهذا عملياً ممكناً تطبيقه ، وعلى فرض أنه لم يمكن أن يرضى به الشريف فيكون التوكؤ في تطبيقه على قوة أدبية عظيمة ، بأن تكون لجمعية البيت الحرام شعب وفروع في كل العالم الإسلامي ، ويشبع العالم الإسلامي من هذه الفكرة ، فإذا أبى ملك الحجاز قبول البرنامج يجد المسلمين كلهم أضداده ، وتضغط عليه قوة أدبية لا يسهل عليه الاستخفاف بها . أما حمله على پروغرامنا بالسيف فغير ممكن ، إلا إذا تحرر العالم الإسلامي .

وربما تقول : إننا نحن لا نشير بحمله عليه بالسيف ، والجواب : ملك الحجاز وأظن كل أمير بمكة لا يقبل هذا البرنامج الذي يقصر من سلطته ، فلا بد في تنفيذه من الرجوع إلى القوة .

الشيخ الثعالبي لا أعلم بماذا يخطىء ولا بماذا يصيبُ ، فهو بَشَرٌ نظيرنا كلنا ، ولا عجب فيما لو أخطأ ، ولكن نظراً إلى قحط الرجال وجدتُه ممن يعتمد عليهم ويحتاج إلى مثلهم ، إذ أنت تعرف الناس ، ولا يخفى عليك مكانه ، ولهـذا كنت أرجو أن تتخذه عضداً في المواقف ، وإن حصل تباين في الأفكار يقع الاجتهاد في التأليف بينهما ، وأنا ليس لي بالثعالبي خلطة ، ولم أشاهده إلا هذه المرة في الآستانة ثلاث أو أربع جلسات ، فوجدته ذكياً متوقد الذهن ، جامعاً إلى الذكاء الفطري معارفَ كثيرة وتجارب عديدة ، وقد ساح في بلاد الإسلام ، وسار ونظر واطلع على علل هذه الأمة ، وهو مقتنع بما نحن مقتنعون به بأن هذا الأمر لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله ، وأن الدعوة إلى الجنسيات بين المسلمين مضرة بهم ، تزيدهم وهناً على وهن ، ولا نجاة لهم إلا بالتعاضد والتعاون ، وأن يجعلوا رابطة الإسلام هي الأولى ، وسائر الروابط من بعدها .

وهو — مع كونه على مبادئكم من هذه الجهة ، والمبادىء التى أنا أرى كل يوم من الحوادث ما يؤيدها — معدود رئيساً غير مدافع للنهضة التونسية ، وما جرت بيننا مكاتبة إلا مرتين ، كنت أظنه فيهما يطلعكم على كل ما أكتبه له ، وقد فعل ، ولكنه لم يردنى منه ولا حرف منذ أشهر .

لم أنس قضية السيد جمال الدين[1] ، وسأكتب لك ما أعرفه ، وما حرره من زجته غولد سيهر المستشرق المجرى فى الإنسيكلوبيذية الإسلامية[2] ، ولو كان السيد قال فى رده على رينان شيئاً من قول الزاعمين بأن الإسلام بعيد عن العلم ، لكان غولد سيهر ذكر ذلك ، مع أن غولد سيهر ذكر العكس ، وهو كون رينان طعن فى الإسلام ، وجمال الدين ردّ عليه ، وعبارة غولد سيهر هى هذه يمكنكم نقلها فى المنار رواية عنى :

« وفى ذلك الوقت وقعت مناقشته (أى السيد جمال الدين) مع أرنست رنان ، بسبب المحاضرة التى عملها هذا فى الصوربون على (الإسلام والعلم) ، فالسيد جمال الدين توخى نقض أدلة رنن على عدم التوليد العلمى فى الإسلام ، وذلك فى مقالة ظهرت أولا فى جريدة الدبا ، ثم نشرت فيما بعد بالألمانية ، ومما يناسب ذكره هنا أن محاضرة رنان قد تُرجمت بعد ذلك بقليل إلى العربية ، مصحوبة برد بقلم حسن أفندى عاصم » انتهى كلام غولد سيهر .

فلو كان جمال الدين أقرّ لرينان بأن أصل الإسلام مخالف للعلم لما كان غولد سيهر — الذى لاشك أنه قرأ رد جمال الدين بالفرنسية والألمانية — يقول إنه توخى إدحاض أدلة رينان على عدم التوليد العلمى فى الإسلام . فإن غولد سيهر يدرى ما يقول ، وليس مما يرمى الكلام على عواهنه .

---

(١) السيد جمال الدين الأفغانى .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية .

والذى أظنه هو أن السيد جمال الدين حرَّر ردَّه على رينان بالعربية ، ثم دفعه إلى مترجم مثل أنيس شحاذة أو غيره ، لأجل أن يضعه فى قالب فرنسى . فالمترجم الذى لا أقدر أن أعرف مَنْ هو تَرْجَمَ بعضَ كلمات جمال الدين بغير ما يجب أن يترجمها به ، وتصرف فى التعبير ، وربما كان المترجم هو نفسه متشبعاً بفكرة رينان ، غيرَ مقتنع بكلام جمال الدين ، فلم يتقيد بالمتن الجمالى التقيُّدَ الكافى . ولا أدّى الأمانةَ فى النقل حقّها ، فوقعت هناك ألفاظٌ لو فهم السيد جمال الدين حقيقةَ مرماها لأنكرها ، وغيَّرها فى حينها .

وأنت تدرى أن المعنى قد يختلف باختلاف كلمة أو حرف ، وأنه يقوى ويضعف كثيراً بكلمة تجعل محل كلمة ، أو حرف مكان حرف ، لا سيما فى مواضيع فلسفية كهذه . فلا عجب أن تكون الترجمة الفرنسية التى صدرت تحت إمضاء جمال الدين تفيد أشياء لم يردها هو ، ومن تأمل فى كون هذه المقالة ظهرت فى جريدة الديبا ، وكان يعلم دأب هذه الجريدة من دس السم فى كل ما يتعلق بالإسلام ، قلَّ عجبه مما يكون قد ورد فى مقالة جمال الدين مما لا يطابق ما سمعناه منه .

وما أسرع ما يكون من جواب بعضهم بأن هذا الذى تقوله غير معقول ، إذ أن السيد جمال الدين كان يعرف اللغة الفرنسية ، ويقدر أن يميز الترجمة الصحيحة من الفاسدة ، ولابد أن يكون اطلع على الرد قبل نشره ، وأنعم النظر فيه .. إلخ .

والجواب : كلا ياسيدى ، أنا أعرف السيد جمال الدين جيداً ، وأعلم جيداً أن معرفته للفرنسية كانت ضعيفة ، وأنه لم يكن ممن يقدر أن يلحظ الفروق الدقيقة بين لفظ ولفظ ، لا سيما فى موضوع علمى كهذا . فالمترجم كان يمكنه أن يسرد أمامه الترجمة فقرة فقرة ، ويزعم لديه أن هذه معناها كذا ، وهذه معناها كذا ، مما هو فى متن كلامه ، ولم يكن السيد من الضلاعة بهذه اللغة بحيث يقدر أن يبين له الفرق بين مدلول اللفظة والمعنى الذى أراده هو .

ومن عانى هذه المسائل يعلم كثرةَ وقوعها ، وأنه لا سبيل إلى اتقائها إلا بأحد أمرين : إما أن يكون المترجم نفسه جامعاً بين تمام المعرفة باللغة المترجَم منها واللغة المترجَم إليها ، لا ينقصه شيء فى كلتيهما ، وبين الأمانة التامة فى النقل ، وإما أن يكون الكاتب فى اللغة المترجَم منها عارفاً بدقائق اللغة المترجم إليها ، لا يفوته منها شيء ، فإذا اطلع على الترجمة عرف صحيحَها من فاسدها . فهذا الشرط الثانى لم يكن متوفرا[1] عند الشيخ جمال الدين ، وأظن الشرط الأول لم يتوفر أيضاً . فأدى إلى ما أدى إليه من الإشكال .

تقدرون أن تنقلوا من هذه الأسطر عنى فى « المنار » أو فى غيره ، ولا أشك فى كون المترجم الذى عرَّب مقالَ جمال الدين خدعه فى جمل كثيرة ، وأوهمه أنها تفيد ما أراده ، وهى تتباعد عن ذلك .

أما قضية الخلافة فلا مراء يكون تعددُ المؤتمرات فضيحةً ، ومدعاة إلى سقوط المشروع كله ، وإن سقط مشروعُ عقد المؤتمر بعد أن شاع وذاع صار الإسلام مسخرةً ، وفاتته الفرصة لأول مرة من الاستفادة من اجتماع عام يضم جميع شعوبه ، وفات العرب فرصةُ أن يكون اجتماعُ المسلمين من كل الأمم فى بلاد عربية ، لأن مصراً مهما ادَّعى المدَّعون لا تخرج عن كونها مملكة عربية .

فمن هذه الجهات كلها تقضى المصلحةُ بعقد المؤتمر ، وفتح طريق المعارفة والتذاكر فى الأمور العامة ، إذ فى الحج — مع الأسف — لا يعلم الحجاج إلا « تبليص » أمراء مكة ، وقسم من أهل الحجاز إياهم من أموالهم ، وما سمعت أن حاجاً من سوكوتو تحدث مع حاج من الجاوى ، أو حاجًا من الصومال تكلم مع حاج من البوسنة فى مسألة[2] تخص سياسة الإسلام .

---

(١) هكذا بالأصل والصواب : متوافراً .

(٢) شكيب يكتبها هكذا : مسئلة .

فهذه فرصة يتمكن فيها المسلمون من معرفة بعضهم بعضاً ، ووضع حجر زاوية التكافل الذى لابد منه لنهوضهم ، ونحن معاشر المتمسكين بالجامعة الإسلامية أولى الناس بالاغتباط بهذه الفكرة ، والسعى فى إتمامها ، لأنها انتصار لنا على ملاحدة أنقرة ، ودعاة الطورانية [١] ، وملاحدة مصر دعاة الفرعونية الذين صرحوا فى نفس مجلس النواب فى جوابهم للشيخ عبد المجيد اللبان طالب مهلة للصلاة بقولهم : « مش عاوزين نصلى » ! .

هل يظن الناس بمصر أن الكفر لا يعد كفراً إلا إذا صدر من أنقرة ؟ والله مع كل [٢] ما جرى بأنقرة ، وقيل فى مجلسها من الطامات لم نقرأ أن أحداً قال فيه علناً : « مش عاوزين نصلى » ! ! . بل أكثرهم تهوراً طوته لى حلمى قال : نريد أن نكون مسلمين بدون قال وقالوا . وأغايف يسعى فى ردّ الأحاديث وعزوها كلها إلى أبى هريرة وابن عباس ، وإبقاء القرآن ، لكن لا ككتاب أحكام ، بل كتاب حكم ومواعظ .

وعليه نحن متفقون على لزوم عقد مؤتمر فى وجه أعداء الخارج دول الاستعمار ، وأعداء الداخل ملاحدة الترك والعرب ، ودعاة الجنسية الذين مرادهم القضاء على الإسلام ورابطته ، ومتفقون على أن تعدد المؤتمرات لا يجوز ، لأنه يجعل الأمر فوضى .

ولابد من مؤتمر واحد ، ولا بأس بتأخير موعده إلى السنة القادمة ، حتى ترسل الدعوة إلى جميع بلاد الإسلام ، ويتسنى للجميع الحضور ؛ ولا بد من كون مصر ترسل الدعوة بواسطة وفود تذهب ، وتنفق عليها الأوقاف ، فوفد يذهب إلى الهند والأفغان وصيام والجاوى [٣] بأقسامها ، والفيلبين والصين ؛ ووفد يذهب إلى بخارى

---

(١) شكيب يكتبها الطورانية ، تارة ، والتورانية تارة أخرى .
(٢) فى الأصل : كل .
(٣) يقصد : سيام وجاوه .

وجنوه وأوفا والقافقاس ورومانية[1] والبلغار[2] والبوسنة وألبانية . ووفد يذهب إلى السودان والحبشة والصومال وزنجبار والأوغندة ، ووفد آخر يذهب إلى دار فور وواداى والباجرمى وبرنو وسوكوتو وبلاد النيجر والسنيغال والسنيغابية وغينية إلى ليبرية ، وآخر إلى العجم وكردستان .

أما البلاد المعروفة مثل المغرب والجزائر وتونس وطرابلس وتركية[3] وكردستان والعراق والشام وفلسطين واليمن ونجد والحجاز وعمان والكويت والبحرين ، فيمكن أن تقصدها وفود ، ويجوز أن يكتب إلى رؤسائها وعلمائها المعروفين .

ولا يجب إهمال المغرب لكون صاحبه هو الخليفة عندهم ، ولا إيران لكونها شيعة ، ففيها الثلث سنيةً ، ولا زيدية اليمن لكون إمامهم معيناً .

وذلك لكون المؤتمر إسلامياً عاماً .

فهل أنت وعلماء الأزهر قادرون على إقناع الحكومة المصرية فى الإنفاق على هذه الوفود الذاهبة للدعوة ، ومثل ذلك الإنفاق على كثير ممن سيحضرون من المندوبين ، وإنزالهم على نفقة وزارة الأوقاف المصرية ؟ .

بهذا يتجلى التضامن الإسلامى ، وبهذا تكسب مصر مقام الرئاسة فى الإسلام .

بقى لُبُّ المسألة ، وهو مَنْ يكون خليفة ؟ .

أنت تعترض على الخلافة الروحية الصِّرْفة ، ذلك الاختراع الذى اخترعه بعضهم لأسباب معلومة ، وجوَّزه الشيخ محمد الخضرى بمصر ، وأنا أول من اعترض عليه ، وأرى الإلغاء التام أولى من هذا .

ولكن جمهور المسلمين على أنه لابد من خليفة ، ولذلك يجب الانتخاب ، فأنت تطلب شروطاً كلها شرعية ، ولكن تحقيقها غير ممكن . وأقول أكثر من

---

(١) فى الأصل رومانيا .

(٢) شكيب يكتب الغين مفتوحة من الوسط غالبا .

(٣) فى الأصل : تركيا .

هذا ، وهو أنه لا يوجد فى كل الإسلام(١) رجل توفرت(٢) فيه شروط الخلافة ، إذا راعينا الشرع كما يجب .

فهذا عبد المجيد يكون له مبايعون أكثر من الجميع ، ولكنه فاقد النفوذ السياسى والقوة ، وهذا لابد منه شرعا ، والإمام يحيى فيه شروط كثيرة ، لكن المسلمين لا يرون فيه السلطان الذى يملك دولة منظمة وعساكر جرارة ، ولا يزالون يرونه أميرا فى داخلية اليمن ، لا يحكم إلا على قبائل ، ومع هذا فبعضهم يراه غير سنى .

وأما ابن سعود فهو فى نظر الإسلام أمير صغير ، ووهابى لا يرضاه السنيون ، وأما الحسين ففيه شرط أو شرطان ، ولكنه أضعف من ابن سعود . ومعروف أن ضلعه إنكليزى ، وهو مكروه من جمهرة الإسلام ، وأما أمير الأفغان فكان يليق بعض الشىء ، لكنه بعيد المكان ، وليست دولته بدولة عظيمة .

بقى صاحب مصر ، والاعتراض عليه من جهة كون مصر لم تنل استقلالها التام . فأهل الهند وقسم من أهل مصر لا يبايعونه ، وعليه فالمسألة بغاية الإشكال وأما انتخاب رجل عالم فاضل مجتهد إلخ ، فهذا شرعى ، ولكنه يا أخى شىء لا يمكن تنفيذه ، والعصبية شرط عند العمل ، وأنت تنتقد ابن خلدون فى قوله بها ، ولكن ابن خلدون غير مخطىء ، فلابد للسلطان من عصبية وقوة ، حتى يتحمل مثل هذه الأعباء ، وتقول : بل عصبية الدين تكفى ، وأجاوبك : كلا ياسيدى ، خذ أكبر عالم وأقدس عالم وليكن قرشيا ولكن ليس بصاحب دولة ، فلن تجد من يبايعه .

اقترح على العالم الإسلامى مبايعة الشيخ الكتانى ، أو الشيخ بدر الدين مثلا

---

(١) يقصد : فى كل بلاد الإسلام .
(٢) هكذا بالأصل ، والصواب : توافرت .

فلا برضاه أحد ، لأنه لا يوجد له إمارة ، لا بل اقترح مبايعة سيدى أحمد الشريف الذي هو قرشي وعالم وورع وذو عصبية ليس كأولئك ، بل هو بالفعل أمير ، فلا يبايعه إلا أهل طرابلس ، ولنفرض أنه بايعه غيرهم فلا يقدر أن يجلس إلا فى الكفرة أو الجغبوب ، لأنه مستقل بهما ، وأينما ذهب لا يقبلونه خليفة ، إذ هناك أمراء وحكومات تأبى تسلط غريب عليها ، فالعصبية الدينية وجدت عدة سنوات فى عهد الخلفاء الراشدين لقرب عهد النبوة ، ثم ذهبت .

وسبحان الله ! فكيف نقول لا حكم للعصبية والشروط الشرعية تكفى ، ولولا كون العصبية ضرورية ما وجدت القرشية شرطا ، إذ المسلمون متساوون فى كل شىء ، وإنما جعلت القرشية يومئذ شرطا بسبب كونها أقوى وأوجه من غيرها ، فإذا جئتم غدا إلى المؤتمر [1] لتقترحوا شروطا شرعية ، ولم تكن مقرونة بإمارة عظيمة ذات جيوش ومدافع إلخ ، فأيقنوا أن قراركم سيبقى على الورق ، ولا يوجد من ينفذه ، والعالم الإسلامى اليوم أكثره تحت حكم الأجانب ، فلا يقدر أن يتحرك حركة فعلية .

لا يوجد إلا الآراء الآتية : الأول كرسى مصر بشرط الاستقلال التام . (الإمام يحيى) بشرط أن تصير اليمن دولة منظمة . (عبد المجيد) بشرط أن تكون له إمارة فعلية : أما فى الموصل كما قلتم أنتم فينفك المشكل بين العرب والترك عليها ، وتصير إمارة حائلة بينهما ، أو فى صنعاء اليمن ، وذلك بشرط رضا الإمام يحيى ، وعقد المؤتمر الإسلامى برنامجا تتعين فيه حقوق الخليفة والإمام ، ويتوجه المسلمون كلهم على الإمام يحيى ، ليرضى بوضع ابن عثمان فى صنعاء ، على أن يكون يحيى هو السلطان الذى يعضده ، كما كان بنو بويه أو آل سلجوق فى بغداد ، أو ملوك مصر مع الخلفاء .

وإن قيل : هذا خلاف الشرع ، جاوبنا إن كثيرا من الفقهاء أجازوا وجود

---

(١) يقصد مؤتمر الخلافة الذى انعقد فى مصر حينئذ .

السلاطين مع الخلفاء بحق الفتح ، وإنه كان فى الماضى ، فليكن فى الحاضر ، إذ الحال الحاضرة لا تساعد على أحسن من هذا ، فالضرورات لها أحكام ، ولا أظن أن أنقرة ترضى بجعل الموصل مقرا للخليفة ، لأنه حينئذ يبايعه الأكراد والعرب وقسم من الترك ، فيكون خطر على الجمهورية ، فلنجعل صنعاء اليمن دار الخلافة .

وكون عبد المجيد ليس بقرشى غير مانع ، لأنه سيفوته شروط أهم منها ، فلا عجب فى فوت هذا الشرط ، وإنما يقوم مقام القرشية كون أكثر مسلمى المعمور يقرون لابن عثمان بالأولية ، وإذا أخرجت هذه الإمامة منهم اليوم صار فى كل بلد خليفة . فمزيتهم هى اعتراف السواد الأعظم بأوليتهم ، وسيبقى الأمر كذلك إلى أن تصير اليمن دولةً منظمة معروفة من الدول ، وتقوى فى الخارج والداخل قوةً تجعل أئمتها معروفين فى الخارج ، بحيث لا تثقل رئاستهم على سائر ممالك الإسلام .

ولو تمكنت مصر من الاستقلال التام ، وصار لها جيش متناسب مع عددها ، فأليق كرسى بالخلافة هو كرسى مصر بدون نزاع ، ولو لم يكن صاحبه قرشيًا ، والتشدد فى هذه الشروط غير موافق ، لأنه فى الحقيقة لا خلافة غير خلافة الراشدين وعمر بن عبد العزيز ، ومن بعدها لم تستتم الخلافة شروطها فى أحد . هذا فى عز الإسلام ، فكيف اليوم ؟ .

السيد السنوسى يسلم عليك ، ودائمًا نذكرك ونقرأ « المنار » فى الأسمار وبالنهار ، وهو يترضى عليك ، ويثنى على المرحوم الأستاذ الإمام ، وحقًا سيدى أحمد الشريف نعم الرجل فى التقوى والورع والصدق والنزاهة ، وهذا مع الحزم والعزم ، ومع علم حسن وحافظة قوية واطلاع واسع ، إلا أنه من أصحاب الطرق ، فيعتقد بكرامات الأولياء ومكاشفاتهم وتأثيرهم بإذن الله ، ويقول بالوسيلة وإنها الأنبياء والأولياء ورجال الله المرشدون ، وهذا ما أذكره الآن ، وسأكتب لك بشأن الكتب التى تلزم ، لتأمر من يلزم أن تأمره بمكتبة المنار لإرسالها ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

أخوك

شكيب أرسلان

— ٦ —

مرسين ٧ شوال ١٣٤٣[1] .

سيدى الأخ الأستاذ :

أخذت كتابك الكريم رقم ٢٩ رمضان المبارك أعاده الله عليك وعلى آلك دائماً بالخيرات والمسرات وفهمته . ووصل آخر بنى سراج[2] وذيله إلى صفحة ٣٦٠ .

وعلمت من كتابك أنه لم يبق إلا ست صفحات من الكراسة الأخيرة ، ورأيى أن نتمها من الكتاب الذى جعلناه ذيلا للذيل ، ونجعل الفهرست وإصلاح الغلط فى آخر الجميع . أما جدول إصلاح الغلط فهو واصل بطيه ، ومنه ترى أن خطأ الطبع لم يكن قليلا ، ومتى أرسلتم لى بالباقى من الكتاب أنظر فيه ، وأبعث بإصلاح غلطه ، فيصير ضمه إلى الجدول الواصل الآن .

كذلك الفهرست قد جعلته كما تريد ، ورأيك أصيل جدا فى وجوب أن يكون الفهرست دالاً على مهمات المباحث ، لا سيما مع خلو كتابى من العناوين والفصول ، وكون هذا الإصلاح — وهو ذكر أمهات المواضيع فى الفهرست — هو مما يشوِّق إلى المطالعة ويسهل المراجعة ، فهذه جزاك اللهُ خيراً لو لم تنبهنى لها لكنت غفلت عنها ، مع أنها أحسن واسطة لرواج الكتاب .

لكن هناك أمر لا أعلم هل انتبهت إليه ، وهو أنك تعوّدت أنك لا تنشر شيئاً فى « المنار » حتى تعلق عليه حواشى ، إما بملاحظة ، أو بتجهيل ، أو بتأييد ، أو بتقوية ، أو بتليين ، إلخ . وأحياناً يكون ظاهراً فى المتن أن الغلط غلط طبع ،

---

(١) هذه الرسالة فى ورقتين من الحجم المتوسط ، الأولى مكتوبة من الصفحتين ، والأخرى فيها صفحة بيضاء .

(٢) يقصد الملازم المطبوعة من كتاب « رواية آخر بنى سراج » .

وتأبى إلا أن تدل عليه ، أو تقول لعله كذا ، وأحياناً يكون معك الحق ، وأحياناً لا يكون معك ، مثل ارتيابك فى كون العرب قد دخلوا رومة وا كتسحوها ، حتى أجابتك على ذلك مجلة الجامعة الهندية من كلكتا قبلما جاوبتك أنا ، ومثل إشارتك إلى كون فيلق مؤنثة ، وقد أوردتها فى المتن بالتذكير ؛ والحال أنها وردت بالتذكير أيضاً فى فقه اللغة للثعالبى عند تقسيمه درجات الجيوش ، وغير ذلك .

ولست أجادلك فى هذا ، لأن ملاحظاتك دائماً مفيدة وفى الإغلب مصيبة ، ولكن على شرط أن تعلقها على ما تنشره فى المنار ، لأن المنار هو لك ، ولكن عملتَ العملَ نفسه فى (ابن سراج) ، ونسيت أن الكتاب هو لى لا لك ، وأن تعليقك عليه ولا سيما بملاحظات كان ينبغى أن يكتب إمضاؤك فى آخرها ، أو أن يقال : مصححه ، مثلا ، ولم تضع ذلك إلا مرة واحدة فى الآخر .

ولما كان لى أنا حواشٍ أيضاً ، فأصبح لا يُعلم ما كتبته أنا مما كتبته أنت ، بل صار الأمر كأنى أنا مفترض على نفسى . ففى المتن أنا أذكر : نبكى رسومَ الأربع الأدراس . وفى الحاشية مذكور : هكذا فى الأصل ، وفى الديوان المطبوع « نقضى زمام الأربع الأدراس » . فإن كان هذا فى الديوان المطبوع ، فالقارئ خليق بأن يقول لى : ما دمت تعرف هذا فلماذا كتبتها : نبكى رسوم الأربع الأدراس ؟ .

وكذلك فى ثلاثة أو أربعة مواضع نوع من الاعتراض ، مثل مسألة صحاح الجوهرى . وإنكار أننا أخذنا لغتنا عنه ، وإثبات كونه لم يكن مرجعاً للغة ، وأنه قد ألف فى اللغة قبله . . إلخ .

وهذه أمور يعرفها أخوك هذا ، ويعرف ما أُلِّف قبل الصحاح ، ويعرف أن الصحاح ليس أعظم كتاب فى اللغة ، ولكنه مَثَلٌ قد قيل ، وتسمعه أنت ، وهو أن صاحب الصحاح قال : خذوا لغتكم من رجل أعجمى ، فالاستشهاد بمثل كهذا لا يفيد على الإطلاق ، حتى تجعلنى ظاناً أن اللغة كلها أخذت عن صحاح الجوهرى .

وكلامي عن نكبة البرامكة بسبب قصة العباسة لم يكن المقصود فيه أنني أنا أقول هذا، وإنما نقل ما يقال، وفي محل تضعيف، لأنني أردت أن أقيس بها قصة الملكة فاهمة وعشقها لابن سراج، وكون ذلك من أوضاع القصاصين .

والحاصل أنك مولع بالأخذ على الناس واقتحام أقلّ ثنية، وبإليتك وقد كتبت هذه اللاحظات أشرت إليها بكلمة « مصححه » ، ولما لم تشر إليها اضطررت إلى أن أعمل عليها تنبيهاً ، وأحصر الصفحات التي فيها ملاحظاتك ، فالمرجو نشر هذا التنبيه بعينه ، أي بدون أدنى تغيير فيه .

يظهر أنه لا أحمد زكى باشا ولا أحمد تيمور يعرف اسمَ المؤلف لتاريخ « انقضاء دولة بنى نصر » ، فالمرجو نشرُه كما أرسلته مع المقدمة التى عملتها له ، وأن لا تعلقوا عليه ملاحظات ، ولا شيئاً مما لكم عادةٌ به ، بل تدخروا ذلك كلَّه للمنار ، فعند صدور الكتاب تكتبون عنه ، وحينئذ فقولوا ما شئتم مثلما يبدو لكم .

سأبحث لكم عن « أبابيل » و « البرق » اللذين نشرا مكتوبنا إلى الأمير على .
أما كتابى بتصحيح ما ورد فيه من أغلاط الطبع والتحريف والتبديل فأنتظر ظهوره فى العدد القادم من المنار ، أما أن يكون عندى نسخة صحيحة من المكتوب المذكور فأنا من الأصل لم آخذ عنه نسخة ، بل أرسلت به لجريدة « الشرق » رأساً .

فأنا الآن منتظرٌ نهايةَ طبع الكتاب ، وأرجو أن تتكرموا بإرسال علم نفقة الطبع بمفرداتها ، ثم تعطونى رأيكم على مايجب أن نحدده من ثمن الكتاب : أنجعله بثلاثين غرشاً ، أم بأربعين ، أم بماذا ؟ .

سلامى إلى حضرة السيد عبد الرحمن عاصم ، وسأكتب إليه قريباً . ظهر كتاب ستودارد الأميركى الذى عليه حواشينا التى هى أشبه بحواشى الأزهريين[1] ،

---

(١) كتاب « حاضر العالم الإسلامى » .

فالمرجو أن تنشر عنه ما يساعد على رواجه ، لأنه كتاب يلزم أن يطلع عليه مفكرو الإسلام أجمع . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

أخوك

شكيب أرسلان

— ٧ —

مرسين ٣ يوليو ١٩٢٤

سيدى الأخ الحميم ، ومولانا الأستاذ ، نفع الله به

تشرفت بكتابكم الكريم رقم ذى القعدة ، وحمدت الله على وجودكم مع ذويكم بالصحة ، ولما وصلت إلى الجملة التى وصفت لى بها إجهاشك لما كنت كنت كتبته لك عن حالتى عند ما وصلت عائلتى ، وكيف أنك قرأت ذلك على السيدات فى البيت وأنت تكفكف الدمع ، أصابنى طبقُ ما أصابك ، وقرأت تلك العبارة على والدتى وأهل بيتى ، وأنا أتجشم النطق بها تجشما ، ومثل هذه الرقة لا يخلو منها قلب حنَّان ، ولا طبع شفَّاف ، لا سيما بين الإخوان الذين يشاركُ بعضهم بعضاً مشاركةً حقيقية فى المسار والمضار .

أما غالب — الذى يقبل يديك — ففى الحاضر جارٍ تعليمهُ فى البيت ، ولا شك أننى إذا أقمت بمصر نضعه فى مدرسة راقية للأحداث ، ولكن لا أجدنى الآن ذاهباً إلى مصر ، وربما أشتو فى السنة القادمة بمرسين ، وقد سرنى أن يكون مصروف الغذاء اليومى بمصر لا يزيد على جنيه واحد خلاَ أجرة البيت .

لكن أيها السيد الأخ ليس الإنفاق كله فى الأكل ، فمرسين تكلف الساكن كل يوم جنيهاً واحداً من كل وجه ، ولا تستزيده شيئاً ، إذ أسباب النفقة غير موجودة ، ولو أردت أن أخرج إلى السوق بالقفطان (١) ما لاحظ ذلك أحد ،

(١) الجلباب .

الجمتان والثلاث ولا يأتيني زائر ، وكل من أعرف في مرسين واحد تركي ونفي جمال باشا الصغير ، وضابط عربي اسمه عاطف بك ، أصله من الذين جاهدوا أخو الفرنسيين وأسسوا استقلال تركية ، وثلاثة تجار من طرابلس الشام : وجيه الحداد ، وناظم المسقاوي ، وحسن القرق ، والجارودي من بيروت ، وبمدة خمسة أشهر ما أدبت إلا مأدبة واحدة كان فيها على فؤاد باشا رفيق مصطفى كمال ، وعثمان باشا قائد أطنه ووالي مرسين ، ومادعوتُ على فؤاد باشا هذا إلا لكون سياسته الامتزاجَ مع سائر المسلمين ، وبيني وبينه معرفة من موسكو .

وقد تقول لي : لكنك هكذا تعيش منزوياً بدون لذة للحياة ، وكأنك تريد أن تكون إمامَ مذهب الاعتزال ، والجواب : نعم أشتهي أن أعيش سنة أو سنتين بدون ضوضاء ، وهو نوع المعيشة الذي يسميه الترك « عائلويّ » ، وبعد ذلك أذهب إلى مصر ، وأما هذا النوع العائلي من الحياة فلا يتيسر لي إلا بمرسين ، لأنني لو طلبت فيها الناس لم أجدهم ، على أنني أرجح كوني بعد ٢٠ يوماً أسافر إلى سويسرة ، وهناك أتلاقى مع[١] . . . ونرى رأيه ونعيد . . . فإن كان على وعده الأول باقياً من جهة . . . إلى هناك أعرفكم الذي يتقرر بيننا .

وسبب آخر وهو الأهم للذهاب إلى سويسرة ، هو كون جمعية الأمم ستنعقد في أيلول ، وهذه المرة سيحضر هريو بنفسه ورامس ماكدونالد ، وربما نتمكن من ملاقاتهما ، وعقيدتي أنه لو نهض أهل سورية هذه المرة ، وألفوا وفداً ذهب إلى باريز ، وأبدوا وأعادوا في أمر سورية بهمة وجرأة ، فإن الوزارة الحالية مستعدة للسمع ، عارفة خطورة عاقبة البقاء في سورية ، مدركة حرج مركز فرنسة[٢] المالي ، وملاحظة استعداد ألمانية الحربية . كل هذا يحمل حزب الراديكال على طلب

---

(١) العبارة هنا غير مفهومة لأن شكيب وضع رسوماً هي رموز لأشخاص أو لأمور لا نعرفها ، وقد وضعنا نقطاً مكان هذه الرموز .

(٢) في الأصل : فرنسا .

الخلاص بالتي هي أحسن ، كما أن الاشتراكيين الذين يهمهم اليوم إسقاط وزارة الراديكال وعدمه مائلون بكليتهم إلى ترك سورية ، ولكن فضلا عن كونه لا يوجد أدنى حركة في سورية للذهاب إلى باريز والاحتجاج والأخذ والرد يخشى أن المندوب فيغان يستنفر وفوداً من السوريين فيهم بعض العمائم الكبيرة ، يذهبون إلى باريز لطلب بقاء الحالة الحاضرة ، كما أن المسيحيين الذين لا يوجد إلا نزر منهم يتمنون خروج فرنسة من هناك ، يبذلون وسعهم في صرف فرنسة عن فكرة الجلاء .

وكان ألفرد سرسق مؤخراً في باريز ، فقرع الأبواب كلها راجياً من الفرنسيين عدم سماع كلام الذين يشيرون بالجلاء ، واعداً بكون مستقبل سورية حسناً جداً ، وأن فرنسة تعوض منها خسارتها عليها ، وقد قرأت تصريحاته في بعض الجرائد بهذا الشأن ، ولذلك عند وفاة ألفرد المذكور منذ نحو شهر لم يقتلني الحزن على فقد وطني مثله . . على أن تعصبه هذا لفرنسة لا يعد شيئاً بالقياس إلى تعصب ابن عمه نجيب سرسق حامل علم الاحتلال بين الجالية السورية بمصر ، فهؤلاء هم رؤساء الأرثوذكس ، فما قولك في الكاثوليك ، وأنت بمصر أدرى كم مسيحياً يهوى من قلبه خروج فرنسة من سورية . . فإلى متى نتاهى بالخيالات ، ونظن أن نجد عضداً إلا من أنفسنا ، وإن أبناء وطننا هؤلاء لا يصيرون عرباً إلا إذا استأسد الترك ...

وما لينوا معاملتهم مؤخراً للمسلمين بعد غطرستهم المعلومة لأول الاحتلال إلا بعد أن شهدوا بأعينهم كيف أن الأتراك هضموا الأرمن والأروام ، وأخرجوا الأجانب من الآستانة ، واسترجع الهلال ما كان احتله الصليب ، مما كان نصارى سورية يظنون حصوله محالا ، وأن الجبال تزول وقاعدة عدم إعادة ملك للهلال لا تزول ، ومن أحب شيئاً أبى أن يصدق غيره .

لكن لما انتهت حرب اليونان بما انتهت به وأوربة لم تصنع شيئاً رجعوا مطرقين يفكرون فى العواقب ، وصاروا يريدون إنساء المسلمين ما سبق من الشماتة ، ولكن منهم من زاده هذا الأمر تمسكا بفرنسة .

هذه حالتهم لا شك فيها ، وليس مرادى أن نجافيهم ، وأن لا نتفق معهم فى الأمور الوطنية ، ولكن مرادى أن لا نعتمد على عدد قليل لا يتجاوزون عدد الأصابع . إنهم يحولون مجرى أفكار السواد الأعظم منهم ، فما زالت أنكى السهام التى تصيب كبد الاستقلال العربى هى منهم ، وما زال أكثر التأريث بين العرب والترك كلما انطفأت لها نار أوقدوا غيرها هو منهم ، ومازال الادعاء بعربية كيليكية — وهى التى تهيج هائج الترك — هى منهم ، والذين منهم كسليمان كنعان يبتغون مصلحةَ قومهم ووطنهم ، مؤتلفةً مع مصلحة العرب المسلمين ، هم أفراد وأفذاذ معلومون ، مع أن خطتهم هى الخطة الرشيدة الوحيدة .

لذلك أريد أن لا يفوتنى حضورُ جمعية الأمم هذه النَّوبة ، وقد بلغنى أن اللجنة التنفيذية تتذاكر فى إيفاد وفد يكون فى جنيف بأول سبتمبر ، ولم أعرف هذا الخبر إلا من الجرائد ، ولا أنتم ذكرتم لى شيئاً ، ولا الأخ النجيب ، فأرجو أن يتقرر تعيينى فى الوفد مثل ذى قبل .

أنت فى كتابتك عن الإمامة لم تذكر إلا حقاً ، وهو الذى يقتضيه الدين والعلم والسياسة ، ولكن هناك ما لا يُنال ، خصوصا اليوم ، والنظر غير العمل ، أما أنا فلم أعتقد قط أن إيواء الخليفة عبد المجيد إلى صنعاء اليمن معناه أن الزيدية يعرفونه إماماً وإمامُهم موجود ، ولا أجهل أن الزيدية أنكروا خلافةَ العباسيين وهم عرب قرشيون ، فلا يعترفون بخلافة التركى .

وغاية ما هناك قلَّبت طرفى فى جميع بلاد الإسلام ، فوجدت أكثرها تحت استيلاء النصارى ، لا يصلح أن يكون خليفة المسلمين فيها ، ووجدت القليل الباقى

على استقلاله عبارة عن الأفغان وإيران والحجاز واليمن ونجد ومصر وثلثى ألبانية وواحات الشيخ السنوسى لا غير ، فلا أمير الأفغان ولا ملك مصر يقبل وجود الخليفة عنده ، ولا العجم يعترفون بالخلافة ، وملك الحجاز جعل نفسه هو الخليفة ؛ فلا يعقل أنه يقبل بوجود عبد المجيد عنده ، وسلطان نجد كذلك بلاده ضيقة ، ولا شك أنه يحب أن لا يجاوره خليفة فى بلاده .

أما اليمن فهو قطر كبير ، يمكنه أن يحمى الخليفة والخلافة ، وفيه أكثر من الثلثين شافعية ، وكان بلغنى أن الإمام يحيى لا يرفض إيواء الخليفة وجميع آل عثمان شهامةً منه وأريحية وحماسة عربية ، فقلت لو وُجد عبد المجيد فى صنعاء أو فى زبيد ، باتفاق يبرمه جميع المسلمين ، على أن تكون حقوق إمام الزيدية محفوظة ، ويكون الإمام سيفاً للخلافة ، فيكون هذا حلا مؤقتا إلى أن نكون رأينا كيف يفرج الله ، ويكون ظهر للعالم الإسلامى بأجمعه أن الترك طردوا الخليفة ، ولم يجد المسلمون له مأوى إلا فى بلاد العرب .

ولو أعدت التأمل فى هذه المسألة لوجدتها أليقَ بالإسلام وبالعرب ، ولعلك تقول : ولماذا هذا التمسك بخلافة عبد المجيد ؟ فأجاوبك ليس : هذا إلا لكونى على يقين بأنه إذا خُلع عبد المجيد ، والإسلام على حاله الحاضرة المعلومة بويع لا أقل من ١٠ خلفاء ، ولا تتفق كلمة المسلمين ماعدا ١٠ أو ٥ فى المائة منهم إلا على خلافة ابن عثمان .

وسترى أنه لو تقررت خلافة الإمام يحيى لم يبايعه غير الزيدية ، وهم مليون من ٣٥٠ مليونا ، ولا كثير من أهل مصر .

مع أننى أنا أقول إذا حازت مصر الاستقلال الذى لا شائبة فيه فكرسى مصر هو أولى الكراسى بالخلافة ، ولكن هل تنال مصر هذه الأمنية : أمنية الاستقلال الذى يعطيها حق تنظيم جيش على نسبة عدد أهلها وأسطول ، فإن علامة الاستقلال لا تظهر إلا فى هذه النقطة . فإن نالته فمصر هى مركز الخلافة ، ومتى أيقن المسلمون

وأن لمصر جيشاً هو فى السلم ١٥٠ ألفاً ، وفى حال السفر مليون ونصف عسكرى ، وعلموا أن لها أسطولا يضارع أسطول دولة أوروبية من الدرجة الثانية تهافتوا حتى التتر والترك منهم على مبايعة ملك مصر .

أطلعت السيد السنوسى على قصتك مع ابن عمه الأمير السيد إدريس ، وتأسف لها من كل قلبه واسود وجهه ، وقال لى : سأكتب إلى سيدى إدريس بأن يسترضى السيد رشيد ، ويدير له (أى يعمل بلغة المغاربة) عزومة لائقة بفضله ويعتذر له ، وأطال فى الكلام فى هذا الموضوع ، وترجانى أن أشكرك من قبله عن مساعيك من أجل مسألتهم ، وأن أعتذر لك عما وقع . وكما قلت أنت تراه هو يقول ، وهو : إنه لو وقع بعض الخلاف على بعض مسائل فقهية فالاتفاق فى الجوهر موجود ، والاتفاق على نصيحة الإسلام موجود ، والاتفاق على حفظ الحَوْزة محكم العرى ، وقد أطلعته على أقوال النجديين والرسالة التى أهديتنى إياها ، فقرأها ، ودافع عن بعض النقاط ، ومع هذا فقد قال عن الرسالة هكذا : رسالة باهية فيها فوائد .

فترى من هنا أنه منصف قليل التعصب ، أما دفاعه فهو أن الأولياء لا يعتقد فيهم مسلم أنهم يؤثرون شيئاً إلا بإذن الله ، وأن الاعتقاد بصلاحهم والتبرك بهم من الأمور الباعثة على الاهتداء بهم ، وأن الإمام عمر استسقى بالعباس لكونه عم الرسول (ص) فيجوز الاهتداء به ، وأن برهان كون العباس استسقى به لما كان حياً لا يقوم بل الميت له كرامة كالحى ، لأن موت الجسد لا يميت الروحَ الخالدة التى تكون عند ربها ، وتكون فى موقع هو أولى بقبول الشفاعة ، وأما زيارة القبور فقد أذن بها الرسول ص[1] ، وعنه أحاديث ثابتة فى ذلك ، وأما المبالغة التى يعملها العوام فهذه مردودة يلزم نهيهم عنها .

وقال إن العلماء من صدر الإسلام إلى اليوم لم ينهوا عن زيارة القبور ، وقال إن

---

(١) هكذا بالأصل ، والحرف ص هنا رمز لعبارة « صلى الله عليه وسلم »

عدم الاعتقاد بالأولياء ليس بكفر ، وقال إن الوهابيين عندهم غلو ، وروى لى جدالا وقع بينهم وبين سيدى أحمد بن إدريس دفين صبيا[1]

. . . .

. . . .

. . . .

١ — يصادف وصول كتابى هذا عيد الأضحى المبارك ، أعاده الله عليكم ، وعلى آلكم ، وعلى الأمة الإسلامية كلها بالخيرات الوافرة[2] .

— ٨ —

مرسين ٢ ذى الحجة ١٣٤٣[3] .

سيدى الأخ الكبير :

تناولت أمس كتابكم الطويل ، ولو لم يكن سوى هذا الكتاب دليلا على برّكم بأخيكم الصغير هذا وعطفكم عليه وضنكم به وبسمعته العلمية لكفى ، فلا تحضرنى عبارةٌ أقدر أن أوفيكم بها حقَّ الشكر على هذه العناية وهذا الصبر ، مع ما أعلمه من ضيق أوقاتكم ، وأسأل الله أن يجزيكم عنى خيرَ الجزاء ، وأن يبقيكم ملاذا لى ولكل المسلمين ، وأن يعيد هذا العيدَ عليكم أعواما لا تُحْصَى ، وأنتم وآلكم بالعافية والتوفيق والخيرات والمسرات .

كتاب « حاضر العالم الإسلامى » بدأت به ، على أن لا أعمل فيه شيئاً سوى

---

(١) الموجود من الرسالة الى هنا ، وبقيتها مفقودة .

(٢) هذه حاشية جاءت فى أول الرسالة فوق افتتاحيتها .

(٣) هذه الرسالة فى ثمان ورقات كل منها مكتوبة من الجهتين إلا ورقة بيضاء ، وفيها ملحق طويل هو أكثر من نصفها .

مقدمة ، ثم خطر لى تعليق بعض كلمات ، ثم زادت الكلمات فصارت أسطراً ، ثم صحائف ، وهلم جراً ، لهذا ترى الكلام عليكم وعلى المرحوم الشيخ محمد عبده كان مختصراً ، لأنه فى الأول ، إذ كان مقصدى الوقوف على هذا المقدار ، إلا أن القلم جنح وطمح فى آخر الأمر .

نعم كان من الممكن أن نفرد لهذه المواضيع كتاباً ، ويكون أوسع مما كتبنا بكثير ، لأننى ما حررت عشر المعلومات التى عندى عن العالم الإسلامى ، ولكن استقلال كاتب شرقى بالكتابة لا يكون له وقع فى الشرق ، كما لو كان تالى اثنين لكاتب غربى ، إذ اليوم لا يثق الشرقيون إلا بكلام الإفرنج . نقول هذا مع الأسف .

فإذا قيل : قال هذا ستودارد الأميركانى ، أو هوارت الفرنسى ، كان الوقع أكبر والثقة أعظم ، فأنا كتبت ما كتبت متوكئاً على من الثقة به سابقة لمطالعة كلامه ، فكأن كلامى يستفيد من حرمة الشرقيين لكل إفرنجى ، ولو كان الدكتور صروف وضع كلامى فى منزلة أعلى من كلام الأميركانى .

المهم الآن أن تكتبوا عنه فى « المنار » ، ثم تعملوا طريقة مع أخى عادل لدفع المبلغ المطلوب لنجيب مترى من عجاج نويهض ، وأخذ الكتاب من عند مترى . أنا من أشهر كتبت إلى عادل وإلى عجاج بأن يأخذوا الخمسمائة نسخة التى تخصنى ويدفعوها إلى مكتبة المنار . مراراً كتبت هذا إليهما ، لكن المسكين عجاج عجز عن دفع تتمة مطلوب السلفية ، فاحتاج مبلغاً ، فاقترضه له عادل من مترى ، فصار الاثنان مربوطين بمترى ، ومع هذا فكتبت إلى عادل ليعمل طريقة لوضع جانب من نسخى فى مكتبة المنار ، لا لشىء سوى أن كتاباً لى لا يجوز أن لا يباع فى المنار ، وبعد أن أكدت عليه هذا جاءنى منه ومن عجاج نفسه أن مترى يماطل فى توزيع الكتاب ، ويزعم أن المجلد غشه ، وترى الهدايا نفسها لم يوزعها . إلا نسخ الجرائد ، وتراه لم يرسل شيئاً إلى سورية ، ولا إلى فلسطين .

ونظراً لما حصل عند بعض إخواننا المسيحيين من الضجة حول نشر هذا الكتاب، فيظنون أن فتور مترى فى التوزيع مقصود، فلهذا ألححت مؤخراً على عادل بعمل طريقة مع كُتُبية[1] مسلمين، لاسيما السيد عبد الرحمن عاصم، وتخليص هذا الكتاب من المحل الذى هو فيه.

نعم نجيب مترى محب لنا نظراً لاختصاص أهله ببيتنا، لكن إذا ثارت عليه خواطرُ القوم فماذا يصنع؟.

وكتبت أمس إلى ابن عمكم أرجوه أن يساعد عادلا على تخليص الكتاب من أيدٍ لا تحب نشرَه، مع أننا نحن لم نتعب هذا التعب كله — وناهيك تَعَبَ مَنْ يؤلف ويصنف وهو من قطار إلى قطار، لا يستقر فى شرق ولا فى غرب — إلا لأجل أن يطالعه المسلمون.

هذا الوجه الأدبى. ثم هنا وجه مادى أيضاً اضطررت إلى الاهتمام به هذه المدة، وهو أنى فى أزمة مالية شديدة، لأسباب أبينها لكم على نوع التسلية:

١ — كلفتنى سياحة أوربة[2] الأخيرة ٥٠٠ جنيه، جاءنى من أصلها من أميركة[3] ١٠٠ جنيه لا غير، أى ٤٧٠ دولاراً، والباقى بذلته من كيسى، وما كان يجب أن أطيل الإقامة ٧ أشهر فى أحسن الفنادق، لكن هكذا صار. لا بل عندما رجعت إلى استانبول أرسلت منها ٤٠ أقة من «راحة الحلقوم[4]» هدايا إلى أصحابى بأوربة. ولما كان مبلغ ٤٠٠ جنيه يهزنى، فإلى هذه الساعة أشعر بهذه الهزة.

وجدت على العائلة بمرسين ٥٠٠ ليرة تركية دَيْناً، ثم جاءنا بدلُ إيجار البيت ٦٠٠ ليرة، أى ١١٠٠ ليرة تركية، وهى ١٢٠ جنيهاً باركة

(١) الكتبية: باعة الكتب.
(٢) فى الأصل. أوربا.
(٣) فى الأصل: أمريكا.
(٤) نوع من الحلوى.

علىّ بمرسين ، ولا أقدر أن أوفر شيئاً لوفاتها من دَخلى ، لأننا نريد أن نعيش ، ونحن ٩ أنفس مع الخدم .

٢ — أخى نسيب فى « الشويفات » مغرم بشغل الأملاك ، فوضنا إليه أن يفلح جيداً هذه السنة ، ويسمِّد وينقب ، وظننا أنه ينفق فى هذه السبيل سبعين أو ثمانين ليرة ، فإذا به أنفق ٢٥ ألف غرش ذهب ، فلبس الزيت الذى كان عندنا لم يكف ، بل اضطررت أن أسدد الباقى من عندى ، وعسى أن نحمد السُّرَى بعد هذا كله . لأن ملكَنا بسبب التشتت الذى أصابنا كان مهملاً جدا ، فالشغل كان لازماً .

٣ — كنت اشتريت بيتاً فى برلين أيام ذلك الرُّخص ، وهو وكالة فيه ٢٠ منزلا أى عشرون عائلة ، كل عائلة فى مسكن من ٤ إلى ٦ غرف ، والآن يساوى ٢٠٠٠ جنيه ، وربما يأتى وقت يساوى فيه ١٠ آلاف جنيه ، ودَخْله السنوى الآن ٧٠٠٠ مارك ذهب ، كلها تذهب رسوماً ، لكننا نأمل المستقبل .

فهذا البيت مع غيره من البيوت التى اشتُرِيَت أيام الرخص أرادت الحكومة فسخ عقود شرائها ، واضطررنا أن نقيم دعوى ؛ وبَعد أخذ وردّ منذ ثلاثة أشهر عضدتنا نظارة الخارجية عضداً شديداً ، ومع السندات القانونية ربحنا الدعوى ، وأبلغتنا دائرة الأملاك فى برلين أن البيت باقٍ لنا .

لكنها أرسلت مهندساً كشف عنه ، فوجد أن البيت يلزم له إصلاحات بسيطة بأربعة آلاف مارك ، فدفعها الدكتور بيضا صديقنا عنا حالا ، ويطلب له من قبل حسبة جزئية ، لكن علينا الآن أن نجهز له ٢٠٠ جنيه ، ولو دفعناها تدريجاً .

٤ — لنا فى عين صوفر أملاك واسعة مستقبلها عظيم ، ومن جملتها دكاكين وقهوة ، وبعض الأبنية حجر وبعضها خشب ، فالبلدية قررت نقضَ كل بناء خشب ، فاضطررنا أن نبنى بالحجر ، وباشرنا جلب الحجارة ، ولكن سفرة أوربة أعجزتنا عن الإتمام ، ونقص القادرين على التمام عيب ، أما نقص العاجزين مثلنا لم يكن عيباً .

إلا أن وكيلنا بصوفر غنى فأبى أن يقال إن أميره عجز عن إكمال البناء ، بعد أن جمعوا الحجارة ورَوَّوا الكلس ، فأخذ يبنى دكاكين ويدفع النفقة من كيسه ، وعلى كل حال لابد أن أبعث له بمائة جنيه .

فهذا هذا ، ولستُ ضايماً ، وأقل نسمة هواء تؤثر فى جسمى . فأصبحت فى أزمة ، ولا تنفرج هذه الأزمة بأقل من ٣٠٠ جنيه على الأقل ، ولذلك لا أقدر أن أبعث لكم لا بثلاثين ولا بعشرين جنيهاً فى الوقت الحاضر .

بل أرجو منكم أمرين : الأول : عمل طريقة لأخذ « حاضر العالم الإسلامى » من نجيب مترى ، ووضعه فى مكتبة المنار وغيرها من مكاتب المسلمين . الثانى : سرعة إرسال ابن سراج الذى تم ، حتى أراه ثم أعيده لكم ، ومباشرة توزيعه ، والاجتهاد فى تصريف ما أمكن من الكتابين بهذه المدة ، وإرسال ١٠٠ جنيه على الأقل بهذين الأسبوعين ، أو خمسين جنيهاً ثم الباقى تدريجاً .

هذه عُجَرى وبُجَرِى (١) أطلعتك عليها ، ولا أكلفك أن ترسل لى دراهمَ من كيسك — ولو كنتَ والله لا تتأخر إذا لزم — لأنك أنت أيضاً ذو عائلة ونفقات يومية مهمة ، ولكن رجائى الهمـــة فى تصريف « حاضر العالم الإسلامى » و « ابن سراج » .

---

(١) العجر والبجر : العيوب والأحزان ، وما يبدى الإنسان وما يخفى .

بقي أنه عندي كتاب اسمه « أناتول فرانس في مباذله » باقٍ عليَّ من ترجمته ٣٠ صفحة لا غير ، وقد وقعت ترجمته في ٢٣٠ صفحة من قطع هذه الصفحة التي أنا كاتب لك بها ، وتم في ٢٥٠ صفحة بهذا القطع وهذا الخط ، فهل يمكن طبعه في مطبعة المنار ؟ .

على أنني غير قادر أن أدفع من كلفته شيئاً ، نظراً لحالتي هذه المارّة الوصفِ ، ولست أريد الجور عليكم أ كثرَ مما جُرت ، ثم إنه يُوجَدُ فيه وفي حواشيه — هذا أيضاً له حواشٍ ، لكنها مختصرة ، فأنا على كل حال صرت محشّي بَاشَى — ألفاظٌ يلزم كَتْبُهَا بالإفرنجي ، فهل في مطبعة « المنار » كل مايجب من الحروف الإفرنجية ؟

لاتلزموا نفسكم طبع هذا الكتاب ، فإني أجد من يشتريه صُبْرَةً[1] واحدة ، ولكن إن كان طبعه عندكم على هذا الوجه لا يحدث أدنى ثقلة نبعث به إليكم ، وموضوعه أن ناموس[2] كاتب فرنسة الأكبر يضبط أوابدَه وشوارده ، ويروى مكانه في مجالسه الخاصة وفي بيته ، ففيه نكات ورقائق كثيرة ، لكننا أسقطنا منه كثيراً مما يضر بالعفة والطهارة ، وخففنا شيئاً منه بصورة الكناية وبالمعاريض ، ورددنا عليه في بعض الحواشي ، أو ذكرنا أن كلامه من قبيل النكتة المرسلة .. إلخ ، وغطينا أشياء كثيرة .

أما سائر ما تفضلت به في كتابك فجوابه عندي : لا أحد يفرِّق بيني وبينك في هذه الحياة ، لأن مبدأنا واحد ، وهذا أثبت شيء في دوام المحبة . وإن وقع اختلافُ نظرٍ في بعض الأحايين فلم يقع ولن يقع في الجوهر ، ونحن نصلي دائماً وراءك ، لا نرضى غيرك إماماً ، ولا غير « المنار » محراباً ، ونسأل الله أن يمتع بك

---

(١) الصبرة : ما جمع من الطعام بلا كيل أو وزن، والمعنى هنا أنه يجد من يشتري الكتاب كله دفعة واحدة

(٢) أي كاتم السر، (السكرتير) .

وبمنارك وبجميع أنوارك هذه الأمة المحمدية التي زماننا هذا فيها مرابطة ومثاغرة[١]، وحرب متصلة النائرة[٢]، ولابد أن نستمر على الجهاد والذب عنها إلى أن نموت، ويعلم أعقابنا أن بين أجدادهم أناساً ما وَنُوا ولا قصروا، وأن للاستقلال الذي تأثَّلَ لهم[٣] — وهو ما لا بد من حصوله يوماً — مقدمات بمساعينا ومساعي أمثالنا وأُسّاً وضعناها بأيدينا، وما نحن إلا كسائر الأمم التي وقعت لها هذه الأمور، ونجحت على أيدي نبهائها، وأطال الله عمرك، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

أخوك

شكيب أرسلان

١ — بصحبته ورقة فيها جوابي على بعض الملاحظات اللغوية، مما أنا مسلّم بأكثره[٤].

جوابي على الملاحظات اللغوية:

نعم «مِقلاَت»[٥]، هي الصواب، وهكذا كنت أتذكر، والبيت الذي أوردتموه كنت أحفظه، لكني عندما أردت تصحيحَ الكلمة إذ كانت في الطبع «مُقلاة» أحببتُ أن أراجع لأرى هذا البيت فلم أجده، ونظرت أمامي في «أقرب الموارد[٦]»، ولم يكن غيره، فلم أجد «مقلات»، وخفت أن أقرأ كلمة بدون تحقيق، وأن أعتمد على ذاكرتي وقد تخونني، فلهذا صححتها بمقلال على أني أكون ذكرت شيئاً صحيحاً.

---

(١) المثاغرة: الإقامة على الثغور للحراسة.

(٢) يقال: نارت نائرة، أي هاجت هائجة.

(٣) تأثل: عظم وتجمع.

(٤) هذه الحاشية جاءت في نهاية الرسالة ويليها ملحق عن الملاحظات اللغوية.

(٥) المقلات: الناقة التي تضع واحداً ثم لا تحمل، والمرأة التي لا يعيش لها ولد.

(٦) كتاب في اللغة لسعيد الشرتوني.

« ذيل جررناه عن الأندلس » و « سبعة عشرة خلت » و « اقتدى فىَّ » هذه كلها ذهول محض ، وكنت أعلم الوجهَ فيها يوم كتبت « ابن سراج » ، بل يوم كنت فى المدرسة . ولست من السوريين الذين يضعون (فى) موضع (الباء) .

نعم قد أضع (الباء) موضع (فى) وهذا يجوز كثيراً ، أما أن أقول « اقتدى فىّ » فهذا بعيد عنى . إلا أن يكون سهواً محضاً ، كالذى يكون القلم فى يده ولا يراه فيبحث عنه . ومثل ذلك « النائرة » فلا تستحق الذكر .

أما « عبّى الجيش » فهذه هكذا كنت أكتبها ، لست أسهِّل الهمزةَ فقط ، بل أرسمها بالألف المقصورة . فهذه المرة أنت نبهتنى إلى الصواب فيها ، جزاك الله خيراً ، ومنشأ غلطى فيها والله أعلم اسم كتاب أحمد فارس[1] « كشف المُخَبَّا عن فنون أوربا » .

فإننى لما ذهبت إلى أوربة شاباً سنة ١٨٩٢ كنت شرعت بكتاب أسميه : « الجيش المعبأ من أخبار أوربا » ورسمت معبا هكذا « معبى » ، وبقيت على هذا الغلط إلى الآن ، فها أنا ذا تائب بعد أن نبهتنى له .

أما « كادوا علىَّ كيدهم » فالصواب ما قلتموه ، وكما فى كتاب الله أكثر من مرة : « فيكيدوا لك كيدا » و « كذلك كدنا ليوسف » ، ولا تجوز : كاد عليه ، إلا على تضمين فعل آخر ، كأن تقول : حرك عليه مثلا .

ولفظة « المحيق » هذه سهو فظيع ، لأننى لا أجهل أن الفعل حاق لا أحاق ، وأنا ممن يتجنب كثيراً بل ينتقد مَنْ يقولون « مُعيب » و « مُريع » بمعنى عائب ورائع ، وغريب كيف أن الإنسان يمر على كلمات هذه ولا ينتبه لها ، وقد يقع السهو فيما هو أوضح ، فإن فى كتابك لى هذه المرة تقول لى هكذا : « وأرجو أن يكون

---

(١) هو أحمد فارس الشدياق .

لانتقاده تأثيراً عملياً يقف بالتساهل فيها عند حد .. إلخ » فكأنه عند ما جرى قلمك تصورت « أنَّ » المشددة ، ولا بد أن يكون حينئذ اسمها منصوباً ، ثم وضعت كلمة « يكون » بعد « أن » ، وذهلتَ عن أن الحالة قد تغيرت بها ، فهذا لا يخلو منه بشر .

أما لفظة « مهول » فهذه أنا مفتشٌ عنها من قديم ، وواقف على صحتها فى بعض كتب اللغة ، ولكن أوثق سند عندى هو قول بديع الزمان :

« أراك على شفا خطر مهول   بما أودعت لفظك من فضول »

فإن بديع الزمان ينزل ما يقوله بمنزلة ما يرويه ، ولا حاجة بى إلى شاهد آخر ، وأما قول الشيخ عبد الغنى النابلسى :

« إن رَامَكَ الخطبُ المهولُ فأقلقا   فانزل بأرض الشام واقصد جِلَّقَا »

فلا أذكرهُ لأن الأستاذ النابلسى مع سعة علمه لا يعد سَنَدَاً فى اللغة ، أما « المعاشيب » فالظاهر أنها « التعاشيب » ، وهى من الجموع التى لا مفرد لها كما لا يخفى .

« وسرت الفلكُ بريح طيبة » : حسناً فعلتم فى وضع (جرت) موضع (سرت). على أنى من أيام صِغَرى لما كنت أطالع فى علم البديع قرأت أن الاقتباس من كلام الله — وإن جرى تغيير فى بعض كلمات من الآية — يبقى اقتباساً .

« وما هو ذلك القصر » : كونه من اصطلاح المناطقة أعرفه ، أما كون « هو » لا لزوم لها ولا مرجع ، فما كنت أعرفه من قبل ، بل كنت أكتب مثل هذا التركيب كثيراً ، والآن سأنتهى عنه ، لكن على عهدتك أنت ، لأنى أعدك ثقة .

« ولذلك فإن بقايا آبائه » : هذه أيضاً منى غريبة ، لكنها ليست بسهو ، وقد أكتب مثلها : « وعليه فإن كذا وكذا » أو « وعلى هذا فإن .. إلخ » . لا أعلم لماذا أكتب مثل هذه الجمل بدون تحقيق ؟ .

جُلُّ ما هناك أنى كنت أقول فى نفسى إن الفاء هنا زائدة ، ولكن على فرض

أنها زائدة فهل يصح أن نقول : « ولذلك إن بقايا آبائه » ؟ كلا ، هذا منى غلط واضح ، وكتابة بدون تروٍّ ، بل هى متابعة للناس بلا تفكر .

أما « فضلا عن كذا » : فعلى فرض أنها لم ترد فى كتب المتقدمين فلا أجد منها مانعاً ، لأن المولدين أحدثوا اصطلاحات كثيرة لم تكن عند الجاهلية ، ولا فى صدر الإسلام ، ولا بأس بها ، بل لا غنى عنها ، وما دامت لا تخالف قواعد اللغة والنحو فما المانع ؟ .

وقولى : « كون المسلمين أحوج من النصارى إلى الماء ، لأنه فضلا عن الشراب يلزمهم لأجل الوضوء » : تسألون بم أنصب كلمة « فضلا » هنا ؟ أجيب : أنصبه كما ينصب دائماً على المصدر بمعنى الزيادة ، أى أن المسلمين يلزمهم الماء لأجل الوضوء زيادةً على الشراب .

وقد كان يمكننى أن أقول : « لأنه يلزمهم لأجل الوضوء فضلا عن الشراب » ، وهذه الجملة وكثير غيرها مما فيه تقديم وتأخير هى ترجمة جرى قلمى فيها بمراعاة الترتيب الأصلى الإفرنسى ، لأنه مهما اجتهد الإنسان فى مراعاة الأسلوب العربى إذا بدأ يترجم يؤثر فيه الأصل الأجنبى ، لاسيما إذا كان مستعجلا كما كنت أكتب « ابن سراج » .

استعمال « يلزمهم » بمعنى « يحتاجون إليه » : نعم أراه مولَّدا ، وهو على تأويل فيما يظهر . ألم يقولوا : « إن قال كذا لزمه الطلاق » أى وجب عليه ، فكأنهم أرادوا بقولهم « يلزمهم » يجب عليهم .

وإن اطلعت على شىء أوضح فى أصل استعمالها بمعنى الوجوب أكتب لك عنه ، ويلزمنا لذلك مطالعة « نهج البلاغة » وكلام الجاحظ وابن المقفع ، ثم الطبقات التى تليهم .

« كأنى بهذا الطريق بدلا عن أن يزداد بهم حركة وأنساً ازداد وحشة

ووحدة » : هذا من أثر الترجمة أيضاً ، وكان الأولى أن يقال : « كأنى بهذا الطريق أزداد بهم وحشة ووحدة بدلا من أن يزداد حركة وأنساً » . فجرى تقديم وتأخير لا غير ، و « بدلا » تجد ناصباً على كل حال . أما « عن » مكان « من » فواضحة ، وإن كان العامة رجحوا « عن » فى هذا المقام .

« وأسلحة تزيد رونقاً وجلالا صباحة وجهه » : كون صباحة وجهه مفعولا أولا ورونقاً مفعولا ثانياً هذا بَيِّن ، وكون تقديم المفعول الثانى على الأول مخالفاً للقاعدة إلا شذوذاً هو مما لا جدال فيه .

« تواثبا الواحد على الآخر » : ليس بغلط لكنه حشو .

« يتظاهرون بعضهم على بعض » : أنا لا أكره لغة « أكلونى البراغيث » ، ولغة : « يتعاقبون فيها ملائكة » أرى فى هذا معنى التأكيد ، وقبلا قلت لك ولست أجزم بصحة رأيى ، وإنما هو رأى من الآراء ، ودَلْوٌ فى الدلاء : إنه ورد فى كتاب الله أشياء شاذة عن القاعدة ، وأشياء على المذهب المرجوح ، وغيرها لا تمشى إلا بتأويل وتخريج ، وهذه كنا نقرأها ونحن أولاد ، ولم تبق فى ذهنى كلها ، ولولا ضيق وقتى لكنت أذكرها لك أو أذكر منها ، ولكن لا يسعنى من الوقت أن أحك برأسى ، وعلى كل حال فأنت أدرى بها ، فهذا الذى جاء فى القرآن كيف نمنع نحن السير عليه ؟ .

ولا بأس أن نقول إن الأكثر والأشهر هو كذا ، ولكن يلزمنا أو يجب علينا أن نقول : إن العدول عن الأشهر ليس بغلط ، فقد ورد فى أفصح الكتب ، وكما أن كتاب الله قرىء بقراآت عديدة ، حتى إنه قرىء بلغات القبائل منذ نزوله ، كذلك فيه تراكيب على حسب القاعدة ، وعلى حسب غيرها ، تيسيراً على الناس فى الكلام كما هو التيسير فى الأحكام ، أفلم ترد أمور أجازها المجتهدون مع الكراهية ؟ .

ثم إننا كيف نُخَطِّىء الكلام الوارد قبل النحو والصرف — كما خطأ إبراهيم اليازجي (ضوضاء) الواردة فى كلام الحارث [1] بن حلزة اليشكرى ، وقال هى مذكر — فإن النحو والصرف بنيا على هذا الكلام الذى وصل إلينا ، ولم يُبْنَ هذا الكلام على نحو البصريين والكوفيين ، وهل يكون الحديث مثالا للقديم ؟.

فصار لنا أن نقول : جرى أكثرُ كلامهم على الوجه الفلانى ، وجرى كثير منه على الوجه الفلانى ، وجاء منه قليل خلافاً للأولين .

وأما أن هذا غلط ، وأن الحارث بن حلزة ينطق بغلط يصححه له إبراهيم اليازجى بعد ألف وأربعمائة سنة أو أكثر ، فهذا صعب أن يقبله عقلى .

وقد كنت اطلعت على كتاب من كتب المكتبة التى ورثها المرحوم الشيخ على يوسف من السادات اسمه : « بحر العوَّام فيما أصاب فيه العوَامّ » فيه أشياء مدهشة ، حتى إنه ذكر أشياء نراها نحن من أقبح اللحن ، فصحح استعمالها ، وأورد شواهدها ، ويومئذ قلت للشيخ على : لا تطبع هذا الكتاب لأنه يعطل النحو ! .

السيد مصطفى الرافعى يرى رأيى ، فى جواز استعمال الضعيف أحياناً ، وأن مثله ورد فى كتاب الله .

« نحو ثلثمائة » : نعم الأصح : « نحو من ثلثمائة » ، ولكن عرَّفوا فى معاجم اللغة النحو بالقصد ، ومعان أخر من جملتها المقدار ، أفلا يجوز أن يقال : « مقدار ثلاثمائة » ؟ .

« كانت المقبرة عبارةً عن روضة » : وإن لم يكن تركيب « عبارة عن » جاهلياً ، فإنه لا خطأ فيه ، وهو يفيد المراد مع زيادة فى البلاغ ، وإنكار بعض المعلمين له ليس بشىء .

---

(١) فى الأصل : الحرث . وفضلت كتابتها بالألف لأنها أوضح .

لأنه ليس بشرط أن لا نستعمل لفظة عربية إلا كما استعملوها قبل الإسلام ، فقد أوجد الإسلام ألفاظاً فقهية ، وأوجدت الحكمة ألفاظاً فلسفية ، وأوجدت الكيمياء ألفاظاً صناعية .

نعم كانت الألفاظ فى اللغة من قبل ، لكنها لم تكن بهذا المعنى ، ناهيك بمثل « القَلَم » الذى سئل عنه ذلك البدوى ، فلم يفهمه بالمعنى الذى نفهمه به اليوم ، فهل نبطله ؟ . وإن أبطلناه فماذا نقول ؟ .

ملاحظتكم بأمر « المعروشة » فى عين محلها ، فالمعروش هو من نوع الدوالى ، ولعل مرادى أنها روضة من النخيل والسرو والنارنج معروشة عليها الدوالى ، أى على الشجر ، إلا أن الجملة حينئذ يجب تغييرها .

« أن يُصْلِحَ ذاتَ البَيْنِ بين الفرسان » : الأصح كما قلتم « ذات بَيْنِ الفرسان » . أما مسألة « الفيلق » فأنا لم أقل إنها غير مؤنثة ، إنما أردت أن أقول إن تذكيرها لا يستحق التخطئة ، أولا من جهة اللفظ ، ثانياً من جهة الشاهد الذى تذكرته من « فقه اللغة »[1] ، وفقه اللغة ليس عندى الآن ، بل هو فى مكتبتى بالشويفات ، وإنما منذ ٣٥ سنة قرأته ، وأتذكر الفيلق فى درجات الجيش ، وكان مرادى أنك مولع بالتخطئة ، لا تدع ثنية ، لا أنك مخطىء .

وأما « اكتساح رومة » فإجمال الخلاف فيها أننى أنا قلت إن العرب اكتسحوها ، ثم اعترفت أنهم لم يفتحوها ، بل اقتصروا على نهبها ، وأنتم تذهبون إلى أن الاكتساح يقتضى أخذ المال كله ، والحال أنهم تلك المرة لم يأخذوه كله ، بل قتلوا ونهبوا وسبوا ، وأخذوا تابوت الفضة الذى على مذبح كنيسة مارى بطرس — ولا شك أنهم كنسوا الكنيسة يومئذ كما تحب أنت ، وكما تريد أن يكون معنى

---

(١) كتاب « فقه اللغة » للثعالبى .

الاكتساح — وهذا ليس كل الشيء . فأنا أقول : العرب دخلوا رومة ، ونهبوا وسبوا ، وأخذوا نفائس الكنيسة وغيرها ، ولهذا أقدر أن أقول إنهم بهذا العمل اكتسحوها ، ولو لم يكنسوها بالمكنسة ، لأنه إن كان الكنس بالمكنسة شرطاً لم يصح « الاكتساح » ولا فى موضع ، لأنه لا بد أن يبقى شىء ، وتسمية الشىء باسم بعضه جائزة .

تقول إنك تحكِّم فى هذه المسألة الأستاذين أحمد زكى باشا وأحمد باشا تيمور ، فأنا راضٍ بهذين الحَكَمين اللذين تُرْضَى حكومتُهما ، وحبذا لو أطلعتموهما على جوابى هذا كله ، ليحكما هل عرفت الحق أم عاندت ؟ وإنِّى أجد اثنين غيرهما من الثقات أيضاً (أيضاً هى مولدة أيضاً) ، وهما السيد مصطفى صادق الرافعى ، والشيخ خضر حسين التونسى ، فأرضى بحكمهما . .

نعم إنى استغربت من سعادة أحمد باشا تيمور شيئاً ، وهو أنه أجاز كتاب أسعد أفندى داغر فى تخطئة بعض استعمالات عصرية أو مولدة ، وإجازتُه تدل على أنه ارتضى بكل آراء داغر ، وأنا على ضعفى أقول إن فى كتاب أسعد داغر — فى جانب كثير من الصواب — كثيراً من تحجير الواسع ، بل من تخطئة الصحيح ، وإن شاء الأستاذ الباشا نكتب له فى هذا .

ورد فى مكتوبكم لى جملة : « زائدة عما طبعناه » ، ومرة أخرى كذلك وضعتم « عن » بعد « زاد » ، فأنا كنت أظن أنه بعد (زاد) يجب الإتيان (بعلى) ، وكذلك بعد نافَ وأناف ، والآن لست منتقداً ، بل عند ما أرى فى كلامك موضعاً أقف فيه أحب أن أسألك ، ظناً بأن عندك نصاً ، لمثل هذا سألتك عن الخزينة ، والوسائط .

وبالإجمال فأشكر لك هذه اليد البيضاء فى إفادتى وتصحيح خطئى [1] ، وهى

---

(١) فى الأصل هكذا : خطأى .

يد لا أنساها لك فى حياتى ، وأضمها إلى جملة عوارفك ، وأما أننى ماريتك فى حديث فوالله إن كنت فملته كان نكراً ، ولو أن السيوطى قام من قبره لعرف قدرك فى الحديث[١] ، فكيف يجادلك فيه من هو مثلى ؟ . لقد أخطر ببالى هذا ما رويته أنت لى عن الشيخ محمود نشابة عندما كان يماريه الشيخ عبد الفتاح الزعبى : « يا عبد الفتاح ، وفى اللغة كان » ؟ .

— ٩ —

جنيف فى ٢٨ أيلول[٢] ١٩٢٤

سيدى الأخ الأستاذ

بهذه الساعة أخذت كتابك الكريم المقيد رقم ١٨ صفر الخير[٣] ، وعليه أجيب .

إن ترجمة « آخر بنى سراج » قديمة العهد ، مضت عليها ٢٨ سنة ، وقد راجعتها مرةً واحدة فى « مرسين » ، وأنا على أوفاز السفر[٤] ، فأصلحت منها ماظهر لى الخطأ فيه ، وبقى فيها ولا شك ما فيه نظر : إما لكون مطالعة المسافر لا تخلو أبداً من عجلة ، أو لكونى أجهل بعضَ القواعد التى تعرفونها ، لاسيما وإننى فارقت كتبَ النحو منذ ٣٥ سنة ، بل أكثر .

تريدون أن تغيروا « الزعيم بحسن المآل » بلفظة « المسؤول » فلا بأس ، ولكن ليس كل ما يُسْنَد إلى الله تعالى يجب أن يكون من جملة الأسماء الحسنى ، فقد تكون صفات مختلفة فى اللفظ متفقة فى المعنى .

---

(١) يقصد علم الحديث النبوى.
(٢) سبتمبر ، وهذه الرسالة فى ورقتين من الحجم الكبير ، وكل منها مكتوبة من الصفحتين .
(٣) صفر سنة ١٣٤٤ هـ
(٤) الأوفاز : جمع وفز ، وهو العجلة .

أما « يقيمون الصلاة لأجل رجوع غرناطة إلى الإسلام » فهى ترجمة حرفية بلا نزاع ، لكن لا أجد فيها غلطاً ، لأن الصلاة هى أيضاً بمعنى الدعاء ، وأصلها الحرارة فى الدعاء ، وتؤوّل بأنها الصلاة التى يُدْعَى فيها برجوع غرناطة إلى الإسلام .

كل ذلك جائز ، فلا غبار على هذه الجملة فى العربية ، فضلا عن كون الفهم اليوم يأخذها حالا بمعنى الدعاء ، فإنه لابد من أنك تلاحظ اصطلاح كل عصر ، وفى هذا العصر قد جدّت بمطالعة الألسن الأوربية معانٍ وجملٌ يجب أن نطردها فيما لو خالفت أصلَ اللغة أو قواعد النحو ، فأما فى حال موافقتها لها فلا محل لتحجير الواسع .

أما تقديم بعض المفاعيل على المفعول به بدون نكتة فغير فصيح ؛ ولكنى — مع كونى فى هذا التقديم لاحظت بدون شك المتن الفرنسي — لا أظن هناك تقديماً بدون سبب ، فقولى مثلا : « ابك بكاء النساء الملكَ الذى لم تحسن الدفاع عنه دفاعَ الرجال » ، تقدم فيه المفعول المطلق « بكاء » على المفعول به « ملك » لنكتة ظاهرة ، وهو التخصيص ، أى ابك بكاء النساء لا بكاء الرجال ، فإن بكاء النساء أشد وأوقع وأفجع ، فتقديمه هنا يشبه مالو قلنا مثلا : « قاتل قتالَ أبى بكر المرتدين » أو : « أقم إقامةَ عمر حدود الله » . أفترى ذلك تقديماً بدون سبب ؟ .

وورود مصدرى (دافع) أحدهما وراء الآخر لا غبار عليه ، ومثله كثير ، كما أن « المُلْك » هو مفعول « ابك » لا مفعول « بكاء النساء » ، وليس من قبيل « ضعيف النكاية أعداءه » ، ولا موجب لهذا التأويل ، لاسيما أن هذه العبارة شهيرة جداً .

نعم قد وردت فى أصلها الإفرنجى : « ابك مثل النساء المُلْكَ الذى لم تحسن الدفاعَ عنه مثل الرجال » ، ولكن الذى يلوح لى أن عبارتى أمتن من البيت[1] ،

---

(١) لعله يقصد : الأصل .

لأن « أفعل مثل كذا أو مثل فلان » من كثرة عاميته يحب الإنسان أن يغيره ، وأنت تقول إنك أصبحت لا تهضم كثيراً من العبارات التى تكررت كثيراً ، وأنا أسألك أيهما أقوى وأجزل : « قاتل مثل عنترة » أو « قاتل قتال عنترة ». أو « أعط مثل جعفر » أو « أعط عطاء جعفر » .

ثم أزيدك أنى فى استقراء كلام العرب وما يُنقل عنهم سواء فى الأغانى أو فى طبقات ابن سعد وغيرهما لا أجد مراعاةَ القواعد مُحْكمةً إلى الحد الذى نتوخاه ، بل نجد كثيراً مما لو راجعنا القواعد عُدَّ من الضعيف أو المرجوح وأحياناً من الشاذ .

وأغرب من هذا أننا نجد من هذا التمثيل فى كتاب الله ؛ أفننسب ما جاء منه فى كتاب الله إلى قلة الفصاحة ؟ . وقد قال بعضهم وقد سئل عن : «لباس الجوع[1]» وهل هو جائز : « ويحك » هَبْكَ تتهم محمداً أنه لم يكن نبياً ، أتتهمه أنه لم يكن عربياً » ؟ ! .

فلا شك فى أن ما ورد فى القرآن من هذه الأمثال جاء على لغات ضعيفة ، ولكنه جاء ، وليس بخطأ ، بل نطق به الكتاب العزيز برهاناً على أن العرب نطقوا به ، وأن الوجوه الضعيفة قد تؤتَى فى الفصيح أيضاً ، أو أن القرآن نزل بكل لغات العرب ، إلا ما كان خطأ محضاً لا يحتمل تأويلا .

وأما : « لم يكن عندهم خارجاً عن أبراج الحمراء ثمار طيبة ولا عيون صافية إلخ » : فليس معناه لم يكن عندهم ثمار طيبة ولا عيون صافية إلا ما كان داخلا مادة أبراج حمراء غرناطة . كلا ، بل معناه لم يكن فى نظرهم معدوداً فى الثمار الطيبة والعيون الصافية إلا ما كان داخلا من هذه الأشياء فى أبراج غرناطة ، والمعنى ظاهر لا يحتاج روية ليشرق .

---

(١) يشير إلى الآية الكريمة : « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » سورة النحل ، آية ١١٢ .

وقولنا : « عندهم » هو بمعنى فى نظرهم ، أو فى رأيهم ، كقولهم : « وعند سيبويه كذا » ، وعندى أن يقال كذا ، إلخ .

ومثال ذلك : « ولا شمس تستحق أن يلتفت إليها أبداً » . نعم هى ترجمة حرفية ، لكنى لا أرى وجه الخطأ فيها ، فالشمس قد تنكر فيقال : « شمس محرقة » ، وتجمع فيقال : « شموس » ، ومعناه طلعات الشمس ، كلما طلعت مرة قيل : شمس .

أردتَ أن تغير : « فارقوا فراق الأرواح للأجساد ميدانَ ذلك الجهاد » ، فالأمر لك ، ليس فى هذه الجملة وحدها ، بل فيما سبق أيضاً ، وأنا إنما أبيّن لك آرائي وعقيدتى اللغوية ، وأوضح وجهَ ما التبس عليك .

أما : « ويفرجون الكلومَ » فلا يمكن أن تكون إلا سهواً ، وصوابها كما قلتم : « ويفرجون الهموم » ، ولما كانت لفظة « كلوم » واردةً فلا بد أن تسبقها يأسون أو يضمدون أو ما شاكلهما .

« برانس محرَّرة من الأطلس » : أى مزيَّنة محسَّنة من الأطلس . حَرَّر الشىء زيَّنه وحسَّنه . هذا صريح فى اللغة ، حتى قالوا : « هذا أحرُّ من هذا » أى أرقُّ منه رقةَ حسن ، وإذا لحظت أن البرانس هى من الحرير زادك ذلك لمحاً لوجه كلمة محررة ، فكثير من الأسماء شُقَّ منها أفعال ، وذلك فى كلام الفصحاء القدماء .

« الكفوف الحديدية » : لا أدرى الآن ما هو أصلها بالفرنسى ، إذ ليس عندى نسخة أخرى من آخر بنى سراج ، وإنما أظن كونها نوعاً من السلاح مثل الكف ، ولا مانع من استعمالها مجازاً ، كما تقول العامة عن هذا القُفَّاز الذى يجعلونه فى الكف كف ، فربما كانت هناك آلات حرب مثل التروس ، لكن بأصابع وأظفار محددة ، فسموها كفوفاً .

أما : « وكان معلقاً على حيطان الكوخ درقات إلخ » : فالصواب : وكانت معلقة إلخ ،

أو يجعل بدل درقات درق ، ويجعل محلّ اسم الجنس ، فيقال : وكان معلقاً درق، ومثله كثير فى كلام العرب .

ثم : « وكان مصفوفاً بجانب تلك التروس أسنة معممة » يقال فيها : « وكانت مصفوفة . . إلخ » .

وإذا كان قد ضاق صدرك بلفظة « ليس » فى : « ليس مثله فى هذه القوى الإنسانية » من كثرة ما أحرقت دينها الجرائد ، فاجعل مكانها : « شدة الحزن الذى لا مثيل له فى هذ .. إلخ » .

وأما : « لوى على السفر » فهى خطأ ، وجزاك الله خيراً على التنبيه إليها ، ولعلى أخذتها من قولهم : خرج لا يلوى على شىء . فهذه الجملة واردة فى كلامهم ، ولا أعلم كيف أتوا بها ، وإنما ورد فى كلامهم ألفاظ ترد فى مقام النفى . ولا ترد فى مقام الإثبات ، وعلى كل حال فيجب أن يستبدل بها : « ونوى السفر » ، أو : « عزم على السفر » .

ثم إننى أرجوك ولو كان فى ذلك حرج عليك أن تطالع لى القصة ، وذيلَها إلى الآخر ، وهذا يتيسر لك إذا تلطفت وصححت المسوّدات بذاتك ، وهو ما رجوته من قبل ، فعند ذلك تطلع على مواطن أخرى قد يكون فيها خطأ يعيب الكتاب ، فتصحح ما تجده ظاهراً ، وتتكرم بمراجعتى فيما لم يشرق ، ولك الفضل .

مسألة السفر إلى اليمن لابد منها ولكن فى وقت آخر . من أين عرفت أن الثعالبى ذهب إلى اليمن ساخطاً على الحسين[1] ؟ . هل كتب لك الثعالبى من هذا شيئاً ؟ .

ورد لى من القدس أن الفلسطينيين فى فلسطين ومصر احتجوا على عبد الله[2]

---

(١) يقصد الحسين بن على ملك الحجاز .

(٢) عبد الله بن الحسين بن على .

وأبيه من أجل إخراج حزب الاستقلال العربى من شرق الأردن ، وأن جمعيات أخرى احتجت إلا لجنتكم التنفيذية فقد سكتت ، والناس نسبوا هذا السكوتَ إلى نفوذ أولاد لطف الله على اللجنة ، وكون المشار إليهم لا يخاطبون الحسين وأولاده إلا بما يحبون — إلا فيصلا فإن أولاد لطف الله يكرهونه ظاهراً وباطناً .

هذا ما كُتب لى . وأنا ذكرت ذلك أمام الأمير ميشيل فسكت ولم يجد جواباً ، أما الحسين نخشى أن هؤلاء يذهبون إلى ابن سعود ، أو إلى اليمن ، أو إلى مصر ،وينشرون فضائل ولده عبدالله .. . وربما فضائله هو ، فأراد أن يتلافى الأمر ، وأن يرقع القفة كما يقال ، وأرسل باخرة اسمها « الرقمتان » إلى العقبة لأخذهم ، وأنا نظيرك مستوحش من هذا الأمر ، ولكنى لا أعلم كيف أخاطب أخى عادلا ، ويريد جدّة ومكةَ تحت مراقبة الحسين ، ثم بلغنى أن الحسين ينوى تعيينَ عادل سفيراً فى طهران ، هذا كُتب لى مرتين ، فهذه أيضاً على فرض صحتها لم أحبها من جملة وجوه ، ولا أعلم كيف أعمل لأفهم عادلاً لزومَ معاده من الحجاز إلى مصر ، وبحثه عن شغل بمصر ، هذا أولى وأسلم ؛ بل أصوب وأعلم .

وأشكرك كثيراً على اعتنائك هذا بابن سراج ، وبرفقة هذا ملخص ما جرى معنا من جهة المهمة لدى جمعية الأمم فى ورقة تقرأها فى اللجنة ، وورقة أخرى خاصة بك[1] ، لا يجوز أن يطلع عليها أحد غيرك ، لكن من الضرورى إعمالك الروية فيها ، وأطال الله بقاك ، ونفع بك الإسلام والشرق ، وأظهر على يديك ما بين النور والظلمات من الفرق .

أخوك

شكيب أرسلان

---

(١) لم توجد الورقتان مع الرسالة .

— ١٠ —

لوزان ٢ فبراير ١٩٢٥[1] .

سيدى الأخ الأستاذ :

تقدم منى كتابٌ فى تاريخ ٢٣ يناير ، مع كراس من « آخر بنى سراج » يبتدىء فيما أتذكر من صحيفة ٧٠ ، وقد أرسلت جدول إصلاح الخطأ ، ومعه ورقة فيها عدة ملاحظات ، أرجو أن تدققوا فيها النظر .

وقد نسيتُ لفظةً لم أفطن لها إلا بعد ذهاب الكراس بالبريد ، وأنا منبه إليها هنا : إنه فى قصيدة رثاء طليطلة الرائية :

طليطلةٌ أدال الله منها سواها ، إن ذا نبأ كبير إلخ

يوجد بيت فيه بالشطر الأول : « مذكار ولود » ، وفى الشطر الثانى : « مغلاة نزور » ولم أفهم معنى مغلاة ، ولا معنى مقلاة هنا فيما لو جعلناها مقلاة ، وأظنها « مقلال » من القلة ، ولاسيما أنه يرد فيها[2] نزور . فأرجو ألا تذهب من بالكم .

وأصل كتاب « أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر » ، وأربعة مكاتيب لأحد ملوك غرناطة الذى قبل الآخر . المرجو طبع هذا الكتاب وهذه المكاتيب الأربعة فى آخر ذيل ابن سراج ، وبطيِّه توطئة فيها بعض ملاحظات توضع قبل الكتاب .

---

(١) هذه الرسالة مكتوبة فى ورقة واحدة من جهتيها ، وهى من الحجم الكبير ، وهى من أوراق فندق Balmoral Hotel بلوزان وقد طبع عليها اسم الفندق وعنوانه

(٢) يأتى بعدها . وقد جاء البيت المشار اليه مطبوعا فى الكتاب هكذا :

فأم الصبر مذكار ولود وأم الصقر مغلاة نزور

والصواب : مقلات ، أى لا يعيش أولادها ، أو قليلة الأولاد . وقد سبق الحديث عن الكلمة وانظر ص ٨٥ من آخر بنى سراج .

وهذا الكتاب إن كان مطبوعاً بمصر فلا يلزم أن نطبعه فى آخر ذيل بنى سراج ونكتفى بطبع المكاتيب الأربعة ، وأما إن لم يكن مطبوعاً بمصر فيكون إلحاقه لازماً ، لأن طبعة « منيخ » هذه نادرة ، وأنا نفسى اشتريتها بعشرين فرنكا سويسرياً لندورتها ، فيكون الأولى نشر الكتاب .

بقى أن اسم مؤلف « أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر » غير مذكور ، فإن كنتم تعلمون اسم المؤلف فاذكروه ، مع القول بأن طبعة « منيخ » غفل منه ، وإلا فإن لم تكونوا تعلمون اسم المؤلف فالمرجو أن تتذاكروا فى الموضوع مع الأستاذ أحمد زكى باشا — الذى قد كتبت إليه فى ذلك — فإنه إن لم يكن هو يعرف اسم المؤلف ، وكان لا يعرفه أحمد باشا تيمور فلا يعرفه إذاً أحد .

هذا ما لزم من هذه الجهة ، وقبلا بعثت لك بثلاثين جنيهاً إنكليزياً فى تاريخ كتابى السابق الذكر من جنيف ، وإن تيسر مبلغ آخر أبعث به ، وأكرر رجائى (١) بأنه إذا كان كتاب « أخبار العصر » هذا غير مطبوع بمصر فلابد لى من طبعه ملحقاً بابن سراج ، ومطبعة المنار ولو كانت صارت دار صناعة للدولة النجدية أو طوبخانة للدعوة الوهابية — أستغفر الله : السلفية — يمكنها أن تتوفر على طبع هذا الكتاب أيضاً لصغره .

الوفد الهندى برئاسة الشيخ سليمان الندوى حضر إلى جدة ، ومراده عقد الصلح ، فيا ليتك لما دُعيت إلى أن تكون واسطة الصلح لبيت الدعوة وجرى الأمر على يدك ، ومنذ البداية كان خوفى أن نظهر التعصب على ابن الحسين ، ونأبى إلا قلعهم من الحجاز ، ثم ينتهى الأمر ببقائهم .

ولعلك تقول لى : وما أدراك أن ابن سعود يصالح ؟ . فأقول لك : إن الوفد الهندى سيقول له ما نقوله : إن كنت تأبى الصلح فيجب أن تحمل على جدة ،

---

(١) شكيب يكتبها هذا : رجآءى .

وتأخذها فى أقرب وقت ، أما إبقاء هذه الفتنة فى الحجاز قائمة ، والحج مقطوعاً ، فهذا لا يمكن .

الأستاذ الثعالبى كان له عند الإمام يحيى من الإكرام والإجلال ماهو فوق الوصف ، ولا شك أن الثعالبى ناجاه بكل ما يخطر ببال عاقل سياسى مفكر نظيره من وسائل الإصلاح والاحتياط للمستقبل ، وسنعلم ما كان من جواب الإمام بعد أن يعود الثعالبى إن شاء الله .

تأخير مؤتمر الخلافة فى محله ، إذ فى ظرف سنة تكون انجلت حوادث كثيرة ، والتأخير فيه تمكين من زيادة التحرى ، وتعميم الدعوة إلى الأقطار الإسلامية النائية التى لا شك أن أكثرها لم تُرسل إليه دعوة . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، ودمتم لأخيكم .

شكيب أرسلان

١ — ما جاءنى من كراريس ابن سراج غير الكراس الواحد الذى أعدته لكم بتاريخ ٢٣ يناير ، وسألت براين مرتين عما إذا كان قد وصل إليهم شىء ، فورد لى أمس تلغراف من الدكتور بيضا يقول إنه ما جاءهم شىء ، فأين بقيت الكراريس الأولى ، أو إلى الساعة لم ترسلوا بها ؟ وكيف يصل إلىَّ كراسٌ مبدأه الصحيفة ٧٠ ولا يصل ما هو قبله ؟ أنتم أدرى (١) .

— ١١ —

بودابست ١٣ فبراير ١٩٢٥ (٢)

سيدى الأخ الكبير

أما الدار — وما أدراك ما الدار — وقد فاض بذكرها كتابُك فكل

(١) هذه الحاشية فى أعلى الصفحة الأولى من الرسالة .

(٢) هذه الرسالة فى ورقة من الحجم الكبير ، مكتوبة من الجهتين .

ما يعنينى من أمرها هو أن تكون منزلا مباركا عليك وعلى عائلتك وآلك وكل من يلوذ بك ، ويجعل وجهها عليك كما تحب أنت لنفسك ، آمين يا رب العالمين .

وأنا إذا كنت بمصر فسواء جاورتك فى السكنى أم لا فنحن جيران أرواح لا جيران أحجار وألواح . وأما الذى اتفقتُ فيه مع نجيب بك شقير فهذا لابد من نفوذه بأول فرصة ، ومرادى أن أهيىء له الإخوان الفلسطينيين ، وأكتب ما يلزم إلى الحاج توفيق حماد والحاج أمين الحسينى والحاج سعيد الشوا ، حتى ينقلب الرأى ويتحتم الاستبدال .

أما الكراريس التى أرسلتموها فيظهر أنها ضاعت فى الطريق ، إذ لم يصل منها سوى ما قد رَجَّعْتُهُ لك : كراس واحد ، أما صورة قرار اللجنة فقد وصلتنى بالعربى ، وكنت أحب أن أرى الأصلَ الفرنسى .

أرجو منك أن تعيد لى القصيدةَ النونية فى رثاء الأندلس كما كانت فى نسختى ، بدون ذكر الأبيات المتعلقة بغرناطة ، ومع إبقاء ما كان كما كان فى النسخة الأولى ، ويصير تجديد طبع الملزمة ، وأدفع كلفة ذلك جنيهين أو أكثر ، وتصحيح «بواسل» ، «بيسلاء» موافق .

لابد أن يكون وصل إليك «أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر» ، والمكاتيب الأربعة التى معه ، ولا حاجة إلى تكرار ما كتبته من قبل بشأن إلحاقها بآخر بنى سراج ، لكن هناك مسألة اسم مؤلف هذا الكتاب ، سألتك عنها ، وسألت أحمد باشا زكى ، وكذلك يمكنك سؤال أحمد باشا تيمور ، وهنا على الخبير سقطت .

يوافق أن يرُدَّ فؤاد بك سليم العاقل الفاضل الشهم على هذا الجاهل الخبيث المسمَّى يوسف أحمد نجم ، ولا سيما أننى كنت آليت أن لا أجادله ، وصرحت بذلك ، ومؤخراً اضطررت أن أجاوبه ، لكن — كما قلت لك قبلاً — بخط

منحنٍ وبدون إمضاء صريح ، وهذه المرة كان جوابى تصحيح الأغلاط التاريخية الفظيعة ، مثل أن الأوربيين لم يُصلوا الحرب الصليبية إلا لكون العرب صلّوا لانتصار الترك في البلقان وعلى شواطئ الأدرياتيك ، والحال أن الحرب الصليبية بدأت نحو سنة ١١٠٠ وانتهت فى نحو ١٣٢٠ ، والأتراك ما كانوا فى البلقان والأدرياتيك إلا نحو ١٤٥٠ ، ومثل ذلك مما ينقله هذا الحمار عن كتب إفرنجية أصحابها لا يفهمون أكثر منه ، وتعرضت لأمور أخرى مُظهراً فيها جهله ، وكله بدون ذكر اسمه ولا اسمى ولا اسمكم ، ولكن الموضوع مفهوم ، وسترونه .

إن جاوبتمونى من الآن إلى ١٥ يوماً فليكن الجواب باسمى بواسطة : الخواجات منشى أبناء عم تشاليان خان . غلطه . الآستانة .

وإن كان بعد ذلك فليكن باسمى إلى مرسين تركية[1] .

إن كان صحيحاً ما يشيع فى جرائد أوربة من كون جمعية الخلافة بالهند اقترحت لإدارة الحجاز جمهورية ، فيكون ذلك جهلا بالأحوال وباباً للفساد ، والموافق هو أمير هاشمى ، مع مجلس مختلط للحرمين وللحجاج وللنظافة ووسائل الصحة ، وأما العمل هناك كأنه لا عرب ولا من يسأل ولا من يفسد ولا من يفتن لجهل وعدم تبصر . انصحوا هؤلاء القوم إن كان لكم إليهم سبيل ، أو حذّروا ابن سعود من هذا الرأى .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أخوكم
شكيب أرسلان

(١) فى الأصل : تركيا .

— ١٢ —

مرسين ٢١ مارس ١٩٢٥[١] .

سيدى الأخ الأستاذ

منذ أربعة أيام وصلت إلى « مرسين » ، وشاهدت العائلة ولله الحمد بكمال العافية ، واستقررت الآن بهذه البلدة ، ولزمت منزلى قلّما أخرج إلا لغرض ، إذ كان علىّ كتابات كثيرة لابد من إنجازها .

أرجو من فضلكم أن تبعثوا لى « ابن سراج » المطبوع من أوله إلى آخره ، مع جدول إصلاح الغلط الذى كنت بعثت به من جنيف ، وذلك حتى أصحح ما يبدو لى ، وأكمل الجدول المذكور ، وأعيد إليكم الكراريس ، ويبقى تجديد طبع الملزمة المعهودة وطبع الكتاب الذى أرسلناه أخيراً مع الرسائل الأربع من ابن الأحمر .

ومُرُوا بإرسال ما ترسلونه مضموناً بالبريد . أحمد زكى باشا لم يرسل لى برأيه عن اسم مؤلف « أخبار العصر فى نهاية ملك بنى نصر » ولعله فى البحث والتنقيب . وأما أحمد باشا تيمور فلعلكم سألتموه عن هذه المسألة . هذا وأنا بانتظار جوابكم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أخوكم

شكيب أرسلان

١ — أهنيكم برمضان المبارك ، أعاده الله عليكم وعلى آلكم وعيالكم أعواماً لا تحصى بالعز والإقبال ، ووفّر لكم أجر صيامه وقيامه بياض الأيام وسواد الليال ، آمين[٢] .

---

(١) هذه الرسالة فى ورقة واحدة من الحجم المتوسط ، مكتوب منها صفحة واحدة .

(٢) هذه الحاشية جاءت فى أسفل الرسالة .

— ١٣ —

جنوه ٢ مايو ١٩٢٩ [(١)]

سيدى الأخ الأستاذ، أدامه الله

تشرفت بوصول الرقيمين وفهمتهما ، والآن نحن فى أمر مستعجل لا نعلم على أى وجه ينتهى .

والخلاصة أنه برغم تعرض حافظ عفيفى لملاقاتنا فى برلين ، وبرغم مواعيده أن مسألة مرورنا بمصر يجب أن نعرفها منه ، وبرغم مواعيد «النشأة» فى برلين ببذل كل جهد فيها، مضى شهران ولم يصدر الإذن ، فأبرقنا إلى حافظ عفيفى الذى هو فى لندرة ، فجاوب جوابا فسَّر فيه الماء بالماء، إذ جوابه يفيد أنه بمجرد ورود الإذن من مصر يعرِّفنا .

فهمنا أنه لا إمكان لمرورنا بمصر ، وقطعنا الأمل منه ، لكن هناك أمر آخر ، إن لم يمكن يفوتنا الحج .

كنا نظن أنهم يسمحون لنا أن ننزل فى السويس ريثما يتيسر وابور إلى جدة ، فهذا أيضاً لم نقدر عليه ، لأن قنصلية مصر فى جنوه لا تجسر أن تعمل لنا إشارة على تذكرة المرور لأجل النزول بالسويس ، وتقول يجب أن نراجع الحكومة فى القاهرة ، ونأخذ منها الإذن بذلك .

والوابورات الباقى الأمل بأننا إذا ركبناها أدركنا الحج هى اثنان لا غير .

---

(١) هذه الرسالة هى فى الواقع رسالتان ، ولكننا اعتبرناها رسالة واحدة ، لأنهما كتبتا فى يوم واحد ، وموضوعهما متصل ، ووجدتا فى ظرف واحد ، والأولى منهما أربع ورقات صغيرة ، ثنتان منها مكتوبتان من الوجهين ، والثالثة مكتوب منها وجه واحد ، وبعد ذلك ثلاث صفحات بيضاء . والرسالة الثانية فى ورقتين الأولى مكتوبة من الوجهين ، والأخرى مكتوب عليها بضعة سطور والباقى أبيض ، والرسالتان مكتوبتان على ورق مطبوع عليه اسم :

Hotel Savoy et Majestic Genova

أحدها وابور هولاندى اسمه « البرنس جليانه » ، يقوم غداً من جنوه ، فيكون فى بورسعيد فى ٧ مايو ، وفى السويس فى ٨ منه ، فنقدر أن نركب فيه ، لكن إن وصل إلى السويس ولم يدَعُونا أن نطأ البر — وهو محتمل بل مرجح — يبقى الوابور ذاهباً بنا إلى الهند ، إذ أنه لا يعرِّج على أىِّ مرسى فى البحر الأحمر ، فإذا ركبنا هذا الوابور نكون ركبنا تحت الاحتمال الأرجح أننا سنتصل به إلى كولومبيا .

الثانى وابور إنكليزى من شركة « أوريانت » اسمه « أوريتفو » ، يقوم من نابولى فى ٥ الجارى ، فيكون ببورسعيد فى ٨ ، وفى السويس فى ٩ ، وهذا أيضاً إذا ركبناه ولم يأذنوا لنا بالنزول فى السويس نبقى فيه ذاهبين إلى كولومبيا ، لأنه كأخيه الهولاندى لا يمر ولا على مرسى فى البحر الأحمر ولا عدن .

وغير هذين الوابورين يوجد وابور طليانى يقوم من جنوه فى ٥ الجارى ، لكنه يصل إلى السويس فى ١٢ منه .

فلو كان هذا الوابور يصل إلى السويس فى ١١ لكُنَّا ننزل منه ونركب الوابور الخديوى الذى ميعاده أن يبحر إلى جدة فى ١١ ونستغنى بذلك عن النزول إلى البر .

ولكن مع الأسف هذا الوابور لا يصل إلى جدة إلا فى ١٢ ، ونحن ربما لا نقدر أن ننزل إلى البر . ثم على فرض أننا قدرنا أن ننزل فلا نجد بعد نهار ١٢ مايو وابورات تأخذنا إلى جدة لا خديوية ولا طليانية إلا متأخرة عن ميعاد الحج الذى يوافق ١٩ و ٢٠ مايو .

والحال أن هذا الوابور الطليانى واسمه « كريسبى » يصل إلى السويس فى ١٢ ، فإلى بور سودان فى ١٤ ، فإلى مصوع فى ١٦ ، ويعود نحو جدةً ، فيصل إليها فى ٢١ مايو ، فيكون بعد الحج بيومين . نعم ليس بركوب هذا الوابور خطر

للذهاب إلى الهند ، لأننا إن لم تقدر أن نترل فى السويس نتزل فى بور سودان أو مصوَّع .

فهذه الحالة اضطرتنا أن نبرق لكم أمس ، وإلى أبى الحسن [١] ، وإلى أحمد زكى باشا ، لأجل أن تسعوا مع الأصحاب لدى رئيس النظار بالإذن لنا بالنزول فى السويس ، فيما لو وصلنا على الوابور الهولاندى الذى يكون هناك فى ٨ ، أو الإنكليزى الذى يكون فى ٩ مايو .

وذكرنا فى برقيتنا إلى أبى الحسن أننا راضون فيما لو سمحوا لنا بالنزول فى السويس أن نكون وحدنا ، ولا نخالط أحداً ، وليعملوا المراقبة التى يريدونها ، فنحن لا غرض لنا فى السويس إلا انتظار الوابور الخديوى الذى يقوم فى ١١ مايو إلى جدة ، فيكون فى مرساها فى ١٧ مايو ، أى قبل الحج بيوم .

كان ممكناً أن نذهب فى وابور طليانى يأخذنا إلى مصوع ، ثم يعود إلى جدة فيما لو أبحرنا من هنا منذ أسبوعين ، ولكن كانت علينا أشغال ضرورية فى برلين ، ثم لم نكن نظن أن كل مواعيد معالى ناظر الخارجية ومعالى « النشأة » تذهب سدى . وكنا قلنا لحافظ عفيفى : ليتركونا بالأقل ننزل إلى السويس ، حتى نلقى وابوراً يأخذنا إلى جده . فأجاب وقد انتفض : إيه ؟ إلى هذه الدرجة ؟ لا ينبغى أن يكون لك فكر بذلك أصلا .

أنا الآن منتظر أجوبتكم التلغرافية ، فإن وقع الإذن بالنزول فى السويس — لكن بإصدار أمر خطِّى يركن إليه ، فإنى أركب الباخرةَ الهولاندية التى تصل إلى السويس فى ٨ أو الإنجليزية التى تصل فى ٩ ، وهذا أرجح ، لأن الهولاندية مكتظة لامكان فيها . وعلى كل حال سأبرق من الباخرة .

---

(١) الأستاذ محمد على الطاهر .

وإن بقى الإصرار على بمع هذا الجافى ! شكيب أرسلان ، حتى من النزول في السويس ، ولو بدون أن يخالط أحداً ، فلا يبقى أمامى إلا الذهاب مع الطلياني الذي يصل إلى جدة بعد الحج ، وكان ممكناً أن أعدل عن السفر هذه الحجة وتأجيلها إلى قابل ، ولكن عندى تلغراف من مكة بأن أكون فيها قبل ١٠ مايو ، أى تلغراف تعجيل ، وهذا عدا الأشغال الكثيرة .

مع هذا ترانى منتظراً جوابا برقيا من مكة أيضا . وما من حاجة إلى إبداء أسفى وألمى من رؤية الكبار يشتغلون بأمور كهذه . . . وبدون أدنى سبب من الأسباب والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أخوكم
شكيب أرسلان

جنوه ٢ مايو ١٩٢٩
سيدى الأخ الأستاذ

صباحاً كتبت لك خمسَ صفحات عن قضية السفر وعراقيلها ، والآن عند المساء تلقيت برقية من أبى الحسن يقول فيها : كن مستريحاً ، غداً نجاوبك ، ثم يسأل عن اسم الوابور . فحصل لى فرج بهذا الجواب ، وغداً سأرسل برقية مستعجلة عن اسم الوابور .

ذكرت لى فى أحد مكاتيبك أنك ستنشر الكتاب الذى بعثت به إليك ، فأرجوك إذا نشرته أن لا تذكر قصة الرجل الذى سمَّى ابنه شكيب ، واقترح علينا أن نؤلف كتاباً يطبعه وينفق ثمنه فى تعليم سَمِيِّنا . كلا . .

لا حاجة إلى ذكر هذه القصة ، لأنه يجدها مخجلة له فى نفسه ، وهذا الخجل يخجلنى أنا عنه ، وأما سائر المكتوب فلا بأس بنشره .

المقالة التي تريدون نقلها عن « البيان » هي مني ، وإن أردتم الإشارة إلى كونها مني فلا مانع .

لقد كان لهذه المقالة المفعول اللازم في أمريكة[1] الشمالية والجنوبية ، وأبلست[2] الصحف المسيحية التي لا تزال تشيد بذكر مصطفى كمال وأمان الله بحجة التجدد ! وتنبه المسلمون الغافلون — وأين المسلمون غير الغافلين ! — إلى مقاصد تلك الجرائد التي تدعي الوطنية وحب التجدد ، مثل « مرآة الغرب » و « الإصلاح » . والحقيقة أنهما مسيحيتان وأرثوذكسيتان ، لا يعجبهما هدم الدين إلا إذا كان حنيفاً .

لم أضع الوقت في جنوة ، بل ذهبت أنا والفاضلة مادام فاراجيانا — الذي كان أبوها أستاذ تاريخ ، وقال لها إن أصلهم عرب ، لأنهم من مدينة ليفانتو الصغيرة إلى الشرق من جنوة ، وأصل أهلها عرب — وبحثنا في المكاتب عدة ساعات عن آثار العرب في سواحل إيطالية وفرنسة وجبال الإلب ، ونقلنا نصوصاً كثيرة وأخباراً عن المؤرخين المعاصرين تؤيد ما كنا كتبناه في « المنار » منذ سنوات .

وغداً بعد الظهر سنكمل التفتيش ، لأني إن كنت سأبحر في الوابور الإنكليزي الذي يسافر من نابولي في ٥ الجاري فإني أركب غداً ٣ الجاري مساء أو بعد غد ٤ الجاري صباحاً إلى نابولي ، فأكون في ٥ منه في تلك البلدة ، وعلى كل حال سنبرق لكم من عن ظهر الباخرة إن شاء الله ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أخوك

أبو غالب[3]

---

(١) في الأصل : أمريكا .

(٢) أبلس يئس وتحير ، والمبلس : (بفتح الباء واللام) من لا خير عنده ، أو عنده إبلاس وشر . ويقال : أبلس فلان إذا سكت من يأس .

(٣) أبو غالب : كنية شكيب ، وغالب هو ابن شكيب .

— ١٤ —

الطائف ٣ محرم ١٣٤٨[١] .

سيدى الأخ الأستاذ

تشرفت بكتابك الأخير المرسَل إلىَّ بعد سفرى إلى الحجاز ، وفهمته ، ولن أعمل إلا بإشارتكم . إن الأتعاب والحرارة الزائدة التى رأيتها فى مكة ، ولم أكن تعودت مثلها ، قد أدَّت إلى التياث صحتى ، فبلغت بى الحرارة الدرجة أربعين كما بلغت بكم من قبل .

وعند ذلك فارقت مكة بعد أداء فريضة الحج قاصداً الطائف ، وأنا فى الطائف منذ سبعة عشر يوماً ، ولم أمكث فى الطائف أكثرَ من ثلاثة[٢] أيام حتى رجعت الحرارة إلى حالتها الطبيعية ، وأخذت أتماثل إلى العافية ، كل يوم أحسن من يوم ، ولله الحمد والمنَّة ، وأظن أننى من الآن إلى خمسة عشر يوماً أسترجع قوتى ، وتعود صحتى كما كانت يوم فارقتكم . عند ذلك أسافر قاصداً أوربة .

هذا إلا إذا أذن لنا الإنكليز بالمرور من فلسطين لمشاهدة أخى وسيدتى الوالدة فإن صح هذا الحلم نذهب أولا إلى فلسطين ، ونقيم بها عشرين يوماً أو شهراً ، وأما مسألة هذا الإذن فقد وقع السعى فيها ، ولا نعلم النتيجة بعد . عندما نزلت بجدة كان جلالة الملك أوفد السيد عبد الرحمن القصيبى وجماعةً للسلام علىَّ فى الباخرة ، ثم جئنا إلى جدة نظارة الخارجية حيث عملوا لنا مأدبة حافلة ، وبعد المأدبة تشرفنا بمقابلة جلالة الملك عبد العزيز ، وشاهدنا من الحفاوة ما هو فوق المأمول ، ثم دعانا لنذهب معه إلى مكة ، فركبنا إلى جانبه فى السيارة ، وتحادثنا فى الطريق بأحاديث

---

(١) هذه الرسالة فى ورقتين من الحجم الكبير . كل منهما كتبت منها صفحة وهى من إملاء شكيب . وفى خاتمتها توقيعه بخطه .

(٢) كتبها الكاتب هكذا : ثلثة .

كثيرة ، منها قسم كبير بشأنكم ، فسررت لما أبدى من العواطف نحوكم ، حتى قال لى هذه الجملة : لا يموت وفينا واحد حىّ . وهى جملة تفيد المبالغة فى الحب ووحدة الحال .

وزائد فى القول أن أذكر لكم ما لقيته من اعتنائه والتفاته ، وإن كنت آسفاً لكون هذا المرض لم يسمح لى بمشاهدته كما كنت أتوقع ، فقد تمكنت من ملاقاته والحديث معه فى ثلاثة مجالس ، والآن لى أمل أنه يأتى إلى الرياض قريباً ، فأشاهده أيضاً عدّة مجالس .

والحالة على وجه الإجمال جيدة جداً ، لأن الملك وفق فى الآونة الأخيرة إلى التنكيل بأولئك الذين حاولوا أن يعبثوا فى سلطته اعتماداً على قوتهم ، ولم يبق أثر للمقاومة ، وإن وُجدت لذلك عقابيل هنا أو هناك فهى مؤقتة بحول الله ، لابد أن يقضى عليها ، ولذلك هو يبغى الرجوع إلى نجد من الآن إلى عشرين يوماً . وأظنه فى هذه النوبة ينشر قانونَ المملكة وولاية العهد ، ويعقد البيعة فى ولاية العهد لابنه سعود ، هكذا فهمت منه .

المشروعات العمرانية كل ما هو مفيد منها يقبله الملك ، على شرط أن لا تكون هناك شركات تتعب الحكومة[1] ، ثم إن هناك مشروعات يؤثر التأنى فى شأنها لأسباب سياسية ، وهو على كل إذا استراح باله فى الداخل سيتمم هذه المشروعات الواحد بعد الآخر .

وبالاختصار وجدت منه رجلا نادراً فى الذكاء والمضاء وسرعة اللحظ وسعة الفكر وشدة العزم ، هذا عدا كرم الخُلُق وعلوّ النفس وتقوى الله ، وأقول لا ينقص هذا الرجل إلا استمرار التوفيق ، فنرجو من الله أنه كما وفقه بالماضى

(١) جملة « تتعب الحكومة » أضافها شكيب على الرسالة بخط يده .

بسلسلة توفيقات غريبة يوفقه فى المستقبل ، ويوالى سعوده ويواصل تأييده ، فيكون بذلك للإسلام وللعرب نهضة حقيقية ، لأن هذا الرجل هو الذى يرجى الآن .

لم أكتب إلى أحد منذ دخلت الحجاز ، بسبب الحج أولا ، ثم المرض ثانياً ، وهذا أول مكتوب يصدر منى بعد مجيئى إلى هنا ، وتراه بخط الأخ فوزى بك الذى يقدم تحياته وإخلاصه أيضاً ، لأن الكتابة لا تزال تتعبنى ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أخوكم
شكيب أرسلان

— ١٥ —

الطائف ٢٧ محرم ١٣٤٨ [١] .

سيدى الأخ الأستاذ ، أمتع الله الإسلام بطول بقائه .

تشرفت بورود رقيمك الأخير الذى فيه ما فيه عن الديون والأقساط والنجوم والكواكب . . . وكنت عند وصوله نازلا من هنا إلى مكة لوداع جلالة الملك فى مسيره إلى نجد ، فأجمعت على أن أحادثه فى هذا الأمر ، لأنى شعرت أنك فى مأزم حازب [٢] من الديون التى نشأت عن شراء الدار الجديدة ، بارك الله لك ولذريتك فيها ، فقُبَيْلَ الكلام مع الملك أيده الله ذكرت ذلك لولدنا فؤاد حمزة فقال لى : « انقضى الغرض ، فالسيد عبد الرحمن القصيبى متوجه قريباً إلى مصر ، وسيجرى الحساب مع الأستاذ ، ثم يدفع له دفعةً مهمة ، كما أن الملك قد أمر بأن يُرسَل إليه كتابان جديدان لطبعهما » . فلما سمعت ذلك وجدت الأَوْلَى عدم

---

(١) هذه الرسالة فى ورقتين متصلتين إحداهما مكتوبة من الجهتين ، والأخرى فيها صفحة بيضاء .

(٢) المأزم : المضيق ، ومآزم الأرض : مضايقها ، والأمر الحازب : الشديد .

الـكلام مع الهمام[1] فى هذا الشأن ، لئلا يكون من باب الإلحاح على حين أن المسألة قد تقررت .

أول من أمس أدخلنى الشيبى[2] الـكعبة المشرفة،وصليتُ فيها — إلى كل جهة من جهاتها الأربع — وقد دعوت فيها لنخبة من أصحابى ، لـكنك قبل الجميع أنت وأولادك ثم طفت حول الـكعبة ، ودعوت لـكم ثانية ، فالله تعالى يرحم ويتقبل ، إنه سميع عليم .

من ثلاثة أيام سار الملك ـ رافقته السلامة وصحبه النصر — إلى الرياض ، وقد كانت قافلته ١٣٠ سيارة كهربائية ، تحمل خواصه وحرسه وبعض أثقاله ، وأظن أنه يصل إلى الرياض غداً ، فأما البعوث فقد سارت من كل جهة قاصدة جهات الأحساء للإجهاز على فلول الثوار الذين تجمعوا هناك .

ومن توفيقات هذا الملكَ أدام الله توفيقهَ أنه قبل سفره بيومين جاءته برقيات من البحرين من أمير الأحساء ابن جلوى ، ومن آل القصيبى ، أن العجمان ومن معهم من مطير وجماعة ابن مشهور الشعلان من شيوخ الرولا ، وعددهم نحو ألفين ، هاجموا العوازم وكانوا نحو ألف ، وعندهم سرية أرسلها إليهم ابن جلوى لحمايتهم ، فانتصر العوازم على العصاة ، وهزموهم شر هزيمة ، وأصيب من هؤلاء[3] نحو ستمائة وقتل بضعة عشر شخصاً من شيوخهم ، منهم هذا الخبيث ابن مشهور ابن عم نوزى الشعلان .

فأنت ترى أن النصر سبق الهمام ، وأن هذه الواقعة جاءت متممة لواقعة الأرطاوية ، ولـكن الهمام مصمم على أن يستأصل رؤوس الشر . . : حتى إذا استراح منهم تفرغ

---

(١) يقصد بالهمام عبد العزيز بن سعود .

(٢) هو السيد عبد القادر الشيبى سادن الـكعبة وحامل مفتاحها حينئذ .

(٣) كتبها شكيب هكذا : هئولاء .

إصلاحات بلاده العمرانية ، فإنهم مازالوا يهيجون الشعب باسم الدين ، ويطالبون ابن سعود بتعطيل السيارات والهاتف واللاسلكي والتلغراف إلخ ، لا بل بإعلان تكفير المسلمين جميعاً إلا أهل نجد ، وسد باب جدة فى وجه الحاج [1] ، ولما اعترض عليهم الهمام قائلا : وكيف يعيش أهل مكة بعد ذلك ؟ أجابوه : يرزقنا الله وإياكم .

وبالاختصار إن لم تقتلع هذه الجراثيم القتالة من جراثيم الهمجية لا يتمكن ابن سعود من ترقية البلاد ، فالله يمكنه من نواصيهم .

أنا قد برئت من الوعكة التى كانت أصابتنى ، ولم يبق منها إلا أثر خفيف من الضعف ، لهذا سأقيم بالطائف إلى أواخر يوليو ، ولقد ألح الهمام كثيراً فى بقائى [2] فى الحجاز ، أو إطالة الإقامة ، فاعتذرت بالعائلة ، فأمر باستحضار العائلة إلى الطائف ، فبينت له عدم إمكان ذلك ، لأنى مضطر إلى البقاء فى أوربة من أجل القضية السورية .

وبهذه المناسبة دار حديث طويل ، فأكدت له أنى لا أقبل منصباً رسمياً أياً كان ، ولا سفارة منه فى أوربة ؛ لأن أمر المناصب شىء قد خرج من فكرى من مدة طويلة ، وإنى مع ذلك مستعد أن أخدم العرب وأخدمه بصفتى الشخصية ، وربما أتمكن من الخدمة بهذه الصفة أكثر مما لو كنت سفيراً ، والخلاصة أنه سكت بعد حديثى هذا .

ومنذ عشرة أيام كان الهمام بجدة ، ففى أحد مجالسه الحافلة سأل عن الأخبار ، فروى له سليمان قابل بعض أخبار ، من جملتها مقالات تزيه المؤيد بحقى فى المقطم ، فسمعت ممن حضروا أن الملك غضب غضباً شديداً وقال : من هذا فلان الفلانى ؟

---

(١) الحاج يطلق على المفرد والجمع .

(٢) كتبها شكيب هكذا : بقآءِى .

وايش يكون ؟ إلخ . ثم تلطف بحق هذا العاجز بثناء طويل عريض ، وقال : والله السفارة التي يريدها في أوربة تكون له بشرط أن يرضى .

هذا مايصرح به ابن سعود أمام ٥٠ شخصاً ، بينما الشهبندر[١] بقلم سفيهه نزيه المؤيد ينشر أني جئت إلى الحجاز لأجل أن أكون سفيراً عن ابن سعود في برلين ! يقيسون الناس على أنفسهم بمكانهم من الشغف بالوظائف .

ديوان المرحوم أخي نسيب لا بد قبل طبعه أن أعيد النظر عليه ، ولمَّا أتمكن من ذلك ،وسأجعل اسمه « روض الشقيق » ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أخوك

شكيب أرسلان

١ — أرجوك أن لاتنسى السعى . في ترجمة الفصل الذى أشرت إليه من كتاب ذلك الفرنساوى المترجم فى جيشهم ، وأن تنشر الترجمة فى « المنار » .

(٢) هذا هو كتابى الرابع إليك من الحجاز[٢]

— ١٦ —

الطائف ٤ ربيع الأول ١٣٤٨ [٣]

سيدى الأخ الأستاذ ، أيده الله

تناولت أول من أمس كتابكم رقم ١٣ صفر ، وفهمت مسألةَ القصيبي[٤] ، ولحظت أنه لما لم يجد نفسه قادرا أن يبيض وجهه أمامكم أسرع فى الانسلال ، بدون أن يدفع شيئا ، وهذا لا يؤخر الأمر إلا مؤقتا ، إذ لا بد من دفع جديدة

(١) يقصد عبد الرحمن الشهبندر .

(٢) هاتان الحاشيتان موجودتان فى نهاية الرسالة .

(٣) هذه الرسالة فى ورقتين منفصلتين من الحجم الكبير ، و الأولى مكتوبة من الجهتين ، والأخرى بيضاء من الجهتين .

(٤) عبد الرحمن القصيبي وقد مر ذكره

٢٠٠ جنيه ، غير التى وصلت أخيرا ، وذلك من نفقة الجزء السابع من « المغنى »[1]
ودفعة أخرى ٢٠٠ جنيه للمساعدة على طبع الثامن ، وأما الكتابان الجديدان فقد
أصاب السيد القصيبى فى قوله : لا تطبع شيئا قبل أن تعمل حسابهما ، وتطلب
ومبلغاً سلفاً .

أنا كاتب الآن إلى فؤاد حمزة عتابا له على أمرين : عدم مجاوبته إياكم على كتابكم ، وعدم الاعتناء بالدفع الكافى ، وسأقول له : كل الأمور تتحمل المماطلات والمراجعات إلا أمور الأستاذ ، فهذه يجب أن تنفذ بالحال ، وبدون أن يسأل عليها برهان ، هكذا نزل وجف القلم .

ثم أقول أيضا للأمير فيصل الذى هو عندنا فى الطائف ، وأحصل منه على أمر جازم بتأدية الحقوق غير منقوصة .

كان عندنا كويتب يقول فى معنى كهذا : دفوعات متوالية . لعله جمع الدفع أولا على « دفوع » ، ثم جمع الجمع وقال « دفوعات » ، فنحن لا يشيانا مما نحن فيه إلا « دفوعات متوالية » ، أو دفوعات آخذٌ بعضُها برقاب بعض .

كان مرادى السفر فى ١٥ أغسطس ، لكنى تأخرت عن هذا الميعاد إلى آخر الشهر ، لأنه فى الأيام الأخيرة جاءتنى نوبات كلوية ، لوجود مرض الرمل عندى ، فألمتنى وأضعفتنى ، وأجلت سفرى إلى جمعتين أو ١٠ أيام بعد التاريخ الذى كنت عينته .

وعلى كل حال متى عزمت من جدة فسأبرق لكم قبل الجميع ، ولعلنا نتلاقى فى السويس أو بور سعيد ، لأن الحكومة سمحت بأن ننزل فى السويس ، ونذهب إلى بور سعيد برا ، إذ كان لا يوجد وابور من جدة إلى بور سعيد رأساً .

---

(١) يقصد كتاب « المغنى » فى الفقه تأليف ابن قدامة ، وقد نشره رشيد لحساب ابن سعود .

أما الوالدة والإخوة فإنهم يأتون إلى السويس ، ويرافقوننا إلى بور سعيد ، هذا إن لم تكن مقابلة الوالدة فى فلسطين نفسها ، لأنه برغم الرفض البات المكرر من حكومة فلسطين ، جاءنا تلغراف من الجابرى — الذى هو بلندرة الآن — جوابا على تلغراف أرسلناه بواسطته مشيعاً إلى الخارجية ، وجوابه يقول : انتظروا إفادة جديدة من فلسطين ؛ فظاهر الحال أن الخارجية أعطت أمرا لفلسطين بالسماح ، والله تعالى يسهل لنـــا لقاء الأهل والأحباب ولقاءكم خاصة على أحسن حال ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أخوكم

شكيب ارسلان

— ١٧ —

لوزان ٥ نوفمبر ١٩٢٩ (١)

سيدى الأخ الأستاذ

تناولت رقيمكم (٢) الكريم ، وحمدتُ المولى على صحتكم ، وسُررت بكون الجماعة (٣) فى مكة أرسلوا ٨٠٠ جنيه ، أو ما يقرب منها مما لكم عليهم ، وقد جاءنى مكتوب من فؤاد بك حمزة يخبرنى بذلك ، إلا أنه يقول : إنه مادامت هذه هذه الأزمة موجودة فالأحسن توقيف الطبع موقتاً ، بحيث لا يقع الأستاذ ثانية

---

(١) هذه الرسالة مكتوبة فى ورقتين من الحجم الكبير ، الأولى مكتوبة من الجهتين ، والأخرى من جهة واحدة ، وعلى الرسالة تعليقات بخط رشيد رضا بمداد أحمر ، وسنثبت هذه التعليقات فى مواضعها .

(٢) الخطاب .

(٣) يقصد حكومة ابن سعود التى كانت تطبع كتباً عند رشيد رضا .

فى مثل هذه الضائقة . وأنا جاوبته : إن عندى حلا أحسن من هذا للمشكلة ، وهو أن الأستاذ يستمر فى الطبع كالعادة ، وأنه كلما استحق له شىء يؤدّى إليه بمجرد اطلبه ، وهو الحل الوحيد .

العدد القادم من « المنار » الذى ستظهر فيه مقالتى عن المسيو مونته وترجمته قرآن أرجو أن ترسلوا لى منه نسختين ، حتى أحفظ لنفسى نسخة ، وأبعث نونته بنسخة .

الشيخ أحمد رضا جاء فى مجلة « العرفان » بنتقدنى .

وذلك فى بعض جُمَل ، منها :

« فأنا موافق للشيخ أحمد رضا تجويزه مناولة الطعام ومظاهرة الشعب ، ومخالف لشيخ المنذر فى منعهما ، لا بل متعجب من قول فاضل مثله بعدم جوازهما » فقال أحمد رضا : « والصواب حذف لا ، لأن كليهما حرف عطف ، ولأن بل تفى بالإضراب التام » وأنا أقول : إن مرادى بالجملة هو هذا : أنا موافق للشيخ أحمد رضا على كذا وكذا أو مخالف للمنذر . لا موافق فقط لأحمد رضا ومخالف المنذر ، بل متعجب من قول المنذر بعدم الجواز . وذلك كما لو قلت : أنا مستحسن لهذا الكتاب ، لا بل مغرم به ، أى لا مستحسن فقط بل مغرم به .

فأين الخطأ هنا ؟ .

وقرأت فى كتاب « الصاحبى » لأحمد بن فارس ما يأتى :

« والبصريون يقولون لما كانت « بل » تقع للاضراب ، وكنا نُضرب عن النفى وقعت بعد الإيجاب كوقوعها بعد النفى . و « لا بل » مثلها » .

فهذا صريح بجواز « لا بل »[1] .

(١) علق رشيد رضا هنا بالعبارة التالية : « (لابل) معروف فى كلام العرب وكلام كبار علماء العربية وغيرهم ، ويجعلون العطف ببل و (لا) لردما قبله كما قال ابن هشام ، ولك أن تقول إن الرد لما قبله مطلقا ، وأن تقول لرد ما أوهم من الاقتصار عليه » .

وانتقدنى فى قولى : « فهنا عاطى وناول أيضاً مصرَّحٌ بكل منهما » .

قال يجب أن يقال : مصرَّحاً بكل منهما مثل « هذا بعلى شيخاً »(١) .

وأنا أقول يجوز الوجهان(٢) .

وانتقدنى فى قولى : « وإضافة الشىء إلى نفسه معروفة فى كلام العرب ، وهو مؤول بإضافة المسمى إلى الاسم ومنه طعام الغداء »(٣) .

فاعترض وقال : لا يجوز أن يضاف الشىء إلى نفسه ، وخطَّأ الفراء لقوله بذلك ، مع أننا قد بينَّا له تأويل هذه الإضافة .

وخطَّأ قولى : « فما داموا يقولون : تدارك الأمر ، وتدارك الخطر ، إلخ ، فلماذا لا يقولون : دارك الأمر ، ودارك الخطر » .

فقال أحمد رضا ما يلى عن هذه الجملة :

« فاستعمل ما الظرفية للشرط ، والدليل على ذلك تصديره إياها ، وفصلها عن متعلقها « يقولون » بـ « فلماذا » ، فهى تدل على مدة ، وتتعين هذه المدة بالجملة التى بعدها فالصواب : « فيقولون كذا ماداموا يقولون تدارك الأمر . . » .

---

(١) هذا جزء من آية كريمة هى : « قالت ياويلتا أألد وأنا عجوز ، وهذا بعلى شيخا ، إن هذا الشىء عجيب » سورة هود ، آية ٧٢ .

(٢) علق رشيد هنا بقوله : « نعم يجوز الوجهان ، وقرأ عبد الله ابن مسعود (وهذا بعلى شيخ) بالرفع » .

(٣) علق رشيد هنا بقوله : « الأصل عدم جواز الاسم لما اتحد به فى المعنى ، أو فى اللفظ والمعنى بالأولى كالمترادفين والموصوف وصفته ، وما ورد فى كلام العرب من كلام مؤول عند البصريين ، ولا يجوز القياس عليه ، وأجازه الكوفيون بلا تأويل ، بشرط اختلاف اللفظين ، كبر قمح والحبة الحمقاء ، وظاهر كلام ابن مالك فى باب العلم :

وإن يكونا مفردين فأضف ... حتما ، وإلا أتبع الذى ردف

أنه قياسى ، وأما قوله فى باب الإضافة :

ولا يضاف اسم لما به اتحد ... معنى ، وأول موهما إذا ورد

يحتمل الوجهين ، ولكنه أقرب إلى مذهب البصريين ، وهو من أئمتهم »

والذى أعرفه أن ما الظرفية تستعمل للشرط ، وأتذكر أنى قرأت ذلك فى كتب النحو ، وأنها تجزم أيضاً ، فيقال : ما تكرمْنى أكرمْك [١] .

قصدت أن آخذ رأيك فى هذه المسائل قبل أن أجاوبه — ولو بدون تسمية — ثم أرجو أن ترسل لى « مغنى اللبيب » فى النحو ، إذ ليس عندى هنا كتب نحو ، إلا كتاب سيبويه ، وهو أسلوب آخر كما لا يخفى . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

أخوك

أبو غالب

(١) غالب يقبل يديك .

(٢) سلامى إلى الأخ السيد جميل الرافعى [٢] .

---

(١) علق رشيد هنا بقوله : « (ج) ما الشرطية تكون شرطية بلا شك ، وهى ثابتة فى القرآن وفصيح الكلام ، وهذا منصوص فى كتب النحو ، وأكثرها تمثل له بقوله تعالى : (فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم) ، ولكنهم قالوا إن (ما) فى (مادام كذا) التى تكون بها (مادام) فعلا ناقصا هى مصدرية ظرفية فقط ، كقوله تعالى : (وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا) . ولا يعنون بهذا أن (ما) هنا ظرف زمان بنفسها . وأنها اسم ، وكيف تكون اسما وهى مصدرية ؟ وإنما المراد أن (ما) وصلتها تتأول بالزمان مع المصدر ، وهو فى الآية : (مدة دوامى حياً) .

فالذى ينبغى فى جملته أن يقوم فيها الاستفهام لأن له الصدارة ، بأن تقول : فلماذا لا يقولون كذا مادام يقولون كذا —أو— فما داموا يقولون تدارك الخطر ، ينبغى أن يقولوا دارك الخطر .

وفى هذه العبارة شىء آخر ، وهو إيراد فعل دارك الخطر بمعنى تدارك ، وهذا مالا أعلم فيه نصاً ولا استعمالا لمن يحتج بعربيته ، ، وإنما المعروف « دارك الطعن أى تابعه ، وطعن دارك : متتابع ، كما فى الأساس .

وقالوا تدارك الأمر أو الخطأ واستدركه .

فإذا لم يكن عندك دليل على هذا وذاك فالذى يليق بمقامك العلمى أن ترد على المنتقد ببيان خطئه فيما أخطأ فيه ، وبيان ما فى المسألة الأخيرة فى كلامك من مجاراة لغة الجرائد ، وما فى كلامه من تقصير فى نقدها » .

ثم أضاف رشيد هذه الجملة : « كتب إليه ما هو خير من هذا » .

(٢) هاتان الحاشيتان جاءتا فى آخر الرسالة .

— ١٨ —

الثغر الأعلى ١ يوليو ١٩٣٠(١)

سيدى الأخ الأستاذ

بعد أن نقَّبتُ عن آثار العرب فى جنوبى فرنسة جئت إلى برشلونة ، ومنها حضرت إلى هذه البلدة سرقسطة ، ومن هذه أذهب إلى مادريد ، ومنها أطوف فى كل المدن التى اشتهرت بالعرب من القطر الأندلسى ، ولى أمل بأن تكون رحلتى حاوية أشياء لم تُعْلَم إلى الآن . لا أزال فى انتظار علم وصول ما أرسلت به من ترجمة الأستاذ الإمام على دفعتين ، ثم وصول مكاتيبه فى الدفعة الثالثة ، وإن تكرمت بالجواب فليكن باسمى Poste Restante Madrid

فقد أبقى فى الأندلس شهراً إلى شهر ونصف. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.
وسلامى إلى الأخ السيد عبد الرحمن عاصم .

أخوك

أبو غالب

— ١٩ —

بلنسية ٢٦ أغسطس ١٩٣٠(٢) .

سيدى الأخ الأستاذ ، أيده الله :

أنا أعرف وفرةَ شواغلك دائماً ، ولاسيما فى هذه الأيام التى عندك فيها

---

(١) هذه الرسالة مكتوبة على صفحة من ورقة متوسطة الحجم مكتوب عليها اسم Hotel Universo

(٢) هذه الرسالة مكتوبة فى ثلاث ورقات من الحجم المتوسط ، مكتوب عليها اسم Reina Victoria Hotel وكل منها مكتوب من الجهتين ماعدا الصفحة الأخيرة فهى بيضاء .

«تاريخ الأستاذ الإمام»[1] ، فلست أتقاضاك جواباً ، ولكنى أقول إنى كتبت لك من سرقسطة من نحو شهرين أى فى بدء سياحتى الأندلسية ، وإنى أرسلت إليك بسلام من أشبيلية — أو من غرناطة ، لا أعدت أتذكر — بواسطة صاحب «الشورى» ، وكم تذكرتك فى هذه السياحة ، وكم تمنيت أن نكون فيها معا ، ونتحدث ونتعاطى الأفكار ، إذ أن النفس لا ترتاح إلا إلى من يشاركها فى المنزع ، ومَنْ أقربُ منك إلى وأقرب منى إليك من الجهة الروحية ؟ .

سيكون كتابى إن شاء الله كبيراً على الأندلس ، وربما بلغ جزءين ، وجاء فيه مالا يعرفه العرب حتى الآن . فى المغرب الهندسة العربية والزخرف العربى هو كما كان فى الأندلس . سررت جداً بذلك ، مع أنى لم أشاهد غير طنجة وتطاون ، ولكن فيهما ما فيهما .

المهم الأهم الذى يفوق فى الأهمية كلَّ ما تقدم ، والذى هو موجب تسطيرى هذا المكتوب ، هو قضية تشبث فرنسة بإخراج البربر من الإسلام ، وأخذها ظهيراً من السلطان الولد — بعد أن فشلت مراراً فى أخذه من والده — بعدم معاملتهم بالشريعة الإسلامية ، ورفع قضاة الشرع من بينهم ، ومنع تعليمهم العقيدة الإسلامية واللغة العربية ، والحركة مشتدة فى المغرب بهذا السبب .

ولقد كتبت بهذه المسألة كتاباً وافياً إلى الأخ عبد الحميد بك سعيد ، لأنه بعث لى بمكتوب شكر عن قرار مؤتمر جمعيات الشبان المسلمين ، فجاوبته بما يجب أن تقوم به هذه الجمعيات من الاحتجاجات لأجل هذه المسألة التى تضاهى مسألة تركية فى تشبث مصطفى كمال بإخراج الترك من الإسلام ، ونظراً لضيق وقتى ووفرة وجائبى[2] لا أرانى قادراً أن أستوفى هذا البحث بمكتوب آخر ، لا سيما أنى كتبت

---

(١) كتاب لرشيد رضا فى ترجمة الشيخ محمد عبده .
(٢) الوجائب . جمع وجيبة ، وهى الوظيفة .

أيضاً مقالة فيه مختصرة إلى « الشورى » ، فلذلك طابت من عبد الحميد بك سعيد أن يطلعكم على مكتوبى هذا إليه ، وأرجو أن تسألوه أنتم عنه ، بحيث إذا كتبتم فى « المنار » تكونون مطلعين على ما حصل بالتمام .

هذه المسألة دواؤها حملة عامة من الجرائد الإسلامية أشبه بحملتها على مؤتمر تنصير المسلمين الذى انعقد منذ سنوات فى فلسطين ، هذا مع الاحتجاجات إلى فرنسة نفسها وإلى جمعية الأمم ، ومخاطبة سفير فرنسة بمصر فى ذلك ، فإن المسائل الدينية لا يقال فيها : هذه مسائل داخلية لا تعنى سوانا .

انظروا كيف احتجت جميع الأمم على اضطهاد البلاشفة للكنيسة .

ولابأس بأن يستجلب نظر الحكومة الإفرنسية إلى سياسة مقيمها العام بالمغرب المبنية على إخراج البربر من الإسلام ، وأن هذا التعرض للأمور الدينية مخالف للمعهود من أوضاع الحكومة الجمهورية الإفرنسية .

لا بأس أن نوهم أن هذه السياسة هى منه، وإن كان الواقع أنهم جميعا مشتركون فيها ، وأنه (مواليا) يريدون أن يفنوه من ٤٠ سنة ، ومن زمن الكردينال لافيجرى . ولكن مما لا شك فيه أن المسيوسان هذا المقيم العام هو كاثوليكى متعصب ، وأن امرأته أشد تعصباً منه ، ولهما علاقة بالفاتيكان .

وقد تحققنا من مصدر اسبانيولى أن للفاتيكان مدخلا بقضية البربر والتمهيد لتنصيرهم ، بناء على أنهم كانوا نصارى فى الأصل — هذا يصح عن بعض البربر فقط — وأن الفاتيكان واعد بالمكاتب والمدارس والمصاريف اللازمة للعمل .

ومما يؤسف له أن علماء المغرب لم يتحرك منهم أحد ، بل منهم من يُفْتى الفرنسيس بما يريدون ، ويلوم الشبان على قيامهم بالمعارضة مثل قاضى فاس ومثل الوزير المقرى ، فينبغى التشهير بهؤلاء الوزراء والعلماء الذين هم « قسيسون فى زى علماء إسلام » ،وأنتم أدرى بما يجب بحقهم .

مكتوبى إلى عبد الحميد بك سعيد فيه كل شىء ، فأرجو أن تقرأوه ، وأهم من ذلك أن تفسحوا فى « المنار » عدة صحائف لهذه المسألة الجلى .

ليس عندى نسخة من باكورتى[١] فى لوزان ، وأظن وجود نسخة فى الشويفات ، فأطلبها وأبعث بها إليك .

البيتان الميميان من قصيدتى للسيد جمال الدين أظنهما هذين :

ياجمالَ الإسلام ، والإسلامُ صدّه عن هوى الجمال الملامُ
مثلما أنت فى الحياة ، وإلا فحياة الفتى عليه حرام

عندما أعود إلى لوزان أرسلْ لى مكاتيبَ المرحوم الأستاذ[٢] ، مع إشارة إلى ما تريد أن يُنشَر منها ، وأنا أنظر فى موافقة ذلك ، ثم أبعث إليك بالباقى منها مع الإشارة إلى ذلك ، على أنى أنا ضربت بخط على القسم الذى يجوز نشره من المكاتيب التى بعثت بها إليك ، فراجع ذلك .

لا يزال عندى كلام على الأستاذ ، لكننى لا أقدر أن أعرفه إلا إذا اطلعت على الكراريس المطبوعة ، فحينئذ أعرف ما حررته ، وماذا يجب أن أحرره بعد ، لأنى إن لم أراجع قد أنسى ما أسلفته ، فأعيد بعض الكلام مرتين .

وأسأل الله أن يطيل حياتك ، ويشد بك أزر المسلمين ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

أخوك

شكيب أرسلان

(١) ذكرناك كثيرا فى مجالسنا بطنجة وتطاون .

بعد حفلة عملت لنا بتطاون حضرها ٢٠٠ شخص وعندما لم يبق فى الحفل

---

(١) ديوان شكيب الأول ، وقد تحدثنا عنه .
(٢) يقصد الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده .

إلا مسلمون ألقوا علىّ أسئلة كثيرة ، أكثرها عن جزيرة العرب وعن ابن سعود ، وقد جاوبت بحسب ما أعلم ، وما أنا معتقد ، وبالإجمال كانوا مسرورين من الأجوبة وقالوا : نحن نعلم أنك لا تقول إلا ما تعتقد (١) .

— ٢٠ —

بانسية ٢٧ أغسطس ١٩٣٠ (٢)

سيدى الأخ الأستاذ ، أمتع الله الإسلامَ بطول حياته

كتبت لك أمس ، ولكنى نسيت شيئا : للبيتنونى رحلة إلى الأندلس ، ولأحمد زكى باشا كتاب اسمه « السفر إلى المؤتمر » وهو كتاب رحلته إلى أسبانية .

كلا الكتابين لازم لى ، لأنى بمجرد وصولى إلى لوزان إن شاء الله سأكمل كتاب رحلتى إلى الحجاز ، ثم أباشر « بالحلة السندسية فى الرحلة الأندلسية » .

وقد كتبت إلى أبى حسن الشورى ليرسل لى رحلة البيتنونى ، وسيفعل بدون شك . ومن كأبى حسن لكل قضية ؟ .

ولكنى لم أكلفه إرسالَ رحلة أحمد زكى باشا ، لأنه من شدة غيظه منه يجوز أن لا يرسلها ، وقد يغتاظ منى ، لأنى كلفته إرسالها لى ، كذلك لم أكتب بشأنها إلى الأستاذ الباشا لأنه غضبان علىّ من أجل عدم عداوتى لأبى الحسن ، وقد كتبت إليه مرتين ، ولم يشأ أن يجاوبنى إشعارا بالغضب .

مع أنى كم وكم كتبت إلى صاحب « الشورى » أصلحه الله من أجل إصلاح قضيته مع أحمد زكى باشا . وقد لاحت له فرصة بدفاع أحمد زكى باشا عن البراق . وصاحب الشورى يقول إنه يغفر كل شىء لمن يدافع عن فلسطين، لكنه مُصِرٌّ على عداوة الباشا ، حتى لو طرد اليهود من فلسطين ! .

فلذلك أرجو أن تسألوا لى خاطر الأخ الحبيب السيد عبد الرحمن عاصم ،

(١) هذه الحاشية جاءت فى ذيل الرسالة .

(٢) هذه الرسالة مكتوبة فى ورقتين كأوراق الرسالة السابقة تماما ، والصفحة الأخيرة بيضاء

ونشيروا إليه بأن يتكرم بإرسال هذين الكتابين إليّ ، وأن يسأل صاحب الشورى قبل ذلك عما إذا كان أرسل إلى لوزان رحلةَ البيتنونى فلا يرسلها هو حينئذ ، ويقتصر على إرسال رحلة أحمد زكى باشا .

من جملة أغلاط صاحب « الشورى » أنه لما اختلف حبيب الزحلاوى مع الشهبندر ولطف الله قام فضرب الفريقين معا ، وكرر ضربهما معا كأنما يدعوهما بذلك إلى التصافى ، فكتبت إليه : يا أبا الحسن ، أنا لا أتدخل فيما لا يخصنى ، ولكن من باب الرأى أقول لك : إذا اختلف عدوان لك فلا تشمتهما بالطعن حتى يريا أن الرجوع إلى الوفاق أصلح لهما ، بل اجتهد فى استجلاب أحدهما صوبك ، فإن السياسة تقضى بذلك ، وبديهى أن الذى يُختار استجلابه هو أخف العدوين المختلفين ضررا ، فأخفهما ضررا الآن هو الزحلاوى ، فكان ينبغى أن تُظهر الميلَ له ، وأن تصالحه وتنتصر له ، فكنت تنال منه معلومات وربما وثائق تستظهر بها على الآخرين ، وهذه هى الحكمة .

فلم يعمل بشىء من هذا ، وبقى يضرب الفريقين المتخاصمين معاً ، ولا يسمع رأينا ، والله يهديه إلى الصواب .

أنا أرى أن ابن أخيك السيد محيي الدين [1] قد عاد إلى مباديك ، والأصل عون كما يقال ، وكيف لا يعود إليها من هو من « آل الرضا » ، وقد أرسل لى بجريدته وشكرته وشجعته وهنأته . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

أخوك: شكيب أرسلان

(١) اليوم أبحر إلى جزيرة ميورقة ، وأبقى خمسةَ أيام ، وأعود إلى بلنسية ، ثم أذهب إلى مجريط ، ثم أعود إلى سويسرة فى ١٠ سبتمبر ، وقد أنهيت هذه الرحلة [2] .

---

(١) الأستاذ محيى الدين رضا .

(٢) هذه الحاشية موجودة فى ذيل الرسالة .

— ٢١ —

لوزان ٣٠ أكطوبر[1]

سيدى الأخ الأستاذ

إنى ألقى إلىّ كتابك الأول ثم الثانى ، وسأجاوبك عليهما . أردت أن أكتب جوابا لبسيونى عمران عن المدنية الإسلامية ، وظننت أنه يكون صفحتين أو ثلاثا للمنار ، فما زال يطول حتى جاء ٣٩ صفحة ، فالآن الرأى لك : إن شئت تنشر هذه الرسالة بشكل كراسة ، وتنقلها إلى « المنار » على ثلاثة أعداد متتابعة فذلك لك . وإن شئت أن تنشرها أولا فى المنار فى عددين ، ثم تجعلها كراسة لأجل بيعها على حدة ، تخرج منها ١٥٠٠ نسخة ، وتباع النسخة بخمسة غروش أو ثلاثة غروش ، فالإرادة لك ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

أخوك

شكيب أرسلان

١ — أخى عادل يسأل الخاطر ، ومن باريز ولدنا الأجل أحمد بلافريج يسأل الخاطر ، وولدى محمد غالب يقبل أيديك[2] .

٢ نوفمبر

سيدى الأخ الأستاذ ، أطال الله عمره

أرسلت إليك بالرسالة « كيف تأخر المسلمون وتقدم غيرهم » ، وخيرتك بين طبعها على حدة ونقلها إلى المنار فيما بعد ، أو طبعها فى المنار أولا ، ثم جمعها رسالة تالياً ، ولم أزل تاركاً الأمر لك . إلا أنى بعد أن تأملت فى حجم المنار ومواده

---

(١) هذه الرسالة مكتوبة فى ٣٠ أكتوبر ١٩٣٠ على صفحة من ورقة كبيرة الحجم ، وتليها رسالة بتاريخ ٢ نوفمبر ١٩٣٠ جعلناها ملحقة بالأولى لأنهما أرسلتا معا فى ظرف واحد .

(٢) هذه الحاشية جاءت فى ذيل الرسالة .

رأيت أنه لا يمكن استيعابها إلا في ثلاثة أعداد . لذلك أرى الأحسن طبعها أولاً على حدة ، وبعد ذلك نقلها إلى المنار تباعاً ، أو نقل بعض فقر منها ، والأمر لكم .

أرجو إضافةَ الجمل الواصلة في الورقة التي عليه ، وقد ذكرتُ الأماكنَ التي ينبغي وضعها فيها ، وأنتم أدرى بالمحمة . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أخوكم

شكيب أرسلان [١]

— ٢٢ —

لوزان ٩ نوفمبر ١٩٣٠ [٢]

سيدى الأخ الأستاذ أيده الله

أخذت رقائمك الأخيرة كلها ، ولم يؤخر جوابى إلى الآن إلا كثرةُ ما أريد أن أقول ، وانتظار نُدْحة [٣] كافية للكتابة ، والحال أن الأشغال لا تمهلنى أن أتنفّس ، ولولا أن الله يَمُنّ بالقوة ما كان يمكننى أن أقوم بذلك وحدى . ولولا ضعف العينين لا أشكو هذه المدة من شيء ، لكن وفرة الكتابة تضطرنى إلى غسل عيونى « بالبابونج » الحار ثلاثَ مرات في النهار ، والحمد لله على كل حال .

أرسلت إليك منذ ٩ أيام رسالة « لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم » ، وبعد ذلك بثلاثة أيام مكتوباً فيه بعض جمل ينبغى إلحاقها بالرسالة في مواضع معلومة دللت عليها ، وأنا الآن منتظر رأيك بشأن طبع هذه الرسالة .

ذكرت أنك في هذا الصيف كنت تريد أن تقوم برحلة صيفية وأن نتلاقى ،

---

(١) كتب شكيب تحت التوقيع هذه العبارة : « ولكن تاريخ تحريرها ٢ نوفمبر » !.

(٢) هذه الرسالة مكتوبة في أربع ورقات من الحجم الكبير ، وكل منها مكتوبة من الجهتين ، ماعدا الأخيرة ففيها صفحة بيضاء .

(٣) الندحة: الكثرة والسعة .

ولكن ذكرت موانع، منها عدم تيسر المال، فعسى أن يتيسر المال في الصيف القادم ونتلاقى، فإني أيها الأخ مزمع العودة إلى الأندلس في أكطوبر (1) القادم، حيث يوافيني من تطاون صديقي الحاج عبد السلام بنونة ورهط من المغاربة، لأنه فاتتني أشياء لا بد من أن أراها: أشياء في نفس غرناطة وفي مدن أخرى، وفاتني أن أزور المرية ووادي آش وبلش مالقة و[illegible] جزيرة.

ثم إني لم أشاهد الغرب، أي بطليوس وبلاد البرتغال، فهذه كان فيها العرب كما كانوا في سائر الأندلس، ولا بد لي من مشاهدتها. وسأبدأ بغرناطة، حيث يوافيني الحاج بنونة (2)، وهذه المرة يريد الحزب العربي من الإسبانيول في غرناطة أن يتعرفوا إلي ويدوروا معي، لأنهم لما مررت من هنالك لم يعرفوا الخبر إلا بعد أن سافرت، فأسفوا وقالوا ذلك للحاج عبد السلام الذي ذهب من أيام قلائل بأشغال خاصة إلى غرناطة.

فإن كنت تجد رفيقاً فتوكل على الله، ووافني إلى غرناطة، وإن لم يوافقك أكطوبر فعين شهراً آخر، لكن لا يكون قبل يوليو. أما المال وما أدراك ما هو فقد كلفتني سياحتي إلى الأندلس وبعض المغرب ٣٠٠ جنيه، واستمرت ثلاثة أشهر، وقد اقترضت الدراهم من الدكتور بيضا، وكان علي دين قبل ذلك ستمائة جنيه ديناً، فصار علي الآن ٨٠٠ جنيه.

لكني ما سررت في حياتي بسياحة سروري بهذه السياحة، برغم التذكارات المحزنة المؤلمة التي كانت تشوب سروري، وكان ينفق لما أتى جنيه على قلبي بالعيش.

(1) هكذا في الأصل.

(2) هو الحاج عبد السلام بنونة الذي يسميه شكيب «ذخيرة المغرب» وقد رثاه شكيب بقصيدة مشهورة في ديوانه، ص ٦٠٨.

أشكركم كثيراً على إرسال البيتوني (١) ورحلة أحمد زكي باشا، فقد رأيت في كلتيهما أشياء كثيرة مفيدة، جزاك الله أفضل الجزاء عن اعتنائك بحويجاتي هذه مع استغراقك في أشغالك الكثيرة

الذى عملتموه فى قضية البرابر كنت أنا أنتظره منكم ومن عبد الحميد بك سعيد الذى هو فى هذا المعنى من أفذاذ الإسلام ، لكن الذى ظهر هذه المرة من أهل مصر يوجب والله السرور ويحيي الأمل ، ولولا كما ما كانت هذه الحركة ، وما اشتدت وما امتدت ، ولا انتعش بها أهل المغرب أنفسهم ، فإنه مما يلزم أن يعلم أن نشاط المغاربة تضاعف مراراً بالحركة التى جرت فى مصر ، والتى أنتم وعبد الحميد بك سعيد الأصل فيها .

وسياسة فرنسة هذه قديمة فى المغرب ، مر عليها عشرات من السنين ، والمسلمون يسمعون ويبصرون ، وهم ساكتون خانعون ، ودول الإسلام تدارى فرنسة وتسكت ، وكلما تمادى سكوت المسلمين اشتد طمع الفرنسيس فى نجاح سياسة التنصير ، حتى كانوا يظنون أنهم ينصّرون الناس علناً ولا أحد يجرأ أن ينبس بكلمة .

فالحركة التى جرت هذه المرة سواء فى المغرب أو فى المشرق من أجل قضية عمل فرنسة لتنصير البرابر قد أدهشت فرنسة التى لم تكن تنتظر شيئاً منها ، وكانت تظن أن مجرد هيبتها يكفى لإبلاس المسلمين ساكتين ، ولو مدت يدها إلى دينهم . نعم هى الآن لم ترجع عن قرارها ، ولا يزال الانتقام من القائمين بالحركة جارياً ، لكن قد عرفت فى نفسها أن المسلمين لم يموتوا ، وأنهم لا يهابونها إلى الحد الذى كانت تتصوره . ولم يشق عليها إحباط سياسة التنصير كما شق عليها جرأة الناس على مخاصمتها بالمغرب علناً ، وكما شق عليها هذا التكافل بين المغرب والمشرق .

ولكن مما لا ينبغى أن ننساه أن هؤلاء المنافقين ، بل المرتدين مثل المقرى

---

(٧) يقصد رحلة البتانونى إلى الحج .

والبغدادى وأضرابهما هم الذين جرأوا فرنسة على التمسك بسياستها هذه ، وهؤلاء يجب على المغاربة أن يؤدبوهم . هؤلاء أشبه بحقى العظم وتاج الدين وأشباههما فى سورية ، وقد يكونون أشنع ، فَلَوْلَا نفرَ من كل وطن من أوطاننا فئة لتأديب خونتها لما كانت دول الاستعمار تجرأ على ما تجرأ عليه الآن .

طلبة المغرب فى باريز يعملون . ولكن عملهم شاق ، لأن الفرنسيس فى هذه المسألة متماثلون حفظاً لشرف فرنسة ، فإن الراديكال والسوسياليست لا يهمهم التنصير ، لكنهم يربأون بدولة فرنسة أن ينسب إليها التعرض للأديان ، ويرون فى تنديدهم بهذه السياسة إقراراً بالفعل ، فتجدهم ساكتين هم وجرائدهم .

نعم بعض زعماء السوسياليست فى المجلس وعدنى بأنه يتكلم فيه بعض كلمات عن هذه القضية ، ولم يعدنى بذلك إلا من بعد أن كتبت مكتوبين كل واحد منهما ٣٠ صفحة ، ثم تحقق هو أهميـة المسألة من مصادر أخرى ، وجاوبنى أنه قد أيقن بالذى قلته له . ولكن الطلبة فى باريز حاولوا نشر مقالات فى صحف الراديكال فلم ينشروها لهم ، وعمدوا إلى جمع دراهم لينشروا ما يريدونه ، وأنا كتبت إلى من أعتمد عليه فى المغرب بأنهم إن أرادوا نجاح مساعيهم فليرسلوا إعانات فى السر إلى جمعية الطلبة بباريز ، ولا يتم شىء بدون دراهم .

وعسى أن تكون هذه الحادثة سبباً لانتباه المسلمين إلى صيانة دينهم ، فإنهم كانوا قد خسروا ممالكهم وأراضيهم ، وسكتوا مقتنعين بأن المستعمرين يتركونهم مسلمين وهذا أهون الشرين ، ونسوا أن الذى ليست له دنيا ليس له دين ، وكان المستعمرون بثوا دعاية كاذبة بين المسلمين تلقاها كثير من المسلمين بالقبول ، وساعد على رواجها المسلمون الجغرافيون والصحف الملاحدة ، وهى أن أوربة لا تبالى بالدين ولا يهمها الدين ، وقد تجرأ بعض المسلمين الجغرافيين على ادعاء أن الاستعمار نفسه ليس بسياسة أوربة ، وإنما هو سياسة بعض شركات تجارية وبعض أفراد هم أقلية فى أوربة .

وفى بيان للشهبندر[1] نشره فى العام الماضى يزعم فيه هذا الزعم الكاذب بالصراحة ، ويقول إن هذه الأقلية « هى التى شوهت سمعة أوربة » ، وتجاهل هذا الخبيث السريرة أنه ما من بلد استولت عليه أوربة من بلدان الإسلام إلا بحرب أو احتلال تقررت مصاريفهما فى المجالس النيابية برأى الجميع إلا السوسياليست أو بعض السوسياليست ، وأن كل الجيوش التى سيقت لقمع الثورات وإدامة الحكم الأوربى تقرر سوقها والإنفاق عليها بإجماع هاتيك الأمم ونداء نوابها وصخب صحفها .

فهذا الخبيث الذى يجعله بعضُ العميان من زعماء سورية مجتهد فى تضايل أفكار المسلمين ، وإقناعهم بأن السواد الأعظم من الأوربيين ليس عندهم إلا العدل والمساواة ، وأن ما يبدو من الأوربيين أحياناً من هضم الشرقيين إن هو إلا عمل أقلية ! وكذلك هـذا وأمثاله يروجون دعاية أن أوربة نبذت كل دعوة دينية ، فالمسلمون لا يفلحون إلا إذا نبذوا المبادئ الدينيـة . وأنت ترى أن جميع دول أوربة مسيحية متعصبة مفتخرة بنصرانيتها ، فالدعاية التى يقوم بها الأنقريون ، وفى بلاد العرب أمثال طه حسين وهيكل والشهبندر وأضرابهم هى مكابرة فى المحسوس ، والمقصود منها أن يأفكوا المسلمين عن دينهم[2] ؛ وبذلك يزدادون ضعفاً ، لأنه لم يبق لهم سوى هذه القوة المعنوية .

أما حادثة البربر فقد كشفت الغطاء ، وقصرت حجة هذه الفئة الخبيثة ، وأنشأت يقظة عظيمة لابد أن تزداد بتوالى الأيام .

وهنا محل لأن نتكلم فى رسالة « الصلب والفداء »[3] ، فهذه ينبغى أن يُطبع منها عشرات ألوف من النسخ ، وتوزع ولو سرًّا فى المغرب والجزائر وتونس

---

(١) عبد الرحمن الشهبندر .

(٢) أى يصرفوهم عن دينهم .

(٣) هذا أحد كتب رشيد رضا .

وطرابلس ، ويرسل منها مع القوافل إلى السودان ، وتنبكتو ، والسينغال ، وزنجبار ، والصومال ، والحبشة ، والهند ، وأن تترجم بالأوردية وتنشر فى الهند ، ثم تنشر باللغة الصينية التى ترجمت إليها ، ثم تترجم إلى اللغة التركية — الشيخ عبد الرشيد هو أقدر الناس على ترجمتها — وتوزع أيضاً فى تركية والتركستان الروسى وبين مسلمى البلقان .

ولكن هذا كله يلزم له دراهم ، فأنا حاضر أن أكتب إلى جمعية الشبان المسلمين أن يجمعوا لهذه الرسالة ونفقات طبعها وترجمتها وتوزيعها مبلغاً بالاكتتاب ، وباستعانة الكبراء مثل الأمراء عمر طوسون ، ويوسف كمال ، ووالدة الخديوى ، وكمال الدين ، وموسرى المسلمين بمصر ، فلو دفع كل منهم ١٠٠ جنيه فقط لاجتمع ما يطبع من هذه الرسالة ١٠٠ ألف نسخة ، لكن يلزم أن عبد الحميد بك ، والشيخ عبدالوهاب النجار ، والدرديرى[١] ، والغمراوى ، وأمثالهم من أسود الإسلام يطوفون هم على هؤلاء الأغنياء بأنفسهم ، ويذكرون لهم مسيسَ الحاجة إلى نشر هذه الكتب لدفع شبه القسوس ودعاة النصرانية التى ملأت العالم الإسلامى .

وبعد ذلك أنا حاضر أن أكتب إلى الملك ابن سعود ليتبرع بشىء ، وأن أكتب إلى الإمام يحيى ليتبرع بشىء برغم الحزم ... الذى اتصف به ، وأن أكتب إلى جمعية « الجامعة الإسلامية » فى الأرجنتين أن تبعث شيئاً بعد أن تكون تلقت بعض نسخ من الرسالة .

هذا ما أقدر أن أعمله ، فإن راقك هذا الرأى فجاوبنى ، حتى نكتب إلى جمعية الشبان المسلمين فى المشروع ، وليكن ذلك بدون ضوضاء ، وإن طُلب منك محاضرة فى إحدى جلسات الجمعية عن تراجم هذه الرسالة ونفقاتها ونفقات طبعها والأسباب

---

(١) الدرديرى هو المرحوم الدكتور يحيى أحمد الدرديرى ، والغمراوى هو الأستاذ محمد أحمد الغمراوى ، وهما من رجال جمعية الشبان المسلمين .

الداعية إلى ذلك ، فأنت ممن يقنع الصم البكم ، وسبب مزيتك العليا بين العلماء المتشرعين جمعك بين العقل والنقل ، فعندك من سداد المنطق وقوة الحجة ما يندر في الدنيا ، ثم عندك الاطلاع الواسع على الأحكام والمذاهب ، وما قيل في كل مسألة ، فذلك يقرأ غيرك ولا يستفيد ، ولا يفيد ، ولا يعرف أن يستثمر النصوص لمصلحة الإسلام ، لأنهم لا يفهمون منها ما تفهمه أنت ، فهم يقرأون ما تقرأ ، ولكن لا يفهمون ما تفهم بسبب سعة الفكر التي عندك وقوة البرهان التي تميزت بها . وأنا وأمثالي قد يكون عندنا من قوة الحجة شيء ، ولكن تفوتنا النصوص وأقوال الأئمة ومذاهب القوم .

أما مسألة الكتابة إلى الملك بشأن قضية البربر ، فإني بعد أن قفلت من طنجة وجئت إلى الأندلس كتبت من مرسية ، وهي أول مرة ، تلخيص المسألة إلى فؤاد حمزة ، وذكرت له أيضاً أن جماعة المسلمين بتطاون ، وكانوا ٢٠٠ رجل من أعيان البلد ، بعد أن خلا الاحتفال الذي عملوه لي من الأجانب ، سألوني عن أمور كثيرة تتعلق بالعالم الإسلامي وبتركية وغيرها ، وكان نصيب كبير من الأسئلة عن حكم ابن سعود وعقيدة النجديين ، وكيف ينظرون إلى سائر المسلمين ، وقد جاوبناهم بواقع الحال ، واطمأنت أفكارهم ، ومما لا جدال فيه أنهم بغاية السرور من حالة الأمن التي آل إليها الحجاز بفضل الله ثم بفضل ابن سعود .

ثم إننا لحظنا أنه يجب على الملك ديناً وسياسة مدّ اليد إلى القضية البربرية ، لأنها مسألة دينية إسلامية من حقه التدخل فيها ، ولأنه يجب أن تفهم فرنسة أنه إذا كانت الدولة العثمانية قد ذهبت فلا يزال للاسلام ملوك يسألون عنه ، فكتبت من هنا كتاباً إلى الملك رأساً ، وقد كان كتابي هذا جواباً لجلالته على كتاب بخط يده تكرم به لي لحصول وشاية كانت بلغتني ، وانكسر لها قلبي كثيراً ، والحال أن الملك لم يعلم بشيء منها ، فأراد من كرم أخلاقه أن يطيب قلبي ، ويثبت لي عدم

جرأة أحد على الوشي بحق لديه ، فاغتنمت هذه الفرصة لأذكر له أموراً كثيرة ، منها اتحاد العرب ووجوهه، وأنواع الاتحاد الممكنة ، ومنها رغبة أهل العراق الشديدة في الاتحاد مع نجد والحجاز لأسباب ذكرتها له ، ومنها لزوم التحالف مع الإمام يحيى ، حتى إذا طرأ طارىء على إمارة الإدريسي من الخارج يكون الدفاع واجباً على الاثنين ، وأن يتحالفا تحالفاً عسكرياً من كل جهة ، ومنها استلزام الحالة السياسية العمومية إعداد الاتحاد العربي ، لأنه قد صار من المقرر الآن كون الحرب آتية لا ريب فيها ، ولو بعد ١٠ أو ١٥ سنة ، فيجب أن يكون العرب حاضرين . .

وذكرت له أنه في ذلك الوقت ينبغي الزحف بدون تردد صوب المحل الذي يشير بعضهم بإرسال ولده إليه راضياً بالانتداب وبسيطرة الأجنبي . . . وفي الآخر طلبت منه التوسط في قضية البربر ، ولم أكن أعلم بأنه قرر معكم كتابة مكتوب إلى رئيس جمهورية فرنسة ، فقلت له : إما أن يكتب إلى حكومة فرنسة ، أو يبلغ معتمدها بجدة ليكتب إلى حكومته عن لسان الملك .

والآن بعد أن عرفت أنه كان قرر إرسال المكتوب سأكتب إلى فؤاد [1] بأن يعرض له أن تحرير كتاب إلى رئيس الجمهورية يكون أوقع نظراً لأهمية الحادثة .

هذا ومن نحو شهرين كنت كتبت إلى الإمام يحيى بموضوع البربر ، والتمست منه الكتابة إلى فرنسة بواسطة جيبوتي . هذا ما جرى ، ولن نسكت عن مقاومة مساعي التنصير في كل محل تظهر فيه آثاره .

أريد قبل الابتداء بالرحلة الأندلسية التي لم أكتب منها إلا مفكرات وإنما جمعت موادها ، أن أختم رحلتي إلى الحجاز ، فإنه لا يزال عليّ منها نحو ٥٠ أو ٦٠

---

(١) يقصد فؤاد حمزة .

صفحة من قطع هذه الورقة ، وسأ كتب فى أولها كلمتين بحق ابن سعود الذى فى أيامه امتد على الحجاز رواق الأمن ، فقد كتبت إلى صاحب « الشورى » بأن يجمع المقالات بالترتيب الواحدة بعد الأخرى ، ويقدمها لك لتطبع كتاباً مجموعاً ، لكنى أريد أن أطالع كل كراس قبل طبعه الأخير ، لا لعدم الاعتماد على تصحيحكم ، فأنتم تصححون للمؤلف لا غلط الطبع فقط ، بل غلط الأصل أيضاً ، وإنما يبدو لى إلحاق بعض جمل وحذف أخرى ، وهذا عائد لى ، أما مسودات الطبع النهائى فحسبها رقيبها قلمكم .

بقى أن تفيدونى كلفة طبع « الارتسامات اللطاف فى خاطر الحاج إلى أقدس مطاف » .

أما قصيدتى الأندلسية [1] فإذا اعتزمتم طبعها فى « المنار » فأفيدونى ذلك حتى تعلق عليها تعريفاً وجيزاً بالأشخاص والوقائع التى ذكرت فيها .

مجلتنا الإفرنسية العبارة كان أصل الرأى فيها لإحسان قائلا إن العدد لا يكلف أكثر من ١٢ جنيهاً ، فعندما دخلنا فى العمل كلف ٤٠ و ٤٥ جنيهاً ، فغرمنا عليها أنا وإياه تسعة آلاف فرنك سويسرى إلى اليوم ، أى ٣٥٠ جنيهاً . ولا بد لنا حفظاً لشرفنا أن نكمل إصدارها إلى مارس لتتم لها سنة فنغرم ٥٠٠ جنيه . وكل الذى ورد إلى الآن من بدلات اشتراك ومساعدات يبلغ ١٠٠ جنيه ، فينكسر ٤٠٠ على كل واحد ٢٠٠ جنيه ، ولكننا نوقف مع الأسف إصدارها ، وفى ذلك من شماتة الفرنسيس واليهود ما فيه ، فضلا عن شماتة الحساد والوطنيين الكذبة ، ولكن لا نقدر بمكاننا هنا أن نتحمل جميع نفقات هذه المجلة ، على حين أن ألف بدل اشتراك بنصف جنيه يكفيها . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أخوك

شكيب أرسلان

---

(١) هذه القصيدة منشورة بعنوان: « ذكرى الأندلس » فى ديوان شكيب ، ص ١٢٣ .

(١) طالعنا مكتوب محمد باشا الحلبى . أرجو أن تكتبوا له أننا كتبنا إلى أمريكة لعدة مراكز من أجل إعانتهم على السواء ، وعدم تخصيص سلطان الأطرش وسنكتب إلى مراكز أخرى .

(٢) ذكرت لك من قبل أن مكاتيب الأستاذ الإمام لى قد وضعت أنا علامة على الجمل التى يجب حذفها منها ، وهو خط عرضى ظاهر . ثم لا يزال عندى سبعة أو ثمانية مكاتيب أخرى من الأستاذ الإمام رحمه الله ، إن شئت أرسلها إليك ، وأضرب على الجمل الواجب طيها ، وبعد الطبع تعيد لى الجميع .

وعندى أيضاً ما أرويه عن الأستاذ غير ما حررت ، لكنى لا أعرف ماذا بقى إلا إذا طالعت ما سبق .

(٣) عادل يسأل خاطرك ، وغالب يقبل يديك [١] .

— ٢٣ —

لوزان ٩ ديسمبر ١٩٣٠ [٢]

سيدى الأخ الأستاذ

إنى ألقى إلىَّ كتابُك الأخير المؤرخ فى ٩ رجب وفهمته . لا بد أن يكون كتابى الأخير إليك قد وصل وباشرتَ طبع الرسالة . إن شئت أن تعمل لها المقدمة التى ذكرت عنها فالأمر لك . تعيين ثمنها أيضا هو راجع إليك ، فليكن قرشين ونصفاً أو ثلاثة بدل خمسة قروش [٣] .

---

(١) هذه ثلاث حواش ، الأولى والثانية جاءتا فى رأس الرسالة ، والثالثة جاءت فى ذيلها .

(٢) هذه الرسالة مكتوبة فى ورقتين من الحجم الكبير ، الأولى مكتوبة من الجهتين ، والأخرى مكتوب منها نصف صفحة فقط .

(٣) يقصد كتاب « لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم » .

أزمتي المالية لم تزل على حالها، وقد وصلت إلى حد أن كان لي أجرة ٦٢ مقالة عند جريدة « السياسة » ومعي تعهد بالأجرة من حافظ عفيفي، ولما تلكأ في الدفع أخذت القضية بالاشمئزاز، وتركت مطالبة حافظ عفيفي، ولكنني الآن رجعت أطالب إدارة السياسة بهذه الأجرة. وإن كانت دفعتها إلى حافظ عفيفي فأطالبه بدون حياء، فهو سفير يقبض ٢٠٠ إلى ٣٠٠ جنيه في الشهر، وحالته مراراً أحسن من حالتي. وكذلك كان عبد الله بك البشري يريد أن يأخذ لي أجرة مقالات من حافظ آخر . . . وأنا أقول له: كلا هذا صديق، ومن ست سنين أنا أكتب له بلا مقابل، وأدفع أجرة البريد من كيسي، فلا تسأله عن شيء من هذا. فهو حافظ بلا عوض عندي [1].

لكني البشري عرف بأزمتي هذه المرة، فقال إنه عند وصوله إلى مصر سيقول له: هذا غير جائز. وهذه المرة أنا لم أنهه عن هذا القول، لأني وجدت نفسي في ضنك هوّن عليّ سماعه.

ومن توابع الأزمة أني بعثت أعرض مزرعةً بالشام للبيع فلم يتقدم أحد للشراء، وفي العام الماضي كانوا قد دفعوا بها ١٤٠٠ جنيه مع الرجاء، ولم أقبل لأني لم أكن محتاجاً للبيع وقتئذ.

عبد الحميد بك سعيد يمكنه إقناع الملك [2] بالإذن لي في دخول مصر، فإن لم يقنعه هو فما من أحد يقدر أن يقنعه. ليس لي نحو هذا الرجل ذنب، ولكن الجواسيس لأجل أن يرتزقوا هوّلوا واختلقوا.

التضامن بين الفرنسيس والإنكليز والأسبانيول في المغرب على أتمه، حتى أن البُرُد الإنكليزية والأسبانيولية صارت تحت المراقبة الأفرنسية. فإن شئتم إرسال

---

(١) يقصد أحمد حافظ عوض صاحب جريدة « كوكب الشرق ».

(٢) يقصد الملك فؤاد الأول.

« المنار » إلى جبل طارق لإرساله فى جيوب المسافرين إلى طنجة فهو أحسن طريقة. بلافريج[1] كتب لى أن فكرى كان فى محله، لأنه هو تحت المراقبة الشديدة، وأنا أراسله بطرق خفية جداً.

لم يبق للمسلمين الخارجين عن المغرب إلا إرسال الصحف والجرائد والمراسلات مع سياح ذاهبين عن طريق الصحراء. الذهاب والإياب كادا يكونان محظورين على المسلمين اليوم هناك إلا بعد التفتيش.

قبل الرحلة الأندلسية لابد لى من إنجاز « الارتسامات اللطاف » وطبعها كتاباً على حدة، حتى أخلص من همها، ثم أتفرغ للجزء الأول من الرحلة الأندلسية، وسنعملها بالاشتراك كما قلتم، ونجعل بدل الاشتراك كما تعينون.

سأكتب لك جواب مكتوبك الماضى. أنا أيضاً منتقد أغلاطاً لفؤاد حمزة ويوسف ياسين وألومهما. لكن لا تغالط، فهما فى محلهما أحسن من غيرهما ... وإذا غلطا يمكننى أنا وإياك أن نردعهما أو نقدعهما[2]، وأما لو كان غيرهما فلم يكونوا يتنازلون لمجاوبتنا، وكانوا يفتنون بيننا وبين الملك، ويبعدوننا عنه بكل وسيلة. أما فؤاد حمزة ويوسف ياسين فإنهما يغاران من غيرنا لا منا، لأنهما يعلمان أننا لا نزاحم أحداً هناك، ولا نطلب شيئاً، وأن منزلتنا عند الملك منيعة.

فى وقت فراغ نسبى أخبرك بغدر واحد ... كنت أظن أن أخى عادل يغدر بى، وأنه هو لا يغدر بى، فكان منه أنه طعننى فى ظهرى بدون أدنى سبب سوى المنافسة، طعنة لو أتيحت للشهبندر نفسه لربما تأخر عنها. وهذا منه بدون أدنى استعلام ولا تحقيق. ولقد عرفت بالقصة بعد أشهر، وغضبتُ غضباً شديداً، وكتبت إلى « الهمام[3] » كل التفاصيل، ففهمه هذا الأمر جداً، وكتب لى

---

(١) أحمد بلافريج المغربى.

(٢) قدعه وأقدعه: كفه ومنعه.

(٣) يقصد عبد العزيز بن سعود.

أيده الله — بخط بنانه يقسم أنه لا فلان ولا فلان ولا فلان يجسر أن يتفوه أمامه بكلمة سوء بحق ... إلخ إلخ .

فلو كان هذا الرجل مقرباً مثل ذينك فماذا كان يفعل ؟ .

كلا ، هذان برغم أغلاط لهما أحسن إجمالا وأحسن لى ولك من غيرهما ، فاشدد يدك على هذا . أخى عادل يسأل خاطرك ، وكلانا نسلم على الأخ فؤاد بك سليم ، وعلى عبد الحميد بك سعيد . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

أخوك

شكيب أرسلان

— ٢٤ —

برلين ٢١ ديسمبر ١٩٣٠[1]

سيدى الأخ الأستاذ ، أيَّده الله .

تلقيت كتابك الكريم وضمنه الصفحات الثلاث ٣٣ و ٣٤ و ٣٥ التى أمرت بإعادة النظر فيها[2] ، وتقوية ما خص الإسلام ومزاياه ، وقد أصبت أنت فى هذه الملاحظة ، فإنى بعد إنعام النظر فيما كنت كتبته رأيتنى مقصراً وواصلا من حب الاعتدال إلى درجة لا تجوز . فلهذا واصل لك من جديد ١٨ صفحة صغيرة توازى ثلاثاً أو أربعاً من الصفحات الأولى ، عساها تقع منك هذه المرة موقع القبول . فالمعانى التى أشرت إليها كلها موجودة ، ولم أجد حاجة لزيادة تفصيل فيها ، لأن كل مقصودنا إلقاء نظرة عامة ، ثم إنى مضطر أيضاً إلى العجلة بكثرة أشغالى هنا .

---

(١) هذه الرسالة مكتوبة فى ثلاث ورقات من الحجم الصغير ، مكتوب عليها اسم : Hotel Adlon Berlin . والورقات مكتوبة من الجهتين .

(٢) هذه الصفحات من رسالة « لماذا تأخر المسلمون » .

أما الصفحة المطبوعة التي أرسلت لي بها أيضاً فأنت في الخيار : إن شئت إبقاءها على ما هي عليه مع حاشيتك في تفسير لفظة « يستحقون » ، وإن شئت الأمر بصف حروف الصفحة من جديد ووضع لفظة « يستجابون » مكان « يستحقون » . هذا وقد بقي مسألة لماذا أكثرت من الدفاع عن النصرانية بأنها لم تكن سبب انحطاط أوربة في الماضي ... إلخ .

يا أخي ، ما أردت بهذا إلا تفاديَ وقيعتهم بي ، وذلك أنهم قد يتلقون رسالتي كردٍّ على الدين المسيحي ، وينهالون عليَّ بالقذف والشتم . فأنت غيري أنا ، لأنك شيخ شهير ، مهمتك الدفاع عن الدين الإسلامي ، وعلى رأسك عمامة ، وغالباً تردُّ على أحبار النصرانية الذين يهاجمون الإسلام .

فأما أنا فمعدود ككاتب سياسي ، لا شأن لي في هذه الأمور . ومن المسلمين الجغرافيين كالشهبندر مثلا من لا يزالون يذكِّرون المسيحيين بما يسمونه « بكتاباتي الدينية » ، ويستثمرون غيظهم منها ، لأن هؤلاء يغيظهم مجرد الدفاع عن الإسلام ، ولو كان رداً للمهاجمات الواقعة عليه .

وقد جاءتني ملاحظات كثيرة من بعض أصحاب بأن هذه « الكتابات الدينية » مني أصبحت رأس مال دعاية للشهبندر وأضرابه في تنفير المسيحيين مني ، وأنا لا يهمني هذا في جانب حماية الحقائق الإسلامية ، لكني أجد الاحتياط في الكلام أولى .

ثم إني بهذا الكلام قد أصبت غرضي الأصلي من تنزيه الإسلام عن الوقوف في وجه التقدم المدني ، ويكون بعد أن سردنا هذه الحوادث التاريخية أطبق على المنطق أن لا نجعل العمل كله للأديان في المدنيات .

هذا ما أراه ، فعسى أن ترضى وتأمر بطبع الرسالة ، وترسل لي ١٠٠ نسخة إلى لوزان .

كتبت الآن إلى الأخ عبد الحميد بك سعيد جواباً أشكره فيه على سعيه بدخولى مصر ، وأرجوه إتمام السعى ، وذكرت له هذه الرسالة ورجانى[1] منه توزيعها على جمعيات الشبان المسلمين .

حضورى إلى برلين كان لأجل قضية زادت أيضاً ارتباكاتنا المالية ، فإن لنا بيتاً فى برلين اشتريناه فى ذلك الرخص سنة ١٩٢١ ، ولما كانت الضرائب ثقيلة جداً لا تبقى لنا شيئاً من الإيراد إلا ما لا يذكر فضَّلنا أن نرهنه ، ونبنى ببدل الرهنية فى صوفر ، فرهنَّاه قبل سفرنا إلى الحجاز تحت ٤٠ ألف مارك ، وبنينا بها فى صوفر بنية أجرناها بمائة وخمسين جنيهاً فى السنة ، لكن مرتهن البيت فى برلين عند نهاية أجل الرهن ، أراد استرجاع ماله وإرجاع البيت ، ونحن ركبنا الدَّين بدون هذا ، فجئنا نسعى فى البحث عن مرتهن آخر ، ولو بشروط أثقل ، يرتهن إلى مدة خمس سنوات ، لعلّ الله يفرج فى هذه المدة ، وترانا من سمسار إلى سمسار أنا والدكتور بيضا .

جرت لى محادثة مع الأستاذ مورتيز ومع غيره من رجال الخارجية هنا بشأن الربا المحرَّم ، وبشأن شهادة النصرانى واليهودى ورأيك فيهما ، وبشأن ما يسمعون من أنه لا بد من شاهدين اثنين فى العقوبات ، وأنا استندت على « الطرق الحكمية »[2] لابن القيم الجوزية ، وعلى ما أتذكره من كلامك بأن المقصد الأصلى للشارع هو إحقاق الحق بأى وجه كان . وكنت أود لو تكتب لى مرة آراءك تلخيصاً فى كل من هذه المسائل الثلاث .

مورتيز يقول : هذه المسائل لا يفتى بها أحد اليوم مثل الشيخ رشيد رضا .

وكتابك لأخى عادل أرسلت به إليه . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

أخوك

شكيب أرسلان

---

(١) شكيب يكتبها هكذا : رجاءنى .

(٢) اسم كتاب لابن القيم .

— ٢٥ —

لوزان ٢٠ نوفبر ١٣٤٩[1]

سيدى الأخ الأستاذ أطال الله عمره .

أخذت رقيمك الكريم المؤرخ فى ١٣ الجارى وفهمته . رسالتى التى أرسلتها للطبع حررتها فى يومين ونصف بعجلة زائدة ، كرجل يريد الخلاص من عمل ليتفرغ إلى أعمال أخرى ، جاء هذا بينها جملة معترضة . وكما قلتم هى من إملاء الوجدان والشعور ، لم أسلك فيها مسلكا علمياً ، لأن العلميات الصرفة ، وإن اقنعت العقول فلا تقنع القلوب ، ونحن هنا نخاطب الجمهور الذى أكثره عوام ، لا الخواص وحدهم . والحاصل الرسالة جاءت كما جاءت ، فإن كان فيها خطأ صححه ، لكن قل لى عنه قبل طبع الرسالة النهائى ، لئلا يكون لى ملاحظة . وقد قلتم لى إن فى الرسالة مباحث دينية كثيرة وعبارات تريدون مراجعتى فيها ، فأشكركم على ذلك ، وترانى منتظراً ملاحظاتكم ، وإنما أرجو السرعة بقدر الإمكان ، لأنى حريص على طبع الرسالة فى هذه الأيام وتوزيعها ، لأن فيها كلاماً على مسألة البربر التى لا تزال هائجة .

اذكروا لى كم يكلف طبعها حتى أبعث به إليكم . أما توزيعها بواسطة جمعية الشبان المسلمين وجمعية مكارم الأخلاق فهو موافق . فمتى تمّ طبعها أكتب أنا إلى عبد الحميد بك سعيد بذلك ، وكنت أسمح بجميع ما يجتمع من ثمنها للمجاهدين الذين فى النبْك — وقد سبق لى أنى أرسلت لبعضهم من كيسى — لولا أنى فى هذه الأيام فى ضنك مالى شديد ، وأنى محتاج إلى ثمن هذه الرسالة ولو كان جزئياً ، وربما أرسل لهم منه ٢٠ جنيهاً لا ٥٠ جنيها ، فنكون عملنا لهم شيئاً ، وأنا فى هذه المدة

---

(١) هكذا بالأصل ، والتاريخ يخلط بين الميلادى والهجرى ، وقد يكون التاريخ ٢٠ نوفبر ١٩٣٠ ، وبذلك تكون الرسالة متأخرة عن موطنها بين هذه الرسائل ، والرسالة مكتوبة فى ورقتين من الحجم الكبير ، وكل منها مكتوبة من الجهتين ، والصفحة الأخيرة غير كاملة .

برغم كل الأشغال المتراكمة على أكاتب أمريكة الشمالية والجنوبية من أجل المجاهدين المذكورين ، فلست ناسياً أمرهم .

بلغ منى الخناق فى هذين الشهرين مبلغه من جهة المعيشة ، وفى آخر حساب عملته وجدت على ألف جنيه ديناً ، عدا دفعات أرسلها إلى الدكتور بيضا لا أحسبها ، لأنه لا يطالبنى بها ، فأنا مثلك فى قضية الدين . وأسعار لوزان وسويسرة من الغلاء بحيث تزيد فى بعض الأصناف ١٠ مرات على مثلها فى بيروت ، وفى بعضها ١٥ مرة ، وفى الفواكه والخضروات ٢٠ مرة .

لذلك قررت أنى فى أول هذا الصيف أرسل العائلة إلى بيروت ، وسأتحمل مضض فراقهم ، إذ وجدت عدم إمكان البقاء على هذه الحالة ، فهذه السنة علينا ألف جنيه ، لكن السنة القادمة يصير المبلغ ألفى جنيه . وهذه السنة أرسلنا إلى دمشق ليبيعوا لنا مزرعتنا المقروضة التى فى جهات وادى العجم ، كلفنا بذلك عارف بك النكدى ، والحاج أديب خير ، لكن السنة القادمة سنضطر إلى البيع من أملاكنا فى لبنان .

وكان عندنا بيت فى برلين اشتريناه فى أيام الرخص ، فرهناه فى العام الماضى بمبلغ ٤٠ ألف مارك ، لنبنى بهذا المبلغ فى صوفر ، وبنينا بناية جميلة كلفت الأربعين ألف مارك أنفقنا منها قسما على نفسنا ، فلم تتم بناية صوفر إلا وعلينا كسر من جهتها . وبالاختصار قررت إرسال العائلة إلى الوطن : فإنه يتوفر بذلك ثلثا المصروف بالأقل ، ثم يتعلم « غالب » العربى ، إذ أنه لا يمكنه أن يحصل هنا العربى أصلا ، وقد صار عمره ١٤ سنة ، فإن لم يتعلم العربى الآن فمتى يتعلم ؟ ! .

وقد خطر ببالى أنى متى أردت أن أشاهد عائلتى أذهب إلى قبرص فى الصيف ، ففيها جبل لطيف ، فأصطاف وإياهم هناك ، ولا أظن الإنكليز يعارضون فى مجيئى إلى قبرص ، لأنها غير فلسطين .

ومن جملة أسباب الدين الذي برك علينا هذه المجلة الإفرنسية التي أصدرناها ، فإننا سنخرج منها في مارس القادم بصافي خسارة ٦٠٠ جنيه على كل واحد منا ٣٠٠ . نعم إن أمكن تحصيل اشتراكات سورية وفلسطين ومصر يمكن أن تنزل خسارتنا إلى ٥٠٠ جنيه على كل واحد منا ٢٥٠ .

نعم تهب فى أواسط الحر أحيانا نسائم تخففه ، فقد جاءتنى من أيام ٣٠٠ جنيه كانت « الجامعة الإسلامية » فى الأرجنتين جمعتها لى لأجل تقديمها هدية وإقامة حفلة ، وقد بلغ المبلغ أكثر من ٤٠٠ جنيه ، وكان مرادهم الاستمرار فى الجمع حتى يصير ألف جنيه ، فإذا بالأزمة المالية أوقفت كل شىء . بل بنزول العملة نزلت الدراهم المجموعة إلى ٣٠٠ جنيه ، وهم عجلوا بإرسالها خشية أن يعود المبلغ إلى نصفه ، فجاءت فى وقتها ، والدليل على ذلك أنه ما مضى أول يوم والثاني وبقي منها شيء ، لكثرة ما كان عليّ من المطالب فى السوق .

أظن أنى كتبت إليك عن أزمتى المالية هذه فى مكتوبى الأخير لك الذى أرسلته فى ٩ الجارى ، وفيه الجواب على كل ما بيننا من المباحث ، وهو يبلغ ست أو سبع صفحات من هذا القطع ، وكما تذكرون عن محل الزيتون فى طرابلس ، فالحالة هى بعينها عندنا أولا : الأسعار نصف ما كانت من سنتين ، فكان عندنا قنطار زيت سنة الحمل تساوى ٨٠٠ جنيه ، ففى السنة الماضية نزل ثمنها إلى أقل من ٤٠٠ جنيه وبهذه السنة كان الموسم صفراً تقريباً ، لأنهم حَوَّشُوا منه بعض حبوب باعوها بألف قرش . هذا كل الموسم .

لا ترسلوا « المنار » إلى أحمد بلافريج ، لأن طلبة المغاربة فى باريز — ولا سيما بلافريج — هم تحت أشد المراقبة ، ولا سيما فى علاقاتهم معى ، فإن فرنسة تريد أن تزعم أنها هى لم تفعل شيئاً يوجب هذه الحركة ، وإنما هو شكيب أرسلان قام بها وهيج الطلبة ، وهؤلاء هيجوا الشعب ، ثم هو نفسه أرسل إلى مصر فحركها ، ومصر حركت العالم الإسلامى ... إلخ إلخ .

ولا يخفى أن « المنار » فيه فصل عظيم جداً على مسألة البربر ، فقد يظن البوليس الإفرنسى أن هذه الأعداد مرسلة إلى بلافريج عمداً ، لأجل أن يوزعها فيلحقه ضرر . المراسلة بينى وبين بلافريج مستمرة ، لكن بصورة خفية جداً لا يعرفونها ، وهو اليوم يسكن خارج باريز .

لإرسال المنار طريقة أحسن من هذا كله ، وهى إرسال المنار إلى البوسطة الإنكليزية فى الرباط ، والبوسطة الإنكليزية فى فاس ، وترسلون مكتوباً إلى صاحب فى كل من الرباط وفاس لينبه المشتركين ، حتى ينشدوا المنار فى البوسطة المذكورة . وطريقة أخرى هى أن ترسلوا المنار إلى صديقنا الحاج عبد السلام بنونة بتطوان ، وهو عين أعيانها ، وتكتبوا إليه مكتوباً تسألونه فيه تكليف واحد من جماعته بإرسال نسخ المنار إلى أصحابها فى المغرب ، وذلك بالطريقة التى يراها هو المثلى للوصول ، وإن شئتم أنا أكتب إلى الحاج عبد السلام ، كما أن أخاه العربى بنونة وهو من أحمس الشبان وأوفاهم هو اليوم بمصر .

وسأبلغ الأخ إميل سلامك ، وولدنا بلافريج أيضاً ، وعادل يسأل خاطرك ، وغالب يقبل يديك ، وأنا فى انتظار جوابك . وأطال المولى وجودك لأمتك ولأخيك

أبى غالب

— ٣٦ —

لوزان ٢ إبريل ١٩٣١ [١] .

سيدى الأخ الأستاذ ، أمتع الله بطول عمره

أمس أرسلت إليك ١٧ عدداً من « الشورى » فيها « الارتسامات » تباعاً

---

(١) هذه الرسالة مكتوبة فى أربع ورقات من الحجم الكبير كل منها مكتوبة من الوجهين ما عدا الأخيرة ، ففيها صفحة بيضاء .

تحت الجزة . وقد أرسلت لك ١٠ جنيهات تحويلا ، ورجوتك أن لا ترسل لى دراهم ، بل تنفق ما أتى من « لماذا تأخر » فى طبع « الارتسامات » .

ثم وصل رقيمك باليوم نفسه ، أى أمس ، وشكرت لطفك وعطفك وحنوك .
الآن تفرجت أزمتى كثيراً بورود ٢٠٦ جنيهات من ثمن مزرعتى المفروصة ، ثم من ثمن مزرعة بذار ١٥٠٠ مد سقى تحت نهرين ، لو أقامها الإنسان كما يجب لكانت تعطى ٥٠٠ جنيه فى السنة ، لكننى اضطررت إلى بيعها لأنه هناك مثل : الزيت إذا احتاجه صاحبه يحرم على الجامع . ثم إنها بإهمالها الحاضر كان بدل ضمانها السنوى ٦٠ إلى ٦٥ جنيها . وأما إصلاحها وغرسها فلا يمكن شىء منه إلا إذا كنت أنا فى سورية . وأنى لى أن أذهب إلى سورية ؟ وأملى ضعيف جداً أن أذهب إلى سورية إلا جثة تدفن فى وطنى — وهذا أيضاً بعد أن يأخذ الفرنسيس كل الوعود من مسلمى بيروت ودروز لبنان بأنه فى مأتمى لا تحصل مظاهر ضدهم — إذاً البيع لمزرعة كهذه أحسن ، والاضطرار ليس معه خيار .

أصبت فى إعطائك المكاتيب لعبد الحميد بك سعيد ، لعلهم يقتنعون أن العلاقة ليست كما يظنون بينى وبين ذلك الرجل(١) ، وإنه هو الذى بغاها وأصر عليها وكان له فيها مآرب أخرى ، وأنى أنا من صعوبة عشرته طالما استعفيته من المعاش ، ولكن لم يقطعه إلا هذه المرة . وأنا برغم العسرة مغتبط بانقطاع علاقتى مع هذا الرجل ، لأن علاقتى به أضرت بى وأتعبتنى ، فضلا عن اختلاف المبادىء بينى وبينه .

تقول لى إنهم تعجبوا من قراءة مكاتيبى ، فأنا تعجبت من تعجبهم ، ليس

---

(١) يقصد الخديوى عباس حلمى الثانى ، وكانت حكومة مصر تحارب شكيب لظنها أنه متعاون ضدها مع الخديوى .

فيهم واحد إلا وهو يعرف أطواره وصغر عقله، وتقلبات أفكاره، وبالآخر غرامه بالدسائس.

سألنى مرة عن واحد ماذا يقول عنه؟ فقلت له: يقول إنك تحب الدسائس، لا عن حاجة إليها، بل حباً بالفن، فضحك لكن مع الخجل.

فبديهى أن معاشرة رجل كهذا متعبة، واختلاف المبادىء هو الأمر الأهم: راجعنا مراراً فى الصلح مع اليهود . . . على أى أساس؟ فنفهم من خلاصة كلامه أنه على أساس التسليم لليهود! . فنقول له: وأين يسكن مسلمو فلسطين؟ فيجاوب: يقدرون أن يرحلوا إلى شرق الأُردُنّ.

مصر يلزم أن تترك السودان لانكلترة . . . ابن سعود ينبغى أن يعطى محطة طيران لانكلترة فى جدة — هذه قالها أمام إحسان لا أمامى — سكة حديد الحجاز الواقعة فى ضمن فلسطين وشرق الأردن وسورية يلزم تركها لانكلترة وفرنسة.

ومن هذا القبيل أشياء كثيرة. وبعد ذلك عتاب لماذا لم نقبل منه، ولما أعطى رأى أن مسلمى فلسطين يسكنون فى شرق الأردن غضبت وجادلته، وانصرف مغتاظاً، وجاء أنطون الأرمنى يقول: أهكذا تزعق على أفندينا؟ فقلت له: أهكذا يؤمل من أمير مسلم أن يسعى بإخراج المسلمين من فلسطين؟ أبهذه المبادىء يرجو أفندينا أن يكون له شأن فى بلاد الإسلام؟.

الحاصل: رجل لا يطاق أبداً والبعد عنه غنيمة. كتب لى أميل الخورى — وهو بغيض له — فقال لى: أريد أن أتلفن له، وأسمعه كلاماً مراً لما فعله معك، فقلت له: لا لا، أرجوك أن لا تعمل شيئاً، فقد يخطر بباله الرجوع إلىَّ نظراً لشده تلونه بحسب فطرته، وأنا مصمم أن لا أستأنف العلاقة معه أبداً. كفانى ما جرى.

سفير الأفغان كان كتب لى بعد أن قرأ كتبى لك ، وسأل عن الضيوف ... ، وجاوبته بما يمكن الجواب به بدون نقل كلام . وقلت له : إنى قبلا كتبت للأستاذ السيد رشيد ليخبرك خشية أن يُشيع هؤلاء [1] أنى اتفقت معهم ، لا من أجل أن أبلغ شيئاً أتزلف به . . .

جاءنى مكتوب من فؤاد حمزة اليوم يقول لى إنه واجهك بمصر ، وإنه بعد ١٥ يوماً سيكون بمصر ، ويكمل الحديث معك فإنى أنا كنت كتبت لفؤاد أنصحه وأنبهه وأحذره ، ومن جملة ما نصحته به قولى له : إياك أن تخالف السيد رشيد . . . إلخ .

حسابك لنفقة طبع « الارتسامات » طلع أقلَّ من حسابى ، فالأمر لك بهذه وغيرها .

هذا ما كان من هذه الجهة . ثم إن هناك أمراً جليلا جداً ، ومصيبة عظيمة من أعظم ما وقع على الإسلام ، وهو فظائع الطليان فى طرابلس الغرب . أنا كان بلغنى ذلك إجمالا حتى لمحت الأمر من قول جرائد إيطالية نفسها : إن الجيش قبض على ١٠٠ امرأة فى احتلاله للكفرة . وقد أكبرنا هذا الأمر فى مجلتنا الإفرنسية اللغة التى عقدنا فيها فصلا شديداً جداً من قلمى عن الكفرة وطرابلس .

تباهى هؤلاء الكلاب بذلك ، وأفهموا الناس أنهم ارتكبوا الفواحش بنساء المسلمين . وأول من أمس جاءتنى التفاصيل من بشير السعداوى رئيس اللجنة الطرابلسية البرقاوية فى الشام نقلا عمن حضروا مصيبة الكفرة ، فوجدت الأمر أفحش جداً مما كنا نتصور . أباحوا الكفرة ثلاثة أيام متوالية ، فقتلوا ٢٠٠ رجل ، ونهبوا جميع البيوت ، وخربوا البساتين ، وأخذوا جميع المواشى ، والأفظع

---

(١) شكيب يكتبها هكذا : هئولاء .

الأنفع الذى كل شىء دونه سهل اغتصبوا أعراض جميع البيوت الشريفة بالكفرة المتزوجات والبنات حتى الصغيرات . وبعد ذلك جاء بعض الشيوخ الضعفاء إلى القائد يرجونه الكف عن الأعراض ، فأمر بذبحهم حالا .

العائلات التى نزلت بها هذه المعرات ٧٠ عائلة فى الكفرة .

أما الثمانون ألف عربى الذين اغتصبوا أراضيهم فى الجبل الأخضر ، وأجلوهم إلى فيافى « سرت » ، فقد ماتت كل مواشيهم من قلة الماء والكلأ ، فعينوا لكل عائلة فى النهار فرنكين فقط ، وهم يموتون جوعاً وبرداً لأنهم بالعراء ، وكل مقصد الطليان هو محوهم ، حتى لا يعودوا إلى الجبل الأخضر الذى يريدون إسكان المئات من الألوف فيه من الطليان .

ثم إنهم أخذوا جميع رجالهم من سن ١٥ إلى سن ٤٠ للعسكرية ، والأولاد من سن ٣ إلى سن ١٤ أخذوهم جميعاً برغم والديهم إلى إيطالية بحجة تعليمهم ، والحقيقة لأجل تنصيرهم ، لأن الطفل ابن ثلاث سنوات لا يتعلم .

ثم لماذا نقلهم إلى إيطالية ؟ وكان لأخذ هؤلاء الأولاد رغما صراخ ملأ الفضاء ، ومشهد يفتت الحجارة ، وما من سامع . وعدا ذلك فظائع كثيرة تقشعر منها الجلود ، وقد رأينا شيئاً يؤيدها فى صحف أوربة ، برغم احتياط الطليان لمنع ارتفاع أى صوت .

كنا نحن من نحو شهر حكينا مع جمعية حقوق الإنسان فى جنيف عن هذه الفظائع ، وكان رجل من أعضائها — وهو ألمانى العرق — قد ساعد بذلك ، ووعدونا بعقد اجتماع تحت حماية هذه الجمعية ، وأن يدعوا له الألوف ، وطلبوا منا ١٠ جنيهات أجرة القاعة ، فقلنا على الرأس والعين ، وتقرر أن أتولى أنا الكلام ، ولكن لا أتهور فى الطعن بإيطالية ، فوعدتهم بأنى لا أقول إلا الأخبار الواردة ، وما ترويه جرائد إيطالية نفسها .

ثم إن جمعية حقوق الإنسان رجعت تتلكأ عن عقد هذا الاجتماع ، وربما كان الطليان سمعوا به فسعوا بمنعه ، وهم بجنيف كثيرون .

لكننا بعد وصول الأخبار التى وصلتنا من الطرابلسيين بالشام سنعيد السعى ، ونطلعهم على تفاصيل الأخبار .

ثم مرادى عمل نشرة بهذه الفظائع ، وتوزيعها بألوف النسخ فى كل أوربة ، ونحن نكتب أيضاً فصلا رناناً فى مجلتنا ، بل فصولا متوالية .

وسأكتب بذلك إلى البشير السعداوى لنعمل النشرة بعدة لغات . وتمضى عليها اللجنة الطرابلسية البرقاوية .

جاءنى تقرير هذه اللجنة أول من أمس ، فمن شدة تأثرى بقيت طول النهار لا أقدر أن أتكلم ، ولا أن أسمع أحداً يتكلم ، وتلك الليلة لم أنم إلا عند الصبح غِرَاراً[1] . نعم فششت وطبى[2] فى شىء : كتبت مقالة عن فظائع وحوش الطليان فى طرابلس إلى « الفتح » ١٣ صفحة من قطع هذه الورقة ، أرجو أن تطالعها ، وإن أردت فانقلها إلى « المنار » ، لأنه لا يجوز أن المنار يسكت عن هذه الفادحة الأندلسية تماماً .

الذى حصل بطرابلس لم يحصل إلا فى القرون الوسطى ، وإذا سكت المسلمون عن هذه ، فإن هذا وأشباهه يصيبهم فى جميع مستعمراتهم ، ثم إن موسولينى يريد استئصال مسلمى طرابلس حتى يضع فيها مليونين إلى ثلاثة ملايين طليانى ، ولا يبقى فيها إلا طليانى أو مسلم متنصر .

ومسألة تنصير مسلمى طرابلس تدريجاً أنا سمعتها من وزير ألمانى لا أريد أن

---

(١) الغرار : القليل من النوم .

(٢) الوطب : سقاء اللبن ، وفش الوطب . أخرج ما فيه من الريح . وفش الرجل : تجشأ . وفش الحالب الناقة : حلبها بسرعة .

أسميه ، لأنه أخبرنى بذلك سراً نقلا عن وزير طليانى شافهه بما ينوونه من تنصير أحداث المسلمين لاسيا البربر . ثم إن الآثار والأخبار متظاهرة على وجود هذه النية عند إيطالية .

ومتى صار فى برقة وطرابلس ثلاثة ملايين طليانى وقع الخطر على مصر بأفظع شكل، وصارت مصر محتاجة أن تقول لإنكلترة : نرجوك أن تبقى بمصر لتحمينا .

والحاصل أن السكوت عما هو جارٍ بطرابلس يزيد العلة ، بل العلل كلها .

أفلا ترى الحملة التى قمنا بها على فرنسة من أجل تنصير البربر عملت عملا عظيما ؟ ثم إن فرنسة لم تلغ الظهير ، لأنها لا تريد الرجوع إلى الوراء ، ولكن لابد أن تلغيه . وقد شعر المغاربة بعد هذه الحملة بنشاط لم يعهد عندهم منذ احتلال فرنسة لبلادهم . والآن ، الآن جاءنى من تطوان أنه فى ١٦ مايو أى تاريخ إصدار الظهير ستحدث مظاهرات فى كل المغرب .

مع هذا برغم جميع قبائح الفرنسيس هم سادة أشراف بالنسبة إلى الطليان . هؤلاء أوطى شعب فى العالم . أشرافهم أنذال ، فكيف أنذالهم ؟ .

هلكت من الكتابة الآن ، ولأجل أن لا أكتب الشىء مرتين أرجو منك أن تقرأ مقالتى فى «الفتح» ، وتتأمل فى اقتراحاتى ، وتحادث عبد الحميد بك سعيد وجمعية الشبان المسلمين فى الموضوع ، وتطلع عبد الحميد بك سعيد على كتابى هذا .

قبل كل عمل ينبغى تقرير الاحتجاج على إيطالية بكل شدة فى الجمعية ومراكزها وجميع فروعها بمصر وفلسطين وكل مكان .

ثم تسحب تلغرافات شديدة مفصّلة عن هذه الفظائع إلى جمعية الأمم ، وإلى حكومة إيطالية ، وإلى الحكومات الكبرى كلها . ويلزم طلب تحقيق من جمعية الأمم عما جرى بالكفرة ، وعن أخذ الأولاد من أيدى آبائهم وأمهاتهم جبرا فى « سرت » وغيرها ، وصراخ هؤلاء الآباء والأمهات والأولاد مالئ السماء ، وما من

مغيث ، وعن الأمور الأخرى من القتل بدون محاكمة ، بل بمجرد إرادة ضابط ، وعن التعذيب .

من الغلط الظن أن هذه الأمور ليست من صلاحية جمعية الأمم ، فإن الدفاع عن الأعراض من صلاحية جمعية الأمم ، وإن حرية الاعتقادات مبدأ مقرر فى جمعية الأمم ، وكذلك وصاية الآباء على أولادهم القاصرين . فهذه كلها أمور وظيفة جمعية الأمم التدخل بها ، وكذلك قتل الناس بدون محاكمة ، والإلقاء بهم من الطيارات ، وأنواع التعذيب ، كل هذا من خصائص جمعية الأمم .

فينبغى الاحتجاج لدى جمعية الأمم ، ولدى انكلترة وأمريكة وفرنسة وألمانية والروسية ويوغوسلافية والنمسة وغيرها ، ولدى إيطالية نفسها لكن بشدة ، وطلب التحقيق بواسطة جمعية الأمم ، لأن هذه أمور متعلقة بالإنسانية كلها ، وأن تتوالى التلغرافات لا يكتفى بواحد واثنين . المسلمون فى هذه الأماكن عجزوا عن الدفاع بالسلاح ، فلم يبق إلا سلاح الصريخ والاحتجاج .

وبعد ذلك ينبغى تقرير مقاطعة الطليان فى كل محل فيه طليان ومسلمون . هذا يجب أن تكتب به تعهدات مطبوعة وتُمْضَى ، كما فعل عرب فلسطين فى قرار مقاطعة اليهود .

عندى اقتراحات أخرى سأبقيها إلى المكتوب القادم ، لأنى عييت من الكتابة الآن ، ولكن أهم الاقتراحات الاحتجاجات الكثيرة بالبرقيات والجرائد ومن المدن والقصبات كلها ، وعقد الاجتماعات وإلقاء الخطب وشرح هذه الفظائع ، ثم مقاطعة كل شخص وكل شىء طليانى .

إذا كان الإسلام [١] سيسكت عما جرى ويجرى فى طرابلس على دين المسلمين

---

(١) يقصد أبناء الإسلام .

وعرضهم ودمهم ومالهم ، فإن هذه الحالة تشملهم أخيرا فى كل محل ، وما وصلنا إلى هنا إلا من التهاون فى المبادئ ، ودمت .

لأخيك شكيب

— ٢٧ —

لوزان ٦ إبريل ١٩٣١ (١)

سيدى الأخ الأستاذ ، أيده الله

أرسلت إليك أولا وثانيا جميعَ أعداد « الشورى » التى فيها « الارتسامات » ، وأظنها ٢٧ عددا أو أكثر ، والآن أبدأ بإرسال ما كتبته بعد ذلك ، وما لم يزل غير مطبوع ولا منشور ، وأظنه يكون ثلثين بالنسبة إلى المنشور بالشورى الذى يكون نحو ثلث الكتاب .

فأرجو التكرم بتعريفى وصولَ كل ما أرسلت به . وإن المحرَّر إلى الآن غير المطبوع يبلغ ٩٠ صفحة من قطع هذه الورقة ، ولا بد لى من تحرير ٢٠ إلى ٣٠ صفحة أيضا . تركت لك وضعَ العناوين ، لأنك أقدر منى على ملاحظة كل موضوع ووضع عنوان بحسبه .

فؤاد حمزة ربما يكون الآن بمصر ، ومراده إكمال الحديث معك ، وأنا قد كتبت له كل ما يلزم ووعظته ، وقلت له : لقد سكرت يافؤاد بعض الشئ ، وهذا شىء بشرى لا يخلو منه راكب منصب — ولم أسلم منه أنا ، مع أنى أنا بعيد عن سكرة العز ، وإنما أصير غليظا شديدا فى أيام الإدبار — فعامل الناس يافؤاد كما لو كنت بغير منصب ، ثم اعلم أنه يجب أن لا تخالف الأستاذ . . . إلخ .

---

(١) هذه الرسالة مكتوبة فى صفحة من ورقة من الحجم الكبير .

هذا وأخي يسأل خاطرك ، وولدي يقبل يديك . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

أخوك

شكيب أرسلان

(١) أرجو أن تأمر في المكتبة أن لا ينسوا إرسالَ جميع النسخ التي رجوت إرسالها من « لماذا تأخر المسلمون » .[1]

— ٢٨ —

لوزان ١٤ مايو ١٩٣١ [2]

سيدي الأخ الأستاذ ، أيده الله

الآن تناولت كتابك رقم ١٨ ذي الحجة وفهمته . وأجيبك : نعم إن الأخبار التي جاءتني من طنجة ومن تطوان ومن الجزائر ومن تلمسان كلها بمآل واحد ، وهو أن هذه الرسالة أثارت عقول الشبان المسلمين الذين كانوا يظنون أن الإسلام ليس بشيء ، وأن لاحيلة إلا بالتفرنج ، وأن أحمد توفيق المدني في الجزائر — وهو أديب تونسي وطني ، نفاه الفرنسيس إلى الجزائر ، وكان في الماضي أنقريا صرفا ، وكنت أسمع أنه يكره طريقتك وطريقتي وينتقدنا ، إلخ — هو نفسه رجع إلى الطريقة الإسلامية بعد أن صار يقرأ كلامنا ، ثم بعد أن قرأ كتاب المسيو دينه المهتدي وقرأ مجلتنا الإفرنسية العبارة ، ولما ظهرت رسالتنا « لماذا » ... قرظها في مجلة « الشهاب » بشكل لم يقرظها به أحد ، وهو الذي أشار علينا بترجمتها للتركية ، فبعثنا بها لمصطفى صبري شيخ الإسلام ، وأظنه يترجمها ، وإن لم يترجمها هو فالأخ إحسان يترجمها .

---

(١) هذه الحاشية موجودة في ذيل الرسالة .

(٢) هذه الرسالة مكتوبة في ست ورقات من الحجم الكبير ، كل منها مكتوب من وجه واحد .

وتوفيق المدنى الآن هو من أعز الناس عندنا ، وهو الذى بهمته يعتنى بقضية إشتراكات المجلة الإفرنسية المبارة ، وقد أرسل إلينا بهذه المدة نحو ٤٠ جنيها بدلات اشتراك وتبرعا ، وهذا ما شغفه بنشر مبادئنا وأفكارنا . فتأمل فى هذه الإنابة ، وقل مثل ذلك فى كثيرين جداً .

ما الحديث الذى يقول : « لَأَنْ يَهْدِيَ الله بك رجلاً واحدا أحب إلى من حُمْرِ النَّعم » ؟ .

كتاب « الارتسامات » كنت أبعث بقطعه مضمونة خوفا من ضياعها ، فيصير بعد ذلك صعبا كتابتها كما كانت . ولقد أبقيت المقدمة إلى الآخر ، لأنها هى العادة ، أى أن تكون المقدمة مما يكتب بعد الانتهاء من الكتاب .

ثم « التوحيد والعدل » مذهب المعتزلة ، لهم فيه تأويل يوجب تجنب هذه الجملة ، لا لعدم صحتها ، وأى شىء أصح منها ، بل لئلا تلتبس بما يريده المعتزلة ، ولكنك أنت فى هذه خالفت عادتك فى تغيير الجملة نفسها ، فمن عادتك هو أن تبقيها على حالها ، وتضع لها نمرة وتقول فى الحاشية : لا نظن الأمير يريد بذلك مذهب المعتزلة الذى يقولون بالتوحيد والعدل بالمعنى الفلانى ، بل مراده حمل المعنى على ظاهر اللفظ ... إلخ .

ولكن رأيت فيما يظهر أن الابتداء بالاعتراض من عند المقدمة غير موافق ، فعدلت الجملة رأسا .

أما ملاحظاتك اللغوية فأنا منتظرها . وفى كتبى السابقة جاوبتك بأن « المجاوبة » هى أن يجاوب الواحد الآخر ، وهى المحاورة ، وهذه هى رد الجواب ، فليس عليها غبار فى المعنى الذى استعملتها أنا فيه . ولا أزال أتذكر منعك لتذكير الفيالق ، وأنا أرى فيها الوجهين ، وانظر ابن الأبار القضاعى البلنسى الذى كان لغوياً كبيرا كيف يقول :

وأوطىء الفيلق الجرار أرضَهمُ حتى يطاطىء رأساً كلُّ مَنْ رَأَسَا

فأنا أرجو التكرم بملاحظاتك ، حتى إذا لم يكن عندى بها ما أقول خضعت ، وإن كان عندى جواب ذكرته لك .

أرجو مراجعة ما ذكرت لى من آخر ما فى جريدة « الشورى » من « الارتسامات » وأول المخطوط بالقلم ، حتى إذا كان ما يوجب زيادة الربط نحرره ، وإنما أذكّر سيدى الأخ بأنى أنا فى نفس المقدمة ذاكر أسلوب هذا الكتاب ، وهو أنه أشبه بمجموعة مقالات منه بكتاب ، نظراً لكتابته الفينة بعد الفَينة .

أظن مقالتى الطليانية ستؤخر صدورَ الإذن لى بدخول مصر ، ولكن هذا التأخير يكون مؤقتا .

أما الملك[1] الذى ذهب إلى الحج فأنا لم أرغِّبه إلا فى الحج ، وذلك لأنه فريضة ، وقد نصحته كثيراً بأن يستريح وينتظر الوقت ، فلم أجده مرتاحا إلى هذا الرأى ، وكان قرينه أشدَّ منه اعتراضا ، فأشرت عليه بأن يتفق مع الخَلَف ، لعل هذا يترك له العرش من نفسه ، فقال إنه لن يترك من نفسه ، وإن إخوته لا يتركونه .

بالاختصار هو مُصِرٌّ على العمل لاسترداد الملك ، ومتفائل زاعم أن أكثر القبائل صارت معه ، وهو دائماً فى المراسلات معها . فعلمت أن لا سبيل إلى تحويل فكره عن هذا الغرض ، ويا ليته اقتصر على ذلك ، بل هو يأبى إلا أن أكون معه — وقرينه يقول يأبى إلا أن يكون لى يد فى هذا الانتصار — فهناك اضطررت برغم كل الوسائل التى عملوها أن أرفض العمل معهم ، فزعموا أن الحالى سيذهب باستقلال المملكة ، وأنه جعل البلاد تحت الحماية الأجنبية تقريباً ... إلخ ، فأجبتهم لا نبغى على أحد ، ولا نحكم إلا بعد التحرى ، وسنفحص عن صحة هذه الأقوال ، فإن صحت فنحن معكم ، وإن لم تصح فلا نعدكم بشىء .

---

(١) يقصد ملك الأفغان .

وأرادوا عمل دسيسة ظاهرها بسيط وباطنها دس كبير لإيهام أنى معهم ، وكان ذلك ليلة تمشوا عندى وقبل الانصراف ، فاعتذرت أولا بلطف ، فأصروا فأبيت ، فألحوا والملك نفسه ألح كثيراً ، فقلت له : هذا لا أعمله ، إذ لو سُئلت عنه فلا بد من أن أقول الحقيقة . فقال : ومن يعرف بهذا الأمر ليسألك ؟ . فقلت له : يعرف بذلك وجدانى وهذا كاف . فانصرفوا واجمين .

وكنت قبل هذا وعدتهم بالذهاب إلى مونترو لوداعهم يوم سفرهم فلم أذهب ، فلفن القرين وعرف أنهم ذاهبون ، فأجابه أخى عادل ولم أذهب ، ومع هذا بعد وصولهم إلى رومة عاد القرين فكتب المكتوب الذى أرسلت إليك به .

المقصد أن الإصرار على الحركة موجود ، والنصح بالسكون عبث ، فيجب أن السفير يكون مطلعاً على ذلك ، ويُشعر معلمه حتى يكون مستعداً للطوارىء .

رأيك فى الكتابة إلى البابا فى المسألة الطرابلسية لا يضرنا ، لكنه ينفع موسولينى عند البابا .

والذى يلزم وينفع هو المقاطعة ، وتشكيل اللجان لها فى كل محل . هذا أمضى سلاح ، لا سيما إذا طال الإصرار عليه .

بعد أن كتبت لك أول من أمس عن الصلح مع لطف الله والشهبندر ، وأنى مفوضك به ، وأنى قبلا كنت فوضت صبيعة ، ولست براجع عن ذلك ، جاءنى مكتوب من أخى عادل يقول فيه إنه رفض هذا الصلح ، لكونه اطلع على جريدة مصرية لم يذكر لى اسمها فيها طعن شخصى بحقى بذىء جداً لم يسبق مثله بحق أحد ، وأن صاحب هذه الجريدة اعترف لأسعد داغر أنه تناول أجرة هذا الطعن من الشهبندر ، فقصدت أن أستدرك على ما كتبته أول من أمس ، وهو أنى أنا لا أعارض أى صلح ، ولكن لن أدخل فى أى صلح لا أنا ولا أخى إلا على شرط أن يعلن الشهبندر براءته من المطاعن التى نشرتها هذه الجريدة البذيئة .

أنا لم أطعن فى الشهبندر ، ولا فى أولاد لطف الله مطاعنَ شخصية أصلا ، وفى البداية تعدوا علىَّ بدون أدنى سبب ، ونشروا المقالات ، وبقيت ساكتاً ، وأخيراً لما تمادوا فى الطعن دافعنا عن أنفسنا بدون خروج عن موضوع الدفاع . أما طعن شخصى بذىء وسخ فما جرى به قلمى قط ، مع أنه كان بغاية الإمكان ، سواء بحق الشهبندر أو أولاد لطف الله . لـكنى ما جرت لى عادة بذلك .

فلهذا كتبت اليوم أسأل عن هذه الجريدة ، ومرادى إقامة الدعوى عليها ، حتى يضطر صاحبها للإقرار عمن أغراه بهذه المطاعن أو كتبها له ، وسأستشهد أيضاً بأسعد داغر فيما قاله له صاحب هذه الجريدة ، ولست راجعاً عن ملاحقة هذه المسألة إلى آخرها .

الدكتور عبد الرحمن شهبندر لم يزل منذ ١٠ سنوات يطعن بى بلسانه ، ثم منذ أربع سنوات بلسانه وقلمه وبأقلام الجرائد التى استأجرها بمـال لطف الله — أيام كان هناك مال — وأنا لم يسبق لى إلا الـكلام الطيب بحقه باللسان والقـلم . فهو المعتـدى علىَّ باعتراف الجميع ، وصاحبه الأرمنازى اعترف أمام الـكتلة الوطنية بالشام أنه هو المعتدى علىَّ .

ثم بعد ذلك لمـا كثر طعنه بنا رددنا عليه نحن وأصحابنا ، ولـكننى أنا ما طعنت مطاعن شخصية بذيئة كما فعل هو ، فأنا لست بتارك هذه المسألة ، لأن مواصلة هذا الرجل اعتداءاته علىَّ زادت على الحد ، وأنا لا أقبل أن أصالح رجلا يكون طعن بى بهذه البذاءة ، بعد سبق كل هذا التعدى المستمر ، وإن لم يكذِّب كونه ذا علاقة بهذه المطاعن القذرة فسوف أسوقه إلى المحاكمة ، والسلام عليك يا أخى ورحمة الله وبركاته .

أخوك
شكيب أرسلان

(١) شكرتك على إرسال ما أرسلت من النسخ من رسالة « لماذا » ، وأرجو أن ترسل الباقى كما رجوتك فى كتبى السابقة ، وأما الأثمان فالحاج عبد السلام بنونة أرسل لى ثمن الرسل الذى وصل إليه ٩٨ نسخة ، وحلمى باشا فى القدس بعث لى بثمن ١٠٠ نسخة ، ومهما جاءنى من الثمن أعرفك عنه [١] .

— ٢٩ —

لوزان ٢٢ مايو ١٩٣١ [٢] .

سيدى الأخ الأستاذ ، أيده الله

ماذا أقول ؟ وماذا أصف ؟ وماذا أسجع ؟ وماذا أترنم ؟ . فقد وصلت الكراسة التى أرسلت بها لى من « الارتسامات » بحرفها الجميل ، وطبعها الذى ليس له مثيل ، وورقها المتين الصقيل ، حتى لقد كدت أخال أن الارتسامات التى أنت بعثت بها هى غير الارتسامات التى كانت منشورة فى « الشورى » ، ولما قرأتها ظننت أنى أقرأها أول مرة ، ولا غرو فالطبع للكتاب كاللباس للإنسان ، كلما حلا زاد اللابس جمالا ، وأما التصحيح فماذا نقول فيه ؟ قد قال لى فى هذا الملك ابن سعود قوله الفصل ، وهو إن تساوت المطابع مع مطبعة المنار فى الإتقان فأيةُ مطبعة تساويها فى التصحيح ؟ نعم أقول لسائر المطابع : « لقد حكيت ولكن فاتك الشنب » . أنَّى لك هذا البحر الذى يتدفق فى مطبعة المنار علماً ؟ . والحاصل الطبع فى المنار هو من قبيل « مُغَسِّل وضامن الجنة » . يطبع الإنسان طبعاً جميلا ، ويخرج الكتاب صحيحاً قويماً .

هذا ولما قرأت فى صدر الكتاب : « وقف على تصحيحها وعلّق حواشيها »

---

(١) هذه الحاشية موجودة فى ذيل الرسالة .

(٢) هذه الرسالة مكتوبة فى ثلاث ورقات من الحجم الكبير ، كل منها مكتوب من الجهتين

توضأت باللبن، وقلت: ماذا تراه معترضاً عليّ في هذه الحواشي ؟ فالله أعلم إلا أني لما قرأت لم أجد شيئاً إلا ما يزين الكتاب ويزنده، وما هي إلا أمور أخشى أنا الجزم بها في المتن، فيأتي الأستاذ ويصدر تلك الفتوى في الحاشية بما يفيد الجزم، وينفي التردد، ويجلو وجه الحق، ويقر به الغرب والشرق، وإن أنا انحرفت قليلا عن الجادة جاء الأستاذ وسدد المقال بتأويل أقول فيها أحياناً، ما قال أبو نواس عند ما سمع معلماً يشرح قوله: " ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر "ويقول: أراد أبو نواس إشراكَ الذوق والسمع باللذة، فقال أبو نواس: والله ما خطرت ببالي !.

وبالاختصار كتابى حواشيه أثمن من متنه ، وفروعه أنفس من أصله ، وهو أشبه بالعروس التى قد يلبسها أهلها من الحلى ما لا يستحقه جمالها ، وذلك لأنها فى يوم عرسها . وإن لم يكن من فائدة هذه الحواشى إلا أنها صارت سجلا لأقوال ساداتنا أجداد الأستاذ رحمهم الله ، ففى حاشية على رسالة « لماذا تأخر المسلمون » استشهد الأستاذ بجملة لجدّه ، وفى حاشية على « الارتسامات » رأيت هذه المرة جملة لأخى جدّه ، ولا يبعد أن يكون فى الحواشى الآتية أقوال للمرحومة جدته ! .

والخلاصة كل ما يقوله الأستاذ لطيف ، وكل ثوب يرتديه هذا الكتاب تحت يده فهو جميل ، ولا شك أن هذه الحواشى هى بنفسها كتاب ، وكأننا طبعنا كتابين ، وأما خطأ الطبع فلم أجد منه شيئاً إلا فى صفحة ٢٠ سطر ٣ مذكور العثلوج بالثاء وهو بالسين [١] ، وقد بحثت عنه لعلى أجده بالثاء فى بعض كتب اللغة فلم أجد ، فهذا ما لاحظته ، وليتكرم الأستاذ بإفادتى متى يتم طبع الكتاب كله ، وكم نسخة يريد أن يطبع منه ؟ أفلا يرى طبع ثلاثة آلاف نسخة ؟ فإننا إن شاء الله نتمكن من تصريفها بين سورية ومصر والحجاز والجاوى والمغرب وأمريكة ، والحالة هذه السنة كما لا يخفى حَرِجَة ، فنحتاج إلى تصريف كتب كثيرة لنقوم بنفقاتنا الضرورية .

(١) العسلوج . مالان واخضر من القضبان .

جاءني أمس من السيد سعيد الزاهري في تلمسان أنه قد وصله ٢٠ نسخة من رسالة لماذا تأخر المسلمون ، ويقول : « ومع أن الإمام السيد رشيد رضا لم يرسل إليّ بها كشفاً بأسمارها فقد وزعتها ، وإني أنتظر منه ٣٠ نسخة أخرى مع بيان الأسعار » .

ليس عندي سوى تأكيد الرجاء بإرسال الكميات التي رجوت إرسالها من رسالة « لماذا » ، وذلك إلى جدة ومكة وعدن والبحرين والكويت والبصرة ، وإلى بغداد التي لاشك أن لكم فيها من تعاملونه ، ثم إلى طرابلس الشام تحت يد السيد عبد الحميد كرامة ١٠٠ نسخة ، وإلى حلب تحت يد فؤاد بك الجابري ١٠٠ نسخة ، ويمكنكم أن ترسلوا إلى بيروت تحت يد السيد عبد الرحمن بك بيهم ١٠٠ نسخة ، وإلى حماه تحت يد السيد عبد القادر حسني الكيلاني ٥٠ نسخة .

الجناب العالي السابق[1] طالما كنا ننصح له بترك تلك المنازعات ، والائتلاف مع الملك[2] ، وأخذ أمواله المحجوزة عليه ، فلم يكن يروقه ذلك ، بل كان أنطون الأرمني مستشاره الخاص ينهى عن مثل هذه النصائح ، لأنها بقوله تكسر قلبه . فالآن قد عمل الشيء الذي كنا نحن نراه الأوفق .

[illegible] مع الملك مثل اللحم على الظفر كما يقال . عشيرته صعبة جداً ، وقصته تخطر ببالي قصة [illegible] إنك ثقيل والرزق على الله » .

ما أعجب من شيء مثل مجيء من يقولون : أيا ترى صحيح فعل الطليان بطرابلس كل هذه الفظائع ؟ فالطليان من ٢٠ سنة دائبون عليها ، والشهود عليهم في ذلك بالألوف وعشرات الألوف ، والطليان الفاشيست معلنون رسمياً أنهم لا يعرفون

(١) الخديوي عباس حلمي الثاني .
(٢) الملك فؤاد الأول .

قانوناً إلا ما رأوه هم موافقاً لمصلحة إيطالية ، ولقد فعلوا بنفس إيطالية فظائع لا تحصى ، حتى هاجر إيطالية عدة ملايين من جورهم ، منهم عدد كبير فى فرنسة ومنهم فى كل محل ، ولهم جرائد تروى كل يوم من فظائع الفاشيست ما يجتمع منه مجلدات .

ثم إن الأمر هو كما قلتم أنتم فى جمعية الشبان المسلمين ، وهو أنى أنا كنت تلقيت تقارير كثيرة من الجمعية الطرابلسية البرقاوية بالشام ومن مصر ، ومن شارد وصل إلى باريز وبقيت متوقفاً ، واعتذرت للبشير السعداوى بالصحبة التى كانت بيننا وبين موسولينى ، وبسبب آخر هو أنه لم يبق لى ممر إلى الشرق إلا من إيطالية ، إلا أنى قرأت أخيراً إجراء الثمانين ألف عربى ، ونزع الثمانمائة ألف هكتار ، وضبط أملاك القبائل السنوسية فى نفس جرائد إيطالية وفى بلاغاتها الرسمية وفى خطب الجنرال غرازيانى ..إلخ ؛ فعند ذلك كتبنا فى مجلتنا الإفرنسية اللغة وبكل اعتدال مقالة جيدة .

لكن لما علمت بما حصل فى الكفرة ، وبقبضهم على سيدات آل البيت السنوسى وغيرهن من الشريفات ومن عقائل أهل الكفرة ، وإرغامهن على الفاحشة فى وسط الزاوية السنوسية ، وإباحة نساء أهل الكفرة ثلاثة أيام ، هذا مع إهانة القرآن والإسلام ، عند ذلك عميت ، وقلت ليكن ما شاء الله أن يكون ، وجردت قلمى على هؤلاء الكلاب .

جاءنى من أحد أدباء نابلس — ممن لا أعرفهم لكن الجميع يضنون بى — وهو أن أحتاط لنفسى من الطليان ، لأن الفاشيست عندهم فدائية ، وعندهم تشكيلات خفية ، وجرت لهم العادة باغتيال كثيرين ..إلخ ، فأجبته : ياابنى نحن فى جهاد ، والجهاد معناه الحرب ، أفرأيت أحداً يذهب إلى الحرب ويقول : لعلها تأتينى رصاصة ؟ .

أنا لن أذهب إلى إيطالية ولن أمر بها ، فأما أكثر من هذا فلن أقدر أن احتاط لنفسي ، وإن قُدِّر أن أموت فى سبيل الإسلام فلعمرى تلك نعم المنية .

قيل لى مثل هذا عندما صرت أهاجم مصطفى كمال ، فأجبت بالجواب عينه .

إن أخذنا نخاف من هذا وهذا لن نقدر أن نخدم الإسلام .

أما تساؤل الناس بمصر : أيا ترى صحيح ما يُنْسَب إلى الطليان ؟ فأَحْرِ به أن يكون عيباً وعارا . مصر ملأى بالشاردين من برقة ومن نفس الكفرة فليسألوهم .

فى المغرب لم يقدر المسلمون أن يقوموا بمظاهرات خوفا من فرنسة — لأن الاستعمار دولة واحدة ، كما أن الكفر ملة واحدة — لكنهم قرروا مقاطعة الطليان . وقد عطل الفرنسيس جريدتى « النهضة » و « الوزير » بتونس نهائياً بحجة الكتابة على إيطالية .

جاءنى من توفيق المدنى بالجزائر والزاهرى بتلمسان أن الشبان كلهم لما قرأوا مقالتى عن طرابلس فى العدد الأخير من مجلتنا لاناسيون آراب قاموا وقعدوا . وجاءنى من تطوان أنهم قاطعوا الطليان ، وأرسلوا ٥٠ نسخة من منشورى العربى إلى طنجة فقامت وقعدت وقاطعت الطليان . وجاءنى من السيد مختار احرضان من أدباء طنجة — مقيم الآن بأشبيلية — أن قهوة شهيرة بطنجة صاحبها طليانى مدار شغلها على المسلمين بطل كل عملها ، وذهب الطليانى يشكو إلى قنصله سوء حاله .

سيأتى وفد من تطوان والريف إلى مجريط بمطالب معلومة ، وعلى رأس الوفد الحاج عبد السلام بنونة ، والاستدعاء ممضى من ٥٠٠ من تطوان وحدها ، وفيه عدة مئات من الريف . ولقد كانوا فى البداية ساكتين لعدم الاتفاق ، ولأن الوزير ابن عزوز — مقرى الريف — عاكسهم جدا ، ولكنى من هنا لم أقصر فى الحث ، وعملت لهم بروغراما ، وذهب أحمد بلافريج من باريز سرا إلى تطوان ، ثم أقام بسبتة وكانت النهضة بسببه ، وساعد فى ذلك العملة من مسلمين وأسبانيول ،

ورجع بلافريج وأخبرنى بكل ما وقع ، وكتب لى « بنونة » أنهم سائرون إلى مجريط وسيكتب لى منها .

ويجوز أن يأتى بعد ذلك إلى باريز لمشاهدة طلبة المغاربة ومنها يأتى إلى لوزان .

هذه كلها معلومات خصوصية لك ، لأن الكتمان ضرورى ، وفرنسة مماكسة جدا إعطاء أية حرية للريف . قهرها الله ، وقهر أعداء الإسلام جميعاً . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أخوكم
شكيب أرسلان

— ٣٠ —

لوزان ٢٦ مايو ١٩٣١ [١]

سيدى الأخ الأستاذ ، أيده الله

وصل الرَّسَل [٢] الثانى من « الارتسامات » من الصفحة ٤٩ إلى الصفحة ١١٢ وبعد تصفحه وجدت أنه ثمة سهو عظيم فى الطبع فات به قسم كبير من هذا الكتاب . ولقد حسبت حسابَ السهو لكثرة ما عليك من الشغل ، ولكنى لم أحسب أن يأتى على قسم من الكتاب ، أى نحو سبع أو ثمان مقالات .

ولقد أرسلت جميع هذه المقالات مسجلة بالبريد حذراً من هذا الشىء ، والآن وجدت أن الاحتياط لم يفُد ، ووجدت أنك قفزت من بحث المطوِّفين والمزوِّرين صفحة ٧٨ إلى الكلام على الطائف ، وبدون أدنى مناسبة ولا ارتباط .

---

(١) هذه الرسالة مكتوبة فى ورقتين من الحجم الكبير ، الأولى مكتوبة من الجهتين ، والأخرى فيها نصف صفحة ، والباقى أبيض .

(٢) الرسل : القطيع من كل شىء ، وجمعه أرسال .

والحال أن بين هذين الموضعين مقالات كثيرة ، كلُّ ما طبعناه ليس بأحسن منها ، وإنى لأفضِّل العدولَ عن طبع هذا الكتاب كله على تركها .

ومما لا شك فيه أنى أرسلت بها إليك ، لكنها ضاعت ، وإنه لوجرت مراجعة الأرسال كلها لعثرت عليها ، ووصلتها بصفحة ٧٨ الحاضرة .

فمن ذلك مقالة فى العدد ٢٧٦ من « الشورى » أولها : لقد قسم المطوفون والمزورون العالم الإسلامى فيما بينهم . . إلخ . وهى واصلة ضمن هذا الظرف المسجل وبعدها مقالة فى العدد ٢٨١ من« الشورى » أولها : ينبغى لحكومة الحجاز ولسائر الحكومات الإسلامية . . إلخ ؛ وهى واصلة ، وبعدها مقالة فى العدد ٢٨٤ من الشورى ، وأولها : من حيث قد قررنا أن الأماكن المقدسة فى الحجاز لن تبرح مقصداً للمؤمنين . . إلخ .

وهى واصلة أيضاً . وبعدها مقالة فى العدد ٢٩٣ من الشورى ، أولها : لما غلبت الدول المستعمرة على القسم الأكبر من العالم الإسلامى ... إلخ ، وهى واصلة أيضاً .

وبعدها مقالة فى العدد ٢٩٦ من الشورى أولها : إذا كان الأجر على قدر المشقة فقد كتب الله لهذا العبد أجرا عظيما ... إلخ .

وهى واصلة أيضاً .

وبعدها مقالة أخرى أرسلت بها لك من قبل، تتضمن كيفية صعودى من مكة إلى الطائف ، فإذا بحثت عنها تجدها ، لأنى لم أجدها هنا .

وبعدها مقالة فى العدد ٢٩٩ من الشورى أولها : جاء فى « تاج العروس » عن ذات عرق التى ورد ذكرها فى الرسالة السابقة ... إلخ .

وهى واصلة .

وبعدها مقالة فى العدد ٣٠٠ من الشورى وأولها : لا ينبغى أن يُظَن أن أسواق العرب هى عكاظ ومجنة وذو المجاز فحسب ... إلخ .

وهى واصلة أيضاً .

وبعدها مقالة فى العدد ٣٠١ من الشورى وأولها : مما اقتضى مجىء فى الطائف شكل الصخور ... إلخ .

وهى واصلة أيضاً .

وبعد ذلك مقالة على « لُقَيْم » القرية التى فى أول الطائف ، لم أجدها هنا ، ولكنك إذا بحثت عنها وجدتها ، لأنى أنا أرسلتها كلها ضمن ظروف مسجلة بالبريد .

فإن وجدتها فأرجو منك أن تُكمل طبع الكتاب ، وإن كانت قد ضاعت فى الإدارة أو المطبعة فلا حاجة بى إلى طبع هذا الكتاب ، ولا لذة لى بقراءته[1] ، وإذا لم تجدوا هذه القطع الناقصة فأرجو أن توقفوا الطبع وتعرفونى بذلك . وإن وجدتموها فأرجو أن تضعوها بمكانها ، وتفكوا طبع الكلام عن الطائف من صفحة ٧٩ إلى ما بعدها ، ولو التزمنا تجديد كلفة طبع هذا القسم .

ذكرت لك فى كتاب سابق أنه من رسالة «لماذا تأخر المسلمون» جاءنى ثمن ٩٧ نسخة من تطوان ، و ١٠٠ من القدس .

الذى ينبغى هو الإرسال أولا ، ومتى عرفنا كم أُرسل إلى كل جهة نكتب لهم فى جَمْع الثمن ، وإرساله لكم أو لنا لا فرق . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أخوك

شكيب أرسلان

---

(١) كتبها شكيب هكذا : بقرائته .

— ٣١ —

لوزان ٢٧ مايو ١٩٣١ (١) .

سيدى الأخ الأستاذ ، أيده الله .

من ستة أيام كتبتُ إليك كتاباً كله طَرَبٌ من حسن طبع الكتاب ، ودقة تصحيحه ، وجميع المحاسن التى فيه ، والتى تشمل كل ما يُطبع فى « المنار » .

ولكننى أمس لما تلقيت الكراس الجديد ، ووجدت النقص الواقع ، وكيف جرى الانتقال إلى الطائف قبل الوصول إلى الطائف ببضع عشرة مقالة منشورة فى « الشورى » انقلب هذا السرور غمّاً ، وأسرعت فأرسلت إليك بالمقالات الباقية عندى ، مما غفلوا فى المطبعة عنه ، ولكنى لم أجدها كلها ، فرجوتك أن تبحث جيداً فى ظروفِ الأرْسَال كلها ، لأنى كنت بعثت بها بأجمعها مسجَّلة ، حتى لايضيع شىء ويقال لى : هذا لم يوجد .

وبعد أن أرسلت إليك فى ظرف مسجل ثمانيا أو تسع مقالات مطبوعة فى الشورى ، رجوتك وَصلَها بما سبقها ، وفك الملزمة التى طُبعت خطأً قبل مجىء أوانها ، ولو تكلفنا نفقتها مرتين . وبالاختصار ساءنى هذا الخطأ إلى أنى قلت لك إنى أفضل العدول عن الطبع على الطبع بهذه الصورة . وكنت معتقداً أن المقالات ضاعت بين الأوراق ولكنها لدى البحث لا بد أن توجد . ثم إنى بعد أن أرسلت إليك بالظرف المسجل التى فيه مكتوبى مع المقالات التى بها التعويض على تقدير ضياع الأولى أبرقت إليك قائلا : أوقفوا الطبع ، انتظروا المكتوب .

وبتُّ مع ذلك غير مسرور ، وبهذا الصباح تلقيت كتابك رقم ٣ محرم وقد

---

(١) هذه الرسالة مكتوبة فى ثلاث ورقات من الحجم الكبير ، كل منها مكتوبة من الوجهين إلا الأخيرة ففيها صفحة بيضاء .

سُرِّيَ به عني ، فعلمت منه أنك لحظت الأمر ، وأنك أمرت المطبعة بطبع الناقص وفك الملزمة التي جاءت قبل أوانها ، وأما من جهة أرقام الصفحات فقد قلت لي إنه يمكن تصحيحها بآلة الرقم .

إذاً ليس لي شيء أقوله ، فأنت قد استدركت الأمر والحمد لله .

كلامك في « المجاوبة » هو في محله ، فالمجاوبة أعم من الإجابة ، وقد يدخل فيها هو جواب على سؤال وغيره ، وأنا ما أردت أن أقول إلا أن المجاوبة ليست بخطأ ، وقد أوردت لك نص ما جاء في « اللسان » بشأن المجاوبة والمحاورة .

نعم كنت أراجع متون اللغة عند الكتابة ، ولا أزال على هذه العادة ، ومن جملة ماينتقدني به أعدائي [1] قولهم عني : لا يقدر أن يكتب إلا إذا كان محاطاً بكتب اللغة . قد سمعت هذا مراراً ، وقرأته مرة في جريدة هدى المكرزل بأمريكة من جملة المطاعن بي بزعمهم .

وأنا كنت أُسَرّ بهذا الطعن الذي لو قرأه العلماء حقاً لأجَلُّوني ، وعلموا أني ممن يحقق ، وأي شرف أعظم من هذا ؟ . وياليتني أقدر أن أبحث عن كل لفظة ، فوالله ما صادفني أني أهملت البحث عن لفظة قائلا إنها معروفة ، لا حاجة لإضاعة الوقت بهذا ، إلا ندمت ، ورأيت بعد ذلك أن هذه اللفظة التي كنت أظنها معروفة تتضمن معانيَ غير ما كنت أظن ، وأحياناً أرى أنها خطأ بالمعنى الذي كنت أظنه .

والخلاصة أن المراجعة في كتب اللغة هي سعادة لمن يقدر عليها . مازلت منتظراً ورقتك التي وعدتني بشأن الأغلاط اللغوية .

مسألة رحلة أسعد داغر إلى بغداد ، وموافاة الحاج أديب إياه إلى هناك أنا لم

---

(١) شكيب يكتبها هكذا : أعدآءِي .

أنهما . نعم إنى مشغول عن كل هذه الأمور ، لكنى لا أكره أن أعرف لماذا ذهب أسعد أفندى داغر إلى بغداد ووافاه الحاج أديب ؟ . وهل هذا بدعوة من فيصل أو حاشيته أم لا ؟ . وهل المراد هو الحصول على موافقة حزب الاستقلال العربى بشأن نصب « على » [1] ملكا على سورية ، أم هناك مقصد آخر ؟ .

إن كنت تعرف لى كيفيةَ هذه الرحلة فلا بأس أن تتفضل بها ولو بسطرين .

أما سياسة الوفد السورى فى مسألة « على » هذه فهى ما يلى :

كتبت إلى الملك فيصل إلى هذه الساعة ثلاثَ مرات أقول له الشىء نفسه : ليس لى اعتراض على نصب أخيك «على» ملكا على الشام ، لكن بشرط أن يُلغى الانتداب ، وتنحل مسألة سورية على وجه يرضى الوطنيين ، ثم إنى أنصحك أن لا تبت شيئاً فى هذه المسألة إلا بالاتفاق مع أخيك ابن سعود .

هذا الكلام أَعَدْتُه عليه ثلاث مرات ، وأرسلت أيضاً إلى الملك ابن سعود صورةَ أحد مكاتيبى هذه إلى الملك فيصل .

وقد أجابنى فيصل على كل هذه المكاتيب يقول : إنه متريث متأمل ، لا يأتى عملا إلا بغاية الاحتياط . . . إلخ .

فأنا الذى عَلَىَّ عملته ، وإن صار «على» ملكا تحت الانتداب احتججنا وعاكسناه ، وإن صار مع إلغاء الانتداب ودخول سورية بجمعية الأمم لم نحتج ، وإنما راقبنا سير الحكومة السورية يومئذ .

أما مسألة الصلح التى عرضوه عليك فلا أزال أقول لك : ما تراه حسناً فهو حسن ، لكنى أنا أريد أن يعلن الشهبندر أن القاذورات التى نشرتها جريدة

---

(١) هو على بن الحسين أخو الملك فيصل الأول .

« الوطواط » بحقى ليست باطلاعه ، وذلك لأن صاحب الوطواط قال لأسعد داغر — وأخى عادل هو الذى روى لى هذا — إنه ما كتب هذه القاذورات إلا بمقاولة مع الشهبندر .

ثم إنه غير معقول أن رجلا مصرياً لا يعرفنى ولا أعرفه يكتب عنى بكل هذه البذاءة ، إلا باتفاق مع الشهبندر ، وبفلوس لطف الله .

وقد كنت كتبت إلى مصر لأقيم وكيلا يطلب صاحب الوطواط للمحاكمة ، حتى أجبره على الإقرار بكون تلك الكتابة هى من الشهبندر ، إلا أنهم يراجعوننى من مصر بإلحاح أن أترك هذه المسألة التى مضى وقتها .

وأما فلوس لطف الله فلولا نضوبُ معينها ما كان الشهبندر يفكر بالصلح ، فنحمد الله على كونهم أفلسوا ، وسترى أن حالتهم ستصير إلى أسوأ ما تتصور ، ولا أقول هذا حباً بالضرر ، فإنى لا أريد ضرر أحد ، ولكن ميشيل لطف الله أضر بقضية سورية إضراراً لا تحتويها المجلدات لو استقصيناها ، وكل هذا بفلوسه ، ولولا فلوس لطف الله ما أمكن الشهبندر أن يعمل شيئاً .

والآن لما علم لطف الله أنه صار كجوف حمار ، وعلم الشهبندر أنه لن يقدر بعد الآن أن يأخذ منه جنيهاً واحداً فى سبيل السفه على من يحسدهم ، جاءوا يتحككون بمثل «نبيه العظمة» الآتى غضبان على الحجاز ، لأجل أن يسعى لهم بالصلح ، فلا أقول شيئاً فى الصلح إلا أنى أشترط فيه إعلان الشهبندر براءته مما كتب فى الوطواط بحقى ، ومن سفاهات الهيمانى التى ينشرها بأمريكة . نعم إن الوطواط والهيمانى ساقطان جداً ، لكن ليس هذا بسبب لعدم تبرؤ الشهبندر منهما .

لا يسرنى إغباب(١) أخى عادل زيارتك . من وقت سفره من هنا ما كتب لى إلا مرتين .

---

(١) أغب القوم : جاءهم يوما وترك يوما . والمراد هنا قلة الزيارة

لا يوجد فى عادل صفة من صفات الرجال التى يسمونها عندنا دعائم الرجال الاوهى تمجبنى ، ما عدا طباعه المصبية ونفسه الغضبية ، طبعه ليس بسلس ، وجميع أفكاره تشاؤم ،وجميع محاضراته اعتراض ، وكيف نصنع ليترك هذه المادة ؟ نسأل الله توفيقه . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

أخوك

شكيب أرسلان

(١) ترجمة كتاب مختار باشا وصلت ، ومن قبلُ « النجوم الزاهرة » كانت وصلت ، وشكراً لكم .

(٢) أحد أعمام أمان الله وصل إلى الشام ، ونقلوا عنه فى جريدة « الأيام » حديثاً مُهِماً فيه كل الثناء على نادر شاه وحسن إدارته ، وفيه صعوبة رجوع أمان الله الذى ليس معه إلا حزب قليل جداً .

وكلام هذا الأمير مؤيد لكلام المجددى من جهة كون أمان الله استأثر بالأموال والجوهرات . . إلخ [١] .

— ٣٢ —

لوزان ٣٠ مايو ١٩٣١ [٢]

سيدى الأخ الأستاذ ، أيده الله

من يومين كتبت لك ، وأمس أبرقت لك بأن تمضى المطبعة فى الطبع ، بعد أن أمنت على طبع القسم الذى حصل السهو عنه .

---

(١) هاتان حاشيتان ، الأولى وردت فى أول الرسالة ، والأخرى وردت فى ذيل الرسالة .

(٢) هذه الرسالة مكتوبة فى ورقة واحدة من الحجم الكبير ، مكتوبة من الوجهين .

لا أزال منتظراً منك ما وعدتنى من تبيين الأغلاط اللغوية ، ويجوز لك إن ضاق الوقت أن ترسل بها تباعاً لا دفعة واحدة .

أما ملاحظاتك الشرعية فمَنْ يقدر على مثلها ؟ أفلا ترى كيف تقول بعد النقل الذى نقلته أنا عن ابن خلكان عن حمل جثة الوزير الأصفهانى إلى مكة والطواف بها : هذه الأعمال من نبش القبر والسفر بالجثة والعظام وأعمال المناسك والزيارة كلها محرمة فى الإسلام . . إلخ .

فيا تعثرى أنا . أنَّى لى أن أقول هذا القول الفصل ؟ ولو كنت تعرضت له لما زدت على جملة فيها شىء من الكراهة ومع الاحتياط ، بحيث لا أقطع على نفسى خط الرجعة ، لأنى لا أعلم من هذه الأحكام ما تعلمه أنت .

فزدنا يا أخى من هذه الفتاوى ، ولو جاءت بضد ما أنا قائل . لقد استحسنتُ ما أوردتَه من الكلام المخالف لرأيى من جهة التحديث ، وقولك إن ما جاء فى طبقات ابن سعد من عدم استحسان عمر لكتابة الأحاديث فيه ضعف أوقصور .

أما قولك إن بيت :

قيل لى صف برَدَى كوثرها   قلتُ غالٍ برَدَاهَا بِرِدَاها

فهل أنت واثق أنه لابن الفارض ؟ بالله راجعْ ديوانَ ابن الفارض ، فإنى لا أزال أظنه لشاعر آخر من أهل بولاق . أخشى أن تكون أردت أن تصحح لى فصرت إلى قول ينبغى له التصحيح .

وأما قولى : أحد إخواننا المصريين إلخ ، فلم أقصد به إخواننا المعاصرين ، بل تكلمت قاصداً « إخواننا المصريين » بمعنى أنهم إخوان أهل الشام فى القديم والحديث ، ولم أعتقد أن هذا البيت لشاعر معاصر .

هذا ومتى وصلت فى الطبع إلى بحث المعادن فأرجو منك أن تضع تحت ذلك البحث الحاشية الواصلة عليه ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

أخوك

شكيب أرسلان

(١) يقال إن الملك فؤاداً دعا الخديوى إلى مصر ، وإنه أرسل لهـذا الغرض توفيق نسيم ، والمثل يقول : قال : إيش أحلى من الحلاوة ؟ قال : الصحبة بعد العداوة ! .

وأما أنا فغير آسف على ذلك الفراق . تصالحا أم تخاصما ، لا أبغى علاقة لا بالواحد ولا بالآخر ، وذلك من كثرة ما بلوت من هذا الخديوى وصغائر أعماله[1] .

— ٣٣ —

سيدى الأخ الأستاذ[2]

أراكم ذكرتم لفظة « مشاكل » وغيركم يذكرها ، ولـكنى لا أعلم كيف تأتى؟ فإن الفعل هو أشكل بمعنى التبس ، فيلزم أن يقال « مشكلات » ، فهل عندكم شىء فى هذا ؟ .

جمع مفعول على مفاعيل أتذكر أنكم قلتم لى إنه غير جائز ، وإن الآتى منه إنما هو ألفاظ مسموعة كمجانين وغيرها .

وعاب الشنقيطى الـكبير قولهم : « مشاهير » .

---

(١) هذه الحاشية جاءت فى ذيل الرسالة .

(٢) هذه الرسالة مكتوبة على صفحة من ورقة واحدة ، وليس هناك تاريخ ، ويظهر أنها كانت ملحقا لرسالة أخرى ، وقد كتب رشيد فى أسفل الرسالة هذه العبارة : « أجيب عنه فى ١٥ رجب » .

ولـكن كلام الفصحاء فيه كثير من هذا ، والجاحظ يقول : مياسير جمع ميسور ، فهل من قاعدة لهذه المسألة ؟ .

جميعنا نقول : « اكتشف » و « اكتشاف » ، ولم أجدها فى كتب اللغة .

وجميع العرب يقولون « احترم » بمعنى وقَّر ، و « الاحترام » ، وليس فى متون اللغة احترم بهذا المعنى .

نعم المولدون استعملوها ، وصاحب البردة يقول :

حاشاه أن يُحرَم الراجى مكارمَهُ أو يرجع الجار منه غير محترَم

فهل عندك شىء فى : اكتشف واحترم ؟ .

ودمت ملجأ ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

أخوك

شكيب أرسلان

— ٣٤ —

برن ٢٣ يوليو ١٩٣١ (١)

سيدى الأخ الأستاذ ، أيده الله

تناولت كتابك رقم ١٥ يوليو وفهمته . نحن مرادنا أن نرسل لك كلَّ حساب نفقة الطبع ، نظراً لحالة المطبعة ومطالبة العَمَلة ، إلا أن الفلاحين الذين اشتروا منا المزرعة هم أيضاً فى عسر ، وقد كتب لى عارف بك النـكدى أنهم استدانوا المائة بخمسة وعشرين حتى أرسلوا الذى أرسلوه ، وأنه هو مازال يلزُّهم (٢) ، وأنا أجبت

(١) هذه الرسالة مكتوبة على أربع ورقات، من الحجم الصغير ، كل منها مكتوبة من الوجهين، ومطبوع عليها اسم : Bellevue Balace

(٢) يلزهم : يلزمهم . واللز : لزوم الشىء بالشىء ، وإلزامه به .

عارف بك أنى لا أجهل ذلك ، لكنهم هم فى بيوتهم وبلادهم ، وأما أنا ففى غربة ، لا أقدر أن أتناول من أحد مليما واحداً ، إذ ليس لى ملك فى هذه البلاد ، وفى هذه الأيام مرادى النقلة إلى جنيف ، ويلزم لى دراهم ، وكذلك طبعت بمطبعة « المنار » كتابين لا تزال كلفتهما دَيْناً علىّ .

فلا بد من أن يأتينا من الشام دراهم ، فأسدد بقيةَ الحساب .

ثم إنى أنا قد كتبت وسأكتب إلى سائر من أرسلت إليهم الرسالة « لماذا » بأن لا يرسلوا الثمن إلا لك .

الزاهرى أرجو أن ترسلوا إليه ٥٠ نسخة من « لماذا » فوق ما أرسلتموه حتى الآن .

« بنونة » بتطوان أظنه تحت المراقبة ، لأن الفرنسيس تشكوا كثيرا إلى الأسبانيول ، قائلين إن كل حركات المغرب والريف هى حركات بانيسلاميسم ، وكلها منى ، وكلها بمكاتبات منى إلى بنونة . . إلخ .

فمنذ شهرين انقطعت كل مكاتيب بنونة عنى ، وأظنه خشية المسئولية لم يجرؤ أن يتسلم نسخ الرسالة ، بعد أن طلبها بإلحاح شديد ، فأنا أمس كتبت إلى محمد الداود صهر بنونة ملتمسا منه أن يعيد نسخ الرسالة التى لم يتسلمها عمه ، وذلك إلى مصر ، أو أن يرسلها — وهو الأحسن — إلى أحمد توفيق المدنى فى الجزائر .

وذكرت لمحمد الداود أن المرسَل لعمه هو ٢٥٠ نسخة ، وأن الذى وصل إلىَّ من الثمن إنما هو ثمن ١٠٠ فقط ، فإن كانوا صرَّفوا شيئا من المائة والخمسين الباقية فليرسلوا ثمنه إلى « المنار » ، وعلى كل حال فالنسخ التى لم يتسلموها نرجو منهم إعادتها إلى مصر ، أو إرسالها إلى الجزائر ، وتعريفنا كلفة إعادتها لندفعها لهم .

أما توفيق المدنى فقد جاءنى منه مكتوب بتاريخ ٣ يوليو يقول فيه حرفيا .

« كانت إدارة المنار أشعرتنى بأنها أرسلت إلىَّ كميةً من كتابكم القيم ، إلا أنى إلى يومنا هذا لم أتصل بتلك الكتب ، والناس متعطشة إليها » .

ثم إنى الآن بعد أن راجعت القائمة المرسلة من السيد عاصم بالموزَّع من نسخ الرسالة وجدت محررا بجانب اسم توفيق المدنى الجزائر ٢٠ نسخة ، ثم محررا تحتها إرجاع ٢٠ نسخة .

ثم لحظت أنه مرسل إلى السيد محمد الهاشمى حميدة ٥٠ نسخة ، وقد أرجعتها البوسطة أيضا .

فعلمت أن بوسطة الجزائر منعت دخولَ الرسالة ، ومن قولك إن الزاهرى لم يخبرك أيضا بوصول النسخ الأخيرة ، فتكون قد حجزت أيضا فى بوسطة تلمسان ، وسنكتب له بأنه إن لم يقدر على تخليصها فليعمل لإرجاعها إلى مصر .

وسأكتب الآن إلى محمد الداود بتطوان بأن لا يرسل الكتب إلى الجزائر ، بل يعيدها إلى مصر .

أما ما بقى من نسخ الرسالة فأنا كاتب الآن إلى السيد عبد الرحمن عاصم كيف أرجو منه أن يوزعها .

فأما « الارتسامات » فقولى إنها مقدمة لجلالة ابن سعود فمعناه ما ذكرته عنه فى المقدمة ، فلا أرى حاجة إلى وضع عبارة جديدة ، وأما من جهة وضع صورته أو صورتى أو كلتيهما فى الكتاب فلا أحب ذلك .

قد وضعوا صورتى فى كتاب « أناتول فرانس » بدون علمى :

فلهذا لم أرسل إليكم برقية بحسب إشارتكم ، وأنا أرجو أن ترسلوا بالنسختين المذهبتين لجلالة الملك وسمو ابنه الأمير فيصل فى أول بريد مع نسختين غير مذهبتين ، إحداهما لعبد الله سليمان مدير المالية ، والأخرى إلى فؤاد حمزة مستشار الخارجية .

وتكرموا بإرسال نسختين لى حسبما ذكرتم ، حتى أكتب كيف أرجو أن تصنعوا من جهة التجليد .

قرأت لحافظ وهبة ما كتبتموه لى من أنه « أعقل رجال ابن سعود » فكان مسروراً .

أمس جئنا أنا وإحسان إلى برن للسلام على الملك فيصل ، وقلت لإحسان إنه ينبغي أن ننبهه إلى قضية أخيه على ، حتى لا يزلق ويرضى بجعله ملكاً فى سورية تحت الانتداب ، فنضطر إلى الاحتجاج إلخ . فقال لى إحسان : جيد ، لكن لا تجعل أسلوب الكلام خشناً . والحاصل قلنا له كل ما يلزم بصورة لطيفة لكن جازمة .

قلت له أمام إحسان وتحسين قدرى وجعفر باشا وصفوت العوا ما يلى :
سألونا من الشام ما رأيكم فى هذه المسألة ، فقلنا لهم تحت خطنا وإمضائنا : أما الترجيح بين الملكية والجمهورية فهذا لا نتعرض له ، بل نتركه لرأى الأمة . وكذلك لا نقول « على » ولا نقول غير « على » ، بل الذى تنتخبه الأمه هو الذى نرضى به أيًّا كان . أما الشىء الذى لا ننزل به على حكم أحد حتى الأمة نفسها هو قبول مَلك تحت الانتداب ، أو قبول دستور فيه ما يمس السيادة القومية . فهذه نقطة نعلن فيها رأينا ولا نرائى بها أحداً .

فقال الملك فيصل : أنا بالدرجة الأولى لا يهمنى إلا هذه النقطة ، فقَبْل النظر فى قضية ملكية وجمهورية وقضية على وغير على يجب أن نوجه كل قوتنا لنيل مطالب سورية الوطنية ، وبعد أن نتأمن عليها نتكلم فى الموضوع الآخر الذى هو ثانوى .

هذا ماجرى ، وتكلمنا معه اليوم صباحاً فى مسائل متعددة من جملتها التربية الدينية ، وكانْ صفوت العوا حاضراً ، فأخذ يومىء لى بأن أؤكد وألح

فى الموضوع ، وأنا لا يلزم لى تحريض ، فقلت كل ما يلزم وهو وافقنى ، ولكنه اعتذر بأمور يطول شرحها ، ولا أقدر أن أكتبها الآن ، لأن موعد القطار جاء ، ويجب أن أعود إلى لوزان ، وملخصها أنه سيعتنى بهذا الأمر بصورة جدية . حقق الله ذلك .

عادل منذ وصل إلى الحجاز لم يجئنى منه شىء ، وإنما جاءنى من أحد أصحابى أنه صعد من مكة إلى الطائف .

قد لحظت أن نسخ الرسالة « لماذا » الموزعة بمصر لم يندفع من ثمنها إلا جزء ليدكم وهو ١٦ جنيها ، فسأكتب لبعضهم فى عمل همة بتصريف جميع النسخ ، ودفع ثمنها لكم ، وأنتم لا شك أنكم تلزّونهم .

الحاج أديب خير كتبت إليه بإرسال المائة نسخة التى حجزتها حكومة الشام إلى القدس .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أخوك
شكيب أرسلان

— ٣٥ —

لوزان ١٤ ربيع الأول ١٣٥٠ (١)
سيدى الأخ الأستاذ ، أيده الله
أشرتَ علىَّ بإعادة طبع رسالة « لماذا تأخر المسلمون » وإعادة النظر عليها ، فشرعت من اليوم بذلك ، وإليك أنموذجاً من الزيادة والتغيير ، وإن كان أعجبك

(١) هذه الرسالة مكتوبة على صفحة من ورقة متوسطة الحجم .

أفدني أنه موافق ، حتى أمضى فيه إلى الآخر ، ولعل حجم الرسالة يزداد نحو الثلث بهذه الزيادات إن لم يكن أكثر .

أرجو أن تحفظ الأوريقات الواصلة فى درج خاص ، وأنا أبعث إليك هذه العلاوات تباعاً . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

أخوكم

شكيب أرسلان

(١) أرجو الأمر للمكتبة بإرسال ١٠ نسخ من « الارتسامات » للسيد محمد الحكيم محرر مجلة « الاعتصام » فى حلب [١] .

— ٣٦ —

جنيف ٧ ديسمبر ١٩٣١ [٢]

سيدى الأخ الأستاذ ، أيده الله

من أربعة أيام أرسلت إليك مقالتى عن تاريخ الأستاذ الإمام رحمه الله .

أرجو منك أن تبعث لى بالأوراق التى بعثت بها إليك من العلاوات على رسالة « لماذا » . وذلك أن علاوات أخرى كنت كتبتها قد فُقدت هنا ، فأصبحت لا أعرف الذى سبق من الذى لحق ، فيلزم أن تعيد لى العلاوات التى كنت أسبقتُها إليك ، حتى أتمكن من الإكمال ، ونعيد طبع الرسالة .

لا أزال منتظراً إرسالَ حساب نسخ هذه الرسالة ، لأنه بحسب القائمة التى أرسلت بها إلىّ لا يكون توزع منها إلا ألف وأربعمائة نسخة ؟ والحال أنك تقول إنها نفِدت تقريباً . إذاً تجب مراجعة الحساب .

---

(١) هذه الحاشية موجودة فى ذيل الرسالة .

(٢) هذه الرسالة مكتوبة فى ورقتين من الحجم الكبير، كل منهما مكتوبة من جهة واحدة .

بانبيله ، يقول إنه إلى حد الآن ما وصل إلى مرسيلية شىء ، لا من رسالة « لماذا » ولا من « الارتسامات » . وقبلا أرسلنا ٢٠٠ فرنك فرنساوى لأجل نفقة إرسال ١٥٠ نسخة من الرسالة ، و ٥٠ نسخة من الارتسامات إلى مرسيلية ، ولكن لم يقع الإرسال ، فربما كان السبب فى ذلك الأزمة المالية ، وربما فقدتم العنوان الذى رجوتكم إرسالَ الكتب إليه .

لهذا برغم جميع العسرة التى أنا فيها مرسل إليكم مائة فرنك سويسرى أى ٥٠٠ فرنك فرنساوى ، راجياً أنا منكم إرسال الكمية المذكورة إلى مرسيلية بالعنوان الآتى الذى أرجو منكم أن لا تفقدوه ، وأن تأمروا من يحرره ويقيده فى العناوين التى أمام نظركم فى لوح ، حتى لا تضطروا إلى مراجعة المكاتيب لمعرفة العناوين ، لأن هذا يطول ولا يتسع له الوقت ، فالعنوان المذكور هو هذا :

M. SAID ALI ABDOU
42 Rue Mazendo Marseille

أرجو إذاً إرسالَ ١٥٠ نسخة من الرسالة ، فإن كانت النسخ منها نفدت كلها فأرسل ١٠٠ نسخة من الارتسامات مع المتيسر من الرسالة ، وذلك إلى هذا العنوان ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أخوك

شكيب أرسلان

J. Tvanue Ernest Hentsh

— ٣٧ —

لوزان فى ٢٧ ربيع الأول ١٣٥٠ (١)

سيدى الأخ الأستاذ ، أيده الله

كتب لى أحد أصحاب الأملاك من مسلمى الجزائر يستفتينا فى قضية شرعية :

(١) هذه الرسالة مكتوبة فى ورقتين من الحجم الكبير كل منهما مكتوبة من الوجهين .

عنده وعند غيره كُرُوم عنب ، فقد يؤجرونها للإفرنج ، وهؤلاء يصنعون من عنب هذه الكروم الخمرَ ، فهل يلحق أصحابَ الأملاك المسلمين إثمٌ من ذلك ؟ وأحياناً لا يتيسر لهم مستأجر ، فتبقى أملاكهم بدون ريع يُذْكر ، فهل يجوز لهم أن يصنعوا منها خمراً .

فأنا أجبته إنى سأستفتيكم فى المسألة وأعرِّفه ، وقلت له إنى لست بمرجع فى مثل هذه الأمور ، أما رأيى الخاص فهو أنه إذا آجر المسلم كرومه لغير مسلم فليس عليه إثمُ ما يصنعه المستأجر ، لا سيما إذا كان مضطرا للايجار ، وأما أن يصنع المسلم الخمر فهو غير جائز بوجه من الوجوه ، ولو كان له بذلك حظ ومنفعة ، فإن الشريعة الإسلامية لا تجوِّز الضررَ الأدبى فى سبيل الربح المادى ، وعندها ثروة الأخلاق مقدمة على ثروة الجيوب ، ومع هذا فليس بضرورى الخمر لأجل المنفعة ، فمن أسبانية ترسَل مقادير عظيمة من العنب إلى أوربة ، ومن أزمير يرسل كثير من الزبيب : ولقد علمت أن الخمر بفرنسة قد انحطت أسعاره كثيرا من كثرته ، وهم يقدرون أن يحدو ازراعات مكان الكرم تغنى عن الكرم لو بحثوا ، ولكنهم يؤثرون الكرم والخمر لأنها أسهل عليهم .

هكذا أنا أفتيت بالمعقول ، فأفتنا أنت بالمعقول والمنقول معاً .

السيد على باعبود باعلوى من سورابايا يستأذننا فى ترجمة رسالة « لماذا تأخر المسلمون» إلى لغة الملايو ، وبسيونى عمران لم يترجمها ، أفلا ترَوْنَ الأحسن أن نأذن للسيد على باعبود فى ترجمتها ، ونشترط عليه كذا بالمائة من الربح .

هـذه الرسالة يمكن أن تروج كثيرا فى الجزر الأندونسية إذا تُرجمت إلى لغة الملايو . أرجو على كل حال إرسال نسخة تحت يد صاحب جريدة حضرموت بسورابايا إلى السيد على باعبود باعلوى، لأنه استهدانى إياها ، وقد أهدانى كتباً كثيرة .

كتبت إلى السيد عبد الرحمن عاصم بأن يرسل إلى كلٍّ من السيد سعيد

الزاهرى — تلمسان ، وإلى السيد توفيق المدنى — الجزائر ، وإلى السيد محمد الهاشمى ابن حيده — الجزائر ٢٠ نسخة فى رزمة ، على شرط أن تكون العناوين واضحة ، وباللغة الفرنسية مع العربية ، فالزاهرى يقول إن منع الرسالة لم يقع فى الجزائر بل فى المغرب ، وإن إعادة بوسطة الجزائر للكتب لم يقع بسبب المنع ، بل بسبب عدم الضبط فى العناوين ، وهو يقول أيضا إن النسخ العشرين التى وصلته لم تصل إلا لأيا (١) ، وذلك من تحريف وقع فى العنوان .

ما عرفت رأيكم فى إرسال « الارتسامات » إلى مكة ، فهل ترسلون مقدارا إلى المكتبة السلفية ، أم لكم عميل آخر ، وأما أنا فقد بعثت إلى فؤاد بك حمزة أسأله عما إذا كان يستطيع أن يصرف ٢٠٠ نسخة من « الارتسامات » لنرسلها له ، ولا أزال منتظرا الجواب .

رجوت السيد عبد الرحمن ابن عمكم أن يرسل إلى السيد على جودة فى نو يورك ٢٠٠ نسخة من « الارتسامات » .

قبلا رجوتكم إرسال نسخة بالثمن من « حاضر العالم الإسلامى » إلى الحاج داود ابن الحاج عبد الغنى فى بورنيو ، وعنوانه هو ما يلى :

Haj Dauoud Bin Haj Tbdulghani
Kj. Pa. Lingen, Kuching Sarawak Borneo

وكذلك نسخة من رسالة « لماذا تأخر المسلمون » ، ولا بأس أن ترسلوا إليه نسخة من « الارتسامات » أيضا .

وأرجو أن تعتمدوا فى كتابة العناوين على من يعرف اللغة الإفرنسية أو لغة أوربية ، لأن الألفاظ القليلة الإفرنسية التى أوردتها فى الارتسامات وقع فى كل منها خطأ بالطبع ، فعلمت أنه ليس عندكم مصحح يعرف هذه اللغة .

---

(١) اللأى : الإبطاء والاحتباس .

« والحلة السندسية فى الرحلة الأندلسية » ملأى بالكلمات الأوربية ، والحاشية فيها لفظ كل علَم بالإفرنسية ، وفيها ألفاظ كثيرة بالأسبانية ، فإذا كنا سنطبع الرحلة الأندلسية فى مطبعتكم فلابد من إعطاء المسودات إلى من يعرف فرنساوى حق المعرفة ، لأن فى كل صفحة عدة ألفاظ أوربية ، وأحيانا جُمَلاً برمتها .

نعم يجوز أن أنتهى من الجزء الأول من الرحلة الأندلسية بعد بضعة أشهر ، وهو الذى فيه تاريخ العرب بفرنسة وشمال إيطالية وسويسرة ، وسيكون بقدر الارتسامات فى الحجم ، ولكنى قبل طبعه سأجهز نفقة الطبع ونفقة إرسال النسخ إلى الجهات دفعة واحدة ، وبعد ذلك أرجوكم إرسال نسخ الكتاب إلى الأقطار بحسب تعريفى ، لأنه لا يمكننى إبقاء الكتب بمصر آملا أن الناس تطلبها من هناك، فإن الكتب على هذه الحال تبقى سنين بدون تصريف ، وأنا مضطر إلى تصريفها.

قبلا سألتكم هل تعلمون أنه موجود كتاب فى تاريخ حياة الإمام الأوزاعى اسمه « محاسن المساعى » ؟ وما رأيكم فى طبعه ، ولم تجاوبونى ؟ .

قرأت فى « الارتسامات » اعتراضاً لكم فى الحاشية صفحة ٩٥ ولم أفهم وجهه . فهل السهو منى أو السهو منكم ؟ أريد التثبت .

أنا أقول : « بينها ثقوب ضيقة لا تكاد المسلة تدخل فى الواحد منها ، فكانت فى حكم كأن لم يكن من جهة نفوذ الهواء هذا على فرض وجوده » . مرادى أن جدران السطح فيها ثقوب ضيقة جدا ، المقصود منها نفوذ الهواء ، لكنها لشدة ضيقها لا يكاد الهواء ينفذ منها ، فكأن وجود هذه الثقوب كالعدم ، هذا على فرض أن هناك هواء ، والحال أنه فى أيام الوَمَد [1] يكاد الهواء ينقطع بمكة .

---

(١) الومد : الحر الشديد مع سكون الريح ، أو ندى يجىء فى صميم الحر من قبل البحر ، أو شدة حر الليل .

هذا مرادى . فإن كانت العبارة لا تؤدى هذا المعنى عندك فقل لى من أية جهة لا تؤدى هذا المعنى ؟ ولماذا حكمت أن فيها سهواً ؟ .

لى عادة فى السهو ، ولى عادة أن أراجع ما كتبت أو أقرأه بعد الطبع ، فأجد ألفاظاً بقيت فى المحبرة ، لكنى هنا لا أرانى ساهياً ، إلا أن تنبهنى إلى موضع نقص الجملة .

هذا وأرجو أن لا تنسوا إرسال نسخة من « الارتسامات » إلى الشيخ عبد القادر الشيبى صديقنا الأعز الذى ذكرناه فيها مراراً . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أخوكم
شكيب أرسلان

(١) هل فى مكتبتكم « عيون الأخبار » لابن قتيبة ؟ وهل فيها تاريخ الطبرى ؟

(٢) هنئوا عنى السيد عبد الرحمن عاصم بالمولود الجديد ، سلمه الله له ، وأقر عينه به[١] .

— ٣٨ —

لوزان ١٣ ربيع الثانى ١٣٥٠[٢] .

سيدى الأخ الأستاذ ، أيده الله .

الآن أخذت كتابك ، وبادرت بالجواب ، بالرغم من كثرة ما علىَّ من الكتابات المستعجلة ، ياسيدى أنا لم أجد عليك أدنى مَوْجدة[٣] فيما نبهتنى إليه

(١) هاتان الحاشيتان جاءتا فى ذيل الرسالة .

(٢) هذه الرسالة مكتوبة فى خمس صفحات من الحجم المتوسط ، كل منها مكتوبة من جهة واحدة .

(٣) الموجدة : الغضب .

من أغلاط أو من مواضع انتقاد ، بل ما شكرتك ولا مرة بقدر شكرى لك على تنويهك إياى من أجل إتقان صنعة ليس لى صفة غيرها .

ولكنى ياسيدى قدَّمت لك آرائى ، وإن راجعتَ نفسك لا تجدنى مخطئاً بقدر ما تظن .

أنا كنت ولا أزال فى المشددين فى اللغة ، المانعين التوسع فى الاستعمالات المخالفة لأصول اللغة ولكلام الجاهلية ، فإن إطلاق العِنان يوصلنا إلى حل القواعد والأوضاع ، فتذهب اللغة ، ولا يفهم الآخرُ الأول .

إلا أن لكل شيء حدًّا ، فإذا أردنا أن نجارى بعضَ المتحذلقين فى تشديداتهم ، ولم نُجَوِّز إلا كلامَ البادية فى الإسلام ، ضاق نطاق اللغة إلى حد أنها عادت لا تفى إلا بحاجات بعض قبائل رُحَّل . . . وهناك لا يبقى كاتب من كتاب العربية فوق الغربال ، بل يعودون كلهم مخطئين .

ياسيدى أريد أن أنبهك إلى أشياء أظن أن كثرة شغلك لا تدعك تفكر فيها ، فمن هذه الأشياء أن اللغة العربية فيها لغات شاذة ولغات ضعيفة ، وأن العرب نطقوا بها ، وأنه لا يقال لمن نطق بالشاذ إنه غلط ، لأن هذا النطق كان قبل القواعد ، وإنما يقال إن لسانه سبق إلى ما المألوفُ غيرهُ . ولا يقال لمن نطق بلغة ضعيفة إنه غلط ، وإنما يقال إن الأكثرين نطقوا بغيرها . ياسيدى فى كتاب الله وجدت بعضَ استعمالات ليست مما نطق به الجمهور ؛ أفنجعل ذلك لحناً ؟ .

كان جاء فى جريدة « الطان » بحث لبيبرميل ، ذكر فيه أنه جاء فى القرآن أغلاط نحوية .

فأجبناه ببحث أدبى لغوى فى مجلتنا الإفرنسية اللغة ، وقلنا له ما محصله إنه لا يمكن أن يكون فى القرآن خطأ نحوى ، لأن القرآن قبلَ وضع النحو ، ولأن

القرآن وشعر الجاهلية هما اللذان عليهما بُنِيَ النحو ، فقواعد النحو مبنية على اصطلاحات العرب قبل الإسلام فى كلامهم ؛ وهذه الاصطلاحات ضبطوها بعد الإسلام ، وحرروها عندما خالط العرب الأعاجم ، فصارت قواعدَ متبعةً ، والقاعدة هى ما نطق به الجمهور ، وقد نطق بعضُهم بما يخالف نُطقَ الجمهور ، فعَدُّوه شاذاً ، وربما كان الناطقون به قلائلَ فعدُّوه ضعيفاً .

والقرآن جاء بجميع لغات القبائل ، حتى ورد فيه شيء من باب اللغات التى لم ينطق بها الجمهور ، ولـكن لا يقال لهذا خطأ ، ولا يقال لشيء إنه مخالف لقواعد النحو ، وهو قد وُجِدَ قبل قواعد النحو .

فهذا هو رأيى فيما جاء فى القرآن من هذا النمط ، وأنا أرى أن الدِّين أهمُّ من اللغة ، ومع هذا ففى الحديث: «إن الله يحب أن تُؤْتَى رُخَصُه ، كما يحب أن تُؤْتَى عزائمه » .

فللغة أيضاً رُخَص يجب أن تؤتى ، ولا يكون مخطئاً مَنْ أتاها .

ثم إن اللغة بعد الإسلام اتسعت كثيراً مفاهيمُ ألفاظها ، وبقيت عربيةً فصيحة ، والحال أننا لو أتينا ببدوى جاهلى وسألناه عن معنى الزكاة ، والحج ، والقنوت ، وكثير من هذه الألفاظ التى تحولت عن معانيها الأصلية إلى معان جديدة اقتضاها الإسلام ، لم يفهمها ، ثم لو أتينا بعربى اعتادها ، وقرأنا عليه اصطلاحات علمية وفلسفية جَدَّتْ فى عهد العباسيين لم يفهمها أيضاً .

أفنقول إن كل هذا لم يكن عربياً ، لأن الجاهلى لم يفهمه بهذا المعنى ؟! . ثم إن الـكتَّاب والخطباء من صدر الإسلام فما بعده كتبوا أو تلفظوا أشياء لا نجدها فى متون اللغة .

فحل هذه المسألة هو هذا : إما أن يكون فات أئمةَ اللغة ضبطها وتقييدها ، وهذا ممكن لأنهم ليسوا بمعصومين ، وإما أن يكون أولئك الفصحاء أخذوها بالقياس على

غيرها ، فإن قولنا إن اللغة لا يصح فيها القياس ليس عاماً ، فكل فعل مثلا لا بد له من اسم فاعل ، ولا يستلزم جوازه مجيئه فى القاموس أو الصحاح مثلا . إذاً ضاق الأمر جداً . وقريباً سأنشر رسالة فيما جاء عن الذين يستشهد بعربيتهم ولم يرد فى متون اللغة .

ثم إن فى اللغة باب التأويل والتضمين ، وهو من محاسنها ، وهو مما يجيز لنا التوسع . فأنا أقول : جاء رأساً ، ولا أراه مخالفاً للعربية ، وإن لم يكن ورد فى كلام السلف ، وذلك لأنى أضمّن الرأسَ هنا معنى البداية . وأقول : صدر منه ، إذا كان صدر بمعنى برز أو ظهر ، ولا أرى هذا خطأ .

وأما أن من التأويل ماهو جائز وما هو غير جائز ، فلا شك فى هذا ، ولكن قولى « رأساً » وقولى « نحو كذا » هو من الجائز ، ثم إن هذا التوسع كما تقدم الكلام عليه موجود من أول الزمان . ولا يخلو منه كلام أحد من جهابذة القول .

استعملتُ فى آخر بنى سراج « النواقيس » بمعنى الأجراس ، فكان ذلك مما عابه علىَّ إبراهيم اليازجى فى مجلته « الضياء » وقال : إنما الناقوس هو الخشبة التى يقرع عليها القسيسُ ليأتى النصارى إلى الصلاة ، أى أنه لا يجوز استعمالها للجرس وهو معدن .

فأجبته : أفلا تقول للبيت المبنى بالحجر إنه بيت ؟ لا شك أنك تقوله ، فاعلم أن أصله لبيت الشَّعر . أفلا تقول : شباك من حديد ؟ بلى تقول . فاعلم أن تعريف « الشباك » فى اللغة المحبوك من قصب . وهلم جرا . فإذا تقيدنا بتعريف متون اللغة ، ولم نُجِز التوسعَ بما جدَّ من المعانى ، وما اتسع من مناحى الحياة ، أصبحنا كمن يرسف فى قيد .

وفارس الخورى كتب لى من أيام جُمْلةً لا تخلو من معنى ، قال : اللغة تريد

بنا اليسر ولا تريد العسر ، وإرادة [1] اليسر فى الدين لا تفيد الانفلات من القيود ، بل تفيد إرادةَ عدم التشديد المضر ، وهكذا فى اللغة .

إنى أطالع فى الجرائد المصرية بعضَ تشديدات لغوية ، منها ما قرأته مرة فى (المقتطف) لأحد المستنطعين ، لكن مثل هؤلاء لا يؤبه بهم ، وإن مشينا معهم كان أعظم كتّاب العربية مخطئين .

وقرأت « عثرات الأقلام » لأسعد خليل داغر ، فوجدته متعنتاً فى مثل قوله : لا يقال محاضرة للخطبة العلمية ، لأن المحاضرة معناها الأخذ والرد ... إلخ ، ولا يقال خطاب ، لأن الخطاب هو ما يخاطب به الإنسانُ غيرَه ، والحال أن الخطبة هى غير ذلك . فهذه تشديدات بغير محلها ، وما عليه أن يقول إن الخطاب هو كلام يخاطب به الإنسانُ الجمهورَ ؟ . ثم وجدت أسعد خليل داغر يخطئُ أشياءَ واردة ، لكنه خطأها لعدم اطلاعه عليها .

لم أجد « احترم » بمعنى وقر فى متون اللغة إلا فى « أساس البلاغة » ، أفترى استعمالَها خطأ ؟ . لتكن خطأ ، وقد قالها الزمخشرى وغيره من الأئمة ، وجاءت فى البردة الشريفة ، ورأيتها كثيراً فى كلام السلف ، فلا أريد أن أتحرج فيما أجازه مثلهم ، ولا أريد أن أكون فى اللغة أعلمَ من الزمخشرى وأمثاله .

هذا هو رأيى . وترانى أقول « مشاهير » مقتدياً بهؤلاء الأئمة ، لا جاهلا ما جاء من عدم جواز الاستشهاد بكلام المولدين .

وإذا كنت أبدى لك رأيى هذا ووجهى فيه ، فلا يكون لأفيدك ما كنت لا تعلمه من قبل ، ولكنى أخبرتك مرة برأيى فيما جاء فى كتاب الله من اللغات أو الاستعمالات المخالفة للمألوف ، ولم تجبنى إلا بجملة قصيرة لم تشف غليلا ، فماذا

---

(١) فى الأصل : « وإرادة » ، وهو سبق قلم .

تقول فى « قتل أولادهم شركاؤهم » مثلا ؟ ، وغير ذلك مما لا أقول فيه إلا أنه من رخص الكلام العربى ، ومما لا يقال فيه إنه غير جائز ، بل يقال إن المشهور خلافه .

لم تجبنى على خَطْب الجملة الواردة فى صفحة ٩٥ من « الارتسامات » ، والتى قلت فى الحاشية إنى لعلى سهوتُ بها ، فأنا إلى الآن لم أفهم وجهَ الاعتراض على قولى عن الهواء « هذا على فرض وجوده » .

اكتب لى جواباً متوسطاً عن مسألة الكَرْم والخمر[١] ، حتى نترجمه إلى مجلتنا الإفرنسية اللغة ، لأنها منتشرة فى الجزائر ، وهم منتظرون الجواب .

متى تيسر ٢٠ جنيهاً مما يفضل عنا أبادر بإرسالها إليك ، وأرجوك إعادةَ طبع رسالة « لماذا تأخر المسلمون » . وسأبعث بزيادة عليها لا تكون أقل من الثلث ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

أخوك

شكيب أرسلان

(١) ما أجبتنى على مسألة الإذن للسيد على باعبود بترجمة رسالة « لماذا » للغة الملايو ؟ فإن استحسنت ذلك فلتأذن له بها .

المشهور أن يقال أذن فى الأمر . وأنا أرى أنه ما من خطأ إن قلنا أذن به[٢] .

---

(١) تحدث عنها شكيب فى رسالة سابقة .

(٢) هذه الحاشية جاءت فى ذيل للرسالة .

— ٣٩ —

لوزان ١٧ ربيع الثانى ١٣٥٠[(١)]

سيدى الأخ الأستاذ ، أيده الله

أرسلت لك من خمسة أيام بأنموذج من الزيادات التى رأيت أن أزيدها على رسالة « لماذا » فى الطبعة الثانية ، وهذا هو الأنموذج الثانى ، أرجو أن تنبئنى أيعجبك هذا النسق ؟ .

غير أنه عندى ملاحظة ، وهى أنه لا يجوز أن نعلن شيئاً عن الطبعة الثانية والزيادة عليها إلا بعد أن تنفد الطبعة الأولى كلها ، وذلك أننا نوشك أن نصرف الناس بهذا عن شراء الباقى من نسخ الطبعة الأولى فنخسرها . نعم متى تمَّ توزيعُ نسخ الطبعة الأولى نباشر الطبعةَ الثانية ، ونخرجها مع العلاوات ، ونعلن عنها .

لهذا رجوت السيد عبد الرحمن عاصم أن يرسل لى بعلم ما توزَّع من الأول إلى الآخر من رسالة « لماذا » .

بعد يومين سأذهب إلى مؤتمر المستشرقين فى ليدن ، وسأعود من هناك بعد غياب ١٠ أيام إن شاء الله . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أخوكم

شكيب أرسلان

إلى[(٢)] مولاى الأستاذ

أمس كتبت نماذجَ من الزيادات على رسالة « لماذا » ، وبعثت بها إليك .

---

(١) هذه الرسالة مكتوبة فى صفحة واحدة من ورقة متوسطة الحجم ، ومعها ملحق مكتوب فى نصف صفحة من ورقة متوسطة الحجم ، وأول هذا الملحق قوله : « إلى مولاى الأستاذ » ، ومعها ملحق آخر مكتوب فى أربع ورقات متوسطة الحجم ، كل منها مكتوب من الوجهين ، إلا الأخيرة ففيها صفحة بيضاء ، وأول هذا الملحق قوله : « سألتم عن مسألة سورية » .

(٢) هذه بداية الملحق الأول للرسالة .

فأرجو أن تضيف أيضاً عبارة صغيرة إلى قولى عن قِدَم مدنية اليمن ، وكون الكتابة فيها أقدم منها فى بابل ، هذا فى الزيادة التى تحت صفحة ٩ .

والعبارة هى هذه :

« وقيل إن النزوح[١] وقع من بابل إلى اليمن ، وإن المدنية والكتابة جاءتا من بابل إلى اليمن بواسطة المهاجرة ، ولكن لا يزال بعض العلماء المتخصصين فى تاريخ الكتابة يذهبون إلى أنها فى اليمن أقدم منها فى كل مكان ، ومن هؤلاء العلامة مورتيز الألمانى » .

* * *

سألتم[٢] عن مسألة سورية وفيصل ، وتوحيد العراق والشام .

فيصل منذ سنتين — أى منذ انعقاد المعاهدة الأخيرة بين انكلترة والعراق — قد تسلم زمامَ العراق فعلا ، ولم يعد الإنكليز يتعرضون فى ذلك القطر إلا لما هو داخل فى المعاهدة ، وإنكارُ هذه الحقيقة هو إما تعنت كرهاً بفيصل أو بوزرائه ، أو تشاؤم وتسخُّط كما هى عادة العرب اليوم .

فلما صارت سياسة العراق فى يد فيصل صارله مركز فى أوربة ، ولمع وزاد لمعانه بزيت النفط الذى هو أقصى أمانى الأوربيين ، وتذكر هؤلاء ثروة العراق بزيوته وأرضه ، فصاروا يتقرّبون إلى فيصل ، وعهدت كثيرا من الماليين جاءوا إلينا حتى نقدمهم إلى فيصل ، وعرضوا على العراق أن يقرضوه أموالا ، ولكنّ الملك رفض الاقتراض .

وكانت فرنسية فى البداية تحل أمورها مع العراق بواسطة إنكلترة ، لكن من سنتين بطل هذا ، وصار الإنكليز يقولون للفرنسيس : فى العراق حكومة .

---

(١) النزوح : الهجرة والرحيل .

(٢) هذه بداية للملحق الثانى للرسالة .

عند ذلك ثبت وجود شيء اسمه العراق ، في يد ملك صار محنكا في سياسة أوربة اسمه فيصل ، وكان بريان وبرتلو وكثير من رجال فرنسة مخطئين السياسة التي اتبعتها فرنسة تجاه فيصل ، وإذا لقوه يقولون له : أخطأنا بحقك .

فلما ازداد نفوذه ازداد تقربهم له ، ثم جاءت وزارة « لافال » ، فجاءت بمبادىء جديدة : رأت أن فرنسة منذ خمس سنوات كانت في مركز مالي ضنك ، يُخشى منه الإفلاس ، ففي مدة خمس سنوات صارت أغنى الدول ، وصارت انكلترة تستمدها وما ذاك إلا بفضل الاقتصاد ، فازدادت رغبة في الاقتصاد ، ورأت أن الخسائر السنوية على سورية لا تنتهي ، وأن سورية ليست مستعمرة ، وأن الأتراك لا يزالون يطالبونها باسكندرونة وأنطاكية — وبعد ذلك فلا بقاء لحلب — وصارت العلاقات بين فرنسة وتركية متوترة بهذا السبب ، ويقال إنهم حاسبون حساباً مهما لانتشار البلشفة في البلاد العربية ، فعلى من يعتمدون في منعها ، وإن لم يكن استقلال للعرب لا سيما في سورية ؟ .

وزد على ذلك أن فرنسة تريد جرّ البترول إلى طرابلس ، ومدّ سكة حديد من هذه إلى الموصل لأجل البترول ، ومن الموصل إلى العجم ليكون للخط فائدة ، والحاصل أعمال اقتصادية مهمة ، والاقتصاد اليوم هو الحاكم ، وكلها لا بد لها من رضا فيصل ، فازداد التقرب إلى فيصل .

وفي السنة الماضية فاتحوه بشيء ، وفي هذا الشتاء ببغداد زادوا الحديث معه ، وقالوا له لا بد من الاتفاق ، لكن على مثل ما اتفقت عليه انكلترة مع العراق ، لا أقل ولكن لا أكثر .

وكان ظنهم هم إرضاء فيصل بوضع « علي » ملكا في الشام ، وكان فيصل قد ارتضى ، ولكن في باطنه كان يريدها لنفسه ، مع توحيد الحكومتين تحت تاج واحد ، وقد كاشفني الصيفَ الماضي في مسألة علي فقلت له : ليس لي اعتراض ،

لكن على شرط إلغاء الانتداب ، والاستقلال الحقيقى ، ومساهدة مع فرنسا مؤقتة لا تمس السلطان القومى . ثم إن سمعت منى نتحالف مع ابن سعود .

ففكرة التحالف مع ابن سعود كانت منى بالاتفاق مع الجابرى فتلقاها فيصل بالفرح ، ومشى فيها فصار ما صار ، وقامت الجرائد الوطنية بالتشاؤم المعهود ، والفلسفة التى ليس لها حدود ، وإن هذه دسيسة إنكليزية ، وغير ذلك من الكلام الفارغ ، والحقيقة هى ما قلناه لك .

ولم يكن جميع ما وقع من معاكسة الحلف العربى كله مجردَ تشاؤم منشأه[1] الإخلاص والإشفاق ، بل كان كثيرون يعاكسون المشروعَ لمآرب شخصية ، ولا يبالون بالوحدة العربية ، ولا يريدون إلا أن تبقى المخاصمة مشتدةً بين آل هاشم وآل سعود. ثم جاء فيصل هذه السنة وأقام ببرن شهراً ، وزرناه فيها ، فرأيناه متحيراً فيما سيصنع ، وهو يخجل أن يطالب تاج سورية لنفسه ، ومن جهة أخرى يعلم أن ملكية أخيه على ستلاقى مقاومة من الجمهوريين .

فقلنا له : المسألة ليست مسألة أشخاص ، بل مسألة أمة . ليرضَ على أوليغضب . إن كان يتم اتحاد العراق والشام بك فلا تبال .

قال : إذاً أنتم ترضون بهذا الاتحاد ؟ . قلنا : يا سبحان الله ! ألا نرضى بدولة عربية تكون مليونين فتصير ٦ ملايين ، وفيما بعد ٧ ، وفيما بعد تكون سبباً لاتحاد جميع العرب ؟ . أأفضل أن نبقى بهذا التشتت والتبعثر والتمزق ، ونكون رعايا للأجانب ، وتحت خطر غارة تركيَة أو إيطاليّة فى أول فرصة ؟ أأفضل أن يقول لنا إميل أده : من لم يعجبه الحال منكم فليذهب إلى مكة ؟ . . . إلخ ... إلخ .

هذه مسألة إن تمّت فلا نزاع فى أنها أجل أمنية عند العرب ، لكن لم أنس

---

(١) كتبها شكيب هكذا : منشاؤه .

أن أقول له: يجب أن لا تبت عملا إلا بالاتفاق مع ابن سعود، فقال: سأتلاقى معه في هذا الشتاء في الجوف.

ذهب فيصل إلى باريز، فيظهر أنه أشعر القوم أن الحل الأوكد والأوحد يكون باتحاد القطرين تحت تاج واحد، فمن الفرنسيس من يقول: نريد الخلاص، ولعلّ هذين القطرين إذ اتحدا تكون حكومة قوية تقف في وجه تركية وفي وجه البلشفة، ولا تعود حملة على ظهورنا، ومنهم من لا يزال ضدا لاتحاد العراق والشام وكل اتحاد عربي.

فالمسألة غير مبتوت فيها، وهم ينتظرون إجراء انتخابات بالشام، ومجيء مجلس سوري يبت المسألة على وجه، إن كان يريد الجمهورية أو الملكية، وإن كان يريد الانضمام مع العراق تحت تاج فيصل، فالقول للمجلس، فالقضية سيحلها المجلس السوري.

جاء فارس الخوري إلى باريز، واجتمع مع فيصل، وقد كان على رأينا، وهو أن قرار الكتلة الوطنية بالجمهورية لا يلزم أن يلغى إلا إذا أمكن توحيد الشام والعراق تحت تاج فيصل.

كتب فارس إلى الشام، فغضب عليه بعض رجال الكتلة الوطنية الذين لا يهمهم إلا الجمهورية، وعذره البعض الآخر، وكتب إلى الشهبندر فأجابه: نحن جمهوريون، لكن إن أمكن توحيد سورية مع العراق فيكون جدّ شيء جديد حيوي للعرب، فشكل الحكم عندنا بالدرجة الثانية والثالثة، فالأهم عندنا هو الاستقلال والوحدة.

وأما جميل مردم وبعض الكتلة فأجبروا الأتاسي على إمضاء بيان ضد الملكية، والمعنى ضد اتحاد سورية والعراق، ولو كان اتحاد العراق مع سورية مبدأ حياة

العرب ، وزجرت الكتلة وغضبت . ولكن الرأى العام فى سورية غالب ، وهو يريد الوحدة العربية ، لما فيها من الفوائد الاقتصادية والعسكرية والسياسية والاجتماعية .

والرأى العام غير جاهل خطر الحالة الحاضرة وإنذارها بخطر المستقبل . وكذلك من المعلوم أنه إذا صار العراق والشام دولة واحدة انضم إليهما شرق الأردن ، ثم انهار الوطن القومى الصهيونى بطبيعة الحال . وبعد ذلك ضعف مركز لبنان المارونى ، مع وجود هذا الاتحاد العربى فى ظهره ، وعاد « إده » لا يجسر أن يقول : من لم يعجبه الحال فليذهب إلى مكة . . . إلخ .

فالرأى العام العربى والإسلامى مبتهج بهذا المشروع من شدة فرحه ، ومن رسوخ خلق التشاؤم فى الأمة لا يكاد يصدق .

والرأى العام الكاثوليكى — إلا النادر — هو ضد هذا الاتحاد .

والأرثوذكس منقسمون ، لكن الأكثر منهم مريدون للاتحاد العربى كرهاً بأولئك ، وإده ذهب إلى باريز ، وصاح وبكى ، واستغاث وأنذر بسوء المصير ، وطلب الوطن المسيحى المحض فى لبنان ، ومبادلة السكان كما جرى بين تركية واليونان ، وأن يصفو لبنان مسيحياً ، فأجابوه لا بإجراء المبادلة ، بل إنه لا يتغير شىء فى لبنان . . .

ويظهر أن الفرنسيس متمسكون أيضاً ببلاد العلويين .

فالكتلة الجمهورية فى الشام مسرورة بهذه الأمور ، لتتخذها حجة لمقاومة العرش من حيث هو .

فهى تريد أن تقترح وحدة سورية كلها عدا لبنان الصغير ، لترضى بالاتحاد مع العراق . . . وذلك لعلمها أن فرنسة فى أول الأمر ستتمسك بلبنان الكبير ،

وبالعلويين ، فعندها تقول الكتلة : إذاً لا نرضى بالملكية . وهذا على حد : إذا لم ترد أن تزوج ابنتك فأغل مهرها .

ويظهر أن رأى فيصل ورهطه أن أمر لبنان والعلويين ينحل فى جمعية الأمم بعد دخول العراق وسورية فيه ، إذ تطلب سورية من الجمعية إنصافها .

هذه خلاصة القصة بذاتها . بقى موقفى أنا فيها .

بعض السوريين الذين يهمهم أن يكون ابن سعود لهم وحدهم ، ولا يريدون الوئام بينه وبين فيصل ، وذلك لأغراضهم الشخصية ، أخذوا منذ مدة يفسدون علىّ لابن سعود ، ويجعلوننى أنا مصدر هذا العمل والأصل فى وحدة العراق وسورية.

ولو كان هذا يصح فى حقى لكنت مفتخراً ، ولا حتسبتها خدمةً من خدماتى للاسلام ، أرجو أن ألقاها أمامى فى الآخرة .

إلا أن الحقيقة هى خلاف ذلك . وهى أن فيصل غير محتاج إلىّ أصلاً . ففى فرنسة عضدى له يضره ولا ينفعه ، لأن الفرنسيس يعتقدون أنى أشد مفكرى الإسلام خطراً على الاستعمار الإفرنسى والأوربى إجمالا ، وعليه معاونتى لفيصل تجعلهم يجفلون منه .

وأما فى الشرق ، فإن جاء فيصل إلى الشام ومعه العراق فهو حائز السواد الأعظم من أهل سورية ، ولو كنت له ضداً وملأت الأرض صراخاً .

على أنه لو فرضنا المحال ، وأنى أنا كنت أقدر على منع اتحاد العراق وسورية لأجل منع ملكية فيصل على الشام ، فهل يليق بى ذلك ؟ .

أيليق بى أن أقول : كلا لا أرضى أن تكون أنت يافيصل ملكاً على الشام ، ولو أدى ذلك إلى تعطيل مشروع الاتحاد الشامى العراقى ؟ .

ألمثل هذا ملأتُ الدنيا كتابات لأجل خدمة العرب والإسلام ؟. ألمثل هذا ادخرتُ هذه الشيبة ؟ .

ضع نفسك أنت فى مكانى ، أنت السيد رشيد رضا : أتقدر أن ترفض وحدة سورية مع العراق كرهاً بشخص فيصل ؟ .

ومع هذا فشخص فيصل زائل ، يكون اليوم ، وربما لا يكون غداً ، والمهم هو وحدة الأمة ، لا تاج فيصل .

نعم لو كانت فرنسة فاتحت الملكَ ابن سعود فى ضم سورية أو نجد والحجاز تحت تاجه ، وأنا فضلت فيصل عليه ، لكان لهؤلاء حق فيما يقولون . إنى والله لا أفضل أحداً على ابن سعود ، ولا أحب أحداً ولا فيصل بقدر ما أحب ابن سعود .

ولكن فرنسة مهتمة الآن بإرضاء ملك البترول ، وحديثها مع فيصل لا مع غيره . أفأقول أنا : لا لا ، لتذهب العراق وشرق الأردن وفلسطين والوحدة العربية ، ولنبق ممزقين كلَّ مُمَزَّق ، ولنحمل هذا الذل بأجمعه ، ولنقع فى أخطار المستقبل على بلادنا ، بشرط أن لا يكون فيصل . . .

لا والله لو كنت **ممن يقول** هذا القول ، أو يشعر هذا الشعور ، لكنت نذلاً ، وأجدر بابن سعود **أن يحتقرني** ، ولا يقبلنى له صديقاً .

كل ما أقدر أن أقوله بإزاء أمر كهذا هو أن أشير على فيصل بالاتحاد والعمل يداً واحدة مع ابن سعود . وهذا عملته ولم يعمله أحد بقدر ما عملته أنا . إن كان من أصحاب ابن سعود من يقول له : نحن نفدى العراق ، ونترك الوحدة العربية إذا كنت أنت لا تريدها ياجلالة الملك ، فأنا لست من هؤلاء ، ولا أهنيه بصحبة أناس كهؤلاء يصمون المنافسات الحزبية والأهواء الشخصية فوق المبادىء القومية والقواعد الإسلامية .

على أنى أنا أعهد ابن سعود شهماً تام الشهامة ، فلا أظنه يسخط علىَّ لأجل خدمتى لسورية وللعروبة .

مرارا صرحت لفيصل قائلا : إن كنتم تريدون أن تحركوا الحجاز على ابن سعود لأجل استرجاعه فنحن نكون ضدكم ، لأن العرب والمسلمين يكفيهم هزاهز[1] ، فلا نرضى بحركة هناك ولا فى نجد . فكان جوابه: إنه هو أيضالا يرضى بالحركات على ابن سعود حباً بالعرب . هكذا كان يقول ، والله يعلم السرائر . ولكنى أنا ضد كل من يقاوم ابن سعود فى الحجاز وغيره ، ولو كان فيصل .

فهذا مجمل ما عندى من هذه المسألة ، وأرجو منك أن تجيبنى على هذا الشرح جوابا صريحا ، لا مبهما ولا مختصراً . ومن حيث تريد أن تأخذ فيجب أن تعطى ، ولك فى كل مقام الموقف الأعلى .

— ٤٠ —

جنيف ٢٧ جمادى الآخرة لا الثانية ١٣٥٠ [2]

سيدى الأخ الأستاذ ، أيده الله وأيَّدَ به

تشرفت بكتابك الكريم الذى أوَّلهُ : تحية وسلاما . فقلت الحمد لله على أنك أسبقت سلاما بتحية ، فأرجو أن لا أكون ممن يخاطبون بسلاما فقط ، وممن يصح فيهم : (وإذا لقيهم الجاهلون قالوا سلاما) .

وبعد ، فإنى فهمتُ ما ذكرتموه من بحث سياسى ونشرى واقتصادى . فلنجاوب الآن على كل منها ، ولنبدأ بالاقتصادى ، لأن الأزمة عامة ، وهى أشد ما عرف الناس بهذا العصر .

---

(١) الهزاهز : تحريك البلايا والحروب بين الناس ، وهزهزه : ذلله وحركه .
(٢) هذه الرسالة مكتوبة فى ورقتين من الحجم الكبير ، كل منهما مكتوبة من الصفحتين .

عرفت أنه باقٍ لكم من بعد كل حساب خمسة آلاف وثلاثة وثمانون غرشا عدا العمولة ، ولولا ما نحن فيه من الشدة واللأواء (١) لأرسلناها إليكم دفعةً واحدة، ولكن هذه العُسْرَة أخذتنا على بغتة ، ولقد كانت تَرِدُ إلينا دراهم فانقطعت ، ونحن بمجرد انقطاعها أنزلنا مصاريفنا عما كانت ، وما زلنا ننزلها حتى وصلنا فى الاقتصاد إلى درجة أصبحنا لا نقدر أن ننزل عنها ، أى كنا ننفق ١٠٠ جنيه فى الشهر ، فصرنا ننفق ٤٠ جنيها ، ولولا أجرة البيت وأجرة تعليم غالب وهما ٤٠٠ فرنك سويسرى فى الشهر لربما كنا نزلنا إلى ٣٠ جنيها .

بقينا نأكل برفاهة (٢) ، لكننا تركنا الزوائدَ والفضول ، واقتصرنا فى الملبوس على ما لدينا ، وتركنا لبسَ الجديد ، واطرحنا كل ما ليس بضرورى ، وفى مدة شهر ونصف لم يأكل عندنا إلا أربعةٌ أو خمسة ضيوف بعد أن كانت الناس على سفرتنا بصورة دائمة تقريبا .

وكنا ننفق على الأكل والشرب ٦٠٠ فرنك سويسرى فى الشهر،فلما اضطررنا للتوفير صرنا لا ننفق عليهما أكثر من ٢٥٠ فرنكا . ولقد كنت ألوم البخلاءَ وأقول : قبحهم الله ، ماذا عسى أن يكون مصروف الضيافة ؟ زادُ اثنين يكفى ثلاثة، وزادُ ثلاثةٍ يكفى أربعةً ، وهلم جرا ، ولا أرى مجىء الضيوف مما يزيد المصروفَ شيئا كثيرا ، وكنت أجادل فى ذلك ، ولا أقتنع بعكسه ، إلى أن حصلت هذه الأزمة ، واضطررت بفقد الدراهم من يدى أن اقتصد برغم أنفى ، فعلمت أن البخلاء كانوا عاملين حسابهم جيدا ، وأنهم لم يكونوا يبخلون إلا عن حساب مضبوط .

فأنا الآن عاملٌ بحساب البخلاء ، لكن برغم أنفى ، لأن الوارد لى قليل ؛ ولأن أسعار المحصولات نازلة ، وسعر الزيت من جملتها ، ولأن المطلوب لى من ثمن

---

(١) اللأواء : الشدة .

(٢) الرفاهة . رغد الخصب ولين العيش ، والمترفه : المستريح المتنعم .

مزرعتي غير متيسر التأدية ، ولأن عليَّ مطاليبُ في لوزان مجموعها ٤٠٠ جنيه قسم منها أصحابه من ذوي الإنسانية يصبرون علينا ، ولكن القسم الآخر من ألأم الخلق .

عندما علموا أننا انتقلنا إلى جنيف ولم يبق لهم أمل أن نستهلك من دكاكينهم ، صاروا يكتبون إلينا مكاتيبَ مزعجة ، وينذروننا بإقامة الدعاوى ، ووصل بنا الأمر إلى أن عرضنا رهن بعض الحلي عند أحد الجوهرية الذين نعرفهم ، ليؤدى عنا بعض المطاليب التي تهدد أصحابها بالدعاوى ، فأدى ذلك عنا ، ولم يقبل الرهن ، ولكنه طلب منا أن نجهز له مطلوبه إلى حد شهرين .

فهذه هي حالتنا ، أفضينا إليك بها حتى تعذرنا في عدم تسديد بقية حسابك . على أني أرى لأجل معالجة هذه الخَلَّة[1] الاجتهاد في تحصيل أثمان الكتب والاعتناء بالتصريف ، ولقد كتبت إلى بنونة لأجل الاهتمام بدفع ثمن المائة والخمسين نسخة من رسالة « لماذا » والمائة والخمسين من « الارتسامات » ، وهذا بدون شك المال عنده مضمون .

وأما الزاهري فقد كتب لي أنه سيرسل لكم قريباً ثمنَ الأرسال الأخيرة من الكتابيْن . وأما الحاج أديب فلم أعلم ماذا صنع ؟ هل تمكن من استرداد المائة نسخة من « لماذا » ؟ وأما حلمي باشا ونويهض[2] فقد أرسل إليهما ٣٥٠ نسخة من لماذا » ، وجاءني عنها ثمن ٢٢٠ نسخة .

وأما العقبي . فإن كان لا يثقل عليكم فذكِّروه بثمن السبعين نسخة من «لماذا» وأنا سأكتب له .

وأما النادي العربي بعدن فسأكتب إلى أبناء لقمان بشأن الخمس والعشرين

---

(١) الخلة : الحاجة والفقر والخصاصة ، وفي المثل : « الخلة تدعو إلى السلة » أي إلى السرقة .

(٢) هما أحمد حلمي باشا ، وعجاج نويهض .

نسخة ، لكنى كتبت إليك من قبل أنهم فى عدن مستعدون لتصريف كمية غير قليلة من الكتب .

وقد فهمت أنكم أرسلتم إلى بانبيله فى جيبوتى ٥٠ نسخة من « لماذا » . فهذه لن يضيع ثمنها ، لأن بانبيله ممن يؤدى ، وقد أرسل إلينا سلفاً ٣٠٠ فرنك فرنساوى ، ثم أرسل لنا ٢٠٠ فرنك أرسلناها لكم عن أجرة إرسال مقدار من الكتب إلى مرسيلية ، لأنه طالب كمية منها بعنوان كتبت إليكم عنه ، وهو فى مرسيلية حيث يوجد ألوف من أبناء العرب مغاربة ويمانية وغيرهم ، فنرجو أن ترسلوا إليه ١٥٠ نسخة أو ٢٠٠ نسخة من « لماذا » ثم ١٠٠ نسخة من « الارتسامات » .

ولقد كتب لى أنه حاضر لبيع ألف نسخة فى مرسيلية ، والرجل الذى يدفع سلفاً فهو مأمون ، هذا فضلا عن كونه أرسل إلينا قفة بُنٍّ وطاقم شاى وطاقم قهوة من أبدع شغل اليابان على سبيل الهدية . فماذا تريد أحسن من هذا وآمن منه .

بادرْ أثابك الله بإرسال النسخ التى طلبها إلى مرسيلية .

على جودة مأمون أيضاً وقد بعث لى ٥٠ دولاراً سلفاً . وبانبيله وعلى جوده هما مضمونان لحلمى باشا الذى كتب لى أنه وصل إليه مؤخراً ١٤٥ نسخة من « الارتسامات » وأرسل ٤٥ إلى داود طوقان .

وأما الهاشمى بن حميدة فسأكتب إليه بأن يبعث لكم بثمن الخمسين نسخة من رسالة « لماذا » ، وكذلك سأكتب إلى المدنى ، وكذلك سأكتب إلى مكتبة مصطفى نجيب الصباغ فى حلب ، وإلى السيد عبد القادر حسنى الكيلانى .

ولقد كتبت إلى صالح كنج أبى صالح أستحث همته للتصريف فى الأرجنتين ، وأن يرسل الثمن ، وبعدها نرسل إليه كمية ثانية .

فى الماضى كنت كتبت إلى الجميع بأن يرسلوا أثمان الكتب إليكم رأساً ،

لكن لما برز من أصحاب المطاليب بلوزان ما برز من الخسة واللؤم ، حتى أنذرونا بالدعاوى ، ووصلنا إلى عرض الحلى للرهن خوفاً على شرفنا ، صرت أكتب إلى بعضهم بأن يرسلوا إليك رأساً وإلى البعض الآخر بأن يرسلوا لى .

ولا تقدر أن تلومنى ، فإنى من أيام كتبت إلى أخى حسن[1] بأن يبيع كل الذى حصل من الزيت بالسعر الحاضر ، ويرسل الدراهم إلىَّ حوالةً تلغرافية ، وأما إذا دفق علينا المال من هنا ومن هناك فلا عجب فى أن أبعث إليك بمطلوبك ، الخمسة آلاف غرش والألف والتسعمائة غرش عن العمولة بحوالة واحدة أو حوالتين .

أذنت للسيد على باعلوى بترجمة « لماذا » إلى لغة الملايو ، وأن يأخذ نفقات طبعها وتوزيعها أولاً ، وبعد ذلك فيكون الصافى بيننا وبينه مناصفة .

تقول لى إن رسالة « لماذا » كادت تنفد ، والحال أن عدد النسخ المرسلة إلى الآفاق منها هو ١٤٥٣ نسخة لا غير ، فيكون الذى توزع هو النصف ، ويكون بيع منها بواسطة فؤاد بك سليم وإسماعيل بك شيرين وسليم بك عز الدين وجمعية الشبان المسلمين وحافظ بك عوض هو ٣٠٥ نسخ لا غير ، بناء على أن الوارد منهم هو ١٥٢٥ غرشا .

إذاً الذى تصرَّف منها نحو ١٧٦٠ نسخة .

رجوتك قبلا أن ترسل لى ١٠ نسخ من « لماذا » ، و ٧ نسخ أو شيئاً من هذا من « الارتسامات » ، فإنه لم يبق عندى ولا نسخة ، لا من هذه ولا من هذا قسما بالله تعالى ، لأن بعض الزائرين يهجم ويأخذ الكتاب ، فماذا تصنع ؟ .

ونريد إضافة شىء إلى الطبعة الآتية من الرسالة كما لا يخفى ، فأرسلوا لنا بعض نسخ ، أو بالأقل نسخة .

---

(١) الأمير حسن أرسلان .

هذا هو القسم الاقتصادى من الجواب ، وسأبعث إليك بالقسم السياسى وبالقسم المنوى بكتاب آخر ، وبعده بقسم مستقل فى وصف تاريخ الأستاذ الإمام رحمه الله ، هذا الكتاب العجيب الذى لا نظيرله ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

أخوك

شكيب أرسلان

J. Tvenue Ernest Hentsch Genéve

— ٤١ —

جنيف ٣ صفر ١٣٥١[١]

سيدى الأخ الأستاذ ، أيده الله

جاءنى من عدن أنهم أرسلوا إليك شيئاً من ثمن الكتب ، وأنهم طالبون نسخا أيضاً . وعسى أن لا تكون نسيت إرسالَ ١٥٠ أو ٢٠٠ نسخة من « الارتسامات » إلى السيد محمد الدارد فى تطوان . فأرجو إجابة الطلبين ، وإن لزم أجرة الشحن سلفاً فتقاضوا الداود ذلك .

اعترض بعضهم على لفظة « دعاية » لأنها لم تَرِدْ فى متون اللغة — وهذا نعرفه — وقال إن اشتقوا فعالة من دعا يدعو لزم أن تكون دعاوة لا دعاية ، وقد كتبت إلى صاحب الصفا الذى قال ذلك : إنى أتذكر كونَ هذه اللفظة جاءت فى الأثر . فهل تتذكر أنت أنك قلت لى إنها جاءت فى إحدى مكتوبات النبى صلعم[٢] ؟ وهل تذكر ذلك المكتوب ؟ . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

أخوك

شكيب أرسلان

---

(١) هذه الرسالة مكتوبة على صفحة من ورقة كبيرة الحجم .

(٢) يقصد قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إنى أدعوك بدعاية الإسلام » .

— ٤٢ —

بودابست ١ سبتمبر ١٩٣٢[1]

سيدى الأخ الأستاذ ، لا عدمته

انتهت سياحتى فى شرق أوربة ، وأنا بعد يومين أبرح بودابست إلى فينا ، ومنها إلى زوريخ فجنيف . أما الذى لقيته من الحفاوة فى بوسنة وهرسك ففوق الوصف ، بل فوق التخيل .

زرت بضعاً وعشرين مدينة وقصبة ، كلها — احتفالاً بهذا العبد العاجز — زينت المنازل بالأعلام ، وكان العلماء والأشراف يخرجون إلى مسافات بعيدة للملاقاة ، وكنا عند الوصول إلى المدن نجد أقواس النصر والألوف من الأهالى ، ونسمع الموسيقات تعزف ، ويبدأون بالخطب ، منها بالسلافية ، ومنها بالألمانية ، ومنها بالتركية ، ومنها بالعربية الفصحى .

وكنا ننزل فى محل مهيأ من قبل ، وتبقى البلدة قائمة قاعدة إلى أن نبرحها ، وكلما مررنا نسمع هتاف الجماهير : « جيفو » أى فليحيى .

وأحسن من كل هذا السرورُ الذى كانت الوجوه به طافحة ، والبشاشة الحقيقية التى نجدها كيفما نظرنا ، وأنه لم يكن فى جميع هذه المظاهر شىء من التكلف . ولماذا يتكلفون ؟ ومن أنا ليتكلفوا لى ؟ وماذا لى عليهم ؟ هم اعتقدوا أن هناك خادماً للإسلام أميناً ، وعلى قولهم مجاهداً فاستقبلوا هذا العبد المملوك ، لا مقابلةَ الأمراء بل مقابلة الملوك ، وكان مئات من الناس يعانقونه كأنه أخ لهم ، ومئات يقبلون يده كأنه والد لهم ، وكادوا مدة ٢٠ يوماً لا يعملون شيئاً سوى الاحتفاء والاحتفال به .

---

(١) هذه الرسالة مكتوبة فى ورقة كبيرة الحجم من الجهتين .

وأما عصبيتهم للإسلام وقيام شعائره فى هذه البلاد التى بلادهم فيها أشبه بجزيرة فى بحر ، بما أحاط بها من الأمم النصرانية ، وكيف أن المنائر ضاربة فى السماء كيفما وجهت نظرك ، وكيف أن الأودية تتجاوب بأصوات المؤذنين ، وكلمة الله تعلو الرُبى و لوهاد ، فكل هذا لا بد له من العيان ، إذ ما راء كمن سمعا .

ما أعظم خطأ المسلمين فى إهمالهم التردد إلى هذه الجهات لمشاهدة إخوانهم ، لا ترى منهم أحداً إلا مطوفاً حجازياً يجمع بدلات حج وما أشبه ذلك . أفلم يكن جديراً أن يزورهم كل سنتين أو ثلاث وفدٌ من علماء مصر والشام والعراق ، ويقضوا عندهم شهراً من أشهر الصيف ، ويدعوهم أن يذهب منهم وفد فى أيام الشتاء لزيارة القاهرة والقدس ودمشق وبغداد ..إلخ ؟. لقد كان سرورهم لا يوصف بما شاهدوه يوم ذهبوا إلى المؤتمر الإسلامى .

لم أكن أحل فى بلدة ونبدأ بالأحاديث الخاصة أو بالأسمار حتى أذكرك بدل المرة مراراً ، فذكراك كانت نقلا (١) لنا ، زيادة على الحلويات الكثيرة التى كانت تتقدم فى جميع الموائد ، ولقد أشرت عليهم أن يترجموا إلى السلافية كتابك فى المرأة ، ووعدوا بذلك .

يا أخى ، أنا لا يمكننى أن أقابلَ بكل هذا الإكرام ولا أعمل شيئاً . هذا غير ممكن أصلا .

ولا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق إن لم تسعد الحال

فرجائى منك أن تبادر بإرسال صندوق كتب ٧٠ نسخة من « الارتسامات اللطاف » يصير شحنها بأقرب وقت ، وترسل لى علم كلفة الشحن ، حتى أبعث بها إليك من جنيف .

---

(١) النقل : ما يتنقل به على الشراب ، ويراد به هنا الفاكهة .

ليكن شحن الكتب باسم :

M. Dizdar Mahammed Emin Sirecteur Gazi Pusrabeg Medresse Saraj'evo Jugalavie.

(وبالعربى التركى) سراى بوسنة غازى خسرو بك مدرسه سى مديرى ديزدار زاده محمد أمين أفندى حضرتليرى

لكن العنوان بالسلافى ضرورى ، وأرجوكم العجلة ، وسأكتب لكم من جنيف ؛ والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أخوكم

شكيب أرسلان

(١) الله مع الضعيف حتى يعتبر القوى : فى العام الماضى مرَّ سمو الخديوى السابق[١] بسراى بوسنة ، وبقى أياماً وعرف الجميع به ، ولم يسلم أحد عليه ، وإنما هو تحدث من نفسه إلى خوجه اسمه الطيب . فأين مقام خديوى مصر ؟ وأين الملايين ؟ وأين الأبهة ؟ واليوم نرى استقبالات ملوكية من الجميع بدون استثناء لعاجز فقير مثلنا . إذاً لم يقدر أن يقضى على حياتنا السياسية كما زعم سموه[٢] . . .

— ٤٣ —

جنيف ٨ محرم ١٣٥٢[٣] .

سيدى الأخ الأستاذ ، أيده الله :

قد كتبت لك من قبل عن تاريخ « الأوزاعى » . واصل إليك الآن مقدمة الكتاب من قلمى مع حواش عليها من قلمى أيضاً ، ومع بعض تراجم للإمام الأوزاعى فى الكتب الشهيرة .

(١) الخديوى عباس حلمى الثانى .

(٢) هذه الحاشية موجودة فى ذيل الرسالة .

(٣) هذه الرسالة مكتوبة على ورقة كبيرة الحجم من الجهتين .

قبل كل شيء أرجو منك أن تضع هذه الأوراق في قمطر خاص ، لا تكون فيه أوراق أخرى . إنك صاحب أشغال كثيرة ، وكثرة الأشغال تحدث السهو ، وهذا يقع لي كل يوم ، فأخشى أن ترمى بأوراق في مكان ، ثم يذهب هذا من بالك ، فتضيع ويضيع عليَّ تعبي ، لأني من ثلاثة أشهر أنا مشغول بهذا الكتاب .

فإن كان يمكنك أن تحفظه من الضياع إلى أن أكون بعثت بالكراسين اللذين يتلوان هذه الإضبارة[1] فأرجو انتظارهما ، وبعد اجتماع الكل استدعاء السيد عبد العزيز البابي الحلبي عنوانه في المكاتبة ٣٦ بوستة الفورية ، والاتفاق معه على ثمن الكتاب ، وكم يوافقه أن يؤدي لي به ؟ .

وعلى كل حال أرجو منك تصحيح الطبع ، إلا إذا كان ثمة مانع ، أولا وقت عندك أصلاً ، فيكفي أن تتفق معه على الثمن ، وتسلمه الأوراق ، وتتكرم بتعريفي ما تم ، ونبحث عن مصحح للمسودات .

إذا قر رأيك على تصحيح طبع هذا الكتاب فأرجو أن تطيل بالك فيه ، لأنه صفحة متن وصفحة تعليق ، وأحياناً الصفحة الخاصة بالتعليقات لاتسع التعليقات ، فأضم إليها ورقة طيارة ، أو ورقات أعلقها بها بملقط صغير ، وأكتب على الورقة الطيارة تكملة ما كتبت في صفحة التعليقات المقابلة لصفحة المتن .

ثم كل هذا تحت النمرة ، وفوق النمرة أذكر بين قوسين أن ترجمة هذا الرجل مثلا هي في قفا الصفحة أو في الورقة الطيارة . ولكن لابد من التدقيق ، لئلا يقع خطأ في الترتيب ، أو يند شيء يلزم ذكره .

أظن أن الهوامش هي ثلاثة أرباع أو ثلثان بالنسبة إلى المتن .

فإذا كان المتن ٣٣ أو ٤٣ صفحة من قطع رسالة « لماذا تأخر المسلمون » فيكون

---

(١) الإضبارة . الحزمة من الورق .

مجموع الكتاب ١٢٠ إلى ١٤٠ وينضم إليه المقدمة مع حواشيها فربما بلغ ١٦٠ أو ما يقاربها .

قبلاً أخبرتك أن الكراس الذى بعثت به إلىَّ لم يصلنى ، فهذا لابد من إعادة نسخه .

هذا وترانى منتظراً تعريفك بوصول الأوراق التى طيه ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

أخوك

شكيب أرسلان

J. Tvenue Hentsch genéve

— ٤٤ —

زوريخ ٢٧ محرم ١٣٥٢ (١)

سيدى الأخ الأستاذ ، أيده الله ، وأيد به .

تناولت رقيمك المؤرخ فى ١٦ المحرم وفهمته ، وكنت على وشك السفر إلى زوريخ لأجل السلام على الصديق الكامل الفاضل عزيز عزة (٢) باشا ، فلذلك ترانى كاتباً لك من زوريخ ، بعد أن أهديت سلامك إلى الباشا المشار إليه ، وذكرت له ماسألت عنه من مسألة إعلان الشكر عما تبرع به لطبع رسالة الوحى (٣) ، فعزيز باشا قال لى إنه هو ما تبرع لأجل أن يذكر اسمه ، فقلت له : إلا أن

---

(١) هذه الرسالة مكتوبة فى ثلاث ورقات من الحجم الصغير ، كل منها مكتوبة من الوجهين ماعدا الأخيرة ففيها صفحة بيضاء ، والورق مطبوع عليه اسم BAUR AU LAC ZURICH

(٢) فى مصر يكتبونها : « عزت » .

(٣) يقصد كتاب « الوحى المحمدى » لرشيد رضا ، وكان عزيز عزت قد أسهم فى نفقته ، فشكره رشيد على ذلك م

في ذكر ذلك شيئاً من الحث على خدمة الدين . فعندها قال : إن كان هذا فلا مانع . وهو يسأل خاطرك ، ويذكرك بكل إجلال .

مسألة كتاب « الأوزاعي » كنت كتبت لك لتتكرم بتسليم الأوراق إلى الأخ محمد على الطاهر .

وذلك أنى رأيت هؤلاء الجماعة يعتذرون عن الموافقة على التصحيح بواسطتك ، بزعمهم أنه قد يتأخر ، وأنك مشغول ، وأن أشغالك كثيرة . والحقيقة أنى رأيتهم يتجافون عن مراجعة مَنْ عندهم مطابع مثلهم . . . لأنى عرضت عليهم أيضاً لأجل التصحيح السيد محب الدين الخطيب فلم يجيبوا بشأنه ، وعرضوا علىَّ التصحيح بواسطة ابن أخيك السيد محيي الدين رضا ، أو الشيخ خضر حسين . فقلت لهم : إن السيد محيي الدين يقدر أن يصحح مسودات « حاضر العالم الإسلامى » . وأما مسودات الأوزاعى وهو كتاب كله أحاديث ومحدِّثون فإن لم يكن الأستاذ السيد رشيد متولياً تصحيحه فليكن الشيخ خضر حسين ، فهو بعد الأستاذ أدْرَى من غيره .

أما ما ذكرته لى عن ترجمة الحافظ الذهبي للأوزاعى فلم أطلع على ذلك، فأرجو منك أن تأمر أحدا بنسخ تلك الورقة من تذكرة الحفاظ ، وإضافتها إلى كتابى ، وإن أمكن أيضا نَسْخُ ما قال الشافعي في " الأم " عن آراء الأوزاعى ، فإن الكتاب الذى سنطبعه ليس فيه عن الأوزاعى إلا بعض أقوال فى العبادات .

ويظهر لى أن مؤلف الكتاب كان حشويا خرافيا [1] ، لأنى اضطررت إلى طى جملٍ رأيتها تنقص من قدر الكتاب ، مثل أن الأوزاعى نصح رجلا أن لا يهمل صلاة الجمعة فلم يقبل ذلك الرجل نصحَه ، وذهب إلى الصيد نهار الجمعة ، فساخت به البغلة ، حتى لم يبق منها فوق الأرض إلا ذنبها ، وما أشبه ذلك .

---

(١) أى يأتى فى كلامه بالحشو والخرافات . فهو لا يدقق ولا يحقق .

إنى حلّيت الكتاب بتراجم أكثر من ١٠٠ شخص من الأعلام الذين ورد ذكرهم فيه ، وبالاختصار إن كان تحت يدك شيء من مذهب الأوزاعى فى المعاملات فتكرم به ، وإن لم يكن عندك مانع فاجعله تحت إمضائك لتزداد الثقة ، وإنى سأبعث إليك بالكراسين اللذين فيهما الكتاب وحواشيه ، حتى بعد تصفحك إياها ، وتصحيح ما تراه جديرا بالتصحيح ، تدفع الكتاب إلى أبى الحسن ليساوم أولاد البابى عليه .

أبناء البابى عرضوا علىّ بالكتاب ٢٠ جنيها قبل أن رأوه ، فأنا أجبتهم إنى لم أشتغل ثلاثة أشهر بدون انقطاع لأجل ٢٠ جنيها ، ثم إن بيروت وحدها تأخذ من هذا الكتاب من ٥٠٠ إلى ألف نسخة .

لا أزال مكترثا[(١)] لقضية دارك ، فإن تم شيء مفيد من جهتها فأخبرنى . وأما الهمام[(٢)] فهو نفسه لم تنفك عسرته ، وقد نقص دَخْل حكومته من مليون جنيه إلى ٢٥٠ ألف جنيه وعليهم ٣٠٠ ألف ، جنيه ديناً فى السوق . وكان المأمول هو استلاف هذا المبلغ من الخديوى بمقابلة امتيازات البنك ، ولكن الذى علمته أن الخديوى — وإن كان أخذ الإذن وتم الاتفاق — لم يبدأ بالعمل ، وربما لم يجد رأس المال اللازم — مليون جنيه — لأنه هو لا يريد أن يدفع هذا المبلغ من كيسه ، وإن دفع فلا أظنه يدفع أكثر من ١٠٠ ألف جنيه ، فلذلك لا تنفعه عسرة صاحبنا إلا إذا تجهز رأس مال البنك .

أرجو أن تخبرنى عن حديث: «زُوِيت[(٣)] لى الأرض من مشرقها إلى مغربها ، وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها » مَنْ رواه ؟ وما درجته بين الأحاديث ؟ .

---

(١) كرثه الغم : اشتد عليه ، وما أكترث به : أى ما أبالى به

(٢) الملك عبد العزيز بن سعود .

(٣) زويت : جمعت ، وفى دعاء السفر : وازولنا البعيد ، أى اجمعه واطوه ، وابن الأثير فى النهاية يروى الحديث هكذا : « زويت لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها » ج ٢ ص ١٣٥ .

أنا الآن مشتغل بالجزء الأول من الرحلة الأندلسية واسمه « الحلة السندسية في مقام العرب بجبال الألب والبلاد الإفرنسية » وأرجو أن أتم هذا الجزء في ثلاثة أشهر .

ولا كثرة المكتوبات الخصوصية والمقالات لكنت أكمله في شهر ، ولكن أنت أدرى بالحال . سُررت بمساعدة طلعت حرب لك في قضية الديون ، وسأكتب إليه كتاب شكر خاصًا ، ولكن لا يستريح فكري حتى أعلم ماذا جرى بقضية الدار[1] ؟ الهمام لن يقصّر إن كان الخديوي وجد رأس مال للبنك ، ودفع عنه الثلاثمائة ألف جنيه . هذا هو اعتقادي ، والله تعالى هو الميسِّر ، لا ربَّ سواه ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

أخوك

شكيب أرسلان

(١) في كتابي السابق طلبت بعض نسخ من كتبي ، على أن أدفع أنا أجرة شحنها بالبريد[2] .

— ٤٥ —

جنيف ٥ صفر ١٣٥٢[3]

سيدي الأخ الأستاذ ، لا عَدِمتُه .

من عشرة أيام كتبت لك من زوريخ ، وسألتك عن أشياء أنا منتظر منك الجواب عليها ، ومن خمسة أيام بعثت إليك بالباقي من كتاب « الأوزاعي » ، وهو

---

(١) يقصد دار السيد رشيد : ردا المنار .

(٢) هذه الحاشية جاءت في ذيل الرسالة .

(٣) هذه الرسالة مكتوبة في ورقة متوسطة الحجم من الجهتين ، ومعها ملحق مكتوب مثلها على ورقة متوسطة من الجهتين .

دفتران ومعهما أوراق طيارة تحت النمر معلقة بملاقط بأوراق الدفاتر ، لأن الحواشى لم تسعها الصفحات المقابلة لصفحات المتن ، فاضطررنا لتحرير تكملة الهوامش على أوراق تابعة ، وقد يلزم التدقيق والتحديق للاهتداء ، ولكن يهتدى القارىء إذ كل متن عليه حاشية عليه رقم ومبيَّن مكانُ الحاشية .

هل جاءك أبو الحسن وسألك عن هذا الكلام أم لا ؟ .

وصل الدفتر الأول من المنسوخات التى طلبتها ، وسررت به كثيراً ، وترانى منتظراً الدفتر الثانى الذى قد يكون فيه قصيدتى عن حرب طرابلس المتلوة فى الأوبرا :

سَلَا : هل لديهم من حديث لقادم　　عن الغرب يروى فيه غلةَ هائم(١)

والقصيدة الأخرى :

سراعاً بنى أمى بحثِّ ظعونهـــا　　فما حرَّك الآمال غير سكونها(٢)

وكلتاهما فى المؤيد سنة ١٩١١ .

وفى المؤيد أيضاً ردٌّ منى على إبراهيم المويلحى عندما انتقد شوقى ، فهذا أريده وفى المؤيد أيضاً قصيدة لى فى السلطان عبد الحميد مطلعها :

مشارق أرض لفَّها بمغارب(٣)

كذلك أريد نسخها .

المقالة التى عن المرحوم السيد جمال الدين بإمضاء « معرفة الحق » هى منى ، لم تخطىء فراسة الناسخ .

---

(١) أثبت شكيب منها ما عاق بخاطره فى ديوانه ، ص ١٠٨ .
(٢) القصيدة منشورة فى ديوان الأمير ، ص ١٠٤ .
(٣) أثبت شكيب فى ديوانه ما تذكره منها ، انظر ص ٩١ .

عرفونى أجرة الناسخ لأبعث بها .

كنت أرسلت لكم فذلكة[1] بما أريد استنساخه ، فهذه الفذلكة أرجو النسخ بحسبها ، مع الذى أشرت إليه فى هذا المكتوب الواصل .

جاءنى جواب على كتاب كتبته إلى عدن سؤالا عن الكتب التى أرسلتموها إلى هناك مما خصّنى وخصكم .

وهذا الجواب من السيد على إبراهيم نور ، وضمنه فذلكة ما وصل من الكتب وما بيع منها ، وهى طيه واصلة من خط السيد على إبراهيم لقمان .

ولما رأيت أن الرواج على الكتب قليل كتبت إلى السيد نور بأن يرسل ٢٠ نسخة من « الارتسامات » إلى جيبوتى ، ويتبقى ١٠ نسخ فى عدن ، وبعيد المائة والسبعين نسخة إليكم بمصر ، لأنى لم أجد فائدة من إبقائها فى عدن ، أما « آخر بنى سراج » فباقٍ منه ٦ نسخ ، وأما « تاريخ الأستاذ الإمام » فباقٍ منه ٥ نسخ ، وأما « النداء للجنس اللطيف » فباقٍ منه ١١ نسخة ، فهذه كمية جزئية ، قد تباع تدريجاً ، فلم أطلب إعادتها إلى مصر ، ثم إنى كتبت إلى نور ولقمان بأن يرسلوا إليكم ثمنَ الكتب المبيعة .

بلغنى من جعفر باشا أن الخديوى لم يقدر أن يجد رأس المال اللازم لبنكه فى الحجاز ، وذلك أن أصحاب البنوك فى لندن سألوا الحكومة الإنكليزية عن مصير أموالهم ، فأجابتهم بأنها لا تضمن شيئاً ، فلذلك امتنعوا عن الاشتراك فى البنك .

ساءنى هذا الخبر ، ولما جاءنى من الهمام مكتوب من جمعة ومكتوب اليوم — ولابد أن أجاوبه — فإنى سأقول له بأنه يجب أن يلزم الخديوى بدفع رأس المال من كيسه ، لأنه إن لم يقدر على دفع مليون جنيه ، فهو يقدر على دفع ٢٠٠ ألف ألف جنيه وأ كثر . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

أخوك

شكيب أرسلان

---

(١) فذلك الرجل حسابه : أنهاه وفرغ منه ، ويقول القاموس إنها مخترعة من قوله إذا أجمل حسابه : فذلك كذا وكذا . والمراد هنا بيان أو خلاصة .

جواب كتابك رقم ... غرة صفر الواصل الآن .

سيدى لأخ الأستاذ ، لا عَدِمتُهُ .

أمس فى نواحى الساعة الثالثة بعد نصف الليل كتبت إليك المكتوبَ الذى بطيه ، وبهذا الصباح جاءنى كتابك الذى معه الحديث الشريف : (إن الله زوى لى الأرض) .

شكراً لك على ما بيَّنت من أسانيد هذا الحديث ، وقد نقلته بهذه الأسانيد بهذه الساعة إلى « الحلة السندسية فى مقام العرب بجبال الألب والبلاد الإفرنسية » .

علمت الآن أن الكراسة التى وصلت هى الثانية التى لم تفقد ، وأنه جارٍ استنساخ بدل الكراسة المفقودة .

سأكتب إلى أبى الحسن بنقل ترجمة الإمام الأوزاعى من طبقات الحافظ للذهبى .

المسائل السياسية التى ذكرتها لى وما علمته من يوسف الياسين ، كل ذلك بغاية الأهمية ، فأما مسألة العقبة ، ومعان ، فسنكتب للهمام ما هو شائع من أنه سيتخلى عنهما لشرق الأردن ، ونحذره من ذلك ، ونكتب فى الجرائد .

أما الأدارسة فأنا لا آمن لهم ، ولا أزال أخشى أن يستجلبوا إيطالية إلى عسير ، وكنت كتبت إلى الهمام ، وسأعيد الكتابة بأن لا يسمح بإقامتهم بتلك البلاد ، فليقيموا بمكة أو بالمدينة ، وأما مقامهم بتلك السواحل فخطر على الجزيرة ، وسأكتب إلى الإمام يحيى فى هذا المعنى .

الهمام فى آخر كتبه لى يذكر أنه قريباً يبشر الإسلام باتفاقه النهائى مع الإمام ، فهذا ما لم أزل أحرضه عليه منذ سبع سنوات ، بينما أعوانه كانوا يغرونه بعداوة الإمام . أما اتحاد سورية والعراق فيكتب أنه لا يتدخل فيه ، وأنا أعلم شدة

مما كتبته لهذا الأمر ، وسأكتب له : يا سيدى أكان الأحسن للعرب أن تبقى حائل إمارة ، والرياض إمارة ، وعسير إمارات ، والحجاز إمارة ، أم تتحد كلها مملكة واحدة ، لها قوة ومجد وذكر كما هى الآن ؟ لاشك أنك تقول : بل الأحسن اتحادها مملكة واحدة . فإذا كان الأمر كذلك ، فكيف يحسن هذا فى جزيرة العرب ، ولا يحسن فى سورية والعراق وشرق الأردن وفلسطين ؟ بل هنا هو أشد ضرورة نظراً لوجود الأجانب .

فهمت ما ذكرتموه بشأن المؤتمر العربى فى بغداد . أنا أرى الاقتصار فيه على عرب سورية والعراق وفلسطين ، أو عدم البحث بشىء سياسى خارج عنها ، لأن توسيع البرنامج يفضى إلى عدم حصول شىء ، ونحن نريد تقرير اتحاد الشام والعراق ، وكل مؤتمر لا يكون هدفه هذا الأمر فلا لزوم له . لا يبدأ اتحاد العرب إلا من هذين القطرين .

كتابك فى إثبات الوحى المحمدى لا يقرأه إلا المستشرقون فى أوربة ، وسنبعث إليك بأسماء أشهرهم . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

أخوك

أبو غالب

(١) زميلى الجابرى والأخ جعفر باشا يسألان خاطرك ، ومتى تلاقينا بالطباطبائى أبلغه سلامك ، إنه هو والله من أفراد الإسلام ، وولدى يقبل يديك[1] .

---

(١) هذه الحاشية موجودة فى ذيل ملحق الرسالة .

— ٤٦ —

جنيف ٢١ ربيع الأول سنة ١٣٥٢ (١)

سيدى الأخ الأستاذ ، أطال الله بقاءه

إنى ألقى إلىَّ كتابُك الكريم ، وفهمت أنك بالصحة والنشاط ، ولا أعلم متى نشيخ أنت وأنا ، ونشعر بالتعب ، فإننا كلما تقدمنا فى السن نزداد نشاطاً وتتضاعف محصولات أقلامنا ، ففى هذه المرة جاءنى منك كتاب « الوحى المحمدى » و كتاب « نقض مطاعن فى القرآن الكريم » (٢) ، وفى أول يوم من وصولهما قرأت مقدمتك على « نقض مطاعن » وقرأت ثلثى هذا الكتاب ، ولم أتعجب من شىء من مقدمتك ، فكلامك كلامك ، وكم لهذه الدرة اليتيمة من أخوات أنجبها يراعك ، ولكننى استحسنت جداً كتابة صاحب « نقض مطاعن » وكيف أفحم ذلك الذى أراد نيلَ الشهرة بالتعرض للحقائق المقررة ولو بالباطل .

فليعلم هذا الأخ أن طه حسين عند ما زعم أن السور المكية ليس فيها منطق ، وأنها لا تقبل المناقشة ، وأن السور المدنية هادئة ساكنة ، وما أشبه ذلك مما هو بزعمه من أثر تغير الأحوال ، إنما قرأ ذلك فى كتابات بعض الإفرنج ، فجاء يحكى عنهم هذا الهراء بدون تفكير ، ملتمساً مجردَ الشهرة ، وأن يقول الشبان الأغرار إنه رجل كبير ، لم يجرأ أحد على محاكمة القرآن بمثل محاكمته ، ومن المعلوم أن الشبان لا يعرفون حقائق الأمور ، وهم أتباع لكل ناعق .

وقد أخطأ طه حسين بعدم انتباهه إلى ما يمكن أن تجرّه عليه هذه الدعوى كما جرّت عليه دعوى كون الشعر الجاهلى كله مصنوعاً ، قرأ ذلك فى كلام مرغليوث

---

(١) هذه الرسالة ليست بخط شكيب ، بل من إملائه ، وفى ذيلها توقيعه ، وهى مكتوبة على ورقة كبيرة الحجم من الجهتين . وقد أصلح شكيب بخطه بعض ألفاظها .

(٢) هذا الكتاب من تأليف الأستاذ الشيخ محمد أحمد عرفه يرد به على الدكتور طه حسين .

وانخذه لنفسه ، وصار مضطراً أن يدافع عن قضية أوهى من بيت العنكبوت .

وأوهى منها زعمه أن السور المكية ليس فيها مجادلة ولا مناقشة ، وكل من قرأ القرآن وهم مئات ملايين يعلمون عكس ذلك ، ولكن الفضل للأخ عرفة فى تكذيب طه حسين بإيراد الآيات الشاهدة على كذب دعواه إن كان فيما قاله عن السور المكية أو فيما قاله عن السور المدنية ، فأرجو أن تهدوا هذا الكاتبَ البليغ والمسلم الصادق أزكى سلامى وثنائى ، أكثر الله من أمثاله .

أما « الوحى المحمدى » فلمَّا أقرأه ، وعند ما أقرأه إن شاء الله أكتب لك عنه ، وإن لزم أكتب شيئاً للنشر بعد إطلاعك عليه .

واصل لك بعض عناوين من عناوين المستشرقين وسأرسل غيرها .

سررت بأنك لحت الجزأين الأولين من « حاضر العالم الإسلامى » ، ولاشك أن مانقلته فيه بشأن السيرة النبوية من كلام الأوربيين لايوجد فى كتاب عربى غيره .

نحن كتبنا هذا الكتاب للناشئة المتشككين فى الغالب ، والذين لاتنشرح صدورهم إلا لكلام علماء الإفرنج ، فغرفنا لهم من ذلك البحر ، فأما كونى نقلت فى مسأله ترجمة القرآن أقوال المراغى وبخيت[1] دون أقوالك ، فإنى يا أخى أكملت ذلك الفصل قبل أن تنشر كلامك فى الموضوع ، وقبل ظهور كتاب مصطفى صبرى أفندى ، ولما ظهر ذلك عدت فكتبت ملحقاً أقول فيه إنه يجب فى هذا مراجعة آرائك ، وأشير أيضاً إلى كتاب شيخ الإسلام السابق ، ولكن كانوا قد طبعوا ماطبعوه وانتهى الأمر ، ولعل الطبعة الآتية تشتمل على كلامك وكلام مصطفى صبرى فى هذه المسألة .

استغربت كيف أن الذى كلفتموه البحث عن مقالاتى القديمة فى « الأهرام » و « المؤيد » لم يظفر بجميعها ، مع أن المكتبة الملوكية[2] تحتوى حسبما سمعت

---

(١) يقصد الشيخين محمد مصطفى المراغى ومحمد بخيت المطيعى .

(٢) يقصد دار الكتب المصرية بالقاهرة .

جميعَ أعداد الجرائد بدون استثناء ، فإن كان البحث لم يقع فى المكتبة العمومية الملوكية فأرجو تعريفى لأتدارك هذا الأمر .

يا أخى ، ما زال بعض الناس يكتبون أنه لا يجوز جمع المصدر ، ويطلقون القول ، وأنا أعلم أنه لا يجوز إلا إذا قصد به تنوع المصدر ، وذلك مثل جمع بيع على بيوع ، لأنه يوجد جملة بيوع فى الفقه ، وقياساً على هذا فإذا قلنا جهود يكون المعنى الجهد بالسيف ، والجهد بالمال ، والجهد بالقلم . . . إلخ .

وإنى أرى المصدر مجموعاً فى كلام كثير من كبار الكتّاب القدماء ، وماذا نقول فى: اجتهادات ، واستدلالات ، واستعمالات ، واصطلاحات ؟ أفليست هذه مصادرَ مجموعة ؟ مع ذلك أريد منك إبداء رأيك فى هذه المسألة .

جاءنى كتاب « الإنجيل والصليب »(١) وشكرتك ، أرسلت قسما من « الحلة السندسية » إلى الأخ أبى الحسن ، وأشرت إليه بمساومة إلياس أنطون فى طبعها ، أى الجزء الأول المتعلق بفتوحات العرب فى فرنسة وسويسرة .

ذكرت إلياس أنطون عدولا عن البابى الذى دفع لى، ثمن كتاب الأوزاعى خمسين جنيهاً ، ووجدت ذلك ثمناً لا بأس به ، ولكنه عرض على أبى الحسن فى حصتى — ستمائة نسخة من « حاضر العالم الإسلامى » — مئة جنيه فقط مع أنه حدد ثمن النسخة جنيهاً واحداً ، فلو فرضنا أنى بعت النسخ بنصف جنيه الواحدة اجتمع لى من ذلك ثلاثمائة جنيه ، فلما رأيت أن طمعه زائد كتبت إليه بتسليم الستمائة نسخة إلى أبى الحسن ، وكتبت إلى أبى الحسن بأن يتسلمها وينتظر تعليماتى بشأنها ، ولا يساوم البابى بعد الآن ، لأنى لو كنت مرتِّبَ حروف مارضيت أن أشتغل ١٤ شهراً حتى أقبض مئة جنيه . . .

إن شاهدتَ طلعت باشا حرب أشكره ، وأقول له كل مايلزم ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

أخوك

شكيب أرسلان

---

(١) تأليف السيد رشيد رضا .

— ٤٧ —

جنيف ٨ ربيع الثانى سنة ١٣٥٢[١]

سيدى الأخ الأستاذ ، أطال الله بقاءه

من جمعتين كتبت لك ، وأخبرتك بأنى كنت كتبت ما كتبته فى موضوع ترجمة القرآن قبل اطلاعى على أقوالك فى الموضوع ، فلما اطلعت عليها وعلى كتاب مصطفى صبرى أشرت إلى ذلك فى فصل خاص قد ظهر فى صفحة ٣٦٩ من الجزء الثالث ، ولا شك أنكم اطلعتم على ذلك ، لأن الجزأين الآخرين قد صدرا أيضاً .

اليوم نقلت عن كتابكم « الوحى المحمدى » الفصلَ الذى يتعلق بالرقيق فى الإسلام ، وذلك إلى حواشى كتابى : « الحلة السندسية فى مقام العرب بجبال الألب والبلاد الإفرنسية » ، لأنه ورد فى كلام مؤرخى الإفرنج شىء يتعلق بحكم الرقيق والسبى فى الإسلام ، فأحببت أن أنشر خلاصة أحكام الشرع فى هذه المسألة محررةً بقلم حجة الإسلام فى هذا العصر .

كتابكم « الوحى المحمدى » قرأته كلَّه ، جزاكم الله خيراً ، ولا شك عندى فى أنه سيروج كثيراً ، لا سيما أن الإنسان يقدر أن يقرأه فى يوم أو يومين .

يا أخى جاءنى مكاتيب من أديس أبابا من السيد محمد صادق من أهل الحبشة ، ومن السيد علوى محمد الصافى من أشراف اليمن ، وعلمت أنه وصل إلى هنالك نسختان من رسالتنا « لماذا تأخر المسلمون » وأعجبوا بها كثيراً ، وطلبوا بعض نسخ من مصر ، فأجابوهم بأن الطبعة الأولى نفدت ، ثم علموا بأن الرسالة طُبعت طبعة ثانية ، وجاءوا يطالبون منى أن أبعث إلى مصر حتى يرسلوا إليهم جانباً من

---

(١) هذه الرسالة ليست بخط شكيب ، بل هى من إملائه ، وهى مكتوبة فى ثلاث ورقات من الحجم الكبير ، الأوليان مكتوبتان من الوجهين ، وفى الثالثة نصف صفحة مكتوبة فقط ، وفى آخرها توقيع شكيب ، وقد أصلح بقلمه بعض ألفاظها مما يدل على أنه راجعها .

النسخ ، فأنا أرجو منكم إرسال خمسين نسخة من الرسالة المذكورة إلى أديس أبابا بالعنوان الذى هو بذيل هذا المكتوب .

كنت كتبت لكم أن البابى دفع لى بالخمسائة[1] نسخة من الطبعة الجديدة من « حاضر العالم الإسلامى » مائة جنيه فقط ، هكذا كتب لى أبو حسن[2] ، أما البابى فلم يكتب لى شيئاً عن الثمن الذى يريد أن يدفعه بالخمسمائة نسخة ، لأن المئة السادسة ستكون أكثرها هدايا .

سألتك فى كتابى الماضى رأيك فى هذه المسألة ، لأنى رأيت مستحيلاً أن أبيع الخمسمائة نسخة من كتاب ألف وستمائة صفحة بمائة جنيه ، ولا يمكننى أن أبيعها بمئتى جنيه ، ومهما ذهب من ثمن الكتاب فإنى إذا وزعت هذه النسخ على أصحابى فى الجهات يأتينى أكثر من مائتى جنيه بكثير ، لا سيما أن البابى قد قطع ثمنه[3] جنيهاً واحداً بالنسخة .

من جهة كتاب الأوزاعى بعته إياه بخمسين جنيها ومئتى نسخة ، ولم أجده أظهر الطمع الذى أظهره فى قضية « حاضر العالم الإسلامى » .

بعد أن كتبت لك من جمعتين أصابتنى نوبات كلوية قوية ، مما له عادة أن يصيبنى ، لأنكم تعلمون أنه منذ بضع سنوات يعتادنا مرض الحصى ، فهذه المرة بقيت فى الفراش عشرة أيام ، حتى سقطت الحصيات بتأثير الأدوية ولله الحمد ، والدواء الحقيقى هو إذن الله ، ولكننى بلغ منى الضعف مبلغه .

وكان الملك فيصل وأخوه قد قدما إلى (برن) ، فذهبت للسلام عليهما وأنا

---

(١) كانت فى الأصل : « بالستمائة » وأصلحها شكيب فجعلها « بالخمسمائة » . والمذكور فى الرسالة السابقة هو « الستمائة » ولكن السطور الموجودة هنا بعد الكلمة توضح سبب تغيير العدد ، إذ أن المئة السادسة جعلها شكيب للإهداء .

(٢) هو أبو الحسن الأستاذ محمد على الطاهر .

(٣) أى حدد ثمن النسخة بجنيه .

بحال الضعف الشديد ، قاصدا من جهة القيام بهذا الواجب ، ومن جهة أخرى تبديل الهواء واسترجاع القوى ، وأقمت فى رأس الجبل فى الأوتيل الذى تعرفه وبتنا فيه مرة أنا وإياك ، وبقيت عدة أيام هناك أنا وإحسان بك ، والآن أجدنى أحسن بكثير بعد تبديل الهواء .

وقد رجعت إلى جنيف أمس ، وخطر ببالى أن أكتب لك أنك إذا كنت تقدر أن تبدل الهواء فى سويسرة بهذا الصيف ولو شهرا أو شهرين ، فإننا هنا نقوم بكل شىء لأجل خدمتك . ونأخذ لك غرفة تبيت فيها وتأكل صباحا ، وعند الظهر وفى المساء تأكل فى محلك عندنا ، وهكذا يتيسر أن نشاهدك ونتحدث ، وتكون أنت أفدت صحتك الثمينة ، لأنك محتاج إلى ذلك ، فما قولك فى هذا الرأى ؟ . أرجو أن تجيبنى .

أرسلت إلى أبى حسن عشرة دفاتر من « الحلة السندسية » ، وباقٍ أربعة لتمام الكتاب كلها حاضرة ، وقد أوصيته أن يساوم لى مطبعة إذا شاءت شراء الكتاب ووافقنى الثمن ، وإن لم يوافقنى فإننى معتمد أن أطبعه على حسابى ، وهو قد يقع فى ٣٥٠ صفحة ، فأرجو أن تستدعى الأخ أبا حسن ، وتذاكره فى هذه المسائل كلها ، وتتكرم بالجواب .

عندما كنا فى برن عند جلالة الملك فيصل اجتمعنا مع ياسين باشا ، ولم نكن نعرفه بالوجه من قبل ، ولا شك أنه من الرجال الممتازين بالذكاء والمعرفة والعلم وقوة الإقناع ، ولكن مع الأسف وجدت فيه من العجب والجفاف الواصل إلى حد[1] الجفاء ما يستحيل معه أن يستجاب الناس إلى جهته .

وأنت تعلم أن الله تعالى قال لنبيه : « ولو كنت فظًّا غليظ القلب لانفضوا من حولك » يريد تعالى أن يقول إنه لو لم يكن النبى على خُلُقٍ عظيم ما كان نجح ، برغم ما أوتى من النبوة والرسالة والآيات والمعجزات .

---

(١) فى الأصل : « الحد » وهو سبق قلم .

كتب لى الأخ أسعد داغر شيئاً يشعر بالخيبة فى نفسه ، وفى كتابه إشارة إلى شىء وقع مثله فى نفسى ، ولقد تحادثنا أنا وإحسان مع ياسين مدة طويلة ، وتكلم ياسين فى لزوم تأجيل المؤتمر العربى ، والتمهيد له بالدعاية ، وتأليف لجنات وماأشبه ذلك ، ولم يكن كلامه خالياً من سداد وصواب ، ولكن الذى يخيفنى هو كون هذا الرجل جافًّا ، يصعب على الناس أن يمتزجوا معه ، ويا ليت عنده عشر معشار ماعند الملك فيصل من الجاذبية واستجلاب القلوب .

فأما أعمال الملك فيصل السياسية ، فأقول إنها ناجحة ، تتقدم ببطء ، ولكنها تتقدم دائماً ، وقد كانت له أحاديث فى لوندرة مع الجماعة المعهودين ، لم يقدروا أن يجدوا عليها جوابا ، وأظن أنه سيكون لها نتائج حسنة بحق العرب .

أما الفرنسيس فهم محيّرون ، يخشون اتحاد سورية والعراق أن يفضى ذلك إلى تقليص نفوذهم عن سورية ، ثم يعودون فيرون أن سورية بهذه الحالة تبقى تحت خطر غارة تركية تشنها أنقرة بأول فرصة ، فيرجعون عن المعارضة ، ويقولون إن الموضوع يلزم له بحث عميق .

والحقيقة أنهم لا يعرفون ما يريدون أن يعملوا بهذه المسألة .

أما الذين هم يرغون ويزبدون فى معاكسة توحيد العراق وسورية فهم الأتراك ، وقد وصل الأمر بهم إلى التهديد بأنهم إن تم هذا الأمر يمنعونه بقوة السلاح ، وقد صرح سفيرهم فى لوندرة للملك فيصل بأنه إذا تقرر اتحاد العراق وسورية ، يجد العرب فى وجههم تركية وإيران والروسية جبهة واحدة .

وأنا جاوبت الملك فيصل بأن هذه الجعجعة لا تخيفنا ، ولا تثنينا عن عزمنا ، وإننا نعلم أن العراق وسورية غير متروكين لأهواء أنقرة ، وليس بصحيح أن الروسية تتدخل فى هذا الأمر ، بل المسألة بالعكس ، فأما إيران ، فالترك قد كالموها فى معارضة الوحدة العربية ، وربما يكون الإيرانيون أجابوهم بما يرضيهم ، ولكن

إيران لا تدخل فى معارضة فعلية ، وهى تخشى الترك أكثر مما تخشى العرب .

وقد تكلمت مع السيد الطباطبائى فى هذا الموضوع ، وعرفت أنه عارف بدسائس الأتراك ، وأنهم مصممون على أخذ حلب ، فأما إيران فيعتقد الطباطبائى أنها لا تمشى مع تركية إذا عرف العرب أن يسوسوا سياسة حسنة معها ، وقال لى إنه سيكتب إلى إيران ، وينصح بعدم إساءة العرب ، ويعتقد النجاح .

ما كتبت لكم عن المؤتمر الإسلامى الأوربى نظراً لضيق الوقت ، وتحرير الخبر أن محمود بك سالم قام بهذه الفكرة ، ونشر فيها نشرةً ، وجاء إلى جنيف ، وتكلم معنا ، ونحن لم نجد منها مانعاً ، ولكننا أشرنا عليه بأن يتأنى ، وأن لا يلح فى عقد المؤتمر المذكور بهذه السرعة ، لأن مؤتمراً إسلامياً ينعقد فى أوربة ينبغى أن يكون لائقاً بكرامة الإسلام ، ولا نرضى أن يكون عبارة عن اجتماع بسيط ، تُلْقَى فيه بعض كلمات وينفض الحاضرون .

وكنا جميعاً متفقين : أنا وإحسان بك ، وعبد الباقى بك العمرى ، والشيخ على الغاياتى على هذه الفكرة ، وهى التأنِّى وجمع مبلغ من المال : ثلاثمائة أو أربعمائة جنيه ، حتى يكون هذا المؤتمر حافلاً لائقاً موفور الأبهة ، لأنه هنا محط أنظار ، وسيحضره صحافيون كثيرون ، ويطيّرون أخبارَه إلى الآفاق كما هى ، فاقتنع محمود سالم ، وقررنا تأجيل عقد المؤتمر إلى السنة القادمة ، بحيث نكون هيَّأنا له الأسباب المالية الكافية .

وفى هذه المدة جاءتنى الأسئلة من بلاد البلقان عن هذا المؤتمر ، ولا سيما من بوسنة والهرسك ، وأنتم تعلمون شدةَ تعلق مسلمى تلك الأقطار بنا ، فإن شيخ الإسلام فى مملكة يوغوسلافية الذى مركزه بلغراد الحاج إبراهيم أفندى ، ورئيس العلماء فى سراى بوسنة سالم أفندى الذى تعرفونه ، وغيرهما كتبوا لنا أنهم حاضرون أن يرسلوا وفداً إلى هذا المؤتمر ، على شرط أن تكون إدارته بيدنا ، وبروغرامه طبق أفكارنا .

وهكذا جاءنا من المجر ، ومن اسكوب وغيرهما ، ونحن أجبناهم أننا موافقون على مبدأ عقد المؤتمر ، لكننا نريد التأني فيه ، حتى يكون مجمعاً لائقاً بكرامة الإسلام .

ثم إنه منذ مدة كان جعفر باشا العسكري سفير العراق في لوندرة هنا ، ودعانا إلى وليمة دعا إليها جمال حسني سفير تركية في سويسرة ، ونجم الدين صادق من كتاب الأتراك وأحد مندوبيهم في مؤتمر نزع السلاح ، فهؤلاء بمجرد ما جلسنا على على المائدة بادروا بسؤالنا عن قضية هذا المؤتمر الإسلامي الأوربي ، فأخبرتهم بأني أنا لم أكن صاحب هذه الفكرة ، وإنما بدأ بها محمود سالم المصري ، ولكني وافقت عليها ، وسنعقد المؤتمر إن شاء الله ، ولكننا نحب التأني حتى نتمكن من عقد مؤتمر لائق ، فأخذ سفير تركية يحثني على بذل الجهد في جعل المؤتمر لائقاً بشرف الإسلام كما قلت .

ثم سألني: هل تريدون أن تدعوا تركية ؟ فقلت له : لا . قال : لماذا ، مع أن ولاية أدرنة ونفس اسطنبول هما من أوربة ؟ فقلت له : بأننا رأينا تركية تتجنب الدخول في المسائل الإسلامية . فقال نجم الدين صادق : ولكن نحن يمكننا الاهتمام بهذا المؤتمر من الوجهة الاجتماعية .

وأخذ يبدي ويعيد في هذا ، فقلت له مداعباً ، ولكن بصورة قطعية : بالاختصار نحن قد أخرجناكم من دائرة أعمالنا . فأخذوا المسألة بالتبسم ، ولكن في الحقيقة كانوا في كرب شديد من كوننا لا نريد إشراك تركية أوربة في المؤتمر ، وهم يعلمون أننا سنرسل تذاكر دعوة إلى مسلمي تراقية وألبانية ويوغوسلافية وبلغارية ورومانية والمجر وبولونية ، وأننا سنهمل دعوتهم .

والملحوظ أن مسلمي أدرنة — وربما الآستانة — أخذوا يتكلمون في ضرر إهمال المسلمين لتركية في الاجتماعات العامة . فبعد مدة دعا سفير تركية دعوة كبيرة

إلى ليلة راقصة كما يقال، ودعانا إنا وإحسان من الجملة، أما إحسان فعلاقته لم تنقطع معهم، وأما أنا فمنذ مدة طويلة ليست لي معهم علاقة كما تعلمون، فذهبت إلى تلك الدعوة، ولم يقع في تلك الليلة كلام بشأن المؤتمر.

ثم بعد أيام عاد السفير التركى فتلفن إلى إحسان طالباً الاجتماع معه ، فذهب إحسان وواجهه .

وخلاصة الكلام أن السفير يلح بوجوب إرسال دعوة لهم أيضاً ، ويتعهد بأن تركية تسمح لمسلمى أدرنة بالحضور ، فإحسان بك وعد السفير بإرسال الدعوة ، وعادفأخبرنى قائلا : إنه شىء لا ضرر منه ، فإن جاءوا كان خيراً ، وإن تخلفوا فاللوم عليهم . فقلت له : يستحيل أن أرضى بدعوة حكومة أنقرة إلى هذا المؤتمر ، نعم يمكننا أن نرسل ورقة دعوة إلى مفتى أدرنة ، وهو حر أن يرسل وفداً ، أو أن لا يرسل .

ولقد سبق أن المؤتمر الإسلامى العام فى القدس دعا تركية ، فرفضت الحضور ، وعدا رفضها لم تهمل وسيلة لمنع عقد المؤتمر المذكور إلا استعملتها ، وذهبت تترجى الإنكليز أنفسهم لمنع عقده ، وتمكنت من منع إيران وأفغانستان من الاشتراك فيه ، ولم تتوقف عن مفاوضة فيصل وابن السعود وملك مصر بعدم الاشتراك ، ثم أهانت المسلمين إهانة محسوسة بكونها عندما رفع المؤتمر الإسلامى العلم التركى من جملة الأعلام الإسلامية التى كانت تخفق فوق المؤتمر ، جاء قنصل تركية فى القدس وأنزل العلم التركى ، فكأنه صفع المؤتمر علناً .

أفبعد هذا نذهب وندعوهم إلى مؤتمر إسلامى ، هو فرع من المؤتمر العام الذى رفضوا قبول دعوته ، وعملوا كل ما قدروا عليه لمنع عقده ؟ لا أرى ذلك موافقاً ، وأنا نفسى كنت ألوم الحاج أمين الحسينى على دعوته إياهم لمعرفتى بأنهم سيرفضون الدعوة ، وهذه المرة أيضا ما أراهم إلا ساعين فى إرسال الدعوة لهم حتى يرفضوها

أيضا قائلين بحسب كبريائهم المعهودة : جاءتنا دعوة ولم نقبل أن نشترك فى هذا المؤتمر ؛ فجميع مساعيهم إنما هى لأجل أن نتنازل لهم مرة أخرى ، ويقابلونا بالرفض مرة أخرى .

فأما إصرارهم على أخذ دعوة منا فالمقصود به إرضاء كبريائهم ، وأن لا يقال بين مسلمى البلقان إنه انعقد مؤتمر إسلامى فى جنيف ، وإنهم أهملوا دعوة تركية ، فهذا يمس نفوذهم .

ومتى اجتمعت لجنة المؤتمر ووجدت أن أكثريتها تريد دعوة تركية فإنى أعترض على ذلك ، وأكتب اعتراضى مع بيان أسبابه هذه ، ولى أمل بإقناع إحسان بك وغيره بإرسال الدعوة إلى مفتى أدرنة ، لا إلى الحكومة التركية ، وقد أردت إطلاعك على ما جرايات هذه المسألة ، لتكون معلومة عندك ، ولإبداء رأيك فيها . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

أخوك

شكيب أرسلان

— ٤٨ —

جنيف ١٨ ذى الحجة ١٣٥٢[(١)]

سيدى الأخ الأستاذ ، أيده الله

أخذت كتابك الأخير ، وحمدت الله تعالى على صحتك ، وقد أرسلت بالمقالة التى اقترحتها علىَّ برغم ما أنا فيه من ضيق الوقت وضيق الصدر — وأكثر ما يكون ذا مع ذا — وذلك فى ١٦ مارس ، ولكنى لم أستطع أن أجيبك على

---

(١) هذه الرسالة مكتوبة فى ورقتين من الحجم الكبير ، من الوجهين ، إلا أن أغلب الصفحة الأخيرة أبيض .

كتابك الخصوصى ، لأنى أريد أن أبثك أشياء لا أحب أن أكتبها إلا بقلمى ، وأنا قد صرت أكتب بقلمى نادرا جداً ، وكل كتاباتى هى إملاء على الكاتب ، فإذا كان لابد من كتابتى بيدى فلابد من فرصة لائحة .

إنى شعرت يوم مات فيصل بعظم الفاجعة ، ولكنى الآن أراها تعظم شيئاً فشيئا عن ذى قبل ، فالاتحاد العراقى السورى أصبح متروكا ، لا يتكلم عنه أحد إلا بأنه مشروع ذهب ، ورجعوا إلى الكلام فى عرش لسورية ، ونجم الأمير عبدالله يريد عرشاً على فلسطين وشرق الأردن ، مع قبول هجرة اليهود إلى فلسطين ، وظهرت فى العراق بوادر نفض اليد من الوحدة العربية ، وصار ينهى عنها من كان معدوداً من أركان دعاتها ... وظهر أنهم إنما كانوا يتكلمون عنها لأجل سياساتهم الشخصية ، لا لأجل الوحدة من حيث هى . . . كل هذا جرى بعد موت فيصل .

والأخبار الواردة من فلسطين سيئة إلى النهاية ، إذ لم يبق عند العرب أدنى أمل فى إنقاذ فلسطين ، وبينما الأحوال هى ما هى فى العراق والشام وفلسطين ، إذ نشبت الحرب فى الجزيرة بين الإمامين ، فكمل النقل بالزُّعرور [1] ، ولن يكون لهذه الحرب أدنى فائدة إلا زيادة الخراب والبوار .

وقد نصحنا كلا من الإمامين بالتحكيم ، فأجاب كل منهما ، لكن لم يذكر أنه قاوِ التحكيم ، فالإمام يحيى لا يرضى إلا بنجران ، مع أنه فى الماضى لم يكن يحتلها ، والملك عبد العزيز لا يرضى باحتلال الإمام لنجران ، مع أنها ليست له ، ولم تكن له ، ولا فى وقت ، فهو الآن يحارب لأجل الإسماعيلية . . .

ولو ترك الإمام وشأنه فى نجران ، واشترط اعتراف الإمام له بحدود عسير

---

(١) الزعرور : الرجل السيء الخلق . وزعر الرجل — بوزن خرج — : ساء خلقه وقل خيره .

الحاضرة لأمكن الوئام ، ولم يكن على الملك غضاضة ، فلأمر يريده الله نشبت هذه الفتنة .

فكيف لا يضيق صدر الإنسان بحالة العرب هذه ؟ .

ولو كانت المسألة العمومية هى وحدها الفاتّة فى الأعضاد ، وكانت المسألة الخصوصية مما يُرْضِى لربما كنا أقدر على تحمل المضض ، ولكن الثانية هى شر حالاً من الأولى .

حالة معيشتنا هنا أصبحت بغلاء الأسعار غير ممكنة ، فإننا فى سنة ١٩٣٣ برغم كل الاقتصاد الذى عملناه لم نقدر أن نعيش بأقل من ١٣٠٠ جنيه ، وأنت تدرى أنه ليس عندنا فى السنة ولا نصف هذا المبلغ ، فكيف نصنع ؟ مزرعتنا فى الشام بعناها ، بيتنا فى برلين رهناه ، والآن لا يفضل عن الرهن شىء إن بعناه .

لم يبق إلا أن نبيع زيتونات الشويفات ، وماذا نترك لهؤلاء الأطفال ؟

اضطررنا أن نراجع مصر رأساً ، لعلنا نحصل على إذن بدخولها لننتقل إليها ، فما ظهر شىء يبعث على الأمل .

راجعنا فلسطين ، وتعهدنا بأننا لن نشتغل بالسياسة ما دمنا فيها ، فما ظهر شىء أيضا . فأين نذهب ؟ . وحكومة فرنسة أعادت الكرة على سويسرة لأجل إخراجنا منها ، وحكومة سويسرة رجعت تكتب لنا رسمياً بهذه المدة بأن نمسك عن كل حركة سياسية أو يخرجونا ، لأنهم لا يريدون أن يختلفوا مع دول أجنبية من أجلنا .

نعم نحن أجبنا بجواب سديد شديد ، إلا أننا لا نعلم ماذا تكون النهاية ، لأن الخصم قوى لا سيما بجنيف . وضعت نصب عينى إما فينا أو بودابست ، نظراً لرخصهما عن سويسرة ، وسنرى كيف يحكم القدر ، وإلى الله وحده مرد الأمور . ضاقت علىّ مذاهبى ، وضيق ذات اليد أشقّها ، ولكن اتكالى على الله كبير ، لا رب سواه .

وبينما أنا فى هذه الحال أجد الناس لا يرحمون ولا يشفقون ، ولا يحسبون حسابا لحالة جسمنا ، ولا لتقدم سننا ، ولا لضنك معيشتنا ، وهم يقدّرون لنا من القوة والصحة والثروة والراحة أضعاف أضعاف الحقيقة .

أتدرى كم جاءنى مكاتيب سنة ١٩٣٣ ؟ جاءنى ألفا مكتوب خصوصى . وقد أصدرت ١٥١٧ مكتوبا ، عدا المقالات والكتب المطبوعة . ليالى كثيرة كثيرة جدا — بل أكثر الليالى — أنام الساعة ٤ بعد نصف الليل .

عندى كاتب يأخذ ١٢ جنيهاً فى الشهر ، ويكاد يهلك من التعب .

أديت مصاريف بوسطة سنة ١٩٣٣ نحواً من ٥٠ جنيها ، غير داخل فى ذلك حساب التلغرافات ، فى عشرين يوما أتذكر أنه جاءنى ١٠ اقتراحات ، من مقالات ومقدمات كتب .

أنت لا يقاس بك أحد ، وإن كنت تقترح مقالة لتضمها إلى كتابك فيكون وجودها هناك مشرّفا لها ، ولكن هذا وذاك وذلك وكل إنسان يظن أنى يجب أن أخدمه وأنى رقيق له . فلماذا يا ليت شعرى ؟ . أفلا يحسبون أن وقتى أولى بعيالى وأطفالى .

بعد إيابى من سياحتى باشرت تأليف « الحلة السندسية فى الرحلة الأندلسية » التى ستكون ستة مجلدات فيما أتصوّر ، والبابى يلح بها . فمضى على وصولى شهر وشىء وأنا كل يوم أجلس وكاتبى ثلاث جلسات نهاراً ومساء مجموعها ٨ ساعات ، ومع هذا فلم أقدر أن أسوّد فى هذا الشهر كله أكثر من ١١٠ صفحات ، مع أن هذا الجزء وحده سيكون ٦٠٠ صفحة فأكثر ، فلا أقدر أن أكمله قبل ستة أشهر .

وترانى أشتغل هذه الساعات الطوال كل يوم ، وذلك أملا بالحصول على شىء أستعين به على غلاء هذه الديار . ومن الغريب أن الناس يعتقدون أنى أنا ممن يقدر على تسويد ٤٠ صفحة فى اليوم ، فكتاب ٦٠٠ صفحة لا يأخذ معى أكثر من ١٥ يوما ! لذلك لا يكون قليلا أن آخذ فى مقابلته ١٠٠ جنيه مثلا .

أحد من يراسلنى من مصر كتب لى قائلا : عساك أتممت الجزء الأول ؟ فهو يظن تأليف الكتب كإملاء المقالات بدون مراجعة تقريبا ، وأيضا فأنت سيد من كتب ، وإنك لتعلم أن المقالة ولو عمودين لا غير تأخذ لتحريرها ساعة . وإن كانت أربعة أو خمسة أعمدة تأخذ ثلاث ساعات . لا يعلمون أننا نبحث عن قضية واحدة يوما كاملا .

هذا الجزء هو فى خطط الأندلس ، لأن الجغرافية تتقدم على التاريخ ، فكم يلزم لى من مطالعة كتب عربية وأوربية لتحقيق أحوال بلدة واحدة . قد أردفت وصف كل بلدة أندلسية بسرد أسماء العلماء الذين خرجوا منها لعهد العرب ، أفتدرى كم خرج من علماء وفقهاء وحكماء وأدباء من طليطلة ؟ خرج نحو من ٢٥٠ عالماً . أتدرى كم خرج من سرقسطة ؟ خرج ١٣٤ عالماً . وهذا الذى قيدته إلى الآن ، ويجوز أن أعثر على أسماء أخرى .

وقد أثبت أسماء من خرج من علماء العرب من مجريط — مادريد — وطلمنكه ووادى الحجارة ومدينة سالم وقونكه وقلعة أيوب ودَرُوقة ووشقة ولاريده وبَلَغى وطرطوشة ومربيطر وبربشتر وجزيرة شقر وانده أى شرق الأندلس ، هذا عدا المدن الكبار : طليطلة وسرقسطة وبلنسية .

أتدرى كم خرج من العلماء والأدباء من بلنسية ؟ خرج ١٥٩ عالماً وثلاث نساء من أهل العلم . هذا إن لم يظهر غيرهم .

وكل ماجمعته إلى الآن من أسماء العلماء لا يوازى خُمْس المجموع ، لأن أمامى من الكراسى الكبار قرطبة وأشبيلية وغرناطة ومرسية وجيان ومالقة ؛ وأما مدن الدرجة الثانية والثالثة إلخ فشىء كثير ، ولكن قرطبة وحدها تكفى ، فإنى لا أحرز علماءها بأقل من ٨٠٠ شخص . وترانى الآن أسرد الأسماء سرداً ، إلا أنى بعد إكمال التاريخ — إن فسح الله فى الأجل — سأحضر جزءين لتراجم هؤلاء العلماء باختصار غير مخل .

بكل هذا يظنه الناس مما يسهل علىّ ، فلذلك يرد لى سؤال من واحد عما إذا كنت أكملت تأليف الجزء الأول فى مدة أسبوعين ، لأنه يحسب أنى أكتب تأليفاً كهذا فى ٢٠ يوماً أو شهرين بالكثير .

أرسلت إلى عدن حتى يعيدوا إليك الكتب التى أرسلناها إلى إبراهيم لقمان ، والتى لم يبيعوا منها إلا نزراً ، فأرجو أن تفيدوا هذا الرجل اسم وكيلكم فى بور سعيد . وجدت إعادتها إلى مصر خيراً من بقائها فى عدن حيث تذهب وينهب ثمنها ، والرجل أرسل لى قائمة حساب البيع منها والباقى وهى واصلة طيه ، وأود لو أمرتم السيد عاصم أن يرسل لى الحساب الذى بينى وبينكم على « الارتسامات » ورسالة « لماذا » . وهذا ما أكتبه إليكم شكوى لأحوال زمنى ، وإن لم أشك إليك فإلى من أشكو ؟ . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

أخوك

شكيب أرسلان

— ٤٩ —

جنيف ١٥ ذى الحجة ١٣٥٣ (١) .

سيدى الأخ الأستاذ ، أمتعنا الله بطول حياته .

أمس كتبت لك بخصوص الديوان ، ووجوب العَجَلة فى طبعه ، وإعادة المائة فرنك سويسرى التى أرسلت بها إليك من كلفة الطبع ، ظناً بأنى سأقوم أنا بهذه الكلفة ، ولكن حيث أن الأستاذ دياب (٢) تعهد بها فالمرجو بعد أخذ

---

(١) هذه الرسالة مكتوبة فى ورقة واحدة من الحجم المتوسط ، والوجه الثانى من الورقة فيه ثلاثة سطور فقط . والرسالة ليست بخط شكيب ، بل من إملائه ، وعليها توقيعه .

(٢) الأستاذ محمد توفيق دياب صاحب جريدة « الجهاد » ، وكان شكيب يكتب فيها .

ثمن الكتب التى أوصيتك بإرسالها إلىّ أن تعيد الباقى ، نظراً للأزمة التى نحن فيها .

ثم أرجو أن تعيد لى مكتوب محمد صادق الحبشى ، وقطعة « البيان » التى فيها مديحنا للشهبندر ، ثم إنه خطر لى بيت من قصيدة كنت نسيته ، وهذه القصيدة هى القصيدة الميمية التى قلتها قبل الذهاب إلى حرب طرابلس يوم تمثيل رواية صلاح الدين فى الأوبرا ، فقال شوقى قصيدة ، وقلت أنا قصيدة ، وقال خليل المطران قصيدة . وقد فُـقدت قصيدتى ، فأمليتها فى الديوان عن ظهر قلبى ، لكننى نسيت بيتاً يجب أن يُذْكَر بعد قولى :

وحاشا بلاداً أنتمُ عن يمينها   يُفَت بأعضاد لهـا ومعاصم
تخيلتها شوقاً على بُعد دارها   تصافحكم بالقلب لا بالبراجم (١)

فالبيت الثانى هو الذى يجب إثباته ، وهذان البيتان قبل آخر القصيدة بأبيات ، هذا ولا تنسوا وضع المقالة التى لى فى الشعر ، وأن تجعلوا محلها فى الديوان إما فى آخره أو فى أوله ، وقول المنفلوطى عنا تذييلا على هذه المقالة (٢) فأما مقدمة الديوان وهى التى يقول أبو الحسن إن الأخ خليل المطران يريد أن يكتبها فهذه بالبديهة ستكون فى صدر الديوان ، ولخليل المطران جملة عنى فى مختارات « الزهور » أرسلت بها إليكم ، فلا بأس فى وضعها أيضاً فى الديوان (٣) .

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

أخوكم

شكيب أرسلان

---

(١) أثبت رشيد البيت الثانى كما أشار شكيب ، انظر ديوان الأمير ، ص ١٠٩ . والبراجم : جمع برجمة ، بضم الباء وسكون الراء وضم الجيم ، وهى المفصل الظاهر أو الباطن من الأصابع والأصبع الوسطى من كل طائر ، وهى مفاصل الأصابع كلها ، أو ظهور القصب من الأصابع ، أو رءوس السلاميات ، إذا قبضت كفك نشزت وارتفعت .

(٢) لم تنشر المقالة فى الديوان ولا قول المنفلوطى .

(٣) لم تنشر فى الديوان هذه الجملة .

— ٥٠ —

جنيف فى ٨ صفر ١٣٥٤[١] .

سيدى الأخ الأستاذ ، لا عَدِمْتُه .

كتب لى حبيب أفندى الجاماتى أنه قد اتفق معكم على قضية تصحيح كتاب « البولشفيك[٢] » وكتاب « شوق » فجئت أرجو سيدى الأخ أن يخبرنى ماذا تم من هذه الجهات الثلاث ؟ فإنى أنتظر الإنجاز . ثم ماذا تم من جهة المقدمة التى وعد بها الأخ مطران بك ؟ . ديوان المرحوم أخى فى دمشق قد قارب النجاز .

عسى أن يكون الناس اطمأنوا من جهة تزوير الكتاب الذى نشره ذلك الأحمق المنافق ، لأنه ليست الحماقة فقط هى التى حملته على نشر هذا التزوير ، بل طمعه فى مال اليهود ، فنشره وهو يضمر أنه إذا انطلى على الناس فيكون قد قضى غرضَه : أكلَ المالَ وشفى صدرَه من رجل كان يحسده فى الباطن ، ويتودَّد إليه فى الظاهر كما هو شأن الكثيرين . وإذا عرف الناس حقيقةَ التزويرة تراجعَ إلى الوراء ، وقال : إنه انطلى عليه .

وقد بدأ يتراجع مذ اليوم ويقول : لسنا أنبياء ، وقد أتونا بهذه الوثيقة فصدقناها ، وإذا ثبت أنها تزوير ننشر أيضاً ثبوت تزويرها . فتأمل فى هذا النفاق .

والحق أنهم أقدموا على تزوير نَدَرَ نظيره فى تاريخ العرب ، لا أقول إنه لم يقع أصلاً ، ولكنى أقول إنه ندر جدا ، والآن صرت أقدر أن أخبرك بأنه لولا لطف الله بى لكان قُضى علىَّ من شدة الألم .

---

(١) هذه الرسالة ليست بخط شكيب ، بل من إملائه ، وهى مكتوبة فى ورقتين من الحجم الكبير ، الأولى مكتوبة من الوجهين ، والأخرى من وجه واحد .

(٢) كتاب لشكيب عن رحلته إلى روسية .

فإنى لما رأيت هذا الكتاب المزوّر ، وكنت أعلم كثرة حسّادي وأعدائى ، وأعلم أيضاً غباوة الناس ، وأنهم إذا رأوا خطاً يشبه خطّى أسرعوا بالتصديق ، وأعلم أنه إذا انتشر هذا الزور شرقاً وغرباً قال أكثر الناس عنى : هذا رجل منافق ، بقى يدّعى خدمةَ الإسلام خمسين سنة ، فإذا به خادمٌ لدولة أجنبية على أمته ؟ .

ولا يكثر على الحساد من جهة ، وعلى الأغبياء من جهة أخرى ، أن يقولوا ذلك ، فقد كوفى، مَنْ هو خير منى فى الإسلام بما هو شر من التزوير ، أو إن لم يكن شراً منه فبمثله .

ثم عند ماتأملت ذلك وتأملت فيما بلغ إليه العرب من قلة الدِّين كدت أصعق ، ويجوز أن تكون حصلت لى سكتةٌ دماغية أو قلبية ، وأن أموت فيحرم أولادى الصغار والدّهم ، وأهم من هذا أن أموت قبل أن يتيسر لى البرهان عن براءتى ونشر البيانات اللازمة لإثبات تزوير الكتاب المنسوب إلىّ . فكنت أموت حينئذ موتاً أدبياً وبدنياً معاً .

لكن الله المحيط بكل شيء لم يرد أن أكون مظلوماً بعد نُصْح خمسين سنة وبلايا كثيرة ، فما مضت عشية أو ضحاها حتى ابتدأ الناس يعرفون التزويرة ، وجاء تكذيبى الأول بالبرقيات فاطمأن أكثر الناس ، ولعل المقالات قد انتشرت الآن فازدادوا اطمئناناً ، فإنى كتبت أربع مقالات إلى « الجهاد » قد تبلغ سبعين صفحة ، وكتبت ٣٠ صفحة إلى « الكوكب » ، وكتبت ٣٠ صفحة إلى « الجزيرة » فى الشام ، ومثلها إلى « القبس » ، وكتبت نحواً من ٦٠ صفحة إلى « الجامعة العربية » ، هذا عدا ما كتبته من المكاتيب الخصوصية المسهبة إلى كل الأقطار ، بحيث إذا قدرت ما حبرته فى ١٥ يوماً — أى مذ رأيت الكتاب المزور — يبلغ خمسمائة إلى ستمائة صفحة بالأقل .

ولا تزال صحتى كما كانت ، ونشاطى كما كان ، لأن معرفتى براءة نفسى جعلتنى فى هذه الحملات أسداً عادياً وسيفاً ماضياً .

سألتك فى الكتاب الأخير أن تخبرنى عن أسعد داغر، هل يقول : إن هذا الكتاب مزور أم لا ؟ فقد جاءنى من فلسطين أنه كان من المجتهدين فى إثبات صحة الكتاب .

من جهة الشهبندر ربما لا يتظاهر بما يدسه ، لا سيما أمامك ، وإلا فالناس لا تصدق أن عزت العطار وأمثاله يقدمون على هذه النشريات بدون إشارة منه . وبمناسبة عزت العطار هذا أقول لك إنه قد وقع أمامى بطاقة منه يقول لى فيها بالحرف : « مولاى صاحب السمو زعيم الإسلام حفظه الله تعالى . أقبِّل الأقدام مهنئاً سموكم بحلول عيد الأضحى المبارك ، أعاده الله عليكم باليمن والسعادة والإقبال ، وأبقاكم ذخراً للعالم الإسلامى إنه سميع مجيب » . والإمضاء : « عزت العطار طالب بالجامعة الأزهرية ومؤلف كتاب الرسول العربى . مصر الأزهر رواق الشوام » . فليعلم الشهبندر أن جماعته هم من هذا النمط . . .

وقبلاً أرسلت إليك بكتاب أمين سعيد هذا الذى عمل له الشهبندر حفلةَ تكريم لأنه طوى مآثر أعدائه فى كتابه المكذوب ، المسمى « بالثورة العربية » الذى فيه أشياء لا أصل لها ، والذى سكت عن أشياء هى أحق الحقائق ، فاندعه الآن .

وقد سمعت أنه كتب فى « المقطم » مقالات طعن بى مؤيِّداً التزوير ، ولم أعلم لماذا المقطم انفرد بقبول هذه المطاعن ، مع أن خليل ثابت كان كتب لى منذ أشهر يتودّد لى من نفسه .

كتبت إلى الدكتور نمر وسألته عن السبب فى كون المقطم أسرع الجرائد إلى الهجوم علىَّ دون غيره ، ولقد أصبتم عند ما قلتم لى إن هذه التزويرة ستكون القاضية على الأعداء والحاسدين المسرِّين منهم والمعلنين ، وأدام الله لى عطفك ، وأدام عمرك . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أخوك

شكيب أرسلان

— ٥١ —

جنيف فى ١٢ صفر ١٣٥٤ (١)

سيدى الأخ الأستاذ ، لا عدمته

تلقيت الآن كتابك الكريم وشكرتك ، لأنه مهما كان بينى وبينك من وحدة الحال فالشكر واجب للمحسن فى زمن أصبح تسعة أعشار الناس هم من قبيل :

يقولون لى : أهــلا وسهلا ومرحباً ولو ظفروا بى ساعةً قتلونى

نعم صارت لى هذه الحادثة درساً ، ولو كنت بلغت العمر الذى لا يتعلم فيه الإنسان ، فما كذب من قال : العلم هو من المهد إلى اللحد .

قضية الكتاب المزوَّر تقولون إن الناس كلهم عرفوا تزويره ، وإننى بالغت فى الدفاع عن نفسى . فهل ترى من باب حب الجدل إذا قلت لك إنه فى أول الأمر كان أكثر الناس مصدِّقين أن هذا المكتوب هو منى ؟ ! .

نعم الخطأ وقع من أخينا الجابرى ، فبدلا من أن يُبْرِقَ لى نهارَ صدور المكتوب المزوَّر أى ١٨ إبريل أبرق لى برقيةً مبهمة ، معناها أن أنتظر الجرائد ، أى أنتظر ستة أيام حتى تصل جرائد فلسطين إلى جنيف .

كل هذا حتى لا يدفع أجرة برقية مطولة قد تكون جنيهين مثلا . فمضت ستة أيام وأنا لا أعلم بشىء ، والناس لو كانوا من ثانى يوم قرأوا تلغرافاتى لكانوا بالأقل سكتوا وانتظروا مقالاتى ، ولكنهم لبثوا من ١٨ إلى ٢٥ لا يعلمون شيئاً من جوابى ، فرسخ فى أذهان الكثيرين أن الكتاب صحيح ، لا سيا أن الدعاية

---

(١) هذه الرسالة ليست بخط شكيب ، بل من إملائه ، وقد أصلح تركيب بعض ألفاظها ، وأضاف إليها بعض الجمل ، وهى مكتوبة فى ثلاث ورقات من الحجم الكبير ، من الجهتين ، إلا الأخيرة ففيها نصف صفحة أبيض .

اليهودية الإفرنسية — لأن اليهود والإفرنسيس شيء واحداليوم — كانت ملأت الدنيا .

فكيف أسكت أو لا أكتب إلى كل جهة ببراءة نفسى من فظاعة كهذه : أننا صرنا دعاة لإيطالية ! . لا أصير داعياً لإيطالية ، ولا موسولينى يطلب منى أن أكون داعياً لإيطالية ، ولا موسولينى هو ولد صغير حتى يرانى بهذه العين ، أو يجرؤ أن يقول لى : نرجوك أن تبث لنا الدعاية لإيطالية .

أما قولهم إن هذا الذى كتبتُه إنما هو دعاية لإيطالية فليس بصحيح . أنا لى مطالب عند موسولينى تتعلق بمسألة سورية ، وبمسألة فلسطين ، وبمسألة طرابلس ، وليست بالهيِّنة ، فأحببت أن أكتب عن الأريترية شيئاً يسر موسولينى ، حتى يجيب مطالبى ، لأنه إن علم أننا لا نريد أن نقول فيهم إلا ما كنا نقوله من قبل فلا شك أنه لن يفعل شيئاً . ولكنه قد فعل قِسْماً ، وأنا أستنجزه القسم الباقى .

أما أنهم لا يريدون أن يفهموا ذلك ، وأن كل كلمة ليست بشتم تعد دعاية ، فهذا كلام عوام ، ونحن لا يمكننا أن نكون وفداً سورياً نشتغل لإفادة سورية وفلسطين والعرب إجمالا ، ونمشى على رأى العوام .

أنا أخطأت فى كونى لم أنتبه أننى أمام شعوب جاهلة إلا ما ندر ، والنادر لا حكم له . أما القضية من حيث هى فهى صحيحة . كل سياسى يجب أن ينشد مصلحة قومه ، لأن السياسة تتغير من حين إلى حين .

أنا الآن موافق لك على جملة قلتها أنت ، وهو أن جميل مردم بك هو فى غاية الذكاء ، فقد قال فى الشام علنا : نحن فى غاية الاحتياج إلى وفد سورى يتوفق لإيجاد علاقات بينه وبين دولة كبيرة ، لعلها تفيد سورية وفلسطين، ولنفرض أن شكيب أرسلان كتب هذا المكتوب لأجل أن يقنع موسولينى بصداقته ،

فإنما عمل ذلك حتى يقابله موسوليني بتأييد القضايا العربية ، على أن المكتوب ثبت أنه مزوّر .

وقد قال كثير من الناس في فلسطين وسورية والعراق مثل هذا القول .

ولكنني أنا أقول : لو أن هذا المكتوب كله عبارة عن بسم الله الرحمن الرحيم ، فلا أقبله لأني ما كتبته ولأنه تزوير محض .

ولنفرض جدلاً أنني قائم بدعاية لإيطالية ، أفيحق لبعض الناس أن يزوروا مكتوباً علينا ؟ . هم يقدرون أن يظهروا بطلان قضيتنا بالبرهان والدليل ، فأما بالتزوير فهذا شيء فظيع جداً ندر وقوع مثله ، وإنك لا تعلم إلى أية درجة هذه المسألة أضرت بالعرب .

كنا نتأفف من أحوال عرب الجاوى إلى أن صرنا لا نريد أن نسمع ذكرهم من شدة ما تشاءموا وما طالت فتنتهم بين العلويين والإرشاديين ، فالآن صرنا فيما هو أشنع ، فإن أهل الجاوى ما وصلوا إلى التزوير بعضهم على بعض .

فلسطين الأمل فيها من قبل كان أصبح ضعيفاً ، فالآن لو قلت لك إن فصل هذه التزويرة قطع كل أمل من إنقاذها لم أكن مبالغاً ، لأن الناس بعد أن اطلعوا على هذه التزويرة وما صحبها من المقالات لتأييدها ، وعرفوا أن الذين قاموا بها هم من أنفس العرب، وما فعلوها إلا لأجل اليهود وبمال اليهود ، قالوا : هذه أمة بلغ فساد الأخلاق فيها حداً لا ينفع معه شيء .

تأتيني كتب من شمالي أفريقية بهذا المعنى ، وقد رأيت في جريدة « الحياة » الصادرة في تطوان مقالا يقول : إنه بعد هذه التزويرة حصل خيبة أمل زائدة في مستقبل فلسطين .

فالواجب على الذين يهمهم مستقبل العرب — وأنت في مقدمتهم — أن يبينوا للناس فظاعة هذا العمل ، لأنه أيضاً فتح باب لا ينغلق فيما بعد ، لا سيما

فى فلسطين حيث الشعب من زمان تركية مستعد لهذه الأمور . فقول محب الدين[١] أجبته أنا عليه وقلت له : إننى أدفع بكل قوتى اتهامى بالدعاية لإيطاليا ، وإنى أعترف بأنى كتبت ما كتبته ليكون موسولينى مسروراً منى ، لا لأجل أن أحظى عنده بشىء لنفسى ، ولكن لأجل أن يجيب مطالبى فى مسائل عديدة ذات أهمية فإن لم يجب مطالبى فأنا طليق اليد ، حر أن أعود معه إلى العداوة . أنا ما سمعت منطقاً حتى الآن كهذا المنطق .

الروسية البلشفيكية التى كانت فرنسة لا تجد دولة أشد منها عداوة قضت السياسة عليها بأن تحالفها الآن ، رغم كل ما هناك من اختلاف المبادىء . لماذا ؟ الجواب : لأن المصلحة جمعت بينهما ، فكل منهما ضد ألمانية أما أن الناس لايفهمون هذا ، ويظنون أننا نعمل دعاية لإيطالية ضد الحبشة . متى عملنا هذا ؟ لكنهم هكذا فهموا .

أنا لا أدان إلا بكلامى ، وكلامى صريح ، فأما التأويل فكل إنسان يقدر على التأويل بحسب هواه ، ولكنه لا يقدر أن يقلب الحقائق .

قلت للسيد محب الدين : إنك لا تجهل فظاعة هذا التزوير ، وسوء تأثيره فى العالم العربى ، فكونك تبرر قبول التزوير بدعايتى لإيطالية ليس مقبولا أصلاً . ولو فرضنا أن هذه الدعاية صحيحة . ولكنى حاضر لأثبت أن شيئاً منها لم يقع ، فلا يقدر أحد أن يفتئت[١] علىّ ما لم أقله .

سررت بأن أسعد داغر يعترف بتزوير المكتوب ، لأننى كنت أحب أن أمتحن الناس بهذه المسألة عينها ، فأقول لهم : قضية الدعاية لإيطالية نتركها الآن ، ونريد منكم الجواب : هذا المكتوب مزور أم غير مزور ؟ فبعد أن يجيبوا

---

(١) الأستاذ محب الدين الخطيب صاحب مجلة « الفتح » .

(١) افتأت فلان على فلان الباطل : اختلقه . وافتأت برأيه : استبد .

أنه مزوّر نعود حينئذ فنقول لهم : أى دليل على أننا عملنا دعاية لإيطالية ؟ وما هى الجملة التى تفهم منهاهذه الدعاية ؟ .

نعم يفهم من كلامنا أننا لا نريد استيلاء إيطالية على الحبشة بالصراحة ، ويفهم من كلامنا أننا لا نريد فتح دولة غربية لمملكة شرقية ، ويفهم من كلامنا أننا نتمنى للحبشة صيانة الكيان والسعادة التامة ، وكل ماتتمناه للممالك الشرقية ، وليس من المضامين يستخرج هذا المعنى ، بل هو بغاية الصراحة والفصاحة .

نعم ننصح للحبشة أن يحسنوا معاملة المسلمين ، ويعاملوهم بالمساواة ، لأنهم فى أسوأ حال ، فمسلمو مصر لا يريدون هذا لئلا ينزعج الأقباط . لا يريدون أن نذكر الحبشة بقولنا : أحسنوا معاملة المسلمين ، لئلا ينزعج بذلك خاطر الملك طفرى قوة الثالوث ، وإذا انزعج خاطر الملك طفرى اغبر خاطر الأقباط ، فالمسلمون لا يهمهم من الستة ملايين مسلم الذين فى الحبشة أدنى شيء ، فايبقوا عبيداً فلا بأس ، بشرط أن القبطى يكون راضياً .

نعم أخطأت وأنا معترف بالخطأ . أخطأت فى كونى قلت كلاماً معقولا . تقول لى : إننى أصرح بما أعتقده صواباً ولو خالف ذلك الجمهور . نعم هذا أعترف به ، ولكنى ما وجدت أن الجمهور كان يصيب فى أكثر الأحيان : خالفت الجمهور قبل الحرب ، وكان كثير من العرب يغضبون علىّ ، ويجعلوننى خائناً عندما أقول لهم : نتيجة انشقاقكم عن الترك هى تمكين للانجليز وللفرنسيس من اقتسام البلاد العربية ، وتمكين اليهود من فلسطين . وماذا جرى بعد ذلك ؟ هل صحّ هذا الكلام أم لا ؟ . قولك إن كثرة الحجج مثار للتهم . جوابه : لا أقدر مع شعب كهذا أن أتكل على كثيرين مثل السيد رشيد رضا يعلم أن المكتوب مزوّر بدون أن يرى خطّه بالزنكوغرافيا . فالناس يمشون على العمياء ، وقليل منهم من يفهم أن هذا المكتوب لا يمكن أن يصدر منى إذا كنت أنا لا أبادر بنفيه من كل الجهات .

ياسيدى ، أنا اتفقت فى السنة الماضية مع السيد توفيق دياب على أننى أكتب للجهاد أربعاً أو خمس مقالات فى الشهر ، ويؤدى عنها مائة فرنك سويسرى أدفعها للكاتب الذى عندى من أصل أجرته ، فالسيد توفيق دياب دفع عن شهر واحد ، وذهبت إلى جزيرة العرب ، فغبت من أول إبريل إلى أواسط أغسطس ، ثم عدت إلى مكاتبة « الجهاد » بعد رجوعى ، فأنا كتبت إلى الجاماتى [1] من أيام أقترح عليه أن يتكلم مع دياب بحل المسألة بينى وبينه على أحد وجهين : إما أن يؤدى مائة فرنك فى الشهر عن ثلاثة عشر شهراً ، وإما أن يحصى عدد المقالات التى كتبتها من أغسطس إلى الآن ، مستثنياً مقالات الدفاع عن نفسى ، ويؤدى عن كل خمس مقالات مائة فرنك سويسرى .

وأنا أعفيه مما وعد به من طبع ديوانى ، وكذلك أعفيه من طبع رسالة البلاشفة وكتاب شوقى ، والرحلة الألمانية ، فأطبع هذه الكتب كلها على نفقتى ، بالغة كلفتها ما بلغت .

إننى وجدت يا سيدى أن لا خلاص من هذه القضية ، وإذا بقيت أنتظر همتهم فى إدارة الجهاد فى طبع هذه الكتب فتمضى سنتان وثلاث وأربع ولا ننتهى . فأنا الآن منتظر جواب الجاماتى ، وقد استنجزته الجواب القطعى ، وقلت له إننى أعد وعد الأستاذ دياب فى دفع كلفة ديوانى كأنه نجز ، وأشكره كأنه دفع ، ولكن فى الحقيقة أرجو منه العدول عن تأدية كلفة ديوانى أو تأدية شىء منها .

غاية ما أرجوه أن يقوم بموجب الاتفاق الذى اتفقنا عليه فى السنة الماضية ، وأن يؤدى ما تعهد به ، ويسلّم هذه الكتب بأجمعها إلى السيد رشيد رضا . رسالة البلاشفة كلها ٧٠ أو ٨٠ صفحة ، مضى عليها عشرة أشهر ، وكل جمعة يأتى مكتوب أنها صارت منتهية ، فكيف يمكننى أن أصدق كون الكتب الأخرى ستطبع

(١) الأستاذ حبيب جاماتى .

بواسطتهم ؟ . رأيت الأولى أن يكون كل إنسان حراً ، وأن أطبع كتبي كما أريد وأن آخذ أيضا الحق الذى لى بحسب ما اتفقنا . قصدت أن تكونوا واقفين على الحقيقة ، وإن أمكنكم أن تؤيدوا هذا الاقتراح . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

أخوكم
شكيب أرسلان

— ٥٢ —

جنيف ١٠ ربيع الثانى ٣٥٤[١]

سيدى الأخ الأستاذ ، لاعدمته

أخذت اليوم كتابك رقم ٤ ربيع الآخر ، وسررت به ، وإنى أعتذر إليك أننى حملتك فى ترتيب الديوان تعباً ، مع كثرة أشغالك ، وأنا منتظر الكراسة التى ذكرت أنك سترسلها ، حتى أصحح ما عساه وقع فيها من خطأ .

« رسالة البلاشفة » يمكننى أن أكتب لها مقدمة صغيرة عن أسباب نشرى إياها ، وأرسل ذلك إليك . لا ينبغى أن تتعب نفسك أكثر من اللازم فى تصحيح هذه الرسالة مع الديوان بما قد يضر بصحتك ، فإن صحتك أثمن من هذه الكتب كلها .

وأما رسالة « رحلتى فى ألمانية » ، فقد كنت وضعت فى رأسها بعض جمل ، هى أننى كنت أكتب هذه المذكرات عن رحلتى يوماً فيوما ، وذلك عفو الساعة [٢] ، وأننى نشرتها لما فيها من تصوير لحالة أيام الحرب الكبرى ، بحيث يعرف القارىء

---

(١) هذه الرسالة مكتوبة فى ورقتين من الحجم الكبير ، كل ورقة مكتوبة من وجهيها ، وهى ليست بخط شكيب ، بل من إملائه .

(٢) أى بلا كد للذهن .

اليوم ما كان عليه مشهد أوربة فى أثناء المعمعة ، وكذلك من عوامل نشر هذه الرحلة ما يتخللها من فوائد اجتماعية وتاريخية وسياسية ، وإن شئتم فإننى أكتب أيضا مقدمة صغيرة لهذه الرسالة .

قضية ما قاله أسعد داغر أفندى لإحسان بك ذكرتها لك عَرَضاً ، لأنها شهادة من أسعد أفندى على صاحبه الدوكتور[1] بأنه كان يسعى فى حَلِّ الوفد السورى ، وربما وجد هذه الفرصة موافقة لذلك ، كما أن النشاشيبى أراد أن ينتهز الفرصة نفسها ، وعلى كل حال فقد كان مرادى أن أقول لك إن الدكتور هو مصدر هذه الدسائس ، سواء اعترف بذلك أمامك أم لا ، وقد علمت أنه يدس كل ما يدسه ، ثم إذا وجد يخشى أن يذكروا عنه شيئا من ذلك يجتهد فى التظاهر بعكس ما يكيده فى الخفاء .

ولا يلزم أن أكرر لك أننى لو شئت أن أشتغل فى أعماله الشخصية لكان لى مجال واسع ، ولكنى لا أجد ذلك موافقاً ، ولو كان من باب المقابلة بالمثل ، فإن الاشتغال بعورات الناس — وإن عمله هو وكان دأبه — فلا أراه لائقاً بى .

وأنا فى حياتى ما كنت إلا مدافعاً ، وإن هاجمنى مهاجم ، وأراد أن يبغى علىَّ ، أتحمله مرة ومرتين وثلاثاً ، ولكننى فى الآخر أرد مهاجماته وأنتصر لنفسى ، وقد أذكر خصمى بأشياء أفهمه بها أننى أعلم عنه أكثر مما يعلم عنى . ولكن ، إن عملت هذا فلا أعمله ، إلا مكرها ، لأنى مشغول بغير عورات الناس ، وبما هو أهم وأنفع لهذه الأمة .

على أن الدكتور إذا عمل حسابه — بعد أن شغل نفسه وشغل رفاقه أبناء النشاشيبى وغيرهم من أمثالهم — لا يجد العشرة رجعت معه عشرين بل رجعت اثنين ، ولم تكن هذه الحملات علينا بالتى نقصت من مقدارنا ، بل كان العكس

---

(١) هكذا تكرر رسمها فى الرسالة .

على خط مستقيم ، ويكفيه أن جميع الصحف الوطنية فى جميع الأقطار العربية كانت إلى جانبنا ، وأن الصحف التى كابرت فى المِحَال [١] هى بعض جرائد معدودات ، منها ما هو من أذناب فرانسة ، ومنها ما هو من أذناب اليهود ، أو ممن أدى إليه اليهود سِرًا بدلَ الطعن بنا .

فهذه الفئة هى التى تلاقت مع الدكتور فى نقطة واحدة ، وأما بقية الناس فكانوا مع شكيب أرسلان ، لا لأهميته بنفسه ، بل لأنه مظلوم ، ولأنه بيده سيف من الحقيقة يَقُدُّ كل ما يواجهه . لا بد أن يكون بلغكم أن الكتلة الوطنية فى سورية قد أيدت الوفد السورى ، ونشرت الجرائد ذلك ، وجاءنى به كتاب طويل من الأتاسى .

أشكرك على إعطائك جريدة « الضياء الهندية » إلى أبى الحسن ، أو صورة ما ورد فيها عن أخيك ، هذا لأجل نشره فى « الجهاد » ، والحقيقة أن أعظم رجل خدم الإسلام بالقلم فى هذا العصر هو رشيد رضا ، وأن أعظم مجاهد جاهد بالسيف وقاوم مقاومة فائقة للمعقول برغم قلة وسائله هو عبد الكريم [٢] .

من جهة « غالب » [٣] لايخلو من عقل وذكاء ، ولكنه مع الأسف لا يعرف العربية ، وليس براغب فى تعلمها ، وإن رغب فى ذلك فلا نجده راضياً بأن يكب على درسها ، وأنا من هذا الأمر فى ألم شديد ، وقد أفهمته أنه إن لم يتعلم العربية ويتقنها ، وإن لم يكن عربياً تاماً فليس له من تركتى قليل ولا كثير ، وبالفعل شرعت فى وقف أملاكى بحيث له ولأمه وشقيقتيه أن يعيشوا من ريع هذه العقارات ، وأما التصرف بالبيع والشراء فلن يكون لهم .

---

(١) المحال : الكيد ، وروم الأمر بالحيل ، والمكر ، والعداوة .
(٢) الأمير عبد الكريم الخطابى ، بطل الريف ، زعيم المغرب .
(٣) ابن شكيب .

فإن بقى غالب على ماهو عليه الآن فلست براض عنه . نعم شعوره إسلامى عربى ، هذا لا أنكره ، ولكنه لا يكفى ، بل أريده يترك كل شىء ويتعلم العربية .

وقد ذهبت العائلة إلى لبنان ، وسررت بذلك حتى يعرف غالب وطنه وعائلته ، ولعله يميل إلى البقاء هناك . وقد أخذنا الرخصة للعائلة بالذهاب إلى سورية بواسطة ابن عمنا أمين مصطفى ، وعند ما كالم المفوضية الإفرنسية لم يتوقفوا عن إعطاء الرخصة ، بل قالوا له هكذا : ابن عمك عدوّنا ، ولكنه عدوّ شريف ، ونحن نعارض فى مجيئه إلى سورية ، لكن لا نعارض فى مجىء عائلته وأولاده . سررت بنجاح « شفيع » فى الامتحان ، وليس بضرورى مجيئه إلى أوربة مادامت فى مصر مدرسة للهندسة . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أخوك

شكيب أرسلان

9 , Tv. Hentsch Genéve

— ٥٣ —

جنيف ١١ ربيع الثانى ٣٥٤[١] .

سيدى الأخ الأستاذ ، لا عَدِمتُهُ :

كنت فى هذه الصبيحة كتبت لك أننى نزولا عند إرادتك سأبعث إليك بمقدمة لرسالة البلشفيك ، والآن قد كتبت هذه المقدمة ، فيمكنك أن تطالعها وتجعلها فى صدر الرسالة .

قرأت فى كتابك الواصل لى اليوم أنك لا تريد أن أضيف إلى عنوان الكتاب لقب « أمير البيان » ، وأنت خوفاً من أن يظن القارئ كونى أنا وضعت هذه الجملة

(١) هذه الرسالة ليست بخط شكيب ، بل من إملائه ، وهى مكتوبة فى ورقة من الحجم الكبير ، من الوجهين .

تريد أن تجعل الطابع من قبلك لا من قبلي ، حتى يُعرف أن الذى وضع هذه الجملة (أمير البيان) هو أنت لا أنا . فأنا لا أرى ضرورة لوضع كلمة « أمير البيان » . لا سيما أنك ستكتب بعد ذلك أنه تولى تصحيحه السيد رشيد رضا . فنحن مع اعترافنا بأننا بأجمعنا عيال عليك نرى فى هذه الجملة ما يوهم القراء أننا إنما نطبع كتبنا عندك لا لتصحيح مسوداتها ، بل لتصحيحها هى من أصلها . وهذا ينقص من منزلتنا فى أعين قراء هذه الكتب كما لا يخفى . ولو قلتم : « جرى طبعه تحت إشراف السيد رشيد رضا » لكان المعنى هو نفسه ، ولكن لا يتوهم القارئ أننا إنما نطبع عندكم حتى تصححوا لنا أخطاءنا اللغوية . لا ندعى أننا لا نخطئ ، ولا يوجد من لا يخطئ ، ولكننا نجد هذه الجملة أولى من الجملة الأولى .

ولا أزال فى انتظار الكراسة الأولى من الديوان ، حتى أرى كيفية طبعها .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أخوك

شكيب أرسلان

— ٥٤ —

جنيف ٩ جمادى الأولى ٣٥٤[١] .

سيد الأخ الأستاذ ، لا عدِمتُه :

تناولت رقيمك الكريم ، وحمدت الله على صحتك ، وقولك لى إنها أحسن مما كانت من قبل ، وإنك تكثر من أكل الفاكهة ، وهذا هو نعم الرأى لمن كان

---

(١) هذه الرسالة ليست بخط شكيب ، بل من إملائه ، وهى مكتوبة فى ورقتين ، من الحجم الكبير ، الأولى مكتوبة من الوجهين ، والثانى مكتوب فيها ستة أسطر .

مثلك ، وقد رووا عنك أنك تقول إن الرفق محمود فى كل شىء إلا فى أكل البطيخ ، وسارت كلمتك هذه كالمثل ، فلا تزهد فى هذا المشرب .

علمت أن أبا الحسن استخلص رسالة البلشفيك من مطبعة سكر ، ومن إدارة الجهاد ، ولم يكن هذا العمل سهلا ، فإن من الجهاد تخليص الأوراق من إدارة « الجهاد » ، وقد بقى علينا استرجاع الدراهم التى دفعها صاحب الجهاد لمطبعة سكر ، وذلك حتى نؤديها لـكم ، وتطبعوا الرسالة عندكم .

ثم بقى علينا الرحلة الألمانية التى يجب أن تستخلص من الجهاد أيضاً ، وأن تطبع عندكم على نفقة صاحب الجهاد ، لأنه نشرها فى جريدته ، وتعهد بطبعها على حدة ، ومثل ذلك كتابنا عن شوقى ، فقد كتبت إلى أبى الحسن أن يستخلص من الأخ الأستاذ دياب ما يمكن استخلاصه من أجرة هذا الـكتاب الذى نُشر ثلثاه فى الجهاد ، وأن يوقف نشرَ الثلث الباقى ، وذلك حتى لا تكون أزيلت بكارةُ هذه الرسالة ، وصارت ثَيِّبًا فقلَّتْ الرغبة فيها ، وبعـد أن يستخلص أبو الحسن مبلغاً مناسباً لـما نشر من هذه الرسالة ، يباشر أيضاً بطبعها بمطبعة « المنار » . وبالاختصار نريد أن نطبع بمطبعة المنار رسالة البلاشفة مع الرحلة الألمانية كتاباً واحداً ، ورسالتنا عن شوقى كتاباً آخر ، والديوان كتاباً ثالثاً ، وأن نأخذ من دياب ما تعهد به ، ونؤديه إليكم تحت الحساب .

الملزمة الأولى من الديوان فيها سقوط الواو من « تحدونه » ، وفيها « تغز » بدلا من « تغر » وليس شىء من ذلك بمهم ، ولـكن لفظة « إسئاد[٢] » أنا لم أجعلها « إيساد » حتى تصححها لى ، وتخطِّئنى ظلماً ، وتقول لماذا جعلها الأستاذ « إيساد » ، فأنا ما جعلتها « إيساد » ، بل تصحفت عليك « بإيساد » ، فأسرعتَ أنت — أطال الله عمرك — بالتخطئة . ولذلك سأكتب فى آخر الـكتاب أنها

---

(١) الإسئاد : الإغذاذ فى السير ، أو سير الليل بلا تعريس ، أو سير الإبل الليل مع النهار .

تصحفت عليك وأنها من الأصل « إسناد » . نعم إن الكاتب قد يخطىء ، والنساخ ليسوا جميعاً معصومين عن الغلط ، ولكن الغلط الذى تقوم القرينة على كونه محض غلط يجب على المصحح العلامة تصحيحه . وقد تناولت اليوم الملزمتين الأخريين وقرأتهما ، ووجدت فيهما أيضاً خطأ ، مثل ما ورد فى صفحة ١٩ سطر ٩ وهو :

فتى خطب العلى وحباً إليها

فهى مكتوبة « العلا » وهذا خطأ ، وذلك لأننا لو كتبنا العلا بالألف — أى مقصور العلاء — فلا يجوز أن نقول بعد ذلك : « وحبا إليها » ، لأن العلاء مفرد مذكر ، فأما وقد قلنا : « وحبَا إليها » فيجب أن نكتب « العلى » بالألف المقصورة ، وهى جمع عليا ، ويعود الضمير فى « إليها » إلى « العلى » .

وقد تكررت هذه الغلطة فى صفحة ٢١ سطر ١٧ . ولعلك تقول لى : هكذا جاء فى الأصل . والجواب : نعم الناسخ أخطأ ، وأنا سهوت عن تصحيح هذا الخطأ ، ويظهر أنك أنت أيضاً سهوت عن تصحيحه .

وهناك فى صفحة عشرين فى سطر ١٧ لفظة « التمذيب » وهى « التعذيب » ، فالطابع جعل العين ميما . وفى صفحة ٢٣ سطر ٢٠ :

حتى كأنْ موهومَها محسوها

محركة بفتح ميم « موهومها » مع أنه يجب ضمها لأن « كأنْ » ساكنة هنا ، وعليه فباطلٌ عملها . وفى صفحة ٢٥ :

وعاطفة فى النفس تُدْرَى ولا تُدْرَى

رأيتها مصححة « تَدْرِى » ولا تُدْرَى » وليس هذا بخطأ ، ولكن الأول أحسن ، لأن هذه العاطفة يشعر بها الإنسان ولا يعرف كنهها ، فمن هذه الجهة قلت « تُدرى ولا تُدرى » . يعزز ذلك قوله فيما بعد :

لقد غاب عنا كنهها ومكانها   ولكن على الأكوان آثارها تترى

ولفظه « عنها » أصلها « عنا » .

وفى صفحة ٣٠ سطر ٣ لفظة « ففات » وقد جاءت « ففاث » وليس له معنى .
وهناك بعض حركات صححتها ، والكراسة مرتجعة حتى تنظروا أماكن التصحيح ،
ومعه جدول إصلاح غلط ، أرجو نشره ، فى الآخر ، مع الأغلاط القليلة التى
فى الملزمة الأولى .

اجتمعت مع الأمير سعود مدة ثلاثة أو أربعة أيام أولا فى « كو » ، ثم فى
مونترو ، ثم شرّف جنيف ، وصعدنا معه إلى الجبل المشرف عليها ، وفى كل مكان
كنا نذكركم ، وقد دعاه السيد الطباطبائى وقدم له سيارته ، ولازمه معنا ، وسررنا
جداً بمعرفة الأمير ، ومن يشابه أباه فما ظلم ، فهو حقاً على جانب عظيم من السراوة
والتواضع وكرم الأخلاق وطيب السريرة .

ويوم سفره ذهبت إلى مونترو إلى وداعه ، فوصلت بعد سفر القطار بدقيقتين ،
فأبرقت إليه فى جنوة ، وجاءنى جوابه الآن حال تحرير هذه الصحيفة . فأما
ما ذكرتموه لى من أريحية والده فلا عجب فيه فهو الرجل الفذ .

كانوا يتذاكرون مرة أمامنا ونحن فى « الحديدة » مناقبَ الأمير فيصل ،
فقال السيد عبدالله بن الوزير : لا تعجبوا فهو ابن عبدالعزيز ، وكل مكرمة هى قليلة
فى جانب همته ، والله لو آتاه الله من المال ما أتى بنى أمية وبنى العباس لفاقهم
فى الكرم .

وإنى لا أزال أتذكر يوم كنا جالسين فى البرية بالطائف ، وكنا نحن أنا ورفاقى
الحاج أمين وعلوبة باشا والأتاسى ، وكان نحو من خمسين شخصاً من رجال الملك
وأعيان المملكة ، فقال الملك : إن السيد رشيد لا يوجد مثله اليوم فى علماء الشرع
فى كل العالم الإسلامى . وأخذ يطنب فى مزاياكم ، فقلت له : ومع ذلك فبعد هذه
الخدمة الطويلة بيته مرهون ، ويكادون يطرحونه للبيع . فعلت وجهه غبرة لا أنساها ،

لأنه سريع التأثر ، وقد سرني أنه قام — أطال الله عمره — بتفريج كربتكم ، وهو في الحقيقة الآن ملجأ العرب .

جرت لي مع فؤاد حمزة مذاكرات مهمة هي في إجمالها سارة . ولدي غالب وعائلتي كلها في صوفر ، وسيدتي الوالدة قد جبر الله خاطرها برؤية حفيدها والطفلتين الصغيرتين ، وسرني ذلك بما لا مزيد عليه ، وأهلنا وأصحابنا وأهل بلادنا فرحوا كثيراً بمشاهدة ولدنا ، وقد وصلوا منذ عشرين يوما إلى خمسة وعشرين ، والوفود متقاطرة للسلام على غالب ، وإني مسرور بأنه يعرف وطنه وأبناء وطنه ، لأنه لما خرج من هناك كان ابن ثلاث سنوات . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أخوكم
شكيب أرسلان

Tvenue Hensch Genéve

— ٥٥ —

آخر بني سراج (١)

لم يصلني إلى هذه الساعة سوى كراس ، وهو الذي من صفحة ٧٣ إلى صفحة ١٢٠ وأظن أن الكراريس الأخرى ستأتي قريباً .

وإليكم جدولَ إصلاح الخطأ الذي بدا لي في هذا الكراس . اطلعوا عليه ومرُوا بطبعه في آخر الكتاب مع بقية الجدول الذي سنعمله . على أن هذه الغلطات أكثرها ظاهر أنه من الطبع ، مثل الأفسط أي الأفطس ، وأَمارة أي إمارة ، وصالحين وهي هناك الصالحين ، وأمثالها .

---

(١) يظهر أن هذا كان ملحقا لرسالة من الرسائل ، ولكنا لم نجدها ، فوضعنا الملحق مكانها لما فيه من حديث لغوي وأدبي ، وهو مكتوب في أربع ورقات من الحجم الصغير ، وكل ورقة مكتوبة من الوجهين ، والأوراق مطبوع عليها اسم : Genéve les Bergues

وإنما هناك واردة لفظة فى صفحة ٧٦ سطر ٢٠ وهى « بواسل » وأنا لا أخفى عنك أنكر استعمال بواسل ، وسبق لى أننى نبهت إلى كونها خطأ ، هى وألفاظا أخرى يستعملها الكتاب ، ونشرت ذلك فى بعض الجرائد .

فورود هذه اللفظة فى الحاشية على أنها من كلامى قد أدهشنى ، ورجحت كونكم أنتم وضعتموها هناك على ذهابكم إلى كونها ليست خطأ . فأنا الآن أعدها خطأ ، وأضع مكانها لفظة « بُسَّل » إلا إذا أقنعتمونى بكونها غير خطأ ، فعند ذلك أعود عن رأيى ، وبدون ذلك لا أعود عن رأيى .

أما وجهى فى تخطئة « بواسل » فهو أن القاعدة أن لا يُجْمَع فاعل على فواعل من العاقل ، وإنما فواعل هى جمع فاعلة ، فيقال : شواعر العرب ، أى النساء الشاعرات ، ولا يقال شواعر بمعنى شعراء ؛ وقد قالوا فى « فوارس » و « نواكس الأبصار » إنه شاذ ، وهذا مما يؤيد القاعدة . أما غير العاقل فيجمع فيه فاعل على فواعل ، فيقال فى مانع موانع ، وحاجز حواجز ... إلخ .

هذا الذى أعلمه ، فإن كان عندكم نص مقبول على كون القاعدة ليست كذلك أو على كون بواسل هى من الشاذ ، مثل فوارس ، بشرط أن يكون لها شاهد من كلام العرب ، فتفضلوا بذلك .

وعلى كل حال أرجوكم أن تقبلوا بواسل فى جـــدول إصلاح الغلط إلى أن تكونوا كتبتم لى رأيكم فى هذه المسألة وفكرت فيه وجاوبتكم ، وإن أوردتم لى النصوص أو الشواهد فنى الحال أذعن .

ثم إنه فى صفحة ١٠٩ سطر ١٩ كلمة « لا ثبيه » وأنا أظنها « لأَثْبته » ، إلا إذا كان هناك وجه لا أعرفه ، أو كانت مرت عليكم فلم تنتبهوا لها ، لأن الإنسان لا يقدر أن ينتبه لكل شىء .

كذلك فى صحيفة ١٠٨ سطر ٢٠ واردة لفظة : الدُّبا مضبوطة بالضم ، وأنا على

ثقة أنها بالفتح ، ولما كنت اليوم بجنيف ، وليس عندى قاموس هنا ، وإنما عندى « أقرب الموارد » فى لوزان ، فأرجو أن تتثبّتوا ضبطها ، فإن كانت لا ترد إلا بالفتح فالإصلاح واجب ، وإن كانت تَرِد بالوجهين فلا حاجة إلى وضعها فى الجدول .

ثم إن هناك ألفاظا أخرى أنا غير جازم بها ، فأرجو أن تعيدوا عليها النظر ، فإن استحسنتم فيها رأيى فلكم ذلك ، وإلا فتتكرموا بإفادتى رأيكم .

وهذه الألفاظ هى ماورد فى صفحة ١٠٨ سطر ٩ : فى كل شارقةٍ إلمام بارقةٍ . فأنا كنت أروى : فى كل شارقة إلمام بائقة . فإن كان يوجد وجه مقبول « لبارقةٍ » فأبقوها ، وإلا فالأولى أن نضيفها إلى الجدول ، ويكون « بائقة » محل « بارقة » .

كذلك فى صحيفة ١١٧ سطر ١٧ كلمة لم أفهمها وهى « ووادِيا من غدت بالكفر عامرة » إذ لا أعلم فى الأندلس بلدة أسمها « واديا » . وإن قيل إنها « واديًا » أى واد ، وقد وردت هنا منصوبة ، فإننى لم أجد قبلها منصوبا يمكن عطفها عليه ، وفوق ذلك فإنها نكرة وبعدها « مَنْ » بدل منها وهى معرفة ، فلا يستقيم الكلام ، فأرجو منك أن تراجع النظر فى هذه اللفظة ، وتضع محلها ما لا يختل به النظم ، أو تصحيحها على وجهها الأصلى إن كان هناك ظاهرا .

ثم إن هناك جملة لا أعلم : هى من سهوى أنا عندما كتبت قديمًا ، أو من أثر تقديم وتأخير منكم ، وأرجح أنها من سهوى ، ولكن لا بد من إصلاحها لأنها خطأ فى المعنى .

فى صفحة ٩٨ سطر ٢٩ يقول هكذا :

« أجاز إلى طريف وحصر شلب وطرش وغيرهما من الحصون فافتتحها ، ودانت له البلاد ، فقفل إلى المغرب ، خصوصا لما بلغه من ثورة ابن غانية الذى كان واليا على ميورقة ، فلم تكد قدمه تستقر هناك حتى بلغه من أمر الأندلس وكرة العدوّ ماأقض مضجعه فاستأنف الإجازة ... إلخ » .

فهنا تناقض ، إذ كيف يمكن أن يكون أجاز إلى طريف ، وفتح الحصون فى الأندلس ، ودانت له البلاد ، وأن يقفل إلى المغرب خصوصا لما بلغه من ثورة ابن غانية الذى كان والياً فى ميورقة ؟ .

هذا يستقيم معناه فيما لو كانت ميورقة من المغرب ، ويكون أنه بعد أن مهد الأندلس رجع إلى المغرب ، خصوصا بعد أن بلغه ثورة ابن غانية الوالى على أحد أعماله بالمغرب . ولكن ميورقة هذه جزيرة فى بحر الأندلس ، وإذا كان واليها ابن غانية ثار فيها ، فأولى بذلك الفاتح أن لا يقفل إلى المغرب . وهكذا مقتضى سياق العبارة التى هو : « فافتتحها ودانت له الحصون ، فقفل إلى المغرب » .

والذى أراه أن هذه الجملة متزحلقة عن محلها ، وأنها كانت قبل ذلك ، وأنه كان ينبغى أن يكون السياق هكذا من سطر ١٧ :

« وبعد مدة بلغه خروج العدو وإيقاعه بالمسلمين وتغلبه على شاب ، فأعمل فى النفير ، وزحف إلى قصر مصمودة (هذا فى المغرب) ، ومنها أجاز إلى طريف (طريف فى الأندلس) خصوصاً لما بلغه من ثورة ابن غانية الذى كان والياً على ميورقة ، وحصر شاب وطرش وغيرها من الحصون ، فافتتحها ودانت له البلاد ، فقفل إلى المغرب ، فلم تكد قدمه تستقر هناك حتى بلغه من أمر الأندلس وكرة العدوّ ما أقض مضجعه ، فاستأنف الإجازة ... إلخ » .

هكذا يستقيم المعنى بعض الشىء ، فأما أن نقول إنه افتتح الحصون ، ودانت له البلاد — أى بلاد الأندلس — وقفل إلى المغرب خصوصا عند ما بلغه ثورة ابن غانية والى ميورقة التى هى من الأندلس ، فهذا خلاف المنطق .

وليست بيدى نسخة « ابن سراج » الطبعة الأولى حتى أعيد النظر فيها ، وأرى هل هى هناك أيضاً كما هى فى الكراس الذى أرسلتم به ، فعلى كل الأحوال أرجو

مع ضيق وقتكم أن تنظروا فى أمر هذه الجملة ، وتعرفونى رأيكم ، وإن أعجبكم رأيى هذا تجعلوا فى جدول إصلاح الخطأ هكذا :

صفحة	سطر	خطأ :
٩٨	١٩	إلى طريف وحصر شلب .. إلخ
		صواب :
		إلى طريف خصوصاً لما بلغه من ثورة ابن غانية الذى كان والياً بميورقة وحصر شاب .. إلخ .
٩٨	٢٠	خطأ :
		فقفل إلى المغرب خصوصاً لما بلغه من ثورة ابن غانية الذى كان والياً بميورقة
		صواب :
		فقفل إلى المغرب فلم تكد قدمه تستقر هناك .. إلخ[1] .

انتهينا من خطب هذه الجملة الواردة فى غير موضعها ، أما الأبيات التى زدتموها على القصيدة النونية المنسوبة إلى أبى البقاء الرندى فتسمحون لى بإبداء ملاحظاتى الآتية :

أولا : الأبيات التى زيدت ليست من نسج القصيدة الأصلية ، وفيها حشو ، وفيها تكرار قوافٍ ، وفيها ركاكة .

ثانياً : تلزم مراجعة التاريخ ، حتى نعلم متى عاش الرندى المذكور ، فأنا أظن أنه لما نظم الرندى هذه المرثية لم تكن سقطت غرناطة ، وإلا لكان ذكرها وذكر المرية ومالقة وبسطة ووادى آش وغيرها . وأنا أذهب

---

(١) بالرجوع الى الطبعة الثانية لرواية آخر بنى سراج — وهى المطبوعة فى مطبعة المنار — لا نجد قائمة للخطأ والصواب .

إلى أن هذه الأبيات المتعلقة بغرناطة ومالقة وبسطة والمرية من القصيدة قد نظمها بعض الشعراء فيما بعد بزمن طويل ، وألحقوها بالقصيدة النونية ، ليتم بها رثاء الأندلس ، وأنا لا أرى على كل الأحوال ضرراً من نشرها ، لكن لو علمت أنكم ستضمون إليها هذه الأبيات لراجعت : متى عاش الرندى . وإن ثبت أنه عاش قبل سقوط غرناطة بقرون أو أقل مثلا لزم أن أقول فى الحاشية إن هذه الأبيات مضافة فيما بعد ، وبدون ذلك نكون نسبنا كلاماً إلى قائل لم يقله .

ثالثاً : تقولون إن القصيدة عزاها بعضهم إلى السيد يحيى القرطبى ، فهل تعلمون شيئاً عن حياة هذا الرجل ومتى عاش ؟ . فإنه إن كان عاش فى أيام السلطان سليمان فيكون هناك وجه للقول إنه : استنجد بها الدولة العثمانية فى أيام السلطان سليمان . وإلا فإن كان يحيى القرطبى عاش أيام سقوط غرناطة فتكون غلطة تاريخية فظيعة ، لأن بين سقوط غرناطة وأيام السلطان سليمان مدة طويلة جداً ، وذلك أن غرناطة سقطت فى أيام جده بايزيد بن محمد الفاتح ، فأرجوكم النظر فى هذه القضية .

الملحق الثانى

قصائد وأبيات لشكيب

لم تنشر فى ديوانيه . .

قصائد وأبيات لشكيب

لم تُـنشر فى ديوانيه

بعد أن أصدر شـكيب ديوانَه سنة ١٩٣٥م لم ينقطع عن قول الشعر ، وإن كان شعره قد أصبح نادراً أو قليلا ، وقد تتبعتُ ما ظهر لشكيب من شعر بعد صدور هذا الديوان ، مما لم يـكن منشوراً فيه ، ولا فى ديوانه الأول « باكورة » واستطعت أن أجمع قدراً من هذا الشعر لا بأس به ، وهو يضم تعزيةَ شكيب للبارودى فى ابنته ، ورثاءَ شكيب للرافعى ، وقصيدةً فـكاهية تتعلق بالمرض والشفاء ، ونحو عشرين مقطوعة كانت متناثرة من نظم شكيب .

ولعلّ هذا القدر من الشعر يكون نواةً لاستكمال ما لم يُـنشر من شعر شكيب فى ديوانيه توطئةً لنشره مجتمعاً .

وقد قمتُ بجمع هذا القدر منذ شرعت فى إعداد بحثى عن شكيب وأدبه ، وتحدثت عن هذه القصائد والمقطوعات فى اثنى عشر عدداً من أعداد جريدة « منبر الشرق » خلال سنة ١٩٥٥ ، وفى بدء سنة ١٩٥٦ (١) .

وفيما يلى هذه المجموعة ، مع بعض التعليقات اللغوية التى وضعتُها عليها :

تعزية شكيب للبارودى

فى سنة ١٩٠٢ كان أمير البيان شاتياً فى (طبرية) عند عمه الأمير أمين المصطفى أرسلان الذى كان قائمقام تلك البلدة ، ووصل إلى شكيب أن البارودى قد فقد

---

(١) منبر الشرق سنة ١٩٥٥ ، أعداد ١٣ مايو ، و ٣ و ١٠ و ١٧ يونيه ، و ١ و ٨ و ١٥ يوليه ، و ١٢ أغسطس ، و ٣٠ سبتمبر ، و ٢ و ٩ ديسمبر ١٩٥٥ . ثم عدد ١٣ يناير ١٩٥٦ .

إحدى كرائمه ، فكتب له قصيدةً ميمية طويلة من بحر الخفيف ، جعلها تعزية له وتسلية ، ولما طبع شكيب ديوانه سنة ١٩٣٥ قال إن هذه القصيدة فقدت من بين أوراقه ، ولم يذكر منها إلا ستةَ أبيات أثبتها فى ديوانه ، كما أثبت ردَّ البارودى عليها [(١)] .

وقد وجدتُ هذه القصيدة منشورة فى السنة الرابعة من مجلة « الزهور » التى كان يصدرها الأستاذ أنطون الجميل ، وهى فى الجزء السابع من هذه السنة ، بتاريخ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩١٣ ، فى ص ٣٦٥ .

ومن العجيب أن الأبيات الستة التى ذكرها شكيب فى الديوان لم يَرِدْ منها إلا بيتان فى القصيدة المنشورة بالزهور ، وأما الأبيات الأربعة التى لم ترد فيها ، فهى قوله فى وصف طبرية وغورها :

فى ضِفاف الأُرْدُنِّ يجرى على الغَوْ ... ر كساقٍ يدير كأسَ المـــدام
وتباشـــير للربيـــع أضاءت ... فى عرار من زهره وبشام [(٢)]

وقوله :

وسلامى على « الخليل » و« شوقى » ... وعلى « حافظ » بديعِ النظام
الـــثريا التى قـــدمت عليها ... بضئيل السُّهَا وشـــبه القتام [(٣)]

وفيما يلى أثبت نص القصيدة :

أىُّ رِىٍّ بالصحف والأقـــلامِ ... لفؤاد إلى لقـــائك ظـــامِ
وتناجى الأرواح بُعْدًا وفى القر ... ب تـــلاقى الأرواح والأجسام

---

(١) ديوان الأمير ، ص ١٤ و ١٥ .

(٢) الغور : منخفض بين القدس وحوران ، مسيرة ثلاثة أيام فى عرض فرسخين (القاموس) ، والعرار والبشام نوعان من الشجر الطيب الرائحة .

(٣) السها : كوكب خفى من بنات نعش الصغرى ، ويسمى الصيدق . والقتام : الغبار .

كلما شئتُ شـد رحلى إلى مصـ ـر نبتْ بى عـوائقُ الأيام
تمتنى سـيرتى وبينى وبين النيـل لم يبق غير سهم لرام
ولقـد طالما تمثلت ذلك الما ء يجرى ، وكنتُ فى الأوهام
كم أرانى الخيال لُقْيا ، وهـذا غير ما جاد طيفكم من لمام
وجـذبنا من الحديث غُصوناً وسهرنا إلى نُحُول الظـلام
وروينا من القريض الذى يَسـ ـكر منه العقولَ من دون جَام(١)
ونجزنا إلى القـلوب عهوداً قد تمادت كذاك شأن الذِّمَام
سـيقول الأمير : ماذا الذى عا قَ ؟ وماذا يحول دونَ المرام ؟
ما نأت دارُ من تُحِبُّ ، وعيبٌ نقصُ ذى قدرة على الإتمام
بيننا ليلتان ، لـكن مع الغيـ ـب سواء يومان أو ألف عام
وعزيزُ اللقاء — والإلف لم تَشْـ ـحَط به الدار — زائدٌ فى الهيام(٢)
ليس ما بيننا سـوى البحر يوميـ ـن ، ولـكن سواه بحرٌ طام
دون مصر بحران منه ومن آ خر بحرُ الوشـاة والنمـام
ذاك بحر تسـير فيه سفَـينٌ من حظوظ اللئـام كالأعـلام
وكلام يدرون أنه الإفـ ـك ، لـكن يبغون صيدَ الحطام
ومقال إنا من العصبة الفتـ ـيان والطاعنين فى الأحكام
أنا أرجو فى مصر لقيـا عظام ودُّهم باتَ سـارياً فى عظامى
صـلة الآل بيننا ، وأرى الآ دابَ أقوى فينـا من الأرحام
وحنينى إلى الذى طالما اشتقـ ـت بعيداً ، فـكيف وهو أمامى ؟
الأمـيرَ « المحمود » بالإسم والفعـ ـل ، وكم خالف الفعالُ الأسامى

---

(١) الجام : إناء من فضة ، ويراد به وعاء الشراب .

(٢) تشحط : تبعد .

سـيد إن تحجَّ كعبةَ عليا ۝ تجد ما نسيتَ منـه الموامى(١)
باهرُ القَدْر ، إن تزِنْه مع الأقـ ۝ ـوام فى الفضـل مَالَ بالأقوام
مُفْرَدٌ ، خافه الزمانُ فنـاوا ۝ ، كذاك العظامُ حربُ العظام
جَدَّ فى حصر بأسه ، وهو لو جا ۝ ل لقيدُوا طرًّا بغـير خزام
كحسام خَبـا سـناه بغمد ۝ وسواه غمـد بغـير حسام
ولع الدهر بالغرائب ، والبخـ ۝ ـت أحـلَّ الليوثَ تحت النعام
أيها السيد الهمام ، ومن يكفـ ۝ ـيه أن قيل فيه : « محمود سامى »
لك ذكر قد طار فى الشرق والغر ۝ ب ، وفضل أدناه فوقَ الهـام
هل تراهم أخفوا علاك ؟ وهل تخـ ۝ ـفَى فعـالُ الليوث فى الآجام
ولعمرى ذَكاك مثـل ذُكاء ۝ هل تغيب الشموس طىَّ الغمام(٢)؟
ولأنت الذى نشرت بذا العصـ ۝ ـر قريضاً طوَى « أبا تمَّام »
مَنْ رَوَاه ولم يَخَـلْ رَبَّه قد ۝ عاصر الوحىَ والتقى بالتِّهَامِى ؟
أدب حُزْتَه ، وليس كذا القسـ ۝ ـم من الحظ سـائر الأقسام
ولعمرى مع ذاك أى عـلاء ۝ لم تـكن منه فى الذرى والسنام ؟
أخَّر الدهر منـك شهماً تَسَامَى ۝ أن ينال الجـوزاءَ بالإبهام
ولئن جزتَ عن وزارةِ أمرٍ ۝ لم تزل صـدرَ دولةِ الأفهام
إن صلاك الزمان حرباً عواناً ۝ فقـديمٌ عدوانُه للـكرام(٣)
ولعمرى الذى دهاك أخـيراً ۝ كان وقع السهام فوق السهام
لا تخـل كنتَ فى الفجيعة فرداً ۝ كلُّ قلب لجرح قلبـك دامى

(١) الموامى : جمع موماة ، وهى الفلاة ، أى الصحراء .
(٢) الذكاء : (بالفتح) سرعة الفطنة ، وذكاء : (بالضم) اسم للشمس .
(٣) صلاه : شواه وألقاه فى النار للاحتراق . والعوان : الحرب التى قوتل فيها مرة .

قد سكبنا نظيرَ شعرك دمعاً ... فى نُواح كنَوْح وُرْقِ الحَمام[1]
إن بكينا فقد بكينا على حز ... نك ، والثكلُ أعظمُ الآلام
والذى راح فليهنأ على فر ... قةِ دارٍ وليست بدار مقام
هذه سُنَّة الليالى ، فأدعو ... ك إلى الصبر سنةِ الإسلام !

رثاء شكيب للرافعى

أبى وفاءُ أمير البيان وتقديره إلا أن يرثى الرافعى بقصيدة من عيون شعره ، وهذه القصيدة ليست فى ديوان الأمير شكيب المطبوع سنة ١٩٣٥ م ، لأنها نُشرت بمجلة « الشباب » بتاريخ ٩ يونيه سنة ١٩٣٧ م ، وقد سطرها الأمير شكيب فى جنيف ، بتاريخ ١٤ ربيع الأنور سنة ١٣٥٦ هـ ، وقد جعل عنوان القصيدة هكذا : « رثائى لجاحظ العصر ونادرة الدهر ، السيد مصطفى صادق الرافعى أكرم الله مثواه » ، ووضعت الصحيفة تحت العنوان هذه العبارة : « لعطوفة أمير البيان وأديب العصر الأمير شكيب أرسلان » .

قال الأمير شكيب عليه رحمة الله :

إن الذى قد حطَّ جسمَك فى الثرى ... قد حطَّ فيه العبقرىَّ الأكبرا
« الجاحظ » الثانى الذى فى شخصه ... رُدَّ « ابن بحر » للحياة مُكَرَّرا[2]
كان ابن بحر واحداً ، فقضلْتَهُ ... بأوائلٍ كانوا جميعا أبْحُرا
« الرافعيين » الأُلَى فَرَعُوا العُلَى ... وتدبروا فى كل فن عبقرا[3]
لا غور أن يرقى شَنَاخِيبَ الذرى ... مَنْ كان من ذاك النِّجَار تحدرا[4]

---

(١) ورق : جمع ورقاء ، وهى الحمامة .
(٢) ابن بحر : هو الجاحظ .
(٣) فرع فلان القوم : أى علاهم بالشرف ، أو بالجمال .
(٤) الشناخيب : جمع شنخوب ، وهو أعلى الجبل ، كالشنخوبة ؛ والشنخب : الطويل والنجار : الأصل .

هى عزة أبقى « أبو حفص » لها ... مجداً يتيه على السِّماك ومفخرا (١)
جمعت إلى أنسابها أحسابَها ... وغدت تجر من الأئمــة عسكرا
مَنْ مثلُ نادرةِ الزمان « المصطفى » ... سلطانُ مَنْ وَشْىِ الطروس وَحَبَّرَا ؟
إلا تكن قــد أنجبت إلا « أبا ... سام » كفاها أن تسود وتظهرا (٢)
قد كان فى جيش البيان مكانه ... ما كان يوما تُبَّعًا فى حميرا
ما إن رأى العصرُ الحديث نظيرَه ... فَحْلاً يبارى الأولين ، ولن يُرَى
قــل للمحاول أن يرى أندادَه :
أقصر ، فكلُّ الصيد فى جوف الفَرَى (٣)
مــلأ الزمانَ بدائعا وروائعا ... بقريحة تحــكى الغمامَ الممطرا
تلك القريحة تَمْتَرى أخــلافها ... أبداً ، وليس بفيضها ما يمترى (٤)
تدع الخيالَ لدى العيون مجسَّما ... مهما توارى شــخصُه وتنكرا
وترى المعانىَ كالشياه مُقَادَةً ... بينما تكون من الجآذر أنفرا
شأو يشق على الجميــع لحاقُه ... من ذا يشق له لعمرى عِثْيَرَا ؟
هيهات يطمع طامع فى « المصطفى » ... إن صال فى يــوم العراك وهَدَّرا
تتضــاءل الأقرانُ دون بِرازه
مثــل السباع تَــكِعُّ عن أُسْد الشرى (٥)
كثر التفيهق فى الجــديد ونهجه ... كم مَنْ تكلم بالجديد وما دَرَى

---

(١) أبو حفص : كنية عمر بن الخطاب ، وإليه تنتسب أسرة الرافعى . والسماك : نجم .
(٢) أبو سامى : كنية الرافعى .
(٣) الفرى : الحمار الوحشى ، والمثل يضرب لمن يفضله الناس على أقرانه .
(٤) امترى الشيء : استخرجه . والأخلاف . حلمات الضروع .
(٥) تكع : تجبن وتضعف .

وعــدا رجال يحلمون بأن يروا ... شمــلَ العروبة فى البيان مبعثرا
حرجت صدورهمُ بأن يجدوا من الـ ... ـقرآن موردَ أمــة والمصدرا
فتقصدوا أن يطفئوا ذاك الضِّيَا ... وتعمدوا أن يفصموا تلك العرَى
وتغفــلوا قوما أبت أحــلامهم ... أن تستبين الرشــدَ أو تتدبرا
فمحا بنور الحــق آيــةَ ليلهم ... وأراهمُ عنــه النهارَ المبصرا
ورماهمُ بـكتائب من كُتْبه ... فتطايروا كالحُمْر لاقت قَسْوَرا
وافــاهمُ ببــلاغة مُضَرِيَّة ... ما كان معجزُها حــديثا يفترى
ففــدت سفاسفهُم لدىَ آياتــه ... نارَ الحُبَاحِب ناوحت نارالقِرَى (١)
من ذا يضارع فى البيان عصابةً ... قــد أوضحوا نهج البــلاغة نَيِّرا
هم ذلك السلف الذين لسانهــم ... تنحط عنــه جميعُ ألسنةِ الوَرَى
من ذا يطاول فى البلاغة أحمــدا ... وصحابَه ، وأبا تراب حيدرا ؟ (٢)
المُعْربــين إذا أجالوا خاطراً ... عنه بأعذبَ ما يـكون وأقصرا
والمــانعين المسكراتِ ، وقولُهم ... ما دارَ فى الألباب إلا أسـكرا
تلك العصابة من يَحِدْ عن سُبْلها ... حَقاً يقال لمثله : أطرقْ كَرَا (٣)
زعم الأُلَى نَحَوُا الجديدَ بأنه ... عصر تحتَّم أن يخالفَ أعصُرَا
حسبوا التدنِّىَ فى البيان تقدما ... رأوا الركاكةَ بالثقافة أجدرا
عمدوا إلى التغيير حتى يُحْدِثوا ... حدثــاً يبلِّغهم مراداً مُضْمَرَا

---

(١) الحباحب : ذباب يطير بالليل . له شعاع كالسراج ،أو ما اقتدح من شرر النار فى الهواء من تصادم الحجارة .

(٢) أبو تراب : كنية الإمام على ، وحيدر لقب من ألقابه .

(٣) من أمثال العرب : أطرق كرا ، ان النعامة فى القرى . والكرا . مرخم الكروان ، وهو طائر لا ينام بالليل ، والمثل يضرب للذى ليس عنده غناء ويتكلم ، فيقال له : اسكت وتوق انتشار ما تلفظ به ، كراهة ما يتعقبه .

واستظهروا بعقالة تلخيصها أن القديم مضى ، وولّى مدبرا
قد فاتهم أن الحلاوة سرمد ومذاقُ طعمِ الشهدِ لن يتغيرا
كم من قديم لا يزال رواؤه متألقاً يحكى الصباحَ المسفرا
مهما تقادم جوهرٌ فى عتقه فهو الثمين ، وليس يبرح جوهرا
من حادَ عن حب الجمال تعنتاً يتبدل الأدنى ، ويبغى الأحقرا
لغة قلَوْا أسلوبها ، وتخيروا عنها كلاماً مثلَ أحلام الكرى
يرتد وارده وما ذاق الروَى ويعود قارئه اللبيب وما قرا
أخنى « أبو السامى » على غلوائهم وأذاقهم مرَّ الكفاح الممقرا (١)
وذرا دعاويهم كما نثر الهبَا وأعاد خُفْرتهم هشيماً أغبرا (٢)
زحفت بلاغتهُ تجر جيوشها فانقاد طوعاً مَنْ أَبَى واستكبرا
قد يحرقون عليه من حسد، ومن بغض ، ولكن يحرقون العنبرا
ما زال فى الأدب النزيه مبرِّزا حتى إذا شهد السفاهةَ قصَّرا
أعزز « أبا السامى » علىَّ بأن أرى ذلك اليراعَ الجاحظى مكسَّرا
من أسرة القصب الضعيف ، وفعلهُ فى الخطب يهزأ بالحديد مُعصفَرا
لك فى البيان رئاسة أزلية أبدية ، ليست تباع وتُشترى
ما إن دعوتك جاحظاً إلا وقد رُزْتُ الرجالَ مقدَّماً ومؤخَّرا (٣)
ما قلتُ فيك سوى الذى أيقنته ما كنت من كَالَ الرجال فأخْسَرا
أحييت آدابَ اللسان ، ولم يزل فيها مؤلَّفك السراجَ الأزهرا

---

(١) الممقر : الحامض المر .
(٢) الخفرة : اسم من المنعة والأمن .
(٣) رزت : جربت واختبرت .

ورفعت للقرآن أرفع « راية » فلذا غدوت « الرافعى » الأشهرا[1]
أنشــأت أمثالَ النسيم رقائقا كانت على الحساد ريحاً صرصرا
ولَيَتْنــا طولَ الحيـاة لآلئـا واليوم نبـكيك العقيقَ الأحمرا
ألبســتنى بثناك فضلا ضافيـا فيـه ابستُ الطيلسان مجــرَّرا
فأنا عايك إلى نزولى فى الـثرى أذكى الأنام أسًى ، وأبـكى محجرا
سِرْ نحـوَ ربك تاركاً فى خَلْقه ذكراً كما أججت مسكاً أذْفَرا[2]
واسـتودع الدارَ التى فارقتهـا لجوار ربك ضاحكاً مستبشرا
فلأَنت أجدرُ أن تهنَّــأ بالذى من أجاه نبـكى عليه تحسرا
فتملَّ من رضوان ربك جَنَّةً سبغت ، ومن غفرانه لك مغْفِرا
أنت الدخيـل عليه فى ملـكوته حاشا كريمُ ذِمامه أن يُخْفَرا
لا تبعدن وأنت وافدُ خُلْده لا تظمأن وقد وردتَ الـكوثرا !

قصيدة فـكاهية

أقام شـكيب فترةً طويلة من حياته فى سويسرة ، يدافع عن القضايا العربية والإسلامية بما يستطيع ، وأصابه فى أثناء إقامته بسويسرة مرض اشتد عليه ، وقام بعلاجه طبيب يسمى « بيكل » ، وهو أحد الأطباء المشهورين فى جنيف حينذاك ، ونشأت صداقة بين شكيب وبين الطبيب خلال هذا العلاج ، ولما شُفى شكيب نظم قصيدةً يثنى فيها على الدكتور « بيكل » لعنايته به ونجاحه فى علاجه ، ثم ضمنها أشياءَ أخرى من باب التسلية ، وأعطى شـكيب هذه القصيدة لصديقه عبد العزيز

---

(١) يشير إلى كتاب الرافعى « تحت راية القرآن » .
(٢) المسك الأذفر : الجيد إلى الغاية .

عزت (باشا) الذى كان يقيم بسويسرة ، ويتلاقى كثيراً وشكيب ، وكان شكيب يتحفه بالفكاهة والدعابة من حين لحين ، وحينما بعث شكيب بالقصيدة إلى صديقه ليطلع عليها ويترجمها ، كتب له فى صدرها هذه العبارة .

« سيدى لا عدمته . أريد أن أسليك ، وأن أفكهك من وقت إلى آخر ، فإن اللذات العقلية لها دَوْر لا ينكر ، فهذه أبيات نظمتها لتطربك ، فيها نكات ومُلَح ، وفيها مواعظ وحِكَمْ ، وفيها تحميد وتوحيد ، والله المستعان » .

وهذه القصيدة لم تُنشر بين شعر شكيب المطبوع فى ديوانيه ، ونشرت بعد ذلك فى مجلة « الرسالة » بتاريخ ١٢ ديسمبر سنة ١٩٤٩ .

وهذه هى قصيدة أمير البيان :

أقول (لبيكل) مُذْ قد غَدَا ... يساوره دائى المعضلُ
قضى بك ربى شفاء لسقمى ... وربى لما شاءه يفعل
تفردتَ فى حكماء الزمان ... فأنت — بحقٍّ — لهم أول
وأحسنت ترقيعَ شيخوختى ... فلله دَرُّك (يا بيكل)
وكنتُ قليلَ الرجا فى الحياة ... فعادت حياتى كما أومل
وذقت لعمرى لذيذ الرقاد ... وهل للكرى مَثَلٌ يَعْدل ؟
وزاد اشتهائى لقَضْم الطعام ... فقد صلح النوم والمأكل
وقد كان لى نَفَس ضيِّقٌ ... إذا بات يصعد أو يسفل
فقد رجعت رئتى حرةً ... يجول بها النَّفَس الأطول
وقد كنت أمشى ببطء عظيم ... كمن قد غدا جبلا يحمل
وما كان خطوى خطواً ، ولكن ... خُطًى سحبتنى بها الأرجل
فهأنذا صرت أمشى سريعاً ... على قدر ما شئت أستعجل

وقد كنت أرجف بَرْدا ، وإن تلك النــار فى جانبى تُشْعَل
فقد صرت مستغنياً عن صَلاّها[١] وأخرج لهـلا ولا أسأل
ثم قد أتانى أخـيراً زكام وهـذا بكُلّ الورى ينزل
وهـذا سُعَال ، ومن ذا الذى يمر الشـتاء ولا يسـعل ؟
على أنه قــد مضى كلُّه وعاد إلى صـفوه المنهـل
ومهما يـك المرء مستقصياً فلا بد من أنه يغفــل
وينسى ولاسيما إن غــدت هناك الخطوبُ التى تُذهــل
فأســتغفر اللهَ ، إنى نسيت فللثُّوم فى صحتى مدخــل
وما فى النبات لعمرى نبات أجلُّ من الثوم ، أو أمثــل
كريهُ الروائح ، لــكنما ثَنَاه هو المسك والمنــدل
وإن الشرايين عنـد الشيوخ لتَيْبَس من فرط ما تذبــل
فبالثوم يمـكن تليينُهــا ومجرى الدماء بها يسهل
فحُيِّيتَ يا ثومُ من بقـلةٍ خيوطُ الحيــاة بها توصَل
معيدُ الشـباب ، وفى أكله يطول الشــبابُ ولا يأفل
(وبيكل) للثــوم مستحسن ومن ذا الذى فضـله يجهل ؟
فحمــداً لربى على صحتى ألا إنه وحــدَه الموئل
عليــه توكلت ، وهو اللطيف الذى من يرجِّيـه لا يُخذل
ولا بد من معــادٍ ، ولـكن معادٌ إلى الحق لا يثقــل
ومن حلّ يوماً بدار الـكريم فيا ليت شـعرى هل يُهْمَل ؟
نحب الحيــاة ، ولسنا لندرى لعلّ الذى بعــدها أفضــل

---

(١) صلا الإنسان النار : قاسى حرها .

ولكن عمراً طويلا يلذ ويحلو لكل امرىء يعقل
وإنا برغم كروب الحياة لنرغب فى أنها تمهل
وإن حياة الرجال العظام حياة لغيرهم تشمل
وإن حياة الرجال الكرام دوامُ الدعاء لها يَجْمُل
فأبقاك ربىَ يا سيدى بثوب المنا دائماً ترفل
وأبقى ذويك جميعاً بخير سحائبُه أبداً تهطل
عملت من الخير شيئاً كثيراً فأنعم ، فذا خير ما يُعْمَل !

***

ولما اطلع الشيخ عبد القادر المغربى على هذه القصيدة نظم لصديقه شكيب قصيدةً يشير فيها إلى مرضه واسمه (كف الأسد) ، وقد نُشرت هذه القصيدة فى مجلة « الرسالة » بتاريخ ٢٦ ديسمبر ١٩٤٦ ، وهى خمسة وعشرون بيتاً ، ومطلعها :

كفكفت كفَّك يا أسد يا أيها الخصم الألد
بالله ثم البنسلين و « قل هو الله أحد »
وآويت من ربى ورحمته إلى ركن قوى أشد . . إلخ

مقطوعات وأبيات

— ١ —

فى رواية « آخر بنى سراج » — وهى القصة التى كتبها شاتوبريان بالفرنسية وترجمها شكيب أرسلان سنة ١٨٩٧ م — نجد أمير البيان يورد خلالَ الترجمة كثيراً من الأشعار العربية ، وذلك نوع من التصرف فى الترجمة نلاحظه عليه ، إذ أنه يوجد نوعاً من التوسع فى الترجمة ، وأغلب هذه الأشعار لشعراء سابقين سالفين ، وبعضها من شعر شكيب الذى لانجده فى ديوانه ، ومن حق هذه أن تُضَم إلى ديوان شكيب .

ففى صفحة (٢٨) من رواية «آخر بنى سراج» نجد لشكيب هذين البيتين ، وهو يصف فتاة أسبانية بالجمال :

من بنات الملوك تخطر فى الرو ض كغصن عليه بدر تجلَّى
قلدت جيدَها اللآلى ، وما كا ن المحلِّى — واللهِ — غير المحلَّى

— ٢ —

وفى صفحة (٣٨) من الرواية المذكورة نجد لشكيب هذين البيتين :

وأفرطتُ من وجدى به ، فَدَرَى بنا على ساعة اللقيان مَنْ لم يكن يدرى
وما الحب ما وَرَّيْت عنه تسترا (١) ولكنه ما ملتَ فيه إلى الجهر

---

(١) ورى عن كذا : أى أراده وأظهر غيره .

— ٣ —

وفى صفحة (٤٨) يورد لنا قصيدة يقول عنها : « أصله شعر فرنسى حوله المعرِّبُ إلى شعر عربى » ، والقصيدة هى :

لله كَمْ عنــدى من الذكر لقشيب عمرى فى ذرى وَكرِى
لله يا أختـاه ما أحـلى أيـام أنس فرنـسة تجـلى
كونى بلادى عاق الأغلى
وإلامَ تجـذبنـا إلى الصـدر منهـا تقبـل أبيض الشعر
هـل تذكرين ليالى القصر ؟ يا حسنه قصرا على النهـر
والبرج ذاك البالى العربى ناقوسه المسموع عن كثب
يُنْبِى بفجر غير ذى كذب
هـل تذكرين بحيرةً تجرى قد ظـلّ يمسح وجهها الخدرى
تلوى اليراع الريح إذ تمرى يحلو غروب الشمس فى البحر
من ذا يرد علىَّ أترابى تلك الجبال وسرحة الغاب (١)
تذكارها شجنى وأوصابى
لا غرو فى بثى من الهجر وطنى به وطرى مـدى العمر

— ٤ —

وفى صفحة (٤٩) من الرواية نفسِها يورد موشحةً يقول عنها إنه راعى فيها مطابقةَ الشعر الأصلى بقدر الإمكان ، ومعنى هذا أن الموشحة فرنسية ، وقد

---

(١) السرحة : الأشجار العظيمة .

ترجمها شكيب شعراً ، وقدمها بقوله : « فغنىَّ ابن حامد هذه الموشحة التي حفظها من أحد شعراء بنى سراج » . وهى :

إنما الطاغى (جوان) قدما   طالعاً من فوق أجرى فرس
ارتقى فوق الرياض عَلَمَا   فرأى غرناطة الأندلس

* * *

بلد قال له إذ خطبه   للولا : يا حبذا من بلد
اجعل المهر لديك قرطبه   وأولِّيك فؤادى ويدى
وكذا أشبيلية وشاطبة   وسواها من حلى وعدد
زينة فاخرة وأنعما   دررا زاهية فى الملبس
كل ذا أبغى به مقدما   للهوى وحلية للعرس

* * *

جاوبت غرناطة قولا متين :   أيها الأعظم ملك المغربِ
كن على علم بأحوالى يقين   أننى قرينة المغربى
دع هداياك مع الحَلْى الثمين   الموشَّى والطراز المذهَب
إننى أغنى وأسنى مغنما   وطراز من نفيس أنفس
إن لى أبناءَ صدقٍ كَرَمَا   وحوالىَّ نطاق الحرس

* * *

قد كذبت وحنثت فى اليمين   وجعلت خيبة فى نفس راج
وتركت اليوم ذا العلج اللعين   حاكما فى ملك أبناء سراج
هكذا قدَّر ربُّ العالمين   ليس فيما قدر الله علاج

لن ترى بعد القياق الرَّسما في طريق الحرم المقدس[1]
حاملات الحج عادوا للحمى وهو من أوبتهم في أنس

* * *

حقاً العاج قد استولى على أرض أبناء سراج غلبا
إيه يا حمراء يا أفقَ العلى أيها القصر المسامى الشهبا
جنة العيون والعين ولا مثل نهر باللجين انسكبا
إن علجاً مارقاً لجَّ ، وما زال حتى صار وسط المجلس
نال ميراثَ سراج قسما خطَّ ذا في اللوح بارى النفس

— ٥ —

وفي صفحة (٥٠) يورد شكيب قصيدةً أخرى فرنسيةَ الأصل ، ترجمها شعراً ، وهي على لسان أسباني يتغنى بجده الأعلى ، وهي :

تأهب السيد يبغى في الغرب غزوَ السواحل
وقد تلألأ بدراً في مطلع البدر كامل
أمسك عوداً يغنى أمام شيمان زاجل
شعراً غَدَا وحيُه من سَمَا الشهامة نازل
أوحته شيمان قالت : للغرب فاذهب وقاتل
قاتل عداتك وارجع للنصر والغنم نائل
لو كنت آثرت حباً على العلا والفضائل

(١) الرسيم : سير الإبل ، ورسمت الناقة رسيما : أثرت في الأرض ، والرسوم : الذي يبقى على السير يوما وليلة .

أسكنت تعبد حُسْنى ولست تسمع عاذل
هات الأسنةَ والبيـ ـض وزُرْق المناصل[1]
سيعلم القوم قلبى وما به من شواغل
وفى القتال إذا ما ضججت بالسيف صائل
يكون صوتى لعرضى وللعلا إذ أنازل
يا مغربيا تباهى برقةٍ فى الشمائل
ضجيج صوت النصارى على لحونك دائل
يكون يوماً لأهل أسـ ـبانية أى خابل
فالحب والمجد فيه كلاهما بات مائل
غداً بأعطاف وادى أندلس فى المحافل
ترى شيوخ النصارى يروون عنى الجلائل
جعلت روحى فداء أوردت عمرى الغوائل
لله ، والملك ، والمجـ ـد ، وتاج المقائل
فقال : ألا فى سبيـ ـل الكمال ما أنا فاعل

ويقول الأمير شكيب عن هذه القصيدة والتى قبلها : « هاتان القصيدتان هما تعريب قصيدتين فرنسيتين فى الأصل بقلم المعرِّب » .

---

(١) المناصل : جمع منصل (بضم فسكون فضم) وهو السيف .

— ٦ —

وفى ص (٥٥) يقول على لسان ابن حامد :

ومن يستبن أصلى ونَجْرى فدونَه   خلائق مثل الروض كُلِّلَ بالزهر (١)
نقاء كماء المُزْن فى صلب سيرتى   وعفـة نفس دونها عفـة الزهر (٢)
وإن حياتى كيف حاولت كلها   لمعـترك بين الشهـامـة والفخر
فـذا بحـر أنسابى ، فَعَالى دليله   وليس يـكون الدُّرُّ إلا من البحر

* * *

ولـكى نعرف جوَّ هذه الأشعار يحسن أن نعرف أن رواية آخر بنى سراج تدور حول فتى من آل سراج الغرناطيين العرب الذين كانوا بالأندلس لعهد خلوها من الإسلام ، وقد زار الأندلسَ بعد مصرع أهله فيها ، وأحب فتاة من سلالة آل بيفار الذين فتكوا بآباء هـذا الشاب ، وبادلته الفتاة حُبًّا بحب ، ولـكن اختلاف الدين مع وجود هذه الثارات بينهما كان السببَ فى بقاء هذا الحب بلا ثمرة.

— ٧ —

كانت هناك مساجلات شعرية بين أمير البيان شكيب أرسلان ، والأديب الـكبير خليل مردم ، وقد ذكر شكيب جانباً من هذه المساجلات فى ديوانه (٣) ، ولـكن أمير البيان لم يستوعب فى الديوان كلَّ ما وقع بينه وبين خليل مردم من مساجلات .

---

(١) النجر : الأصل .

(٢) المزن . السحب .

(٣) الديوان ، ص ٢٢ — ٢٧ .

ومما لم يذكر فيه ما نشرته مجلة « الزهراء » الغراء فى الجزء الثانى من المجلد الثالث بتاريخ صفر سنة ١٣٤٥ هـ — ١٩٢٦ م حيث يقول الأستاذ خليل مردم هذه الأبيات :

أنا ما حَيِيتُ فقد وقفت لأمتى ... نفسى ومالى فى سبيل بلادى
فإذا قُتلت — وتلك أقصى غاية ... لى — فالوصيةُ عندها أولادى
بِنتٌ لتضميد الجراح ، ويافعٌ ... يُعْنَى بتثقيف القَنَا المَيَّاد (١)
حتى إذا بلغ الأشدَّ رأت به ... ذُخْراً ليوم كريهة وجلاد

فساجَلَه أميرُ البيان بالأبيات التالية :

قل للخليل مفدِّياً أوطانَه ... وموصِّياً إن راح بالأولاد
هذا لتثقيف القناة ، وهذه ... وقْفٌ لأَسْوِ جِراحة وضِماد (٢)
فى مثل هذا يا ابن (مردم) يلتقى ... عِظَمُ الجدود وسؤددُ الأجداد
إن كان فى الشبان مثلك جملة ... فلنا الرجاء بأمة وبلاد
أفديك بالروح العزيزة ، إنها ... لفداء مثلك من عزيز فاد

ولا يبعد أن تكون هناك مساجلات أخرى من هذا الباب ، وقد نصل إليها مع اتصال البحث ومداومة التنقيب .

— ٨ —

وللأمير شكيب قصيدة طويلة النَّفَس فى رثاء الشيخ عبد العزيز جاويش ، وهى منشورة فى الديوان وقد صدَّرها شكيب بهذه العبارة : « مرثيتى للأخ الأبر

---

(١) القنا : جمع قناة ، وهى الرمح . والمياد : الكثير التحرك .
(٢) أسا الطبيب الجرح : داواه .

والأستاذ الأشهر الشيخ عبد العزيز جاويش أرسلتها من لوزان إلى مصر ، وتُليت في حفلة الأربعين لوفاته رحمه الله سنة ١٣٤٧ » .

وقد وجدتُ هـذه المرثية منشورةً في جريدة « الشورى » الغراء ، عدد ٢٠ فبراير سنة ١٩٢٩ م كما نقلتها عن « الشورى » مجلةُ « الفتح » الغراء في العدد ١٣٧ من السنة الثالثة بتاريخ ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٩ م .

وقد خطر لي أن أقابل ما في الصحيفتين بما في الديوان ، فتبين لي من هذه المقابلة أن هناك أبياتاً مفقودة من الديوان ومذكورة في الصحيفتين ، فبعد قول شكيب في المرثية : « لم يعلم الآداب كيف تجسمت . . » إلخ

سقط قوله :

خلت الفضائل كلها لك شمـلة ما تمش تسحب من وراك ذيولا

وبعد قوله : « يا راحلا أبقى فراغاً هائلا . . . » سقط قوله :

سـيظل مأتمُك العظيم مخلَّدا عن هوله جيلٌ يحـدِّث جيلا

وبعد قوله : « غادرت لي قلباً عليك مقطَّعا . . . » سقط قوله :

أبدلتني بالغمض نَوْحاً دائماً تتعـلم الورقاء منـه هـديلا

وبعد قوله : « إني أحنُّ إلى اجتماع الشمل . . » سقط قوله :

خِلٌّ فقدت بفقده طِيبَ الـكرى حتى الوجـود غـدا عليَّ ثقيلا
عزَّ العزاء عليَّ ، إلا إذ أرى في كل دار مأتماً وعويلا

وجاء في الديوان بيت ليس في « الشورى » وهو :

يا أيها المولى بحبـك قد مضى عبـد العَزيز متيما متبولا

وهناك تقديم وتأخير في الأبيات ، كما أن هناك تغييراً في بعض الألفاظ ، وأعتقد أن رواية الصحيفتين أصح ، لأنها أقرب من وقت النظم ، ولأن أمير البيان

كان يعتمد على ذاكرته أحياناً فى إثبات قصائده بديوانه ، وأغلب هذه القصائد قد نُشرت فى الصحف والمجلات قبل جمعها فى الديوان ، ولذلك يحسن بنا حين ننشر شعر شكيب مجتمعاً أن نرجع إلى هذه الصحف والمجلات لنستكمل منها مافات .

— ٩ —

كانت بين أمير البيان وأمير الشعراء أحمد شوقى صداقة متينة ظلت عهداً طويلا ، وفى كتاب شكيب عن شوقى وهو المسمَّى « شوقى أو صداقة أربعين سنة » يذكر شكيب أن الألفة انعقدت بينه وبين شوقى بلا كلفة فى باريس ، وأن أمير البيان هو الذى اقترح على شوقى اسمَ « الشوقيات » لديوانه ، ونفذ شوقى الاقتراح ، وقد أشار شوقى إلى صداقته مع شكيب بالأبيات التالية وهى فى (ص ١٠) من كتاب شكيب عن شوقى :

صحبتُ شكيباً برهةً لم يفز بها ... سواى ، على أن الصحابَ كثيرُ
حرصت عليها آنةً بعد آنة ... كما ضنَّ بالماس الكريم خبير
فلما تساقينا الوفاء ، وتمّ لى ... ودادٌ على كل الوداد أمير
تفرّق جسمى فى البلاد وجسمهُ ... ولم يتفرَّق خاطر وضمير

كما يحدثنا شكيب فى الكتاب المذكور [1] أنه أرسل من بيروت صورتَه الفوتوغرافية إلى شوقى هدية منه ، وكتب تحتها بيتين ليسا فى ديوان شكيب المطبوع ، وهما :

لئن كنت أحمد شوقى إلىَّ ... فما زلت أحمد شوقى إليك
رعى لك قلبى وداداً به ... أضن على الكل ، إلا عليك

---

(١) كتاب شوقى ، ص ١٣ .

ثم يحدثنا شكيب عن جفوة وقعت بينهما[1] ، وبدأ بها شوقى ، وذلك فى أثناء مرور شكيب على مصر سنة ١٩١١ م فى طريقه إلى طرابلس الغرب ، للاشتراك فى حربها ضد الطليان ، ويتساءل عن سر هذه الجفوة وسببها قائلا :

« أغَصَّ شوقى بمكانى من الجناب الخديوى وكثرة ما رأى من احتفال سيده بى ؟ أم جاء مَنْ ألقى فى أذنه أنى سأزاحمه فى محله من القُرْب للجناب العالى ؟ أم هو رجل له بدوات وغفلات ، بينما هو حَفِيٌّ بخلانه ، وَفِيٌّ مع إخوانه ، إذ هو معرض عنهم ، متهاون بحقوق المودة التى بينه وبينهم ؟ أم هو شاعر لا يتقيد بشىء ، ولا يريد أن يكون خاضعاً لتكاليف الحياة حتى مع أعز أصحابه ؟ أم هناك عذر آخر لا أعرفه ، ولا يهمنى أن أعرفه ؟ » .

ومكث شكيب فى مروره ذلك أربعين يوماً فى مصر ، ولما أبطأ عليه شوقى — وهو الصديق العزيز الحميم — تعجب شكيب وعتب ، وأخذ القلم فسطّر به أربعةَ أبيات غير موجودة فى ديوانه أيضاً ، وبعث بها إليه معاتباً ، وهى :

أحنُّ إلى « شوقى » وأهوى لقاءه ... وأصبو ، ولكن ما إليه وصول
ويخبرنى قلبى بأن فؤاده ... كما كان ، لكن يعتريه ذهول
ووالله ما يممتُ مصر وفوقها ... يدانيه عندى صاحب وخليل
فشوقى إلى « شوقى » بقدر محبتى ... وعندى حساب للعتاب طويل

ومن العجيب أن شوقى لم يجب صديقه على هذا الشعر ، ثم جاء الشاعر الكبير خليل مطران فسعى بين الأميرين : أمير البيان وأمير الشعراء ، حتى التقيا وتعاتبا وتصافيا ، وزال ما بينهما .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٨ .

— ١١ —

في سنة ١٣٤٨ هـ زار المرحوم أمير البيان أرض الحجاز المقدسة لأداء فريضة الحج ، وأصيب هناك بمرض من جراء اشتداد الحر ، وعدم تعوده إياه ، فذهب إلى الطائف مصيف الحجاز مستشفياً ، وقد كتب شكيب عن رحلته هذه كما عرفنا كتابه : « الارتسامات اللِّطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف » .

ومن الأماكن التي زارها شكيب موضع يقال له « جبل السكارى » ، وبعضهم يسميه « أم السكارى » ، وقيل إنما سُمِّيَ بذلك لاجتماع الناس فيه للنزهة والشرب في الجاهلية ، ويقال إن أبا سفيان بن حرب اجتمع مع سُمَيَّة أم زياد في هذا الجبل .

وهذا الجبل يوجد على طرف « الطائف » إلى جهة « المثناة » ، وهي رابية لا تعلو أكثر من ستين متراً عن سطح الأرض ، ولكنها لشدة قربها من الطائف يستطيع مرتقيها أن يُشرف على جميع الطائف ورياضها وبساتينها ، ولذلك يُهْرَع إليها الناس متنزهين .

وقد كانت لشكيب هناك جلسات يذكرها بالثناء والحمد ، وكانت هذه الزيارات بدعوة من الشيخ عبد القادر الشيبي كبير سَدَنة البيت الحرام يومئذ ، وهو رجل يُثْنِي عليه شكيب كثيراً ، ويذكره مراراً في كتابه « الارتسامات » حيث وصفه بأنه « المثل البعيد في الكرم وحسن الوفادة » .

وقد قال بعض الأصدقاء لشكيب حينما رآه يكثر من ذكر الشيخ عبد القادر : « تالله تفتأ تذكر الشيبي » على حد قوله تعالى على لسان إخوة يوسف لأبيهم في القرآن الكريم : « تالله تفتأُ تذكرُ يوسف » ، فأجابهم شكيب بالأبيات المرتجلة الآتية التي لا توجد في ديوان شكيب ، وتوجد في « الارتسامات » مع أن

الديوان قد طُبع بعد طبع الكتاب بأربع سنوات ، لأن الديوان قد طبع عام ١٣٥٤ هـ — ١٩٣٥ م ، والارتسامات طبعت سنة ١٣٥٠ هـ — ١٩٣١ م .

ويظهر أن شكيب قد نسى أن يضمها إلى شعره فى الديوان ، وقد ذكرها مع مناسبتها فى الارتسامات[1] ، ونحن نذكرها هنا لضمها إلى المبعثر من شعر شكيب ، تمهيداً لجمعه وطبعه ، وهى :

يقولون لى : نبغى جوابَ سؤالنا — ويسألنى عن ذاك صحبى وجلاَّسى
لماذا نرى « الشيبى » عندك أولا — وتؤثره فى كل شىء على الناس ؟
فقلت : أرى الشيبى ينـدر مثلهُ — ببر ، وإكرام ، ولطف ، وإيناس
وفى خدمة الإسلام قد شاب مفرقى — لذاك أرى الشيبى تاجاً على راسى !

* * *

ومن العجيب أن أمير البيان يقول بعد ذكر القصة : « وبعد أن برحت الحجاز بقيت المكاتبةُ بينى وبين الشيخ المشار إليه متصلة ، يتخللها النظم والنثر ، ومقابلة الشىء بمثله من القافية والبحر ، ولا عجب فى فصاحة بنى شيبة وهم لباب قريش وخلاصة العرب ، والمقصِّر فيهم سابق » .

فليت شعرى أين ذهبت هـذه المراسلات والمكاتبات ؟ . وهل يتطوع أحد من نسـل الشيبى الكريم ليخبرنا عن مصير هـذه المراسلات التى يشير إليها الأمير ؟! .

— ١٢ —

ومن شعر شكيب الذى لم يَـرِدْ فى ديوانه بيتان قالها فى إسعاف النشاشيبى عليه رحمة الله ، فقد ألقى الأستاذ النشاشيبى خطبة بليغة عن اللغة العربية ، وطبعها

(١) الارتسامات ، ص ١٩٩ .

فى كتاب ، ولما اطلع عليه شكيب أعجب به وقال فيه : « إنه كتاب مع وجازته قد زخر عبابه ، ومع قلة قراطيسه قد قرطس نشابه[1] . . . ولتهنأ العربية بهذا النصير قليل النظير ، والعاشق الساهر الليالى فى رعى نجوم التحقيق والتنقير » .

ثم يقول شكيب : « ومع أنى هجرت الشعر فلم أملك نفسى أن قلت :

قد قالت اللغة الفصحى بغربتها : قد أحسن الله إسعافى « بإسعاف »

هو المجيب لمن قد بات ينشده : انصر أخاك لدى ظلم وأْسُ عافِى »!

وقد نُشر هذان البيتان فى مجلة « الزهراء » صفحة (٥٢٧) من المجلد الثانى ، فى عدد رمضان سنة ١٣٤٤ هـ .

وقول شكيب : « واس عافى » كلمتان ، الأولى فعل أمر من « أسا » واللغة تقول : أسا الجرح داواه ، وأسا بينهم أصلح بينهم . والعافى : هو الطالب للفضل أو الرزق كالمعتفى ، والمعنى : وأصلحْ أمرَ السائل بإعطائه ومعاونته .

— ١٣ —

ومن شعر شكيب بيتان كتبهما تحت صورة الشهيد عادل بك النكدى اللبنانى المتوفى سنة ١٣٤٥ هـ ، وهذان البيتان لم يرِدَا فى الديوان ، وهما منشوران فى مجلة « الزهراء » الغراء ، عدد شعبان سنة ١٣٤٥ هـ من المجلد الثالث ، صفحة (٥١٥) ، وقد جعلهما شكيب على لسان الشهيد عادل وهما :

بالله لا تندبوا قتلى ، ولا تَهِنُوا بعدى ، ولا تغرقوا فى النوح والحزن

إن الشهيد لحىٌّ عند خالقه وإنما الميت حقًّا خائنُ الوطن !

---

(١) يقال : رمى فقرطس ، أى أصاب القرطاس ، والنشاب . النبل ، وواحدة نشابة .

— ١٤ —

فى شهر سبتمبر سنة ١٩٢٩ م مر شكيب أرسلان بمصر فى عودته من أداء فريضة الحج ، وقضى يومين فى مدينة بور سعيد ، وذهب للقائه فيمن ذهب الأستاذ محمد على الطاهر ، صاحب جريدة « الشورى » ، وخطر له أن يداعب الأمير فقال له : « إن عطوفة الأمير جاء ديار مصر وكأنه لم يرها ، لأنه لم يسمع أم كلثوم . فقال أحد الحاضرين : ولكنه سيسمعها إن أراد ، لأن أم كلثوم وصلت الآن ، وستغنى الليلة » .

وحجز أحد الأصدقاء للأمير وصحبه مقصورةً خاصة فى مكان الغناء ، وكان فى مقدمتهم السيد محمد رشيد رضا ، صاحب « المنار » ، فقال الأستاذ الطاهر له : وهل يجوز سماع أم كلثوم ؟ . فقال السيد رشيد : كيف لاوأنت ترانى هنا ؟ . فقال الأمير شكيب : هذه فتوى !! . .

وغنت أم كلثوم وأبدعت ، وكان شكيب قد سمع منذ ثلث قرن أمثالَ المرحومين عبد الحامولى ، والشيخ يوسف المنيلاوى ، والست ألمظ ، فلما سمع فى تلك الليلة صوتَ أم كلثوم أعجب به ، وارتجل الأبيات الآتية ، وهى ليست من المطبوع فى ديوانه ، مع أن مناسبتها سابقة لطبع الديوان بسنوات ، والأبيات هى :

رؤوس تغطَّى بثلج المشيب ولكنما النار من تحتها
تميل مع الطرب المستمر لدى أم كلثوم مع « تختها »
أتيح لنا سمعُ آياتها فعدَّته نفسى من بختها

وقد نُشرت فى « الشورى » بتاريخ ٦ جمادى الأولى ١٣٤٨ هـ — ٩ أكتوبر ١٩٢٩ — العدد ٢٤٤ . وانظر إلى براعة شكيب فى إتيانه بالكلمات الثلاث « تحت » و « تخت » و « بخت » وهى فى رسم الخط دون النقط متحدة الشكل ، ولكنها مع النقط اختلفت فى المعنى .

— ١٥ —

وكان المجاهد السورى المعروف إحسان الجابرى زميلا لأمير البيان فى جهاده بأوربة ، وقد قال شكيب يداعب صديقه وزميله — وهو يراه يركض وراء عمله السياسى مستخدما « المسرة » فى ذلك —

يقضى الليالىَ والأيام « تلفنةً » حتى يجلِّى من الأشياء خافيها
والمشكلات التى باتت تحيرنا لولا « تلافينهُ » صعبٌ تلافيها
إحسان مع « تلفون» وسط غرفته كأن فى يده الدنيا وما فيها !

وقد نُشرت الأبيات فى جريدة « الشورى » بتاريخ ٢٧ ذى الحجة ١٣٤٧ هـ ــ ٥ يونيه ١٩٢٩ — العدد ٤٢٨ .

وانظر إلى شكيب وقد استعمل لفظة « التليفون » وهى كلمة أفرنجية ، واشتق منها كلمة « تلفنة » ، وكلمة « تلافينه » وهى جمع « تليفون » .

واستعمالُ مثل هذه الكلمات والاشتقاقُ منها مذهبٌ لبعض الأدباء ، ومنهم الشاعر العراقى معروف الرصافى ، إذ يرى مع آخرين أن مثل هذا التطعيم للعربية يزيدها اتساعا واقتدارا .

وقد اتبع شكيب فى الأبيات السابقة طريقة « لزوم ما لا يلزم » ، فالتزم قبل حرف القافية حروفا أخرى متماثلة ، كما فى الكلمات « خافيها » و « تلافيها » و « ما فيها » إذ تكررت حروف الفاء والياء والهاء والألف فى آخر كل منها .

وهذه الأبيات المذكورة لم تنشر ضمن شعر شكيب المطبوع .

— ١٦ —

وكذلك كتب الأمير شكيب بتاريخ أول ذى الحجة ١٣٤٨ هـ — ٣٠ إبريل ١٩٣٠ م فى العدد ٢٧٢ من « الشورى » مقالا بعنوان : « لطفاً وعطفاً » ، وفى

هـذا المقال يتحدث عن كثرة أشغاله ، وتزاحم أعماله ، وثقل الثقلاء عليه بمطالب لا تنتهى ، مع أنه كبير السن قد بلغ الستين ؛ ويجب أن يقدِّر الناس ظروفَه ، وأن يتذكروا أن طاقته مهما اتسعت محدودة ، ثم يقول :

« وقد قال الشاعر :

وماذا تبتغى الشعراء منى   وقد جاوزت حد الأربعين

وأنا أضيف إليه :

وقد جاوزتها عشرين عاماً   وحق لى التقاعدُ من سنين »

وهذا البيت غير موجود فى ديوانى شكيب .

* * *

وفى السطر السابع من الصفحة الثامنة عشرة من ديوان شكيب ورد بيتان موجّهان من الأمير شكيب إلى الشاعر عبد الله فكرى ، ولهذين البيتين ثالث ذكره شكيب فى كتابه عن شوقى ، فى الصفحة الرابعة ، وأنا أذكر البيتين اللذين فى الديوان وبعدهما الثالث وهى :

إذا ما رمت من مهديك كفؤا   لقد أنفدت لؤلؤ كل بحر

فكيف يقوم عندك نزرُ شعر   يذيب الرعبُ منه كلَّ شطر

بذذتَ الناسَ فى نظم ونثر   وفُقت الخلق من بدو وحضر

وهناك بقية لهذه الأبيات هى فى حكم المفقودة ، وقد أشار شكيب إلى ذلك فى ديوانه .

— ١٧ —

كان الأمير شكيب مشهوراً بحبه لمعارفه ، ووفائه لأصدقائه ، وتمجيده لإخوانه ، وطالما قال فيهم الشعر أحياء وأمواتا . وفيما يلى أبيات صاغها بعنوان : « بينى

وبينك صحبة » ، وقد أهداها إلى « الأخ الأفضل ، السرى الوفى الحاج شافع عبد الهادى ، أطال الله بقاءه » .

وهذه الأبيات ليست فى ديوان الأمير ، ولقد نشرتها جريدة « الشباب » بتاريخ ٣٠ يونيه سنة ١٩٣٧ م ، وقد صاغها شكيب كما جاء فى ذيلها فى (صوفر) بتاريخ ١٣ ربيع الثانى سنة ١٣٥٦ هـ — ١٩٣٧ م .

قال رحمه الله :

يا شافعاً ، ومشفَّعا　　وسمِّى سيدنا محمد
من آل عبد الهادى ، مجد　　هُمُ على الأحقاب سرمد
كم همة علياء قد　　نهضوا بجُمْلتها ، وكم يد
قوم نماهم كلُّ أشو　　سَ فى الرجال ،وكل أصْيَدَ(١)
لو لم يكن فيهم سوا　　ك كفاهمُ شرفاً وسؤدد
أهديتنى غُرَرَ الثنا　　، ففزتُ بالشرف المؤبد
حسبى شهادتُك التى　　أزهو بها فى كل مشهد
دُرَرٌ بها جيدى غدَا　　متقلداً عقداً منضَّد
أحسست فيها الفرقَ ما　　بين المعطَّل والمقلَّد(٢)
بينى وبينك صحبة　　أقوى من البرج المشيَّد
هى قد أرتك محاسنى　　لا شك طرفُ الحب أرمد

---

(١) الأشوس : الذى ينظر بشق العين ، أو يصغر عينه ويضم الأجفان ، أو ينظر بمؤخر العين تكبرا ، وهذا فى الفارس كناية عن شجاعته وجراءته . والأصيد : الملك ، أو رافع رأسه كبرا ، أو الأسد .

(٢) المعطل : الذى ليست عليه حلية ، والمقلد . لابس الحلية .

إنى أرى باهى وجو دِك نعمةً ليست تُحَدَّد
أبقــاك ربى مُمَتَّعـا بسعادة ليسـت تُنَكَّد
لو كان يَخْلُدُ بالوفا ء فتًى إذن كنتَ المخلَّـد

— ١٨ —

بتاريخ ١٨ ربيع الثانى سنة ١٣٥٦ هـ — ١٩٣٧ م نظم الشاعر محمد حسن النجمى (من نجع حمادى) قصيدة يحيِّى فيها أميرَ البيان ، ويرحب بعودته إلى لبنان ، ويشيد بعبقريته وآثاره ، وعنوانها : « تحية العروبة لأميرها » .

وقد نُشرت هذه القصيدة فى صحيفة « الشباب » بتاريخ ٧ يوليه سنة ١٩٣٧ م ، وفى ٤ أغسطس من السنة المذكورة نشرت « الشباب » أبياتاً للأمير شكيب يرد بها على الشاعر ، ويشكر له أريحيتَه وعاطفته ، وفيما يلى ننشر القصيدةَ والمقطوعة ، إذ أن هذه المقطوعة الأرسلانية لم تظهر فى ديوان الأمير شـكيب لأنها صيغت بعد طبعه .

قال الأستاذ النجمى :

أرأيتــه فى آله وقَبيـله كالليث عاد من الفلاة لغيله ؟
أهـلا بمقدِمِ عبقرىٍّ زمانه وحياةِ أمتـه ، ومفخرِ جيله
آب الأمـير ، فمرحباً بإيابه وركابه العـالى ، ويوم وصوله
خفقت لعودتك القلوبُ ، وطالما خفقت لقربك قبلَ يوم حصوله
وهفت إليك جوانحٌ لم يَتَّرِك (١) صبراً لها هـذا الغيابُ بطوله
عرفت بعودتك العروبةُ عيدَها بضجيج موكبه ، وقرع طبوله

(١) يتَّرك : بفتح الياء وتشديد التاء المفتوحة وكسر الراء ، أى يتركه ويدعه ، يقال : ترك واترك .

ومشى إليك الشرقُ ينفض رُدْنَه من قَالِ حاسدِك الحقير وقِيله[1]
انزع ثيابَ الجَهْد عنك وحيِّه مجداً بذلت الجُهْد فى تأثيله[2]
وضع السلاحَ ، فقدعبرتَ لشاطىء يُغنيك ما شيدت من أسطوله
إن الأُلَى عاقوا البلادَ بغدرهم عن مجدها الماضى وعن تحصيله
وأتوا على الميثاق نقضاً ، وانثنوا يتمحلون العذرَ فى تعليله
عرفوه حلماً إن همُ سكنوا له لن يبلغوا يوماً مدى تأويله
فتقهقروا يتلاومون[3] ، وإنه للفوز يدعونا إلى تسجيله
وكذاك يمضى الحق حراً بعد ما تعبت يدُ الطغيان فى تكبيله
والدَّيْن إن رضى النسيئة ربُّه دبَّ الضياعُ إليه من تأجيله
بلغ الجمود من القوى مكانة لم يروها التاريخ فى منقوله
أقرأت فى أخباره عمن مضى فى الكون بين زنوجه ومغوله
ما تنقل الأخبار من أسبانيا عن شعبها فى حقده وذحوله
لولا التفاف المغرضين به لما ضرب الفناء كثيرُه بقليله
حرب يكاد الموت يلقى حتفَه فيها ، ويغنى السيفُ عن عزريله
يُردى الشقيقَ بها الشقيقُ ، وينتحى بالرمح فيها الخلُّ صدرَ خليله
أفلا ترى لو آن للتاريخ أن تتعاون الأقلام فى تكميله
فتناولت قسمَ التوحش منه أن يستغرق التمدين كل فصوله
بلغ القوى من الضعيف بضعفه ما جاوز المعقول من مأموله

---

(١) الردن : أصل الكم . والقال والقيل : اسمان للقول المفترى .
(٢) الجهد : (بالفتح) التعب والمشقة ، والجهد : (بالضم) الطاقة . والتأثيل : التزكية والتعظيم .
(٣) يتلاومون : يلوم بعضهم بعضا .

أو ما رآه يهز سيفَ سيادة　　سقط الضعيف أمامه من طوله
ويصول من سلطانه فى سابغ　　غَشِيَ الضعيفَ فضلَّ تحت ذيوله
ضعفُ الضعيف أشدُّ عصفاً من قوى　　أعدائه ، برجائه وميوله
فليعرف الشرقىُّ أين مكانُه　　من عصره فى غصبه وغلوله
ياصاح ، شطَّ بى الحديث ، وإنه　　لشجون محزون الفؤاد عليله
وغفلت عن ذكر الأمير ، وإن أكن　　لمَّا أزلْ من ذكره بسبيله
أو ليس فى قصص الجهاد لمثله　　ذكرٌ يسيل له لعابُ عذوله
ملأ الأمير من الحياة مكانَه　　فاضطر حاسدُه إلى تبجيله
أو ما ترى للعصر كيف تواردت　　آراء علْيته على تفضيله ؟
فإذا أصاب من العروبة شكرَها　　وحَبَتْهُ تاجَ الغار يوم قفوله
وتزاحمت بشفاهها لتصيب من　　كفٍّ جِماعُ الخير فى تقبيله
فبما أصاب من العناء خيرها　　مذ كان ، لا بقعوده وخموله

فأجابه الأمير شكيب من البحر والقافية :

أن كان يُعرف سيدٌ من قِيله(١)　　فالسيد «النجمى» فخرُ قبيله
أثنى علىَّ بلطفه ، ولشخصه　　حقُّ الثناء عريضه وطويله
جئنا نعالج واجباً من شكره　　أما السِّجال فلم نكن بسبيله(٢)
أتخيَّرُ الإيجازَ عند لقائه　　فالقِرْن يبرز عادةً لمثيله
فاقبل ثناء مقصرٍ بلغ المنى　　إن كان مثلك منْعِماً بقبوله

(١) من قيله . من كلامه .
(٢) السجال : التعادل بين الطرفين . يقال : الحرب بينهما سجال ، أى يغلب هذا مرة وذاك أخرى .

— ١٩ —

فى رسالة من شكيب إلى السيد رشيد رضا بتاريخ ٢٩ إبريل سنة ١٩٣١ يتحدث شكيب عن انقطاع العلاقة بينه وبين الخديوى عباس حلمى الثانى الذى كان يدفع لشكيب ثلاثين جنيهاً شهرياً كمساعدة على جهاده فى سبيل القضايا العربية والإسلامية ، ثم رفضها شكيب .

ويذكر شكيب طائفة من المتاعب المؤلمة التى سببها له الخديوى ، وأنه أرسل إلى شكيب سفيراً من عنده هو « عبد الله البشرى » ليحاول إعادة العلاقة كما كانت ، فرفض شكيب رفضاً باتاً .

يقول فى الرسالة : « فذهب البِشْرى خائب الأمل من استئناف العلاقة ، وأخبرت الجابرى[1] بما جاوبت به البشرى ، وارتجلت قائلاً فى السمر — وضحكنا كثيراً — :

« أذاه أربَى على نداه .. مراه أربى على قِراه
هجرتُه هجرَ من تولَّى وليس مستشرقاً وراه
فارقتُه ما بقيت حياً فلا يرانى ولا أراه »

— ٢٠ —

كان الأمير شكيب كما عرفنا رجل جهاد وكفاح ، قد استأثرت السياسة بأغلب جهوده ونشاطه ، واستبدت القضيتان الإسلامية والعربية بوقته وعنايته ، ولكنه مع ذلك كان يعطى الأدبَ حقه ، ويحفظ للفن نصيبه ، وكان يطرب للموسيقى ويشيد بها وبأهلها .

---

(١) هو السيد إحسان الجابرى زميل شكيب فى الكفاح .

وفى منتصف مارس سنة ١٩٣٩ كان شكيب بمصر ، وزار ذات ليلة دار جريدة « الشورى » ، وجاء الأستاذ سامى الشوا الذى يلقبونه بأمير الكمان ، وعزف قطعة مصرية سُرَّ منها شكيب ، فارتجل البيتين التاليين :

أمير « الكمنجة » قد حملت إمارة لها ، وغدا فيها لواؤك معقودا
فلو سمعتْها منك « نجدُ » وأهلُها أجازوا الكمنجةَ ، والمزمار ، والعودا

ثم عاد سامى إلى عزف قطعة سورية ، وكان الأستاذ كامل كيلانى بين الحاضرين ، وشهدَ طربَ الأمير شكيب بالموسيقى ، فارتجل الأبيات التالية :

يا مبدعاً يشدو لمبدعْ الفن فى يمناك أجمعْ
شعر الأمير غدا لفنِّك درةَ التاج المرصَّع
ما بعد تقريظ الأمير لراغب فى الخلد مطمع

فأُعجب الأمير بالأستاذ كامل ، وقال له : « أنت أديب كامل الأدوات » .

وعاد سامى الشوا إلى عزف قطع مختلفة ، منها البلدى ، ومنها الغربى ، فزاد طرب شكيب ، وارتجل قوله :

فلست لعمرى مالكاً لرصانة وإن أبلغ السبعين أن أترنما
إذا لعبت فى كفّ سامى « كمنجةٌ » فما أجدر الأوتارَ أن تتكلما

وثارت حماسة الشوا للعزف ، فعاد يعزف قطعاً من مبتكراته جعلت شكيباً يطرب ويهتز فى مجلسه ، وارتجل قوله :

أمير « الكمنجة » ما رأى العصرُ مثلَه ولا عرفت أمثالَه قبلُ أعصرُ
وقالوا أمير « للكمنجا » ، وما دروا فأنت لها — والله — كسرى وقيصرُ

ولما سمع الأستاذ كيلانى هذا الشعر من الأمير ارتجل قولَه على الطريقة البلدية :

سحرك يا سامى خلَّانا حَ نْطيرْ
فَنَّك أطربنَا إحنَا والأمـيرْ

وقد ذكرت هذه الجلسةَ صحيفة « الشباب » الغراء ، الصادرة بتاريخ ٢٢ مارس سنة ١٩٣٩ م . وهى تعطينا صورة خاطفة عن موقف الأمير شكيب من الموسيقى .

— ٢١ —

ونشرت جريدة « الشباب » فى عدد ١٥ إبريل سنة ١٩٣٩ أن شكيب قال فى الأستاذ سليمان أبو الإقبال اليعقوبى (حسان فلسطين) هذين البيتين :

باهت فلسطينُ بيعقوبيها وغدت تُبَثُّ بنظمه أحزانُها
ماذا أقول به وحسبى جملة : هذى فلسطين ، وذا حسانُها

أشعار مفقودة

تحدث شكيب فى كتابه عن السيد رشيد رضا (ص ٧٥ -- ٧٧) عن الشيخ يوسف النبهانى ، فذكر ماله وما عليه ، ثم قال : « وكان النبهانى كما تقدم مشهوراً بالشعر ، وكنت أستحسن كثيراً من شعره ، ولا سيما قوله من قصيدة امتدح بها السيد أبا الهدى الصيادى :

ويممتُ دارَ الملك أحسب أنها ... إلى اليوم لم تبرح إلى المجد سُلَّمَا
فألفيتُها قد أقفرت من كِرامها ... ولم يبق فيها الفضلُ إلا توهمَّا
وألفيت مثلى أمةً عربيـة ... يرى القوم فيها أمةَ الزَّنْج أكرما
وما نقموا منا بنى العرب خلةً ... سوى أن خير الخلق لم يك أعجما

وله يتائم أقوال سائرة فى الآفاق غير هذه ، فأحببت وأنا إذ ذاك فى ريعان صباى أن أساجله فى الشعر ، لعلى أظفر منه بشىء يؤثر ، فنظمتُ له أبياتاً لم أحفظ صورتها عندى ، ولا بقى منها فى خاطرى إلا بيت أو بيتان ، فأجابنى عنها بهذه الأبيات :

راقنى يا شكيب منك قصيد ... باتفاق هو البليغ الفصيحُ
قيل درٌّ ، وقيل زهر ، وبعضٌ ... قال سحر ، والكل قول صحيح
نظمته أفكارُك الغرُّ عقداً ... أى عقد لو تَمَّ جيدٌ مليح
من نسيب كصِنْوِك الماجد اسما ... وسموا فهو النسيب الصريح(١)
ومديح لو كنت أنت مراداً ... فيه عنى لقلتُ : جَلَّ المديح

---

(١) الصنو : الأخ الشقيق ، وهو يقصد الأمير نسيب شقيق شكيب .

لست أجزيك حقَّ طَوْلك فى الشـ
ـعر ، وفكرى كما علمت طليح(١)
وسأجزيك عن ودادك وداً أنا فيه على كثيرٍ شحيح »

فأين إذن هذه الأبيات التى قالها شكيب فى مساجلة النبهانى ؟ . وليت شكيب ذكر لنا البيتين اللذين بقيا فى ذاكرته من هذه الأبيات الشكيبية فيخبرنا عنه .

* * *

وكذلك كتب شكيب فى جريدة « الشورى » بتاريخ ٢١ جمادى الثانية ١٣٤٦ هـ — ١٥ ديسمبر ١٩٢٧ م كلمة بعنوان : « نعم العربى الصميم مثلى يبكى » . يتحدث فيها عن بكاء الملك فيصل ، حينما شاهد رواية سقوط غرناطة ، ودخول فرديناند وإيزابلا قصر الحمراء ، ثم يقول شكيب : « ولعمرى إن هذه الدموع هى التى تؤمننا على بقاء النخوة العربية ، وتؤذن بحسن مآل هـذه الأمة ، فما دمنا نبـكى على المـاضى فلا شبهة فى أننا سنضحك فى المستقبل ، ولى من قصيدة :

إذا بكت الأقوام حان ابتسامها وعند بكاء المُزْن ضحكُ الحدائق »

هذا ما قاله شكيب ، وقد راجعتُ ديوانه فلم أجد فيه هـذه القصيدة ، ولا ذاك البيت ، ومعنى هذا أن هناك قصيدة مفقودة من شعر شكيب ، وليس بين يدىَّ منها إلا هذا البيت السابق .

* * *

وبتاريخ ٢٥ ذى الحجة ١٣٤٩ هـ — ١٣ مايو ١٩٣١ م كتب الأمير شكيب فى « الشورى » مقالا بعنوان : « الشعر العربى استأنف ديباجته الأولى » ، وفيه يذكر بيتين للشاعر إبراهيم طوقان فى القطار ، ثم يقول : « وقد ذكَّرنى هذان

---

(١) الطول : (بفتح الطاء) الفضل والقدرة والسعة . والطليح : المهزول المتعب .

البيتان قصيدة نظمتها يوم بوشر العمل بسكة الحجاز منذ ثلاث وثلاثين سنة ، مطلعها :

ألا يا بَنِي الإسلام هل من مساعد بفعلٍ سماويٍّ المثوبة ماجد
أطل على شأو التقى بفريقه وسنمه فى البر أرق المصاعد

ومنها فى وصف القطر الحديدية فيما أتذكر — لأن النسخة الآن غارقة فى لجج خضر من الأوراق — :

إذا ما غدتْ تطوى الفلاةَ ظننتها نعائمَ يستأكلن جمرَ المواقد

ومنها فيما أتذكر : « تبطنت الأحشاء من جسم عاند » إشارة إلى الأنفاق تحت الأرض . ومنها : « تدور مع الوادى انسياب الأساود » . وغير ذلك مما أذكره لفائدة تاريخية ، وإن كان ذكره فى الواقع مع أبيات إبراهيم طوقان فضيحة لى » .

فأين استقرت هذه القصيدة ؟ .

المصادر والمراجع(1)

١ـ الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث : تأليف أنيس الخورى المقدسى ، من منشورات كلية العلوم والآداب بجامعة بيروت الأميركية الطبعة الأولى ، سنة ١٩٥٢ م — ١٣٧٢ هـ ، جزآن .

٢ـ الآداب العربية فى القرن التاسع عشر : تأليف الأب لويس شيخو اليسوعى ، مطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت ، الطبعة الأولى ، الجزء الأول سنة ١٩٠٨ م — ١٣٢٦ هـ . والثانى سنة ١٩١٠ م — ١٣٢٨ هـ .

٣ـ الأديب : مجلة أدبية تصدر فى بيروت فى مطلع كل شهر ميلادى ، صاحبها البير أديب ، (عددا كانون الثانى وشباط) ١٩٤٧ - ١٣٦٧ هـ .

٤ـ الارتسامات اللطاف فى خاطر الحاج إلى أقدس مطاف : تأليف شكيب أرسلان ، تصحيح وتعليق السيد محمد رشيد رضا ، مطبعة المنار بمصر ، الطبعة الأولى ، عام ١٣٥٠ هـ - ١٩٣١ م .

٥ـ أساس البلاغة : تأليف جار الله أبى القاسم محمود بن عمر الزمخشرى ، مطبعة دار الكتب المصرية ، الطبعة الأولى ، عام ١٣٤١ هـ - ١٩٢٢ م . جزآن .

٦ـ أسرار البلاغة : تأليف عبد القاهر الجرجانى ؛ مطبعة المنار بمصر ، الطبعة الرابعة ، عام ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٧ م .

٧ـ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : تأليف مصطفى صادق الرافعى ، ضبط

---

(1) جمعت بين المصادر والمراجع ، لأن بعض المصادر كان ضمن المراجع ، وجريت على ذكر اسم الكتاب ، فالمؤلف ، فالمطبعة ، فرقم الطبعة ، فسنة الطبع ، فالأجزاء إن وجدت . ورتبت المصادر والمراجع حسب الحروف الهجائية . وأسقطت فى الترتيب (أل) التى للتعريف . وإذا كانت سنة الطبع المذكورة سنة هجرية قابلتها بالسنة الميلادية ، وإذا كانت السنة المذكورة ميلادية ذكرت عقبها السنة الهجرية .

وتحقيق محمد سعيد العريان ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة ، الطبعة الرابعة . عام ١٣٦٤ هـ - ١٩٤٥ م .

٨ ـ الأعلام ، تأليف خير الدين الزركلي ، مطبعة كوستاتوماس وشركاه بالقاهرة ، عام ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م . عشرة أجزاء .

٩ ـ أعمال الوفد السوري الفلسطيني : الظاهر أنه من عمل شكيب أرسلان . المطبعة السلفية بالقاهرة ، الطبعة الأولى ؛ عام ١٩٢٢ م - ١٣٤٢ .

١٠ ـ الأمير شكيب أرسلان ، حياته وآثاره : تأليف سامي الدهان ، مطبعة دار المعارف بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، عام ١٩٦٠ م - ١٣٨٠ م .

١١ ـ أمين الأمة أبو عبيدة بن الجراح : تأليف أحمد الشرباصي ، مطبعة الاعتصام بالقاهرة ؛ الطبعة الأولى ، عام ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٣ م .

١٢ ـ أناتول فرانس في مباذله : تأليف جان جاك بروسون ، نقله إلى العربية وقدم له وعلق عليه شكيب أرسلان ، المطبعة العصرية بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، لم تذكر سنة الطبع ، ولكنها ـ كما جاء في البحث ـ سنة ١٩٢٦ م - ١٣٤٥ هـ .

١٣ ـ الأهرام : جريدة يومية تصدر بالقاهرة ، (المراجع منها في عام ١٩٤٦م - ١٣٦٦ هـ) .

١٤ ـ باكورة : ديوان نظم شكيب أرسلان ، المطبعة الأدبية ببيروت ، الطبعة الأولى ، سنة ١٨٨٧ م - ١٣٠٥ هـ .

١٥ ـ التاج الجامع للأصول : جمع الشيخ منصور علي ناصف ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر ، سنة ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٣ هـ ، الطبعة الأولى ، أربعة أجزاء .

١٦ ـ تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده : تأليف السيد محمد الشيد رضا ، مطبعة المنار بمصر ، الجزء الأول ، سنة ١٣٥٠ هـ - ١٣٩٣ م ، والجزء

الثانى الطبعة الثانية سنة ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥ م ، والجزء الثالث الطبعة الثانية سنة ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٧ م .

١٧ — تاريخ ابن خلدون : تأليف عبد الرحمن بن خلدون ، تعليق شكيب أرسلان ، الجزآن الأول والثانى فى مطبعة النهضة بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٥٥ هـ — ١٩٣٦ م . والجزء الثالث فى المطبعة الرحمانية بالقاهرة فى السنة السابقة .

١٨ — تاريخ بيروت : تأليف صالح بن يحيي ، نشر وتعليق الأب لويس شيخو اليسوعى ، المطبعة الكاثوليكية ببيروت ، الطبعة الأولى ، سنة ١٩٢٧ م — ١٣٤٦ هـ .

١٩ — تاريخ غزوات العرب فى فرنسة وسويسرة وإيطالية وجزائر البحر المتوسط : تأليف شكيب أرسلان ، مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه بمصر ، الطبعة الأولى سنة ١٣٥٢ هـ — ١٩٣٣ م .

٢٠ — تحت راية القرآن : تأليف مصطفى صادق الرافعى ، المطبعة الرحمانية بمصر ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٤٥ هـ — ١٩٢٦ م .

٢١ — التذكرة التيمورية : تأليف أحمد تيمور ، نشر لجنة نشر المؤلفات التيمورية ، مطابع دار الكتاب العربى بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٧٣ هـ — ١٩٥٣ .

٢٢ — الثقافة : مجلة أسبوعية كانت تصدر بالقاهرة ، صاحب امتيازها أحمد أمين ، ورئيس تحريرها محمد عبد الواحد خلاف ، صدر العدد الأول فى ١٢ ذى القعدة ١٣٥٧ هـ — ٣ يناير ١٩٣٩ . ووقفت بعد عدد ٥ يناير ١٩٥٣ م

٢٣ — حاضر العالم الإسلامى : تأليف لوثروب ستودارت الأمريكى نقله إلى العربية عجاج نويهض ، علق عليه شكيب أرسلان ، مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه بمصر ، الطبعة الثانية ١٣٥٢ هـ — ١٩٣٣ م . أربعة أجزاء .

٢٤ — الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية : تأليف شكيب أرسلان. المطبعة الرحمانية ، الطبعة الأولى مابين سنة ١٩٣٦ وسنة ١٩٤٧ — ١٣٥٥ و ١٣٦٧ هـ . ثلاثة أجزاء .

٢٥ — دائرة معارف القرن العشرين : وضع محمد فريد وجدى ، مطبعة دائرة المعارف ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٤٣ هـ — ١٩٢٤ م .

٢٦ — الدرة اليتيمة : تأليف عبد الله بن المقفع ، نشر وتقديم وتعليق شكيب أرسلان ، مطبعة الرغائب بالقاهرة ، الطبعة الخامسة ، سنة ١٣٢٨ هـ — ١٩١٠ م .

٢٧ — ديوان ابن دراج القسطلى : تحقيق الدكتور محمود على مكى ، من منشورات المكتب الإسلامى بدمشق ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٨١ هـ — ١٩٦١ م .

٢٨ — ديوان الأمير شكيب أرسلان : تأليف شكيب أرسلان ، طبع وتصحيح السيد محمد رشيد رضا ، مطبعة المنار بمصر ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٥٤ هـ — ١٩٣٥ م .

٢٩ — ذكرى الأمير شكيب أرسلان : جمع وطبع محمد على الطاهر ، مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه بمصر ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٦٦ هـ — ١٩٤٧ م .

٣٠ — ذكرى موقعة حطين : تأليف محب الدين الخطيب ، المطبعة السلفية بالقاهرة ، الطبعة الأولى سنة ١٣٥١ هـ — ١٩٣٢ م .

٣١ — رسائل شكيب أرسلان إلى السيد محمد رشيد رضا : مجموعة رسائل مخطوطة بين يدىَّ .

٣٢ — رسائل الرافعى : جمع وترتيب محمود أبو رية ، طبع دار إحياء الكتب

العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٦٩ هـ — ١٩٥٠ م .

٢٣ — الرسالة : مجلة أسبوعية كانت تصدر بالقاهرة ، صاحبها أحمد حسن الزيات ، صدر العدد الأول منها يوم ١٨ رمضان ١٣٥١ — ١٥ يناير ١٩٣٣ م . ووقفت فى نهاية سنتها العشرين ، بعد عدد ٢٩ ديسمبر ١٩٥٢ م — ١٣٧٢ هـ .

٢٤ — رواد النهضة العربية : تأليف مارون عبود ، مطبعة دار العلم للملايين بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٥٢ م — ١٣٧٢ هـ .

٢٥ — رواية آخر بنى سراج : تأليف الكونت دى شاتو بريان الفرنسى ، ترجمة شكيب أرسلان ، مطبعة المنار بالقاهرة ، الطبعة الثانية ، سنة ١٣٤٣ هـ — ١٩٢٥ م . ومع الرواية خلاصة تاريخ الأندلس لشكيب ، وكتاب أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر ، لمؤرخ مجهول ، وأثارة تاريخية رسمية فى أربعة كتب سلطانية أندلسية .

٢٦ — روض الشقيق فى الجزل الرقيق : شعر نسيب أرسلان ، جمعه وقدم له وعلق عليه وأردفه بنسب الأسرة الأرسلانية شكيب أرسلان ، مطبعة ابن زيدون بدمشق ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٥٢ هـ (١) — ١٩٣٥ م .

٢٧ — الزهراء : مجلة شهرية كانت تصدر بالقاهرة ، لصاحبها محب الدين الخطيب (المراجع منها سنتا ١٩٢٥ و ١٩٢٦ — ١٣٤٥ و ١٣٤٦ هـ)

٢٨ — سركيس : مجلة شهرية كانت تصدر بالقاهرة ، لصاحبها سليم سركيس (المراجع منها سنة ١٩١٠ — ١٣٢٨ هـ) .

(١) هكذا فى أول الديوان . وصحتها ١٣٥٤ هـ لتوافق السنة الميلادية ١٩٣٥ م .

٣٩ — السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة : تأليف شكيب أرسلان ، مطبعة ابن زيدون بدمشق ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٥٦ هـ — ١٩٣٧ م .

٤٠ — الشباب: مجلة أسبوعية كانت تصدر بالقاهرة ، أصدرها محمد على الطاهر، من فبراير سنة ١٩٣٧ إلى أوائل إبريل سنة ١٩٣٩ ، بدلا من جريدته الشورى الموقوفة .

٤١ — الشورى : جريدة أسبوعية كانت تصدر بالقاهرة ، لصاحبها محمد على الطاهر ، صدر العدد الأول منها فى ٢٣ ربيع الأول سنة ١٣٤٣ هـ — ٢٢ أكتوبر ١٩٢٤ م . ووقفت عن الصدور بعد عدد ٥ أغسطس ١٩٣١ — ١٣٥٠ هـ .

٤٢ — شوقى أو صداقة أربعين سنة : تأليف شكيب أرسلان ، مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه بمصر ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٥٥ هـ — ١٩٣٦ م .

٤٣ — صبح الأعشى فى صناعة الإنشا : تأليف أبو العباس القلقشندى ، المطبعة الأميرية ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٣٧ هـ — ١٩١٨ م .

٤٤ — العرفان : مجلة لبنانية شهرية ، تصدر فى بلدة صيدا ، صاحبها أحمد عارف الزين ، (المراجع منها سنتا ١٩٢٩ و ١٩٤٦ م — ١٣٤٨ و ١٣٦٦ هـ) .

٤٥ — العروبة أولا : تأليف ساطع الحصرى ، مطبعة دار العلم للملايين ببيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٥٥ م — ١٣٧٥ هـ .

٤٦ — عروة الاتحاد بين أهل الجهاد : مجموعة مقالات لشكيب أرسلان ، جمعت وطُبعت على نفقة جريدة (العَلَم العربى) التى صدرت فى بونس إيرس لصاحبها عبد اللطيف الخشن ، الطبعة الأولى فى رجب ١٣٦٠ — آب ١٩٤١ ، لم يُطبع غير الجزء الأول .

٤٧ — العَلَم : جريدة أسبوعية كانت تصدر بالقاهرة ، أصدرها محمد على الطاهر فى ٢٦ إبريل ١٩٣٩ ، بدلا من جريدته (الشورى) الموقوفة . (المراجَع منها ما صدر سنة ١٩٣٩ — ١٣٥٨ هـ) .

٤٨ — على هامش التاريخ المصرى القديم : تأليف عبد القادر حمزة . ضمن سلسلة (كتاب الشعب) ، الكتاب الحادى عشر ، مطابع الشعب بالقاهرة ، سنة ١٩٥٧ م — ١٣٧٧ هـ .

٤٩ — الفتح : مجلة أسبوعية كانت تصدر بالقاهرة ، لصاحبها محب الدين الخطيب ، ظلت تصدر سبعة عشر عاما .

٥٠ — فقه اللغة وسر العربية : تأليف أبى منصور الثعالبى ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٥٧ هـ — ١٩٣٨ م .

٥١ — فقه اللغة ، دراسة تحليلية مقارنة للكلمة العربية : تأليف محمد المبارك ، مطبعة جامعة دمشق ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٨٠ هـ — ١٩٦٠ م .

٥٢ — فى الأدب الجاهلى ، تأليف طه حسين ، مطبعة دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ، سنة ١٩٢٧ م — ١٣٤٦ هـ

٥٣ — فى الأدب الحديث ، تأليف عمر الدسوقى ، مطبعة لجنة البيان العربى ، الطبعة الثانية سنة ١٣٧٠ هـ - ١٩٥٠ م .

٥٤ — فى الشعر الجاهلى ، تأليف طه حسين ، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٤٤ هـ - ١٩٢٦ م .

٥٥ — القاموس المحيط : تأليف مجد الدين الفيروزابادى ، المطبعة العصرية بالقاهرة ، الطبعة الثانية ، سنة ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٣ م .

٥٦ — الكاتب المصرى : مجلة شهرية كانت تصدر بالقاهرة ، رئيس تحريرها طه حسين ، (المراجع منها سنة ١٩٤٦ م - ١٣٦٦ هـ)

٥٧ — الكتاب : مجلة شهرية كانت تصدر بالقاهرة . رئيس تحريرها عادل الغضبان (المراجع منها عدد فبراير ١٩٤٧ وعدد يونيه ١٩٥٠ م - ١٣٧٠ هـ)

٥٨ — الكتاب الذهبى ليوبيل المقتطف الخمسينى : لمجموعة كتاب ، مطبعة المقتطف والمقطم بمصر ، الطبعة الأولى ، سنة ١٩٢٦ م - ١٣٤٥ هـ .

٥٩ — لبنان الشاعر : تأليف صلاح لبكي ، مطابع المرسلين اللبنانيين ببيروت ، الطبعة الأولى ، سنة ١٩٥٤ م — ١٣٧٤ هـ . ولكن غلاف الكتاب مطبوع فى مطبعة بالقاهرة .

٦٠ — لسان العرب : تأليف أبى الفضل جمال الدين بن محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقى المصرى ، طبعة دار صادر للطباعة والنشر ، ودار بيروت ، سنة ١٩٥٥ م — ١٣٧٤ هـ . خمسة عشر مجلدا .

٦١ — لماذا تأخر المسلمون ، ولماذا تقدم غيرهم ؟ : تأليف شكيب أرسلان ، مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه بمصر ، الطبعة الثالثة ، سنة ١٣٥٨ هـ — ١٩٣٩ م .

٦٢ — مجلة المجمع العلمى العربى : مجلة شهرية يصدرها المجمع العلمى العربى بدمشق .

٦٣ — مجمع الأمثال : لأبى الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم النيسابورى الميدانى ، مطبعة السنة المحمدية ، سنة ١٣٧٤ هـ — ١٩٥٥ م . جزآن .

٦٤ — محاسن المساعى فى مناقب الإمام الأوزاعى : تأليف ابن زيد الموصلى الحنبلى ، قدم له وعلق عليه ونشره شكيب أرسلان ، مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه بمصر ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٥٢ هـ — ١٩٣٣ م .

٦٥ — المحاضرة الافتتاحية : ألقاها ابن خلدون ساطع الحصرى فى افتتاح معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة مساء ٧ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٥٣م طبع دار مصر للطباعة بالقاهرة ، سنة ١٩٥٤ م — ١٣٧٤ هـ .

٦٦ — محاضرات عن الأمير شكيب أرسلان : تأليف سامى الدهان ، مطبعة نهضة مصر بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، سنة ١٩٥٨ م — ١٣٧٨ هـ .

٦٧ — محاضرات عن حافظ إبراهيم : تأليف أحمد الطاهر ، مطبعة دار مصر للطباعة بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، سنة ١٩٥٣ م — ١٣٧٣ هـ .

٦٨ — محاضرات عن سورية من الاحتلال حتى الجلاء : تأليف نجيب أرمنازى ، مطابع دار الكتاب العربى بمصر ، الطبعة الأولى ، سنة ١٩٥٤ م — ١٣٧٤ هـ .

٦٩ — محاضرات عن شعر الحماسة والعروبة فى بلاد الشام ، من أواخر القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين : تأليف أحمد الطرابلسى ، مطبعة نهضة مصر بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، سنة ١٩٥٧ م — ١٣٧٧ هـ .

٧٠ — محاضرات فى الأدب ومذاهبه : تأليف محمد مندور (اسم المطبعة غير مذكور) ، الطبعة الأولى ، سنة ١٩٥٥ م — ١٣٧٥ هـ .

٧١ — محاضرات فى نشوء الفكرة القومية : تأليف ساطع الحصرى ، مطبعة الرسالة بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، سنة ١٩٥١ م — ١٣٧١ هـ .

٧٢ — المختار من رسائل أبى إسحاق الصابى : تأليف أبى إسحاق الصابى ، تحقيق وتعليق شكيب أرسلان ، المطبعة العثمانية فى بعبدا بلبنان ، الطبعة الأولى ، سنة ١٨٩٨ م — ١٣١٦ هـ (لم يطبع غير الجزء الأول) .

٧٣ — مختارات المنفلوطى : انتقاها وجمعها مصطفى لطفى المنفلوطى ، مطبعة كرم بدمشق ، الطبعة الأولى ، سنة ١٩١٢ م — ١٣٣١ هـ . (من مكتبة الدكتور إسحق موسى الحسينى) .

٧٤ — المشرق : مجلة كاثوليكية تصدر مرتين فى الشهر بإدارة آباء كلية القديس يوسف ، صاحب امتيازها لويس شيخو اليسوعى ، بدأت الصدور سنة ١٨٩٨ م — ١٣١٦ هـ .

٧٥ — مصادر الدراسة الأدبية : تأليف يوسف أسعد داغر ، مطابع لبنان ، الطبعة الأولى ، الجزء الثانى ، سنة ١٩٥٦ م — ١٣٧٦ هـ .

٧٦ — مطالعات فى اللغة والأدب : تأليف خليل سكاكينى ، مطبعة القدس ، الطبعة الأولى ، سنة ١٩٢٥ م — ١٣٤٤ هـ (من مكتبة الدكتور إسحق موسى الحسينى) .

٧٧ — معجم مقاييس اللغة : تأليف أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا. تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون ، مطبعة دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٦٦ هـ — ١٩٤٦ م ، ستة أجزاء.

٧٨ — المفردات فى غريب القرآن : تأليف أبو القاسم الحسين بن محمد ابن الفضل الراغب الأصفهانى ، المطبعة الميمنية بمصر ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٢٤ هـ — ١٩٠٦ م .

٧٩ — المقتبس : مجلة شهرية كانت تصدر فى دمشق ، اصاحبها محمد كرد على. بدأ صدورها سنة ١٣٢٤ هـ — ١٩٠٦ م .

٨٠ — المقتطف ، مجلة شهرية كانت تصدر بالقاهرة ، لصاحبها يعقوب صروف ، بدأت فى الصدور سنة ١٨٧٦ م — ١٢٩٣ هـ ، توقفت عن الصدور فى نهاية سنة ١٩٥٢ م — ١٣٧٢ هـ .

٨١ — المنار : مجلة شهرية كانت تصدر بالقاهرة ، لصاحبها السيد محمد رشيد رضا ، بدأت الصدور سنة ١٣١٥ هـ — ١٨٩٧ م . وتوقفت سنة ١٣٥٤ هـ — ١٩٣٥ م .

٨٢ — مناهل الأدب العربى — رقم ٢٨ — الأمير شكيب أرسلان : مقطوفات من كتابة شكيب أرسلان ، نشر مكتبة صادر ببيروت ، مطبعة المناهل ببيروت ، الطبعة الأولى ، سنة ١٩٥٠ م - ١٣٧٠ هـ .

٨٣ — منبر الشرق : جريدة أسبوعية كانت تصدر فى القاهرة ، لصاحبها على الغاياتى .

٨٤ — النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى ، تأليف زكى مبارك ، مطبعة السعادة بمصر ، الطبعة الثانية ، سنة ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م ، جزآن .

٨٥ — النقد التحليلى لكتاب فى الأدب الجاهلى : تأليف محمد أحمد الغمراوى ،

وبأوله مقدمة طويلة لشكيب أرسلان فى ٥٦ صفحة ، المطبعة السلفية بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٤٧ هـ - ١٩٢٩ م .

٨٦ — النهاية فى غريب الحديث والأثر : تأليف مجد الدين أبى السعادات المبارك محمد بن محمد الجزرى المعروف بابن الأثير ، المطبعة العثمانية بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣١١ هـ - ١٨٩٣ م .

٨٧ — النهضة العربية فى العصر الحاضر : محاضرة ألقاها شكيب أرسلان فى دار المجمع العلمى العربى بدمشق فى أكتوبر سنة ١٩٣٧ ، وطبعتها مطبعة دار النشر بمصر ، وقد عنيت بطبعها ونشرها إدارة جريدة الجزيرة بدمشق ، وليس على الكتاب سنة الطبع ، ولكن يظهر أنها سنة ١٩٣٧ م - ١٣٥٦ هـ .

٨٨ — الهلال : مجلة شهرية تصدر بالقاهرة ، لمؤسسها جورجى زيدان ، بدأت الصدور فى سبتمبر ١٨٩٢ م - ١٣١٠ هـ (روجعت حتى وفاة شكيب) .

٨٩ — الوحدة العربية : محاضرة ألقاها شكيب أرسلان فى النادى العربى بدمشق ، فى ٢٠ سبتمبر ١٩٣٧ م ، وطبعت فى مطبعة الاعتدال بدمشق ، نشر محمد ياسين عرفة صاحب مكتبة عرفة بدمشق ، الطبعة الأولى . سنة ١٩٣٧ م — ١٣٥٦ هـ .

٩٠ — الوحدة فى الشرق : تأليف محمد حسن الأعظمى ، وعبد الكريم محمد ، طبع مطابع دار الكشاف ببيروت ، الطبعة الأولى ، سنة ١٩٥٠ - ١٣٧٠ هـ .

٩١ — وسائل تقدم المسلمين : تأليف أحمد الشرباصى ، مطبعة دار العالم العربى بالقاهرة ، نشر مؤسسة المطبوعات الحديثة ، الطبعة الأولى ، سنة ١٩٥٩ - ١٣٧٩ هـ .

٩٢ — الوسيط . فى الأدب العربى وتاريخه : تأليف أحمد الإسكندرى ومصطفى عنانى ، طبع دار المعارف بمصر ، طبعة سنة ١٩٤٨ م - ١٣٦٨ هـ .

فهرس الأعلام[1]

---

(١) جريت فى هذا الفهرس على حذف الألقاب من أوائل الأسماء مثل (السيد ، الشيخ ، الدكتور) وقد أذكر اللقب بعد ذلك إذا احتاج تعيين الاسم إليه ، وكذلك حذفت « ال » التى هى للتعريف ، وألف « ابن » فى الترتيب .

حرف الباء

حرف التاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الدال

حرف الراء

حرف الزاى

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

ص

حرف الياء

١

صواب الخطأ

ندت عن النظر عند المراجعة هفوات مطبعية لا يصعب على القارىء ملاحظتها عند التأمل ، ومن هذه الأخطاء ما يلى :

ص	س	خطأ	صواب
٣٣	١	فى هذا	وقد نظم شكيب فى هذا
٥٦٢	٩	الحلل السندسية	(١٩) الحلل السندسية
٧٠٣	٩	— ١٤ —	— ١٥ —
٧١٥	١	عبد المجيد	عبد الحميد
٧٦٤	١٤	بردى وكوثرها	بردى كوثرها

فهرس موضوعات الجزء الثانى

---

(١) سأشير الى أهم ما فى كل رسالة دون استقصاء .

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الملحق الثانى :

مقطوعات وأبيات :

مطابع دار الـكتاب العربى بمصر
محمد حلمى المنياوى
تليفون : ٩٠٩٠١١ — ٩٠٩٨٦٧ — ٩٠٩١٣٩